

التقصير

المؤلفون | يشعياهو بن - فورات • يهونتان غيفن • أوري دان • ايتان هيفر • حيزي كرمل • ايلي لنداو • ايلي تابور

ترجمة | مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت

التقصير

«المحدال»

ترجمة | مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت

سلسلة الدراسات رقم ٣٨

الطبعة الاولى

بيروت – ١٩٧٤

مؤسسة الدراسات الفلسطينية
طلعة جنبلاط ، شارع كليمنصو ، بناية الاشقر
ص.ب : ٧١٦٤ — برقياً : دراسات

تمهيد

تقدم مؤسسة الدراسات الفلسطينية ترجمة كاملة لكتاب « المحدال » ، (التقصير) ، الذي اختاره للترجمة قسم الدراسات الاسرائيلية في المؤسسة من بين عدد من الكتب العبرية عن حرب « يوم الغفران » ، وذلك للاسباب التالية :

١ — يؤكد الكتاب الحقائق الاساسية التي تنطوي عليها حرب تشرين الاول (اكتوبر) ، وأهمها كفاءة الجندي العربي ، وقدرته على القتال ، واستعمال السلاح بمهارة ؛ وسقوط ما أحاط بالانسان العربي كمقاتل وبسلاحه من تشويه ، بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

٢ — يمثل الكتاب شهادة اسرائيلية على هذه الحقائق ، شهادة تتسم بالكثير من العفوية . فمؤلفو الكتاب قدموا من تجربة النار تواً ، واصدروا كتابهم بعد الحرب مباشرة .

٣ — على الرغم من الايجابيات المذكورة اعلاه ، تعي المؤسسة ، وهي تقدم هذا الكتاب الى القارىء العربي ، المزالق التي قد تنجم عن ذلك . ولعل من واجبها ، على اي حال ، ان تشير بوضوح الى ان في الكتاب الغث والسمين . واذا كانت قد حرصت على ترجمة النص الكامل للكتاب ، فليس ذلك انسجاماً مع تقاليدها في الامانة العلمية فحسب ، بل أيضاً لان عملية الاختيار بحد ذاتها ، وفي مثل هذا المجال ، ستدخل في الحساب اعتبارات عديدة ، تفقد اي عمل جديته ، وبالتالي فائدته ، ولا تنم ، في مطلق الاحوال ، عن احترام لعقل الانسان العربي ، وحقه في الاطلاع على مصادر متنوعة (ومنها مصادر العدو) وتحقيقها ومناقشتها ومقابلتها . « فالمحدال » ليس مرجعاً تاريخياً عن حرب تشرين ، ولكنه جزء من مواد تلك الحرب ، يمكن اخضاعه للتحقيق والمقابلة بمواد من مصادر اخرى .

وليس المؤلفون من الخارجين على الصهيونية ، ولا هم تجمعهم فكرة مناهضة للأساس الذي تقوم عليه اسرائيل . وكتابهم ، « المحدال » ، هو اسرائيلي صميم . الا انهم ليسوا ابواق دعاية للمؤسسة الحاكمة ، او لمحور فيها ، ولا هم متآمرون معها على هذا الاخراج لحرب « يوم الغفران » . ففي كل صفحة من الكتاب اتهام جديد للقيادتين — العسكرية والسياسية ، في اسرائيل . وقد جاء تقرير « لجنة اغرانات » ، التي تولّت التحقيق في تقصيرات الحرب ، مدعماً للاتهامات التي يوجهها المؤلفون الى القيادات . وكذلك ، فان مسلسل الاحداث الداخلية في اسرائيل بعد الحرب ، خصوصاً الازمة التي تمر فيها المؤسسة الحاكمة هناك ، يدل على صدق الكثير مما جاء في الكتاب من التنديد بها .

ولئن اعرض الكتاب عن الاطراء على القيادات ، فانه لم يبخل على الجنود وصغار الضباط بالتهليل ، فهو يسوق الكثير من روايات « البطولات » الاسرائيلية ، التي لا يخفى ما فيها من مبالغة وغلو على القارىء . ولكنها باغلبيتها الساحقة « بطولات » فردية ، تجيء على خلفية اختلال النظام العسكري ، او انعدام التماسك بين عناصر الوحدة

العسكرية . و « البطولات » التي يشيد بها « المحدال » هي من مواقع الدفاع . وفي مجال انقاذ الجرحى ، وتخليص المصابين والمحاصرين ، وليس في اختراق الخطوط ، واكتساح المواقع وتدمير ارتال الدبابات ، الخ . و « بطل المحدال » ، على نقيضه في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، يبرز من خلال قدرته على الصبر في تحمل الصعاب ، وطاقته على الصمود في مكابدة اهوال الحرب . وبذلك تكون روايات « البطولة » الاسرائيلية في حرب تشرين (اكتوبر) شهادات قاطعة ، ولو غير مباشرة ، للمقاتل العربي الذي اذاق العسكري الاسرائيلي ، لاول مرة منذ حرب عام ١٩٤٨ ، طعم الحرب الحقيقية .

وخلافاً لما عهد من الكتب العبرية عن حروب اسرائيل السابقة ، خصوصاً ما صدر منها على اثر حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، « فالمحدال » لا يذهب الى تجسيد فكرة الاستيطان في العسكري الاسرائيلي . والقارىء لا يجد فيه ذلك المستوطن البهي الطلعة ، الذي يتدفق قوة وحيوية ، على ظهر دبابته ، يشق الهواء بمدفعها المصوب ، مقتحماً ومتحدياً ، وكأنه رمز الثقة بالنفس وتعبير السطوة . ولا يطالع القارىء قائد الطائرة النفاثة ، يجوب الاجواء مع اقرانه في تشكيلات هندسية دقيقة ، تنم عن الطمأنينة الى امتلاك ناصية العلم والتكنولوجيا . ولا يلتقي بالعسكري الاسرائيلي يقود مئات الاسرى من الجنود العرب الحفاة ، وانصاف العراة ، بينما هو في بزته العسكرية الانيقة ، كأنه تجسيد للنظام والتخطيط . فليس في « المحدال » شيء من صور حرب حزيران (يونيو) ، حيث العسكري الاسرائيلي ، الفارع الطول ، الممسك برشاشه ، يهيمن على مئات الاسرى العرب المنبطحين على الارض مستسلمين ، ولا ذلك الجندي العربي ، الذي قطع الاميال سيراً على اقدامه الحافية ، وعلى وجهه ترتسم كل معالم المعاناة . لم يترك الجندي العربي « حذاءه وراءه » في المحدال ، وانما ترك القائد الاسرائيلي باب حصنه مفتوحاً في جبل الشيخ وهرب دون ان يعلم رفاقه بذلك .

ان كون « المحدال » رواية اسرائيلية لبعض وقائع حرب تشرين (اكتوبر) ، غير موثوق من وجهة نظرنا ، بموضوعيتها ودقتها ، لا ينفي قيمة الكتاب ، كوثيقة اسرائيلية بالذات لتلك الحرب ومقدماتها . فهو يبرز التناقضات التي كان المجتمع الاسرائيلي يعيشها عشية الحرب ، ويكشف العديد من عورات الآلة العسكرية التي بناها ذلك المجتمع الاستيطاني ، وتحصن بها ، مطمئناً نفسه الى منعتها وقدرتها على ضمان أمنه وسلامه .

في نظرته العامة الى العدو الصهيوني ، تأرجح الرأي العام العربي بين تطرفين : استهانة الى حد الاستخفاف قبل قيام اسرائيل ، ومبالغة الى حد التهويل بعد حرب حزيران (يونيو) . الى ان جاءت حرب تشرين (اكتوبر) ، فابرزت المستوطن الصهيوني على حقيقته : عدو قوي ، لا تجوز الاستهانة به ، إلا انه اكيداً لا يستحيل قهره . وفي « المحدال » افضل شهادة على ذلك .

ايار (مايو) ١٩٧٤

قسم الدراسات الاسرائيلية
في مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مقدّمة

شاهدنا الحرب ،

شاهدناها تقترب ، ولم يصدق الكثيرون منا انها ستقع . وقد حذر آخرون منها وتمنوا ألا تصدق تحذيراتهم . شاهدناها تقع وتمنينا اللحظة التي تنتهي فيها . شاهدنا المقاتلين في أكثر ساعاتهم صعوبة ، وفي أكبر لحظاتهم وأشدها ايلاماً . شاهدنا معارك الحرب وميادين القتل ، وغرف العمليات ، والشعب في الجبهة الداخلية . شاهدنا ولم نصدق ما تشاهده عيوننا .

ان كل واحد منا شاهد الحرب من زاوية مختلفة ، ونظر اليها بمنظار مختلف . ونحن كصحافيين ، قريبين من موضوع الامن منذ سنوات ، سنحت الفرصة لبعضنا بمشاهدة الحرب وأهوالها ، حتى بوجهها المجهول والمستتر عن نظر الكثيرين .

عدنا من الحرب ووجدنا أنفسنا جزءاً من شعب حزين ، ومصدوم ، وحائر تساوره التساؤلات . عدنا الى منازلنا والى اعمالنا العادية ووقفنا حائرين إزاء هؤلاء الذين يريدون السير وكأن شيئاً لم يحدث ، وكأن هذه الحرب لم تقع ، وكأنها لم تغيرنا جميعاً . ووقفنا مذهولين أمام محاولات الاخفاء والتشويه والتغطية على التقصيرات التي أدت الى هذه الحرب التي جعلتها تقع كما وقعت ، وتنتهي كما انتهت ، وامام منظر قادة يسعون الى التملص من مسؤوليتهم عن هذا التقصير الرهيب .

عدنا من الحرب والتقينا : سبعة صحافيين من ثلاث صحف مختلفة ، « صقور » و « حمائم » ، وأصحاب آراء سياسية متناقضة ، وأصحاب وجهات نظر اجتماعية مختلفة ، ومن بيننا أيضاً من كتبوا في صحفهم ، في السنوات الاخيرة عن اقتناع ، مقالات عديدة ساهموا بواسطتها ، دون وعي ، بإشاعة الطمأنينة ، والاستخفاف بالعدو ، والاعتداد بالنفس ، وبتجاهل الواقع ، وبسائر العوامل التي تجمعت فيما يسمى اليوم المحدال « التقصير » . ومن الجائز جداً أننا لم نقم دائماً بواجبنا ، كصحافيين ، ولذا فنحن نتحمل قدراً من المسؤولية لا يقل — ولكنه لا يزيد أيضاً — عما حدث .

ان ما يجمع بيننا هو الاعتراف المشترك بأنه من المستحيل تجاوز ما حدث ، ومن المستحيل مواصلة إخفاء الحقيقة المجردة ، ومن المستحيل ان نحجب عن الجنود والمواطنين

حقهم الاساسي — المعرفة . وحق الجنود ، الذين خرجوا من منازلهم ومن أحضان عائلاتهم مباشرة الى خط النار ، ان يعرفوا ما حدث وكيف حدث ، ليس بأقل من حق أصحاب السلطة . وللوالدين والزوجات والابناء الذين رافقوا ، بفكرهم القلق ، أعزاءهم حتى وقف النار ، ان يعرفوا الحقيقة ، مهما كانت مرة ، كي لا تعود دولة اسرائيل ابداً تواجه وضعاً كذاك الذي واجهته في يوم الغفران ١٩٧٣ ، في الساعة ١٤,٠٠ بعد الظهر .

نحن لسنا لجنة تحقيق ، ولا ندعي اننا نصدر الحكم . اشتركنا في وضع هذا الكتاب ، الذي لم يكن الغرض منه ان يصبح « كتاب حرب آخر » . وهو ليس قصة حرب يوم الغفران ، وليس بحثاً تاريخياً ، انه عمل صحافي ، محدود بضغط الوقت ، وظروف النشر القائمة في الدولة ، حاولنا ان نطرح فيه ، بقدر الامكان ، نظرات مختلفة الى الحرب ، ونصف التقصيرات وخلفيتها ، ونتقصى جذورها بقدر ما يسمح لنا بذلك . وهو ليس على أي حال صورة شاملة ودقيقة لما حدث ، مع اننا لم نألُ جهداً للتوصل الى كشف الحقيقة . على الرغم من جميع هذه القيود ، فاننا مقتنعون ومؤمنون بأن من واجبنا ، كصحافيين ، ان نروي ما نعرفه ، ونحاول ان نشرح ، من وجهة نظرنا ، كيف امكن حدوث مثل هذه التقصيرات الخطرة . ان احد الفصول في هذا الكتاب ، الذي يشذ في أسلوبه عن سائر الفصول ، هو فصل ذو نظرة شخصية يشتمل على انطباعات وأحاسيس ومشاعر محض خاصة ، لجندي مقاتل ، وهو كاتب أيضاً .

كنا سنشعر بذنب المشاركة في مؤامرة السكوت والاسكات ، التي تدبر في ضوء ما حدث ، وكنا غير أوفياء لضميرنا الصحافي وواجبنا كمواطنين لو لم نكتب هذه الاشياء الواردة في هذا الكتاب .

« المؤلفون »

وثيقة

اسمي ايلي ، ولكن هذا لا يهم ، فانتم على أي حال لن تنشروا اسمي . ابلغ من العمر ٢٦٠ سنة ، وانا اليوم طالب . انني اكرهكمّ ، انتم الصحافيون الذين ترتزقون من الجثث ، وتمجدون الحرب بكلمات كبيرة وطنانة . لن انسى لحظة عدت من المعركة على مفترق طرق الرفيد في الهضبة . كان على دبابتي ١٤ جريحاً ، استطعت انقاذهم من داخل بقية دبابات السرية ، التي لم يبق منها جميعاً سوى دبابتي . وعندما وصلت الى محطة نقل الجرحى ، مصطحباً الجرحى الذين ينزفون الدماء ، واعضاء اجسادهم مهشمة ، هرول نحونا مصور وصحافي من التلفزيون ، احدهما يضع نظارة (وهو غير الذي يذيع من الكنيست) . وببهجة الابداع اخذا يصوران الجرحى . تمنيت في تلك اللحظة ان اطلق النار عليهما ، على هذين المخلوقين اللذين يغترفان قصصاً فظيعة من فلول العائدين من المعركة ، ويجلسان كغربان الجيف في محطة نقل المصابين ينتظران العائدين .

من هو البطل ؟ لا أعتقد انني بطل ، جميع الابطال الذين كانوا معي قد ماتوا . انني مجرد ضابط مدرعات يريد ان يعيش ، وادركت انني سأكون المصاب المقبل اذا لم اواصل السير وإطلاق النار . ومن يقاتل من أجل هذا الشعب حقاً ؟ ربما عشرة في المائة من الكومة التي يسمونها «تساهل» [الجيش الاسرائيلي] ، وخصوصاً أطقم الدبابات . وكم يوجد مثل هؤلاء ؟ اذا كنتم تعتقدون ان جميع هؤلاء يقاتلون فانتم مخطئون . هناك بضعة افراد في كل سرية ، وهناك المرتبكون ، والمترددون ، والذين يحاولون انقاذ حياتهم . وغالباًما يكون ذلك متأخراً جداً ، فيصابون كالجميع . لاحظوا من يُقتل ! نصف القتلى تقريباً من الضباط . فكروا في ذلك : ربما عشرة في المائة من المقاتلين هم من الضباط ، ومن القتلى عدد أكبر من الضباط !

أقول الحقيقة ، تحطمت بسبب ذلك ، اشتركت في ثلاث حروب : حرب الايام الستة ، وحرب الاستنزاف ، وهذه الحرب . وعندما سمعت من الاذاعة عن هذه الحرب ، أخذت ارتعد . كنت واثقاً بأنه سيقضى علي هذه المرة ، ولن أكون قادراً على التملص من ملاك الموت . خلال حرب الاستنزاف أُصبت بشظايا في جبيني وعنقي ، وارتطم

عمودي الفقري بمؤخرة الدبابة بقوة ١٥٠ كيلوغراماً . وكان من المحتمل ان أُصاب
بشلل كامل . ولكن كنت ، في ذلك الحين ، أصغر سناً . خلال حرب الايام الستة
كنت مع احود ألعاد ، اذا كنتم قد سمعتم به – كان قائد كتيبة مدرعات عندنا –
وقد عبرت معه الجرادة . وقد كتب عن ذلك فصل كامل في كتاب « مكشوفون في
برج دبابة » . آنذاك ، اعتقدنا انه لن يكون هنالك أسوأ من هذه المعركة ، وكنا نرتعد
من شدة قصف المدفعية المصرية الذي نزل علينا كالمطر . وهذه المرة ، عندما أطلقوا
نيران المدفعية ، نظرنا الى ذلك بابتسام . هذه المرة نزل علينا كل شيء ابتكره الانسان
ليقتل به أخيه الانسان : مـــدافع ، دبابات ، مدافع عديمة الارتداد ، مدافع مضادة
للدبابات ، مدافع هاون ، اسلحة خفيفة ، وكل ما تريدونه . وعندما اتذكر ما علّمونا
إياه عن قتال موشيه بريل على سد «الروافا» في قادش(*) ١٩٥٦ ، تأثرنا كلنا بالبطولة .
اما اليوم فذلك يضحكنا . كل موقع محصن في هضبة الجولان كان بحد ذاته معركة
أصعب بأضعاف المرات من أمر بريل هذا . ولو فعل أفراد أطقم الدبابات ، في الحروب
السابقة ما فعلوه هذه المرة ، لقُبِّلتْ أرجلهم ولأغرقوا بالميداليات .

خلال حرب الاستنزاف ،كنت أصغر سناً ، وأكلت خ... في الحصن شمالي القناة .
في الموقع الذي بقي معزولاً بضعة أيام ، وكان من المستحيل إيصال التموين اليه .
ما الذي لم يجرب : على ظهور الجمال عن طريق المستنقعات ، وعلى ظهور المظليين ، الخ .
كنا معزولين في الموقع ، حتى ان جثث رفاقنا القتلى كانت معنا . وقد أُصبت بالصلع
نتيجة ذلك ، اذ لم يكن طعامنا يحتوي على شيء من الفيتامينات . صدقوني ، انه
لا يوجد في عائلتي من لديه استعداد للصلع . ولكن ادركنا ، آنذاك ، ان بامكاننا تناول
وجبة غذاء ، اذا تحركنا ٢٠٠ متر الى ما وراء القناة ، الى الخنادق . واليوم يصعب
وصف ذلك ، نظراً الى انه لم يبق من الوحدة بأسرها سواي وقائد السرية . وقد تلقى
قائد السرية إصابة من ميغ نزلت عليه بسرعة خاطفة ، على ارتفاع ٥٠ متراً منه ، ولم
يرد الدخول الى الدبابة بعد ذلك . وبدا لي الأمر من الخارج أقل وطأة . فواصلت
السير كي انقذ الزملاء من باقي الدبابات المصابة . في هذه الاثناء ، استدعيت طائرات
الفانتوم لتساعدنا في هذه المعركة الرهيبة ، وهنا وقع الحادث الذي كاد يحطمني تماماً .
فبسبب الارتجاج الناتج عن السير ، سقطت شارة دبابتي المخصصة لسلاح الجو . ويبدو
ان إحدى طائرات الفانتوم ظنت انني انتمي الى العرب ، فقذفتني بصاروخين ، لا
أدري ... وبأعجوبة سقطا على بعد ثلاثة أمتار من دبابتي . ونتيجة الانفجار الهائل ،
طارت مؤخرة الدبابة ، وسببت « رضة » قاسية في ظهري ، هذا الظهر الذي تلقى ضربة
سابقة ، خلال حرب الاستنزاف ، وكان الاطباء قد حذروني من الشلل النصفي .

(*) حرب ١٩٥٦ – المترجم .

ولكن ما حطمني تماماً ، هو انني عندما أبلغت قائد كتيبتي ان طائرات الفانتوم اغارت
علي ، قال لي بلامبالاة غريبة : « ماذا ، ألم تصبك ! على غير عادتها ! » .

عندما وصلت الى مركز نقل الجرحى ، كنت لا أزال غير قادر على تحمل منظر
وحدتي ، وهي مسحوقة ومضروبة ، خصوصاً وقد قتل اوري . كان اوري صديقي منذ
طردنا معاً من دورة طيارين . واشتركنا معاً في دورة قادة دبابات . كان في سني . وهو
جذاب جداً . وكان قد طلب مني ، عندما تزوجت قبل أربعة أشهر ، ان اعزف عن
الحديث عن سخافات الزواج . وها هو الآن يعد بعدم الزواج . وفي إحدى نقاط التجمع .
أشاهد وجهاً أعرفه . قال انه أرسل ليغني . سألته من يكون . وعندما قال اسمه ، انفجر
الجميع بالضحك . قلت له ان يذهب الى الجحيم ، وان يغني في البيت . ماذا يعتقدون .
أيبقى عند أحد طول أناة للاستماع الى أغاني الحرب هذه ، في وسط هذا الجنون .
بينما الجميع من حوله يقتلون ويجرحون . صدقوني . لا يعرف أحد سوانا ما هي الحرب .
ماذا يعني ان عليك أن تتشجع . ليس جسدياً فقط وانما فكرياً أيضاً حتى لا تكون
اول من يخترقه رصاص السوريين . قصف المواقع ليس حرباً ، فقد تُصاب وقد تنجو .
لكن عندنا ، من يتردد لحظة واحدة ، ومن يصعب عليه التفكير بسرعة ، تتلى عليه
« صلاة الموتى »

روى لي والدي أنه مر بأربع حروب . اجل ، في الحرب العالمية الثانية ، حين
كان حارساً في معسكرات الصرفند . وفي حرب التحرير كان محاصراً في بن – شيمن ،
حتى انه شاهد بعض القذائف . انظروا ، صنعوا من حرب التحرير امراً جللا . تعالوا
نأخذ ، مثلاً ، المعارك الكبرى للقوافل التي خرجت الى القدس في أثناء الحصار . مفخرة
حرب التحرير . ماذا جرى فيها ، اطلقوا النار قليلاً ، وقتل افراد هنا وهناك . وخلال
سنة كاملة قتل هناك ما قتل عندنا في معركة واحدة .

ماذا أقول لكم . الحروب تتطور وانا ارتعد . سمعت ان الرفاق على القناة تلقوا
تلك الصواريخ . ماذا يسمونها ؟ صواريخ « ساغر » . نحن هنا لم نعرف ذلك . وربما
عرفنا . من يعرف ماذا أصاب الدبابة التي الى جانبه . على أي حال ، الخوف من هذه
الاشياء المتطورة لا يجعلني أخلد الى الراحة . انا اعرف ان المسألة مسألة وقت حتى اقتل .
وانتم تقولون انني فعلت ما فيه الكفاية ؟ وان اسمح للرفاق الآخرين بالاستمرار في هذا
الامر ؟ يا صاحبي ، كما اعرف نفسي ، اعرف انني سأعود الى الحرب المقبلة ، مهما
كان كرهي لها . لماذا ؟ لانني قائد دبابة ، ومررت بثلاث حروب ، واصبحت اقل
خوفاً من القذائف ، وعندي ميزة كبيرة بالنسبة الى كل شاب يأخذونه اليوم ليصنعوا
منه فجأة قائد دبابة .

لا أنسى انهم ارسلوا الينا ، خلال إحدى فترات الخدمة الاحتياطية الاخيرة في الضفة ، مظلياً ليشرح لنا معالم البلد . وبدأ هذا الولد يتكلم بحماسة عن الحرب المقبلة ، وكيف سنحتل دمشق . وأردت ان اضربه آنذاك . وربما لا تصدقون انني بينما كنت عائداً الى محطة نقل الجرحى ، مع ١٤ جريحاً على برج الدبابة ، رأيت دورية في سيارة جيب ، وتعرفت الى ذلك المظلي داعية الحروب ، تحت غطاء سميك من الاقذار . ذكرته بلقائنا السابق . وطلبت منه ان ينظر ملياً الى الرفاق على برج دبابتي ، وهل لا يزال متحمساً لهذا الامر ، لكنه خفض نظره حياء ...

« من مقابلة مع ضابط مدرعات
في هضبة الجولان »

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣

الفصل الأول

ظل نكبة

صرخ أحد ضباط الجبهة الجنوبية باللاسلكي ، الذي أوصله مباشرة بالمسؤولين عنه ، « الوضع ميؤوس منه ! الوضع ميؤوس منه ! » . وفي خندق القيادة الامامي في سيناء ، كانت جميع مكبرات الصوت ، المتصلة بشبكات الاتصال التابعة لقوات الجيش الاسرائيلي في جبهة قناة السويس ، مفتوحة . ومن كل واحد من مكبرات الصوت ، انطلقت بشائر السوء الواحدة تلو الاخرى .

سمع من أحد مكبرات الصوت صوت الجنرال ابراهام (« البرت ») مندلر ، قائد القوات المدرعة الاسرائيلية في سيناء ، « عندنا ثغرات كبيرة في القطاع الاوسط ، في القطاع الجنوبي تهاجمنا عشرات الدبابات » .

وبعد هذه الصرخة مباشرة ، طلب القائد ، لاسلكياً ، مساعدة جوية ، وهو يحاول جاهداً السيطرة على أعصابه . « يخترقون القطاع الجنوبي » ، البرت يتراجع الى محور العرض . « في القطاع الاوسط يستمر الاختراق الكبير . ليست عندي بعد صورة واضحة عن الوضع » .

انطلق من الجانب الآخر الرد المقتضب لأحد المسؤولين : « سندرس الامر . شكراً . الى اللقاء » . ولم يعدوه شيئاً بشأن إرسال الدعم الجوي ، ولم يصدروا أية بيانات . عاد الجنرال البرت الى اللاسلكي ، وكان التأثر بادياً في نبرة صوته هذه المرة . قال باختصار : « إذا لم ترسلوا لي الطيران ، سيسقط [القطاعان] الجنوبي والاوسط . ٢٠٠ دبابة على الاقل تتدفق في الوسط والجنوب . يجب إرسال الطيران ، وبصورة ملحة . لعل الطائرات توقف العبور » .

ووصل تقرير مشابه من القطاع الشمالي من القناة أيضاً ، حيث وصل الجنرال ابراهام (« برن ») أدان ، قائد القوات المدرعة الاسرائيلية ، كي يتولى بنفسه مسؤولية هذا القطاع .

قال « برن » باللاسلكي : « فرقة مصرية تتدفق في الشمال » .

سأل الجنرال غونين « برن » : « هل تستطيع الصمود ؟ »

تساءل « برن » بدهشة : « وماذا بشأن سلاح الجو ؟ »

أجابه غونين : « اعتقد ان سلاح الجو خرج لمجابهة الصعاب في الهضبة » .

ومن خلال أجهزة اللاسلكي الاخرى . تعالت أصوات الجنود المحاصرين والمطوقين في مواقع القناة المحصنة . صرخ قائد أحد المواقع : « تعالوا خذونا ! » . وقد تداخل صوته بصوت عامل لاسلكي من موقع آخر في القناة . قال : « عامل اللاسلكي يتكلم . المصريون في باحة الموقع ... ٨٠٠ رجل على الاسوار ... انني خارج الى القتال » .

سكت اللاسلكي ثم عاد بعد نحو ربع ساعة . وانطلق ثانية : « صديناهم ... عادوا الى هنا ... يطلقون النار على مدخل التحصين ... انني مغلق على نفسي ... هذا آخر إرسال لي ... المصريون يدخلون علي ويطلقون النار ... اخبروا والدتي انني قاتلت كالبطل ... » . ثم سكت اللاسلكي . وصل الى موقع القيادة في القطاع الاوسط ، احد قادة القطاع الذي كان جنوده يتمركزون في جزء من التحصينات على خط القناة . وكان عشية الحرب قد خرج في اجازة . وعندما علم باندلاع الحرب . سارع الى العودة الى خط الجبهة .

كان الموقع معزولاً . وكان الطريق اليه مغلقاً بالآلاف من الجنود . والعشرات من الدبابات المصرية . ولم يستطع القائد سوى سماع أصوات جنوده باللاسلكي . وقد رقد على الرمل . بالقرب من موقع القيادة . ودفن رأسه بين ركبتيه .

واصل الجنرال غونين إرسال تقاريره باللاسلكي الى القيادة العامة . واطلاعها على خطورة الوضع في الجبهة الجنوبية . وكان الجنرال غونين قائد الجبهة الجنوبية . التي حاول الجيش الاسرائيلي ان يصد منها زحف الجيش المصري . الذي عبر قناة السويس بجيشين مدرعين . وتأهب للاستمرار في اختراق شبه جزيرة سيناء . لا يستطيع احد ان يتهم الجنرال غونين بمس من الجبن او الهستيريا . فالجنرال . الذي يعتبر حصان حرب عتيقاً وصلباً عنيداً لا تبدو عليه قط علامات القلق . كان قد جابه . خلال ممارسته لمهنته العسكرية . اوضاعاً قتالية بدت له في البداية عديمة الامل . ولكنه خرج منها بسلام .

قبل ذلك بيوم . اي اليوم الاول من حرب يوم الغفران . عندما وصل غونين مع اركان قيادته الى موقع قيادته الامامي . المحصن والمحمي جيداً . تأهب فوراً ليتسلم تقريراً عن الوضع من قادة القوات . ومن بين الذين تحدث اليهم باللاسلكي . كان

الجنرال مندلر ، آمر قوات الجيش الاسرائيلي على امتداد جبهة القناة بأسرها حتى قدوم الجنرال غونين . وكانت صورة الوضع كئيبة جداً . وبعد انهاء حديثه ، سأل الجنرال البرت الجنرال غونين : « جنرال هل انت محمي ؟ » . « لا بأس » ، أجابه غونين ، « معي مدفع رشاش » .

لم تكن هذه مجرد فذلكة . فقد عكس جواب غونين الوضع الذي واجهه اركان القيادات الامامية على طول الجبهة المصرية ، وهم مستعدون للدفاع عن انفسهم من الدبابات المصرية ولو بأسلحتهم الفردية . وكان الوضع العسكري ، في الجنوب ، ميؤوساً منه ، بأي مقياس عسكري ، وحتى أسوأ من ذلك . ذلك ان القيادة العامة لم تستطع ان تقدم اي عون . فمنذ صبيحة يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، كان الوضع على الجبهة الشمالية ، على امتداد خط وقف القتال في مرتفعات الجولان بأسرها ، اخطر واحرج واصعب كثيراً .

في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، اجتاحت طلائع فرقة مدرعات سورية معسكر الجيش ، خشنية ، في وسط مرتفعات الجولان ، واخذت تتوغل في سفوح الهضبة متجهة نحو سهل البطيحة ، شمالي بحيرة طبريا ، حيث يصب نهر الاردن في البحر . ومرت الدبابات الاولى من هذه القوة بالقرية العربية المهجورة ، اليهودية ، ووصلت الى التلال التي تسيطر عـلى رأس الطريق الجديد الذي يصعد الى الجولان من شمالي بحيرة طبريا من جهة المغور .

وتوزعت المدرعات السورية ، وقوامها نحو ٦٠٠ دبابة ، التي اخترقت من ناحية مفرق الرفيد ، عند خط وقف اطلاق النار باتجاه وسط الهضبة ، الى ثلاثة ارتال . فبينما وصل الرتل الذي اتجه غرباً الى تلال سهل البطيحة ، التي تشرف على غور طبريا ، وصل الرتل الذي اتجه جنوباً الى القرية العربية ، العال ، فوق كيبوتس عين غيف الذي يقع على الضفة الشرقية لبحيرة طبريا ، وهو يشق طريقه نحو القلعة ، بالقرب من مدخل الحمة ، بهدف السيطرة على المحور الجنوبي المؤدي من الجولان الى غور الاردن . اتجه الرتل الثالث شمالاً ، باتجاه مفرق كفرنفاخ . ولم تواجه الارتال المهاجمة هذه ، في ذلك الحين ، أية قوة عسكرية اسرائيلية مهمة قادرة على وقف تقدمها ، ومنعها من القيام بحركة كماشة من ضفتي بحيرة طبريا في اتجاه مدينة طبريا ، ومن هناك الى غور الاردن ، حتى سهل بيسان . واقتربت الدبابات السورية بسرعة من مدى إصابة محطة الضخ التابعة لقناة المياه القطرية ، التي هي بمثابة القلب من شريان الحياة الرئيسي لدولة اسرائيل ، شمالي كيبوتس غينوسار .

ومن الجانب الغربي لبحيرة طبريا ، كان بالامكان رؤية عشرات الآلاف من القذائف التي انفجرت على خط القمم شرقاً . وكان الصدى البعيد للانفجارات يسمع

بوضوح ، وأحاطت الحرائق الضخمة التي اندلعت في الحقول والاشواك ، بحيرة طبريا ، بألسنة لهب ودخان هائلة جسدت الخطر الداهم بصورة جيدة .

وفي سفوح الجولان، وسهل الحولة ، وسهل طبريا ، وغور الاردن بدىء بالاستعداد السريع المرتبك لمواجهة ما هو أسوأ من ذلك كله : امكان نجاح الجيش السوري حقاً في اختراق تخوم دولة اسرائيل . من شمالي بحيرة طبريا وجنوبيها . ومنذ الليلة السابقة ، تم إجلاء سكان المستوطنات (المدنية) وشبه العسكرية التابعة للناحل ، والتي أُقيمت في مرتفعات الجولان . وكان قد وقع عدد منها في يد السوريين . وفي هذه المرحلة ، بدأت الاستعدادات على قدم وساق لاجلاء النساء والاطفال من المستوطنات الواقعة شرقي بحيرة طبريا وغور الاردن . وبدأ الرجال ، الذين بقوا في هذه المستوطنات ، يشكلون قوات مقاومة محلية ليوقفوا ، بواسطة الاسلحة الخفيفة وزجاجات « مولوتوف » ، تقدم الدبابات السورية نحو مستوطناتهم ، تماماً كما فعلوا قبل ٢٥ سنة ، خلال حرب استقلال اسرائيل .

في سنة ١٩٤٨ ، كانت مستوطنات المنطقة مراكز حدود . وأعدت لتكون شبكة دفاعية للمنطقة بأسرها هدفها صد الغزو . وفي ذلك الحين ، توقفت دبابات الجيش السوري عند أسوار كيبوتس دغانيا، بعد أن اشتعلت بنيران زجاجات مولوتوف ألقاها عليها السكان، الذين ركضوا مكشوفين نحوها . وفي ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، لم يكن وضع هذه المستوطنات أقل خطورة . فمنذ حرب الايام الستة ، ابتعد خط الحدود عنها ، ولم تعد مستوطنات حدود تعيش في ظل خط النار ، فتنفست الصعداء . ولم يخطر على بال أحد ، حتى في أكثر احلامه رعباً ، ان يجد نفسه مهاجماً مرة أخرى خلال سنوات معدودة . لذلك ، لم يكن لدى سكان هذه المستوطنات أسلحة ملائمة ومضادة للدبابات فحسب ، بل لم تكن عندهم أيضاً حتى أسلحة فردية .

لقد اعدت الجسور لتفجيرها . وطلبت نجدة من التراكتورات والجرافات لحفر القنوات الدفاعية . وفي غور بيسان ، اعدت خطط سريعة لتفجير برك الاسماك والمياه لاغراق الحقول بالمياه ، وإيقاف تقدم الدبابات السورية نحو مرج ابن عامر وحيفا بالسلاح الاخير : الوحل .

حتى لو نجح الجيش المصري على الجبهة الجنوبية في اختراق خطوط الجيش الاسرائيلي الدفاعية واتجه شمالاً ، لبقيت مدرعاته مضطرة الى قطع مسافة مئات من الكيلومترات ، خلال بضعة أيام ، على امتداد محاور طرق طويلة ومعرضة للضرب ، قبل ان تصل الى حيث تصبح المستوطنات الاسرائيلية الاولى في مدى نيرانها . اما هنا في الشمال ، فقد كان الخطر ملموساً أكثر . مسألة ساعات ، ولحظات . ولو انهار الجهاز الدفاعي للجيش الاسرائيلي في الجولان ، لأصبحت العشرات من المستوطنات الآهلة، الموجودة

ضمن مدى المدفعية السورية ، عرضة للنيران . ناهيك عن المستوطنات الاكثر بعداً في مرج ابن عامر ، التي كانت اهدافاً لصاروخ ارض – ارض من طراز فروغ ، الذي زرع الخراب والدمار .

وفي مساء ذلك اليوم ، الاحد ، كان القطاع الشمالي من جبهة مرتفعات الجولان في وضع صعب . وعلى خط وقف القتال ، استطاعت وحـدة مدرعات اسرائيلية عرقلة تقدم السوريين في محور دمشق – القنيطرة . ولكن في الساعة ١٦,٠٠ ، بدأ الرتل الشمالي من الفرقة المدرعة السورية ، التي اخترقت خط الحدود عند مفرق الرفيد ، الانقضاض على مفرق كفر نفاخ في الجانب الغربي من الهضبة ، ومنه زحف نحو جسر بنات يعقوب ، بهدف شطر الهضبة عرضاً الى جزأين . وفي حركة تطويق من الشمال الى الجنوب ، عبر تلال البازلت السوداء ، اخترقت الدبابات السورية معسكر الجيش الموجود في كفر نفاخ . وكان هذا ، في السابق ، مرفقاً عسكرياً سورياً تقوم عليه أبنية حجرية . وفي القاعدة الاسرائيلية القريبة من المفرق – قاعدة قيادة في المؤخرة كانت بعيدة نحو ٢٠ كيلومتراً عن خط وقف القتال وفيها وحدات قيادة وخدمات – تكاد تنعدم الدبابات لحماية افرادها ، الذين ذهلوا من انقضاض السوريين عليهم بحركة التفاف . وبدأ الجنود في مؤخرة الوحدات المدرعة ، التي قاتلت شرقي القاعدة ، ووحدات القيادة ، بالهرب مذعورين . وكانوا يدركون ، طوال الوقت ، انهم في المؤخرة ، فاذا بهم يجدون انفسهم فجأة في مواجهة جنازير الدبابات التي اندفعت دون توقف .

استطاعت قوة اخرى من الرتل السوري تخطي كفر نفاخ والاندفاع غرباً . نحو جسر بنات يعقوب . وهناك ، على مقربة من اطلال محطة الحدود زمن الانتداب ، في المكان الذي يسمى « دار الجمرك العليا » الذي يشرف على سهل الحولة ، وعلى شريان الحركة الرئيسي الذي يصعد الى مرتفعات الجولان ، واصلت الدبابات السورية ، المزودة بمعدات الأشعة تحت الحمراء التي تمكنها من القتال ليلاً ، خوض المعارك بعد هبوط الظلام أيضاً .

لقد سحقت بسرعة القوة المدرعة الاسرائيلية الصغيرة ، التي خاضت مع السوريين معركة صد وعرقلة ، تلك الحفنة من رجال المدرعات التي قاتلت ، احترقت في دباباتها ، وهي وحدها التي حالت بين السوريين ودولة اسرائيل .

في الساعة ٢٣,٠٠ تقريباً ، وبعد مضي سبع ساعات متواصلة على القتال ، اتصل قائد القوة الاسرائيلية ، الذي كان محاطاً بالدبابات المحترقة والتي كانت لا تزال تحترق وبجثث القتلى والجرحى بانتظار نقلها ، بالمقدم رفائيل (« رفول ») ايتان ، قائد قوات الجيش الاسرائيلي في مرتفعات الجولان .

« انتهى كل شيء ! اعتقد انه انتهى كل شيء ! » ، قال القائد بمرارة لـ « رفول » باللاسلكي ؛ فهم « رفول » فوراً . فقد كان مصير المعركة معلقاً بشعرة . ولو انتصر السوريون في هذه المعركة ، لكان الطريق أمامهم مفتوحاً الى جسر بنات يعقوب ، حيث لا يبقى سوى خطوة للوصول الى روش بينا ، وصفد وكريات شمونه والجليل الاعلى .

استمرت التقارير تصل ، طوال ذلك الوقت ، من المواقع المحاصرة التي بقيت خلف المدرعات السورية ، على خطوط وقف القتال . وجاء فيها ان السوريين يدفعون بفرقة مدرعات أخرى عن طريق جيب خشنية ، ويلقون الى المعركة في ذلك القطاع جميع قوات خطهم الامامي ، بهدف انهائها .

« لا تتحركوا ولو متراً واحداً ! » ، صاح « رفول » بالقائد بواسطة اللاسلكي . « خمس دقائق اخرى ! اصمد خمس دقائق اخرى ! » .

لم يعرف لماذا قال ذلك . ولم يكن بالامكان حدوث اي شيء خلال خمس دقائق. ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع ان يفعله تشجيعاً للمقاتلين الذين سدوا بأجسامهم وبما تبقى من معداتهم ، طريق السوريين الى قلب اسرائيل .

يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، خيّم ظل نكبة على دولة اسرائيل .

ومنذ طلوع فجر ذلك اليوم حتى غروب شمسه ، كان مصير اسرائيل ، كدولة ، متوقفاً على قدرة الصد . ولم تتعرض اسرائيل منذ أصبحت دولة مستقلة وذات سيادة ، وخلال خمس وعشرين سنة من قيامها ، لخطر الدمار بصورة ملموسة كما حدث في ذلك اليوم المصيري . « كان بيننا وبين القضاء علينا خطوة واحدة » ، هذا ما قاله ، في وقت لاحق ، بنحاس سابير وزير المالية في حكومة اسرائيل . وكما ان العقل البشري غير قادر أبداً على ادراك مفهوم الفناء الذاتي ، الموت الزؤام ، كذلك ترفض ايضاً « الأنا الجماعية » لشعب الاعتراف بامكان القضاء عليه . وهذا المفهوم لا يقوم أبداً في مجمل الامكانات الواقعية لابناء الشعوب الاخرى . فسكان دول ، كفرنسا والمانيا والاتحاد السوفياتي ، قد يدركون امكان الهزيمة العسكرية والاستسلام او الاحتلال ، ولكن لم يحصل ، عندما تعرضت بلادهم لأوضاع كهذه ، ان انطوى ذلك على تهديد لوجودهم القومي بكامله .

وحتى سكان اسرائيل ، الذين لا تزال فظائع الدمار الذي حل بالشعب اليهودي في الجيل الماضي ، محفورة في أذهانهم ، يصعب عليهم إدراك حجم الخطر الداهم .

في تلك الساعات من يوم السابع من تشرين الاول (اكتوبر) ، هدد اسرائيل خطر الهزيمة العسكرية الساحقة . ولم يكن لمثل هذه الهزيمة ، في المعطيات الخاصة لدولة

اسرائيل ، سوى معنى واحد : لا احتلال ، ولا فقدان الاستقلال ، بل محو الشعب ودولته من الخريطة . والهزيمة العسكرية هي آخر شيء تستطيع اسرائيل ان تسمح به لنفسها . وكان هذا تماماً ما واجهته الدولة خلال ثماني عشرة ساعة فقط بعد اندلاع حرب يوم الغفران .

خلال الساعات المصيرية ، التي كان فيها مصير دولة اسرائيل يتأرجح في كفتي ميزان ، كانت هناك قلة قادرة على تقويم خطورة الوضع . ان مئات الآلاف من جنود الاحتياط الذين جندوا وسط حالة من الذعر ، عاشوا في ذروة الانتظام السريع والخروج الى خطوط الجبهة . ووجد الكثيرون منهم أنفسهم في خط النار بعد مضي ساعات معدودة . وكانوا منهمكين في الاستعداد للقتال ، فلم يستطيعوا الالمام بالامور على علاتها ، كما تكشفت في الجبهات .

وارتسمت أيضاً في نظر مواطني اسرائيل ، الذين بقوا في المؤخرة ، صورة ساكنة وهادئة جداً . ولم ينظر الكثيرون الى ما حدث ، خلال الساعات الاولى ، إلا نظرة تجنيد احتياط عادي ، على الرغم من الذعر الذي كان يصاحبه . ولم يكلف الكثير من المجندين انفسهم عناء اصطحاب شيء سوى بزاتهم . وكانت النساء والامهات قلقات ، طبعاً ، من تعبئة الازواج والابناء الذين ارسلوا الى الجبهة بسرعة خاطفة . ان صفارات الانذار المتقطعة ، التي كانت تنطلق في الفضاء كل بضع ساعات ، أصابت السكان بالذعر وحملتهم على اللجوء الى الملاجىء . وكذلك ادخل تعتيم شوارع المدن، وقطع الكهرباء ، وهدير محركات الطائرات المقاتلة ، الدولة في جو الحرب . ولكن المسافة بين ذلك وبين ادراك حجم الخطر الذي يهدد البلد ، كانت شاسعة .

كانت عناوين الصحف الصباحية يوم الاحد ، السابع من تشرين الاول (اكتوبر) ، مشجعة وباعثة على الامل . « الجيش الاسرائيلي يصد العدو ، وهو على وشك الانتقال الى الهجوم المضاد » ، هذا ما أعلنه العنوان الرئيسي لصحيفة « هآرتس » اليومية ، على عرض الصفحة بكاملها . « الجيش الاسرائيلي يصد التوغل في سيناء » ، هذا ما بشر به العنوان الرئيسي لصحيفة « دافار » اليومية . ومن لم يستمع ، بين مواطني اسرائيل ، الى اقوال غولدا مئير ، رئيسة الحكومة ، التي أُذيعت من التلفزيون مساء اليوم السابق، تمكن من قراءة كلامها في الصحف .

قالت غولدا في حديثها المذاع ، « ان الجيش الاسرائيلي كان مستعداً ، وهو يصد الهجوم . اعتقد المهاجمون اننا لن نكون في يوم الغفران متأهبين للرد على الحرب بأشد منها ، ولكننا لم نفاجأ » . اما موشيه دايان ، وزير الدفاع ، الذي ظهر هو الآخر في التلفزيون ، فقد أدلى بتصريح مشابه لتصريحاته المتبجحة المتغطرسة ، المعروفة سابقاً : « سنضربهم ضرباً مبرحا » .

ولكن بينما كانت تصريحات غولدا مئير ودايان تنشر في الصحف بإسهاب ، كان كلاهما يشعر – بالاضافة الى الوزيرين يسرائيل غليلي ويغئال آلون ، اللذين يفترض ان يشكلا معهما القيادة المدنية للحرب – بكآبة عميقة نتيجة بشائر السوء التي كانت تتدفق من الجبهتين .

وفي ظهر يوم الاحد ، نزل دايان الى المركز الامامي للقيادة الجنوبية الذي يقع على بعد نحو ٣٠ كيلومتراً من القناة ، يرافقه الجنرال رحبعام (« غندي ») زئيفي ، الذي اعتزل منصبه كقائد للمنطقة الوسطى قبل بضعة أسابيع فقط ، للحصول على تقارير من مصدر أولي . ولم يخف عنه الجنرال غونين ورجال قيادته خطورة الوضع .

استمع دايان ، مقطباً ، وقد ارتسمت ابتسامة عصبية على زاوية فمه ، الى التقارير البائسة ، وتأمل الخرائط التي عرضت أمامه ، واستمع باهتمام بالغ الى الاصوات الصادرة عن اللاسلكي . وبعد ان ارتبك بضع لحظات ، اثار دايان امام رجال قيادة المنطقة الجنوبية ما سماه « مشورة وزارية » ، وهي : « إخلاء خط التحصينات على امتداد القناة بأسرع ما يمكن ، والتوقف عن خوض معارك المدرعات على هذا الخط ، وإقامة خط جديد لصد العدو « على سفوح الجبال » ، أي على بعد ٢٠ أو ٣٠ كيلومتراً شرقي القناة . « التحصينات ليست مهمة ، وليحدث ما يحدث » . ولم يدع دايان ، وهو يواصل مشوراته « الوزارية » ، أي مجال للشك : إذا لم تنجح محاولة إيقاف المصريين على خط الجبال ، فلا بد من الانسحاب الى عمق اكبر .

وقد حضر جزءاً من ذلك الاجتماع العقيد اوري بن – آري (بنر) ، ضابط مدرعات قديم ، جند للحرب كمساعد لقائد الجبهة . وقد تذكر بن – آري في وقت لاحق : [...](*) « كان شعوراً مصيرياً مخيفاً . كان هذا شعوراً بأننا نزداد صغراً ، وان المصريين يزدادون كبراً . وكل فشل لنا كان يفتح أمامهم جزءاً آخر من الطريق الى تل أبيب . كان عندنا إحساس بأن رجالنا من الاحتياط سيلتقون بالعدو في مكان ما من سيناء » .

ويصعب القول ان جولة دايان ، في الجبهة الجنوبية بعد عودته منها ، كانت مشجعة كثيراً . كما انه لم يكن قادراً على تشجيع من التقى بهم خلال تلك الساعات . فقد التقى بغولدا مئير ، رئيسة الحكومة ، وكان بين يديها مجمل أولي لخسائر الجيش الاسرائيلي في اليوم الاول من الحرب : نحو ٥٠٠ قتيل ، ونحو ١٠٠٠ جريح ، وعشرات الاسرى .

(*) هذه الاقواس تشير الى الكلمات او الجمل او الفقرات التي يبدو ان الرقابة العسكرية الاسرائيلية قد حذفتها من الكتاب . وقد اشرنا الى حذف كلمات من سطر بـ [...] والى أسطر او فقرة او فقرات بـ [.......]

كانت تكفي مقابلة هذه الارقام بارقام ضحايا اسرائيل في حروبها السابقة ، لتكوين فكرة عن حجم الكارثة . ففي حملة « قادش » ١٩٥٦ وخلال خمسة أيام من القتال ، فقد الجيش الاسرائيلي نحو ١٨٠ من جنوده . وقد وقع في يد المصريين آنذاك أسير واحد ، طيار . وفي حرب الايام الستة ، سنة ١٩٦٧ ، قتل على الجبهتين المصرية والسورية معاً نحو ٨٥٠ جندياً خلال ستة أيام من القتال ، ووقع في أيدي المصريين ، آنذاك ، ١٤ أسيراً فقط . وبلغة الصابرا العامية ، التي ربما لم تفهم غولدا معناها ، قال لها موشيه دايان : « اننا نفقد البيت الثالث » .

كان هذا تنبؤاً مريعاً ، عبّر جيداً عن وضع دولة اسرائيل يوم ٧ تشرين الاول (اكتوبر) . وفي أقل من ٢٤ ساعة ، تحولت اسرائيل من دولة عسكرية كبرى ، حتى بالمفاهيم العالمية ، دولة أصبح جيشها رمزاً ونموذجاً لجيوش العالم ، دولة احرز جيشها قبل ست سنوات فقط نصراً يعتبر من ألمع واكبر الانتصارات في تاريخ الحروب العصرية ، دولة بحسب تصريحات زعمائها « لم يكن وضعها العسكري افضل من ذلك » ، الى دولة تقاتل بشراسة من أجل وجودها بالذات ، بينما يخيم عليها شبح الدمار .

كيف يمكن ان يحدث مثل هذا التحول الكبير المذهل ، خلال ساعات قليلة كهذه؟

الفصل الثاني

لهم عيون ولا يبصرون

كانت ساعة « الصفر » قريبة جداً . فقد كانت خمس فرق مدرعة ، تابعة لجيش المانيا النازية ، منتشرة على طول نهر الفوغ على حدود بولونيا والاتحاد السوفياتي بحالة تأهب قصوى ، ومستعدة للانطلاق نحو الشرق . كان معروفاً منذ مدة ، في واشنطن ولندن وباريس ، ان حشد القوات وتعزيز الخطوط ، يشيران الى اقتراب الغزو الالماني لأراضي الاتحاد السوفياتي . ولم تكن موسكو تجهل ذلك . فقد كانت الصحف في بلاد محايدة ، كسويسرا ، تتنبىء يومياً باقتراب الغزو الالماني لروسيا .

وقد بعث ألكسندر — رادو ، العميل الرئيسي للمخابرات السوفياتية في أوروبا ومركزه الدائم جنيف ، الى المسؤولين عنه في موسكو بنصف دزينة من برقيات التحذير ، الواحدة تلو الاخرى . ولم يلتفت احد الى تحذيراته ، واختفت برقياته في أدراج المخابرات ، داخل ملفات كتب عليها بالحبر الاحمر : « معلومات غير موثوق بها » .

كما ان سيد الجواسيس السوفياتي ريكارد سورجي ، المقيم في طوكيو ، علم أيضاً باقتراب الغزو ، واعلم المسؤولين عنه في موسكو بالموعد الدقيق قبل اسابيع : ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ . جاء رد موسكو على سورجي بالرسالة اللاسلكية التالية : « نشك في صحة مصادرك » . وعندما حلّ كلاوزن ، ضابط الاتصال لدى سورجي ، رموز الرسالة التي وصلت من موسكو وقرأها على مسامعه ، صرخ سورجي : « لقد مللت ! لماذا لا يصدقونني ؟ كيف يتجاهل هؤلاء التعساء تحذيراتي ؟ » .

كما علم قائد « الفرقة الموسيقية الحمراء » في باريس ، قبل مدة ، بمخططات القيادة العامة الالمانية . ففي نهاية شهر نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، اعلم الكرملين اول مرة بوجود تحشدات عسكرية على طول الفوغ ، وبخطة هتلر الهجومية . وليئوبولد تربر ، وهو قائد « الفرقة الموسيقية الحمراء » (شبكة تجسس شيوعية — سوفياتية انتشرت في أوروبا الغربية ، وواصلت نشاطها تحت الاحتلال الالماني ايضاً) سمع اول مرة بخطة الهجوم

من احد افراد سلاح الهندسة الالماني . وكان قد وصل الى باريس من بولونيا وحدثه عن الاستنفار المعلن في الفرق التي عسكرت عند الفوغ . وكان مصدر معلومات آخر لتربر . وهو كولونيل نمساوي خدم في شعبة الامدادات التابعة للجيش الالماني في فرنسا، قد كشف لرئيس « الفرقة الموسيقية الحمراء » ، في ربيع ١٩٤١ ، ان عدد الجنود الالمان في فرنسا آخذ في التناقص ، وجميعهم ينقلون بسرعة بالقطارات الى الحدود الروسية . وفي منتصف شهر حزيران (يونيو) ، شرب ليئوبولد تربر اليهودي حتى ثمل في احد النوادي الليلية في مدينة الاضواء ، مع مجموعة من الضباط الالمان ، واندهش عندما سمعهم يقولون انهم يحتفلون بهزيمة الجيش الاحمر القريبة .

واعلمت شبكة « الفرقة الموسيقية الحمراء » موسكو مرتين ، خلال شهر حزيران (يونيو) ، بالغزو القريب . لكن موسكو لم تكلف نفسها حتى الاشعار باستلام التحذيرات . وقد جن جنون ليئوبولد تربر في باريس ، وكذلك رادو في جنيف ، وسورجي في طوكيو . في ٢١ حزيران (يونيو) ، ونظراً الى ان المسؤولين عنه في موسكو ، الذين لم يثقوا به ثقتهم بزملائه في سويسرا واليابان ، التزموا الصمت ، خالف تربر الحظر المشدد المفروض على كل جاسوس ، وسافر على عجل الى مدينة فيشي ، مقر حكومة فرنسا ايام الاحتلال ، وحيث توجد سفارة الاتحاد السوفياتي . وعند المساء ، قرع تربر باب الجنرال سوسلوفاروف ، الملحق العسكري السوفياتي ، وألح عليه قائلاً :

« لدي معلومات تفيد بأن الالمان ينوون الهجوم هذه الليلة . عليك نقل هذا ببرقية مستعجلة الى الكرملين ! » .

انفجر سوسلوفاروف ضاحكاً : « أجننت ؟ ! لا يمكن ان يحدث هذا ! انني ارفض نقل معلوماتك ، وذلك لمصلحتك ، فسيعتقدون في موسكو أنك مجنون ... » .

ولكن ليئوبولد تربر ألح عليه ، فبثت الرسالة ، والتقطتها موسكو في المساء نفسه . وبما ان تربر يعتبر عادة كمصدر موثوق به ، قدم رئيس المخابرات بنفسه البرقية ، بعد ان حُلّت رموزها ، « الى صاحب الامر » نفسه . نظر ستالين في البرقية ، وفكر قليلاً ، ثم قال : « اوطو (لقب تربر) يتمتع ، عادة ، بالحنكة السياسية . كيف لم يشعر ، هذه المرة ، بانهم نصبوا له مصيدة ، وانه وقع ضحية مؤامرة بريطانية دنيئة ؟ » . لم تتخذ أية استعدادات في الجيش الاحمر في أعقاب المعلومات والانذارات المتدفقة من عواصم العالم .

وفي صباح ٢٢ حزيران (يونيو) ، استيقظ ليئوبولد تربر من نومه ، في أحد فنادق فيشي ، على صوت صاحب الفندق الذي وقف أمام مطلع الدرج يبشر النزلاء : « سيداتي سادتي ، عبر الجيش الالماني هذه الليلة نهر الفوغ ، وغزا الاتحاد السوفياتي » .

وفي الليلة بين ٢١ و ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، بدأ ما سماه الالمان ، بشيفرتهم ، « عملية باربروسا » .

يقال ان التاريخ لا يعيد نفسه . التاريخ – ربما لا ، ولكن المهازل التي يصنعها التاريخ ، بما فيها من أحداث مأساوية دموية ، تعيد نفسها مرات لا تُعد ولا تحصى ، وعلى الرغم من ذلك لا يستفاد من دروسها .

لا يوجد أي شبه – لجهة المفهوم العالمي الشامل لمجريات التاريخ الرئيسية – بين احداث ١٩٤١ التي وقعت على حدود بولونيا والاتحاد السوفياتي وبين مجرى التاريخ الذي أدى ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، بخمس فرق مشاة واكثر من ألف دبابة مصرية الى عبور قناة السويس والتوغل في سيناء ، على الجانب الشرقي للقناة .

وكانت هناك ، منذ نهاية ١٩٣٩ حتى حزيران (يونيو) ١٩٤١ ، اتفاقية صداقة بين المانيا في عهد هتلر وبين الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين ، تضمن عدم اعتداء اي طرف على الطرف الآخر . ولا شك في ان زعيم الاتحاد السوفياتي ، والقيادة العامة للجيش الاحمر ، والمخابرات السوفياتية بمختلف أنواعها ، لم يثقوا بهتلر ، وكانوا يعلمون انه سيحاول احتلال بلادهم عاجلاً او آجلا . ولكن ستالين والمقربين منه ، الذين لم يكونوا يجرؤون على مخالفته ولو كانت آراؤهم مخالفة لرأيه ، كانوا يعتقدون ان المانيا لن تتفرغ للهجوم على الشرق قبل ان تنتهي من عملية الإبادة في الغرب . واكثر من ذلك : تمنى ستالين ، في قرارة نفسه ، ان يهاجم هتلر اولاً انكلترا لاحتلالها ، قبل ان يوجه جيوشه الى الشرق . وقد ارتكزت اعتبارات ستالين – التي كانت ، ويا للهول ، تستند الى التمنيات وليس الى الواقع – على الافتراض ان القوات الالمانية ستستنزف وتسحق في معارك الغرب قبل ان تتمكن من التوجه الى الاتحاد السوفياتي . وفي هذا الوضع ، يتمكن الجيش السوفياتي من إيقافهم وصدهم الى ما وراء نهري الفوغ واودير – نيسا . وكان المفروض بالجيش الاحمر ، في المرحلة الاخيرة من اندفاعه ، ان يسيطر على المانيا بأسرها ، ويهدد اوروبا الغربية .

اما الوضع في الشرق الاوسط ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، فقد كان مختلفاً تماماً . اذ لم تكن هناك بين مصر في الجنوب وسورية في الشمال وبين اسرائيل وسطهما ، أية اتفاقية صداقة . والعكس هو الصحيح . فجارات اسرائيل كانت في حرب مستمرة مع دولة اليهود ، على الرغم من وقف إطلاق النار الشكلي الذي وضع ، في آب (اغسطس) ١٩٧٠ ، حداً لحرب الاستنزاف التي كانت دائرة على ضفتي القناة . فمنذ ذلك التاريخ حتى اندلاع الحرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، لم تتوقف مصر وسورية ودول عربية أخرى عن الاعلان ، بين فترة واخرى ، انها تستعد لتجديد

اطلاق النار على جميع الجبهات ، لإجبار الاسرائيليين على الانسحاب الى حدود حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

ان الشعار الذي أطلقه الرئيس جمال عبد الناصر ، « ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » ، لم ينته بموته ، بل تبناه حرفياً وريثه في الحكم ، أنور السادات . ولكن ، في بعض الاحيان ، لم يعمل بهذا الشعار — لأغراض سياسية ، والأهم من ذلك للقيام بعملية تضليل لم يسبق لها مثيل في التاريخ . فقد تم تليينه ، وتغييره ، واعطاؤه تفسيرات جديدة ، حتى انه ، في لحظة معينة ، أخلى مكانه لاعلان السادات استعداده للتوصل الى سلام مع اسرائيل والاعتراف بحقها في الوجود .

وقد تم ، خلال السنوات الثلاث التي مرت منذ وقف اطلاق النار سنة ١٩٧٠ حتى اندلاع الحرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، تكريس جميع موارد مصر وسورية للاعداد لوضع الشعار القديم موضع التنفيذ، الى جانب مساندتهما ، طوال تلك السنوات ، لعمليات الارهاب التي قامت بها منظمات فلسطينية مختلفة ضد اسرائيل وضد أهداف اسرائيلية في العالم .

وهكذا ، نجد ان الشبه بين أحداث حزيران (يونيو) ١٩٤١ في أوروبا ، وبين الحرب التي اندلعت في الشرق الاوسط يوم عيد الغفران ، السبت في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ينحصر في نطاق ضيق ولكنه ذو أهمية كبرى في سلسلة اخطاء مأساوية في ثلاثة مجالات :

◦ خطأ الاستخبارات العسكرية ، اذ انها هي الجهة المسؤولة عن جمع المعلومات حول تحركات العدو واستخلاص النتائج .

◦ خطأ الجناح المدني — وهو حكومة اسرائيل ، او ، بصورة أدق ، « وزارة الحرب » المصغرة التي تشكلت بمبادرة رئيسة الحكومة وبمسؤوليتها الوحيدة — في تقويم الوضع ، فوقع في مصيدة الخداع التي نصبها العدو ، ولم ينتبه للتحذيرات المتتالية التي وصلته من مصادر مخابرات مختلفة .

◦ خطأ القيادة العليا في الجيش الاسرائيلي ، التي لم تنقض تقديرات الاستخبارات و « وزارة الحرب » . لم تهيىء نفسها كما يجب لهجوم شامل محتمل على كلتا الجبهتين ، ولم تعمل بسرعة وبفاعلية عندما فرضت الحرب فعلاً على اسرائيل .

كلما تعمقنا في استيضاح المسائل المختلفة في مجال الاخطاء المأساوية التي ذكرت أعلاه ، كلما تبلور وجه الشبه المدهش تماماً بينها وبين ما روي عن خطأ ستالين الفاحش سنة ١٩٤١ .

وكما ظهر التقصير في عهد ستالين سنة ١٩٤١ ، ظهر أيضاً في اسرائيل سنة ١٩٧٣ ، اولاً وقبل كل شيء ، نتيجة تقدير خاطىء للوضع ، في المجالين السياسي والعسكري ، الذي افترض انه لا يحتمل ان تشن مصر وسورية ، في المستقبل القريب ، حرباً شاملة على اسرائيل . ويجب ان نضيف الى ذلك عاملاً خاصاً — ميز النظرية العسكرية الاسرائيلية التي نشأت خلال السنوات التي سبقت حرب ١٩٧٣ ، وثبت عدم صحته في المرحلة الاولى من المعارك التي دارت في الشمال والجنوب — هو بديهية قدرة الجيش الاسرائيلي على مجابهة الجيوش العربية على جبهتين في وقت واحد، وصدها، والتمكن خلال ساعات او ايام من التغلب عليها وإبادتها .

ان جذور التقصير في مجالات الاستخبارات والحكومة والقيادة العامة ، بمفهومها العملي — ويجب تفريقها عن جذور التقصير السياسي الاكثر عمقاً — ربما تكمن في أحداث شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، عندما استغلت مصر (بمساعدة الاتحاد السوفياتي الفعالة) وقف اطلاق النار ، الذي وضع حداً لحرب الاستنزاف ، لمصلحتها . ففي الليلة الاولى لوقف اطلاق النار ، قامت مصر بتحريك دزينة من قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، من نوع سام ٢ وسام ٣ ، باتجاه الضفة الغربية للقناة . ومنذ ذلك اليوم ، بوشر في إقامة حاجز كثيف من الصواريخ بالقرب من القناة بسرعة متزايدة ، وغطى بمداه أيضاً مسافة ٢٠ — ٣٠ كلم على الضفة الشرقية ، ومنع سلاح الطيران الاسرائيلي من العمل بصورة فعالة في هذا القطاع منذ نهاية ١٩٧٠ ، وخصوصاً في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ . وبمرور الايام ، اتضح ان سلاح الجو الاسرائيلي ، الذي حقق انتصار الجيش الاسرائيلي الخاطف في حرب الايام الستة خلال الساعتين الاوليين من يوم ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ — عندما دمر معظم سلاح الطيران المصري وهو جاثم على الارض في قواعده — لم يكن قادراً ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، على صد الهجوم المصري بصورة حاسمة ، بسبب تراص الصواريخ المصرية .

وفي اليوم الثاني من الحرب ، اعلم موشيه دايان ، وزير الدفاع ، غولدا مئير ، رئيسة الحكومة ، بان « على سلاح الجو ان يقاوم بضراوة شبكات الصواريخ في كلتا الجبهتين » .

والدلائل الاولى للتقصير الاسرائيلي ، من ناحية عدم إعطاء الانذارات المتكررة الاكتراث الملائم (على غرار استخفاف السوفيات بالرسائل التي حذرت الكرملين ، سنة ١٩٤١ ، من هجوم ألماني) ، ظهرت بوضوح خلال شهري نيسان (ابريل) وأيار (مايو) ١٩٧٣ ، وبالتحديد خلال الايام العشرة التي سبقت الحرب .

فمنذ منتصف شهر نيسان (ابريل) ، بدأت تصل اسرائيل معلومات كافية لإقلاق القيادة العامة وكبار الوزراء في الحكومة ، عن استعداد حربي بارز في مصر . فوصلت

معلومات عن تحركات عسكرية كبيرة في مؤخرة الجبهة المصرية ، وعن تحريك قوات باتجاه القناة ، وعن التأهب على الخطوط الامامية ، وعن دلائل بارزة أخرى هناك . كل هذا أكد المعلومات الواردة من مخابرات مختلفة ، التي أشارت الى احتمال بدء مصر بالحرب خلال مدة قصيرة .

وقد أضيفت الى معلومات الاستخبارات المتراكمة ، التصريحات الرسمية للرئيس المصري أنور السادات ، التي أعلن فيها ، على مسامع كل من كان مستعداً لسماعه ، نيته شن الحرب . ففي ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧٣ ، شكل السادات حكومة مصرية جديدة . وجاء في التصريحات الرسمية ان « مهمة الحكومة الجديدة هي اعداد مصر للحرب القريبة » . وفي اليوم ذاته نشرت صحيفة « الاخبار » القاهرية مقالاً افتتاحياً ، جاء فيه « اننا نسير نحو معارك كبرى مع اسرائيل ، تتطلب منا اعداداً نفسانياً ومادياً » .

ومنذ ذلك اليوم ، لم يمر يوم واحد تقريباً إلا ونشرت فيه صحيفة من صحف العالم خبراً او تقريراً يتعلق بالحرب القريبة التي تنوي مصر شنها على اسرائيل . ففي ٢٨ أيار (مايو) ١٩٧٣ ، كتبت صحيفة « النهار » البيروتية تقول ان « نقل الجيش يتم ليلاً ونهاراً من القاهرة الى منطقة القناة ، واعلنت حالة التأهب القصوى في الجيش المصري لمواجهة امكان تنفيذ قرار مصيري ، قد يصدر في أية لحظة » .

اما في اسرائيل ، فقد رأت الجهات المسؤولة في المعلومات العلنية والسرية محاولة مصرية للضغط على اسرائيل بالتهديد بشن الحرب . ولم يتوقف السادات منذ ان تسلم الحكم ، بعد موت عبد الناصر ، عن التهديد بالحرب . وحتى انه كان في السنوات الاولى من حكمه ، يحدد من حين لآخر مواعيد وتواريخ لبدء الحرب ، واضطر بعد ذلك الى ان يوضح لشعبه سبب عدم تنفيذه جداوله الزمنية . وقد كانت كل خطبه المتعلقة بالحرب متشابهة . وهكذا توقف المسؤولون في اسرائيل ، بكل بساطة ، عن الاخذ بها بجد ، وتوقفوا عن التدقيق فيها لمعرفة مدى جديتها .

وبحسب المذهب السياسي والعسكري الذي ساد اسرائيل في تلك الايام ، لم يكن مقبولاً ان مصر تنوي بجد المبادرة الى حرب واسعة وشاملة . والحد الاقصى ، كما جزم الآباء الروحانيون لذلك المذهب ، بزعامة وزير الدفاع ، هو ان يحاول المصريون عبور قناة السويس في نقطة معينة ، بهدف إقامة رأس جسر موقت على ارض سيناء . لقد كانت قيادة الجيش ، ومعها اولئك الوزراء ذوو الحق في الاشتراك في المناقشات المتعلقة بالامن ، على ثقة من انه يمكن في هذه الحال ، وبمجهود صغير نسبياً ، دحر القوات الغازية الى ما وراء القناة ، قبل ان تضطر الدول الكبرى الى التدخل وفرض وقف اطلاق النار على الطرفين عن طريق مجلس الامن .

وعلى الرغم من ذلك ، اشعل « ضوء احمر » في القيادة العامة الاسرائيلية ، في شهري نيسان (ابريل) وأيار (مايو) . فقد استعد الجيش لمناورة مفاجئة في شبه جزيرة سيناء ، ذات هدفين : أ — مناورة استعداد وتحرك لعدة تشكيلات كان عليها في أي حال ، ان تجري مناورة ، بحسب خطة حددت سلفاً بموعد قريب من هذا الوقت . ب — الهدف الرئيسي ، ردع العدو .

لم يحدث ذلك أي رد فعل لدى المصريين مطلقاً ، ولو مصادفة . فقد استمرت مناورة القوات الاسرائيلية اسبوعين ، على منطقة واسعة من صحراء سيناء ، وعلى مرأى من المصريين المتمركزين في مواقعهم غربي القناة . ولكن السادات لم يكن ينوي أبداً البدء بالحرب في هذا الوقت . اما تأهب الجيش المصري فكان يرمي الى هدفين : التأكد من تدابير التأهب وعمل قيادات الفرق ، واختبار سرعة رد الفعل الاسرائيلي وطابعه . وقد لعبت المناورة المذكورة دوراً حاسماً في عملية التضليل العامة التي بدىء بها منذ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، أي منذ المرحلة الاولى لاستعدادات مصر لخوض حرب يوم الغفران . وقد قصدت مصر ان تجعل القيادة العامة الاسرائيلية تعيش على اعصابها ، وتفرض عليها استنفار الجيش الاسرائيلي بين الفينة والاخرى ، الى ان تتخدر في نهاية الامر ، يقظة المسؤولين عن أمن اسرائيل ، بتكرار هذا النوع من المناورات .

وهنا يجدر ذكر المعلومات المهمة التي سربت ، في الفترة القريبة من التاريخ المذكور أعلاه ، الى مجلة « نيوزويك » ، الاسبوعية الاميركية ، التي يعتبر رئيس تحريرها ، ارنو دو بورشغريف ، منذ مدة ، المراسل الاجنبي الاكثر حظوة لدى السلطة المصرية ، والذي بفضل مكانته هذه تسنى له دائماً الحصول على مقابلات شخصية مع الرئيس السادات . ففي الاسبوع الثاني والثالث من شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٣ ، نشر دو بورشغريف في البداية مقابلة مع الرئيس السادات . ثم نشر ، بعد ذلك ، سلسلة مثيرة من المعلومات التي استقيت من مصدر مصري كبير ، والتي اقرتها مصادر اميركية موثوق بها . فقد اعلن الرئيس السادات ، في تلك المقابلة ، انه ينوي القيام بعمل عسكري محدود ضد اسرائيل في موعد قريب . وفي مقال نشره دو بورشغريف ، في الاسبوع الذي تلا نشر اقوال السادات ، اعتمد على مصادر في واشنطن أكدت نوايا السادات . فقد نقل ، عن لسان هذه المصادر ، انها « تميل الى الاعتقاد ان الحرب ، التي ستندلع قريباً ، لن تكون محدودة بل شاملة وعنيفة » . واشار الى « جبهة النفط أيضاً » . أي ، ان امارات النفط وكذلك الجزائر وليبيا ستدعم الحرب في ميدان القتال بفصم اوروبا والولايات المتحدة عن مصادر الذهب الاسود الموجودة في الشرق الاوسط .

وقدر دو بورشغريف ، في مقاله المذكور اعلاه في « نيوزويك » ، ان اسرائيل ستوجه ، طبعاً ، ضربة قاضية موفقة الى الجيش المصري ، وسيهتف لها العالم بانفعال

كما حدث في ١٩٦٧ . ولكن الانعكاسات السياسية للحرب الوشيكة على الشرق الاوسط كانت قد بدأت تلوح في الافق . وكما جاء ، في مقال دو بورشغريف ، « ان المعالجة بأسلوب الصدمة » ، اي الحرب ، ضرورية لمصر لتفرض على الدول الكبرى التدخل لوقف المعارك ، ثم فرض حل يجبر اسرائيل على الانسحاب الى حدودها القديمة .

كذلك فقد كان رئيس الاركان الاسرائيلي على حق ، عندما أعلن ، في ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ ، في ذروة التوتر ، على مسامع مراسلين محليين وأجانب ، انه « لا يعقل ان يبدأ المصريون باطلاق النار ، لان مثل هذه الخطوة تعرضهم لمخاطر كبيرة . ومع ذلك يجب ان نكون مستعدين حتى لاعمال غير معقولة من جانبهم » . وقد وجد ، آنذاك ، مراسلون اسرائيليون ومعلقون اجانب اتهموا الجنرال دافيد ألعازار « بالانجراف وراء جو الحرب » الذي اراد الرئيس المصري ان يخلقه في حينه لاغراضه الداخلية .

واليوم ، بعد حرب يوم الغفران ، يمكن القول ان رئيس الاركان لم يكن محقاً آنذاك ، في نيسان (ابريل) ١٩٧٣ ، عندما وثق ، الى حد ما ، بتهديدات السادات فحسب ، بل كان محقاً ايضاً عندما استنفر الجيش الاسرائيلي . وقد أدى هذا الاستنفار ، الذي كلف خزينة دولة اسرائيل بضع عشرات من ملايين الليرات ، الى انتقاد رئيس الاركان على تسرعه في تعبئة الاحتياط بينما لم تكن هناك في الواقع أية حاجة الى ذلك .

والحقيقة هي انه كلما كان السادات يكثر من نشر تهديدات الحرب — شخصياً او عن طريق جهات أخرى ، كانت ترشدها وتوجهها أجهزته في الجيش والادارة — كان يضعف استعداد اسرائيل للنظر بجد الى اقواله . وبينما كان الرئيس المصري يحاول باستمرار « تسخين » الجو في الشرق الاوسط ، كان رد الفعل الاسرائيلي الدائم : « هذا غير جاد . لن يحدث اي شيء » .

ان رد الفعل هذا — او بدقة أكثر ، عدم وجود رد فعل — كان النتيجة المرجوة لخطة التضليل المصرية التي أعدها ، بحسب جميع الآراء ، مستشارون سوفيات . ان هذا ، وهذا فقط ، هو اساس الكارثة التي حدثت في هضبة الجولان وسيناء في السادس من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

في الحقيقة أخذ الشرق الأوسط يتجه حثيثاً نحو الحرب منذ ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ . ففي ذلك اليوم ، اشتبكت دورية عادية لسلاح الجو الاسرائيلي ، غربي ساحل اللاذقية مع سرب من طائرات « ميغ » السورية . وظهرت هذه المعركة ، في بدايتها ، وكأنها اشتباك عادي ، ثم تطورت وأسقطت فيها ١٣ طائرة سورية . وخسرت اسرائيل طائرة واحدة ، انتشل طيارها من المياه بعملية مشتركة قامت بها الطوافات والزوارق البحرية ، وانقذ سليماً .

ومنذ مساء ١٣ أيلول (سبتمبر) ، بدأت حركة مستمرة ، في البحر والجو ، لنقل الاسلحة السوفياتية الثقيلة الى الجيش السوري . وكانت دورية طائرات سلاح الجو الاسرائيلي ، في ١٣ ايلول (سبتمبر) ، كما يبدو ، مكلفة بأن تتعقب عن كثب تحركات سفن النقل السوفياتية التي افرغت العتاد والدبابات والمدفعية والصواريخ في ميناءي اللاذقية وطرطوس العسكريين . ومنذ ١٤ أيلول (سبتمبر) كان بالامكان للمرة الاولى ملاحظة دلائل قاطعة اشارت الى تعزيز تدريجي واضح للخطوط السورية على امتداد حدود وقف اطلاق النار . ولم يتوقف الامر عند تحريك الدبابات وبطاريات المدفعية الكثيرة الى الجولان فحسب ، بل بدأت سورية أيضاً تعد بنشاط محموم البطاريات المضادة للطائرات شمالي خط وقف اطلاق النار ، وتعزز بطاريات الصواريخ حول مدن الجبهة الداخلية . وتم خلال أيام معدودة ، مضاعفة القوة السورية التي كانت متمركزة ومتخندقة على بعد بضعة كيلومترات من المراكز الاسرائيلية على الخط الامامي من الهضبة .

وقبل نحو اسبوع من عيد رأس السنة العبرية ، الذي بدأ في ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، شاع اول مرة في القيادة العامة للجيش الاسرائيلي وفي وزارة الدفاع ، وفي هاكيريا [دوائر الحكومة] في تل أبيب ، تقويم للاستخبارات تحدث عن « استعدادات وتعزيزات ضخمة » في الجانب السوري . وقد اشعل ضوء الانذار في الطابق الذي يشغله رئيس الاركان ووزير الدفاع . وطلب كلاهما الحصول على تقويم لمعنى الاستعدادات والتعزيزات على الحدود السورية .

اما شعبة الاستخبارات ، برئاسة الجنرال الياهو زعيرا الذي كان حديثاً نسبياً في وظيفته (والتي كان يشغلها قبله اهرون ياريف) ، فقد اعدت تقويماً مهماً ومحكماً . ولكن هذا التقويم — كما ثبت بعد فوات الاوان — كان مضللاً . وهذه خلاصته : نتيجة اسقاط طائرات « الميغ » السورية الثلاث عشرة ، في ١٣ أيلول (سبتمبر) ، افترض ان دمشق تخطط لعملية انتقامية محدودة ضد اسرائيل . ولكن دمشق تخشى ضربة اسرائيلية مضادة قاصمة رداً على الانتقام . ولهذا يحشد السوريون قوات معززة على الحدود ، أولاً لتنفيذ عملية الانتقام ، وثانياً لصد الانتقام الاسرائيلي المضاد .

وعلى الرغم من ذلك ، ساد القلق القيادة العليا للجيش وسلطات الامن على تجهيزات القوات الاسرائيلية في الجولان . وقبل رأس السنة بقليل ، عقد مرة اخرى اجتماع على نطاق ضيق عند وزير الدفاع ، اشترك فيه رئيس هيئة الاركان ، ونائبه الجنرال يسرائيل طل ، الذي كان يشغل ايضاً منصب رئيس شعبة العمليات ، والجنرال يتسحاق حوفي قائد المنطقة الشمالية ، والجنرال ألياهو زعيرا ، وغيرهم من كبار الضباط . وخلال المناقشة عرض قائد المنطقة الشمالية اوضاع قواته بالتفصيل . اما موشيه دايان ، وزير الدفاع ، الذي امتنع خلال السنوات الاخيرة من التدخل المباشر والفعال في الامور التكتيكية

واللوجستية المتعلقة بالجيش الاسرائيلي ، فقد اكتفى بطرح عدد من الاسئلة ، فهم منها انه لا يرتاح الى استعدادات القوات الاسرائيلية ، كما وصفت (« عندك ثغرات » ، قال دايان للجنرال) . وعلى أي حال ، اتخذ قرار بتعزيز المدفعية في الجولان وذلك بنقل عدد من البطاريات الموجودة في سيناء الى الهضبة .

وبعد انتهاء الاجتماع ، فاجأ دايان موظفي مكتبه باخطارهم انه سيقوم في اليوم التالي ، اي عشية رأس السنة [العبرية] ، ٢٦ ايلول (سبتمبر) ، بجولة تشمل خطوط وقف إطلاق النار في الشمال على امتدادها ، بما في ذلك زيارة مستوطنات الهضبة . وعندما لفت احد مساعديه نظره الى ان القيام بمثل هذه الجولات ، عشية رأس السنة ، غير ملائم كثيراً ، كشف دايان عن نيته : يريد ، من جهة ، الوقوف عن كثب وليس فقط من خلال خريطة القيادة ، على الاوضاع على الحدود الشمالية . ومن جهة اخرى ، يريد استغلال هذه المناسبة لتحذير سورية علناً من المجازفة بأي عمل .

واقترح المتحدث باسم وزارة الدفاع ، نفتالي لافي ، دعوة بعثتي تلفزيون ، واحدة محلية والاخرى اجنبية ، الى الحضور الى المستوطنات خلال زيارة دايان المخطط لها ، وبهذه الطريقة يتم نشر تحذير دايان للسوريين علناً . وقد وافق دايان على الاقتراح ، واتصل برئيس الاركان لدعوته الى الجولة في الجولان ، كما هو متبع . ولكن رئيس الاركان استبعد إمكان انضمامه الى هذه الجولة .

بدأت الهواجس تساور وزير الدفاع من امكان قيام السوريين باستغلال « جسر العطلة » الذي كان سيبدأ في اسرائيل عشية رأس السنة ، الاربعاء ٢٦ أيلول (سبتمبر) ، للقيام بعملية عسكرية محدودة . وبهذه الهواجس صعد الى الهضبة بطوافة برفقة عدد من المساعدين . وقد تجول في تحصينات الجيش الاسرائيلي ، وتفقد المواقع ، واهتم بمعرفة عدد الدبابات الموجودة على الخط الامامي .

اما قائد المنطقة الشمالية ، الذي انضم الى موكب الوزير ، فقد اطلعه على آخر التطورات . وكمية الدبابات القليلة – مجموعها ٧٥ دبابة – التي كانت منتشرة على الخط الامامي ، ادهشت وزير الدفاع ، الذي خرج حالاً عن مبدأ عدم التدخل في الشؤون التي هي من صلاحية القيادة العسكرية ، فأصدر تعليمات فورية الى قائد المنطقة بأن يستدعي فوراً من وحدات الاحتياط ، عدداً مماثلاً آخر من الدبابات ، وحتى اكثر قليلاً . كما اوصى بمضاعفة عدد الاسلحة الاخرى في الخط الامامي .

وفي الساعة ١٥,٠٠ وصل موكب وزير الدفاع الى مستوطنة عين زيفان ، حيث هنأ مواطنيها بالعيد . ثم قال ان مستوطنات الجولان تشكل ، بوجودها وبموقعها الطوبوغرافي ، خطاً أمامياً للجيش الاسرائيلي ، وتمنى ألا تكون هناك ضرورة لاخلائها في أثناء الحرب .

واستغل هذه المناسبة ليعلن ، أمام عدسات التلفزيون ، وجود حشود على الجانب الثاني من الحدود لا تقل عن ٨٠٠ دبابة و ٨٠٠ مدفع ، وان شبكة الصواريخ ارض – جو الموجودة على الجانب السوري تفوق بكثافتها كل ما هو معروف في هذا المجال في العالم بأسره . واضاف ان اسرائيل متيقظة للوضع . وهذه الاقوال ، بحسب رأيه ، يجب ان تكون اشارة كافية لدمشق لتعلم بأن الجيش الاسرائيلي متأهب وجاهز لمواجهة احتمال تجدد إطلاق النار .

وبينما دايان في الجولان ، بدأت تصل الى تل أبيب ، عشية العيد ، معلومات اولية من مصادر مختلفة ، اشارت الى ان هناك استعدادات للحرب في مصر ايضاً . وهذه المعلومات ، التي كانت قلة فقط في القمة تعرف مصدرها ، لم تؤكدها الاستخبارات العسكرية ، وكذلك لم يتم التحقق منها على الصعيد السياسي . وقد اثبتت استنتاجات الاستخبارات العسكرية ، عشية العيد وفي نهاية ذلك الاسبوع ، في ٢٨ و ٢٩ ايلول (سبتمبر) ، بوضوح ان « هناك حركة ما » في مصر ايضاً . لكن ، كان تقدير الخبراء ان « لا أهمية » لصورة الوضع التي ارتسمت ، وهي لا تكفي لتصديق المعلومات التي وصلت من المصادر الاخرى ، والتي اشارت ، حتى في تلك المرحلة ، ليس الى الحرب التي ستندلع فحسب ، بل الى تقدير موعدها القريب أيضاً . وبما ان الافضلية في تقدير الوضع العام اعطيت ، في هذه الحالة ، كما في حالات مشابهة سابقة ، للاستخبارات العسكرية التي هي أيضاً المسؤولة الوحيدة في اسرائيل عن تقديم مثل هذا التقدير ، وبما ان القيادة العسكرية والسياسية العليا كانت مقتنعة بأن العرب لن يبدأوا الحرب في موعد قريب كهذا ، فقد قبل استنتاج الاستخبارات العسكرية . وتجدر الاشارة الى ان سي . آي . اي . (وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية) تأثرت أيضاً ، بصورة حاسمة ، بتقديرات شعبة الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية . اذ انه ، بعد مدة قصيرة من الحرب في الشرق الاوسط ، طرد ضابطان ومدني ، على الاقل ، من مراكز رئيسية في المخابرات الاميركية ، نتيجة تقديراتهم الخاطئة . وكان خطأهم ، الى حد لا يستهان به ، نابعاً من تقديرات زملائهم الاسرائيليين الخاطئة .

وفي ليلة الجمعة ، ٢٨ – ٢٩ ايلول (سبتمبر) ، اجتمعت رئيسة الحكومة ، ويسرائيل غليلي الوزير بلا وزارة ، وناتان بيليد وزير الاستيعاب ، وموشيه دايان وزير الدفاع الذي مكث معهم بعض الوقت ، في مكتب السيدة مئير في هاكيريا بتل أبيب ، لتتبع أنباء الدراما التي كانت تجري في تلك الساعات في مطار فيينا ، حيث وقع عدد من المهاجرين من الاتحاد السوفياتي في يد مجموعة ارهابيين فلسطينيين . ولم يتطرق اي واحد من هؤلاء الوزراء ، الذين جلسوا معاً ، ولو تلميحاً ، الى تطورات الوضع على الحدود الشمالية وجبهة القناة في الجنوب .

وفي ٣٠ أيلول (سبتمبر) ، سافرت رئيسة الحكومة الى ستراسبورغ في فرنسا ، لالقاء خطاب سياسي امام البرلمان الاوروبي . وفي طريق عودتها ، مرّت بفيينا حيث مكثت يوماً واحداً ، قابلت فيه مستشار النمسا ، برونو كرايسكي ، الذي رضخ للارهابيين العرب وأعلمها أنه سيفي بوعده لهم باغلاق معسكر الانتقال ، شناو ، المجاور لعاصمة بلده .

وفي يوم الثلاثاء ، ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، عندما كانت السيدة مئير في طريق عودتها الى البلد ، تسلمت قيادة الجيش الاسرائيلي ووزير الدفاع معلومات أخرى من الاستخبارات العسكرية عن تعزيز المواقع المصرية في الضفة الغربية للقناة . كذلك وصلت من مصادر أخرى ، كما ذكر أعلاه ، تحذيرات وانذارات اخرى جاء فيها بوضوح ان القاهرة تستعد لبدء القتال . ولكن الاستخبارات العسكرية في اسرائيل ، والاستخبارات العسكرية الاميركية التي تابعت هي أيضاً تحركات الجيشين السوري والمصري ، قدرت كل على انفراد ان المقصود هو مجرد مناورات الخريف . على الأقل ، في الجانب المصري .

وقد كشف الفريق اول اسماعيل علي ، وزير الحربية المصري ، بعد الحرب ، ثلاثة من طرق التضليل التي اتبعها المصريون في تلك المرحلة ، على الاقل . فقد سرب الى صحيفة « الاهرام » أن ضباطاً وجنوداً مصريين ينوون السفر الى مكة ، المدينة المقدسة ، بمناسبة عيد رمضان . كما نشر ان وزير الدفاع الروماني سيزور القاهرة في ٨ تشرين الاول (اكتوبر) . اما في الميدان ، فقد تم تحريك ألوية مدرعة باتجاه القناة ، ولكن القيادة حرصت على ان تعيد كل ليلة من القناة كتيبة واحدة ، على الاقل ، من كل لواء ، حتى تعطي الانطباع بان كل هذه الحركة تجري في اطار مناورة في الخطوط الخلفية .

وقبل عودة رئيسة الحكومة من فيينا الى البلد ، عقد وزير الدفاع ثانية اجتماعاً عسكرياً على مستوى عال في مكتبه . وقد نوقش الوضع بتعمق ، ولكن احداً لم يفصح عن التخوف من ان تحركات الجيوش العربية هي للحرب وليس للمناورة . بيد ان دايان لم يخف قلقه ، وطلب تقويم الوضع خطياً ، ربما بسبب نظرته المتشائمة بصورة عامة . وقد جاء الاستنتاج الخطي ، الذي عرض عليه ، ملائماً للتقويم الشفهي . وملخصه ثلاث كلمات : « احتمال ضئيل للحرب » .

كما ان المعلومات ، التي تدفقت في تلك الاثناء من نقاط المراقبة على الخطوط الامامية في الجولان وعلى امتداد القناة ، لم تؤكد سوى المعلومات بشأن تعزيز خطوط العدو . وقليل فقط من رجال الاستطلاع من قوّم الوضع بصورة اكثر خطورة . فقد أفاد بعضهم في منطقة القناة ان المصريين مشغولون بتثبيت اوتاد في المياه . وقد اعدت هذه الاوتاد ، بحسب رأي رجال الاستطلاع اولئك ، لوضع معدات خاصة بإقامة جسور

على سطح الماء . ولكن يشك في ان تكون هذه التقديرات ، التي وصلت من درجة عسكرية منخفضة ، قد حظيت بأي اهتمام . وعلى الرغم من ذلك ، تجدر الاشارة الى ان المعلومات التي تجمعت من الاستخبارات العسكرية ومن الخط الامامي ، وصلت الى القيادة الجنوبية وزادت لدى بعض القادة الاحساس ، الذي بقي غير واضح حتى ذلك الحين ، باحتمال حرب قريبة . ولكن لم يعبر عن هذا الاحساس بصورة ملائمة في التقارير المرسلة الى الاركان العامة او بتأهب خاص على الجبهات .

وفي مساء الثلاثاء ، استدعي المراسلون العسكريون للصحف اليومية في تل أبيب ، لتلقي توجيهات أحد كبار الضباط . وقد أبلغ المراسلون ، بصورة عامة ، بحشود القوات على الحدود السورية والقناة . كما أبلغوا بالتقدير الذي وافقت عليه القيادة العامة ، ومفاده ان هناك « احتمالاً ضئيلاً للحرب » ، وانه « كما يبدو لن يحدث اي شيء » . وبناء على هذا التوقع ، دعي المراسلون أن يتوخوا في هيئات تحرير صحفهم الحرص ، بقدر الامكان ، على التخفيف من حدة الانباء التي استمرت في التدفق من وكالات الانباء في القاهرة ودمشق ، بشأن التوتر المتزايد على الحدود مع اسرائيل . وقيل للمراسلين انه « لا مصلحة لنا في تسبب التصعيد » . وفعلاً ، تم ابتداء من يوم الاربعاء ، في جميع الصحف الاسرائيلية ، التخفيف من حدة الانباء عن حشود القوات العربية على امتداد الحدود .

ويوم الاربعاء ، ٣ تشرين الاول (اكتوبر) . عقدت السيدة مئير ، التي عادت تواً من النمسا ، اجتماعاً على مستوى عال عرف في أوساط الجمهور ، خلال الحرب ، باسم « وزارة الحرب » . واشترك في هذا الاجتماع ، بالاضافة الى رئيسة الحكومة ، موشيه دايان وزير الدفاع ، ويغئال آلون نائب رئيسة الحكومة ، ويسرائيل غليلي الوزير بلا وزارة ، والجنرال دافيد ألعازار رئيس الاركان ، وكذلك الجنرال الياهو زعيرا رئيس شعبة الاستخبارات ، وأحد كبار ضباطه . وقد وصفت حشود القوات ، خلال النقاش ، بانها « معززة » ولكنها لا تتخطى الاستعدادات التي تتبع عادة في المناورات ، كما حدث احياناً في الماضي . وقد تم التأكيد ، مرة ثانية ، ان هناك « احتمالاً ضئيلاً للحرب » . كما اتفق على انه لا لزوم لدعوة الاحتياط . ولم يعترض على هذا القرار احد من الذين حضروا الاجتماع . وافادت شعبة الاستخبارات العسكرية انه سيكون بامكانها ، في أي حال ، ان تعمم انذاراً قبل ٤٨ ساعة من الحرب ، اذا كانت ستندلع حقاً . وخلال الجلسة ، أبدى وزير واحد فقط ملاحظة تجاوزت لهجة الثقة بالنفس التي اتسمت بها أقوال جميع المشتركين الآخرين في النقاش . اذ قال : « انني اقترح على شعبة الاستخبارات العسكرية ان تفكر ملياً في احتمال ان بعض الخطوات التي اتخذها المصريون والتي عرضت هنا ، لا تهدف الى تحويل الانظار فقط ، بل انهم ينوون في الحقيقة

القيام بشيء جاد » . وباسلوب مشابه ، قال ، في اليوم نفسه ، ضابط كبير لرئيس شعبة الاستخبارات : « كل هذه الامور تقلقني ، وتثير لدي الانطباع بان الحرب واقعة » .

وعندما دعت رئيسة الحكومة ، في المساء نفسه ، الوزراء الى جلسة خاصة لمناقشة محادثاتها مع المستشار كرايسكي ، لم تطلعهم ، ولو بلمحة خاطفة ، على حشود قوات العدو ، وما تنطوي عليه . وبما ان « وزارة الحرب » اعتقدت ان احتمال الحرب ضئيل ، لم تجد السيدة مئير ضرورة لاطلاع حكومتها على التطورات الاخيرة . وبعد الحرب ، أبدى أحد الوزراء ملاحظة حول هذا الامر : « جئت الى جلسة الحكومة بعد ان قمت بزيارة المستوطنات الجديدة في الجولان . وكان يلفت نظري ، في كل مكان ، الى وجود حشود عسكرية سورية هائلة وراء الحدود . واؤنب نفسي ، الآن ، لانه لم يخطر لي ان اطرح ولو سؤالاً واحـداً في هذا الشأن ، على رئيسة الحكومة او وزير الدفاع في أثناء ذلك الاجتماع الذي عقد مساء يوم الاربعاء » .

وهكذا تصرفت السيدة مئير ايضاً ، عندما مثلت يوم الخميس في الرابع من تشرين الاول (اكتوبر) ، أمام لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست . فالموضوع الوحيد الذي نوقش في الجلسة ، كان محادثاتها مع برونو كرايسكي ، مستشار النمسا .

ولكن كان لدى بعض القادة في سيناء ، في ذلك اليوم ، احساس مختلف قليلاً . وقد شهد على ذلك ، بعد الحرب ، قائد لواء مدرع كان محتفظاً به ، على الخطوط الخلفية في سيناء ، على بعد عشرات الكيلومترات من القناة : « يوم الخميس ، اي قبل يوم الغفران بيومين ، اقمنا في رفيديم مأدبة غداء لوداع اللواء ألبرت ، قائد القوات المدرعة في سيناء . وكان المشتركون في المأدبة ، من القادة ، برتبة قائد سرية فما فوق . وجرت العادة ، في مثل هذه المناسبات ، ان يقوم القائد المنقول بتلخيص نشاطه وتمنياته للمستقبل . ولكن ألبرت خصص اقواله لموضوع واحد : احتمال الحرب . وقال بوضوح انه ، نتيجة هذا التأهب والتطورات المتوقعة ، فتقديره انه لن يتم استبداله في الموعد المقرر . وقد حرص ألبرت ، في هذه المناسبة ، على ان يضع القادة الحاضرين في جو الحرب التي توشك ان تقع » . وكان الموعد المقرر لاعتزال اللواء ألبرت منصبه كقائد للقوات المدرعة التابعة للجيش الاسرائيلي في سيناء ، يوم الاحد في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) . وكان من المقرر ان يخلف اللواء ابراهام (« برن ») ادان كقائد لكافة القوات المدرعة في الجيش الاسرائيلي .

وفي تلك الاثناء ، وصل الى اسرائيل ، مرة اخرى ، من مصدر غير معروف ، خبر مثير للذعر بشأن خطر الحرب . وكان الخبر مستعجلاً جداً ومستنداً الى معلومات واقعية . وجاء بالاضافة الى ذلك ، من مصادر أخرى ، ان طائرات سوفياتية تنقل المستشارين السوفيات وعائلاتهم المرحلين من دمشق والقاهرة . وتشير الصور ، التي أخذت

في الساعات الاخيرة من الجو ، الى تعزيز خطوط العدو . ولكن ، عملياً ، لم يكن لكل هذا أي تأثير في تلك الحفنة من الوزراء وجنرالات الجيش الاسرائيلي التي كان يفترض فيها ان تتحمل مسؤولية أمن الدولة وحمايتها . ودعت رئيسة الحكومة مجدداً « وزارة الحرب » الى الاجتماع يوم الجمعة في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) . واشترك ، هذه المرة ، الى جانب السيدة مئير والوزيرين غليلي ودايان ، حاييم بار ـ ليف وزير التجارة والصناعة ، ورئيس الاركان السابق ، والوزيرين بيريس وحزاني . وكذلك وصل شلومو هيلل ، وزير الشرطة ، الى الاجتماع متأخراً قليلاً . وكان حينئذ يغئال آلون ، نائب رئيسة الحكومة ، موجوداً في كيبوتسه ، غينوسار ، في شمالي البلد ، لتمضية أيام العيد هناك . وكان تقرير الاستخبارات العسكرية ، الذي عرض في هذا الاجتماع ، ينم عن القلق . وكان لانذار الاستخبارات العسكرية ، الذي اعطي يوم الجمعة ، دلالة اكثر اهمية ، ولكن لم يكن قد برز فيه الذعر الكبير الذي ميز الانباء الاخيرة التي وصلت من مصادر أخرى . واقترح رئيس الاركان اعلان حالة التأهب ج (درجة تأهب لم تعلن في اسرائيل منذ انتهاء حرب الاستنزاف) ، واعلن انه اصدر التعليمات بإلغاء اجازات الجنود في كلا الجبهتين . وقال دايان بايجاز : « حسناً فعلت . افعل المزيد » . ولكن دايان ايضاً لم يقترح دعوة الاحتياط . وقد اصدر رئيس الاركان ، في نطاق « التأهب ج » ، تعليمات بنقل انذار خاص الى قادة الفرق المدرعة . وبناء على هذه التعليمات ، وضع سلاح الجو ، عشية يوم الغفران ، في حالة تأهب عليا استعداداً لهجوم محتمل .

لم يدرك رئيس الاركان ووزير الدفاع وباقي المشتركين في الاجتماع ، انه سيكون قد فات الاوان ، عندما تصل هذه التعليمات ، الخاصة بإلغاء الاجازات ، الى الخطوط الامامية من كلا الجبهتين . اذ ان الكثير من الضباط والجنود قد خرجوا ، صباح يوم الجمعة بالذات ، لتمضية عطلة عيد الغفران ، وليس بالامكان تحديد امكنة تواجدهم واعادتهم جميعاً من بيوتهم .

والحكومة ، اي الوزراء الذين لم يحضروا الاجتماع الذي عقد ظهر يوم الجمعة ، لم تحصل على اية معلومات حول ما يجري ، ولم تعرف شيئاً عن « الانذار ذي الدلالة الاكثر اهمية » ، ولا عن إلغاء الاجازات ، واعلان حالة « التأهب ج » . حتى ان الوزير البارز بنحاس سابير ، المسؤول عن المال والاقتصاد ، لم يدع الى اجتماع « وزارة الحرب » يوم الجمعة ، لانهم « لم يعثروا عليه » . وهذا ما حدا به الى ان يقول بتهكم بعد الحرب : « انهم ، لصغري ، لم يعثروا علي ... »

وسواء أكان هناك انذار ام لم يكن ، فان احداً ، من بين الذين حضروا الاجتماع ، لم يكن يحلم بان الحرب ستندلع في اليوم التالي . وقد قال رئيس الاركان ، بعد انتهاء

المناقشة ، انه لا يستطيع ان يضمن عدم وقوع الحرب . كما انه لم يكن قادراً على الجزم بأنها ستقع . وعندما سأل غليلي بيريس : « ما رأيك ؟ » ، اجابه وزير المواصلات وهو على عتبة الباب : « اخشى ان تقع الحرب » . وقد سافر يسرائيل غليلي لتمضية العيد في كيبوتسه ، ناعن . وبقي دايان ، ليلة الغفران ، في منزله الكائن في تسهلا . وبعد منتصف الليل ، نامت السيدة مئير في بيتها في رامات افيف . وكان تفكيرها منصرفاً ، بالنسبة الى الحكومة ، الى التعليمات التي أصدرتها الى ميخائيل ارنون ، سكرتير الحكومة ، بالاستعلام عن اماكن وجود جميع الوزراء ، ليكون في الامكان ، اذا دعت الضرورة ، دعوتهم الى اجتماع عاجل السبت ، يوم عيد الغفران .

وتجدر الاشارة ، بهذا الخصوص ، الى البيان الرسمي الذي أدلت به جهات معتمدة حول الاجتماع المذكور ، الذي عقد يوم الجمعة ٥ تشرين الاول (اكتوبر) : « عقدت الحكومة يوم الجمعة اجتماعاً خاصاً للبحث في احتمال وقوع هجوم مصري سوري . وعلى الرغم من ان الحشود العسكرية تدل بوضوح على هجوم ، فقد تقرر عدم البدء بتعبئة الاحتياط ، حتى لا يعطى الرأي العام العالمي ذريعة للقول ان اسرائيل تخطط لهجوم » . وقد اذيع هذا البيان كما هو معروف ، بعد يوم الغفران ، اي بعد اندلاع الحرب .

وفي يوم الجمعة ذاك ، اكتملت حلقة التضليل المصرية . فقد اجتمع في هذا اليوم الدكتور هنري كيسنجر ، وزير الخارجية الاميركي ، بمحمد الزيات ، مستشار الرئيس المصري . وكان الحديث بينهما هادئاً ، وتناول مبادرة السلام التي كان كيسنجر يزمع القيام بها بعد الانتخابات في اسرائيل ، التي كانت ستجرى في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) . ولم يدرك كيسنجر ، الا بعد نشوب المعارك ، ان الزيات الذي كان ، دون شك ، على علم بموعد بدء الحرب ، قد اتقن دوره في عملية التضليل المصرية التي كان مخططاً لها بتفصيل دقيق .

وقبل دقائق معدودة من الساعة الرابعة فجر يوم الغفران ، السبت في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، استيقظ موشيه دايان ، وزير الدفاع ، من نومه على رنين الهاتف في منزله في تسهلا . وكانت المكالمة من شخص خارج تسهلا ، قال انه لم يعد هناك شك في صحة ودقة المعلومات التي وصلت الى اسرائيل ، كما ذكر اعلاه ، منذ عشية رأس السنة وخلال الاسبوع بأسره . وقد تأكدت صحة هذه المعلومات بصورة نهائية . الحرب — اكيدة . ان مصر وسورية ستبدآن اليوم ، يوم الغفران بالذات ، « في الساعة ١٨,٠٠ تماماً » ، هجوماً منسقاً على كلا الجبهتين . واتصل دايان فوراً برئيسة الحكومة في بيتها في رامات أفيف ، واطلعها على المعلومات التي وصلته تواً . وتم إبلاغ رئيس الاركان ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية بهذه المعلومات في آن معاً . وقابل وزير الدفاع ،

في الساعة ٦,٠٠ ، رئيس الاركان في الاركان العامة . ونحو الساعة السابعة ، عقد اجتماع مع رئيسة الحكومة في مكتبها ، اطلع خلاله رئيس الاركان رئيسة الحكومة على ان سلاح الجو ، الموجود في حالة تأهب ج منذ عشية يوم الغفران ، قادر على توجيه ضربة وقائية في كلا الجبهتين : اقترح رئيس الاركان اعلان التعبئة العامة والشاملة لجميع الاسلحة فوراً . وانضمت رئيسة الحكومة الى رأي وزير الدفاع ، الذي عبّر عنه في الصباح الباكر ، عندما تحدث اول مرة مع رئيس الاركان ، في أنه لا يجوز لاسرائيل ان تكون هي المبادرة الى الحرب . وكان الاعتبار الموجه انه في حال توجيه ضربة وقائية ، كما اقترح رئيس الاركان ، سيكون من الصعب على اسرائيل ان تثبت ، بعد ذلك ان العرب هم الذين يتحملون مسؤولية تجدد الحرب . وان اي صديق ، بما في ذلك الولايات المتحدة ، لن يقف الى جانب اسرائيل اذا ما ثار أدنى شك في انها لم تتخذ مجرد خطوة دفاعية — كما كانت حقيقة الوضع — وانما مبادرة هجومية . كذلك لم تقبل رئيسة الحكومة ووزير الدفاع اقتراح رئيس الاركان ، بالنسبة الى التعبئة . وافترض وزير الدفاع ان القوات النظامية والمساندة الموجودة على الجبهة ستكون قادرة على الصمود حتى وصول الاحتياط . واعتقد انه تكفي ، في هذه المرحلة ، تعبئة « هادئة » (بواسطة العدّائين ، وليس بواسطة الراديو) « للقبضات » فقط ، أي — الدروع . وبحسب احد الآراء : حدد دايان حجم التعبئة بتشكيلين مدرعين فقط ، كان لا بد ، بحسب رأيه ، من تعبئتهما فوراً . أما غولدا مئير ، الاقل خبرة من رئيس الاركان ودايان بشؤون التعبئة وحجم التشكيلات ، فقد حسمت النقاش بالوقوف الى جانب رأي رئيس الاركان . وهكذا تم الاتفاق على البدء ، في الساعة ١٠,٠٠ بتعبئة « هادئة » تشمل المدرعات كلها . ويتضح ، في نهاية الامر ، ان رئيس الاركان كان سيأخذ على عاتقه ليس تعبئة التشكيلات المذكورة فقط ، وانما قوات اخرى ايضاً . ولكن حتى ذلك الحين ايضاً ، لم يكن قد تم ما يسمى « التعبئة الكاملة » . وقد أقرت السيدة مئير هذا الافتراض ، في الرسالة التي وجهتها عبر الاذاعة والتلفزيون الى الأمة ، في الساعة ١٨,٠٠ من مساء يوم الغفران ، وذلك بقولها ان «الموافقة تمت منذ الصباح ، وتم البدء بتعبئة جزئية لقوات الاحتياط» .

اعطت شخصية سياسية مهمة ، يوم السبت ، محرري الصحف توجيهات توضح الاسباب التي أدت الى اتخاذ القرارين المذكورين ، وقالت حرفياً : « بعد الدرس وتقويم الوضع ، تقرر على اعلى مستوى سياسي ، بعد التشاور مع وزير الدفاع وكبار الضباط ، تفضيل الاعتبار السياسي ، هذه المرة ، على الاعتبار العسكري . وألا نكون البادئين بالحرب . وقد رأينا ، من اجل الاعتبار السياسي ، ان نتحمل صعوبات عسكرية ، حتى يكون واضحاً من الذي بادر وقرر تجديد اطلاق النار » . وتابعت هذه الشخصية تقول انه « بسبب ما كانت تشيعه محطات الاذاعة العربية ، في الايام الاخيرة ، من ان اسرائيل تنوي غزو سورية ، فقد بدىء بتعبئة الاحتياط في الساعات الاخيرة تماماً ،

وذلك لتفويت الفرصة على العرب بالتذرع بأنهم بدأوا القتال لمواجهة هجوم اسرائيلي » .

ونتيجة ذلك ، لم يتوقف الامر عند منع سلاح الجو من توجيه ضربة وقائية ، كان مستعداً للقيام بها منذ الظهر ، وانما ايضاً تم البدء بالتعبئة الجزئية للاحتياط في ساعة متأخرة ، وذلك فقط من أجل عدم تزويد العرب « بالذريعة » للبدء بالقتال . وقد كلف استعداد سلاح الجو للهجوم ، الذي اعلن مساء الجمعة ، الدولة ملايين الليرات . وفي الساعة ١٤,٠٠ من يوم السبت ، تسلم السلاح الجوي امراً بالدفاع الفوري عن القواعد ، وحراسة المجال الجوي .

ولم تتغير سياسة العمل ، التي تحددت في الاجتماع المصغر الذي عقد في ساعة مبكرة من يوم السبت ، والذي ضم رئيسة الحكومة ، ووزير الدفاع ، ورئيس الاركان ، حتى بعد وصول الوزير يسرائيل غليلي من كيبوتسه ناعن ، والوزير حاييم بار – ليف . وكان لسياسة العمل هذه انعكاس عملي خطر : فقد صدرت التعليمات الأخيرة بالتأهب ، والتي أخذت في الحسبان هجوماً مصرياً ، الى قيادة الجبهة الجنوبية في ساعات المساء فقط .

[.......]

وفي تلك الاثناء ، استمرت المشاورات في مكتب رئيسة الحكومة في هاكيريا . ومن بين ما جرى البحث فيه ، مغزى الخبر الذي أفاد عن وصول طائرات سوفياتية الى سورية ومصر ، أخذت تخلي عائلات المستشارين السوفيات ، ثم بدأت تنقلهم هم أنفسهم . وقد اعتبر ذلك ، دليلاً على قرب وقوع الحرب وعلى ان الروس لا يريدون ان يكون لهم أية علاقة بالمغامرة العسكرية العربية الجديدة .

وتدل القصة التالية على الشكوك بشأن خطر الحرب ، التي ساورت القيادة في ساعات الصباح المبكرة، بعد ان تلقت التأكيد النهائي . في الساعة ٤,٠٠ ، تلقى يغئال آلون، نائب رئيسة الوزراء ، الذي يعتبر منذ مدة عضواً دائماً في « المطبخ » ، الذي هو « وزارة حرب » رئيسة الحكومة ، مكالمة هاتفية في كيبوتسه ، غينوسار ، في الساعة ٦,٣٠ ، تقريباً ، تدعوه الى الحضور لإجراء مشاورات مستعجلة في هاكيريا . ورداً على استفهامه عما اذا كان الامر مستعجلاً جداً وعما اذا كان عليه الوصول بالطائرة ، أجيب ان باستطاعته بكل تأكيد السفر بسيارته . وهكذا وصل آلون الى هاكيريا بتل أبيب نحو الساعة ٨,٣٠ صباحاً . وعندما أُبلغ آلون بخبر انذار الحرب في الساعة ١٨,٠٠ استغرب ، وقال : « ٦ مساء ! هذا غير معقول ، فهم بحاجة الى بضع ساعات من النهار ، وبعد ذلك يحتمون بالظلام من سلاح الجو . ربما لم يكن المقصود الساعة ٦ وانما ١٦,٠٠ ، اي الرابعة بعد الظهر » .

ان ملاحظة نائب رئيسة الحكومة ، حتى لو استوعبها الحاضرون ، الذين انضم اليهم في تلك الاثناء بنحاس سابير وزير المال ، لم يكن في مقدروها تغيير الصورة .

وبينما صدرت التعليمات بالتعبئة الجزئية عن مكتب رئيس الاركان ، اجتمعت رئيسة الحكومة في مكتبها بسفير الولايات المتحدة في اسرائيل ، كينث كيتنغ .

وقد اطلعت السيدة مئير السفير الاميركي على كل ما تعرفه عن الوضع . كما حرصت على ان تطلعه على القرارات التي اتخذتها في ساعات الصباح الباكرة ، بشأن امتناع اسرائيل من توجيه ضربة وقائية ، وبشأن التعبئة الجزئية للاحتياط . وفي ذلك الوقت ، كان لدى السفير تقرير من المخابرات في واشنطن بشأن استعدادات مصر وسورية للبدء بالقتال . وطلبت رئيسة الحكومة من الدبلوماسي ذي الشعر الفضي ان يبلغ البيت الابيض بالوضع وبقراراتها دون تأخير . واقترحت ان يتصل الرئيس نيكسون ووزير خارجيته بحكومتي الاتحاد السوفياتي ومصر في محاولة لدفع القاهرة الى إلغاء امر إطلاق النار ، في اللحظة الاخيرة . وخلال المحادثة ، سأل كيتنغ عدة مرات : « هل انتم مصممون على عدم اطلاق الطلقة الاولى ؟ » .

وقد أجابته رئيسة الحكومة ، بصورة قاطعة : هذا هو قرارنا . ان اسرائيل لن تبدأ باطلاق النار . واكثر من ذلك : ان اسرائيل لا تنفذ التعبئة الكاملة ، حتى لا يفسر الامر بأنه استفزاز ، فيتذرع به الطرف الثاني .

وقبل الظهر ، دعا ميخائيل ارنون ، سكرتير الحكومة ، الوزراء لحضور اجتماع عاجل في الساعة ١٢,٠٠ في مكتب رئيسة الحكومة في هاكيريا . وقد اتصل ببعضهم هاتفياً بينما ارسل مبعوثين الى الكنس ، حيث كان بعض الوزراء هناك يرتدون الاوشحة ، في صلاة يوم الغفران . ولف موشيه كول وزير السياحة ، وزئيف شيريف وزير الاسكان ، اللذان كانا في كنيس في القدس ، وشاحيهما ، وألقيا بكتب الصلاة من يديهما ، وسافرا الى تل أبيب .

وقد أمّ مبعوث خاص ، الدكتور ميخائيل نير ، القائم بأعمال سكرتير الحكومة ، الكنيس في القدس ، فاطلع الدكتور زيراح فيرهافتيغ وزير الاديان ، والدكتور يوسف بورغ وزير الداخلية ، على الوضع . ولم يصل الوزيران الى تل أبيب إلا بعد انتهاء الصوم .

وتسلم يعقوب شمشون شابيرا ، وزير العدل ، الخبر في اللحظة التي كان ينوي فيها الخروج من بيته الى الكنيس . وقبل ان يدخل السيارة التي ستقله الى تل أبيب ، قال : « هذه هي اول مرة أسافر فيها في يوم الغفران » . ولكن وزراء آخرين ، كانوا قد انتهكوا حرمة يوم الغفران ، في الماضي ، في ظروف مشابهة . كان ذلك خلال عملية يوآب في حرب الاستقلال . وكان ميخائيل حزاني ، وزير الشؤون الاجتماعية ، موجوداً في تل أبيب ، وعندما تسلم الدعوة إلى اجتماع الحكومة خرج من الكنيس ،

وذهب الى هاكيريا ماشياً . وكان حاييم غفاتي ، وزير الزراعة ، مريضاً في كيبوتسه ، يفعات ، في عيمق يزراعيل [مرج ابن عامر] . وعندما تسلم المكالمة الهاتفية من تل أبيب ، سأل : « هل هذا مستعجل جداً ؟ » . فجاءه الجواب « ليس كثيراً » ، وبقي في سريره ، ولم يشترك في جلسة الطوارىء . وقد استدعي الوزير ناتان بيليد من كيبوتسه فوصل تل أبيب ظهراً . ووصل الوزير شلومو هيلل في سيارة من القدس ، والوزير ألموغي من حيفا . ودعي شمعون بيريس الى حضور المشاورات مع وزير الدفاع منذ ساعات الصباح الباكرة .

افتتح الاجتماع في الساعة ١٢,٠٠ بتقرير قدمه وزير الدفاع ، وتمت الموافقة ، بالاجماع ، على القرار بعدم الاقدام على ضربة وقائية ، والقرار بالتعبئة الجزئية ، التي كانت قد بدأت . وبينما كان الاجتماع في ذروته ، وفي اللحظة التي كان دايان يقترح فيها خطة معينة في حالة قيام المصريين بالهجوم وحدهم ، دون السوريين ، انطلقت صفارات الانذار في تل أبيب . ولم ينزل أحد من الوزراء الى الملجأ ، واستمروا مجتمعين . وبعد مضي بضع دقائق بعثت الاركان العامة بتقرير عن بدء الهجوم المصري – السوري .

ولم يتفرق الوزراء بعد الاجتماع ، بل بقوا في المكتب ، حيث استعدت « وزارة الحرب » المقلصة لادارة الحرب : السيدة مئير لاتخاذ جميع القرارات المهمة ، ويلازمها يسرائيل غليلي ويغئال آلون ، فيتولى غليلي ، بتفويض من رئيسة الحكومة ، ادارة الشؤون الخارجية بالتنسيق مع وزارة الخارجية ، اما آلون فيبقى على اتصال بالاركان العامة لإبلاغ رئيسة الحكومة بآخر التطورات العسكرية .

فور وصول الجنرال غونين الى القيادة ، تلقى اشارة اخرى بأن الحرب ستنشب حقاً في اليوم ذاته . وعلم ، بناء على التقرير الذي تلقاه ، ان العبور المصري على امتداد القناة بأسرها سيبدأ في الساعة ١٨,٠٠ ، بعد قصف وهجوم جويين . وطلب الجنرال غونين الاتصال بالجنرال البرت مندلر ، الذي كان موجوداً في رافيديم ، كي يزوده بآخر المعلومات التي لديه .

قال غونين لالبرت « اسمع ، من الافضل تحريك الألوية المدرعة الى الامام ، نحو الخط . وما ان تصل حتى يكون المساء قد حل » .

أجابه الجنرال مندلر : « من الافضل قطعاً ، لقد حان الوقت حقاً . انهم يقصفونني » .

وانهى غونين الحديث : « اذا كان الأمر كذلك ، من المؤكد انه لا بد من التحرك » .

وبدأ الهجوم .

الفصل الثالث

يوم الغفران الاسود

في ظهيرة يوم الغفران ، كان جميع المراسلين العسكريين للصحف الاسرائيلية يجلسون حول طاولة عمل الجنرال ايلي زعيرا ، رئيس شعبة المخابرات في الاركان العامة . فقد استدعوا ، منذ الساعة الحادية عشرة ، الى اجتماع عاجل كان من المقرر عقده بعد ساعتين . وأدلى الجنرال زعيرا بتوجيهاته للمراسلين . وهو منضبط الاعصاب وواضح ، وقال لهم ان « حرباً قد تندلع في أية لحظة ... » .

وفجأة ، نحو الساعة الثانية ظهراً ، دخل رئيس مكتب الجنرال الى الغرفة ، وهو منفعل قليلاً ، وسلم رئيس شعبة المخابرات بطاقة . ولكن الجنرال زعيرا ، نظر في البطاقة بصورة خاطفة وكأنه لم يهتم بما كتب فيها ، ثم قال كلاماً ما لرئيس المكتب ، دون ان يسمعه المراسلون العسكريون .

سأل زئيف شيف ، مراسل « هآرتس » العسكري ، مستطلعاً ، ماذا حدث ؟ ، فأجاب رئيس شعبة المخابرات « لا شيء » . ثم واصل الرد على أسئلة المراسلين وكأن شيئاً لم يكن . وبعد مضي دقيقة أو دقيقتين سلم رئيس المكتب بطاقة أخرى الى الجنرال زعيرا الذي ترك مقعده ، هذه المرة ، وغادر الغرفة ، ولم يعد اليها إلا ليعلن ، بقليل من الذعر « انتهى الاجتماع » . وبينما كان المراسلون العسكريون ينتظرون المصعد في مبنى الاركان العامة ، في طريقهم الى الخارج ، دهمتهم صفارات الانذار التي هزت سماء تل أبيب . في هذا الوقت بالذات كان دافيد (دادو) ألعازار ، رئيس هيئة الاركان ، والجنرال يسرائيل طل ، نائبه ، يجلسان في طابق آخر من مبنى الاركان العامة . فمنذ الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم ، عندما اجتمع رئيس هيئة الاركان بوزير الدفاع موشيه دايان ، اول مرة في يوم الغفران نفسه ، وجنرالات الاركان العامة يبحثون احتمال اندلاع الحرب ، ويهيئون الاستعدادات المذعورة لمواجهتها ، ولكنهم ما زالوا يعتقدون بأنها لن تندلع ، ولم يقوّموا بعد ، كما يجب ، زخم الهجوم المتوقع من الجبهتين .

بعد الساعة الثانية ظهراً ببضع دقائق ، عندما وصلت أنباء أولية غير متكاملة عن قيام طائرات العدو بقصف سيناء ومرتفعات الجولان ، انطلق ألعازار وطل من مكانيهما، وسارعا الى غرفة شعبة العمليات التابعة للاركان العامة . كانا عصبيين ومنفعلين ، فقد بدأت الحرب في الساعة الثانية ظهراً ، بينما كانت المعلومات التي وصلتهما منذ الصباح انها لن تبدأ قبل الساعة السادسة مساء ، وقد ظهرت المفاجأة على وجهيهما ، وحركاتهما ، وأجوبتهما وكلامهما . كانت لديهما أسباب وجيهة لذلك . كانا يدركان ان الجيش الاسرائيلي لم يستكمل استعداده للحرب بعد ، واعتقدا ، حتى هذه اللحظة ، انه ما تزال أمامهما أربع ساعات كاملة يمكن الاستعداد خلالها للحرب .

دخل رئيس هيئة الاركان ونائبه الى غرفة العمليات ، وطلبا مشاهدة الخرائط مشاراً عليها ، بواسطة الاسهم ، الى تحركات العدو ومحاور اقتحامه . إلا ان المفاجأة كانت كبيرة جداً ، خلال تلك الدقائق الدرامية ، الى حد انه لم يستطع أحد رسم الاسهم . وكانت صورة الوضع ما تزال غامضة .

وعلى امتداد ١٦٠ كيلومتراً لقناة السويس ، و ٧٥ كيلومتراً لخط وقف القتال بين اسرائيل وسورية في مرتفعات الجولان ، كانت الحرب قد أخذت تعربد بكل قوة ، وقد تمثلت ، خلال تلك اللحظات ، بانفجار آلاف القنابل والقذائف على امتداد الخط بأسره ، وفي عمق المناطق التي تحتفظ بها قوات الجيش الاسرائيلي ، وبطلعات جوية لأسراب الطائرات المصرية والسورية . ٩ طائرات ميغ وسوخوى ، من انتاج سوفياتي ، أغارت فجأة على منطقة شلومو ، وبدأت بإطلاق القذائف ونيران مدافعها باتجاه مرافق الميناء العسكري ، ومطار اوفيرا في شرم الشيخ . وعندما انطلق فوج الطائرات الاول يشق عنان الفضاء ، تاركاً وراءه ألسنة النار وأعمدة الدخان ، كان جنود شرم الشيخ ينطلقون الى مواقعهم ، وقد تملكتهم المفاجأة والذهول تماماً . كان بعضهم لا يزال يرتدي لباس البحر . ففي ذلك اليوم الحار ، كالعادة في تلك المنطقة الجنوبية من اسرائيل ، خرج الجنود يسبحون في مياه الخليج الصافية ، طلباً للبرودة واستعادة النشاط بعد وجبة الغداء .

وخلال بضع دقائق ، امتلأت المنطقة بأزيز الرشاشات ، التي حاولت عبثاً إصابة الطائرات المصرية ، وأكتشف الجنود هنا وهناك ان مدافعهم الرشاشة لا تؤدي المهمة المطلوبة . في هذه الاثناء شنت الطائرات المصرية هجوماً جوياً آخر ، قصفت خلاله ، ودون إزعاج تقريباً ، المطار ومراكز اللاسلكي في شرم الشيخ ، وأصابت المرافق وحاولت تدميرها . وهكذا كررت مهاجمة هذا المكان اربع مرات ، وقد قتل جنديان ، وسببت القذائف أضراراً .

ومن جهة اخرى قصفت طائرات مصرية مدينة النفط في أبو رديس ، على الشاطىء

الشرقي من خليج السويس ، وقد تجنبت إصابة حقول النفط ومحطات الضخ ، وركزت قصفها على المباني السكنية المأهولة بالمواطنين العاملين في حقول النفط ، فأوقعت إصابة مباشرة في أحد المباني ، قتل فيه ستة من موظفي الادارة المدنية لمنطقة شلومو ، دفعة واحدة .

كانت المنطقة المشرفة على مضائق تيران ، والتي شكل إغلاقها يوم ٢٣ أيار (مايو) ١٩٦٧، من قبل رئيس مصر، سبباً لاندلاع حرب الايام الستة، احد الاهداف الاولى للهجوم الجوي المصري . وفي الخميس ليلاً ، أي بين ٤ و ٥ تشرين الاول (اكتوبر)، ظهرت في منطقة شرم الشيخ دلائل مريبة مختلفة أثارت الشك في هجوم وشيك . وفي يوم الغفران ، قبل الظهر ، تلقت سلطات اوفيرا تعليمات لترحيل جميع المدنيين من هناك فوراً . ومنذ ان فتح الطريق الذي يصل بين ايلات واوفيرا ، تحولت الخلجان في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سيناء الى اماكن استجمام لمواطني اسرائيل . وقبل (الهجوم) باسبوع ، وفي يوم رأس السنة ، تدفق الى المنطقة آلاف المتنزهين ، وقدمت عائلات بكاملها لتمضي وقتاً في قرى الاستجمام التي اقيمت هناك . وفي يوم الغفران كان هناك ٧٠ متنزهاً اسرائيلياً فقط . نقلوا جميعاً في سيارات عسكرية ، إما الى ايلات او الى المطار لنقلهم جواً الى تل ابيب ، وقد غادروا المكان قبل بدء القصف الجوي ، الذي كان من المتوقع ان يكون بمثابة « بيرل هاربر » اسرائيلي .

لم يكن الاستنفار في شرم الشيخ ، في ذلك اليوم ، ليختلف عن جميع حالات الاستنفار الكثيرة التي اعلنت في الماضي ، فقد تلقوه [الجنود] ، هذه المرة ايضاً ، كـ « استنفار عادي » ، ولم يصدقوا ان أمراً ما سيحدث ، ولم يتلفظ اي واحد بكلمة « حرب » ، حتى ظهور الطائرات القاذفة المصرية .

وعلى بعد ٦٥٠ كيلومتراً ، هوائي ، الى الشمال من هناك ، وعلى أحد قمم جبل الشيخ ، كان جنود الجيش الاسرائيلي ، الموجودون في موقع جبل الشيخ ، في درجة مماثلة من الاستنفار . والحقيقة ، انهم تلقوا في ذلك الصباح انذاراً بالاستنفار ، ولكنهم لم يولوه أهمية خاصة . « كونينوت — اونينوت » (الاستنفار للاستمناء باليد) كانت هذه الجملة تتردد على ألسنة الجنود . وفي الساعة الثانية ظهراً ، عندما بدأ القصف المدفعي الثقيل على موقع جبل الشيخ ، الموجود في أقصى شمالي المناطق التي تحتفظ بها اسرائيل ، وعلى ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، سارع الجنود الى التمركز في خنادقهم حول الحصن الرهيب الذي بني في عمق الجبل . ولكن بعضهم فعل ذلك وهو ينتعل خفه المنزلي المبطن بالصوف .

وفيما كانوا يبحثون عن مخبأ من قذائف المدفعية السورية ، ظهر أمامهم ، من قلب الوديان ، عدد من الطوافات التي حاولت الهبوط في سهل مجاور للموقع ، فأسقطت

احداها بنيران مدفع رشاش مضاد للطائرات، بينما هبطت الطوافات الاخرى بسلام، واندفع من داخلها عشرات جنود الكوماندو السوريين، بثياب مرقطة، وبدأوا فوراً الانقضاض على الموقع.

وأمام هذا الهجوم المفاجىء، انسحب جنود الموقع من خنادقهم حول الحصن، وسارعوا في الدخول اليه. فقد كان، في رأيهم، قلعة دفاعية غير قابلة للاختراق، اذ سقف بطبقات سميكة من حجارة البازلت، لم تظهر منها سوى مداخن أجهزة تكييف الهواء. وتحت طبقة التفجير هذه، غير القابلة لاختراق قذائف الطائرات، او قنابل المدفعية، يوجد، في الاعماق، مبنى مؤلف من ثلاث طبقات، وله جدران من الاسمنت المسلح السميك، وأبواب من الفولاذ، فبدا صامداً وحصيناً ضد أي هجوم. ولقد امل الجنود في الاختباء داخله حتى تمر العاصفة، وتأتي طائرات سلاح الجو الاسرائيلي، أو وحدات النجدة، فتجبر رجال الكوماندو السوريين، الذين احاطوا بالحصن من جميع الجهات، على الفرار. ولم يصدق احد ان تكون هذه الحرب طويلة ومتواصلة.

في التحصين سمع دوي انفجار قريب جداً من الدشمة الرئيسية، كان ذلك احد التحصينات في خط بار – ليف الممتد على طول قناة السويس. قلعة محاطة بالدشم والسراديب الارضية، حيث الحواجز الترابية العالية، التي تقوم عليها مراكز إطلاق النار، وتحيط بها السراديب من كل جانب. وقد شعر يتسحاق، الذي كان موجوداً داخل دشمة محاطة بألواح الصفيح المتعرج، فجأة، باهتزاز الارض من حوله، ثم سقط على ارض الدشمة، وتطاير حوله الغبار والتراب، وشظايا الاسمنت والحجارة، وترامت الى سمعه نداءات الجنود بالاستغاثة، فتملكه الخوف.

منذ بضعة ايام اخذت تصل انباء غامضة عن «حدث كبير» وشيك الوقوع. وخلال ساعات ما قبل الظهر، وصل من القيادة الامامية امر بالتأهب «لامتصاص الضربة الاولى»، ولم يصدق يتسحاق وزملاؤه، حتى تلك اللحظة، ان النزهة الكبرى على شاطىء قناة المياه الهادئة ستتكدر. وعندما وقف على قدميه، خلع ثيابه العسكرية، وخرج الى مدخل الدشمة الخارجي، والعرق يتصبب من جسمه. كان جندي قتيل ملقى في عرض الخندق، ومقاتلان جريحان يئنان بصوت مرتفع في اسفل الحاجز، والطائرات المقاتلة تمر باتجاه الشرق على ارتفاع منخفض. مرت بضع دقائق قبل ان يستيقظ من غيبوبته ويسمع الاوامر الاولى لقائد التحصين لاخذ مواقعهم بسرعة، فقد شاهد المقاتلين يركضون مذعورين في السراديب الضيقة.

كان يونتان، وهو مواطن طويل القامة، ووسيم، يجلس على مقعد التراكتور الثقيل قريباً من التحصين، حيث كان يعمل على الطريق الترابي في أسفل الحاجز

الترابي الممتد على طول الجانب الشرقي للقناة. كان قد انهى خدمته العسكرية، مؤخراً، برتبة عريف في قوات المظلات. وبعد تسريحه، قرر العودة الى الجبهة «ليجني اموالاً طائلة»، كسائق تراكتور يقود معدات ميكانيكية ثقيلة، في الخط الامامي. وكانت كل ساعة عمل مهمة، بالنسبة اليه. وحتى في يوم الغفران، يوم عطلة شاملة في جميع انحاء اسرائيل، اخذ التراكتور، خلال ساعات الصباح، وخرج لتنفيذ العمل المكلف به. لم يقل له أحد أن أمراً ما سيحدث، وحتى في حالة استدعائه، في وقت أبكر، هناك شك فيما إذا كان سيترك التراكتور ويحضر الى التحصين. وعندما بدأت قذائف المدفعية تنفجر من حوله، تاركة ثقوباً رمادية – بيضاء في الارض الرملية، أذهلته المفاجأة، ولكنه لم ينفعل، لاعتقاده ان ذلك مجرد حادثة عفوية عابرة، فوجه التراكتور باتجاه التحصين، واستطاع تقريبه من احد المواقع، حيث بدا له انه محمي هناك بما فيه الكفاية. وفجأة سقط على التحصين رشق من القذائف، بزخم مذهل، وعندما تمكن من الوصول الى مدخل الدشمة، شاهد التراكتور، العزيز عليه، يشتعل.

يورام، جندي احتياط من القدس، يبلغ من السن ثلاثين عاماً، وصل الى خط الجبهة، قبل بضعة أيام من يوم الغفران، بدلاً من رفيق خرج في اجازة لان زوجته على وشك الولادة. لقد كان عديم الخبرة القتالية، كجميع جنود وحدة احتياط القدس التي كانت في الخط آنذاك، وقد ارسل، كسائر زملائه، الى خط القناة قبيل الايام المريعة، ليحلّوا محل جنود الجيش النظامي، الذين مر عليهم زمن طويل في التحصينات، ونالوا عطلة عيد خاصة. عندما وقف خارج الدشمة، في الساعة ١٤،٠٠، شاهد وهو مذهول ثلاث طوافات تمر فوق مياه القناة الزرقاء، وقبل ذلك ببضع ثوان شاهد زميله آفي يعلق ثيابه الداخلية، لتجف، على سياج الاسلاك المحيط بالتحصين. وعندما اتجه نحو دشمة القيادة ليستوضح ما يجري، بدأت القذائف الاولى تتساقط على المباني الخشبية والصفيحية داخل باحة التحصين، وحول حواجزه الترابية، ثم وقع انفجار هائل بالقرب من مدخل الدشمة، فخيِّل اليه انها ستردم من شدة الانفجار. ولم يكن قادراً على الكلام من شدة الصدمة، وقطع الامتار الاخيرة الى الملجأ زحفاً، وهو يتلمس طريقه وسط الدخان الاخضر الكثيف الذي ملأ أنفه ورئتيه بالرائحة النتنة.

تسرَّبَ الدخان الاخضر الى داخل الدشم، التي بحث فيها المقاتلون عن ملجأ لحمايتهم، وملأ فضاءها واثقل التنفس، فتوقف الرجال عن اعمالهم، وشخصت ابصارهم المتسائلة الى «الطبيب» الذي طمأنهم: «هذا مجرد دخان عادي»، وقال انه «من النوع العادي، لتشويش الرؤية».

بدأت أجهزة اللاسلكي من جميع انحاء الجبهة تصفر بذعر، ووصلت التقارير من جميع التحصينات: المصريون يعبرون القناة، اعداد غفيرة من الجنود، مئات

القوارب المطاطية ، والقوارب المصنوعة من الالياف الزجاجية . ومن مدارج العبور ، في الجانب الغربي من القناة ، بدأت المفارز ترسل المركبات المصفحة ، على العوامات ، الى الشرق .

واما مردخاي فكان يجلس مسترخياً على برج المراقبة في التحصين المطل على جسر الفردان ، عندما سمع ، فجأة ، هديراً يصم الآذان ويزداد قوة . فقد مر ، عن يساره ، سرب كبير من الطائرات النفاثة ، على ارتفاع الكثبان الرملية تقريباً ، ولم يرَ شيئاً على سطح القناة . ولكن ، فجأة ، امتلأت المياه امامه بعشرات القوارب ، التي تحمل الجنود المسلحين ، تجدف عابرة الممر المائي من الغرب الى الشرق . قال في نفسه : منظر لا يصدق ، المصريون يعبرون القناة ، ثم تلقى برج المراقبة ، الذي يجلس عليه ، ضربة وبقي معلقاً على ثلاثة أرجل . وشاهد من الزاوية الغربية ، وهو معلق بما تبقى له من قوة بالافريز الحديدي الذي كان قد ركز عليه المنظار المكبر ، شاهد مذعوراً عشرات الجنود المصريين يقفزون عن الحاجز ، ويركضون على الرمال المنبسطة أمامه ، ويقتربون من اسوار التحصين ويدسون تحت لفائف الاسلاك الشائكة انابيب سوداء مستطيلة ، قذفت سحباً من الدخان ووهجاً من النيران واعمدة من الرمال . ولم يدرك ، لسبب ما ، لماذا كان الفيلم الذي يدور امامه صامتاً تماماً . كان يخيم صمت مخيف ، ولكن يبدو انه سادت من حوله ضوضاء هائلة ، رجال يركضون ويلوحون باذرعتهم . وانطلقت من المواقع زخات رصاص حتى فرغت الاحزمة . ولكنه لم يسمع شيئاً . واغضبه جداً كونه معلقاً بصورة مقلوبة ، ولم يستطع ان يبلغ عما يجري أمامه ، وفي وقت لاحق فقط ، بعد ان سحب من وضعه المقلوب ، ادرك انه أُصيب بالصمم نتيجة اصابة مباشرة شديدة بقذيفة مدفع مضاد للدبابات ، أُطلقت عليه من الجانب الثاني للقناة ، قلبت برج المراقبة ومزقت أجزاءً من لحم ساقه ، وبقي في التحصين ، على هذه الحال ، يومين آخرين ، يلاحظ الاصوات دون ان يسمع شيئاً .

سمع الجندي افيتان دوي القذائف التي بدأت تنفجر ، فجأة ، داخل باحة التحصين ، وكان أكثر الاشياء تأثيراً فيه صفير رجال الكوماندو المصريين الذين ظهروا حول التحصين ، خلف حواجز الاسلاك ، كأسراب الجراد ببزاتهم الداكنة ، ثم رفعوا قاذفات اللهب التي في أيديهم واخذ الدخان الاخضر يغطي المكان . بعد مضي دقيقة شاهد مذعوراً شخصاً سقط كالعصفور المتراخي الجناحين . « نسف الرجل ببساطة وقضى امام عيني » ، هذا ما رواه بعد ذلك انسان صلب الشكيمة يتمسك بحياته في المعمعة المريعة . وجندي مصري معلق على السياج ، طار من الانفجار ، بينما كان رفاقه يتقدمون ركضاً ، بقي هو يتلوى ويتشنج على السياج حتى همد .

هكذا دهمت اللحظات الاولى من حرب الغفران خط بار — ليف والمقاتلين فيه ،

وقد فوجئوا تماماً . وعلى الرغم من الانباء المتقطعة التي وصلت من قياداتهم ، حول امر وشيك الوقوع ، ورغم الاوامر بالتأهب «لامتصاص الضربة الاولى» ، تم الاستيلاء على الخط بأسره بمفاجأة مطلقة . كان ٥٠٠ مقاتل ، معظمهم من رجال الاحتياط ، يتمركزون في ١٦ من بين ٣٣ تحصيناً في الخط ، وكانت سائر التحصينات خالية . وبين الساعة ١٤,٠٥ — ١٥,٠٠ من يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، كانوا قد سقطوا قتلى على خط الدفاع ، على امتداد قناة السويس ، دون ان يتسنى لمعظمهم معرفة ما حدث ، وهناك من أصيبوا ، بالقذيفة الاولى ، ولم يعرفوا ابداً ان الحرب قد بدأت ، وهناك من سحبوا الى داخل الدشم ، حيث كان يعمل الاطباء والمضمدون لتخفيف آلامهم ، وسمعوا هناك التقارير من اجهزة اللاسلكي ، وعلموا ان الحرب قد بدأت .

في الليلة السابقة ، عبرت وحدات مصرية صغيرة خط المياه بهدف تخريب خزانات الوقود التي أُقيمت بالقرب من بعض التحصينات . لقد تملك المصريين خوف مريع من وسائل دفاعية اسرائيلية معينة ، تناقلوا اخبارها بينهم ، قبل ان يعبروا ١٨٠ متراً من المياه التي كانت تفصل بين مواقعهم الامامية وتحصينات القناة . وحتى قادة الجيش المصري كانوا يعتقدون ان الاسرائيليين مدوا على طول القناة أنابيب وقود تنفتح على قناة السويس ، وعند محاولة عبور القناة تصب الوقود في مياهها وتحولها الى حاجز مشتعل ، يمنع كل امكان للعبور على المياه . ولهذا السبب ارسلوا ، قبل ليلة ، وحدات لتخريب منشآت الاشعال والوقود ، والحؤول دون تنفيذ هذه العملية .

لم يكن خوفهم عبثاً ، فقد كانت هذه المنشآت موجودة في تحصينات قليلة ، ويتم تزويد هذه المنشآت بالوقود واشعالها بالضغط على زر . بيد ان جهاز التشغيل كان مكشوفاً وظاهراً للعيان ، وكان هناك خوف من ان يصطدم به أي جندي خطأ ويتسبب في تشغيله ، واشعال المياه . ولذلك ، ونتيجة إتخاذ تدابير حذر شديدة ، أُلغي مفعول هذه المنشآت ، وأُفرغت الخزانات من الوقود ، ولم تكن هناك اية حاجة لتخريبها ، فلم تكن صالحة للاستعمال .

الا ان الوحدات المصرية ، التي أُرسلت ليلاً الى التحصينات لتخريب المنشآت ، جنت فائدة من نوع آخر ، فقد أكدت افتراض القيادة المصرية بشأن « الغفلة » في الجانب الاسرائيلي . فقد قام المصريون ، عشية الحرب ، بتقريب قوات مدرعة من خط المياه ، وموهوها بالشباك ، وسط النباتات الكثيفة ، بين قناة السويس وقناة المياه الحلوة في غربيها . اما معظم الجسور ومعدات العبور العصرية والمتطورة ، وكلها من انتاج سوفياتي ، فقد أُحضر الى جبهة القناة قبل اشهر كثيرة من اندلاع الحرب ، وأُخفي هناك وراء اسيجة عالية من شباك التمويه التي وصل ارتفاعها الى عشرين متراً . اما المعدات الاخرى والحيوية ، التي كان من شأنها اشعال « الضوء الاحمر » في نظر

الاستخبارات الاسرائيلية ، بالنسبة الى نوايا المصريين ، فقد نقلوها الى خط المياه ليلة الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) بالذات .

لقد حددت القيادة العامة المصرية يوم العبور بناءاً على عدة اعتبارات اساسية ، فقدرت ان تكون الليلة التالية لبدء الهجوم ليلة بدر مكتمل ، حيث يساعد ضوء القمر العابرين خلال الساعات الحرجة . ودرست معطيات سرعة تدفق المياه في القناة لكي تلائم ساعات العبور ، وافترضت ان يكون الاسرائيليون ، في تلك الليلة ، غير مستعدين للرد الى حد بعيد ، فكان يوم الغفران ، بحسب رأيهم ، اكثر الايام ملاءمة لهدفهم . وهكذا وقع الاختيار على يوم الغفران كيوم « ع » .

كان قائد فصيلة الدبابات الملازم أول رامي موجوداً مع سرية دبابات من وحدته على مفترق طرق واسط في هضبة الجولان . وفي الساعة ١١,٠٠ صباحاً ، تقريباً ، تلقى هو ورفاقه انذاراً انه ، بحسب المعلومات ، قد تنشب حرب شاملة بين مصر وسورية وبين اسرائيل . ولم تكن هناك اية معلومات اخرى .

روى رامي : « نحو الساعة الثانية ظهراً سمعنا ضجيج محركات الدبابات ، وهدير الطائرات . رأينا طائرتي « ميغ » تغيران على تل أبو الندى ، فأطلقنا عليهما قليلاً من النيران المضادة للطائرات ، فأخطأناهما ، ولم تهاجمانا . وعلى الفور دخلنا الى الدبابات واخذنا نتحرك نحو الخط . واستمعنا ، بواسطة اللاسلكي ، الى الامر الصادر عن قائد الكتيبة بالتحرك نحو خط القطاع الذي كان علينا ان نحتل مكاننا فيه . وبعد ان قطعنا كيلومتراً واحداً ، تقريباً ، بدأت القذائف تنهال علينا . وكانت جميع الطرق حولنا في مدى الرماية والقصف . وصلنا الى خطنا ودخلنا المواقع . لم نتوقع شيئاً محدداً ، ففي البداية لم نعرف تماماً ماذا سيحدث ، وكيف سنهضمه . فجأة شاهدت عدداً كبيراً من ناقلات الجنود والدبابات السورية تتحرك نحونا ، اخذنا نطلق النار عليها ، ومنذ البداية ، اشتعل عدد من دباباتهم ، بدأنا نحصيها وراح كل منا يصرخ انه يستحق زجاجة شامبانيا — الجائزة المضمونة لكل من يحرق دبابة للعدو — واما بعد ذلك فقد كفوا عن الصياح عندما تلقينا فجأة نبأ اختراق قوة سورية مدرعة ، على بعد كيلومترين تقريباً الى الشمال منا ، فاخذنا نهرول على امتداد الخندق المضاد للدبابات ، الذي حفر لمنع كل محاولة توغل للدبابات السورية ، وعندما وصلنا الى المنطقة التي اخترقوا منها ، كانوا قد اصبحوا خلف الخندق . اتخذنا مواقع وبدأنا نطلق النار فدمرنا هناك نحو خمس دبابات ت. ٥٥ ، وناقلات جنود وغيرها من هذه الاصناف .

« تراجعت الى المكان الذي انطلقت منه ، فشاهدت قوة سورية كبيرة ، منتشرة على امتداد جميع التلال ، مكوّنة من دبابات لاقامة الجسور ، وشاحنات ، ومدرعات

وما شابه ذلك ، فبدأنا اطلاق النار عليها ، واصبنا دبابتين لمد الجسور ، وهربت الدبابة الثالثة . بقينا نخوض معركة مع هذه القوات الى ان استدعينا ، مرة اخرى ، الى السرية ، لانه وصلت الى هناك قوات اخرى . وصلنا الى السرية ، واحترقت هناك إحدى دباباتنا .

« بدأت المعركة في الساعة ١٤,٣٠ ، وفي الساعة ١٧,٣٠ كان قد حل الظلام ، فأضاءوا حولنا عدداً كبيراً من المشاعل . وقد أُصيبت لنا دبابة واحدة فقط ، وجرح قائدها ، وتمكنا من نقله ، واعتقدنا ان العملية توشك ان تنتهي . وفجأة ، وفي نحو الساعة العاشرة ليلاً ، بدأ قصف جاد حتى الصباح ، حيث وصلت قوة سورية عن طريق وادي خان ارنبة ، وانقسمت الى ثلاث وحدات . تلقينا تعليمات بصدها ، وكانت قوتنا مؤلفة من ٦ — ٧ دبابات لا اكثر . اقتربنا الى مكان نستطيع الرؤية منه بصورة افضل لكي نصيبهم ، ثم تحولت المنطقة بأسرها الى ميدان رماية ، وأُصيبت احدى دباباتنا بالمدفعية ، وقتل قائد الفصيلة . بقي لدينا عدد صغير جداً من الدبابات ، فأخذنا نقاتلهم على بعد ألفين وخمسمائة متر ، واوقفناهم عند هذه المسافة .

« بدأنا نطلب ذخيرة ، لانه كان من المستحيل مواصلة القتال بهذه الطريقة . وعندها راحوا يسحبون دباباتهم الواحدة تلو الاخرى » .

بدأت الحرب ، في الجبهة الشمالية ، بقصف مدفعي اشترك فيه اكثر من ١٠٠٠ مدفع ، وبتوغل قاذفات سورية لم تقصد المواقع والدبابات ، بل اتجهت اساساً نحو القيادات الاماميه ، واجهزة الاتصال ، بهدف إصابتها وتعطيلها . ولم تكتف المدافع السورية بقصف المفارق والطرق والمواقع والقيادات ، بل وتعدتها الى المستوطنات المدنية — ليس في هضبة الجولان فقط وانما بعيداً عنها ايضاً ، في السهل الممتد الى غربي سفوح هضبة الجولان .

خلافاً للمصريين ، لم يكن على السوريين اجتياز اي حاجز طبيعي في طريقهم الى خطوط الجيش الاسرائيلي . صحيح انهم كانوا مضطرين ، في أماكن مختلفة ، الى عبور خندق واسع مضاد للدبابات ، اثبت فاعليته ، الا انه لم يكن سوى مشكلة فنية في الاساس . وفيما عدا الخندق ، والمنطقة الجبلية الصعبة لسير الدبابات ، واجهوا عدداً قليلاً من المواقع ، حيث كانت الاسلحة المضادة للدبابات فيها تشمل قنابل مضادة للدبابات ، ومدافع بازوكا قصيرة المدى . وعلى امتداد قطاع طوله نحو ٧٥ كيلومتراً ، كانت تنتشر في مواجهتهم بضع عشرات من الدبابات الاسرائيلية ، التي كانت تعمل أساساً في مجموعات صغيرة . كان الانقضاض السوري ، اذن ، مدرعاً في الاساس ، في ثلاثة ارتال ، في وقت واحد ، ونحو ٦٠٠ دبابة في مواجهة الخطوط الدفاعية الاسرائيلية في الجولان . لم يتسرعوا . تخطوا المواقع وتركوها خلفهم والجنود في داخلها . تقدموا ،

وكأنهم فعلوا ذلك بناء على خطط معدة سلفاً ، نحو مفارق الطرق ومحاور المواصلات الرئيسية في هضبة الجولان .

عندما بدأ القتال ، في الساعة ١٤,٠٠ ، كان قادة الوحدات في هضبة الجولان ، منكبين [على الخرائط – المترجم] في مقر قائد الجبهة ، الذي لا يبعد كثيراً عن خط وقف القتال . وقبل ذلك بنصف ساعة ، اصدروا تعليمات لرجال المدرعات ، الذين كانوا جالسين داخل مدرعاتهم منذ الساعة ١٢,٠٠ « بإلغاء حالة التأهب » ، وكان معنى هذا الامر : ان يبقى واحد في الدبابة ، ويستطيع سائر رجال الطاقم الخروج للراحة . ونزل الرجال من الدبابات ، وهم يتبادلون الابتسام . وعلى الاثر بدأ قصف المنطقة بالمدفعية ، واخذت طائرات « ميغ » تهاجم المباني والدبابات ، في حين كان القادة منكبين على الخرائط ، وهم يفكرون ملياً في كيفية صد الهجوم بالعدد القليل من المدرعات التي في حوزتهم ، حتى تصل قوات الاحتياط . ولدى سماعهم القصف ، انطلقوا الى الخارج ، وسارعوا الى مركباتهم المدرعة .

توجه أحد قادة الفرق نحو الشرق ، وحاول الاتصال بقواته المنتشرة على امتداد قطاع واسع ، وكان معظمها قد بدأ التحرك ، وبعضها بدأ يخوض المعارك ، والبعض الآخر لم يعد له وجود . وتنفس الصعداء عندما تلقى منها اجوبة لاسلكية ، ولكنه لم يعلم ان القوات ، التي ابلغته بوجودها ، لم تعد بمثابة قوات حيث أصيب جزء منها . ولكن لم يكن ممكناً ، في خضم المعركة ، الابلاغ عن ذلك .

تركز الجهد الاساسي للاختراق السوري المدرع ، على المنطقة الجنوبية من الهضبة ، من اتجاه مفرق الرفيد . واسرعت الدبابات القليلة ، التي كانت في ذلك القطاع ، لمساعدة المواقع الامامية ، التي ابلغت انها محاصرة وتتعرض للهجوم ، وبينما استحال الوصول الى بعضها وبقي محاصراً ، استطاعت الدبابات ، في اماكن اخرى ، الوصول الى المواقع وتعزيزها ، او نقل رجالها ، على ظهور الدبابات ، الى اماكن خلفية اكثر أمناً ، خارج الحصار الذي احكمته الدبابات السورية .

في الوقت ذاته ، واجهت القيادة الشمالية مشكلة اخرى ملحة ، فبالاضافة الى صد اختراق الدبابات السورية ، وخلافاً لخط القناة ، وجدت في مرتفعات الجولان سبع عشرة مستوطنة مدنية ، على بعد بضعة كيلومترات من خط النار ، تم ابعاد الاطفال والنساء منها عند الظهر . وقد أخلي معظم المستوطنات من الرجال ، بعد ان بدأت الحرب فقط ، وتوجه هؤلاء الى المؤخرة تحت وابل من القذائف . كانت مشكلة الاخلاء ، في الساعات الاولى من الحرب ، تثقل عمل القوات المقاتلة .

في موقع أمامي في هضبة الجولان ، يقع على تلة مسيجة بالاسلاك الشائكة ، جلس يهوشع غرين ، ١٩ سنة ، فتى متدين من تل أبيب ، عضو في حركة الشبيبة المتدينة

« بنيه عكيفا » ، وكان قد وصل الى هذا المكان مع وحدته ، قبل خمسة ايام فقط ، ليحتلوا اماكنهم في الموقع الذي كان ، حتى ذلك الحين ، تحت سيطرة وحدة من جنود لواء «غولاني» ، — لواء من سلاح المشاة النظامي يعرفه جنود منطقة هضبة الجولان جيداً — الذين نقلوا الى تل أبيب استعداداً لاجتماع كان سيعقده لواؤهم هناك ، في بداية شهر تشرين الاول (اكتوبر) .

كان يهوشع غرين قائد فصيلة ، وقد وصل الى الموقع قبل يوم من وصول فصيلته ، لكي يتعرف من جنود « غولاني » ، الذين كانوا موجودين هناك ، على القطاع وعلى طرق استخدام الموقع . قال غرين : « كنا نزاول في الموقع نشاطاً عادياً . وفي أثناء الليل ، كنا نشاهد مركبات كثيرة تتحرك في الجانب السوري . بلّغنا عن ذلك . في مساء يوم الجمعة ، كانت الحراسة ، في الموقع ، عادية . تناولنا وجبة الانقطاع استعداداً ليوم الغفران ، وتناول غير المتدينين وجبة طعامهم في وقت لاحق . عدت لأصلي مع ملازم . كان الرفاق ينتمون الى مستوطنات ناشئة ستنضم في المستقبل الى مستوطنات الناحل . كان كل شيء عادياً ، باستثناء انه ارسل الينا ، مساء يوم الجمعة ، ثلاثة جنود لتعزيز الموقع » .

كان الموقع الذي يجلس فيه يهوشع موجوداً على خط وقف القتال ، في مواجهة وادي الرقاد في هضبة الجولان ، في منطقة مستوطنة رامات مغشميم . لم يبد الوضع خطراً فقد ذهب قائده ، يوم الجمعة ، في اجازة الى كيبوتس شاعر هغولان ، ووصل الى الموقع ، بدلاً منه ، ضابط شاب آخر من الوحدة .

في الساعة ٨,٠٠ صباح يوم السبت أبلغ جنود الموقع باعلان التأهب لمواجهة القصف والغارات ، فسارعوا الى الدخول الى التحصينات المخندقة والمحمية .

[:.......]

في الساعة الثانية إلا خمس دقائق ظهراً ، وبينما كان يهوشع في نقطة المراقبة على مدخل الموقع ، اراد تأدية الصلاة النافلة ليوم الغفران ، فاستبدله جندي آخر ، ودخل هو الى احد الدشم ، واخرج كتاب الصلاة وبدأ يصلي بخشوع . سمع ، فجأة ، اصوات متفجرات في ساحة الموقع ، فترك كتاب الصلاة وركض الى الخارج . كانت المدافع السورية جيدة التصويب ، فسقطت القذائف على الموقع مباشرة ، وقد قطع الاتصال بين المراكز التي امر قائد الموقع باحتلالها . وقال يهوشع : « استمر القصف السوري نصف ساعة ، وفق تزامن منتظم ، فقد سقط علينا رشق من القذائف كل اربع دقائق ، وعرفنا ان لدينا ثلاث دقائق هادئة بين رشق وآخر » .

نزل الى مركز قريب من مدخل الموقع ، حيث كان بالامكان رؤية السوريين ،

الذين احضروا دبابات لاقامة الجسور فوق الخندق المضاد للدبابات ، الذي كان يفصل بين المواقع السورية والاسرائيلية . وقامت جرافة سورية بتجميع اكوام التراب لردم الخندق ، ولم يتعرض لهم جنود الموقع ، لعدم وجود اسلحة مضادة للدبابات ، لديهم ، لكي يطلقوا النار من هذا المدى .

في الساعة ١٥,٠٠ بدأت الدبابات السورية تعبر الخندق . وروى يهوشع قائلاً : « عبروا من جانب موقعنا ، وليس في مواجهته . كانت هناك نحو ٢٠ — ٣٠ دبابة عبرت الجسور ، وخلال بضع دقائق كانت طائرات سلاحنا الجوي تحلق ، وقد ضربت دبابة سورية واحدة على الجسر بالذات ، ولكن السوريين كانوا قد اقاموا جسراً ثالثاً على بعد ٢٠ متراً . وفي الوقت نفسه تقريباً وصلت دباباتنا ايضاً الى المكان ، واخذت تضربهم ، وبدأت بعض دباباتهم تحترق » .

بعد مضي نحو ساعتين ، حاولت ٣ دبابات سورية التقدم الى الموقع نفسه ، واستطاعت دبابة واحدة منها ان تدوس الاسيجة وتصعد الى الموقع ، فوصلت حتى مركز المدفع نفسه ، وهناك أُصيبت بقذيفة بازوكا ، أُطلقت عليها عن بعد ٢٥ متراً . كان مدخل الموقع مفتوحاً لانه كان يغلق في اثناء الليل فقط . وقفز من داخل الدبابة السورية اثنان من رجال المدرعات ، وحاولا الهرب ، فألقيت عليهما قنابل يدوية ، اصابتهما فقتلا على الفور . ووصلت دبابة سورية اخرى ، في اعقاب الدبابة الاولى ، فاصابها قائد الموقع يوسي ، ببندقية قاذفة للقنابل المضادة للدبابات ، واوقفها . فقفز رجال الطاقم الاربعة الى الخارج ، فاطلقت عليهم النار عن قرب ، ولكن محرك الدبابة استمر في العمل ، وكان خزان الوقود فيها مليئاً ، وبقيت واقفة على مدخل الموقع ، ومحركها يعمل ويهدر دون انقطاع طوال ٤٨ ساعة التالية .

وبعد ان خيم الظلام ، ارسل يهوشع ليزرع الالغام في مدخل الموقع ، منعاً لدخول الدبابات السورية ليلاً . والحقيقة ان دبابة سورية وحيدة حاولت اختراق الموقع في الليل ، ولكنها مرت على لغم ، فأعطبت ، وهرب طاقمها . وفي تلك الليلة دخلت الى الموقع دبابتان اخريان ، الا انهما كانتا تابعتين للجيش الاسرائيلي ، وأُصيبت واحدة منهما فالتجأ طاقمها الى الموقع بحثاً عن مخبأ . ثم وصلت دبابة أخرى ، لتأخذ الذخيرة من الدبابة المصابة ، بعد ان نفدت ذخيرتها . وفجأة بدأت قذائف الدبابات تصيب مراكز الموقع ، وكان من المستحيل مشاهدة الدبابات التي تطلق النيران ، فأطلقت من داخل الموقع ، قذيفة مدفع مضيئة ، أضاءت المنطقة المحيطة بالموقع كالنهار ، لمدة بضع دقائق ، فتمكنت الدبابة الصالحة للاستعمال ، التي كانت في الموقع ، من اطلاق النار باتجاه الدبابات السورية ، فأصابت ثلاثاً منها ثم غادرت الموقع لتعود الى وحدتها . ولكن دبابات سورية اخرى ظلت تصل الى حيث أُصيبت رفيقاتها ، ولم تكن هناك

أية وسيلة لضربها ، فحاول ايلي ، الرقيب المسؤول عن مدفع الهاون في الموقع ، اطلاق النار عليها من مدفع ٨١ ملم ، فوقعت قذائف المدفع بين الدبابات السورية . وتوقفت عندما أُصيبت واحدة منها .

استمرت الدبابات السورية ، طوال تلك الليلة ، تمر على اطراف الموقع متجهة الى الداخل الى قلب هضبة الجولان . وادرك رجال الموقع انهم محاصرون ، وكل ما بقي لهم القيام به هو إرسال التقارير الى المؤخرة ، عن عدد الدبابات المتوغلة وتصويب نيران المدفعية الاسرائيلية عليها . وقال يهوشع : « شاهدنا قوافل قوافل من الدبابات ، من طراز ت ٥٥ ، تسير الى الغرب . وكانت الدبابات تتدفق طوال الوقت . وسمعنا من الاذاعة عن قتال دائر في قناة السويس . وقع لنا جريح واحد في الموقع . وبقينا وحدنا فعلاً » .

وليس بعيداً عن موقع يهوشع حاول بوعاز ، احد رجال مستوطنة حوفيت ، ان يصد ، بدباباته ، هجوم الدبابات السورية . وعندما بدأ اطلاق النار في الساعة الثانية ظهراً ، لم يكن يعرف بعد ان الحرب الشاملة قد بدأت فعلا .

روى بوعاز : « وفي مساء يوم الجمعة كانت لدينا مجموعة من الاوامر . وضعنا خطتنا ، على اساس دفاعي ، ولم تكن هناك أية نية للاختراق ، او للقيام بأي عمل هجومي ، وكل ما فكرنا فيه ، وخططنا له ، كان محصوراً في الدفاع عن النفس . ومن ناحية استطلاعية ، عرفنا ان السوريين ادخلوا قوات هائلة الى القطاع ، ولم نعرف اي شيء عما إذا كانت الحرب ستقع ، ومتى ستندلع ، وكل ما ابلغنا به ان الامر قد يتفاقم غداً . وفقط في يوم السبت صباحاً ، ابلغنا ان هذا الامر قد يكون اكثر خطورة . على الرغم من انني تجولت على امتداد الخط ، كانت الحياة الريفية تبدو طبيعية جداً ، وفي الجانب السوري ، كان الرعاة مع قطعانهم . كان من الصعب الاعتقاد اننا نسير حقاً نحو حدث ما ، او حتى نحو يوم قتالي واحد ، كما حدث لنا في ٨ كانون الثاني (يناير) او في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ، كان هذا هو الشعور السائد . زعم شخص ما ان هناك احتمالات جادة بان يحاول السوريون التغلغل الى الداخل ، والقيام بعملية صغيرة خاطفة ضد موقع ما ، او القيام بعمل ما ، في قطاعنا » .

وفي ساعات الظهيرة يوم السبت ، كانت الدبابات ، في وحدة بوعاز ، منتشرة في المنطقة ، ومتأهبة لاحتمالات القصف المدفعي ، وكانت جميع اطقم الدبابات ، على أُهبة الانطلاق والعمل فوراً . بدأت الحرب ، في الساعة ١٤,٠٠ ، بقصف مدفعي هائل غطى منطقة المعسكر السوري السابق ، خشنية . وعلى الفور ، ظهر سرب مؤلف من ٤ طائرات سورية قاذفة ، من طراز سوخوي ، وبدأت تقصف اهدافاً في المنطقة . جمع بوعاز القوة التي كانت تحت أُمرته ، واخذ يتحرك نحو « محور النفط » .

على امتداد هضبة الجولان ، وفي المنطقة التي تحتفظ بها اسرائيل ، يمر جزء من انبوب النفط الكبير ، الذي ينقل النفط السعودي الى مصبه في البحر الابيض المتوسط ، في لبنان . يمتد الانبوب من السعودية عبر الاردن الى الاراضي السورية ، ومن هناك يعبر هضبة الجولان الى لبنان . وهناك ما يشبه اتفاق جنتلمان ، غير مكتوب ، بين جميع الفرقاء في المنطقة ، بإبقاء انبوب النفط — « البايبلاين » — « خارج نطاق » كل حرب . وفي سنة ١٩٦٩ فقط ، خرقت مجموعة من المخربين الفلسطينيين هذا الاتفاق ، ونسفت الانبوب ، فتدفق النفط عندئذ على منحدرات الجولان نحو الاراضي الاسرائيلية ، وهدد بتلويث مياه نهر الاردن . وعندما تم اصلاح الانبوب ، اتخذت ، بمبادرة الشركات الاميركية التي تستخدم الانبوب ، تدابير أمن لحمايته ، فتم تسييج الاراضي على جانبي الانبوب بأسيجة عالية ، وشقت على امتداده طريق لتسهيل القيام بالدوريات والمحافظة على سلامة الانبوب . وهكذا اقيم « محور النفط » ، الذي اصبح ، منذ الساعات الاولى لحرب يوم الغفران ، احد محاور القتال الاساسية في هضبة الجولان .

خلال عشر دقائق ، كانت دبابات بوعاز تتمركز في مواقعها المعدة سلفاً ، على الحدود تماماً ، في المنطقة التي يدخل فيها « محور النفط » من الاراضي السورية الى اسرائيل ، بالقرب من الخندق المضاد للدبابات في المنطقة الحرام . وكانت الطريق المؤدية الى هناك هدفاً للرماية ، وكأن سائقي الدبابات « تسللوا » بين قصف القذائف . وروى بوعاز : « كانت القذائف تسقط على امتداد الطريق ، وكنت أشعر وكأنهم يروننا بوضوح خارق . انهم غطوا هضبة الجولان فعلاً بزخم مدافعهم او باعدادها الكبيرة جداً ، فكانت القذائف تتساقط اينما نظرت . وفي هذه المرحلة ، وببساطة ، لم نعد نعرهم أي اهتمام ، وكأنهم غـير موجودين ، وفي الحقيقة ، لم يعد امامنا اي خيار آخر .

ادخل رجال بوعاز دباباتهم الى مواقعها ، وعلى بعد كيلومتر واحد تقريباً منهم ، كانت تسير ، في خط مستقيم في المؤخرة ، قافلة دبابات سورية لا نهاية لها . وكانت الدبابات الموجودة في هذا القطاع ، تخوض معركة مع القافلة ، وتطلق النار عليها ، ومن جهة اخرى ، أطلقت نيران من المدافع المضادة للدبابات ، من داخل المواقع السورية ، باتجاه الدبابات الاسرائيلية . ومن هذا الاتجاه ظهرت أيضاً اوائل الصواريخ المضادة للدروع . واشتعلت هذه المنطقة المغطاة بالشوك ، كما اشتعلت كل المنطقة المحيطة بها .

روى بوعاز : « والحقيقة ان اول تكهن مر في خاطري ، هو ان السوريين ينوون تنفيذ تلك العملية الصغيرة الخاطفة في هذا القطاع بالذات . ظننت ان الامر في هذه

المرة سيكون صعباً جداً ، فقد كان النشاط مكثفاً ، وكل شيء يجري خلال دقائق . تقدم رتل الدبابات السورية بسرعة فائقة ، وأُصيبت اول دبابتين من الرتل ، ولكن الدبابة التي كانت وراءهما استطاعت ان تتخطاهما وتواصل التقدم . لقد وصلت الدبابات الى مدى ٣٠٠ متر منا . أصبنا لهم بضع دبابات . ولكن كانت تحل اخرى مكانها ، باعداد بدت غريبة لي .

« لم اصدق اننا نستطيع إصابة هذا العدد الكبير من دباباتهم ، بتلك السرعة . وعندئذ ، بدا لي اننا اصبنا الكثير من دباباتهم — خمس او ست . ومع ذلك لم يتضح لي بعد ان الحرب ستندلع ، وان الامر سيتجاوز يوم قتال واحد » .

بدأت دبابات بوعاز تصاب هي الأخرى ، فقد بقيت له ست دبابات في مواجهة عشرات الدبابات السورية ، وبعد نحو ساعتين من القتال ، بقيت له دبابتان . اخذ بوعاز يدرك ان « الامر » خطر .

وقال : « كان الاحساس سيئاً جداً . كانت دبابات السوريين على بعد ١٠٠ او ٢٠٠ متر منا ، وكانت نحو ١٥ منها قد دمرت تماماً ، ولكن دباباتي أُصيبت بمعظمها هي الاخرى . ويصعب تحديد مكان وزمان ونوع القذيفة . فغزارة النيران كانت هائلة . لقد ضربت ، واما هم فقد واصلوا تحركهم دون ان يطلقوا النار علينا . وببساطة ، تقدموا بكتل مندفعة الى الامام دون اعتبار للاصابات في صفوفهم . في هذه المرحلة ، اتصلت مؤكداً انني لا استطيع صد الهجوم دون نجدة . عندها أُصيب رشاش دبابتي بقذيفة مباشرة ، تفجرت وحطمته تماماً . ماذا حدث بالضبط ، لا اذكر . وساد الغموض للحظة . جرحت ، شعرت انني جرحت ، شاهدت الدم ، وكان اهم تشجيع لي عندما نظرت الى يدي وشاهدت الدم ، ادركت انني ما زلت أرى ، وكان هذا اهم شيء عندي . لم يعرف طاقم الدبابة اننا اصبنا ، طلبت من ملقم الذخيرة ان يحاول ادخال قذيفة في المدفع ، فلم ينجح . أُصيبت مؤخرة المدفع إصابة شديدة ، وتعطل كل جهاز اطلاق النار في الدبابة . المدافع الرشاشة ، والمدفع الثقيل ، تعطلت جميعها . كانت لدي بندقية رشاشة ، كلاشينكوف ، تحطمت هي ايضاً وبقيت مجرداً فعلاً من كل سلاح . ادركت ان المهمة الوحيدة امامي هي مواصلة الانتظار ، على الرغم من ان هذا كان صعباً جداً . اخذت اتحرك مع الدبابة ببطء الى الوراء . وكانت الميزة الكبرى عندنا ، والعيبُ الكبير — بالمقدار نفسه — هي الدخان والنار اللذان كانا حولنا . كان يستحيل التمييز بين دباباتهم ودباباتنا ، وينطبق ذلك عليهم ايضاً .

« لو عرفنا وضعنا في هذه المرحلة لادركوا انه غير سار . تلقيت ، في ذلك الحين ، نبأ ان عوزي سيصل الى المنطقة مع قوة مكونة من ٧ دبابات اخرى . طلبت من أحد قادة الدبابات الاقتراب من دبابتي ، وحملته مسؤولية نقل الجرحى والدبابة نفسها .

« كنت أفكر ، طوال الوقت ، اننا لن نبقي لهم أية اسلحة في الميدان . ولكن هذا الشعور اصبح ، بعد ذلك ، سيئاً نسبياً ، لانهم هم الذين نجحوا هذه المرة . ولكن كان من الواضح اننا سنصدهم ، في اللحظة التي سينضم فيها عوزي الي مع قوته . وعندما وصل عوزي صعدت الى الدبابة ، وبدأنا نخوض ، في الواقع ، معركة اختراق لمنطقتهم ، تلك المعركة التي منحتنا المزيد من الثقة ، وخصوصاً ، نتيجة الاحساس بأنه اصبح لدينا مكان نتحرك فيه ، واننا بدأنا العمل . حتى الآن ، حدث كل شيء خلال بضع دقائق من القتال ، وكان هناك إحساس بالعجز ، فقد أُصيبت دبابة تلو الاخرى ، دون ان تتاح فرصة للقتال .

« عندما تقدمنا شاهدنا دبابات مد الجسور ، التابعة لهم ، تعبر الجسور الاولى ، فأصبنا دبابتين منها ، وبعدها بدأنا نلاحظ قوات سلاح المشاة . ومرة أخرى كان الامر غريباً ، في هذه المرحلة ، ولم افهمه ابداً . كانت هناك امواج متتالية من رجال سلاح المشاة ، ركضوا ، وتسلقوا الحاجز . اخذنا نطلق عليهم نيران المدافع الرشاشة ، والاسلحة الخفيفة ، رأيناهم يتساقطون ، ويتراجعون ثم ينهضون مرة اخرى . لم يكن لديهم أية خطة ميدانية او اهتمام بما يحدث ، ولم يحاولوا القيام بأي عمل قتالي ، كالالتفاف ، او الهجوم الجانبي ، ولم يحاولوا عمل أي شيء لتجنب الخسائر بالارواح بينهم . لقد دخلوا فعلاً الى مواجهتنا ، كما دخلت قوافل دباباتهم ، كمن يدق الحائط برأسه . كانت ميزتهم الكثافة والقوة ، ببساطة ، الكتل والاعداد .

« من الصعب على دبابة واحدة ان تتعامل مع ٢٠ دبابة . لم اعرف من اين يضربونني ، ومن اين يطلقون النار ، كان اقصى ما تستطيع عيناك التقاطه هو دبابتان او ثلاث دبابات . وكانت مشكلتي هي كيف احتفظ بعيني مفتوحتين ، لان الدم كان يسيل عليهما طوال الوقت . جعلت طاقم الدبابة يعملون وكأنهم يقومون بالتمارين ، فكانوا يرفعون الي مطرة الماء كل بضع دقائق ، واحدث ذلك تأثيراً لا بأس به . ولكن كان هناك شيء آخر منحني ثقة كبيرة جداً .

« تلقى منظاري ، الذي كان معلقاً في صدري ، شظية خطرة جداً ، فتحطم ، وشعرت انه انقذني . تذكرت ، فجأة ، ان والدي تلقى ، خلال حرب الايام الستة ، شظية في المكان نفسه ، ايضاً في المنظار ، وما زلنا نحتفظ به في المنزل حتى اليوم ، وهذا ايضاً ما انقذه ، وخرج من تلك المعمعة سالماً . كان الشعور ، في هذه المرحلة ، جيداً نسبياً ، كان من الواضح لي انه لن يحدث لي شيء بعد ذلك ، ولكنني كنت حزيناً ، بعض الشيء ، لادراكي ان القوة ، التي كانت معي ، قد ضربت تماماً » .

حتى ساعات المساء واصلت قوة الدبابات التابعة لبوعاز ، محاولة صد سيل الدبابات

السورية التي اخترقت الهضبة ، ولكن السوريين كانوا يرسلون ، بعد كل موجة نصدها ، موجة اخرى من الدبابات وسلاح المشاة لمواصلة الاختراق . وكان عشرات القتلى من الجنود السوريين مبعثرين في الميدان . واحترقت دبابات سورية ، لكنهم واصلوا دفع المزيد من القوات ، دون الاهتمام بالخسائر .

عندما حل الظلام ، انتشرت دبابات بوعاز في منطقة « محور النفط » . كانت هناك صعوبة في رؤية هياكل الدبابات السورية . وفجأة ، هجمت دبابة سورية وحيدة من بعد ٧٠ متراً ، نحو الدبابة التي كان يقف بوعاز على برجها ، وهو مكشوف .

« هجمت بسرعة مخيفة ، واقتربت من دبابتي ، فصرخ الجنود : « تجري نحوك دبابة ! » سورية ، هذا ما فهمته ، لم تشاهدني ويبدو انها كانت مرتبكة . كانت قادمة من منطقة محجوبة عن النظر . ضربناها قذيفة اصابتها دون ان تعطلها تماماً ، فواصلت السير نحوي ، مباشرة ، فبدت وكأنها وشيكة الاصطدام بي . كانت هذه اول مرة اشاهد فيها دبابة للعدو تسير بهذا القرب مني ، شاهدتها من بعد مئات الامتار ، من مدى ١٠٠ متر ، ويعتبر هذا المدى بالنسبة الى المدرعات مسافة لا تذكر . ولكنها المرة الاولى التي اقترب منها بمدى رؤية الانسان الجالس في الدبابة ، ومشاهدة منظار البيريسكوب وسائر التفاصيل الصغيرة في الدبابة .

« اخذت اطلق النار عليها ، فلم توقفها القذيفة ، وواصلت التحرك بسرعة . ورجال الدبابات السورية ، لا يقاتلون ورؤوسهم في الخارج ، بل يغلقون على انفسهم ، داخل الدبابة ، ويقاتلون من الداخل . وصلت الدبابة الى مسافة ١٥ متراً مني ، تقريباً ، فتلقت قذيفة اخرى من دبابة كانت تقف الى جانبي . كان ذلك مباغتة وأعجوبة هائلة في نظرنا . فتح باب الدبابة وقفز منه جنديان سوريان الى الخارج ، فقتلا بنيران الرشاشات . كانت هذه اول مرة يتسنى لي فيها ان افعل ذلك — ان اطلق النار على انسان يقف امامي وهو ينظر الي . بعد كل هذا ، بدأت هذه الدبابة تعود الى الوراء بصورة مفاجئة ، وقد بدت لي ، في تلك اللحظة ، انها عبارة عن شيء يستحيل تدميره . وفي تلك الاثناء تلقت قذيفة قاتلة وهدأت » .

في احدى قواعد سلاح الجو ، استدعي قائد السرب الى مكتب قائد القاعدة ، لتلقي التوجيهات ، فوجد هناك زملاؤه ، قادة الاسراب الاخرى . كان قائد القاعدة يعطي اوامره عندما قطعت صفارة الانذار كلامه ، وانطلق قادة الاسراب ، من مكتب القائد ، كمن لدغهم ثعبان . خرج الطيارون من غرف الاستراحة ، وهم يرتدون اطقم الضغط ، وصعدوا الى الباصات والسيارات الواقفة في جوار الغرف ، وسارعت اطقم الورش الارضية الى اتمام تجهيز الطائرات . ان احداً لم يعرف تماماً ما يجري . والحقيقة

انه ، منذ ساعات الصباح من يوم الغفران ، اصدر الجنرال بنيامين (« بني ») بيلد ، قائد سلاح الجو ، أمراً باعداد الطائرات للتحليق الفوري ، ضمن اطار عملية وقائية مسبقة للحرب التي سيشنها المصريون والسوريون . كان هذا في الوقت نفسه الذي جلس فيه الجنرال ألعازار ، رئيس هيئة الاركان ، امام رئيسة الحكومة محاولاً اقناعها ، بعد ان اصبح واضحاً ان الحرب ستندلع ، انه من المفضل السماح للجيش الاسرائيلي بالمبادرة بالجولة الاولى ، بهجوم جوي على الاقل ، ولكن لم يؤذن له .

منذ مساء رأس السنة [العبرية] وضع سلاح الجو في درجة معينة من التأهب ، في اثر المعلومات حول تعزيز خطوط الجبهة في مصر وسورية . وعلى الرغم من ذلك لم يخطر ببال احد ، حتى في سلاح الجو ، ان الحرب ستندلع حقاً . ومساء عيد الغفران اجتمع ، في احد اسراب طائرات الفانتوم ، بعض الطيارين للعب الورق ، وتركوا الطاولة الساعة ٤,٠٠ صباحاً ، بعد لعبة « ريمي » طويلة وصاخبة استمرت طوال الليل . في الساعة ٦,٤٠ دقت اجراس اجهزة الهاتف الى جانب أسرة الطيارين . وبعد مضي نحو اقل من نصف ساعة ، وغشاوة النوم ما تزال على عيونهم ، جلسوا في غرفة التوجيهات التابعة للسرب . وعندما جرى كلام حول امكان اندلاع الحرب ، ازداد التوتر ، ولكن بعد ذلك عاد الطيارون الى الجلوس والاستلقاء في غرفة الاستراحة ، التي غطيت ارضها كلها بالسجاد الاخضر . اوجدت الانغام الستيريوفونية ، وبار المشروبات الروحية ، جواً حالماً في الغرفة . وتحدث الطيارون ورجال الاطقم الارضية ، الذين تدفقوا باعداد كافية من المدن ، عن استعداد متزايد ، وعن دلائل تشير الى تعبئة الاحتياط . وعندما سمعت صفارة الانذار قفزوا من اماكنهم ، وهم لا يعرفون ماذا حدث . ولكن مرت الفكرة نفسها في مخيلة الجميع : ربما سيحاول السوريون والمصريون الانقضاض على سلاح الجو الاسرائيلي وهو على الارض ، كما فعل هو في اسلحة الجو التابعة لهم ، خلال الساعات الاولى من حرب الايام الستة . وبدأت هرولة مجنونة الى الطائرات .

« فليلزم كل واحد طائرة ! » هكذا صدر الامر .

« كان هناك اضطراب غير قليل » ، هذا ما ذكره احد الطيارين ، وحلقت عشرات الطائرات المقاتلة في الجو للحيلولة دون امكان مهاجمة مرافق سلاح الجو ومدارجه . وبينما كان الطيارون مشدودين الى مقاعد طائراتهم ، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن اندلاع الحرب ، وقد حلقوا وحلقوا ... كانت طائرات اخرى مزودة بالذخيرة استعداداً للهجوم ، تحلق في الجو بانتظار التعليمات بشأن اهداف الهجوم .

وبعد وقت قصير ، نسبياً ، اتضح انه ليس لدى اسلحة الجو المصرية والسورية ، اية نية لمهاجمة سلاح الجو الاسرائيلي في قواعده ، حيث كانت موجات سلاح الجو السوري والمصري تعبر الحدود ، في مهمات هجومية على اهداف ارضية .

كان ق . . الطيار في شركة طيران وأحد رجال الاحتياط . خلال الساعة الاولى من الحرب ، متأهباً للانطلاق في احد اسراب سلاح الجو ذات الاقدمية . وقد انطلق في مهمة ، لكنها أُلغيت وهو في الجو . وروى قائلاً : « امرونا بالعودة ، ولما كانت طائراتنا ملأى بالوقود ، فكرنا انه بامكاننا التجول قليلاً ، وإحراق المزيد منه . وقد تلقينا ، بعد فترة قصيرة ، أمراً بالطيران في اتجاه جنوبي غربي ، نحو هدف يحلق باتجاه الدولة . زدنا السرعة واتجهنا نحو الهدف . رأينا نقطة نارية ، تلمع في السماء متجهة نحو تل أبيب . فلم افكر انه صاروخ ، ولا مجرد طائرة معادية ايضاً ، ولسبب ما ، تهيأ لي انها طائرة تصوير . انحرفت نحو اليمين ، وقررت تدميرها ، وسرعان ما لاحظت انها تسير ببطء اكثر مما اعتقدت . فعدلت الاتجاه واعترضتها . وفيما نحن نعترض الهدف ، انطفأ نوره الاحمر ، وتوقف محركه ، وراح ينحدر ، تاركاً وراءه أثراً أبيض . اضطربنا ، ورأيناه ينحدر أكثر فأكثر . لحقناه وحلقنا فوقه لتحديد نوعه . فرأيت انها طائرة حقاً ، لكن الشيء الغريب انه لم يكن فيها طيار ، فادركنا انها طائرة دون طيار من طراز « كيلط » . وظهر انه صاروخ ذو هيكل مدهون بالاسود ، واخذ يتجه نحو تل أبيب . خففنا سرعتنا ، وناورنا الى ان جعلناه ضمن مدى الاصابة . ثم اطلقت زخة من الطلقات ، من مدى بضع مئات من الامتار . فأُصيب الهدف فوراً في جذع جناحه الايمن ، واخذ يدور حتى لامس المياه التي تصاعدت كمية هائلة منها » .

كانت هذه الطائرة دون طيار ، بمثابة صاروخ جو — ارض سوفياتي ، اطلق اول مرة في مجال البحر الابيض المتوسط ، وهو صاروخ يتراوح وزن رأسه المتفجر بين ٧٥٠ كيلوغراماً وطن واحد . اطلق كما يبدو من طائرة « طوبولوف » مصرية في أجواء بور سعيد . لقد اطلق باتجاه تل أبيب ، بهدف ضرب اكبر تجمع سكاني في البلد ، واثارة الرعب في مواطنيها ، منذ الساعة الاولى للحرب . وكان وجود هذا الصاروخ في أيدي المصريين معروفاً قبل الحرب . [...] ولكن كان إسقاط اول صاروخ في العالم من هذا النوع ، باطلاق النار عليه من طائرة ، وهو لا يزال في الجو ، مصادفة تقريباً .

وبطريق الصدفة ، تقريباً ، اسقطت ايضاً الطائرات المصرية الاولى في الحرب . حدث هذا في الساعة ١٤,٠٥ عندما قامت طائرتان تابعتان لسلاح الجو بدورية في شرم الشيخ . وبينما كانت ٩ طائرات « ميغ وسوخوي » تهاجم ، بموجات متتالية ، منطقة خليج شلومو ، انطلقت نحوهما طائرتا اعتراض اسرائيليتان ، ونشبت عدة معارك جوية فوق شرم الشيخ ، ونجحت الطائرتان في إسقاط سبع من الطائرات التسع التي هاجمت المنطقة .

وهكذا تكررت هذه الصورة في كل مكان : مفاجأة تامة . على الرغم من الامر الصادر بالتأهب حتى الدرجة القصوى ، والذي صدر الى القوات في المنطقة قبل ساعات

من ظهر يوم الغفران ، دهمت الحرب جنود الجيش الاسرائيلي في الخطوط الامامية ، حيث كان معظمهم غير مستعد ، لا نفسياً ولا جسدياً ، لمواجهة الحرب . كيف حدث انه بعد ثماني ساعات من التأكد ان الحرب ستندلع في ذلك اليوم دون ادنى شك ، كان جنود الجيش الاسرائيلي لا يزالون في حالة عدم التأهب ؟

تحدث عن ذلك الجنرال (متقاعد) حاييم بار – ليف : « صباح يوم السبت توصلت القيادة العسكرية العليا الى استنتاج ان العرب سيهاجمون فعلاً ، ولكن هذا الاستنتاج لم يبلغ بصورة كافية وفعالة الى الجنود في الخط الامامي . وعندما هاجم السوريون الجيش الاسرائيلي ، كان بعض جنودنا منهمكاً في الغسيل والآخرون ينتعلون أحذية منزلية ، لانهم لم يعتقدوا بان الحرب ستندلع . ان انعدام التأهب هو الذي أتاح للمصريين تحقيق نجاحاتهم ، وسبب لنا خسائر جسيمة » .

من الواضح ، أنه حدث خلل في مكان ما في سلم اصدار الاوامر . اين كان يمكن ان يحدث مثل هذا الخلل المصيري ؟

في يوم الجمعة ، ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، وخلال ساعات الصباح ، جرى نقاش خاص في الاركان العامة ، ولكن لم يشترك فيه جميع الجنرالات . لقد علم قادة الفرق ، وجنرالات القيادات ، ان المصريين يقومون بمناورة عسكرية بالحجم الكامل لجيشهم . ولكن ، في يوم الجمعة ، لم يكن واضحاً للمخابرات العسكرية الاسرائيلية اذا كانت هذه مناورة جيوش ، ام مناورة قيادات فقط . على الرغم من ذلك ، صدرت أوامر بالتأهب من درجة ج – وهي اخطر الحالات . أُلغيت الاجازات ، وسارت آلة الجيش الاسرائيلي النظامية بسرعة كافية لتنبيه القوات نوعاً ما ، لا اكثر . كان الجميع ما زالوا مقتنعين بأن المناورة العسكرية المصرية ستنتهي خلال وقت قصير .

خلال ساعات الصباح من يوم الغفران ، عقدت جلسة أخرى في الاركان العامة ، وقد وضعت امام المجتمعين صورة جوية تشير الى ان المصريين احضروا ، فجأة ، معدات العبور التي في حوزتهم ، وبحجمها الكامل ، قريباً من خط المياه ، وأدخلوها خلال الليل الى خنادق خاصة أُعدت لاخفائها وخصوصاً ، لحمايتها من ضربات المدفعية الاسرائيلية قبل وقت العبور . وفي اعقاب ذلك ، صدرت تعليمات بتعزيز الوحدات في سيناء بوحدات مدرعة ومدفعية . لقد اتضح في الواقع ، انه سيتم الاعلان عن تعبئة كاملة ، مع انه لم تصدر ، في ساعات الصباح المبكرة ، التعليمات الملائمة لذلك . وخلال ساعات الظهر تقريباً ظهرت دلائل كانت تشكل ، في الواقع ، العلامة النهائية الحاسمة بشأن نوايا المصريين ببدء القتال . وصدرت الاوامر ، في قيادة المنطقة الجنوبية ، للوحدة المدرعة في إحدى فرق سيناء ، بالتحرك نحو مواقع الطوارىء المعدة لها ، ولكن

لم يصدر الامر بالتحرك الى مراكز اطلاق النار المعدة داخل الحاجز الترابي ، على امتداد القناة ، لاستعمال مدافع الدبابات في صد محاولات العبور . قال احد القادة « خشينا ، اذا حركنا الدبابات نحو المراكز الامامية ، ان نستفز المصريين لبدء القتال » ، اي على الرغم من تلقي معلومات اكيدة بأن الحرب ستندلع في ذلك اليوم ، بقي كبار الضباط غير مقتنعين بذلك ، ويخشون اتخاذ التدابير التي قد تفسر بأنها استفزاز .

في الساعة ٨,٠٠ من صباح السبت ، دعا الجنرال البرت مندلر قادة الفرق الموجودة تحت أمرته الى جلسة اركان . نزل القادة من سيارات الجيب الى القيادة الموجودة في مؤخرة الخطوط ، في وسط سيناء ، وكان برفقتهم ضباط استخبارات يحملون تقارير متناقضة . فمن جهة وصلت تقارير مقلقة عن تقريب وسائل العبور المصرية ، ومن جهة اخرى ، افادت تقارير رجال الاستطلاع في التحصينات ان الرعاة المصريين وقطعانهم يشاهدون خلف القناة ، وان الفلاحين يزرعون حقولهم . كما ابلغ ان الجنود المصريين يتجولون على ضفة القناة عزّل من السلاح ، وبعضهم منهمك بالغسيل او الصيد . ولم يلاحظ استعداد واضح للحرب لدى الجنود في الجانب الغربي من القناة .

كان البرت الوحيد الذي قال له احساسه الداخلي ان القضية جادة هذه المرة . عندما عاد قادته الى قياداتهم ، مع التعليمات الملائمة لمواجهة امكان بدء القتال في الساعة ١٨,٠٠ ، صعد البرت الى سيارته وخرج في جولة تفقدية لمعسكر قياداته ، ليتفحص تأهب الاركان ، ومراكز المدفعية المضادة للطائرات ، ولم يعتمد على المعجزات . وفي أثناء الجولة بدأت الطائرات الهجومية من طراز سوخوي تهاجم قيادته وتقصفها .

قال احد القادة « عندما جلسنا مع البرت ، أبلغنا بحالة التأهب ج ، ولكن كانت عندنا مثل هذه الحالة في الخط ، قبل بضعة أيام ، ولم يحدث اي شيء . لم يكن واضحاً لنا انه سيتفجر كل شيء في الساعة السادسة مساء ، لم يقل لنا ان الحرب ستبدأ في الساعة السادسة مساء ، فقد اشار الى هذا بوجود تكهنات ، ولكنه لم يقل لنا ، بصراحة ، ان جميع المدافع هنا ستبدأ باطلاق نيرانها . كان هناك وضع غريب ، ففي اللحظة التي بدأ فيها القتال كان جنود مصريون يقفزون فوق الحاجز في الجانب الغربي من القناة ، ويتجولون هناك ، وكأنهم لا يعرفون بما يحدث . اعتقد ان هناك جنوداً مصريين لم يعرفوا ببدء الحرب عندما بدأت فعلاً . لم يكن معروفاً لنا ، حتى ساعات الظهر ، نوايا تعبئة الاحتياط الكاملة في المؤخرة » .

قال ضابط آخر : « كان لدينا علم بان القتال سيبدأ في السادسة مساء . تقرر التأهب بين الساعة الرابعة والخامسة بعد الظهر . وفي الساعة الواحدة والربع ظهراً صدر أمر بالتأهب . وبينما كنا نبلغ أوامر التأهب بدأ القصف الجوي على الطاسة ، وعندها

فقط وجدنا انفسنا في خضم الحرب . وبينما كانت القوات تواصل احتلال مواقعها حصلنا على تقارير تشير الى بدء القصف على التحصينات وكذلك العبور . ارسلنا سرايا مدرعات الى مقدمة الخط . ولكن ، في الساعة الثانية ظهراً ، لم تكن التحصينات في حالة استنفار شامل بعد . وكان عدد من الرجال صائمين . كان في أحد التحصينات ضابط استخبارات يلخص للرجال ما قد يحدث ، وفيما هو يفعل ذلك بدأ القصف . كان بعض الرجال في التحصينات دون أحذية . وكان هناك ايضاً الكثيرون من المتدينين ، في لواء القدس ، ويتجولون داخل التحصينات بالصنادل » .

عندما اتضح ، مع القصف المكثف على التحصينات ، ان المصريين بدأوا العبور ، وانهم ينقلون وحدات مجوقلة الى عمق سيناء ، ارسلت الدبابات الى الخطوط الامامية لتعزيز التحصينات واحتلال مواقع اطلاق النار على امتداد القناة ، وهنا كانت تنتظرهم مفاجأة اخرى غير مفاجأة بدء الحرب نفسها . لم يستطيعوا الاقتراب من خط المياه ، وبينما كانوا على بعد بضع مئات من الامتار عن الحاجز الترابي على امتداد القناة ، أُصيب الكثيرون منهم ، ولم يعرفوا مما أُصيبوا .

ومن قواعد اطلاق الصواريخ التي اقامها المصريون في الجانب الغربي من القناة ، اطلقت نحو الدبابات الاسرائيلية ، التي هرولت نحو القناة ، مئات كثيرة من الصواريخ الجديدة المضادة للدبابات من طراز « ساغر » . وبعد دقائق قليلة اطلقت نحوهم ايضاً الصواريخ نفسها ، ولكن من الجانب الشرقي للقناة هذه المرة ، حيث تمركز عشرات الآلاف من الجنود المصريين الذين عبروا القناة . ولم يكن رجال المدرعات مزودين بالتوجيهات ، ولم يكونوا مستعدين لمواجهة احتمال ان يجري لهم مثل هذا الاستقبال .

أُلغيت جميع الاجازات في سرية المدرعات التابعة لباروخ (باري) شمير ، منذ يوم الخميس ، اي قبل يومين من بدء الحرب . وقد اتخذت مواقعها في القطاع الاوسط من القناة ، على بعد نحو سبعة كيلومترات من خط المياه . كانت معظم سرايا الدبابات في سيناء ، منتشرة كسريته في الخط الثاني ، والآن ، كلفت بالوصول الى خط المياه ، في المناطق المخصصة للعبور ، لمنع إقامة رؤوس جسور ، او عرقلة خطوات المصريين الاولى على الاقل . ولكن المصريين لم يستعملوا مناطق العبور فقط ، فقد عبر عشرات الآلاف من جنود سلاح المشاة ، على امتداد ١٦٠ كيلومتراً على طول القناة ، في الفسح التي بين التحصينات .

عندما تلقت سرية باري الامر بالانطلاق ، تأهب رجال المدرعات للانطلاق السريع ، وصعد معظمهم الى الدبابات . وقال باري : « ان اكثر شيء حظي باهتمامي هو ان تكون لدينا كميات كافية من السندويتشات ، والملابس الداخلية ، وكراسات المطالعة ، لتمضية الوقت . كنا نظن اننا خارجون في نزهة طويلة ، وخفت من الملل » .

علم باري ورفاقه ببدء الحرب عندما اخذوا يركضون ، وسط النار ، في منبسطات مكشوفة ضمن مدى الرماية . باري ، الملقب « بوجه الطفل » ، هو رجل مدرعات في الخدمة النظامية منذ سنة ونصف ، وكان يعمل ملقم ذخيرة في دبابة قائد السرية . كانت له مشكلات مع مؤخرة الدبابة ، حيث تعطلت محاورها . والحقيقة ان عدم اغلاق المؤخرة كما يجب ، هو الذي انقذ حياته . وعلى بعد نحو ٤٠٠ متر من التحصين الواقع بالقرب من البحيرة المرة الصغيرة ، بمحاذاة التصاق البحيرة بالقناة ، توقفت دبابته وبدأت تطلق النار . لقد اطمأن المقاتلون في الدبابة عندما لاحظوا ان الاهداف التي تواجههم هم رجال سلاح المشاة ، وليست المدرعات المصرية . كان ذلك ، بالنسبة اليهم ، حقيقة مفاجئة ومطمئنة في الوقت نفسه . وقال احد رجال المدرعات ، « لقد بدا لي هذا وكأنه انتحار من جانبهم » .

قال باري : « علمونا في المدرسة ان الدبابة هي المشكلة ، دبابة العدو — هدف اول — والمدافع المضادة للدبابات — الهدف الثاني — وبعد ذلك تطلق النار على سلاح المشاة » . خلال ربع ساعة غيرت دبابة القائد ثلاثة مراكز . كان يبدو لباري انه جيد التصويب ، فما دام شريط المدفع الرشاش ، في الدبابة ، يفرغ الرصاص كان الجنود المصريون يسقطون فوق الرمال . ولكن الحركة الجماعية لم تتوقف . لم يتنبه باري لما يحدث ، كان منهمكاً بإلقاء قذائف مدفع الدبابة الفارغة الى الخارج ، عندما شعر ، فجأة ، بالنار تشتعل في مؤخرة المدفع . اعتقد في البداية ان قذيفة انفجرت في بيت النار ، ولكنه شعر آنذاك بحرق في ذراعيه ، واستطاع ان يلقي بنفسه الى الخارج من المؤخرة التي بقيت مفتوحة ، لحسن حظه ، وتدحرج بضع مرات على الرمال ، واتضح له عندئذ ان ثيابه لا تشتعل .

اشتعلت النار في دبابته ، « كما اشتعلت في علبة السندويتشات ايضاً ، فتأسفت عليها » ، روى بعد ذلك ، « نظرت حولي فشاهدت قذائف نارية مشتعلة ، ترقص في الجو ، وهي في طريقها الى دباباتنا القريبة مني ، لم افهم بعد ماذا يحدث ، ولكني فهمت في وقت لاحق ان هذه صواريخ ، وان سلاح المشاة الواقف امامنا لا يقل خطورة عن الدبابات ، التي لم نرها ابداً . سمعت بهذه الصواريخ في مدرسة المدرعات ، ولكن لم يضعوا هذه الاسلحة ابداً في رأس سلم الاولويات . كان هذا ، بالنسبة الي ، مفاجأة تامة . وطوال ذلك اليوم كنت أُشاهد هذه القذائف النارية تتنزه في الصحراء ، وهي تنطلق من قلب الرمال . اقترب باري ، ورفاقه الذين قفزوا من داخل الدبابة ايضاً ، من الدبابة المشتعلة ، وانزلوا منها غالون ماء ، وانتزعوا المدفع الرشاش من برجها ، وحملوا معهم قنابل يدوية وقنابل دخان ، حتى ان السجاير التي اعدوها في الدبابة لم ينسوها . لقد عانى قائد السرية ، ورجالها جميعاً ، من حروق في أيديهم ، في الاماكن التي كانت فيها اكمامهم المضادة للنار مثنية .

روى باري : « كنا مذهولين ، فقد بكى رجل المدفع ، وكنا لا نزال لا نفهم ما يحدث . اختبأنا وراء تل من الرمال ، وكنت افكر طوال الوقت بهذا الصاروخ الغامض . لم أكن اعرف بعد ماذا يسمونه ، ولا انه عندما يخترق الدبابة يولد موجة من الحرارة تزيد عن ١٠٠٠ درجة مئوية ، وانه يدمر اجهزة الدبابة ، ومن شأنه احراق كل من يجلس فيها . لم يكن حظ الدبابات الاخرى في السرية بأوفر من حظنا ، فعندما نظرنا من خلف التلال الرملية ، شاهدنا مشاعل محترقة . كانت هذه ، فيما مضى ، دبابات السرية » .

خلال ربع ساعة بدأ رجال المدرعات الناجون يسمعون صفير رجال الكوماندو المصريين ، « بدأوا يمرون امامنا متجهين نحو الشمال الشرقي ، على بعد ٥٠٠ متر منا ، ثم شاهدناهم يغرزون علماً في الحاجز الترابي ، وتعرف القائد على العلم بانه علم مصري . سمعناهم يتكلمون بصوت عال ، جماعات جماعات ، كقطعان من البشر حقاً . هجرنا المكان ، ولم نأخذ الغالون معنا لعدم وجود من يستطيع حمله ، فقد كانت أيدينا ، كلنا ، محترقة . حمل القائد المدفع الرشاش المليء بالرمل ، وحملت انا اشرطة الرصاص . قررنا عدم اطلاق النار إلا في حالة الرد عليه . وكان مع السائق مدفع عوزي ، وقد امسك هو ورجل المدفع قنابل يدوية جاهزة للاستعمال ، وفي لحظة معينة وصلت اربع طائرات فانتوم ، حلقت على ارتفاع منخفض جداً فوقنا ، ثم انتشرت فوراً ، على الجوانب ، كالزنبقة . عادت كما جاءت . استغربنا . لم يحدث اي شيء . لاحظنا في الجهة اليمنى دبابة تشتعل ، واعتقدنا انه قتل جميع من فيها ، وبعد ذلك شاهدنا قائد الفصيلة يخرج منها ويركض شرقاً . اطلقوا عليه النار ، اعتقد ان ساقه قد كسرت . وجرح سائقه جرحاً بليغاً وأغمي عليه . واتضح لي بعد ذلك انه استطاع ان يزحف الى مفترق الطرق فالتقطوه هناك . تحركنا من مكاننا خمسين متراً جانباً ، وعادت طائرات الفانتوم تحلق مرة اخرى ، كانتا هذه المرة طائرتين ، شاهدناهما تتجنبان الصواريخ التي تطلق عليهما ، والتي بدت لنا كأعمدة الكهرباء . بقينا وحدنا في المنطقة ، ومرت دبابة مسرعة بقربنا ، وابتعدت عن المكان . ومر بجانبها صاروخ صغير ولكنه لم يصبها . قررنا الانتظار حتى الليل ، خفنا من التحرك ، كان المكان يعج برجال الكوماندو المصريين . تحركنا حتى المساء ٣٠٠ متر أخرى ، وعند المساء فقط اكتشفنا دبابتنا على بعد ١٠٠٠ متر منا ، وكانت المنطقة التي انتشرت فيها عرضة لقصف مدفعي شديد ، فلوحنا لها بأيدينا ، خوفاً من ان تطلق علينا النار ، وفي البداية فعلت ذلك حقاً . لاحظنا انها تصيب رجال سلاح المشاة المصريين ويرد عليها هؤلاء بنيران الصواريخ والاسلحة الخفيفة . وفي النهاية شاهدونا وحملونا على الدبابة . جلست في مقدمتها ، وكانت يدي تؤلمني ، لم ارد ، في الحقيقة ، العودة والدخول الى دبابة ، ولكني فعلت ذلك في وقت لاحق مرة اخرى » .

ان الجزء الاكبر من الموجة ، التي كان من المفروض ان تكون هجوماً مضاداً على قوات العبور المصرية ، سحق في معارك اشتباكية متواصلة استمرت ساعات طويلة . واخذ العبور المصري الذي بدأ في الساعة ١٤,٠٥ تماماً ، يتسع . وبعد الاستماع لاذاعة القاهرة ، التي اعلنت عن ساعة العبور المحددة بشيفرة بسيطة ، حيث كرر المذيع التشديد على ان « الساعة هي الثانية وخمس دقائق » ، اخذ آلاف المصريين يعبرون القناة على طول امتدادها ، في وقت واحد . ففي البداية ارسلوا جنوداً بقوارب من المطاط ليتخذوا مواقع في الحاجز الموجود في الضفة الشرقية ، وتحركت في اعقابها مجموعات من رجال المدفعية المائية ، التي راحت تفتح ثغرات في الحاجز الرملي بواسطة خراطيم تضخ المياه من القناة بقوة اندفاع هائلة مخترقة الحاجز .

نجح هذا الاختراع بصورة مدهشة ، واتضح ان المصريين جربوه في الماضي بنجاح . وقد فشلت مثل هذه التجارب التي اجريت في اسرائيل ، في اجهزة من هذا النوع لاختراق حاجز ترابي ، بينما مكنت المضخات الروسية ، ذات القوة الجبارة ، من تركيز قوة اختراق هائلة للمياه .

حاولت بعض التحصينات خوض معارك مع المصريين الذين عبروا الى جوارها ، واخذت القوارب المصرية تنشط وهي في المياه ، ولكن الجنود المصريين اتجهوا نحو الشرق سباحة . لقد طفت جثث المصابين على سطح الماء ، بحيث اصبحت صورة الجثث المتحركة مع التيار البطيء لمياه القناة جزءاً لا يتجزأ من مناظر الحرب في هذه الجبهة حتى انتهائها . واخذت المدفعية المصرية تعمل ، في الوقت ذاته ، فاستخدم المصريون نحو الفي مدفع ، من جميع الانواع ، لتغطية عبور القناة ، فراحت هذه المدافع تدك التحصينات ، والسراديب ، والهوائيات ، والمباني ، والحواجز . وحمل الجنود المصريون ، الذين انطلقوا الى اعالي الحاجز الترابي شرقي القناة ، معهم معدات كثيرة وثقيلة ! : أدوات لحفر الاستحكامات ، وكمامات غاز ، ومطرات ماء ، وخناجر ، ووجبات خاصة للقتال ، وكان كل واحد منهم مزوداً بكمية إضافية من القنابل اليدوية ، والمواد المتفجرة ، والذخيرة . وبالاضافة الى ذلك حملوا معهم حقائب ، كانت تشكل أهم عنصر في المعركة التي جرت بعد ذلك ، وكانت شبيهة بحقائب جيمس بوند ، وضعت في داخلها صواريخ « ساغر » .

عبر القناة اكثر من ٨٠٠٠ جندي ، خلال المرحلة الاولى من العبور . وخلال ٢٤ ساعة كانت خمس فرق مصرية ، من المشاة والمدرعات ، تتمركز على بعد خمسة كيلومترات من الضفة الشرقية للقناة ، وقامت بتطويق كامل لخط التحصينات بأسره ، ألا وهو خط بار — ليف .

سمعت ، في مدن اسرائيل ، وطرقها ، ومستوطناتها ، صفارات الانذار في الساعة

١٤,٠٠ تماماً ، حيث كان مئات الآلاف من مواطني اسرائيل في الكنس ، يلفون انفسهم بوشاحات الصلاة ، ويتمايلون بمثابرة ، ويتعبدون خالقهم ، ملتمسين منه السماح والصفح عن جميع الخطايا التي ارتكبوها خلال السنة . ويوم الغفران هو يوم التعطيل الشامل الوحيد في دولة اسرائيل ، فلا يفتح حانوت او ورشة في هذا اليوم ، وتخلو الشوارع والطرق من الناس والسيارات ، ولا يجرؤ ، عادة ، سوى الاطباء او رجال الجيش ، على تدنيس حرمة العيد ، بالسير في الطرق خلال هذا اليوم . وهذا هو اليوم الوحيد من ايام السنة ، الذي تشل فيه جميع وسائل الاتصال في الدولة . والاذاعة والتلفزيون لا يعملان . حتى ان اليهود غير المتدينين ، والذين لا يحافظون على الطقوس ، درجوا على تخصيص يوم الغفران ، كيوم واحد في السنة ، يتوبون فيه ، ومع عدم ايمانهم ، فانهم يتقبلون حكم التقاليد اليهودية المتشددة ، والتي تقتضي الصيام الجسدي والروحي في هذا اليوم .

ان الذين لا يشتركون في الصلوات في الكنس ، يعتكفون عادة في منازلهم . فالاسرائيلي الذي اعتاد الخروج من منزله الى احضان الطبيعة ، او الى معارفه في المدن الاخرى ايام الراحة والاعياد ، يتعبد مع عائلته في هذا اليوم . فالهدوء والصمت والسكينة توحي بجو من التعبد والقدسية ، يخيم على شعب اسرائيل بأسره يوم الغفران .

لقد لاح شيء ما في الافق منذ فجر يوم الغفران ، ٦ تشرين الاول (اكتوبر) . تكاثرت السيارات في الطرقات . كانت قليلة في البداية ، ولكنها اخذت تزداد بمرور الساعات . لقد رجم بعضها بالحجارة من قبل المتدينين المتعصبين المتطرفين ، الذين ارادوا المحافظة على قدسية العيد ، ولكن الحركة ازدادت في الشوارع والطرق ، واخذ الراكضون المذعورون يستدعون ، بالسيارات ، المجموعات الاولى من المجندين من المنازل ، ثم يتفرق هؤلاء ليستدعوا بدورهم الرجال وجنود الاحتياط من منازلهم بالباصات . وسارع الآخرون ، الذين لاحظوا انهم يستدعون رفاقهم دونهم ، الى الاتصال بمكاتب الارتباط في وحداتهم ، وتدفق الرجال خارجين من منازلهم ، باللباس الكاكي ، والحزامات ، والحقائب على أكتافهم .

حوّل المصلون في الكنس انظارهم عن كتب الصلاة التي في ايديهم ، وعن توابيت العهد ، الى النوافذ ليروا ما يجري في الشوارع . وزاد من الاحساس بالتوتر هدير الطائرات ذهاباً واياباً في السماء ، وهو منظر غير معهود في يوم الغفران . حتى ان جماعات التجنيد وصلت حتى الكنس ، وتسللت بين المصلين ، واخرجت من بينهم الذين استدعوا للالتحاق فوراً . وحتى في اكثر الضواحي تديناً في القدس ، خرج الشبان ذوو السوالف من الكنس ، وتحولوا ، خلال ساعة واحدة ، الى جنود مستعدين للذهاب الى المعركة .

عند ساعات الظهر حيث ازدادت الحركة وتحولت الى تعبئة مذعورة ، كان قد اتضح ان ذلك ليس تدريباً على حالة الطوارىء. خرج المصلون من الكنس ، وتهامسوا ، وتعقبوا ، بتوتر ، السيارات التي جمعت الجنود من منازلهم . وظهرت من نوافذ المنازل الامهات ، يحملن اطفالهن ، ويلوحن بأيديهن لرب العائلة الذي خرج باللباس الكاكي الى الطريق . وانتشرت الشائعات في الجو ، وانتقلت من شخص الى آخر همساً ، ولم يعرف احد ماذا يجري تماماً . ولان الاذاعة كانت صامتة ، لم يكن بالامكان الحصول على معلومات وثيقة . ولكن حتى في ذلك ، اعتقد الجميع ان هذه التعبئة المفاجئة ستستمر يوماً او يومين فقط . وعلى الرغم من ان بعض سكان المنازل النشيطين أخذوا يخلون اكوام النفايات من الملاجىء وسراديب المباني لاعدادها وقت الضيق ، وعلى الرغم من ازدياد جو التوتر ، تذكر الجميع ايام حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

تذكروا الخوف الذي انتابهم قبل ايام الحرب ، وخلال ايامها الاولى ، وتذكروا كيف فوجئوا عندما سمعوا ، اول مرة ، عن انجازات الجيش الاسرائيلي ، فأكدوا ، هذه المرة ايضاً ، بينهم وبين انفسهم ، انه لا يوجد سبب للقلق ، وليس هناك ما يدعو الى الخوف . لا ينبغي الوقوع في الفزع ، فالجيش الاسرائيلي لم يكن ابداً اقوى مما هو عليه ، ووضع دولة اسرائيل الامني لم يكن افضل مما هو عليه ، وهذا ما كان يكرره القادة على مسامعهم صباح أمس .

ان صفارة الانذار ، التي شقت سماء اسرائيل في الساعة ١٤,٠٠ ، دهمت سكان اسرائيل وهم في ذروة خلودهم الى السكينة وانعدام التأهب . فالتقصير الكبير إزاء انعدام التأهب للحرب كان مشتركاً بين الجبهة والمؤخرة .

الفصل الرابع

ليس بالدماغ وحده بل بالعقل ايضاً (*)

بعد نحو ثلاثة أسابيع من سريان مفعول وقف القتال في حرب يوم الغفران ، وقف موشيه دايان ، وزير الدفاع ، في اجتماع لضباط الجيش الاسرائيلي في الجبهة الشمالية ، وكأنه اراد الاعتذار عن التأخير في تعبئة الاحتياط فقال : « لم يكن احد يتوقع ، حتى صباح يوم الغفران ان تنشب الحرب في ذلك اليوم ، ولذا لم تبدأ تعبئة الاحتياط قبل ذلك . وحتى صباح يوم الغفران لم افكر انا شخصياً في ان الحرب ستقع ، ولم اسمع من اي شخص ان الحرب ستندلع حقاً . ولم اكن الوحيد الذي اعتقد ذلك » . وعاد وزير الدفاع فأكد هذا مرة ثانية امام حكومة اسرائيل : « لم اسمع من اي شخص انه يعتقد ان الحرب ستندلع في ذلك اليوم » .

إذا لم يسمع وزير الدفاع حقاً ان الحرب ستندلع ، فربما لانه لم يرد سماع ذلك . ما قاله له قادة الجيش الاسرائيلي والمسؤولون عن شعبة الاستخبارات في الاركان العامة ، وما لم يقولوه له ، هو حقائق سرية ومحفوظة . بيد أنه كان في اسرائيل خلال الاسبوعين اللذين سبقا الحرب ، عدد من الاشخاص توقع اندلاع الحرب ، على الرغم من انه كان يفتقر الى اي اطلاع على مصادر الاستخبارات السرية ، ولم يحصل على أية معلومات استثنائية لم يكن دايان ومساعدوه المقربون على علم بها . وليس فقط انهم لم يريدوا الاستماع الى هؤلاء الاشخاص ، بل وايضاً لم يتيحوا لهم اطلاع الآخرين على التخوف من اندلاع الحرب في أي يوم .

خلال الايام العشرة التي سبقت الحرب ، كان في اسرائيل اتجاه واضح الى منع اجهزة اعلام الدولة من امكان توجيه اي تحذير . ومنع نشر الانباء التي اشارت الى نية مصر وسورية للبدء بعمل حربي على نطاق واسع ، بصورة منتظمة وعن سابق اصرار .

(*) المقصود هنا الدماغ الالكتروني ، والعقل البشري – المترجم .

ومحاولة المراسلين العسكريين الاسرائيليين ، الذين تجولوا في خطوط وقف القتال واتصلوا بصغار الضباط ، خلال الايام العشرة هذه ، تثبت ذلك.

مساء رأس السنة ، أي الاربعاء في ٢٦ ايلول (سبتمبر) ، وصل المراسل العسكري لصحيفة « معاريف » المسائية للقيام بجولة في مرتفعات الجولان . واتضح له ، من الاحاديث التي اجراها مع الجنود والضباط هناك ، انه انتقل فجأة ، « من عالم السلام الى عالم الحرب » على حد تعبيره . وخلال ساعات الصباح من ذلك اليوم ، اتضح ان الاستعدادات السورية على امتداد خط وقف القتال في مرتفعات الجولان ، عززت بقوات كبيرة جداً . ونقلت المئات من الدبابات السورية الى المنطقة الممتدة شرقي خط وقف القتال ، ووضعت المئات من بطاريات المدفعية الجديدة في هذا القطاع ، وعززت مواقع الجيش السوري بأعداد كبيرة من جنود سلاح المشاة . وخلفهم ، تم استكمال تنظيم شبكة دفاعية معقدة مضادة للطائرات مؤلفة من أنواع مختلفة من صواريخ « سام » . وتلقت قوات الجيش الاسرائيلي على هذه الجبهة، تعليمات للتأهب الاقصى . وألغيت الاجازات ، وعادت الباصات التي وصلت الى مرتفعات الجولان لنقل الجنود بمناسبة إجازة رأس السنة، كما جاءت . وكان بالامكان ملاحظة الدهشة على وجوه الجنود في مرتفعات الجولان جيداً : ماذا حدث فجأة ؟ وخلال ساعات الصباح اللاحقة ، روى احد الضباط انه علم بان « الجيش السوري بأسره يحتشد على امتداد الحدود مع اسرائيل » . ووضعت القوات المدرعة للجيش الاسرائيلي في مرتفعات الجولان ، والتي كانت مؤلفة من بضع عشرات من الدبابات فقط ، في حالة التأهب القصوى .

وفي الوقت ذاته ، أُقيم في تل أبيب حفل شراب بمناسبة رأس السنة ، حضره بعض رجال القيادة العليا للجيش الاسرائيلي ، من رتبة عقيد وما فوق . وسمع ضباط القيادة الشمالية الذين حضروا الحفل ، الانباء عما يجري في الهضبة ، فألغوا على الفور اجازات العيد ، وعادوا الى وحداتهم .

وخلال ساعات الظهر من اليوم ذاته ، وصل الى هضبة الجولان موشيه دايان وزير الدفاع ، والجنرال يتسحاق (« حاكا ») حوفي قائد الجبهة الشمالية . وقاما بجولة في مواقع الخط الاول للجيش الاسرائيلي والوحدات المدرعة التي كانت متمركزة هناك . وروى الضباط في تلك المنطقة لوزير الدفاع ما شاهدوه بأم اعينهم على الجانب الشرقي لخط وقف القتال . وقد اقرت هذه الشهادات معلومات الاستخبارات التي تراكمت فوق مكتب وزير الدفاع قبل ذلك ببضع ساعات . وفي نهاية هذه الجولة ، أدلى دايان بتصريح ، سجله فريق من التلفزيون الاميركي عن عمد ليصل الى مسامع السوريين . قال : « آمل ان يدرك السوريون ، من جانبهم ، ان كل ضربة اخرى ستؤلمهم اكثر مما تؤلمنا . ولا يوجد اليوم سبب خاص للنظر الى الوضع بخطورة ، ولا للاستخفاف به ايضاً ،

لا في الاستعدادات العسكرية وراء الحدود ولا في موقف السوريين السياسي . فالجيش والشعب السوريان بقيا متطرفين جداً » .

هدف دايان من تصريحه توجيه التحذير الى حكام سورية لئلا يبدأوا الحرب خلال ايام العيد الثلاثة . وكان التقويم السائد آنذاك لدى الجيش الاسرائيلي ، والذي كانت تشارك فيه جميع الجهات ، انه لن يحدث اي شيء خلال ايام العيد . وعلى الرغم من ذلك ، وبسبب حذر قائد الجبهة ، تم تعزيز القوات المدرعة في هضبة الجولان ، ونقلت أطقم الدبابات التي كانت في الجنوب الى الشمال جواً ، حيث ادخل رجالها الى دبابات من احتياطي الطوارىء ، وخرجوا بها لتعزيز القوات على خط الجبهة . واستدعيت ايضاً وحدات المدفعية لتعزيز قوات المدفعية في الهضبة .

وفي اليوم ذاته ، افاد بعض صحف بيروت ، عاصمة لبنان ، ان وحدات من الجيش السوري احاطت بخط الحدود في الجولان ، وان قوات سورية كبيرة نقلت من خط الحدود المشترك بين سورية والاردن الى خط الجبهة مع اسرائيل . والمعروف ان معلومات الصحف اللبنانية هي الاكثر وثوقاً في جميع الدول العربية ، وهي الصحافة الحرة الوحيدة ، في هذا الجزء من الشرق الاوسط ، التي لا رقابة عليها؛ باستثناء القضايا المتعلقة بأمن لبنان نفسه . واستناداً الى التقديرات التي تم الحصول عليها ، بناء على رأي القيادة العليا للجيش الاسرائيلي ، استمرت الحياة في مجراها الطبيعي في جميع انحاء البلد . ولم تتلق المستوطنات المدنية في مرتفعات الجولان اي انذار بأن شيئاً ما سيحدث . ولم تغلق منطقة هضبة الجولان امام المتنزهين . فخلال الايام الثلاثة لعيد رأس السنة ، أمّت المنطقة الالوف الكثيرة من المتنزهين الاسرائيليين الذين ساروا بسياراتهم ، على بعد بضعة كيلومترات من التحشدات السورية المعززة ، وتنزهوا في الخمائل وفي الاماكن الطبيعية المحافظ عليها في الهضبة .

مساء العيد ، عرض مراسل عسكري الزيارة التي قام بها وزير الدفاع الى الهضبة عشية العيد ، ومن ضمن ما كتبه خبر طلب نشره : « تشبه حدود الجولان برميلاً من البارود قد ينفجر في أية لحظة . واتضح ، بعد فترة هدوء طويلة استمرت اشهر ، ان السوريين قد يبادرون الى اعمال عسكرية خلال أيام العيد الثلاثة .

[...]

هذا الكلام لم ير النور أبداً . فقد حذف ببساطة ، ولم يسمح بنشره .

[...]

على الرغم من انقضاء ايام العيد الثلاثة دون حوادث معينة ، الا ان التوتر استمر في الشمال بسبب الحشود السورية . وقد قال بعض كبار الضباط في المنطقة بصراحة

ان هذا التوتر خطير . واضافوا انه « ولا يفترض ان يمر دون ان يقدم السوريون على العمل » . وقال احد كبار الضباط ، بعد رأس السنة بيومين : « لا يستطيع السوريون البقاء هادئين الآن ، بعد ان حشدوا كل جيشهم على طول الحدود » . ويناقض هذا الكلام ، صراحة ، ما زعمه موشيه دايان ، وزير الدفاع ، بعد الحرب ، في الاجتماع الذي عقده مع الضباط في الشمال ، اذ انه لم يسمع من احد ان الحرب ستندلع .

حاول بعض المراسلين العسكريين في تل أبيب ، الذين بلغتهم أنباء حشود الجيش السوري في الشمال ، ان يستوضحوا مغزى هذه الحشود . وقال المتحدث باسم الجيش الاسرائيلي الذي كان خاضعاً آنذاك لشعبة الاستخبارات في الاركان العامة ، وموجهاً ومزوداً بآخر المعلومات من ضباطها ، في رده على بعض الاسئلة ، ان الحشد السوري ذو طابع دفاعي محض ، وان التقدير المرجح هو انه لن يحدث اي شيء .

في ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، تحدث احد المراسلين العسكريين . وكان قد اطمأن الى تفسيرات المتحدث باسم الجيش الاسرائيلي ، الى احد كبار ضباط الجيش الاسرائيلي في هضبة الجولان واخبره ، « ان الحديث في تل أبيب يدور على اساس ان التحركات السورية تحمل طابعاً دفاعياً ، ويبدو ان التوتر وصل ذروته واخذ في الانخفاض » . اجابه الضابط : « لم نصل الذروة بعد ، وسيعمل السوريون حتماً » . كان هذا آخر كلام قاله الضابط على مسامع صحافي ، فقد قتل في اليوم الثاني للحرب ، اذ كان آمراً لقوة مدرعات قاتلت السوريين لصدهم .

وفي نبأ صحافي آخر ، نشر يوم الاحد ، ١ تشرين الاول (اكتوبر) ، كتب احد المراسلين العسكريين انه وصلت مؤخراً الى سورية شحنات عاجلة من الاسلحة والمعدات الحربية الحديثة من الاتحاد السوفياتي .

ولم يسمح سوى بنشر جزء من هذا الخبر ايضاً .

ان لجنة محرري الصحف في اسرائيل ، التي هي اطار مغلق وحيد يحصل عادة على معلومات مباشرة وحديثة من السلطات كخلفية لتفسير الوضع ، والتي استهدفت منع النشر اكثر من تحبيذه . حصلت في الاسبوع ذاته على تقارير من جهات أمنية تفيد ان « الحشود السورية ذات طابع دفاعي محض » .

في هذه الاثناء ، اخذت تصل ايضاً معلومات عن حشود كبيرة في الجانب المصري . فقد لاحظ رجال الاستطلاع في الجيش الاسرائيلي ، الموجودين في تحصينات القناة ، عن كثب ، الاستعدادات العسكرية المتزايدة التي تجري أمامهم . وقال آفي يفيه ، الجندي الاحتياطي من القدس ، الذي كان في احد تحصينات القناة : « في اول تشرين الاول (اكتوبر) ، بعث رجال الاستطلاع بتقارير عن نشاطات غير عادية على

الضفة الغربية المقابلة . ولوحظ استعداد متزايد هناك . كما ان قافلة شاحنات من حاملات الصواريخ دخلت الى الاسماعيلية . وكان ممكناً سماع هدير محركات المدرعات وراء الحواجز الترابية المصرية ، التي كانت تخفي ، في قطاعات معينة ، ما يجري على الجانب الثاني من القناة ، وشوهد ضباط مصريون يرشدون قادة الوحدات . شاهدنا ضابطاً برتبة عقيد يستكشف بالمنظار الضفة الشرقية . شاهدنا جنوداً مصريين ينزلون الى الماء ، ويقيسون ، ويضعون الاوتاد . واقتربت شاحنة حاملة صواريخ من حافة المياه ، واخذت الجرافات تعد مدارج العبور » .

وقد وصلت تقارير مشابهة من تحصينات اخرى . وهذه قصة الطبيب الملازم دان بيلغ ، الذي نجا بأعجوبة في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) بعد ان وقع اسيراً في يد المصريين في اثناء وجوده في تحصين على محور المتلا في القطاع الجنوبي من قناة السويس : « ابتداء من ٢ أو ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ، اخذنا نلاحظ حركة غير عادية وراء القناة . دروع ومركبات بكميات هائلة . وعددنا ، في ليلة واحدة فقط ، نحو مائة مركبة مرت امامنا على الضفة الثانية . وقد ابلغنا القيادة العليا بذلك ، فأرسلت الينا مجموعة خاصة لمتابعة الحشود المصرية هذه . وقيل لنا ان ما يجري هو مناورة مصرية ضخمة ستنتهي في يوم الاثنين ، ٨ تشرين الاول (اكتوبر) » .

روى احد كبار الضباط في فرقة سيناء : « عرفنا بما يجري في الجانب المصري ، وأبلغناه . وكان الجميع يعرفون ذلك قبل شهر ونصف ، وعلمنا بدخول اعداد كبيرة من القوات المصرية الى الجبهة . وفي الاسبوع الاخير ، شاهدنا معدات برمائية ، أُحضرت الى الخط الامامي ، لم تشاهد فيه منذ اقامته . شاهدنا في الخط الامامي فجأة معدات كنا نعلم بوجودها ، ولكننا لم نشاهدها بأعيننا قبل ذلك أبداً . وقد أبلغنا هذا الامر . ومنذ بداية الاسبوع الذي سبق الحرب ، كنا في حالة تأهب قصوى . حيث وضعنا الجنرال ابراهام (« البرت ») مندلر ، قائد القوات الاسرائيلية المدرعة في سيناء ، في حالة التأهب هذه بمبادرته الشخصية . وبلغنا مستوى من التأهب يستطيع فيه رجال المدرعات التحرك خلال بضع دقائق من الانذار . ونام الرجال بملابسهم واحذيتهم ، بعد ان عملوا من الصباح حتى المساء في تشحيم الدبابات . ولكننا لم نعزز الخط بقوات اضافية لعدم توفرها » .

في يوم الاثنين ، ٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، [...] علم ان المصريين بدأوا بنقل الجيوش من منطقة القاهرة الى قطاع القناة . وشرح الناطق العسكري الاسرائيلي ما يجري ، فقال انه « مناورة يقوم بها الجيش المصري » . وسمح للمراسل العسكري بالذهاب الى قناة السويس ، حيث اجرى ، يوم الخميس ، ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، حديثاً مع الجنرال البرت . وجرى الحديث في قيادة البرت [...] وعلى الطائرة [...] التقى ايرز

بضابط من وحدة المدرعات ، اتضح انه وصل الى هناك قبل يوم واحد ، بعد ان استدعي فجأة من منزله . واتضح من الحديث معه ان تعزيز الحشد المصري في خط القناة ، يشمل معدات عبور كثيرة ومدرعات ووحدات مشاة بكثافة كبيرة . واتضح ايضاً ان الحواجز الترابية العالية ، التي اقامها المصريون غربي القناة ، شحنت بافراد من وحدات المدرعات والمدفعية المضادة للدروع . واتضح ليعقوب ايرز ، خلال الحديث الذي أجراه في قيادة القوات المدرعة في سيناء ، ان الجيش الاسرائيلي يتابع الحشود المصرية ، ولكن مدى ترجيحه لاحتمال بدء القتال ، كان منخفضاً جداً .

سأل المراسل العسكري : « وماذا سيحدث لو عبر المصريون القناة غداً صباحاً ؟ » . « ستصدهم قواتنا في خط المياه . وخلال مدة لا تذكر تكون الحرب قد دارت في الجانب الثاني » ، كان هذا جواب الجنرال البرت ، قبل نحو ٥٠ ساعة من بدء الهجوم المصري . ولكن اتضح ان الجنرال لم يكن مطمئناً كما بدا وقال : « اذا جرى هنا صباح الاحد ، في السابع من هذا الشهر ، حفل استبدال القادة ، سأكون مطمئناً . اما اذا لم يجر هذا الحفل ، فليكن بعلمك ان الوضع خطير » . وهذا الحفل الذي كان من المفروض ان يجري بمناسبة وداع الجنرال لقواتنا في سيناء ، لم يحدث .

عشية الحرب ، الجمعة في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، وخلال ساعات الصباح ، نقل الى الرقابة خبر صحافي تناول النشاط المصري غربي القناة بالتفصيل . ولم يبق من هذا الخبر بعد الحذف ، سوى فقرتين : جاء في الاولى ، ان وكالة الانباء المصرية نقلت نبأ اعلان حالة التأهب في القناة . وفي الثانية ، ان « قوات الجيش الاسرائيلي تتابع بيقظة ما يجري في الجانب المصري ، وقد اتخذت جميع التدابير لمنع المصريين من مفاجأتها » .

[...] ان اعمال التحصين التي قام بها المصريون في الضفة الغربية من قناة السويس عززت في الايام الاخيرة ، وهي تشمل الآن معدات ميكانيكية كثيرة ، وتنكب وحدات كبيرة من الجيش المصري على إقامة التحصينات . وبالامكان ملاحظة تحركات متزايدة للمركبات في الجانب المصري من القناة ايضاً . وتضم اعمال التحصين إقامة مدارج للعبور ، وحواجز ترابية تمكن المصريين من رؤية ما وراء الحاجز الاسرائيلي . وتستخدم هذه الحواجز كمواقع للدبابات والمدافع المضادة للدبابات ، وفي بعض الاماكن ، على امتداد القناة ، بالامكان مشاهدة الدبابات الواقفة في طرف الحاجز . وقالت مصادر موثوقة أمس انه تمت في الماضي حالات من تعزيز اعمال التحصينات المصرية ، في الوقت الذي كانت تسمع فيه تصريحات حربية في القاهرة . وقد اعلنت وكالة الانباء المصرية هذا الاسبوع ، كما ذكرنا ، ان حالة التأهب الكاملة أعلنت في القناة . وبالامكان ان نلاحظ ، من قطاعات مختلفة من القناة ، حركة متزايدة للمركبات المصرية ،

كما شوهدت في الايام الاخيرة طائرات مصرية تحلق على بعد بضعة اميال غربي قناة السويس . « ان قوات الجيش الاسرائيلي تتابع بيقظة كل ما يجري في الجانب المصري ، وقد اتخذت جميع التدابير لمنع المصريين من مفاجأتها » .

ان الجملة الاخيرة فقط من هذا الخبر ، والتي صادقت عليها الرقابة العسكرية ، نشرت عشية الحرب في الصفحة الاولى من صحيفة « معاريف » . واتضح في وقت لاحق ان اليقظة الوحيدة التي ظهرت كانت يقظة الرقابة العسكرية ، التي حرصت على الا تنشر في الصحافة الاسرائيلية اية أنباء من شأنها اثارة القلق لدى الجمهور وتعكير مزاجه .

لقد عملت الرقابة العسكرية في دولة اسرائيل ، اكثر من مرة في الماضي ، كأداة سياسية حجبت بواسطتها عن الجمهور معلومات حيوية غير مرتبطة بالضرورة بشؤون الامن . ذلك ما حدث عشية الحرب ايضاً . ان الرقابة [...] منعت نشر انباء كانت مباحة ، وغير سرية ، حول حشود المصريين والسوريين في الخطوط . كانت هذه حقائق مكشوفة ، لانها شوهدت بالعين المجردة من الجانب الاسرائيلي على القناة ، ولم يكن احد بحاجة الى تسريبها ، او الى وسائل اخرى متوفرة لدى الاستخبارات العسكرية لكي يلاحظها ويكشفها . ولهذا السبب لم تكن هناك ضرورة لعملاء سريين .

لو أدى تزايد الاستعداد في الجانب المصري الى زيادة حالة التأهب لدى الجيش الاسرائيلي والى تعبئة الاحتياط ، لكان ممكناً ان نفهم الاعتبارات التي تقوم عليها اساساً سياسة منع النشر عن هذا الاستعداد . ان مهمة الرقابة هي ان تخفي عن العدو العلم بأن استعداداته ونواياه واضحة ، وان الجيش الاسرائيلي متأهب لها . ولكن عندما يتضح انه لم تعلن حالة التأهب حتى صباح يوم الجمعة ، ولم تتم تعبئة الاحتياط ، من الصعب جداً تفسير السياسة التي منعت نشر اخبار التأهب للحرب من جانب مصر وسورية .

بالامكان ان ندرك لماذا كان نشر مثل هذه الانباء غير مقبول لدى القيادة السياسية في اسرائيل في ذلك الوقت . لقد كانت اسرائيل آنذاك في ذروة معركة انتخابات عنيفة ، استعداداً لانتخابات الكنيست الثامن التي كان من المفروض اجراؤها في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) . فقد خاض الحزب الحاكم ، المعراخ [التجمع العمالي] ، معركة انتخابات واسعة كان احد بنود الدعاية الرئيسية فيها الهدوء والامن اللذان يسودان اسرائيل تحت حكم قادة المعراخ . وقد استغلت ابرز الدعايات التي قام بها المعراخ ، خط بار — ليف ، خط التحصينات الذي بني في القناة ، لاغراض الدعاية الانتخابية للحزب الحاكم . وجاء في اعلان كبير نشر في الصحف تحت عنوان « خط بار — ليف » : « على ضفة السويس يسود الهدوء . كذلك ايضاً في صحراء سيناء ، وفي قطاع غزة ، وفي الضفة الغربية ، وفي يهودا والسامرة ، وفي الجولان . الخطوط آمنة ، الجسور مفتوحة ، القدس

موحدة ، المستوطنات تقام ، ومكانتنا السياسية راسخة . هذه نتيجة سياسة متزنة ، مقدامة وبعيدة النظر ... انت الذي تعلم ان المعراخ وحده هو القادر على ان يفعل ذلك » .

لو كانت اخبار الصحافة آنذاك تشير الى عدم هدوء في الحدود ، والى امكان احتمال الحرب ، والتهديد الناتج عن تأهب الجيوش العربية ، لفندت حملة المعراخ الدعائية ، التي انفق عليها عشرات الملايين من الليرات الاسرائيلية ، ولجعلت مزاعم الحزب الحاكم موضع سخرية بالنسبة الى « الهدوء في الحدود ... الخطوط الآمنة ... المكانة السياسية الراسخة ... السياسة المتزنة المقدامة والبعيدة النظر » . ولم تستطع قيادة اسرائيل السياسية ان تسمح لنفسها بذلك . وكان احساس الجمهور الاسرائيلي بحرب وشيكة سيقضي على حملتها الدعائية الانتخابية . لهذا بذلت جميع الجهود لتطمين جمهور الناخبين ، ولحجب أنباء الحرب الوشيكة عنه ، حيث اغرى قادة المعراخ بالاعتقاد انها لن تنشب . فقد كانوا مغفلين بما فيه الكفاية ليعتقدوا انه اذا لم تكتب الصحافة عن الحشود العسكرية في مصر وسورية ، « لن يتولد جو من الحرب » .

كيف حدث ان اخذت حكومة اسرائيل بعين الاعتبار فقط التقويم القائل ان « هناك احتمالاً ضئيلاً جداً » لاندلاع الحرب ، من بين كل المعلومات والتحذيرات والتقديرات التي كانت ترد اليها بشأن خطر الحرب ؟

قال الجنرال (متقاعد) حاييم بار – ليف في اليوم الذي خلع فيه بزته العسكرية وعاد من خدمته في الاحتياط كقائد الجبهة الجنوبية الى طاولة الحكومة ، كوزير للتجارة والصناعة : « كانت لدى استخبارات الجيش الاسرائيلي انباء ، ثبتت صحتها ، بشأن الاستعدادات الحربية من جانب مصر وسورية ، ولكن تقويم هذه الانباء هو الذي لم تثبت صحته » .

شرح بار – ليف ، خلال حديث مع مقربيه ، مغزى كلامه هذا بمزيد من التفصيل قائلاً : « (شط) موشيه دايان مرتين : مرة اولى ، عندما لم يخطر بباله ان الحرب ستندلع ، او عندما قدر ان الحرب لن تقع ، والمرة الثانية ، عندما أخطأ التقدير بالنسبة الى طاقة الجيش الاسرائيلي على العمل خلال الايام الاولى من الحرب ، وساورته الشكوك . و (شطت) الاركان العامة للجيش الاسرائيلي هي ايضاً مرتين : الاولى ، عندما قدرت ان الحرب لن تقع ، والثانية ، عندما دهمت الجيش الاسرائيلي في مرتفعات الجولان وقناة السويس على الرغم من امر التأهب الصادر اليه » .

واضاف بار – ليف شارحاً : « في الاستخبارات يجب التمييز بوضوح ، بين الانباء التي تتدفق اليك ، وبين تقويمك هذه الانباء . انني اقول بمنتهى المسؤولية اننا كنا نعلم بنوايا مصر وسورية بشن الحرب علينا . وكانت الانباء بهذا الشأن متوافرة لدينا .

انني ادرك ان الجمهور يعتقد ان هذه الحرب دهمت استخباراتنا وفاجأتها ، وانه لم تكن عندنا مؤشرات على النوايا الحربية لجيوش مصر وسورية . وهذا غير صحيح بتاتاً . كان احتمال الحرب صحيحاً حتى صباح السبت ، وعندها فقط تغير التقدير . فمنذ تلك اللحظة ، اصبحت الاخبار عن الحرب والتقديرات باحتمال وقوعها ، متوازية » .

لقد تطرق الى هذه النقطة ايضاً الجنرال (متقاعد) يتسحاق رابين ، رئيس اركان الجيش الاسرائيلي في حرب الايام الستة ، وسفير اسرائيل السابق في واشنطن ، فحاول ان يشرح كيف جرى التقدير بان الحرب لن تندلع على الرغم من ان الانباء كانت « متوفرة » . لقد شرح رابين في حلقة ضيقة لقيادة حزب العمل هذه المأساة كما بدت في نظره : « يطلق على ذلك بالانكليزية Mental Block . وقع موشيه دايان ، ورئيس هيئة الاركان ، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية ، في انغلاق ذهني ، فقد كانوا اسيري ايمانهم الشديد وتصريحاتهم بان الحرب مسألة بعيدة ، وان المصريين غير قادرين او غير مؤهلين لخوضها . واذا خاضوها حقاً فـ « سنكسر عظامهم » . ان هذا الانغلاق الذهني ، باللغة السيكولوجية ، هو الذي جعلهم لا يصدقون الانباء المتوفرة لديهم ، عن الحرب الوشيكة » .

قال الجنرال دافيد ألعازار ، رئيس هيئة اركان الجيش الاسرائيلي ، في اول مقابلة مع التلفزيون الاسرائيلي بعد الحرب ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، رداً على اسئلة المذيع انه « من الناحية النظرية » فان الاستخبارات العسكرية مسؤولة عن إعطاء الانذار بأن حرباً ستندلع . واذا كان بالامكان ان نفهم ان القيادة السياسية تقرر استناداً الى معلومات الاستخبارات والتقويمات المقدمة اليها ، بان احتمال الحرب هو « ضئيل جداً » ، فكيف يجوز ان يتولد وضع يستحوذ فيه هذا التقويم على الاستخبارات العسكرية ، على الرغم من المعلومات التي بين يديها ؟

يجد المواطن العادي صعوبة في التمييز بين « معلومات الاستخبارات » ، وبين « تقويم وضع من قبل الاستخبارات » . من المهم ادراك الفارق بين هاتين العبارتين .

تقوم كل مؤسسة استخبارات جيدة على جهازين اساسيين : جهاز يجمع المعلومات عن العدو بواسطة الجواسيس ، واقتباس المعلومات المنشورة ، والتوقعات ، الى غير ذلك من وسائل التجسس التي تحدثت عن الكثير من تفاصيلها قصص التجسس السينمائية . ويقوم الجهاز الثاني بالربط بين جميع هذه المعلومات وتنسيقها ، لكي يحصل على صورة كاملة بقدر الامكان ، عن العدو ونواياه . وكلما كانت الصورة المتبلورة اكثر اكتمالاً ودرساً ، كان بالامكان التوصل الى تقويم اكثر اكتمالاً بالنسبة الى وضع العدو ونواياه . فالجهاز الاول هو جهاز جمع ، والجهاز الثاني هو جهاز ابحاث .

ولنضرب مثلاً على ذلك : اذا نجحت استخبارات الجيش الاسرائيلي في جمع معلومات عن كمية الصواريخ السوفياتية المضادة للطائرات وانواعها ، التي تصل من الاتحاد السوفياتي الى مصر وسورية مثلاً ، فان مهمة جهاز الابحاث هي اعداد تقويم للوضع يعين متى ستكون بطاريات الصواريخ هذه جاهزة للعمل ، وما هو مداها ، وما هو خطرها المحتمل ، وذلك ليتمكن سلاح الجو الاسرائيلي من اتخاذ التدابير والطرق الملائمة لمواجهتها . وفي بعض الاحيان لا تكون هناك أية حاجة الى تقويم وضع ابداً : فالمعلومات تكون واضحة ومدروسة جيداً ، بحيث ان تقويم الوضع قد يبلبل الفكر فقط . ان هدف رجال البحث ، الذين تشغلهم اجهزة المخابرات في العالم ، وميلهم « السقيم » ، هو ممارسة الجدل السفسطائي الى حد انهم يشوهون بابحاثهم ، احياناً ، الحقائق المرة التي تشتمل عليها المعلومات نفسها .

تسود اجهزة المخابرات في العالم ، في احيان متواترة ، خلافات في الرأي حول تقويم الموقف في الموضوعات الحيوية . وعندما يتولد وضع من التقويمات المتناقضة ، يزود المسؤولون عن الاستخبارات ، القيادة السياسية للدولة المعنية ، ليس بتقويمات الوضع المتناقضة فحسب ، بل وايضاً بالمعلومات الاساسية التي تعتمد عليها تقويمات الوضع المتناقضة . ان دور الهيئة السياسية في مثل هذه الحالة هو ، ان تقرر ، استناداً الى مقابلة المعطيات وفحصها ، اي التقويمين ارجح في نظرها .

من المعروف مثلاً ، انه يدور في وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة (سي . أي . إيه) ، نقاش حاد بين معسكرين حول مسألة : هل الاتحاد السوفياتي مستعد حقاً لـ « ديتانت » [الوفاق] في العلاقات مع الولايات المتحدة ، ام ان ذلك ما هو الا لعبة هدفها تخدير الولايات المتحدة ؟ هل ينوي الاتحاد السوفياتي حقاً نزع السلاح التدريجي بصورة متبادلة ، كما يزعم في مؤتمر هيلسنكي ، ام ان ذلك ما هو الا « خدعة » ومكيدة ؟

لذا ، فان ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة ، ومجلس الامن القومي الاميركي لا يقبلان ، في هذا الموضوع الحيوي للسلام العالمي ، تقويمات الوضع الجارية التي تعدها وكالة الاستخبارات فحسب ، بل وايضاً الانباء والمعلومات التي تجمعها تقارير عن انتاج الاسلحة الصاروخية والذرية في الاتحاد السوفياتي ، مرفقة بصور الاقمار الصناعية لبناء مواقع اطلاق جديدة للصواريخ في اراضي الاتحاد السوفياتي ، بحيث يستطيعون الاطلاع ايضاً على الحقائق بأم اعينهم وتحكيم عقولهم .

نشبت في اسرائيل ايضاً ، اكثر من مرة ، خلافات في الرأي ، شديدة جداً ، حول قضايا استخبارات محضة . ففي بداية الستينات جرى في القيادة الامنية الاسرائيلية

نقاش صاخب ، تصدره رئيس المؤسسة الاساسية للاستخبارات والامن في ذلك الحين ، ايسر (« الصغير ») هرئيل حيث تجمعت لديه مجموعة ضخمة من المعلومات حول صواريخ ارض – ارض التي حاول المصريون بناءها في مصانعهم العسكرية ، بمساعدة خبراء المان . فقد زعم ايسر آنذاك ان التقدم في انتاج هذه الصواريخ يشكل خطراً على أمن اسرائيل ، وانه يجب العمل ضد العلماء الالمان الذين يساعدون على انتاجها ، قبل ان يتوصل المصريون الى اية انجازات . لقد اعتقد الكثيرون من المسؤولين عن وزارة الدفاع انه لا يوجد اي مبرر للخوف من هذه الصواريخ ، وانه لا اهمية لها من ناحية توازن القوى العسكرية . فقد جرى نقاش حاد حول هذين التقويمين المتناقضين للوضع . وفي النهاية كان دافيد بن – غوريون ، المتوفي ، رئيس الحكومة آنذاك ، مجبراً على الحسم بينهما . فقد حصل على جميع المعلومات من مصادرها المختلفة ، وعلى الوثائق والتقويمات المتناقضة للوضع ايضاً ، لكي يقرر بنفسه اي تقويم وضع يختار ويصدق . واستناداً الى المعلومات والتقويمات التي حصل عليها ، اطلق بن – غوريون ، الذي كان آنذاك وزيراً للدفاع ايضاً ، حرية العمل لأيسر هرئيل لشن حملة على العلماء الالمان في مصر ، تلك الحملة التي اثارت اصداؤها العالم في حينه .

ان هيئة الاستخبارات الاساسية في اسرائيل هي المؤسسة الرئيسية للاستخبارات والامن ، وابتداء من سنة ١٩٦٧ ، بعد ان عين موشيه دايان وزيراً للدفاع ، تحول اسمها لـ « مؤسسة الاستخبارات والمهمات الخاصة » او باختصار ، « الموساد » [المؤسسة] . منذ إقامة الدولة ضمت هذه المؤسسة اجهزة الاستخبارات والمخابرات المختلفة في اسرائيل . واما اجهزة الاستخبارات التابعة للهيئات الاخرى مثل الشرطة والجيش ، او وزارة الخارجية ، فتعمل على انفراد ، ولكن بالتعاون مع «الموساد» . ونظراً الى ان اجهزة «الموساد» تتولى موضوعات ومجالات ومناطق اكبر من اي جهاز للمخابرات ، فانها كانت تعتبر ، في اسرائيل على الاقل ، حتى ١٩٦٧ اكبر هيئة استخبارات في الدولة .

ولكن في اعقاب حرب الايام الستة ، حدث تطور احتلت الاستخبارات العسكرية ، او شعبة الاستخبارات في هيئة الاركان العامة في الجيش الاسرائيلي ، مكانة الاولوية فيه . فقد بدأ هذا التطور اساساً بفضل الرجل الذي ترأس في ذلك الحين شعبة الاستخبارات العسكرية الجنرال أهرون (« اهرلي ») ياريف ، ويبلغ سنه ٥٣ سنة ، وهو من مواليد لتفيا ، واشتهر في اعقاب حرب الايام الستة ، عندما اخذ الخبراء العسكريون والمعلقون الدوليون يشيدون بكفاءة الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية وقدرتها كما ظهرتا في الحرب . فقد بالغ الكثيرون منهم ، وتحمسوا كثيراً من نجاح هذه الاستخبارات حتى توجوها بلقب « احسن جهاز استخبارات في العالم » ، ونسبوا نجاح اسرائيل في تلك الحرب ، الى حد بعيد ، الى سلاح غير مقاتل كسلاح الاستخبارات .

ونظراً الى ان اعمال « الموساد » ، مثل اسماء الاشخاص المرتبطين بها ، ومثل اسم القائم عليها ، هي سرية ، اصبح الجنرال ياريف ، الذي ليس في عداد من يمقتون الشهرة ، شخصية مشهورة جداً في اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية ، واشتهر في العالم باسم « ساحر الاستخبارات في اسرائيل » .

كتب زئيف شيف ، المراسل العسكري لصحيفة « هآرتس » اليومية الاسرائيلية في مقال خصصه لشخصية الجنرال ياريف (١٥/٢/١٩٧١) يقول : « حظيت شعبة استخبارات الجيش الاسرائيلي بمكانتها الفريدة المهمة لانها الجهاز الوحيد الذي استطاع ان يطور بنفسه ابحاثاً متطورة غنية بالتجارب ، وخلال السنين تجاوز المجالات العسكرية الضيقة المحضة . وكان من الطبيعي ان تشمل تقويماته المستوى الاستراتيجي ، الذي يشمل بالضرورة الموضوعات السياسية ، والاقتصادية ، والديموغرافية والعلمية الخاصة بالعدو . وبينما بقيت دائرة الابحاث في وزارة الخارجية تراوح في مكانها ، طورت استخبارات الجيش الاسرائيلي ابحاثها . وهكذا لحقت الاستخبارات العسكرية للجيش الاسرائيلي سائر الاجهزة بل وسبقتها . فقد نجحت في تخطي مجال الجمع [للمعلومات] المحض الى مجال البحث والتقويم .

واستطرد شيف في مقاله قائلاً : « فهذه عملية بدأت قبل سنوات ، في ايام الجنرال يهوشفاط هركابي عندما كان رئيساً للاستخبارات ، ولكن الآن – في عهد ياريف – وبحكم الظروف العامة والشخصية ، بلغ الذروة . ويكفي للدلالة على ذلك مقابلة عدد المرات التي يستدعى فيها ياريف لتقديم تقارير الى الحكومة ولجنة الخارجية والأمن ، بعدد المرات التي مثل فيها رؤساء الاجهزة الاخرى امامهما . ان اسلوب عمل موشيه دايان كوزير للدفاع ، يسهل بروز اهرون ياريف كمقدم للتقارير في اجتماعات الحكومة . وخلافاً لدافيد بن – غوريون وليفي اشكول ، كوزيرين للدفاع ، فان دايان مستعد للسماح لرئيس هيئة الاركان ، ولرئيس استخباراته ، وللجنرالات الآخرين ، بالمثول في الاجتماعات الرسمية والبرلمانية وتقديم التقارير اليها . ان دايان ، كوزير للدفاع ، هو اكثر ليبرالية في هذا المجال ممن سبقوه » . ونستخلص من هذا التحقيق الصحافي انه بينما ينحصر دور « الموساد » ، في مجال الاستخبارات ، بتقديم المعلومات فقط ، تتولى الاستخبارات العسكرية الجمع والابحاث وتقويمات الوضع على السواء . اي ان تقويم الوضع هو من صلاحية شعبة الاستخبارات في الاركان العامة وحدها . ونتيجة ذلك لم تسمع اية كلمة انتقاد ضد « الموساد » في اعقاب حرب يوم الغفران ، بينما وجهت انتقادات الى الاستخبارات العسكرية . ويفترض انه في هذه الحالة لا تتحمل [الموساد] المسؤولية عن التقصير .

خلال السنوات التسع التي تولى فيها اهرون ياريف رئاسة شعبة الاستخبارات

العسكرية ، ترسخ الاسلوب المعهود في اسرائيل ، الذي يتم بموجبه تقويم الوضع الامني القومي لاسرائيل من قبل هيئة مستقلة في « الموساد » او الاستخبارات نفسها .

ونتيجة ذلك كان يتولد وضع غير سليم احياناً ، لان التقويم القومي الذي تجريه الاستخبارات العسكرية كان يميل ، بطبيعة الحال ، الى ان يأخذ في الحسبان المقتضيات العسكرية ، وآراء كبار الجنرالات في الجيش ، ويقلل من اهمية وآراء الهيئات الاخرى في الدولة . وقد حدث اكثر من مرة ان انجرفت سياسة اسرائيل الخارجية وراء المقتضيات العسكرية ، بدلاً من ان يكون الجيش أداة لخدمة السياسيين ومساعدتهم .

وفي دولة مثل اسرائيل ، حيث مشكلات الامن فيها بهذه الخطورة وهذه الاهمية لمصيرها ، يبدو انه من الافضل ان تكون هيئة الابحاث وتقويم المعلومات منفصلة عن اجهزة جمعها . فلو قام وضع كهذا عشية يوم الغفران ، فلربما ثبتت صحة التقويمات ايضاً وليس فقط المعلومات الاولية والموثوقة التي كانت لدى الجيش الاسرائيلي عن العدو ونواياه . الا ان القيادة استخفت تماماً بالمعلومات وأخذت بتقويمات خاطئة للوضع . اعتقد ان المسؤولين عن تقويم الوضع توصلوا الى المرحلة الخطرة التي كانوا يكيّفون فيها الحقائق والتقويمات بما يتفق ومزاج كبار قادتهم ، ووزير الدفاع مثلاً .

ليست هذه اول حالة في تاريخ دولة اسرائيل حدث خلالها « دائرة قصر » من هذا النوع . وحكومة اسرائيل ، على كثرة ما لديها من اجهزة استخبارات ، فوجئت اكثر من مرة بقضايا حيوية جداً . و « مفاجآت » الارهاب الفلسطيني هي فصل قائم بحد ذاته . ولكن الحكومة فوجئت ايضاً في حالات اخرى . فاحداث كاتحاد مصر وسورية واعلان الجمهورية العربية المتحدة ، ثم الانفصال ، والغزو المصري لليمن ، او خروج الروس من مصر في صيف ١٩٧٢ ، كانت بمثابة مفاجأة تامة لحكومة اسرائيل ، ولم يتضمنها اي تقويم وضع . وقد اعترف وزراء الحكومة ، في مناسبات مختلفة ، انهم فوجئوا بهذه الاحداث الدراماتيكية او غيرها ، واتضح لهم انه كانت لديهم تقويمات وضع خاطئة .

ان ما سبق حرب الايام الستة ايضاً ، والذي كان يبدو استعراضاً عسكرياً تظاهرياً ، تحول الى حشود من قوات الجيش المصري هددت الحدود الاسرائيلية ، جاء كمفاجأة تامة للحكومة الاسرائيلية . ان حشود قوات عبد الناصر في سيناء سنة ١٩٦٧ اذهلت آنذاك ، الاركان العامة والحكومة تماماً كما اذهلتهم حرب يوم الغفران . اي ان الاستخبارات العسكرية اخطأت مرتين خلال ست سنوات ، في تقويمها للوضع الاستراتيجي بصورة خطرة ، بينما برزت على الصعيد التكتيكي ، لدى نشوب المعارك ، كهيئة ممتازة ، متفانية وفعالة .

في اعقاب الانتصار الرائع الذي احرزه الجيش الاسرائيلي في سنة ١٩٦٧ ، نُسي فشل الاستخبارات الاستراتيجي ، في ذلك الحين ، برئاسة الجنرال ياريف . واعتبرت كل محاولة بذلت في اعقاب تلك الحرب ، للطعن في مفاهيم الاستخبارات العسكرية في المجال الاستراتيجي ، انكاراً للجوهر . وقد حاول الصحافي موشيه أ. غلبواع آنذاك ، في كتابه « ست سنوات وستة أيام » ، توجيه الانتقاد الى تقويمات الجنرال اهرون ياريف ، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية ، كما قدمت للحكومة بعد تحشدات القوات المصرية في سيناء ، فاصبح موضع ملاحقة في ذلك الحين . حتى ان وزير الدفاع استدعى المستشار القضائي للحكومة وأمره بدرس امكان رفع دعوى قضائية ضد غلبواع . وأما غولدا مئير رئيسة الحكومة ، فقد دافعت عن ياريف بشدة ، واعربت عن « تحفظ تام » حيال اثارة اي شك في مصداقية تقاريره . واضافت تقول بصورة جازمة : « ان هذا الامر يتجاوز الحدود المقبولة ، وحدود الحقيقة . اعتقد انني اعبر ، بذلك ، عن رأي جميع اعضاء الحكومة » .

[........]

اصبح الجنرال ياريف بمثابة « النبي » و « العرّاف » في خفايا الاستخبارات والامن . وبفضل حيازته لكنوز المعلومات السرية ، وكونه صاحب موهبة كلامية بارزة ، عرف كيف يدهش سامعيه ، حيث يرفق كلامه دائماً بالصور والوثائق والخرائط ، مثل « الرجل القادم من الصقيع » . ان الهالة التي احاطت باسم ياريف ، والتي جعلته محبوباً من رئيسة الحكومة ومرشحاً للانضمام الى حكومة المعراخ ، ازدادت بعد ان اصبحت المخابرات الاسرائيلية حقاً اسطورة حية في العالم ، وحظيت بتقدير جميع اجهزة المخابرات في الشرق والغرب على السواء .

في اللحظة التي اعتزل فيها ياريف خدمته العسكرية ، لكي ينصرف الى العمل السياسي ، وانقطع عن مصادر المعلومات السرية ، لم يعد ظهوره ضمن اطار حملة المعراخ الانتخابية مؤثراً كالسابق . لم يعد نفس اهرلي ياريف الجبار « الذي يخرج الارانب من قبعته » ، بل مجرد نسخة اسرائيلية مصغرة عن الدكتور كيسنجر ، تلك الكنية التي منحته اياها رئيسة الحكومة عندما سمته « كيسنجر اسرائيل » .

عندما اعتزل الجنرال ياريف منصبه كرئيس لشعبة الاستخبارات العسكرية ، قال فيما قاله ، في مقابلة أذيعت من محطة إذاعة الجيش الاسرائيلي :

سؤال : هل نعرف نحن عن العرب اكثر مما يعرفون عنا ؟

ياريف : اعتقد نعم .

سؤال : زعم بعض الصحف المهمة في الخارج انه يلاحظ ، بحسب اعتقادهم ، وهن في اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية . ما قولك في ذلك ؟

ياريف : اقول انه علينا ان نثق بأجهزتنا وألا نكترث اكثر من اللازم بما تقوله الصحف في الخارج .

سؤال : ما هي ، في رأيك ، الانعكاسات الاساسية على اسرائيل والنابعة من خروج السوفيات من مصر ؟

ياريف : في رأيي ، ان الانعكاسات الاساسية هي على الصعيد العسكري وليست على الصعيد السياسي . فنتيجة لخروج الروس من مصر ضعفت الاستعدادات العسكرية هناك ، وخصوصاً فيما يتعلق بالدفاع الجوي ، وتقلصت حتماً قدرة المصريين على استئناف القتال على المدى القريب على الاقل .

كان هذا نموذجاً آخر فقط لتقويم خاطىء لوضع من قبل رئيس شعبة الاستخبارات السابق في الاركان العامة للجيش الاسرائيلي .

وقد دعي ليحل محل الجنرال ياريف ، كرئيس لشعبة الاستخبارات العسكرية ، الجنرال ألياهو (« ايلي ») زعيرا ، الذي هو صديق مقرب لوزير الدفاع موشيه دايان منذ ان كان رئيساً لمكتبه عندما كان دايان رئيساً لهيئة اركان الجيش الاسرائيلي . وقد كان وجهاً جديداً في شعبة الاستخبارات . وعندما اندلعت حرب يوم الغفران كانت قد انقضت سنة على تولي زعيرا منصبه . وخلال سنة واحدة فقط ، لم يستطع القائد الموهوب جداً ان يجري انقلاباً كبيراً في هيئة مثل الاستخبارات العسكرية . فقد تسلم زعيرا استخبارات بناها الجنرال ياريف خلال تسع سنوات متتالية .

يقول انصار ياريف انه لو استمر في رئاسة شعبة الاستخبارات العسكرية لما حدث ما حدث في يوم الغفران . وفي حالات خطرة ، كحشود الجيوش العربية على الحدود الاسرائيلية عشية يوم الغفران ، كان ياريف يتصرف دائماً بحذر شديد . وكان من المتشددين في اتخاذ التدابير « لمواجهة أسوأ الاحتمالات » . والحقيقة ان زعيرا كان نائب ياريف عندما كان رئيساً لشعبة الاستخبارات العسكرية خلال ثلاث سنوات ، قبل ان يرسل برتبة جنرال الى واشنطن ، لكي يعمل ملحقاً عسكرياً في سفارة اسرائيل . ولكن شخصيته تختلف تماماً عن شخصية الجنرال ياريف . فالجنرال زعيرا هو نموذج للضابط الذي لا يشكك بصحة تقويمه لوضع سبق ان حدده بصورة نهائية . ان معرفة زعيرا المحدودة بالعالم العربي ، كما ان مجمل مناصبه المتنوعة في الجيش الاسرائيلي ، لم تمكنه من التعمق كثيراً في المجال العربي .

لم يكن تغيير القادة في شعبة الاستخبارات التغيير الوحيد الذي اجري في هذه الهيئة خلال السنوات الاخيرة . فقد مر الجيش الاسرائيلي بأسره بتطور شمل جميع شعبه ، ازداد وتدعم فيه وزن التكنوقراطيين الامنيين ــ العسكريين ، وقل عدد المنظرين

والفلاسفة ، ورجال الفكر العسكري . وفي اعقاب حرب الايام الستة ، التي اثبتت فيها القوات المدرعة للجيش الاسرائيلي حقيقة كونها اهم سلاح ، ازداد شأن قادة المدرعات في الجيش الاسرائيلي . وكان من الطبيعي بعد ذلك ان يكون رئيسا الاركان اللذان خلفا الجنرال يتسحاق رابين بعد حرب الايام الستة، الجنرالان بار — ليف وألعازار ، من رجال المدرعات ذوي القبعات السوداء . كما انخفض بالتدريج وزن رجال « الرؤيا العسكرية » ، كما يسمونهم في الجيش الاسرائيلي ، جنرالات امثال يتسحاق رابين ، متتياهو بيليد ، يسرائيل طل ، ابراهام طمير . فالاساليب تطورت ، والاسلحة اصبحت اكثر تعقيداً ، وارتفع المستوى التكنولوجي ، واخذت الوسائل الالكترونية المتطورة تحتل مكان التفكير البشري . ولكن في الجيش ، كما في كل مؤسسة انسانية اخرى ، لا يكفي الدماغ الالكتروني . كما اعرب عن ذلك احد القادة : « ليس بالدماغ وحده بل بالعقل ايضاً » .

بينما جلست الاستخبارات الاسرائيلية على اكاليل الغار منذ حرب الايام الستة ، بذل المصريون جهوداً كبيرة لتحسين اجهزة المخابرات والتجسس عندهم في جميع المجالات . والمثال الملموس القاطع على ذلك ظهر في حرب يوم الغفران . فقد اعد الجيش الاسرائيلي قبيل الحرب خرائط شيفرة سجلت فيها برموز مجازية ، اسماء العلامات البارزة المختلفة في المناطق التي تغطيها هذه الخرائط . وكان الضباط والجنود يستخدمون هذه الشيفرة عندما كانوا يريدون تعيين موقع ، او مفترق طرق ، او اية نقطة معينة على الارض . وفي نهاية الحرب وجدت في سيناء ، وفي غربي القناة [...] خرائط [...] طبعت عليها بالعربية جميع الاسماء الرمزية العبرية المقابلة .

كان جمال عبد الناصر ، رئيس مصر ، معجباً بمستوى الاستخبارات الاسرائيلية في اعقاب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وقد تحدث عن ذلك محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة « الاهرام » شبه الرسمية ، في كتابه عن هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . ويقول هيكل في احد فصول الكتاب : « ان الرئيس عبد الناصر ، الذي تحطم قلبه بسبب الكارثة ، التي شعر انه المسبب في وقوعها على بلده ، لم يكن في وسعه التخلص من الاحساس بأهمية المعرفة . فقد جلس مرة ليلة كاملة وحيداً في غرفة مقفلة في القيادة العامة ، واستمع الى تسجيلات المؤتمرات الصحافية التي عقدها العسكريون الاسرائيليون المنتصرون في تل أبيب . وبينما كانت نظارات الريح لا تزال على جباههم ، ورمال الصحراء على احذيتهم ، رووا للعالم كيف دمروا الجيش المصري . فقد روى كل من الجنرال يتسحاق رابين ، رئيس هيئة الاركان الاسرائيلي ، والجنرال مردخاي هود ، قائد سلاح الجو ، وقادة المدرعات الجنرالات طل ، يافيه ، وشارون ، قصته . وجلس عبد الناصر في الغرفة المغلقة واستمع اليهم ، والى التفاصيل التي ادلوا بها عن انتصارهم

وهزيمته . وقد سبب له ذلك ألماً شديداً وحزناً عميقاً ، ولكنه كان مصمماً على ان يعرف . ان جميع مصادر الاستخبارات والدبلوماسية المصرية جندت من اجل رسم صورة واضحة لما حدث . فقد بحثت عن كل كلمة قيلت او كتبت في اسرائيل . وتطوعت مصادر محايدة كثيرة للمساعدة ، وبحثت ونقبت في الصحف الخارجية وجمعت معلومات كثيرة » .

لقد تعلم عبد الناصر ، بصورة خاصة ، الاعتراف بأهمية عنصر المخابرات في الحرب . فقد بدأ يتحدث عن « الحرب العلمية » ، وأمر باعادة بناء جهاز المخابرات المصري على أُسس جديدة مختلفة تماماً عما كان عليه حتى ذلك الحين . وقد تعلم المصريون ايضاً عدم الحصول على معلومات عن اسرائيل دون فحصها والتحقق من صحتها . بما في ذلك تلك التي زودتهم بها اجهزة مخابرات الاتحاد السوفياتي .

يشير هيكل في كتابه الى اسباب وقوع المصريين سنة ١٩٦٧ في فخ « ضباب الحرب » الاسرائيلي وشرح رأيه في ذلك : « مما يلفت النظر ان جزءاً كبيراً من نجاح « ضباب الحرب » هو نتيجة معلومات مصدرها صديقات مصر الشرقيات . وقد افترض الاسرائيليون ، بحق ، ان مصر ستثق بالتقارير القادمة من الكتلة الشرقية وتشكك بصحة التقارير التي تصل من الغرب ، ولهذا زودوا الغرب بمعلومات كاذبة . ان احد التقارير التي نقلت الى المشير عامر ، دون اية إضافات ، وصل من سفير مصر في بلغاريا . وجاء فيه ان مصادر دبلوماسية في وارسو مقتنعة بان اسرائيل ستستخدم سفناً تحمل علم ليبيرية — درج المصريون على السماح لها بدخول خليج العقبة — للهجوم على شرم الشيخ في ٢ حزيران (يونيو) ، وان هذا العمل سينسق مع اختراق المدرعات على امتداد جنوبي سيناء . واضاف التقرير يقول ان هذا الهجوم خطط ليوم ٢٧ أيار (مايو) ولكنه أُجّل بناء على نصيحة الولايات المتحدة » .

لقد اثبتت حرب يوم الغفران ان المخابرات المصرية خطت خطوة كبيرة الى الامام منذ ١٩٦٧ ، وعززت التعاون بينها وبين اجهزة المخابرات الاخرى — ابتداء بأجهزة الاتحاد السوفياتي وانتهاء بأجهزة الدول العربية الاخرى . فقد تحدث الاسرى الاسرائيليون الذين وقعوا في ايدي المصريين في هذه الحرب ، والذين تعرضوا لتعذيب مريع واعمال فظيعة في السجن المركزي في القاهرة ، بعد إطلاق سراحهم ، عن التحقيقات المتكررة التي أُجريت معهم خلال فترة أسرهم ، وعن اسئلة شملت جميع مجالات الحياة في اسرائيل . ولم يُسألوا عن القضايا العسكرية الخاصة بوحداتهم ، او عما يعرفوه عن الجيش الاسرائيلي وحسب ، بل عرض عليهم المحققون استمارات كثيرة مكتوبة بالعبرية ، تضمنت أسئلة عن التفاوت الاجتماعي في اسرائيل ، وعن علاقات القوى الداخلية بين الاحزاب ، [.......]

مع ذلك علينا ان نتذكر ان اجهزة المخابرات الاسرائيلية لا تزال تفوق اليوم ايضاً ،

ودون حدود، الاجهزة العربية المماثلة. وبالامكان القول دون أية ذرة من التبجح ، ان الاستخبارات الاسرائيلية هي احدى اجهزة المخابرات الممتازة في العــالم، ولكن من الصعب تفسير قصور الاستخبارات، خلال حرب يوم الغفران، دون الافتراض انها أصيبت بعمليات تلوث، بهذا القدر او ذاك، مشابهة لما اصاب جميع مجالات الحياة والمجتمع في اسرائيل منذ حرب الايام الستة.

بالامكان ايجاد امثلة على ذلك في بعض ما نشرته الصحافة العالمية في السنة التي سبقت الحرب. فقد كتبت مثلاً المجلة السويسرية المهمة «وولتوخا» عن اجهزة المخابرات الاسرائيلية في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢، في أعقاب مذبحة ميونيخ: «اين كان رجال المخابرات الاسرائيليين عندما دخل ارهابيون عرب الى مساكن الفريق الرياضي الاسرائيلي؟ لماذا سمح عميل مجرب، مثل تسادوق اوفير، لنفسه ان يسقط في مصيدة مراكشيين بصورة على هذه الدرجة من البلاهة؟ لماذا اظهر سلك العاملين في السفارة الاسرائيلية في لندن استخفافاً بالعناية بالبريد؟ لماذا فشلت المخابرات الاسرائيلية في دس عملاء في «منظمة ايلول الاسود»... ان المخابرات الاسرائيلية التي اثارت في الماضي رهبة ومخاوف كثيرة بين العرب، تعيش في ازمة».

تطرقت المجلة الفرنسية «نوفيل اوبزرفاتور» (١٨ ٩ ٧٢) الى هذه المشكلة: «يطرح الرأي العام الاسرائيلي اسئلة، وللمرة الأولى تتركز في اسرائيل مناقشات مريرة، في مقاهي شارع ديزنغوف، حول رؤساء الاجهزة السرية». وقد عقبت المجلة الفرنسية في ذلك المقال على حقيقة اطلاق الرصاص على موظف في سفارة اسرائيل في بروكسل، بعد ان دعي الى الحضور لمقابلة عميل عربي هناك: «والذي لم يكن معروفاً هو ان تسادوق اوفير يمثل في سفارة اسرائيل في بروكسل «الموساد» المشهورة، اي اجهزة المخابرات الاسرائيلية، وهو شخصية مهمة فيها. ومنذ أزمة ديغول مع اسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧، انتقلت اجهزة الامن الاسرائيلية الى بروكسل، وأصبحت بروكسل، كما كانت باريس آنذاك، مركز التجسس الاسرائيلي في اوروبا. كانت مهمة اوفير هي أجراء الاتصالات مع المخبرين العرب. وقد اطلق عليه الرصاص احد هؤلاء المخبرين، الذي كان يسمى راباط».

واضافت المجلة الفرنسية تقول: «ان هذه الحادثة خطرة، وربما تكون اخطر من مذبحة ميونيخ بالنسبة الى المخابرات الاسرائيلية، لانها تثبت ان الفلسطينيين يعملون على صعيدين: العمليات التظاهرية مثل ميونيخ، وايضاً الهجوم على رجال الاجهزة السرية في الخارج. هل نجحت في القبض عليهم؟ وفي تشخيصهم؟ على اي حال، ان قضية بروكسل تمس بصورة خطرة اسطورة مناعة اجهزة المخابرات الاسرائيلية ومصداقيتها».

ولم تكد تمر اربعة اشهر، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣، حتى قتل في وضح

النهار، وفي شارع مدريد الرئيسي المسمى شارع جوزيه انطونيو، رجل الامن الاسرائيلي باروخ كوهين. وعلى حد قول الصحف، اطلق عليه الرصاص وقتل عندما ظهر الى جانب كشك لبيع الصحف لكي يلتقي بعميل فلسطيني.

واما في اسرائيل نفسها، فلم يجرؤ سوى القلائل على توجيه الانتقادات وطرح السؤال: ماذا حدث لاجهزة المخابرات؟ وكانت مجلة «هعولام هازيه» الصحيفة الوحيدة التي كانت تهتم بهذا الموضوع بصورة دائمة، كصحيفة. وقد ظهرت في صحيفة «هآرتس» اليومية بضعة مقالات حول هذا الموضوع، بتوقيع المراسل العسكري زئيف شيف. وبحث مقال آخر في هذه الصحيفة، بقلم الدكتور الياهو بن أليشر، بصراحة في «تقصير المخابرات الاسرائيلية». وعــاد اوري دان، المعلق العسكري لصحيفة «معاريف»، كالاسطوانة العتيقة، يشير الى تقصيرات اجهزة المخابرات، ويطالب «بإعادة تنظيم أجهزة الامن».

لم ينظر احد في القيادة الاسرائيلية بجد الى هذه الانتقادات من الداخل والخارج، ولم تجرؤ لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست، والحكومة، وقادة جهاز الامن، على الاعتراض على اعمال جهاز المخابرات وتقصيراته. وكان محظوراً حتى التفكير بذلك بصوت عال. فقد ظلت هذه الهيئات الحيوية في دولة اسرائيل فوق النقد العام، كسائر هيئات جهاز الامن. وبقيت بمثابة «بقرات مقدسة» ترعى في المرج بارتياح. حتى بالنسبة الى القضايا المالية لم تجر في هذه المؤسسات رقابة مالية فعالة، وساهم مكتب مراقب الدولة في التغطية على التقصيرات والتبذير، بالتعاون الوثيق مع جهات امنية.

ان غولدا مئير، رئيسة الحكومة، المسؤولة ومكتبها عن تنسيق عمل اجهزة المخابرات المختلفة، لم تكن تفهم ولم تلم بهذا الجهاز المعقد. كيف يمكن اذن مطالبتها بفهم المعلومات السرية واستيعابها، سواء من المصادر الموثوقة او غير الموثوقة او بتقويمات وضع من الاستخبارات.

وهكذا استطاع المستشارون المختلفون لرئيسة الحكومة اتخامها بالمعلومات والتقديرات التي تبينت في حالات معينة بأنها معلومات عديمة القيمة، وتقويمات وضع ظهرت في احيان كثيرة بانها تقويمات كاذبة. وكان يخيل في بعض الاحيان ان جو السرية والغموض الذي يكتنف مثل هذه الموضوعات بحجة الامن، لم يكن الا للتغطية على الافلاس الفكري.

قال الجنرال (متقاعد) مئير عميت، رئيس الاستخبارات العسكرية سابقاً، والذي ترأس ايضاً المؤسسة الرئيسية للمخابرات والامن: «ان طرح السؤال، ماذا فعلت الحكومة خلال عشرة ايام قبل الحرب، على ضوء المعلومات التي كانت متوفرة لديها، هو

اسلوب غيبي . لانه من المستحيل في نهاية الامر اخراج مشكلة تتعلق بالمخابرات من داخل الشبكة العامة المعقدة جداً . فكل قضية تتعلق بالمخابرات هي مسألة فسيفسائية . لقد دخلنا جواً ووضعاً – وهذا ليس قضية عشرة أيام قبل الحرب – اعتقدنا بناء عليه ان شيئاً لن يحدث . يجب ان ندرك كيف يتبلور تقويم وضع . فالمرحلة الاولى هي في ايدي المخابرات . وهنا ، في هذه المرحلة ، ليس لها شركاء آخرون ، فهي تقرر اي المعلومات تنقلها الى المستويات العليا وايها لا تنقلها . وبعد ذلك تصل المرحلة الثانية ، تقويم المعلومات ، وتقويم الوضع . ومن المستحيل اعفاء المرتبتين – التنفيذية (المخابرات) والسياسية – من المسؤولية عن تقويم الوضع » .

اضاف الى ذلك الجنرال (متقاعد) يهوشفاط هركابي ، الذي كان يترأس في السابق شعبة الاستخبارات في الاركان العامة : « تعمل لدى قادة المخابرات قواعد التكيف . وقد ترسخ عندهم الرأي بأن النزاع العربي – الاسرائيلي ليس المشكلة الرئيسية . فالحكومة والمعارضة على السواء استخلصتا الاستنتاج الخاطىء من الوضع في المناطق ومعهما ايضاً المجتمع الذي اخذ يفكر رويداً رويداً بأنه اذا كان الوضع في المناطق مرضياً ، فمعنى هذا الأمر ان السلام سينجم عن ذلك . لقد اعتقدنا ان صورتنا الايجابية لدى العرب ستجلب السلام . ومن الصعب على رجل المخابرات حتماً ان يتخطى هذه المفاهيم العامة . لقد كان هناك مفهوم عام في البلد ان هناك انخفاضاً في حدة النزاع الاسرائيلي – العربي » .

وبالاضافة الى التقصير الناتج عن قصر النظر ، الذي ذهب الى ان تجميد الوضع في المنطقة سيؤدي الى الحرب بالضرورة ، التقصير الخاص بتقويم المخابرات الخاطىء . ثم أضيف اليهما ايضاً التقصير الخاص بالاعتماد المتزايد على الولايات المتحدة . فهذا الاعتماد الذي على أساسه صورت حكومة غولدا مئير الولايات المتحدة وكأنها حليفة اسرائيل الكبرى ، دفع وزراء حكومة اسرائيل الى الاعتقاد انه اذا ما تدهور الوضع ووصل الى حافة الحرب ، فسيكفي تدخل الولايات المتحدة للحيلولة دونها .

كان هذا الايمان العميق مترسخاً في قلب غولدا مئير . حتى ان احدى الخطوات الاولى التي قامت بها ، وبحسب شهادتها هي ، في صباح يوم الغفران ، بعد ان بات معلوماً دون ادنى شك ان الحرب ستندلع في الساعة ١٨ من ذلك اليوم ، كانت استدعاء كينيت كيتنغ ، السفير الاميركي في تل أبيب ، للاجتماع بها . وخلال اجتماعها مع السفير ذي الشعر الفضي ، والذي وصل قبل بضعة أسابيع فقط الى مكان عمله في اسرائيل ، ابلغته غولدا مئير ان لديها معلومات وثيقة بأن مصر وسورية ستبدآن الحرب عند المساء . وطلبت منه إبلاغ حكومته لكي تستخدم نفوذها لدى موسكو والقاهرة ودمشق ، لمنع الحرب

بعث كيتنغ بتقرير عن اجتماعه هذا الى الدكتور هنري كيسنجر في واشنطن ،

وقام هذا بدوره بالاتصال مع الدكتور محمد الزيات وزير الخارجية المصري ، الذي تظاهر بالبساطة وزعم انه لا يعرف اي شيء عن نوايا حكومته لبدء الحرب . ولكن نتيجة لهذا اللقاء ادرك اعداء اسرائيل ، الذين كانوا في المراحل الاخيرة من حملة التضليل الكبيرة ، ان اسرائيل قد عرفت انه في ذلك اليوم ، السبت ، وخلال ساعات معدودة ، ستبدأ الحرب .

تشير جميع الدلائل الى ان اسرائيل زادت بذلك هول المفاجأة وحجم الكارثة فقط . فالحرب التي حدد ميعادها في الساعة السادسة مساء ، تلك الساعة التي من أجلها اعلنت « حالة التأهب لامتصاص الضربة الاولى » في قوات الجيش الاسرائيلي على خطوط الجبهة ، قدمت الى الساعة الثانية ظهراً . والانذار الذي ازمعت اسرائيل على نقله الى الدول العربية بواسطة الولايات المتحدة ارتد اليها . وحصلت القاهرة ودمشق وموسكو على اشعار بان اسرائيل على علم بالحرب . ومن المرجح انه نتيجة لذلك قدموا ساعة الصفر اربع ساعات كاملة ، اثمن من الذهب ، في تلك الظروف التي كانت سائدة في ذلك اليوم ...

الفصل الخامس

حصن حصين

في ساعات ليلة يوم الغفران ، ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، طلبت القيادة العامة للجيش الاسرائيلي معرفة صورة الوضع في خط التحصينات على ضفة قناة السويس . ففي تلك الساعات كان واضحاً ان المصريين نجحوا في العبور على امتداد القناة ، وان قواتهم توغلت ، بعض الكيلومترات ، في عمق سيناء . فقد كان معروفاً انهم اقاموا جسوراً عائمة ، واخرى من الدبابات البرمائية الروسية ، التي تدفقت فوقها الفرق المدرعة المصرية الى رؤوس الجسور . ولكن مصير التحصينات لم يكن واضحاً ، فقد فضل المصريون ، في هذه المرحلة ، عدم مهاجمتها ، وعدم تكبد خسائر في الارواح ، في محاولات اقتحامها واحتلالها . ولم يحتل المصريون سوى موقع واحد ، كان قائماً على قطعة ارض ضيقة بين المستنقعات والقناة ، في القطاع الشمالي ، وظلت بقية التحصينات حتى ذلك الوقت ، في ايدي الجيش الاسرائيلي . وقد حاول الجنود المصريون احتلالها ، ولكنهم انسحبوا عندما اصطدموا بمقاومة .

لقد عبر المصريون عن طريق العشرة كيلومترات الفاصلة بين تحصين وآخر ، مفترضين ان التحصينات ستسقط في ايديهم ، على اي حال ، كالثمار الناضجة . وقبيل ساعات المساء ، بدأت علامات هذا الاحتمال المريع ترتسم ايضاً في نظر القيادة العليا للجيش الاسرائيلي . فقد اتاحت اجهزة اللاسلكي المتطورة ، والموجودة في موقع القيادة العليا ، لكل من كان حاضراً ، سماع ما يجري في كل واحد من التحصينات ، التي كانت لا تزال جميعها مرتبطة بشبكة الاتصال . ولكن كان من الصعب معرفة صورة الوضع من التقارير اللاسلكية . وسمع صوت احد ضباط العمليات يصرخ في احد المواقع : « ماذا يجري هناك ، يا للجحيم » .

ردوا عليه من الموقع : « ربما يجدر ان تسمع بنفسك ! » وانطلقت من خلال جهاز اللاسلكي ، لعلعة الرصاص من الاسلحة الخفيفة يطلقها الجنود المصريون ، الذين كانوا

ساعتها في سراديب التحصين ، في القطاع الشمالي لقناة السويس ، يخوضون معركة مع مقاتلي الموقع داخل الدشم .

وفي تلك الساعات ، أعطيت افضلية قصوى لمحاولات انقاذ رجال التحصينات ، حيث يقضي التقليد المقدس لدى الجيش الاسرائيلي بعدم ترك مقاتلين وشأنهم في ارض العدو ، وكان انقاذ الجرحى وإخلاء القتلى من ارض المعركة دائماً ، واجباً غير قابل للاعتراض لدى مقاتلي الجيش الاسرائيلي . وثمة الآن نحو ٥٠٠ جندي محاصرين داخل تحصيناتهم على ضفة قناة السويس ، واوضحت التقارير ان هناك الكثير من القتلى والجرحى في بعض التحصينات ، وباتت المهمة الاولى هي انقاذ المحاصرين من داخل طوق الحصار .

منذ الساعات الاولى للقتال ، حاولت فرقة المدرعات في سيناء التحرك نحو التحصينات ، لتعزيزها او لانقاذ رجالها . وقد تمكنت الدبابات ، في عدة اماكن ، من الوصول الى التحصينات ، فوصلت ، مثلاً ، وحدة دبابات الى تحصين بالقرب من القنطرة ، حيث وجدت فيه اربعة قتلى ، وعدداً من الجرحى ، فتم حملهم الى الدبابات لاخلائهم . لقد طلب قائد التحصين اذناً باخلاء جنوده من التحصين فلم يحصل عليه ، وقيل له : « يخلى القتلى والجرحى فقط » ، وكانوا لا يزالون غير مدركين بعد حجم التوغل المصري وابعاده .

نجحت الدبابات ، في مواقع اخرى ، في انقاذ الرجال ، ولكنها لم تستطع ، في معظم التحصينات ، الاقتراب مطلقاً من الحاجز الترابي الممتد على طول القناة ، حيث كانت مواقعها معدة سلفاً . فقد اوقفتها الصواريخ المصرية المضادة للدبابات ، التي اطلقت من الجهة الغربية للحاجز ، على بعد اكثر من كيلومتر من اهدافها .

وفي احدى ساعات الليل وصل قائد المنطقة الجنوبية الجنرال شموئيل غونين ، الى موقعه الامامي في سيناء ، الذي اعد قبل ذلك لكي يستخدم قيادة امامية للمنطقة وقت الحرب . واسرع الجنرال البرت مندلر ايضاً الى الامام باتجاه الموقع الامامي للقوات المدرعة في سيناء . ودل الوضع الذي ارتسم في تلك الساعة على الخرائط ، ان نحو مائة دبابة تخوض قتالاً فعلياً على امتداد الخط الامامي ، في محاولات يائسة لانقاذ المحاصرين في التحصينات .

اتضح للقيادة في وقت لاحق ان ثمن محاولات الانقاذ هذه باهظ جداً . فقد خلف الجيش الاسرائيلي عندما حاول اختراق طوق الحصار المضروب على احد التحصينات ، نحو ٤٠ دبابة وناقلة جنود مصفحة . كما أصيبت قوة اكبر في محاولة انقاذ نحو ٣٠ مقاتلاً محاصرين . قال احد القادة : « في لحظة معينة اوقفنا . وقلنا في لحظة اخرى

ربما ننجح في انقاذ الرجال من التحصينات . ولكننا سنبقى عندها دون فرق . ودون دبابات . ووسط كل هذا الاضطراب لم نعرف ما هو وضع كل تحصين في تلك اللحظة . كانت هناك تحصينات انقطع الاتصال بها ، واخرى استمر الاتصال بها حتى اللحظة الاخيرة ، وكانت هناك تحصينات يلف الغموض وضعها » .

لم يتخذ القرار النهائي ، بشأن مصير التحصينات ، الا في ساعات بعد الظهر من يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، عندما تسلم قائدا فرقتي الاحتياط ، الجنرال اريك شارون والجنرال ابراهام ادان ، قيادتيهما الاماميتين . واقترح اريك الخروج لانقاذ رجال التحصينات ، فطلب تشكيل قوة من ١٠٠ دبابة من فرقته ، لاحداث ثغرة في الطوق المصري وانقاذ المحاصرين . وامر الجنرال أدان ، في قطاعه ، مقاتلي التحصينات بمحاولة النجاة بأنفسهم . وبالفعل ، فقد نجح المقاتلون في الخروج من عدد من التحصينات . وحتى الدبابات التي كانت في بعض التحصينات نجحت في التسلل ، عبر الطوق المصري ، والالتحاق بقوات الجيش الاسرائيلي في عمق سيناء .

وحينذاك ، عندما وضع موشيه دايان وزير الدفاع ، الذي وصل الى موقع القيادة الامامي ، في الصورة ، اقترح انه : « لا مناص من التخلي عن جنود التحصينات ، فليهرب من يستطيع الهرب ، أما الباقون ، بمن فيهم الجرحى ، فليبقوا في التحصينات » .

وقد اعتبر الكثيرون هذا القرار ، كفراً بالمبدأ ، وتنكراً لكل ما هو مألوف ومقدس لدى الجيش الاسرائيلي . ولكن لم يبق هناك خيار آخر .

سمع الجنرال شارون في قيادته صوت اللاسلكي في احد المواقع ، يقول له : « خفنا ... كنا قلقين ... والآن ، عندما سمعنا بانك وصلت ، نحن متأكدون بأن كل شيء سيكون على ما يرام ... ستأتي لانقاذنا » . لم يعرف الجنرال شارون ماذا يجيبه ، فهو نفسه من آباء التقليد العسكري الاسرائيلي القائل بعدم التخلي عن المقاتلين او الجرحى في ارض العدو ، ففي حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ ، حارب الجنرال شارون ، وكان ضابطاً صغيراً ، في المعركة الرهيبة عند مركز شرطة اللطرون ، التي سقط فيها المئات من جنود الجيش الاسرائيلي ، وفي احدى الهجمات ، على قلعة الشرطة في اللطرون ، بقي اريك والفصيلة التي كان يقودها ملتصقين في مكانهما على ارض العدو ، وقد جرح برصاصة دخلت في ساقه وخرجت من بطنه ، وعندما صدر امر بانسحاب القوات التي هاجمت مركز الشرطة ، كان مرفقاً بتعليمات لترك الجرحى العاجزين عن التحرك على ارض العدو ، لم تكن هناك نية للتخلي عنهم ، ولكنهم أملوا بان تنجح في انقاذهم المجنزرات التي كانت ستذهب الى هناك ، وهكذا كان على اريك ان يبقى هناك ، بانتظار المعجزة ، وقد وقعت فعلاً ، عندما حمله احد جنوده ، وهو مهاجر جديد نزل

قبل ايام معدودة فقط من السفينة التي نقلته الى شاطىء البلد ، على ظهره ونقله الى مكان آمن . بينما قتل جميع الجرحى الذين بقوا على أرض العدو . ومنذ ذلك اليوم طبق اريك تقليداً ، اصبح حجر الزاوية لدى الجيش الاسرائيلي في كل حروبه ، وهو عدم التخلي عن الجرحى . وقد درج على القول : « ان الجندي الواثق من ان رفاقه سيخلصونه — مهما كان — حتى لو عرّضوا حياتهم للخطر ، لا يتردد في القتال » . والآن ، لم تكن لديه الكلمات ليوضح ، لذلك الجندي المحاصر في التحصين ، ما الذي يمنع الجيش الاسرائيلي من الاسراع لمساعدة المحاصرين .

منذ اللحظة التي اعطي فيها الامر بإخلاء خط التحصينات ثارت عدة مشاكل صعبة . ففي القطاع الشمالي كانت محاور الحركة مقيدة . وكان من الصعب التقدم نحو التحصينات ، حتى بالدبابات ، لأن اية محاولة كهذه كانت بمثابة انتحار . فقد طوق المصريون محاور الحركة على امتداد المستنقع ، وعلى مشارف القنطرة ، و « لوثوا المنطقة برجال الكوماندو المسلحين بالصواريخ » . وفي الجنوب والوسط ظهرت مشاكل صعبة ، ولكن جرت محاولات للالتفاف حول محاور الحركة الرئيسية ، من اجل الوصول الى التحصينات . وبالفعل فقد وصلت الدبابات الى بعض التحصينات ، قبيل حلول الظلام في اليوم الثاني من الحرب .

وبعد متاعب كبيرة نجحت القوة التي كان فيها الملازم يغئال ، من رجال الاحتياط من ريشون لتسيون ، في الوصول ظهر يوم الاحد الى خط العرض بين الطاسة وبلوظة . وقال : « لم اتسلم اية تعليمات واضحة . وقد تزودت وقائد الكتيبة من الشائعات . فقد بقي معنا ست دبابات فقط من الثماني التي خرجنا بها . وصدرت لنا الاوامر بالتوجه شرقي محور العرض . وللحقيقة ، اقول انني لم اكن اعرف اين موقعنا ، وكم نبعد عن القناة ، واين يوجد العدو . وقد انقضضت على اللاسلكي ، عدة مرات ، وسألت قائد السرية عن وجهة تحركنا وضد من ، فأجابني بنفاد صبر ، « لا تسألني ، ان معلوماتي كمعلوماتك تماماً » . سمعت اصوات المدافع ، وبدأت فجأة تسقط علينا قذائف المدفعية . رأيت اهدافاً سوداء في الافق ، كانت دبابات مصرية ، كما اتضح فيما بعد . بدأنا نتحرك ونحسن المواقع . رأينا في الجهة الشمالية ، دبابات سنتوريون ، تنقض على اهداف وتبيدها ، وبدأنا نحن ايضاً باطلاق النار لمسافات بعيدة ، واتضح ان التصويب لم يكن مركزاً بدقة ، فقد سقطت القذائف التي اطلقناها اقرب مما اعتقدت . كان من الصعب تقدير المدى ، فلم يكن لدينا مناظير ميدان . ومضينا نحسن مواقعنا .

« اكتشفنا فجأة ست دبابات تقف موجهة مدافعها نحو الشمال ، دون ان تظهر اي دليل على انها تقاتل . لم اجزم بانها عدوة . وقال سائقي : « سيؤنبك ضميرك اذا اصبت رفاقنا » . ومرة ثانية ، انقضضت على جهاز اللاسلكي وطلبت التوجيهات . فاعطى

قائد السرية امراً باطلاق النار ، ولكننا لم نفعل شيئاً . لقد كان هذا خطأ . ثم اعطي الامر بالهجوم ، واتخذت مركزاً قريباً يمكنني منه اطلاق النار من مسافات فعالة . وبالقذيفة الاولى دمرنا ناقلة بجنودها ، ثم خفضت السرعة قليلا . لم اعرف بالضبط وجهة هجومنا . واعطيت السائق امراً بالتحرك الى الامام باقصى سرعة . ومنذ تلك اللحظة توقف اللاسلكي عن العمل ، ولم يكن لدي جهاز مساعد ، ولهذا كان علي ان أُقاتل كدبابة منفردة . لقد رأيت غبار المدافع من ناحية الفردان بالقرب من موقعنا ، ورأيت حوله الدبابات المصرية . وبعدها اكتشفت ، خلال دقائق ، بانني داخل بحر من الصينيين .

« لقد كانوا باعداد غفيرة ، وخرجوا من داخل الحفر ، ومن وراء التلال ، وبدأوا الهجوم . لم يحذرنا احد ، في أية مرحلة ، باننا سنحارب جنود المشاة . لقد توقف رشاش القائد عن العمل ، بعد طلقتين ، وكان توجيه المدفع ضدهم امراً غير واقعي ، ولكننا فعلنا ذلك ايضاً . وقد طلبت قنابل من ملقم المدفع . ومنذ البداية ، كان جميع الجنود المصريين في حالة هجوم ، لكنهم صدموا عندما وصلنا اليهم . لقد استطعت رؤية ذلك في عيونهم . وقد شاهدت بازوكا في احدى الحفر ، فدهسنا احد الجنود الذين استخدموها ، وقد سمعت صراخه ، اما الثاني فقفز الى الحفرة ونجا ، وقد مررنا فوقه . وكانت التلال تبدو سوداء من كثرة الرجال ، وكانوا يركضون هنا وهناك ، يركضون ويسقطون ، وكأن ذلك يجري دون هدف . وفجأة شاهدت صاروخ ساغر يطير تماماً باتجاه السنتوريون ، التي كانت الى يميني ، لم اكن على اتصال بها ولم استطع تحذيرها ، فصرخت بصوت عال ، معتقداً ان ذلك قد يساعد على تنبيهها . وببساطة ، رأيت الصاروخ يقترب رويداً رويداً ويصيبها مباشرة ، ثم رأيت الضابط يطير من فوق البرج . وكل دبابة وقفت هناك أُصيبت . بدأت اعطي السائق اوامر متناقضة الواحد تلو الآخر : سر الى اليمين ، سر الى اليسار ، قف ، سر ، الى الامام ، الى الوراء ، وهكذا .

« كنت مبحوحاً الى حد كبير ، ولم يكن اللاسلكي صالحاً تماماً ، فنقلت الاوامر عن طريق ملقم المدفع ، الذي لفت انتباهه برفسة . وقد اطلقوا النار علينا من اسلحة خفيفة ، وسمعت نقر الرصاص على الفولاذ . لقد اصبنا بعضهم بالقنابل اليدوية ، وحاولنا ان ندهس منهم بقدر الامكان ، واطلقنا عليهم القذائف من مسافات قصيرة جداً . وقد شاهدنا دباباتهم ايضاً . تلك الدبابات الست التي رأيناها قبل ذلك ولم نعرفها ، صوبت المدافع الينا وبدأت اطلاق النار . احرقنا واحدة منها . ثم اكتشفنا اس . يو . ١٠٠ (مدمر دبابات) من خلفنا ، وقد اختبأ وراءه جنود مع بازوكا وصواريخ . وقد اصبناهم من على بعد ١٥ م . قذفناهم بالقنابل فهربوا ، ثم لاحقناهم لدهسهم بالجنازير . وعندما

حاولت احدى الدبابات الست ، مرة اخرى ، ان تطلق باتجاهي ، صوبنا باتجاهها ، وكانت قذيفة خارقة للدروع في المدفع . صرخت : « نار ! » وبعد ان ضغط ملقم المدفع على الزناد دخلت فجأة ، سنتوريون ، مقابل مدفعي تماماً . ورفعت المدفع بذعر حتى الحد الاقصى وطارت القذيفة الى الاعلى ، الى السماء . وصاح ملقم المدفع : يغئال ، ماذا فعلت ؟ ، قلت له : اشكر ربك .

« رأيت اننا اصبحنا وحدنا في الميدان . وشعرت فجأة بخبطة . فقد تلقينا قذيفة على البرج . وقلت للطاقم : هذا لا شيء ، وطلبت من ملقم المدفع ان يصوب الفوهة ، واجابني : لا اقدر على التصويب ، وفي تلك اللحظة شعرت باصابة اخرى ، وهذه المرة من قذيفة بازوكا . وان الشيء الذي انقذنا هو الكشاف . وقد اصابت الاضرار عدة اجهزة داخلية . فالاتصال الداخلي لم يعد يعمل . واستطعت ان اعطي الاوامر فقط بواسطة الصراخ والرفس . وقد عرفت بأننا نسير نحو النهاية . لم اعرف ماذا يحدث (لملقن الذخيرة) فلم يرد على نداءاتي . وقد اتضح بعد ذلك ان يده كسرت نتيجة إصابة مؤخرة المدفع خلال المعركة ولم يخبرني بذلك . وان القذائف الخمس الاخيرة التي اطلقناها قد دفعها بواسطة مرفق اليد المكسورة . ولكنه لم يستطع شحن حزام الرشاش « ٣ » . وقلت للسائق : « تحرك الى الوراء بسرعة » . وفي تلك الاثناء اطلقنا النار بواسطة الرشاش السفلي . وقد خرجنا من مدى رماية الاسلحة الخفيفة . لم اعرف بالضبط الى اي اتجاه . واخيراً وصلت الى قائد سرية آخر تابع لكتيبتي . واتضح لي ان قائد الكتيبة وقائد السرية جرحا » .

وحتى عندما اتضح ان خط بار – ليف لا يصمد ، وان الحديث يدور عن الانسحاب منه ، كانت لا تزال تبذل جهود لانقاذ التحصينات . وقد بات واضحاً انه لم تعد هناك فائدة من حصر بؤر العبور المصرية ، فقد انتشرت هذه على امتداد القناة . واصبح كل مكان ، فيه قوة مصرية ، بمثابة رأس جسر صغير . ففي محور الاسماعيلية ، خاضت وحدات من الدبابات معركة يائسة ضد القوات المصرية التي احتلت المحور بهدف توسيع رأس الجسر ، ليصبح بالامكان معالجة هذه التحصينات ونقل قوات مدرعة الى هذا المحور .

كان يتسحاق ، وهو جندي صغير السن ، مجعد الشعر ، ذو عينين عسليتين ، موجوداً في دبابة قائد السرية عندما صدر الامر بالانقضاض الى الامام فقال : « انني لا اتذكر كم كيلومتراً كنا بعيدين عن القناة عندما اصبنا . وانني اعرف فقط بانهم امرونا بالالتحاق بالتحصين ، ولم اتمكن من اطلاق قذيفة مدفع واحدة . كانت هذه اول معمودية لي بالنار . فقد كنت خلال حرب الاستنزاف ما ازال طالباً في المدرسة الثانوية . ورأيت ، وانا اتحرك ، شعلة نارية صغيرة ملتهبة تطير متراقصة في الجو ، ثم سمعت انفجاراً ، فأصيب قائد السرية ، الذي كان في برج الدبابة ، ورأيته يلقي

بنفسه من فوقها . وسمعت نائب قائد الكتيبة يتحدث في اللاسلكي ، ولكنه لم يسمعنا . وقفز جميع افراد الطاقم من الدبابة . لم يكن لدينا جميعاً اسلحة شخصية ، ولا مطرة للمياه ، ولا نقالة جنود . كان قائد السرية يئن بصوت عال ، وهو في حالة وعي كامل ، وكانت ساقه محطمة تحت الركبة ، والعظمة المكسورة ظاهرة للعيان . كان هذا غريباً بالنسبة الي ، لأن الدم لم يتدفق . لم ار ابداً جريحاً ، وتساءلت هل حقاً هذا ما يحدث دائماً . وارسل قائد السرية ، ملقم المدفع ليتفحص الميدان وما اذا بقي فيه احد من رجالنا ، وعاد ليخبره بأنه لم ير دبابات اخرى . وقد طلب قائد السرية اخراجه من الدبابة ، ففعلنا ذلك بسرعة ، وسحبناه مسافة ٣٠ م . ، ثم اشتعلت الدبابة فخفنا من الانفجار . وفي الوقت نفسه سمعنا صوت جنازير غير بعيدة عنا ، فشاهدت دبابة تسير الى الوراء بسرعة . ثم هبط الظلام ولم تضيء المنطقة سوى انفجارات قذائف المدفعية . واما ملقم المدفع ، الذي كان امامي ، فقد ركض وراء الدبابة التي رأيتها تنفجر فجأة نتيجة اصابتها بصاروخ . وقلت لقائد السرية : « ها قد ذهبت دبابة اخرى » . طلب قائد السرية سحبه باتجاه قواتنا ، وعندما رفعته سقطنا معاً على الرمل ، فقد كنت خائر القوى . سحبته مسافة ثمانين او مائة متر ، وشعرت بعدها انني لا اقوى على الاستمرار بعد . فقد كان ثقيلاً ، والكثبان الرملية عالية . وعندما قلت له هذا اجابني ، « اتركني هنا واركض لطلب المساعدة » . وركضت نحو الشرق ، وفي الطريق التقيت بمجموعة اخرى من الجنود ، وقد تركوا هم ايضاً دباباتهم وراءهم ، وسألني أحدهم ماذا حدث لقائد السرية . فقلت له ، « دعك الآن من قائد السرية ، فهو جريح وبقي في الميدان ، وعندما نتصل بقواتنا سنرسل دبابة لانقاذه » . كان قائد دبابة الطاقم الذي التقيته مرتبكاً ، فقد كان ، كما يبدو ، متأثراً بصدمة ، وبدأ يسير في اتجاه عكسي تماماً . قابلت ، في الطريق ، نائب قائد الكتيبة ، فصعدنا الى دبابته ، ثم حدثته عن قائد السرية ، واشرت الى المكان الذي بقي فيه . كان نائب قائد الكتيبة هادئاً ، وقال لي ، سيكون خيراً ، سنخلي اولاً جرحى الدبابة ، ثم نذهب لانقاذ قائد السرية . واستلقيت على ظهر الدبابة ، وعندما تحسست قدمي وجدت ساعة ، فتذكرت ان قائد السرية قال لي : « اعط هذه الساعة لزوجتي » ، وعندها اخذت ابكي من شدة الحزن . لقد اعتقدت انهم اخلوا قائد الكتيبة ، فقد سرنا طوال الطريق الى قواتنا تحت القصف ، حيث كانت تغطي المنطقة نيران كثيفة . وبعد ذلك بمدة فقط ، عرفت ان نائب قائد الكتيبة خرج للبحث عن قائد السرية وقتل هو ايضاً » .

في القطاع الجنوبي ، كانت الدبابات التي ارسلت الى التحصينات منهمكة في انقاذ نفسها ، فقد احترق بعضها ، وأصيب البعض الآخر . وكان هناك عشرات الجرحى ممددين في الميدان ، وكان ثمن محاولة انقاذ رجال التحصينات باهظاً جداً . كان عدد الخسائر في تلك الساعة مخيفاً للغاية ، اذا اخذنا بعين الاعتبار حقيقة ان

الجيش الاسرائيلي كان يأخذ بالحسبان سلفاً، في كل عملية خطط لها حتى الآن، كمية الخسائر المتوقعة، كأحد الاعتبارات من جدوى تنفيذها. قتيل واحد، عشرة قتلى — كان هذا ثمناً مخيفاً، واما هنا، في الميدان، فوق الرمال، كانت هناك عشرات كثيرة من القتلى. ان احداً لا يستطيع ان يقدر عددهم. منهم الذين احترقوا داخل الدبابات، وآخرون ضاعوا في متاهات الصحراء، وقد اصطدموا بمجموعات مصرية، واشتبكوا معها، او استسلموا لها، ووقعوا في الاسر.

وصلت الى احد التحصينات، بالقرب من رصيف بور توفيق، قوة من الدبابات، وأمر قائدها، قائد التحصين بتركه، والاتجاه سيراً على الاقدام للانضمام الى الدبابات. وكانت الدبابات التابعة لقوة الانقاذ تنتظر على بعد ٤٠٠ م من التحصين، داخل منطقة القصف المدفعي. والصواريخ والاسلحة الخفيفة، ولكن شيئاً لم يحدث. وقد خشي رجال التحصين الخروج والالتحاق بالدبابات، لادراكهم جيداً ما ينتظرهم في الطريق. وربما خشوا ايضاً الخروج من الدشم المحمية نسبياً، في حين كان التحصين معرضاً للقصف المستمر.

لقد سبب ذلك، طبعاً، خيبة امل كبيرة لقائد قوة الدبابات، الذي فقد جنوداً ودبابات في الطريق الذي سلكه حتى وصل الى قرب التحصين. ولم يعد امامه خيار سوى اصدار امر بالانسحاب للدبابات التي بقيت معه. لم يكن ممكناً، طبعاً، الوصول الى رصيف الميناء، وكان هناك طريق واحد ضيق فقط على امتداد الشاطىء المؤدي الى الرصيف، وكان فيه مئات جنود المشاة المصريين الذين حاصروا التحصين وانتظروا وصول النجدة لابادته.

وفي مواقع اخرى بذل القادة والجنود جهداً كبيراً للنجاة بأنفسهم من مواقعهم المحاصرة.

كان يوسي، احد رجال الناحل الذي كان سيسرح من الخدمة النظامية، بعد اسبوع من يوم الغفران، واحداً من المقاتلين في احد التحصينات في القطاع الجنوبي من القناة. وكان في التحصين ١٥ مقاتلاً، بقيادة عريف، لم يتسن لهم معرفة بعضهم جيداً بعد، لانه طلب منهم التمركز في التحصين قبل ثلاثة ايام فقط من حرب يوم الغفران. وفي الساعة الثانية من ظهر يوم الغفران، لاحظ يوسي، فجأة، شيئاً ما يطير باتجاهه، واعتقد انها قذيفة وحيدة فلتت، واكتشف بعد ذلك انها ليست سوى صاروخ. وقد شد الحبل مستنجداً بالقائد العريف الذي قال: «هذا لا شيء»، ولكنه، مع ذلك، صعد الى الاعلى. وفي تلك اللحظة تلقى رصاصة في بطنه، ثم بدأت امام عيون يوسي المندهشة أعداد من المصريين تتسلق التحصين. بعد مرور يومين ونصف، استطاع انقاذ نفسه من هذا التحصين، وقد بقي من سريته المؤلفة

من ١٠٠ شخص، ١٥ مقاتلاً، وقتل الباقون، او أسروا، او أُعلن عنهم كمفقودين. وفي اليوم الثالث من الحرب فقط، تفرغ المصريون لتطهير الدشم التابعة لهذا التحصين. وقد شاهد، خلال هذه الايام الثلاثة، معركة الدبابات اليائسة التي دارت على بعد بضع مئات من الامتار من مدخل التحصين، وشاهد عملية العبور المصرية الجماعية طوال اليوم الاول. كانوا لا يزالون يعدوه: «سنخلصكم بعد مدة قصيرة». ولكنه عندما شعر بانه لم يبق اي امل، قرر ان يتولى مصيره بنفسه وينصرف الى الغرب. وقد فعل ذلك بعد ان ادخلت فوهة قاذفة للهب من نافذة الدشمة وحوّل خرطوم من النار، بدا في نظره كخرطوم المياه، ستة من اصدقائه رماداً. رآهم يوسي المذهول كالاصنام المشوهة داخل النار. وهو متقوقع في زاوية الدشمة. وسمع من النافذة اصواتاً عالية تتحدث باللغة العربية، واصواتاً رتيبة من طلقات الرشاشات. وعندما خرج مع صديقه الى المدخل، شاهدا في الساحة سيارة جيب مصرية وفيها جنديان يجلسان في المقعد الامامي، وظهرهما باتجاههما، فهجما على المصريين وخنقاهما بايديهما، ثم ادارا محرك سيارة الجيب وانطلقا شرقاً. وقبيل ساعات المساء من اليوم الثاني للحرب، يوم الاحد، انخفض احتياطي الذخيرة في التحصينات المحاصرة. وفي معظم التحصينات، التي ما زالت صامدة ضد هجمات المصريين المتزايدة، كان هناك قتلى، والادهى من ذلك كان هناك جرحى تصعب معالجتهم، ومما زاد الامر خطورة هو حالة الجرحى المصابين بجروح بالغة، والذين كانوا بحاجة الى عمليات مستعجلة لانقاذ حياتهم، وقد أصيب معظم الدبابات التي حاولت الالتحاق بالتحصينات. كان واضحاً لقادة التحصينات، في ضوء صدور امر بالاخلاء، ان احداً لن يستطيع مساعدتهم اذا لم يساعدوا انفسهم. لقد بقي مع ينكلي، قائد التحصين في القنطرة، عشرة مقاتلين سالمين، واما بقية الاشخاص الاحياء، او المصابين بجروح طفيفة، فقد كانوا افراداً يمارسون خدمات مختلفة، من بينهم جنود من الحاخامية العسكرية الرئيسية، الذين دخلوا التحصينات عشية يوم الغفران. وقد ساعدوا في تعبئة المخازن، ونقل الذخيرة، او في مهمات اخرى مختلفـــة. ونحو منتصف الليل صدر امر لاسلكي بمغـــادرة التحصين، وكان الجنود في التحصين، حتى تلك الساعة، مقتنعين بان قوة نجدة ستصل اليهم لتعزيز قوتهم، او لانقاذهم من الخط الامامي. وكانت الخطة تقضي بمحاولة اختراق الخطوط عبر الكمائن المصرية، بواسطة مجنزرتين، والوصول الى نقطة التقاء مع قوة اسرائيلية كان يفترض ان تنتظرهم على بعد عشرة كيلومترات شرقي التحصين. وسرعان ما اتضح ان قذيفة اصابت احدى المجنزرتين ولم تعد صالحة للسير. وبات واضحاً لينكلي انه لا يستطيع نقل ٤٠ جندياً، كانوا معه، بواسطة مجنزرة واحدة، وسيكون ذلك بمثابة انتحار. وروى قائلاً: «استعدينا للسير على الاقدام، وحملنا اسلحتنا الشخصية وجهاز لاسلكي فقط، واما الجرحى الخمسة المصابون بجروح بالغة،

والذين كانوا معنا ، فكنا ننوي حملهم على النقالات ، لكنهم رفضوا ان يثقلوا علينا واخبرونا ان باستطاعتهم السير لوحدهم . وهكذا في الساعة ٢٣,٣٠ من ليلة يوم الاحد ، اخلينا التحصين بصورة سرية ، وبمرارة احساس الاشخاص الهاربين . وبعدها دخلنا مدينة القنطرة ، التي تعج بالمصريين ، وفي اعتقادنا انهم لن يتعرفوا الينا ، باننا جنود اسرائيليون ، في خضم ضجيج الدبابات والمشاة السائد في المدينة ، وفي عتمة الشوارع المظلمة . كان الدخول الى عرين الاسد مباشرة ، فكرة جنونية ، لكنها اثبتت جدواها » .
فعلى بعد كيلومتر واحد من المدينة فوجئت مجموعة المقاتلين ، في اثناء سيرها ، بتجمع كبير للدبابات المصرية يسد الطريق امامها . « وقد اقتربنا منهم كثيراً ، حتى استطعنا رفع شباكهم التمويهية ، ثم اطلق المصريون النار علينا » . وبعد مضي بضع دقائق ، من نجاحنا في تجنب المواجهة ، اصطدمنا مرة ثانية بكمين مصري ، ومن مسافة قصيرة هذه المرة . فصرخ احد جنود وحدتنا باتجاه مطلقي النار ، باللغة العربية : « اوقفوا الاطلاق ، نحن مصريون ! » وقد توقف اطلاق النار لحظة ، وبعدها سُمع صوت من داخل الظلام : « ان لهجته غير مصرية ، هؤلاء يهود : اطلقوا عليهم النار ! » وعندها تجدد اطلاق النار ، واطلقت الصواريخ ، وقذائف الاضاءة وتحول الليل الى نهار . امر ينكلي بالانسحاب وبقي هو مع مجموعة في الخلف ، لصد المصريين الذين انقضوا في اعقاب القوة المنسحبة . وقد أصيب عدد من الاشخاص وبدأوا يصرخون : « مضمد ، مضمد ! » وكان المضمد من بين الجرحى . لقد نجحت مجموعة الجنود في الدخول الى احد البيوت الخالية في القنطرة ، ثم فرش ينكلي خريطة في هذا البيت ، واضاء مصباحه ، وبدأ يبحث عن ممر آخر للتسلل الى خارج المدينة المحاصرة . وتم بواسطة اللاسلكي ، تحديد نقطة التقاء اخرى مع القوة الاسرائيلية الموجودة في الشرق . وعندما خرجوا من البيت مرت امامهم وحدة مصرية محمولة على ناقلات جنود مصفحة . وصدر امر بمغادرة المدينة بسرعة ، فرتبت القوة امرها وفق تحديد سابق . كان على رأسها ينكلي بينما العرفاء في المؤخرة ، حرصاً على الا يضل احد طريقه . وبعد مغادرتهم البيت بوقت قصير ، اختفى قسم من الرجال ، فقد تاهوا ، كما يبدو ، في ازقة القنطرة المظلمة .

قال ينكلي : « خرجنا من القنطرة في الطريق الى الشمال ، ونجحنا مرة ثانية في تجنب الاحتكاك بالمصريين . واصطدمنا بسور المقبرة المسيحية في المدينة ، فاجتزناه وقفزنا بالقرب من انصاب القبور ، ثم نام غالبية الرجال فوراً ، وربضت انا ، منهكاً تماماً . وعندها فقط اخذت اشعر بآثار التعب والتوتر . استرحنا في المقبرة نحو ساعة ، ثم ايقظت الرجال وأمرتهم بالاستعداد لمتابعة السير ، مقدراً ان الامكان الوحيد لنجاتنا هو متابعة السير الى الامام . اتجهت هذه المرة شمالاً ، نحو المستنقعات ، لتجنب امكان مطاردة المصريين لنا بواسطة الآليات . وهكذا مررنا بين القوات المصرية ، قريباً من الكمائن ، وقد ساعدنا الحظ ، فلم يكتشفوا اننا اسرائيليون » .

ومع الفجر ، اجتمعت القوة المتضائلة ، تحت بعض الشجيرات ، وقد أغمي على بعض الاشخاص بعد ان خارت قواهم . فرش ينكلي الخريطة وحدد مكانه : ٣ كلم من مكان اللقاء المتفق عليه ، ٢٠ كلم عن الموقع الذي تركوه في الليل . وفيما كان رجال المجموعة ما زالوا رابضين وخائري القوى تحت الشجيرات بدأ بزوغ الفجر ، فأخرج اثنان من المقاتلين الوشاح وكتاب الصلاة ، من الحقيبة الميدانية ، ونهضوا لصلاة الفجر . وقد تأثرت بقية افراد المجموعة لمنظر الاثنين الملفوفين بالوشاح ، فنهضوا ، حتى الهراطقة منهم ، وانضموا الى الصلاة . وبعد ذلك بربع ساعة اندفعت دبابة ، باتون ، وتوقفت على رأس تلة مجاورة ، ورأيت ايد تلوّح من على ظهرها ، فتجمدت لحظة في مكاني ثم انفجرت صارخاً ، ايها الرفاقُ ، لقد نجونا » .

لم يكن تحصين ينكلي هو الوحيد الذي حاول رجاله النجاة بانفسهم من داخل جحيم النار . فعلى امتداد المستنقع تحركت ، خلال الليلة ، مجموعات « مشردة » تركت التحصينات متجهة شرقاً . وفجأة سمع مقاتلان اختبآ داخل حفرة صغيرة على جانب طريق المستنقعات ، على بعد عشرات قليلة من الامتار من جنود الكوماندو المصريين ، صوت خبطة قوية ، فقد هبط بالقرب منهم تماماً ، على ارض المستنقع ، طيار اسرائيلي أُسقطت طائرته بواسطة صاروخ . وعندما اقتربا منه وجداه جريحاً ، فحاولا سحبه الى داخل حفرتهم ، لكنه صرخ من شدة ألمه : « اتركوني هنا ، لم اعد قادراً » ، فقام الجنديان ، وهما من رجال المدرعات ، بفرش مظلته لسحبه عليها ، لكن صراخ الالم حملهم على العزوف عن ذلك . لقد سقطت حولهم ، طوال تلك الساعة ، قذائف المدفعية ، وأطلقت نيران الاسلحة الخفيفة قريباً منهم . ذهب احدهما باتجاه القيادة الموجودة في بلوظة لطلب المساعدة ، وكان على الجندي الثاني والطيار الجريح اللذين بقيا في الميدان ، ان يمكثا معاً طوال ذلك اليوم ، داخل الحفرة ، دون غذاء او ماء . وفي الليل خرج الجندي الثاني ايضاً باتجاه الشرق ، وترك وراءه الطيار الجريح . وشقت قوة انقاذ من المظليين طريقها الى تلك النقطة ، وهي تقاتل ، فلم تجد الطيار ، وقد قتل ضابط ، وجرح عدد من الجنود ، خلال محاولة الانقاذ هذه . وفي وقت لاحق ، علم ان الطيار الجريح وقع اسيراً في يد المصريين .

ان التخبط في مشكلة إخلاء المقاتلين من داخل التحصينات المحاصرة ، قد شغل القادة في القيادات والميدان ، طوال الايام الثلاثة الاولى من الحرب ، وجرت ، في سبيل ذلك ، محاولات لاختراق خط المياه بالقوة ، وأُبيدت معظم سرايا الدبابات التي أُرسلت لاقتحام التحصينات . وقد ابلغ قائد تحصين في القطاع الاوسط ، قائد لوائه ، بانه غير قادر على الصمود ، ولا يستطيع اخلاء نفسه ورجاله الا اذا وصلته قوة مدرعة ، لنقلهم من هناك . كان قائد هذا التحصين مصاباً بجروح بالغة ، ويده مبتورة ، وقد

تسلم قيادة التحصين لمدة ما ، نائبه . ولكنه جرح هو ايضاً بعد ذلك ، فتسلم قيادة المعركة جندي اللاسلكي . وكانت التقارير التي وصلت منه الى قيادة اللواء موجزة بهذه الصيغة : « ٨٠٠ رجل يهاجمون باتجاهنا » . وبعد دقائق معدودة كان جندي اللاسلكي يعود ويبلغ : « المصريون في الساحة ، انني مختبىء . صبوا على النار » . (اي ، « نار المدفعية على مواقعنا ») .

وقال في بلاغه الاخير . « المصريون يدخلون » . وفي القيادة الخلفية حذفوا تحصيناً آخر عن الخريطة المعلقة على الحائط . وكان صوت عويل عامل اللاسلكي الذي يستلم التقارير وحده يجوب الدشمة من اقصاها الى اقصاها ، بينما طأطأ بقية الرجال رؤوسهم . وفي وقت لاحق كان المقاتلون يروون مطولاً عبر شبكة اللاسلكي ، التي كانت تصمت فجأة . روى جندي ، جلس ساعات طويلة الى جانب اجهزة اللاسلكي ، وكان يتسلم التقارير عما يجري في الخط الامامي : « انت تسمع صوتاً ، وكذلك التقارير ، وعندما يصمت كل شيء فانك تعلم ان شخصاً آخر لم يعد على قيد الحياة ، ومن الافضل عدم الاتصال به ، لان احداً لن يجيبك » . هكذا كان الوضع في التحصينات ، وهكذا ايضاً في وحدات الدبابات التي كانت تهاجم المواقع المصرية على امتداد خط الدماء .

لقد دفعت فرقة سيناء ثمناً باهظاً ، خلال الهجمات التي شنت ، طوال اليوم الاول ، في محاولة الوصول الى التحصينات .

ففي احدى هذه المحاولات . اتصل قائد تحصين بقائد اللواء واتفقا فيما بينهما على انه ، بعد غياب القمر (ليل الاثنين) يخرج مقاتلو التحصين من المدخل ، مشياً ، للاتصال بالقوة المدرعة التي ستحاول الوصول اليهم . وقد تسلم قائد اللواء قبل ذلك امراً بالخروج الى مهمة اخرى ، وطلب الآن من قائد الفرقة تمكينه من الاشتراك في انقاذ الرجال . وقد ثارت بين الاثنين مناقشة « فلسفية » بشأن النظرات الانسانية والخلقية لهذه العملية المخططة . وفي نهاية النقاش اعطى قائد الفرقة الموافقة المطلوبة لقائد اللواء بالتحرك ، وقد اشترك ، في قوة الانقاذ قائد لواء مدرع ، وقائد كتيبة ، وقائد قوة مدفعية . وخلال الغارة غرباً اطلقت نيران الدبابات باتجاه القوة .

وقد روى احد الجنود المشتركون في قوة الانقاذ انه « يصعب وصفها . اطلقوا علينا الصواريخ ، وقذائف مدفعية الدبابات ، ونيران المدفعية الثقيلة ، والاسلحة الخفيفة » . وقامت قوة الانقاذ بخرق تشكيل مصري يتألف من وحدات من المشاة والدبابات التي نصبت كمائن على المحور . لابادة القوات التي تناط بها مهمات خاصة من هذا النوع ، وقد استمرت معركة الاختراق التي خاضتها قوة الانقاذ هذه عدة ساعات . وقد تم دهس عشرات الجنود المشاة المصريين بجنازير الدبابات التي كانت في طريقها الى

التحصين . وبالقرب من النقطة المحددة للقاء رجال التحصين مع قوة الانقاذ ، دارت معركة بين المنقذين وبين قوة مصرية لاحظت ما يحدث وحاولت منع اتصال القوتين .

قال قائد اللواء : « عندما كنت أقاتل هؤلاء المشاة ، وكل شيء يشتعل من حولي ، والرجال يصرخون ، والجنود يقفزون لانقاذ المصابين ، رأيت شيئاً ما لم ادركه في البداية ، رأيت دبابة عملاقة . وقد مرت ثوان معدودة قبل ان افهم انه تراكم فوق الدبابة عشرات الاشخاص ، وهم رجال التحصين الذين انقذهم قائد الكتيبة ، وحملهم جميعاً على الدبابة . كانوا معلقين على الظهر ، وعلى البرج ، وامسكوا بكل نتوء ممكن . واتجهت دبابة الانقاذ شرقاً بين الدبابات المشتعلة » .

اصيبت ، خلال عملية الانقاذ ، اربع ناقلات مصفحة للجنود ، وبدأت عملية انقاذ للمنقذين ، فانقذ معظم الاشخاص المصابين . وعندما جرى إحصاء فيما بعد ، تبين ان ثلاثة اشخاص مفقودين ، وان اربع ناقلات مصفحة للجنود قد خلفت في الميدان .

وعندما انتهت الحرب قام قائد اللواء بالتجول في المكان الذي دارت فيه هذه المعركة ، بصحبة اثنين من الآباء الثكالى ، وقد اطلعهم قائد اللواء على الدبابة التي قتل فيها احد الابناء . « هل فعلتم كل شيء من اجل ... ؟ » ، تفوّه الاب عندما رأى الدبابة .

أجاب قائد اللواء : « انه ليحزنني ان محاولة انقاذ ابنك ورفاقه كلفتنا خمسة عشر قتيلاً » .

عادت الاركان العامة لتؤكد امام القيادة الجنوبية ، سواء بواسطة رئيس الاركان شخصياً ، أو بواسطة مبعوثيه ، حقيقة ان « لديهم ، اي للقوات في الجنوب » امكاناً لمواصلة القتال على امتداد صحراء سيناء كلها . وبالمقابل كانت المشكلة في هضبة الجولان الاقتراب من وضع دراماتيكي ، تدور فيه المعركة بقنابل « المولوتوف » في دغانيا . « صدوهم بكل ما لديكم ، خوضوا معركة عرقلة وتراجع ، وعرقلة وتراجع ، كما تعلمنا في المدرسة » . وعاد رئيس الاركان وأكد هذا على مسمع غورديش كلما طلب منه مساعدة جوية .

كان وضع المصريين في اول يومين من القتال ، مثالياً ، من ناحيتهم . وبحسب التقارير ، يبدو انهم هم انفسهم لم يصدقوا حسن حظهم . لقد كان متوقعاً ، بناء على تقديراتهم المسبقة ، ان تكلفهم عملية العبور ٣٠ ـ ٣٥ ألف جندي ، وقد تم عبور المصريين في ١٥ نقطة عبور على امتداد ١٨٠ كلم للقناة . تكبدوا خسائر في البداية

ولكن هذا لا ينتقص من قيمة نجاحهم في هذه العملية المعقدة . فقد طوقوا التحصينات وبدأوا يتحصنون في مساحة عرضها ٥ — ٧ كلم داخل سيناء . وكانت اهدافهم الاساسية في هذه المرحلة اقل كثيراً من تقديرهم الاولي . وفي بعض مراكز العبور تعرقلت عملياتهم للسيطرة على المحاور الرئيسية والحيلولة دون وصول التعزيزات ومنع التشكيلات المدرعة الكبيرة من محاولة الانقضاض على رؤوس الجسور وضربها . وفي الايام الثلاثة الاولى من الحرب ، كان لا يزال لدى القيادة المصرية سيطرة شبه تامة على قوات العبور الكبيرة التابعة لها . فقد نفذت المذهب العسكري السوفياتي القائل بعبور المشاة ، وقوات مشاة بالمصفحات تدعمها الدبابات ، وبعد ذلك عبور فرق الدروع . كل ذلك تحت غطاء من المدفعيـــة الثقيلة . وقد استطاعوا سحق خط الدفاع الاول التابع للجيش الاسرائيلي ، الذي خافوا منه ، وابادوا في المعارك الاولى الوحدات الاسرائيلية التي حاولت الاقتراب من خطوط تمركزهم . وفي هذه المرحلة ، ارتكبت القيادة الاسرائيلية خطأً كان مصيرياً تقريباً .

بدأت فرق الاحتياط تصل الى خط الجبهة بالتدريج . وكانت تصل الى قيادة المنطقة الجنوبية تقارير عن كل عشر دبابات تعبر رمانه في طريقها الى خط الجبهة . هذه القوات ، التي بدأت تتجمع ، تسلمت منذ يوم الاثنين صباحاً الاوامر للقيام بهجوم مضاد . وارسلت الدبابات [...] ودون معرفة العدو ، للهجوم كمن « يناطح الحائط » . ويبدو ان القيادة قدرت ان هذا بمثابة « اليوم السابع من حرب الايام الستة » . فقد اشترك الكثير من القادة في حرب الايام الستة ، واعتقدوا انه « تكفي خبطة على صفيحة لتطير العصافير مذعورة » . وعلى الرغم من ان اول يومين ، كانا مريرين وتم فيهما سحق قوات كبيرة ، فانهما لم يكونا كافيين ، كما يبدو ، للتوضيح بأن هذه الحرب تختلف كلياً . وقد اصطدمت الدبابات المهاجمة بفرق المشاة المسلحة بالصواريخ ، والى جانبها الدبابات وناقلات الجنود المصفحة بكثرة ، تساعدها المدفعية من كافة الانواع ، التي لم تتوقف عن القصف طوال ساعات اليوم . وقد وجد الرجال انفسهم يهاجمون «كتائب» عصرية : تمركز المصريون كتلا كتلا حيث كان جنودهم مزودين بالصواريخ ، تحميهم وحدات من الرشاشات والدبابات . هكذا كانوا يقفون ، وهكذا كانوا يتحركون الى الامام والى الوراء بالتناوب .

كان قائد اللواء ، احد الذين تسلموا امراً للقيام بالهجوم المضاد على قوة مصرية من منطقة جسر فردان . وقد شقت قوة قائد اللواء طريقاً لها في محور رمانه . وتمركزت بعد ان ابادت وحدة كوماندو نصبت لها كميناً على هذا المحور . وقد أصيب نتكا بجروح خطرة في أثناء حرب الايام الستة ، في معركة ام كتف ، اذ تهشمت ساقاه نتيجة اصابته بقذيفة مضادة للدبابات وهو في مصفحة القيادة . وقد انقذ حياته طبيب

قدير ومبادر ، حقن عروقه المصابة بدم جندي آخر سليم ، في ذروة المعركة . وبعد الحرب ، أجريت له ٣٤ عملية لمعالجة ساقيه . كان يؤكد لنفسه ولرفاقه ، خلال هذه الفترة الطويلة ، بانه سيعود لقيادة رجاله من داخل دبابة . وفي هذه الحرب كان قائد اللواء يصل الى الدبابة في سيارة جيب ، ويستعين برجاله ليتسلق البرج .

بدأ الهجوم المضاد الذي كلف به قائد اللواء ، بصورة موفقة . فقد طلب من فرقة بيرن مهاجمة منطقة جسر الفردان ، وألقيت مسؤولية القطاع الاوسط على فرقة شارون ، التي كانت ستبدأ الهجوم المضاد في قطاعها . وكانت القوات النظامية التابعة لفرقة سيناء ، بقيادة الجنرال البرت ، تقاتل في تلك الساعة ضد قوات مصرية متفوقة جداً ، حاولت الاختراق للوصول الى منافذ المحاور .

كان الامر الخاص بشن هجوم مضاد مشبعاً بالتفاؤل . فقد شعر بيرن ان هذا الامر يعتمد على تقارير من الاستخبارات . وكان المقصود منه ، السيطرة على الجسور التي اقامها المصريون ونقل قوات اسرائيلية مدرعة عليها الى الضفة الغربية .

وقد سمع قائد اللواء اقوال الجنرال ، قائد المنطقة ، في أثناء محادثته مع بيرن قبل الهجوم اذ قال : « احتلوا الجسر ، اريد مرتكزاً » . وقد دخل على الخط قائد لواء آخر ، كان يقاتل في ذلك القطاع ، حيث انفجر صوته في الجهاز صارخاً : « اذا لم تصل الطائرات ، لن تبقى لي دبابة واحدة » .

حذر بيرن ، قائد الفرقة ، قادة الالوية عنده من الصواريخ التي كان جنود المشاة المصريون مزودين بها . وكانت هذه الاشارة الاولى التي تلقوها بشأن ما سيحدث في وقت لاحق . وروى قائد لواء : « كان المصريون يركضون الى الدبابات ، يتسلقون ويقتلون دون ان يكون لذلك نهاية . وشعرت في مرحلة معينة بان وضعنا آخذ في الانهيار ، فصرخت في اللاسلكي : « اذا كانوا يريدون القتال ، فهيا نريهم الحرب » . وفي وقت لاحق تملكتني نشوة عارمة . صرخت : « احضروا لي عينين ، اريد ان اراهم على ظهر الدبابة » . كان القتل حولنا مخيفاً جداً ، حتى لم استطع السيطرة على زلة اللسان هذه . ولكنني اعتقدت انه سيكون بامكان هذا النداء ، وكل شيء يحترق من حولي والرجال يهاجمون ويداسون ، ويهاجمون ويداسون ، تحريك رجال الدبابات الذين سمرهم الذهول . رأينا أمامنا ، « كتائب » من مئات وآلاف الجنود المصريين الذين يتراكضون في المنطقة كالصينيين . لقد اسودت التلال الرملية من كثرة البشر ، وقد تساقطوا فوق الرمال وغطوها كالبساط . وهجمت موجة وحصدت ، ثم تبعتها امواج اخرى » .

اخذت المعلومات التي تصل من ساحة القتال تصبح اكثر تجهماً . فقد قامت قوة مدرعة اخرى ، توغلت نحو خط المياه حتى اصبحت قريبة منه ، بارسال تقرير عن

معركة مريرة دارت هناك . احترقت ٨ دبابات ، فوق الحواجز الترابية التي تعلو عن القناة . وتلقت عشرات الدبابات قذائف صواريخ « ساغر » . وبدأت تشتعل وهي تنسحب . ولوحظت دلائل واضحة على انهيار الهجوم المضاد . فقد انسحبت دبابات ، بصورة غير نظامية ، ونفدت الذخيرة . وابلغ القادة ، الذين جاءوا من منطقة القتال لتموين الدبابات ، ان عشرات الدبابات المصرية تهاجم باندفاع كبير من اتجاه الجسور الثلاثة . وكانت المنطقة كلها مغطاة بقذائف المدفعية ، والكاتيوشا والهاونات . فانفجرت قذيفة على كل متر ، واستمر « قنص المشاة المصريين للدبابات بصواريخ « ساغر » . ويبدو ان غالبية القوة المقاتلة في الجيش المصري الثاني قد شاركت في هذه المعركة .

كما ان مجموعة القيادة التابعة لبيرن تلقت ضربة مباشرة ، وقام نائب قائد الفرقة باخلاء الجرحى بنفسه الى مركز تجمع خلفي . وفي ساعات بعد ظهر يوم الاثنين ، كان عدد قليل من الدبابات الاسرائيلية يتأهب للقيام بمهمة كبح الطوفان المصري . وواصل المشاة المصريون الهجوم جماعات ، « كالصينيين » ، الجملة نفسها التي تكررت وسمعت في اجهزة اللاسلكي طوال ذلك اليوم . وكانت خسائرنا ، خصوصاً في اليوم الثالث من الحرب ، كبيرة . ووقع البعض في الاسر ، وخصوصاً من بين افراد اطقم الدبابات الذين نجوا من الدبابات المحترقة ، وكان من بين هؤلاء ايضاً اساف ياغوري ، قائد الكتيبة الذي ظهر في الليلة ذاتها في التلفزيون المصري .

وفي احدى ساعات بعد الظهر دعي قادة الالوية الى قائد الفرقة ، للتشاور معهم ، ثم صدرت مجموعة من الاوامر وهم واقفون ، حيث لم يكن ممكناً الجلوس ، بسبب كثافة القصف على تلك المنطقة ، الذي اجبر مجموعة القادة على التحرك باستمرار . وقد امر قادة الالوية ضباط عملياتهم بالخروج الى المنطقة بسيارات الجيب والقيام بجمع دبابات تائهة وتوجيهها للرجوع .

بدأت الشمس تميل نحو الغروب ، ولكن حالة الرؤية المريحة ، التي ظهرت في المنطقة خلال نصف الساعة الاخيرة من النهار ، ساعدت المدرعات الاسرائيلية . فالدبابات التي بقيت صالحة ، وتلك التي وصلت الى مكان التجمع بمساعدة ضباط العمليات ، تمركزت في مواقع على التلال الرملية ، كأنها في استعراض . بدأت المدافع « تشعل » الدبابات المصرية ، وكان ميدان القتال مزروعاً كله بالدبابات المحروقة التي بقيت مشتعلة طوال الليل ، فأضيئت الصحراء بعدد لا يحصى من المشاعل . وكان لهذا تأثير نفساني وحقيقي مثير ، فأثر هذا المنظر ، كما يبدو ، في المصريين واوقفهم .

كانت نسبة المصابين لدى القوات الاسرائيلية كبيرة ، فقد تجاوزت النسبة العددية للقتلى والجرحى ، في هذا اليوم القتالي ، كل ما عرفه الجيش الاسرائيلي في الحروب

السابقة . وفي هذه الساعات المريرة اثبت الجهاز الطبي التابع للجيش الاسرائيلي وجوده بصورة تفوق المألوف ، فقد قام اطباء عسكريون باجراء عمليات معقدة في الميدان على ضوء المصابيح . وقامت الطوافات بنقل اطقم طبية الى خط النار حيث قاموا فعلاً بانقاذ عشرات كثيرة من الجرحى في أثناء القصف . والذين لو لم يتم نقلهم بسرعة قصوى الى المؤخرة لقضوا .

كانت الدبابات ، طوال ذلك اليوم ، تعتمد على وحدات التسليح الخلفية . فهذا الاعتماد هو عامل حاسم في ايـــة حرب مدرعات . ولكن في هذه المعارك كان التسليح الفوري لكل دبابة مصيرياً بكل ما تعنيه الكلمة ، وفي بعض الاحيان ، كانت نتائج هذه المعركة او تلك تتوقف على السرعة التي تعود فيها دبابة واحدة الى ميدان المعركة . وعلى مسافة ما من وحدات التسليح ، جلس مقاتلون داخل خنادق ، او قريباً من الباصات التي نقلتهم الى جبهة القتال ، ينتظرون الاوامر لاستبدال اطقم الدبابات العائدة بأطقم مصابة ، وبقتلى او جرحى ، وفور انزال هؤلاء من النقالات يحل محلهم ، في الدبابات ، افراد الاطقم الجديدة النشيطة ، واحياناً كان يتم تزويد دبابة بطاقم مشكل من بقايا اطقم دبابتين او ثلاث .

وصلت الى تل ابيب شائعات مفادها ان « بيرن قد وصل ضفة المياه » . فقد خلق الهاتف المحطم عناوين في الصحف ، ولكن الوضع الحقيقي في الميدان كان خطراً . فالمصريون ، الذين نجحوا في صد الهجوم المضاد ، استمروا في دفع المزيد من الدبابات عبر الجسور ، وقد تحول ما افترضه القادة ، « معركة عرقلة وانسحاب » ، الى « معركة تأرجح » ، وفي تلك الايام الاولى وصلوا الى حافة الفشل اكثر من مرة . وبعد معارك اليوم الثاني والثالث انتقلت الحرب في سيناء من مرحلة السحق الى مرحلة الصد . فقد ادركت القيادة العسكرية العليا للجيش الاسرائيلي بأن الهجمات المضادة ستبقى تسبب سحق الدبابات الاسرائيلية فقط ، دون ان تؤدي الى النتائج المرجوة ، وعندئذ اعطيت الاوامر بالتمركز في منطقة تبعد ١٠ ــ ١٥ كلم عن القناة .

كان واضحاً ، في هذه المرحلة ، انه لا توجد اية نية لعبور القناة فوراً . وإزاء الحاح الجنرال شارون المتواصل اعطيت الاوامر الصريحة بالبقاء في المكان ، والتحرك يميناً ويساراً فقط بحسب الضغط ، والقيام بهجمات محلية ، وتحقيق مكاسب قليلة . وفي تلك « المعارك الصغيرة » ، اصطدمت قوات مدرعة من كلا المعسكرين بكميات يشك في وجود مثيل لها ، في تاريخ الحروب في العالم ، في منطقة صغيرة كهذه . فقد اشتبكت مراراً ٥٠ دبابة ، وفي حالات كثيرة ، ١٠٠ دبابة مقابل ١٠٠ دبابة . وفي اثناء محاولات الاختراق ، التي قامت بها الفرق المصرية ، تصادمت مئات الدبابات ، ودارت المعارك احياناً ضمن مدى احتكاك فوهات المدافع . لقد بقيت في ارض المعركة دبابات محروقة

من كلا المعسكرين ، على بعد ١٠ — ٥٠ م . ومن المشكوك فيه ان تكون معارك الدبابات التي جرت في الحرب العالمية الثانية ، في افريقيا الشمالية ، شبيهة بهذه ، وخصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار ان انواع الاسلحة في هذه الحرب كانت اكثر حداثة وفعالية ، وان المدرعات اكثر سرعة .

وكانت هذه الحرب الاولى ، ايضاً ، التي تراجعت فيها الدبابات الاسرائيلية الى الوراء ، وبقيت دبابات في ارض العدو ، وفي داخلها قتلى وجرحى ، دون ان يكون بالامكان انقاذهم . واصيبت اخرى بالصواريخ واشتعلت ، وقتل افراد الطاقم الذين قفزوا من داخلها ، او وقعوا في ايدي المشاة المصريين المهاجمين .

ان حجر الزاوية في تقليد الجيش الاسرائيلي ، القاضي بعدم إبقاء جريح في الميدان ، كان قائماً أيضاً بالنسبة الى هذه الحرب ، في معظم الحالات . فقد دفعت وحدات كثيرة ثمناً باهظاً في أثناء محاولاتها انقاذ اطقم مصابة . ولكن الظروف تغيرت في هذه الحرب . فخلال المعركة ، وفي اثناء التقدم والتراجع ، وخلال الاشتباكات ، كان على القائد ان يقرر فوراً نظام الافضليات : اخلاء الجرحى ، او تدمير العدو المهاجم ، ودفع ثمن باهظ جداً مقابل ذلك ، او التراجع من اجل الاستعداد لمتابعة القتال .

وفي اليوم الرابع من الحرب فقط كان على ساحة في جبهة سيناء حشد دروع كبير ، ففي المعارك الاولى عمدوا الى بعثرة القوات وهجمات المجابهة ضد « الكتائب الصينية » . فقد خسرت فرقة بيرن عشرات الدبابات ، واستمرت فرقة البرت في الانسحاق ، وكذلك بدأت فرقة شارون ، التي كانت لا تزال تتمتع بحيوية نسبية ، تتكبد الخسائر ، وخسرت دبابات اولى . ولكن « القطرات » التي وصلت متأخرة تحولت الى تيار . وبالفعل ظهرت في الجبهة آثار التعاظم المتزايد لهذه القوة . ولوحظ تحولٌ ما ولكنه لم يكن حتى الآن التحول المنشود .

كان الجميع في القيادة الجنوبية يتتبعون باهتمام كبير المعارك الدائرة في هضبة الجولان ، املاً في ان تتغير الامور في هذه الجبهة ، ويصبح بالامكان الحصول على مساعدة جوية اخرى ، كانت ضرورية جداً لاستمرار القتال في هذا القطاع .

بدأ المصريون يفقدون صبرهم . فقد زادوا عدد هجماتهم حتى ٥ هجمات في اليوم ، بناء على الطموح الشخصي لقائد الفرقة المصرية في ذلك القطاع . وكانوا يدحرون خلال النهار ، وفي الليل كان المشاة المصريون يزحفون عائدين الى المناطق التي دحروا منها ، فتتجدد المعارك ، مع الفجر ، في المكان نفسه الذي توقفت فيه في اليوم السابق ، كأن شيئاً لم يحدث .

وصف احد القادة طابع الهجوم المصري في تلك الايام ، الذي نفذ وفق المذهب

العسكري السوفياتي ، والذي اطلق عليه الجنود « الهجوم الزاحف » : « كانت تصل الى المنطقة الرملية شاحنات تنقل المشاة ، فيقفز الجنود منها وينتشرون في الميدان ، وتنصرف الشاحنات . وكان الجنود المصريون يستترون وينبطحون فوق الرمل ، ثم ينهضون كل بضع دقائق ، ويقفزون الى الامام ، ويحسنون مراكزهم . وبعد ساعتين كانت تأتي دباباتهم ايضاً فتدخل بين قوات المشاة ، وعندها ينهض الجنود ويتقدمون مع الدبابات ، او يسيرون خلفها . وعندما كان المشاة المصريون يصلون الى مسافة معينة من دباباتنا ، ينتشرون وينتظمون في جبهة عرضية . وهكذا يستمرون في التقدم خلف دباباتهم ، وعندما يقتربون منا كان المشاة يسبقون الدبابات ويبدأون الهجوم . فتقف الدبابات وتغطي هجومهم بالمدافع والرشاشات . ثم يقفزون الى الامام ويحسنون مراكزهم . وبقوا يتدفقون ويتقدمون طوال الوقت » .

وقال قائد آخر : « في هذه المعارك ، تعلمنا شيئاً جديداً عن الجيش الاسرائيلي . كنت دائماً احسد الجيش البريطاني ، ولم افهم ابداً كيف استطاع جنود المعسكر الثامن التابع للبريطانيين في الصحراء الغربية ، في الحرب العالمية الثانية ، الانسحاب ١٧ مرة يوماً بعد يوم ، ومرة تلو الاخرى ، ولم يهزموا . فالجيش الاسرائيلي لم يواجه مثل هذه الاوضاع في السابق ، ولم اعرف كيف استطاع جيش منتصر كالجيس الاسرائيلي ان يصمد فيها . لم يحدث ان بنى جيش نفسه بينما قواته تسحق . وبعد عدة ايام من القتال قلت لنفسي : « اذا اجتزنا هذا ، فلن اخاف من اي شيء بعد ذلك » . وفي هذه المرحلة ، في اليوم الرابع من الحرب ، كان لا يزال عشرات الجنود الاسرائيليين يقاتلون لانقاذ حياتهم ، في تحصينين ، على طرفي قناة السويس .

فقد كان تحصين « الرصيف » ، في المدخل الجنوبي للقناة ومقابل بور ابراهيم ومدينة السويس ، من التحصينات الكبيرة والمنيعة التي يملكها الجيش الاسرائيلي على امتداد الخط . فقد كان محاطاً بالمياه من جهات ثلاث ، ولم يكن هناك سوى طريق ضيق يؤدي اليه . كان هذا التحصين ، خلال حرب الاستنزاف ، هدفاً للقصف والاغارات المصرية ، وفي حرب يوم الغفران جهز المصريون لاحتلاله قوة كبيرة من الجيش الثالث ، لانهم رأوا في اخضاعه رمزاً لقدرتهم على التغلب على الجيش الاسرائيلي .

لم يكن الملازم اول شلومو اردينست ، قائد تحصين « الرصيف » يعرف ذلك ، ظهر يوم الغفران . فقد تلقى انذاراً مسبقاً وأعد جنوده للاشتباك . وفي الساعة الثانية ظهراً وصلت [الحرب] ، فقد سقطت القذائف بكثرة داخل التحصين ، ودمرت سراديب ومراكز . وفي تلك اللحظات كان قائد التحصين لا يزال يعتقد ان هذا مجرد حادثة ، كبيرة ، ولكنها محلية . يوم قتال .

استمرت النيران الثقيلة نحو ساعتين — ثلاث ، وعندما هدأت قليلاً وصلت اربع

دبابات اسرائيلية الى ساحة التحصين ، ثلاثة منها مصابة . وكان اوائل الجرحى من رجال المدرعات ، ثم اضيف اليهم تدريجاً جرحى من بين جنود التحصين .

وخلال الظلام تعرف قائد التحصين على نحو عشرة قوارب مصرية ، محملة بالجنود ، تعبر المياه . وقد اصيب مدفع الرشاش الثقيل ، الموجود في التحصين ، خلال القصف وتوقف عن العمل . فبدأوا يطلقون النار على المصريين بمدافع « عوزي » قصيرة المدى . منهم من هوى قتيلاً في المياه ، وآخرون نجحوا في الوصول الى الحاجز الترابي ، في الجانب الاسرائيلي ، حيث ارتفعت من ورائه صرخات « اذبح اليهود » .

استطاع عدد من الجنود المصريين المزودين بقاذفات اللهب التسلل الى قرب التحصين واشعال خزان الوقود . وقد القيت القنابل اليدوية من جانب الى آخر . المزيد من الجرحى ، وها هو اول قتيل .

حلت الليلة الاولى . سقط قصف ثقيل على التحصين ، واطلق الجنود المصريون نيران « البازوكا » من مسافة قصيرة ، واكتظت المنطقة بمئات من رجال الجيش والآليات المصرية . نقل جريح بحالة الخطر الى طبيب التحصين الدكتور ناحوم فربين . قال الطبيب الشاب من مستشفى « ايخيلوف » : « لم أسيطر على النزيف ، وشعرت بانه سينتهي بين يدي ... » . وبعد ست ساعات توفي الجريح ، واضاف الطبيب قائلاً : « هذه هي المرة الاولى التي يموت فيها شخص وانا المسؤول الوحيد عنه ، وعندما تحققت من وفاته جلست في مكان ما من المستوصف ، غير قادر على القيام بأي عمل ، وبقيت هكذا مدة عشر دقائق ، ولكنهم ، احضروا على الفور جرحى آخرين فاسرعت اليهم » .

عرف القائد ، شلومو اردينست ، منذ الليلة الاولى ، ان التحصين محاصر ومعزول من كل الجهات ، ولكنه ، لم يكن لديه اي شك في ان قوات الجيش الاسرائيلي ستهب لمساعدته وتفك الحصار المصري عنه . ومما قاله يرحميئيل يسرائيلي ، مضمد في تحصين الرصيف : « كنت متأكداً انهم سيأتون لانقاذنا » .

وكشف ضوء الصباح امام الجنود منظراً مروعاً . استذكر شلومو اردينست احداث اليوم الثاني فقال : « ان ما اعتدنا رؤيته قبل ذلك ، كمنطقة بيضاء من الرمال ، اصبح اسود من الآليات المصرية ، ولم نعد نشاهد الرمل . لقد مر ، بالقرب من التحصين ، عدد غفير من الدبابات المصرية والناقلات ، والمدافع ، والصواريخ . كلها تسير وتتحرك ، ونحن ؟ محتجزين » .

سقطت آلاف القذائف على التحصين . وتحت ستارها وصل الجنود المصريون حتى الجدران ، والقوا القنابل اليدوية الى داخل السراديب ، واقتربت الدبابات وصوبت مدافعها باتجاه مدخل التحصين . لحظة مخيفة . ولم يستطع رجال الدبابات الاسرائيلية ، الذين

وصلوا بالدبابات المصابة في اليوم الاول ، قياس المسافة بينها وبين الدبابات المصرية ، فقد تحطمت اجهزتها . لقد قاسوا المسافة بواسطة اطلاق احدى القذائف ، وفي القذيفة التي اطلقتها دبابة ثانية اشعلوا الدبابة المصرية ، كما احترقت دبابة مصرية ثانية .

تذكر المضمد يرحميئيل يسرائيلي : « تأملنا طوال الوقت ان يأتوا لانقاذ الجرحى على الاقل . وطلبنا طوال الوقت النجدة ، النجدة ، ولكن النجدة لم تصل » .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، اليوم الرابع للحرب ، تطلع قائد « الرصيف » بمنظاره الى الشمال . وروى قائلاً : « هبط قلبي . فقد رأيت العلم المصري على الموقع المجاور لي . علم مصري على تحصيننا ؟ انه كابوس ! » . وفي تلك الساعة كان في تحصينه عشرون جندياً ، عشرة منهم غير مقاتلين ، كمشغل المولد الكهربائي ، والمضمد ، والطبيب . كما كان هناك ايضاً طالبان في مدرسة دينية وصلا لاستكمال النصاب المطلوب لصلاة يوم الغفران . وقد حمل الجميع السلاح .

وفي هذه الاثناء قام الطبيب بمعجزة ، فقد عالج الدكتور ناحوم فربين جندياً أصيب بجروح بالغة ، نتيجة اصابته « ببازوكا » ، فتحطمت يداه ، ودخلت الشظايا في جميع اعضاء جسمه ، وحتى في عنقه . وبعد مرور ساعات قليلة بدأ يهذو ، ثم فقد وعيه . وربما لم يبق بينه وبين الموت سوى دقائق معدودة فقط . وتذكر الدكتور فربين قائلاً : « اعددت لقطع الزند ، ولم افعل ذلك من قبل ابداً ، صليت حتى لا ترتجف يداي . وتوقف الجريح عن التنفس . لم تكن لدي وسائل للتخدير ، فقطعت في اللحم الحي . وبعد مرور عشر دقائق بدأ يعود اليه وعيه ، وقد تم انقاذه وما زال حياً » . لقد كان وضع الجرحى لا يطاق . وبعد ثلاثة ايام لم يكن لدى الطبيب قطرة مورفين ، ولا قطرة مصل ، كما نفدت الضمادات . وراح الجرحى يتلوون من آلامهم .

كما ان الذخيرة اخذت تنفد . وكان شلومو اردينست قائد التحصين ، ينتقل من مركز الى آخر ، ويشجع جنوده المنهكين الذين لم يناموا لأيام عدة : « عسى خيراً ، سيصل الجيش الاسرائيلي ! الفرق تتقدم ! بعد قليل ، بعد قليل ! » .

مر نهار آخر ، وليلة اخرى . وفي اليوم الخامس وصلت الى التحصين رسالة من القيادة : « اذا لم نستطع ، خلال ٢٤ ساعة ، ارسال التعزيزات العاجلة لكم ، فلكم ان تستسلموا ! » .

كان نهار الجمعة وليلها هادئين . لم يطلقوا النار . قال المضمد يرحميئيل يسرائيلي : « لم أفكر بالاستسلام أبداً ، لانهم وعدوا بالمجيء لانقاذنا ، فقد فكرت طوال الوقت بانني سأكون في البيت ، في عيد العرائش ، واذهب الى الكنيس » . وفي ذلك اليوم كان في تحصين الرصيف ٤٢ جندياً : ٥ قتلى ، و ٢٠ جريحاً ، احدهم مصاب بجروح خطرة .

وفي صباح يوم السبت ظهر ممثلو « الصليب الاحمر » في الجانب المصري من القناة . لا حول ولا قوة لنا : حالة الجرحى تزداد خطورة ، وقد فشلت جميع المحاولات لانقاذ رجال التحصين ، [...] ونفدت الذخيرة . كان الجنود منهكين تماماً .

سألوا من القيادة باللاسلكي : « هل تستطيع الصمود ؟ » .

أجاب قائد التحصين : « اخشى لا . وضعنا صعب جداً ، اريد الاستسلام » .

القيادة : « انت غير مجبر على الاستسلام . لا يزال الامر مرهوناً بتقديرك ... » .

التحصين : « ألم يفت الاوان لتغيير القرار ؟ » .

القيادة : « هذا عائد اليك . اذا قررت الصمود ، فسنساعدك بقدر ما نستطيع ! » .

التحصين : « هذا لا يكفي » .

القيادة : « هذه هي الشروط التي قدمناها (الى الصليب الاحمر) . الامر يعود اليكم » .

التحصين : « اخشى ألا استطيع الصمود . القرار هو ايجابي للسير بحسب الشروط التي وضعتموها . لقد تقرر الاستسلام . سنضطر الى الافتراق . آمل ان اراك قريباً . سلامي الى البيت ! » .

القيادة : « هل تريد اي شيء ؟ » .

التحصين : « اريد الرجوع الى البيت » .

القيادة : « الموضوع (مسألة الاستسلام) تم تنسيقه مع فوق (أي ، مع جميع الجهات العليا) .

التحصين : « والا فستكون مسادة ثانية » .

القيادة : « سنراكم على الشاشة (بالتلفزيون) مرفوعي الرأس » .

التحصين : « ينقلون الجرحى والموتى . وعدوا بالتصرف بحسب ميثاق جنيف » .

القيادة : « اعط توجيهات بأن يرفعوا رؤوسهم ، ويبتسموا ! هل لديك شيء تضيفه ؟ » .

التحصين : « اخبروا العائلات . اطلب من الرفاق ان يهتموا بالوالدين . واسوا الوالدين . انني سليم . الى اللقاء ! اتصل هاتفياً مع افرات (صديقة قائد التحصين) ، اتصل برقم ... واخبرها انه بالاضافة الى بطاقة الاسير فقد اخذت صورتها . وفي حال عدم وجود اتصال ، فاننا نقدر ذلك » .

القيادة : « سنلتقي عندما تعود ! » .

التحصين : « كلنا نقدر ما حدث . الى اللقاء في تل أبيب ! » .

ووقعوا في الاسر .

قال المضمد يرحميئيل بعد عودته من الاسر ، « كان لنا لقاء مع ضابط كبير بعد الحرب ، لقد طرحنا عليه جميع الاسئلة التي كانت تشغلنا : لماذا لم يخبروننا بان هذا ليس مجرد تأهب بل حرب ؟ لماذا لم تكن القوات المدرعة متمركزة في مواقعها ؟ لماذا لم يرسلوا احداً لانقاذنا ، مع انهم كانوا يعدون بالمجيء طوال الوقت ؟ » واختتم قائلاً :

« الآن انا هنا وكل شيء انتهى . ولكن هناك اسئلة كثيرة لم احصل على اجوبة عنها » .

لقد وقع هجوم على التحصين الاسرائيلي الكائن على الطرف الشمالي لقناة السويس ، مقابل بور فؤاد ، على ساحل البحر المتوسط ، في الساعة الاولى من الحرب . وقد تم بناء هذا التحصين ، على ساحل البحر ، بمجهود كبير طوال سنوات نظراً الى صعوبة البناء هناك .

كانت القوات المصرية تتجه نحوه الآن ، وقد بدا لهم بالتأكيد ، ان هذا الحصن المعزول جداً فريسة سهلة .

كانت الدبابات الاسرائيلية هنا قريبة جداً ، وليس كما في اماكن اخرى على امتداد خط القناة ، وقد بدأت العمل خلال مدة قصيرة نسبياً .

خلال مدة قصيرة احترقت ست دبابات ، ودزينة من ناقلات الجنود المصفحة والشاحنات . لقد كانت هذه هي المعركة المصرية الاولى حول التحصين .

وفي الليل قام جنود الموقع باستعراض الاضرار ، ولم يصدقوا ما رأته عيونهم : حفر عميقة نتيجة القصف بهاونات ثقيلة ، كما تهدم قسم من الدشم .

كان التحصين في الواقع محاصراً ، ولكنهم لم يعرفوا ذلك الا عندما حاولت دبابات الوصول اليه . ففي الطريق الى التحصين فتحت نيران كثيفة عليها من كمين للكوماندو المصريين الذين انزلوا ، كما يبدو ، من البحر . وقام الكمين الذي اشتمل على ٧٥ جندياً على الاقل ، بقيادة ضابط برتبة عقيد ، باطلاق صواريخ « ساغر » و « شامل » والبازوكا ، باتجاه الدبابات . وكان هناك الكثير من المصابين .

وفي صباح اليوم التالي ظهرت طائرتا « سوخوي » مصريتان ، « يا للهول » قال اودي احد رجال الدبابات الذي كان متمركزاً الى جانب التحصين ، انك ترى اربع قذائف منظمة بصورة متوازية ، كأربع بيضات ، تسقط عليك رويداً رويداً ليهتز التحصين وكأنه تعرض لهزة ارضية ، وتبدو لك الدشم وكأنها تتأرجح » .

قصفت المدفعية المصرية هذا التحصين طوال ساعات النهار والليل ، دون توقف . كما انضم الى نيران المدفعية ، خلال الوقت ، عدة صواريخ « فروغ » . وبعد يومين من الحرب اصيب الموقع إصابات كبيرة .

بذل الجيش الاسرائيلي ، خلال تلك الساعات ، جهداً كبيراً لاختراق الطريق المؤدية الى التحصين على ساحل البحر . وقد تحصن رجال الكوماندو المصريون جيداً ، واطلقوا النيران من الاسلحة المزودة بأجهزة خاصة للتصويب الليلي . وقد عملت ضدهم قوات مدرعة ومشاة تابعة للجيش الاسرائيلي ، وسقط منها عشرات الضحايا . ولم تستطع اختراق الطريق ، والوصول الى التحصين ، الا يوم الاربعاء . وتم ابدال جنود التحصين المحاصر بآخرين .

وفي اليوم الثامن من الحرب بدأ قصف ثقيل ، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهر جنود مصريون على مسافة قصيرة من جدار التحصين . قال الجندي الاول مئير لفني ، من كيبوتس ناعن : « سمعناهم يصرخون ، يلاّ يا جماعة ، يلاّ يا جماعة ! » . وفي الصباح اكتشفت عشرون جثة على بعد ٢٠ متراً من التحصين .

لم تكد تمضي ساعة حتى ظهر طابور من الجنود المصريين يتحرك على خط المياه ، على بعد نصف كيلومتر فقط من التحصين . وبدأ تبادل اطلاق نار كثيف . قال رجل الدبابات ايلان بار : « كان داني يضرب ويغمض عينيه . كان منظر الجثث المصرية المتطايرة في الهواء وهي تتمزق يفوق احتماله » .

وفجأة بدأ الهجوم من داخل البحر . فقد اندفعت من هناك اربع مصفحات برمائية ناقلة للجنود . واتضح في تلك الساعة ان كميناً مصرياً آخر نجح في التمركز على طريق التحصين ، وعزله مرة اخرى . ووصلت قوة وهاجمت الكمين ، وابادت العشرات من رجاله ، واسرت عشرات اخرى بعد ان دفعت ثمناً باهظاً .

نزل المصريون من ناقلات الجنود المصفحة ، وهاجموا الموقع . وقد وصلوا الى مرمى القنابل اليدوية ، وتسلقوا جدران الدشم . وبدأ قتال مواجهة من مسافة عشرة أمتار فقط . قذفت قنابل يدوية ، واطلقت النار من « العوزي » ، وبدأ المصريون ينسحبون الى داخل البحر ، فلاحقوهم باطلاق النار ايضاً الى داخل البحر ، الذي امتلأ بالجثث .

وبعد معارك قاسية ودامية تم فك الحصار عن التحصين الواقع على ساحل البحر ، وتراجع المصريون عن احتلاله . كان هذا هو التحصين الوحيد الذي لم يسقط من خط بار — ليف .

الفصل السادس

سقط الخط وبقي الرجل

في اللحظة التي بدأ فيها العبور المصري لقناة السويس ، وانهار وتصدع تحت وطأته خط التحصينات ، الذي هو الخط الدفاعي على طول قناة السويس ، انتهى ايضاً فصل بار — ليف في تاريخ الجيش الاسرائيلي . فخط التحصينات لم يكن مجرد ثمرة الابداع الروحي — العسكري للجنرال بار — ليف ، رئيس اركان الجيش الاسرائيلي في الفترة ١٩٦٨ — ٧١ ، وانما تحول بمرور الوقت الى مفهوم ، الى رمز عالمي لقوة اسرائيل ومنعتها . ولكن الهالة الرمزية التي أحاطت بهذا المفهوم في اسرائيل والخارج ، لم تكن لها اية علاقة بالقدرة الفعلية لهذا الخط كخط دفاع . وبحسب نظرة بار — ليف ايضاً ، لم يكن الخط معداً لذلك .

لا أحد يعرف كيف ولد الاسم « خط بار — ليف » . لم يتلق تسميته من الجيش ، ورسمياً ، لم يكن له وجود على الاطلاق . لقد ولد الاسم فجأة . كما لو من ذاته . وبدأت وسائل الاعلام تستخدمه ، واستخدمه ايضاً ، رئيس مصر السابق جمال عبد الناصر في خطبه . ولكن حتى لو لم يتولد الاسم من ذاته ، لكان من الضروري ابتداعه . فقد اصبح رمزاً لوضع اسرائيل ، منذ حرب الايام الستة ، كقلعة حصينة متأهبة للدفاع عن نفسها ضد جيرانها .

لقد مثل خط بار — ليف جزءاً كبيراً من الثقة الذاتية التي عمت اسرائيل وقادتها . وكرر الناطقون بلسان القيادة العسكرية والسياسية في اسرائيل ، خلال السنوات ، الاعراب عن رأيهم الراسخ ، بأن مصر لن تستطيع ابداً اجتياز هذا « العائق » ضد الدبابات ، الاكبر من نوعه في العالم . وكان الخطأ في هذا التقدير ، اولاً وقبل كل شيء ، في انه لم يتنبأ كيف ستتطور الحرب القادمة ، بل ارتكز الى حرب الايام الستة كنموذج . لقد بشر قادة المؤسسة العسكرية ، وعلى رأسهم موشيه دايان وزير الدفاع ، وحاييم بار — ليف رئيس الاركان آنذاك ، دائماً بالصيغة القائلة ان « كل حرب تختلف عن

سابقتها » . ولكنهم لم يطبقوا هذا المبدأ العام على الاستعدادات للحرب المتوقعة في جبهة قناة السويس . وكان من سخريات القدر ان حاييم بار – ليف (٤٩ عاماً ، من مواليد يوغسلافيا ، المعين كوزير للتجارة والصناعة في حكومة اسرائيل بعد خلعه الثوب العسكري مباشرة في سنة ١٩٦٧) دعي للعودة الى الجيش في اثناء الحرب ، وارسل الى الجبهة الجنوبية « لانقاذ » الخط الذي يحمل اسمه .

لقد سئل بار – ليف من قبل الصحافيين ، بعد انتهاء الحرب ، اذا كان الخط الحامل اسمه ، قد اثبت نفسه ، بحسب رأيه ، في التجربة . وكانت اجوبة بار – ليف على هذا السؤال فنية . ولكنه قال في بداية كلامه : « خط بار – ليف ؟ هذا من اختراع الصحافة » . وقد قال ذلك بعد ان رأى بأم عينه الخط مدمراً وفي يد المصريين ، ذات الخط الذي رفعه الى قمة المجد العسكري والى مركز وزير في حكومة اسرائيل . لقد التقط بار – ليف ، بحسه السليم ، انه من الافضل له ، من الآن فصاعداً ، ألا يدعى الخط باسمه . لكن ذلك كان بعد فوات الاوان .

سيدخل خط بار – ليف ، الذي لم يكن له وجود ، تاريخ الحروب كمفهوم في نظرية الحرب الدفاعية ، بصورة مشابهة لنموذج خط ماجينو . وهناك فعلاً شبه معين – عسكري وسياسي ونفسي – بين خط بار – ليف وخط ماجينو .

لقد ولد خط ماجينو ، خلافاً لخط بار – ليف ، نتيجة قرار سياسي وعسكري ، بعد نقاش طويل وبوعي كامل . فقد ناقش مجلس الحرب الفرنسي ، بقيادة هنري فيليب بيتان ، مشروع اقامة خط ماجينو طوال عشر سنين . لقد آمن بيتان ، بطل الحرب العالمية الاولى ، بالتفوق المطلق للدفاع على الهجوم . وكان اهتمامه الرئيسي منصباً على حياة الانسان . كان شاهد عيان على مقتل ملايين الجنود في الحرب العالمية الاولى . وكان ايضاً واعياً للنقص في القوة البشرية في فرنسا ، مقابل المانيا . ولذلك وضع نصب عينيه تجنب قتل كهذا في الحرب الجديدة في حال نشوبها ، فطالب بإقامة خط منيع من التحصينات على طول الحدود بين فرنسا والمانيا .

بدأ انشاء الخط في سنة ١٩٣٠ ، وتقدم بسرعة تحت اشراف وزير الحربية الفرنسي اندريه ماجينو ، من مشوهي الحرب العالمية الاولى . وقد توفي ماجينو في سنة ١٩٣٢ ، نتيجة تسمم في المعدة ناجم عن تناوله صدفيات فاسدة في حفل أقيم لمناسبة العام الجديد . وكان موته رمزاً لمصير الخط ، الذي اطلق اسمه عليه عند انتهائه في سنة ١٩٣٥ .

كان العيب الاساسي في خط ماجينو كامناً في حقيقة انه بني في المكان غير الصحيح . فعلى مر القرون ، غزا الالمان فرنسا عن طريق بلجيكا أساساً . ولكن خط ماجينو لم يمتد على طول الحدود البلجيكية ، اذ خشي الفرنسيون اغضاب البلجيكيين

بالتلميح لهم بأنهم قد يتخلون عنهم وقت الحرب . فضلاً عن انه لم تكن لديهم الموارد الكافية لاقامة خط بمثل هذا الطول . وهكذا حدث انه عندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، التفت قوات هاينس غودريان المدرعة ، بقيادة ارفين روميل ، حول خط ماجينو . وأبادت الجيش الفرنسي من الخلف . ولم يعمد الفرنسيون ، في مواجهة التهديد النازي ، الى انشاء جيش متحرك كبير وعصري ، كما طالب بذلك شارل ديغول الشاب ، بسبب العنصر النفسي الكامن في خط ماجينو ، والتبديد الهائل لموارد الامة الفرنسية في اقامته . لقد نامت فرنسا ، بكل بساطة وراء الخط ، وهي واثقة وآمنة بانه سوف يحميها من الالمان .

لم يكن بوسع المصريين الالتفاف حول خط بار – ليف . ولكن ، لان الخط لم يكن معداً لصد هجوم قوة عسكرية كبيرة ، استطاع المصريون بكل بساطة ان يعبروا القناة وينفذوا بين التحصينات ، التي فقدت معناها وقيمتها العسكرية منذ الساعات الاولى للحرب . وكانت مضاعفات خط بار – ليف على الجيش الاسرائيلي والنظريات الامنية في اسرائيل ، مشابهة بالتأكيد لتلك التي كانت لخط ماجينو بالنسبة الى الفرنسيين . فقد انفقت اسرائيل على بناء خط بار – ليف اكثر من مليار ليرة من ميزانيتها الامنية . وهو مبلغ ضخم ، اذا اخذنا بعين الاعتبار موارد اسرائيل المالية . وكما حدث لفرنسا في سنة ١٩٣٩ ، نامت اسرائيل وراء خط بار – ليف . ومن المحتمل انه لولا قيام الخط ، لكان رد الجيش الاسرائيلي ، يختلف تماماً على حشود الجيش المصري عشية الحرب . ان وهم الامان وراء خط « لا يمكن اختراقه او النفاذ عبره » ألحق بالجيش الاسرائيلي ، اضراراً كبيرة .

لقد حاول الجنرال بار – ليف بعد الحرب ، في مقالات نشرها في الصحافة الاسرائيلية ، الدفاع عن النظرية التي قادت الى اقامة الخط . وكانت الفرضية الرئيسية فيها الادعاء ان خط بار – ليف لم تتح له ابداً فرصة التجربة في حرب يوم الغفران . فبحسب رأي بار – ليف ، اخطأت التفسيرات التي قيلت في شرح سقوط خط التحصينات الامامي على قناة السويس ، في فهم النظرية العسكرية التي كانت في اساس اقامة الخط . فخط بار – ليف لم يكن سلسلة مواقع دفاعية محصنة فقط ، وانما كان نظاماً مركباً قائماً على عناصر مختلفة تشتمل على مدرعات ، ومدفعية ، ونظام لوجستي مركب يتضمن محاور حركة ، وقواعد صيانة وقيادات خلفية . وادعى بار – ليف انه بسبب فترة الانذار القصيرة جداً ببدء الحرب ، لم تأخذ القوى ، التي يفترض ان تملأ هذا النظام ، مكانها وقت الامتحان العسكري ، وبالتالي لم تتح للخط فرصة « التجربة الحقيقية » لاثبات قدرته . وبكلمات اخرى ، كان الواقف في مواجهة المصريين من خط بار – ليف كله ، عند اندلاع الحرب ، اسمه فقط ، لا اكثر . ولم يقتصر

الامر على ذلك ، وانما عند بدء المصريين بعبور القناة ، كان نصف التحصينات فقط في خط بار — ليف مشحوناً بالرجال . وكانت درجة التأهب فيها ادنى مما هي عليه في الايام العادية .

ادعاءات بار — ليف هذه صحيحة . ولكن المشكلة المطروحة للنقاش ليست اذا كان الخط قد اثبت قيمته في التجربة ام لا ، وانما اذا كانت نظرية بار — ليف الدفاعية صحيحة ام لا . وهل كانت هناك ضرورة اصلاً لاعدادها لامتحان الحرب ، او لعله كان من الضروري ايجاد بدائل اخرى تخدم المصالح العسكرية والسياسية الاسرائيلية بصورة اكثر فعالية .

لم يبدأ النقاش حول هذه المسألة بعد الحرب ، او حتى في اثنائها ، بل كان ، عملياً ، دائراً منذ بداية سنة ١٩٦٩ وقبل ذلك . انحصر في البداية في دوائر مغلقة في قيادة الجيش ، ثم اندفع بعد ذلك خارجها ، وراح يدور بصورة علنية تقريباً . انما كان حينها لا يزال نقاشاً نظرياً ، جر الى خلافات حادة جداً في الرأي في القيادة الامنية الاسرائيلية . واليوم ، بعد ان تعرض الخط لتجربة الحرب القاسية وفشل ، اصبحت حقائق الوضع هناك تحت تصرف المتناقشين .

لم يتخذ شخص ما ابداً قراراً بإقامة خط بار — ليف . ولد الخط ، مثل الاسم ، كما لو من ذاته . وكان الواقع هو الذي املى ضرورة قيامه . منذ احتل الجيش الاسرائيلي في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ « المناطق المحتفظ بها » ، تغيرت النظريات الاساسية المتعلقة بتحريك الجيش في حالة الحرب . كانت الفرضية المقبولة حتى حزيران (يونيو) ١٩٦٧ انه في حال اندلاع الحرب ، سوف « تنقل الى ارض العدو » . ولم تكن صورة اسرائيل الجغرافية بحدودها القديمة ، كمساحة متطاولة وضيقة يفصل في اماكن معينة منها بين الحدود والبحر ١٨ كلم ، تسمح بأي امكان لوضع خطط الدفاع بصورة مختلفة . وعلى اساس هذه النظرية ، بني الجيش الاسرائيلي كجيش متحرك وهجومي ، قادر على الانتقال ، خلال فترة قصيرة ، من نقاط تأهبه الى وضعية تشكيل هجومي . وبرهنت هذه النظرية على صحتها في حرب الايام الستة .

لقد صادف وقف اطلاق النار في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مدرعات الجيش الاسرائيلي على طول الضفة الشرقية لقناة السويس ، باستثناء قطاع ضيق في شماليها ، حيث تفصل مستنقعات عميقة بين حواجز الرمل على طول القناة وبين مدينتي بور سعيد وبور فؤاد .

وكانت تمتد وراء قوات الجيش صحارى شبه جزيرة سيناء . وفي وسط اسرائيل وشماليها ، تمركزت قوات الجيش على بعد عشرات الكيلومترات من خطوط حدود اسرائيل

القديمة ، الضيقة والقابلة للاختراق ، وتغيرت بحكم هذه الظروف النظرية الاساسية المتعلقة بتحريك الجيش في حال اندلاع حرب جديدة . ادعى قادة المؤسسة العسكرية انه من الآن فصاعداً لن يجد الجيش الاسرائيلي نفسه مجبراً على خوض القتال على ارض العدو . وكانت الجبهة المصرية هي المقصودة أساساً . فالمساحات الشاسعة في سيناء ، المثالية لحرب المدرعات ، اعطت قادة الجيش الثقة انه في حال بدء المصريين الحرب ، حتى دون انذار كاف — كما حدث فعلاً في حرب يوم الغفران — سيكون بامكان الجيش مجابهة القوات المصرية وابادتها في حرب دفاعية ، يعتبرها اكثر سهولة .

وبما ان مثل هذه الحرب ستجري بعيداً عن التجمعات السكانية في اسرائيل ، فسوف تتوفر للجيش مهلة من الوقت ومجال للمناورة ، لمجابهة المشكلة العسكرية دون ان تتضرر الجبهة الخلفية . ولقد كانت الجبهة الخلفية دائماً وابداً هي نقطة ضعف دولة اسرائيل في زمن الحرب ، بسبب الخشية من سقوط ضحايا بين السكان المدنيين .

لقد كان تصور الحرب المستقبلة بهذه الصورة صحيحاً في اساسه ، ولكنه لم يتجسد في الميدان . فعندما ثارت ضرورة اتخاذ قرار بشأن النمط الدفاعي الواجب اختياره ، رجحت الاعتبارات السياسية الكفة . وكان الاعتبار السياسي الحاسم طموح اسرائيل الى التشبث بحافة قناة السويس لخلق حقائق محسوسة ومنتهية توضح لمصر والعالم كله ان قناة السويس لا يمكن ان تكون مفتوحة للملاحة الحرة الا عندما تستطيع اسرائيل استخدام هذا الممر المائي الدولي . واصطدمت المحاولات التي قام بها المصريون من جانبهم لفتح القناة للملاحة ، دون تعاون مع اسرائيل ودون ضمان مرور حر ايضاً للسفن التي ترفع العلم الاسرائيلي ، بمقاومة قوات الجيش الاسرائيلي المتمركزة على خط الماء .

من اجل تحقيق هذا الهدف ، كان لا بد لقوات الجيش الاسرائيلي من التمركز على خط المياه فعلاً . في البداية حفرت القوات خنادق على طول القناة في مواقع مرتجلة . وعندما بدأ المصريون حرب الاستنزاف ، وراحوا يقصفون الضفة الشرقية باعداد ضخمة من المدافع ، عمقت الخنادق وأُقيمت تحصينات ، اخذت تتطور واصبح الغرض منها حماية الجنود المتمركزين على طول القناة . كانت هذه حرباً ثابتة تعيد الى الذهن في جوانب عديدة ، « حرب الخنادق » خلال الحرب العالمية الاولى . ومنذ اللحظة التي اتضح فيها دون اي ريب ان المصريين لا ينوون ايقاف حرب الاستنزاف الثابتة ، بات واجباً على هيئة اركان الجيش اتخاذ قرار بشأن السياسة العسكرية الواجب اتباعها . هل يجب التأهب لشن حرب شاملة ، او تنظيم الجيش بما يلائم هذه الحرب ، التي فرض المصريون طابعها على اسرائيل . لقد ظلت المبادرة كلها ، طوال الوقت ، بيد المصريين ، ورسمت هيئة الاركان الاسرائيلية خطواتها بناء على الخطوات التي املاها

المصريون . دون ان تدخل في الحسبان احتمال ان تجر حرب الاستنزاف في اعقابها حرباً من نوع آخر .

لا يصح القول ان هيئة الاركان العامة الاسرائيلية تجاهلت كلياً في حساباتها هذا الاحتمال . ولكن حرب الاستنزاف عقدت المفاهيم وشوشتها . وبدلاً من التهيؤ لحرب شاملة ، وجهت معظم الجهود والموارد لحل المشاكل التي اثارتها حرب الاستنزاف . وهكذا نجم وضع اعدت اسرائيل نفسها فيه على خط المياه لحرب من اجل الهيبة السياسية ، نسي في سياقها العديد من المبادىء التي وجهت النظريات الامنية للجيش حتى تلك الفترة .

خلال سير حرب الاستنزاف ، التي ذهب ضحيتها مئات من جنود الجيش المتمركزين على حافة القناة ، نجمت الضرورة الملحة لتوفير حماية ملائمة للمقاتلين هناك . وهكذا ولدت خطة اقامة التحصينات . وكان واضع الخطة الاولى للتحصينات ، ومنه اشتقت ايضاً اسمها ، قائد سلاح المدرعات الجنرال ابراهام (بيرن) أدان ، البالغ من العمر ٤٧ عاماً ، من مواليد كيبوتس كفار جلعادي في شمالي اسرائيل ، الذي انضم عشية قيام الدولة الى كيبوتس نيريم في الجنوب . لقد عين أدان ، كأحد رجالات البالماح ، قائداً لمنطقة الحدود في النقب في حرب ١٩٤٨ ، واوكلت اليه مهمة اقامة مواقع صغيرة محصنة ، لمواجهة الغزو المصري المتوقع في ذلك العام . ولم تكن في حوزة قوات الهاغناه آنذاك دبابات او آليات مدرعة اخرى لمواجهة دبابات المصريين . ولذلك خطط أدان لإقامة مواقع محصنة يستطيع جنود المشاة داخلها الاشتباك مع الدبابات ، بسلاح مضاد للدروع ، دون ان يكونوا عرضة للاصابة . وقد دعيت تلك المواقع الصغيرة المحكمة في تلك الفترة باسم « دنغرويم » . وعندما كان الجنرال أدان قائداً لقوات الجيش المدرعة في سيناء ، خطط لبناء التحصينات على القناة وفقاً للمبادىء التي استلهمها في بناء مواقع ١٩٤٨ .

ولكن عندما وضع أدان خطة لإقامة تحصينات على طول القناة ، كانت نصب عينيه مواقع انذار تتحصن فيها قوات صغيرة ، مجهزة بوسائط الكترونية ، مهمتها انذار قوات الجيش في المؤخرة ، في الوقت الملائم ، بكل محاولة مصرية لعبور القناة . ولم تكن هناك أية نية ، عندما أقيمت التحصينات ، لقلبها الى مواقع دفاعية .

ولكن هنا فعل قانون باركنسون فعله . فالصور الاولى الملتقطة لخط قناة السويس في سنة ١٩٦٧ تظهر ان التحصينات كانت في البداية عبارة عن حفر — ثعالب مغطاة بقضبان حديدية مقوسة تركها الجيش المصري في المنطقة في اثناء انسحابه . وكانت هذه الاقواس الحديدية مغطاة بأكياس الرمل وكتل الحجارة . وبالتدريج بدأت هذه الحفر تتضخم حتى تحولت الى دشم محمية بحواجز رملية ، ومسقوفة بقضبان انتزعت

من السكة الحديدية المصرية في سيناء ، وبأطنان من الرمال . وعندما اتضح ان مصر عازمة على الاستمرار في حرب الاستنزاف الثابتة بكل قوتها — واعلن عن ذلك بوضوح عبد الناصر رئيس مصر آنذاك — بدىء بتنفيذ الخطة لبناء تحصينات تكون بمثابة مواقع دفاعية .

وكان الهدف إقامة مواقع قوية حول المحاور الاربعة الموصلة من القناة الى داخل سيناء ، الى الممرات التي تقود الى اعماق شبه الجزيرة . وقد بنيت معظم التحصينات كمجموعات ، على صورة قبضات محصنة ، ليكون بامكان كل منها تقديم تغطية للاخرى ومساندتها . فبنيت مجموعة تحصينات في منطقة بور توفيق في الجنوب مقابل مدينة السويس ، وبنيت مجموعة أخرى في الوسط مقابل مدينة الاسماعيلية ، وبنيت مجموعة ثالثة مقابل مدينة القنطرة ، وأُقيمت شبكة تحصينات اقل كثافة على طول المحور الشمالي للقناة ، حتى مسافة ١٠ كلم من مدينة بور فؤاد . وكان بناء هذه الشبكة الاخيرة من التحصينات اكثر تعقيداً من التحصينات الأخرى ، لانها بنيت في منطقة صعبة العبور ، من ناحية طبوغرافية ، تقع بين المستنقعات الطينية شرقاً وقناة السويس غرباً . وكانت المسافة بين حواف المستنقعات وقناة السويس بضع عشرات من الامتار فقط . وكانت هذه المنطقة هي الموضع الوحيد الذي لمصر فيه موطىء قدم شرقي القناة . كما أُقيمت عدة تحصينات ايضاً على طول ساحل البحر المتوسط ، على المحور المؤدي من بور فؤاد الى رمانه .

وكانت شبكة التحصينات هذه ، البالغ عددها ٣٦ تحصيناً ، عبارة عن جزء فقط من شبكة معقدة طُورت من سنة الى اخرى . وقد استغرق بناؤها شهوراً كثيرة ، وتم بناء جزء منها تحت نيران المدفعية المصرية . واستخدمت في العملية عشرات التراكتورات والجرافات والمعدات الثقيلة الاخرى . وجلبت من شمالي البلد ، بواسطة آلاف من الشاحنات ، كتل من الاحجار وُضعت في شباك من الحديد سميت باسم « غفيونيم » ، لاستخدامها في بناء « طبقات تفجير » فوق الدشم . وكان الهدف من طبقات التفجير هذه التي بلغ سمكها عدة امتار ، هو الحيلولة دون نفاذ قذائف المدفعية الثقيلة الى داخل الدشم . وقد استخدم الجيش الاسرائيلي المدفعية السوفياتية الثقيلة التي غنمها في حرب الايام الستة ، في تجاربه لامتحان قدرة طبقات التفجير هذه على الصمود .

وازدادت هذه التحصينات ، التي انفق في البداية على بنائها عشرات الآلاف من الليرات ، تعقيداً ، وتحولت الى « مساكن » حقيقية ، مجهزة بكل وسائل الراحة : اجهزة اتصال متطورة ، مكيفات هواء ، مبردات ، مواسير مياه ، ومخازن تموين . وقد بني التحصين ، الذي بدا من الخارج كقلعة من عهد القرون الوسطى ، كدبابة عملاقة قادرة على القتال بصورة مستقلة . وكان المقاتلون في التحصينات مزودين بقوة نار كبيرة نسبياً ، يمكن تشغيلها بواسطة حفنة من الرجال . وكان المفروض ان يكون في كل تحصين من ٣٠ — ٣٥ مقاتلاً ، ويؤمن اكتفاءاً ذاتياً من الناحية القتالية ، ويصمد في وجه

قوات متفوقة . وكان التقدير انه بامكان كل تحصين كهذا الدفاع في مواجهة كتيبة مدرعة كاملة للعدو لمدة اسبوع . ولكن مهمة القتال ضد دبابات العدو ، في حال نجاحها في عبور القناة ، كانت ملقاة على عاتق دبابات الجيش الاسرائيلي . ولم يكن هناك في التحصينات نفسها ، المزودة بسلاح خفيف يشتمل على رشاشات ثقيلة ومدافع هاون ، اي سلاح تقريباً ضد الدروع .

وتحولت التحصينات بمرور الوقت الى اغلى « مساكن » أُقيمت في الدولة . فقد أُنفق على بناء كل تحصين عشرات الملايين من الليرات . وعمل في انشائها آلاف الاشخاص : مهندسون . الكترونيون . متعهدون . ومئات عديدة من الجنود والمدنيين من مهن مختلفة .

وعندما استولى الجنود المصريون على تحصينات الجيش الاسرائيلي على القناة ، لم يكن بوسعهم الا الانفعال والتأثر من وسائل الراحة المتوفرة للجنود الاسرائيليين في تحصيناتهم . ان اي جيش في العالم ما كان ليخجل من ظروف كهذه . كانت هناك ، في كل تحصين ، آلة عرض سينمائية ، وهاتف عام يمكن الجنود من الاتصال مباشرة وبسرعة مع البيت في الجبهة الخلفية . وكانت عائلات جنود التحصينات في حيفا وتل أبيب والقدس ، تستطيع غالباً ، في أثناء فترة حرب الاستنزاف ، ان تستمع هاتفياً الى اصوات تبادل اطلاق النار من جانبي القناة . وكانت هناك في كثير من التحصينات نواد مجهزة بأدوات رياضية مثل طاولات كرة الطاولة او شبكات كرة السلة . وقد أُقيم معظم هذه النوادي على غرار [ما يسمى في اميركا] نوادي الغرب الصاخبة ، وعلقت فيها لافتات ساخرة مكتوب عليها اوامر « الشريف » . او اصول التصرف في « البار » . وغطت جدران التحصينات شعارات ساخرة مختلفة . وكان الفنانون والمحاضرون يزورون التحصينات كل اسبوع لينقلوا الحضارة والثقافة الى الجنود .

وكانت اماكن إقامة جنود التحصينات داخل الدشم محصنة . كانوا ينامون على أسرة ذات طابقين . كما في قمرات السفينة . وكانت تحت تصرفهم كانتينات ومطابخ لمساعدتهم على تمضية فترة خدمتهم في قناة السويس في ظروف ترف مشابهة لتلك التي في قواعد سلاح الجو . وبما ان القوات الموجودة في التحصينات كانت تستبدل وفقاً لجدول زمني موضوع سلفاً ، كان كثير من الجنود يتوقون الى اللحظة التي يجيء فيها دورهم للخدمة في التحصينات . وقد اعتادوا على القول : « هذا مثل بيت النقاهة » ، وكان الجو اللطيف والمشهد الريفي عامل جذبٍ لا بأس به .

لقد بني نظام التحصينات على ثلاث مراحل . المرحلة الاولى — حتى حرب الاستنزاف . جرى البناء في اثنائها الى ان وقع القصف المركز العنيف الاول ، في سنة

١٩٦٨ . وقد اظهر القصف ان المواقع القائمة لا تستطيع الصمود في وجه المدفعية . وان وضع جنود في المواقع تحت ظروف كهذه هي بمثابة انتحار . المرحلة الثانية ، واستمرت حتى نهاية حرب الاستنزاف ، في آب (اغسطس) ١٩٧٠ . وعندما اعلن وقف اطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر ، بدأ سباق مجنون مع الزمن ، خشية تجدد القتال في نهاية الاشهر الثلاثة المحددة ، وبدأت عملية ضخمة لترميم الخراب في خط بار — ليف . كانت التحصينات في مواضع كثيرة مهروسة هرساً ، وكان من المستحيل الدخول الى كثير من الدشم بسبب الردم .

وقد انفق في الاشهر الثلاثة الاولى فقط ، لوقف اطلاق النار في خط القناة ، ما يزيد عن ٣٠ مليون ليرة اسرائيلية . وبلغ مجموع كلفة خط بار — ليف على المكلف الاسرائيلي نحو ملياري ليرة . وعندما اتضح ان وقف اطلاق النار سوف يستمر ، طورت الشبكة وانفق عليها مبالغ هائلة . شقت طرق جديدة مؤدية الى التحصينات ، وزيد من ارتفاع الحاجز الرملي على طول القناة ، وشقت طريق رملية بمحاذاته ، وحفرت فيه مراكز للدبابات . وأُقيم في عمق سيناء ، على مسافة ٥ الى ٨ كلم من خط التحصينات ، خط ثان تمركزت فيه وحدات مدرعة مهيأة للانطلاق الى مواقع قتالية محددة ، على الحواجز الرملية على طول القناة . وكانت مهمة هذه الوحدات المسارعة الى نجدة التحصينات ، في حال عبور مصري ، وضرب رؤوس الجسور المقامة . وأُلحقت بالتحصينات ذاتها ايضاً وحدات مدرعة صغيرة ، مهمتها مساندة التحصينات في اثناء القتال . وأُقيمت وراء خط التحصينات ، على مسافة نحو ٣٠ كلم من القناة ، معسكرات خلفية منها طاسه وبلوظه ، مسؤولة عن قطاعات القناة .

وكان للمدفعية ايضاً دور في شبكة الدفاع هذه .

خلال بناء خط بار — ليف ، وكلما خصصت مبالغ اضافية لتطويره ، كان ينشب في هيئة الاركان العامة للجيش خلاف بين وجهتي نظر حول الشكل الصحيح الذي ينبغي بموجبه ان تأخذ قوات الجيش مواقعها في انحاء شبه جزيرة سيناء . وكان النقاش يدور بين مجموعة على رأسها الجنرال بار — ليف ، رئيس الاركان العامة في ذلك الوقت ، ومجموعة جنرالات على رأسها الجنرالين يسرائيل طل واريئيل شارون ، اللذين خالفاه في الرأي .

كان يقف ضد مذهب بار — ليف مذهبان متناقضان . مذهب السيطرة من بعيد ، ومذهب الخط المتحرك . وكان كلاهما متحدين في انتقادهما العنيف لمذهب بار — ليف .

ويمكن تلخيص الانتقاد في النقاط الرئيسية التالية :

* تقع تحصينات خط بار — ليف في مدى المدفعية المصرية . والمدفعية هي السلاح

المصري الاقوى ، ذلك ان تأثير نقاط الضعف العسكرية المصرية ، البارزة في حرب المدرعات والحرب الجوية ، هو اقل في حرب المدفعية .

• مجرد قيام خط بار – ليف يمثل تحدياً مستمراً للمصريين لتجديد القتال وشن هجمات كوماندو .

• كان من الضروري لاسكات المدفعية المصرية استخدام سلاح الجو الاسرائيلي . وهذا الامر تسبب في وقوع التطور الخطر المتمثل بقصف العمق المصري ، وظهور بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات ، والقوات السوفياتية العاملة ، كالطيارين ومشغلي الصواريخ .

• الاموال الطائلة التي أنفقت على الخط ، جاءت على حساب الاموال التي كان يمكن انفاقها في تطوير وشراء معدات قتال اخرى ، وعلى حساب الموارد التي خصصت للتطوير الاجتماعي والاقتصادي للدولة .

ادعى مذهب السيطرة من بعيد انه ليس هناك للجيش ما يفعله على خط مياه قناة السويس . كان يقف على رأس هذا المذهب الجنرال اريك شارون ، وادعى المنادون به انه من اجل السيطرة على خط المياه يكفي الاحتفاظ ، بجانبه ، فقط بقوات مراقبة وانذار ووحدات مدرعة تكون بمثابة « دوريات صدامية » ، مهمتها الانذار من أي تحرك للعبور على نطاق واسع ، وتصفية أية « مزعجات » محلية على صورة وحدات مصرية صغيرة ، قد تحاول الحصول على مواطىء قدم في مناطق شرقي القناة .

وقد قدم انصار مذهب بار – ليف ضد هذا المذهب حجة سياسية في اساسها : اذا نجح المصريون في عبور القناة وحصلوا على موطىء قدم في سيناء ، فمن المحتمل ان يجلبوا معهم ايضاً قوات سوفياتية . ومن الممكن ان ينجح الجيش الاسرائيلي في ابادتها ، ولكن يحتمل ان يقود هذا الامر الى مواجهة اسرائيلية سوفياتية حافلة بالكوارث . ولهذا السبب ، كما ادعى انصار بار – ليف ، يجب الحيلولة بأي ثمن دون محاولة حصول المصريين على موطىء قدم في الضفة الشرقية . ومن هنا الاهمية الحيوية لخط بار – ليف .

اما انصار المذهب الثالث ، فكانوا مستعدين لقبول فكرة ضرورة الدفاع على خط القناة مباشرة ، ولكنهم رفضوا خط بار – ليف كحل للمشكلة . وكان يقف على رأس دعاة هذا المذهب الجنرال يسرائيل طل ، النائب الحالي لرئيس الاركان . وبحسب رأي طل وانصاره ، كان من السخف انفاق مبالغ خيالية على مواقع ثابتة ، حيث ان كل موقع كهذا يشكل هدفاً مريحاً للمدفعية ، وتحدياً مستمراً لطواقمها . ولم يكن ينقص المصريين ، بفضل الدعم السوفياتي ، المدافع او القذائف .

كان يجب ، بحسب رأي دعاة هذا المذهب ، استبدال كل التحصينات المكلفة والمرفهة بدبابات حديثة ، هي ارخص بما لا يقارن من التحصينات ، ومتحركة في الوقت ذاته . وكان يكفي ، بحسب رأيهم ، ان تقوم قوات من الدبابات باعمال الدورية ، دون انقطاع ، على طول القناة لتأمين الحماية نفسها لها ، ودون ان تكون هدفاً للمدفعية ، ودون ان تتسبب في مثل هذا التبديد الكبير للاموال . فالدبابة دائماً في حركة مستمرة ، وتستطيع ان تقدم القوة النارية المطلوبة للحماية ، فضلاً عن انها تحافظ على الروح الهجومية للجيش الاسرائيلي . ويمكن ايضاً استخدام الدبابة لاغراض كثيرة ، بينما لا يمكن استخدام التحصين الا لغرض واحد فقط : الدفاع عن منطقة معينة ومحدودة ، من خلال جذب النار اليه .

لقد كان احد المعارضين البارزين جداً لخط بار – ليف الجنرال (احتياط) متتياهو بيليد ، البالغ من العمر ٥٠ عاماً ، من مواليد حيفا . وبيليد جندي مقاتل قديم خدم في الهاغناه والبالماح ، وترأس في حرب الايام الستة احد الاذرعة الاكثر حيوية في الجيش : تموين القوات المقاتلة . وكرئيس لشعبة التموين في هيئة الاركان العامة ، كان بيليد متمرساً بالواقع الامني بصورة لا تقل عن معرفته بالنظرية العسكرية . وبعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، ترك بيليد الجيش ، وقصد الولايات المتحدة لعدة سنوات من أجل دراسة الاستشراق . وعمل ، بعد عودته الى البلد ، كأستاذ في الدراسات الشرقية ، ولكنه راح يبدي آراءه بالتحديد في مواضيع ذات طابع عسكري – امني واضح .

وكان الادعاء الرئيسي لبيليد هو انه منذ حرب الايام الستة ، بددت الدولة مليارات كثيرة من الليرات لمجرد ان قادتها ليسوا قادرين على التفكير في السياسة الامنية بالجدية المطلوبة . وقد ركز بيليد هجومه في الاساس على خط بار – ليف . لقد كانت إقامة هذا الخط ، بحسب رأيه ، غلطة ضخمة ، لم تكلف اسرائيل المليارات فحسب ، وانما كلفتها ايضاً ضياع القدرة على اتباع سياسة منطقية .

فالقيادة السياسية الاسرائيلية ، بدلاً من ان تضع ثقتها في سرعة الحركة التي يتمتع بها الجيش الاسرائيلي وقدرته الهجومية ، اقدمت ، بحسب ادعائه ، في الحدود البعيدة ، على ما رفضت دوماً وابداً فعله في الحدود القريبة . تخندقت وتحصنت وحددت خطوط دفاع ثابتة مناقضة لروحية الجيش . ونجم عن ذلك تبديد مذهل خطر في حد ذاته على أمن الدولة ، ذلك انه يجعل اسرائيل معتمدة اقتصادياً على الغير ، ويحول دون حل مشاكل الدولة الاجتماعية الملحة والخطرة .

لقد كان النقاش الذي دار في هيئة الاركان العامة للجيش ، بين اصحاب المذاهب المتناقضة ، جوهرياً وثاقباً . وكان الجنرال بار – ليف ، ذو النفوذ الحاسم في هيئة الاركان ، انساناً عنيداً في طبعه . ومنذ اللحظة التي كان يقرر فيها اتباع طريق عمل معين ،

يصبح من المستحيل تغيير رأيه . واخطر من ذلك ، لم يكن حتى مستعداً للاستماع الى حيثيات الآراء المخالفة . وقد ترك الجنرال يسرائيل (« تليك ») طل في عهده هيئة الاركان العامة ، ونقل الى منصب في وزارة الدفاع .

وفي سنة ١٩٧٠ سافر الجنرال طل الى الولايات المتحدة للقيام بجولة هناك . وبعد عودته الى البلد ، دهش لسماعه من « اذاعة اسرائيل » انه « انهى عمله في الجيش » . ولم يتغير البيان الرسمي للناطق بلسان الجيش ، الا بعد تدخل وزير الدفاع موشيه دايان شخصياً . ونجح هذا التدخل في تبهيت الانطباع السيىء الذي اثاره بيان الناطق ، وعاد « تليك » الى الخدمة العسكرية بعد ان تحول الى مواطن مدني مدة يوم واحد .

ولم يعرف الجمهور المدني انه في سنة ١٩٦٩ ، اوشك الجنرال شارون ان يخلع لباسه العسكري ، بسبب الخلافات في الرأي بينه وبين رئيس الاركان . ولم يعد شارون الى مبنى هيئة الاركان الا بعد « نصيحة » وزير المال بنحاس سابير ، صاحب النفوذ الكبير في الحزب الحاكم ، وبعد ان دعته رئيسة الحكومة غولدا مئير ذاتها الى لقاء واقنعته بالاستمرار في الخدمة .

لكن سابير وغولدا لم يفعلا ذلك بدافع من مجرد محبتهما لأريك. بل خشية ان يترك الجيش للحياة السياسية ، وينضم الى حزب المعارضة غاحل ، ويجذب اليه اصوات ناخبين من حزب السلطة .

وفي نهاية الامر ، عين شارون قائداً للمنطقة الجنوبية ، في سنة ١٩٧١ .

وفي نهاية الحرب عين طمير رئيساً لشعبة التخطيط في الاركان العامة .

على الرغم من الوزن النوعي الرفيع للمعارضة في هيئة الاركان العامة للنظريات القائمة في اساس خط بار — ليف ، تحول الخط الى حقيقة قائمة . فقد حسم النفوذ المطلق للوزير القادم الوضع . وجمدت كل الافكار الاخرى .

وفي نهاية الحرب عاود الجنرال (احتياط) متتياهو بيليد اتهام ضباط هيئة الاركان العامة بـ « فقدان الاستقامة المهنية » ، لانهم تنازلوا في مسألة بار — ليف عن مواقفهم وآرائهم العسكرية وخضعوا لمشيئة الساسة . لقد وجه بيليد اتهامه بكلمات بالغة العنف : « لم يكن المسؤولون عن أمن اسرائيل أُمناء على مهمتهم . واخضعوا الاعتبارات المهنية لمشيئة سياسية من اجل دعم خط سياسي آمنوا به ، ليس بصفتهم عسكريين في الجيش ، وانما كمواطنين في الدولة . لقد تصرفوا مثل الطبيب الذي يصف للمريض دواءاً لا يلائم المرض وانما يرضي رغبة الاقارب . بكلمات اخرى ، لم يتصرفوا باستقامة مهنية . وبدلاً من ان يدركوا ان واجبهم الاسمى تجـاه الشعب هو ان يضعوا تحت تصرفه قدراتهم المهنية ومعرفتهم التي اكتسبوها بامواله ، لجأوا الى الغش . وبدلاً من ان يشرحوا للمسؤولين

السياسيين ان الالتصاق بخط المياه (قناة السويس) يستوجب حلاً يكلف ليس فقط مليار او ملياري ليرة ، بل ربما عشرة مليارات او عشرين ، وافقوا على المصادقة على حل لا يشكل حلاً ، ولا يستطيع ان يصمد في الامتحان ، ولن تتاح له مثل هذه الفرصة » .

وعلل بيليد اتهامه الذي لا سابقة له ، ولم يحدث ان وجه مثيله ابداً في اسرائيل الى القيادة العليا للجيش : « كان يمكن بقيمة المبلغ الذي أُنفق على إقامة خط التحصينات شراء نحو ١٥٠٠ دبابة اخرى مع تجهيزاتها ، او ١٠٠ طائرة اخرى من افضل نوع ، أو ذخيرة تكفي لعدة أيام إضافية للجيش كله . وربما امكن ايضاً ، بالمبلغ نفسه ، إقامة شريط سميك من الألغام ذي كثافة كبيرة على طول خط قناة السويس ، مع سياجات من الاسلاك الشائكة على كلا الجانبين ، وتوفر له التغطية بطاريات المدفعية من بعيد . ان اي وجه من وجوه الانفاق هذه كان يمكن ان يساهم في أمن الدولة مساهمة أمنية قيمة ثمنها مليار ليرة تقريباً . ولكن أي وجه من أوجه الانفاق كان الافضل ؟ ايها كان يمكن ان يقدم لاسرائيل المساهمة الامنية الاكبر ؟

« واضح ان التجربة المرة علمتنا ان وجه الانفاق الاسوأ كان ذلك المتمثل في إقامة خط التحصينات ... كل المليار ليرة كان إنفاقاً ضائعاً ... وكانت المبالغ المنفقة على خط بار — ليف الثمن الذي دفعته هيئة الاركان العامة ، التي فقدت استقامتها المهنية ، للساسة الذين لم يترددوا في ان يفرضوا على الجيش وجهة نظر لا تستند الى اساس مهني» .

بعد ان ترك الجنرال بار — ليف الجيش ، كتبت إحدى الصحف في تكريمه بمناسبة تركه : « ذهب بار — ليف ، ولكن الخط بقي » . وكان الصحافي الذي كتب ذلك يعبر بقوله هذا عن ايمان الجمهور ، الذي تعرض لعملية « غسل دماغ » . بهذا الخط وكل ما ارتبط به وترتب عليه .

وحدثت في هذه الاثناء حرب يوم الغفران . وذهب الخط ، ولكن بار — ليف بقي .

الفصل السابع

مصيدة الحمقى

بعد اعلان وقف اطلاق النار في حرب يوم الغفران ، أجريت مقابلة صحافية مع رئيس هيئة الاركان المصرية ، اللواء سعد الدين الشاذلي ، قال فيها بصراحة ما يلي :

« لم يخطر على بالي مطلقاً انه يمكن تضليل العدو الى هذا الحد » . واليوم ، بنظرة الى الخلف ، يصعب إدراك كيف امكن ان تقع القيادات السياسية والعسكرية في اسرائيل في مصيدة الحمقى التي نُصبت لهما . وقادتهما الى عمى البصيرة ، والى تجاهل كامل لكل الدلائل التي اشارت كألف شاهد الى الحزب المقبلة . ويبدو السقوط في مصيدة الحمقى خطراً اضعافاً مضاعفة ، في ضوء الحقيقة انه في الايام التي سبقت حرب الايام الستة ، نصبت اسرائيل المصيدة ذاتها لمصر .

كان الوضع وقتها مختلفاً . كان الجيشان يقفان على أهبة الاستعداد في مواجهة بعضهما بعضاً ، لعدة ايام ، بانتظار اشارة الهجوم . وربما يجدر ان نذكر ، في هذا السياق ، انه في مرحلة معينة كادت الحكومة توافق على تقويم الاستخبارات بان الخطوة التي اقدم عليها رئيس مصر في حينه ، جمال عبد الناصر ، لم تكن اكثر من مجرد خطوة تظاهرية لا تخفي وراءها أية نية لشن الحرب . وكان رئيس الاستخبارات الاسرائيلية في ذلك الوقت الجنرال اهرون ياريف ، الذي عين في نهاية حرب يوم الغفران رئيساً للوفد الاسرائيلي في مفاوضات وقف أطلاق النار مع مصر .

في ١٤ أيار (مايو) ١٩٦٧ ، في نهاية اجتماع قيادة الجيش ومجلس الوزراء المصريين ، اصدر المشير عبد الحكيم عامر ، نائب الرئيس ، « امر القتال ، رقم ١ » ذكر فيه :

أ — ترفع درجة التأهب في القوات المصرية المسلحة الى درجة الاستعداد للقتال اعتباراً من الساعة ١٤,٣٠ من يوم ١٥ أيار (مايو) .

ب — تتحرك التشكيلات والوحدات المعدة بحسب خطة المعركة من مراكزها الحالية الى مواقع التأهب .

ج – توضع القوات المسلحة في حالة تأهب مطلق لتنفيذ مهماتها القتالية على الجبهة الاسرائيلية ، وفقاً لتطورات الوضع .

وكان تقدير الاستخبارات الاسرائيلية ايضاً وقتها ان دخول قوات الجيش المصري الى سيناء لم يكن سوى عملية تظاهرية ، او نوع من استعراض القوة ، اقدم عليه عبد الناصر لاغراض تتعلق بالعالم العربي اكثر مما هو موجه ضد اسرائيل . بيد ان رئيس الحكومة الاسرائيلية في ذلك الوقت ، ليفي اشكول ، على الرغم من اعتقاده بصحة اساس هذا التقدير ، لم يكن مستعداً للمجازفة . وهكذا اعلن رئيس الحكومة ووزير الدفاع في ١٦ ايار (مايو) ، عن تعبئة محدودة لاحتياطي الجيش ، كي يأخذ مواقعه في مواجهة الفرقتين المصريتين اللتين احتشدتا على حدود اسرائيل .

وعندما حسم الامر داخل الحكومة الاسرائيلية في سنة ١٩٦٧ ، وتقرر شن حرب وقائية ضد تحشدات الجيش المصري في سيناء ، قرر وزير الدفاع الجديد موشيه دايان الاقدام على خطوات تهدف الى جر المصريين للوقوع في الخطأ ، ومخادعتهم وتضليلهم . فأصدر امره ، في الايام السابقة لـ ٥ حزيران (يونيو) ، الى قادة الوحدات في الجبهات بمنح اجازات لاكبر عدد ممكن من الجنود . وابتلعت الاستخبارات المصرية الطعم ، ورفعت تقارير الى هيئة الاركان العامة للجيش المصري ، تفيد بأن التأهب في الجيش الاسرائيلي قد خف ، وان جزءاً كبيراً من قوات الاحتياط جرى تسريحه .

تبنى المصريون والسوريون في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، الاسلوب نفسه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع الطعم في الايام السابقة مباشرة لليوم الحاسم ، بل بدأوا ، قبل ذلك بفترة طويلة ، حملة تضليل ، الهدف منها تخدير هيئة الاركان الاسرائيلية وحكومة اسرائيل . وفي اواخر سنة ١٩٧٢ كانت خطة التضليل المصرية ، الموضوعة بحسب كل الدلائل بوحي من السوفيات ، قد بلغت مرحلة متقدمة جداً .

ان دلائل كثيرة تشير اليوم الى الحقيقة بأن خطة التضليل المعقدة ، التي مكنت المصريين والسوريين من مفاجأة اسرائيل بصورة مطلقة في حرب يوم الغفران ، كانت ثمرة تخطيط اجهزة التجسس السوفياتية . ومن البديهي انه لا المصريون ، ولا حتى الاتحاد السوفياتي، مستعد للاعتراف بذلك لاسباب واضحة: الاتحاد السوفياتي غير معني بالاعتراف بتدخله المباشر في التخطيط للحرب ، ومصر ترغب بالتفاخر بانها هي وحدها « انجزت المهمة » . بيد ان احكام حملة التضليل المصرية ، وحجمها ودهاءها ، التي كانت على مستوى تخطيطي وتنفيذي عال جداً ، لا تقبل سوى تفسير المساعدة السوفياتية الفعالة ، وذلك على الرغم من التقدم الذي برهن عنه المصريون على المستوى العسكري .

وقد ألمح اللواء احمد اسماعيل علي ، بطريقته الخاصة ، الى هذا التعاون الروسي

في مقابلة اجراها معه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام ، ونشرت بتاريخ ١٨/١١/٧٣ . قال اللواء في معرض شرحه للحسابات التي املت تحديد يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) كموعد لبدء الحرب : « تحدد هذا الموعد بناءاً على حسابات علمية ، تؤهل هذه العملية لان تكون نموذجاً للدقة العلمية والبحث الموثوق في التاريخ العلمي للحروب » .

ويجوز الافتراض انه عندما استخدم اللواء اسماعيل مصطلح « علمي » ، كان يعني بذلك الجهاز السوفياتي الكامل الذي وضع بتصرف مصر وسورية لغرض الاستعداد للحرب : ابتداء بالحرب النفسية على الطراز السوفياتي ، بتسريب انباء كاذبة مطمئنة ، للنشر حول « اتفاقيات سلام » ، وانتهاء بتتبع الاقمار الصناعية السوفياتية لمواقع القوات الاسرائيلية على الحدود مع مصر وسورية .

ومقابل ذلك ، لم يتوفر حتى اليوم اي دليل على النظرية التي طرحت بعد الحرب مباشرة ، بأن تدهور العلاقات بين السادات والاتحاد السوفياتي في صيف ١٩٧٢ ، والذي ادى الى اخراج الخبراء السوفيات من مصر ، كان جزءاً من حملة التضليل . ويبدو ان هذا الافتراض ليس صحيحاً . وتشير كل الدلائل الى ان الاتحاد السوفياتي بات اكثر استعداداً من السابق ، لمساعدة السادات في المجالين العسكري والسياسي ، بعد ان ضغط المصريون عليه بواسطة تلك الازمة ، وتبدى له خطر فقدانه لكل مراكزه في العالم العربي . وبكلمات اخرى : رحب الاتحاد السوفياتي بالفرصة التي أتيحت له لاخراج طياريه وخبراء الصواريخ من مصر ، حتى لا يتورطوا ، بصورة فعلية ، في حال نشوب حرب بين اسرائيل ومصر . ولكن قادة الاتحاد السوفياتي كانوا مستعدين ، في الوقت ذاته ، لمساندة اتجاه السادات في تأهبه لشن الحرب ، بسبب الاهمية الكبرى التي يعزوها الاتحاد السوفياتي لموطىء القدم الذي احرزه في مصر ، ورغبته في المحافظة عليه .

وعلى الرغم من الخلاف ، بقي في مصر مستشارون عسكريون سوفيات ، يمكن الافتراض انهم ينتمون الى مجال الاستخبارات الحساس . وقد تبادلت وفود عسكرية من البلدين زيارات عمل ، ويمكن رؤية بصمات السوفيات في اجراءات التخدير السياسية والعسكرية ، التي نفذها المصريون والسوريون في الاشهر السابقة للحرب .

لقد وزعت وكالة أنباء يونايتدبرس ، في شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، (١١/١٢/١٩٧٢) ، خبراً في بروكسل ، هذا نصه : « ذكر في تقرير سري أعده سلاح الجو المصري ، ووزع في القاهرة بنسخ محدودة ، ان ٤٠٪ فقط من السلاح و ٦٠٪ من الطائرات المصرية المقاتلة في حالة صالحة » . وذكرت المصادر الدبلوماسية في بروكسل التي نقلت التقرير السري ، ان العوامل الاساسية المسؤولة عن هذا الوضع غير السليم هي الصيانة السيئة ، ونقص قطع الغيار من الاتحاد السوفياتي ، الذي يزود المصريين

بمعظم اسلحتهم . واضاف النبأ : « يتضح من التقرير ايضاً ان مصر فقدت ٥٠ طائرة مقاتلة ، على الاقل ، من صنع سوفياتي في التدريبات منذ حرب الاستنزاف . وحيث ذكرت مصادر موثوقة ان مصر كانت تمتلك ٥٢٣ طائرة قبل حرب الاستنزاف ، فان معنى ذلك ان في حوزتها الآن من ٤٠٠ الى ٤٥٠ طائرة ، منها ٣٠٠ فقط جاهزة للقتال » .

ويبرز تعمد تصوير مقدرة الجيش المصري وسلاح طيرانه، بصورة مشوهة، في سلسلة من الانباء ظهرت في الصحافة العالمية منذ ذلك الوقت . وقد اعادت الصحف الاسرائيلية نشر هذه الانباء تحت عناوين بارزة ، كما جرت العادة في اسرائيل ، منذ ٢٥ سنة ، تجاه كل ما من شأنه ان يظهر العرب بمظهر سلبي . وكان كل خبر مصدره « لوموند » او « التايمز » ، يحظى بابراز خاص في الصحافة الاسرائيلية ، حتى ولو كان محررو الانباء الاسرائيليون يعرفون انه ليس صحيحاً . وكما لو ان في حوزة مراسل « التايمز » الذي يكتب من لندن، بعد تمضية ثلاثة أيام في القاهرة ، معرفة اوثق واشمل من تلك التي في حوزة مراسل الصحيفة الاسرائيلية للشؤون العربية ، المعتمد لدى هيئة الاركان العامة .

وهكذا مثلاً كتب مراسل « الفايننشال تايمز » في صحيفته (٧٢/١٢/١٦) ، بعد عودته من زيارة القاهرة لعدة أيام ، ان « الجيش المصري ليس مهيأ ابداً للقتال ، على الرغم من توق تشكيلاته الى حرب مع اسرائيل » .

ونسب المراسل الى « مثقفين مصريين » قولهم انه في حال نشوب حرب ستكون هزيمة الجيش المصري محققة ، لانه بالاضافة الى فقدانه المقدرة على القتال ، تضررت ايضاً مقدرة المصريين الدفاعية « منذ خروج الخبراء السوفيات ، الذين اخذوا معهم جزءاً كبيراً من السلاح الدفاعي المتطور » .

وظهرت ايضاً في ايطاليا تقارير صحافية افادت فقط في تعزيز جو الاسترخاء والتكاسل في اسرائيل . فنشر ايفور مان، مبعوث صحيفة « لاستامبا » المهمة الى القاهرة ، مقالة تحت عنوان : « الفساد متفش . في حوزة الجيش المصري ذخيرة لاسبوع واحد فقط » . (٧٣/١/٢٧) .

وكتب صحافي ايطالي آخر ، دينو بير سكوبالدي ، في صحيفة « كوريراه دي لا سيرا » (٧٢/٢/٢٣) : « تعترف مصادر عسكرية مصرية صراحة ان مصر تعاني من نقص في البنزين وقطع الغيار . وهناك طيار واحد فقط لكل طائرتين . وتجثم الطائرات الحديثة الاسرع من الصوت، كاحجار لا يوجد من يقلبها . وقد تحطمت، في الشهور الخمسة الاخيرة، ٣٠ طائرة اسرع من الصوت في التدريبات » .

ووصلت ايضاً انباء من « مصادر اخرى » ، وكأن القصد تدعيم كل هذه الصورة المشوهة المحرفة لما يجري في الجيش المصري .

كتب مراسل « الفيغارو » لاتيري دجار دان من باريس (٧٣/٢/٨) : « تجتاح مصر الفضائح والمرارة والاحباط . ويمضي ضباط الوحدات المعسكرة على قناة السويس يومين من الاسبوع فقط في الجبهة وبقية الوقت في التسلية في القاهرة ، بتصاريح اجازة مزيفة . وقد حضرت مراسيم جنازة لواء مصري ، شارك فيها عشرات من ضباط الجيش الكبار . كانوا يسيرون دون اتساق ، وينتعل الكثير منهم احذية التدريب ... وقد قال لي ملحق عسكري اجنبي : « لم يكن هذا الجيش قط مصاباً اكثر منه الآن . فلم يعد لديه عبد الناصر ، ولا مستشارون سوفيات ، ولم تعد فيه روح » .

وقد سخرت هذه الانباء والاوصاف ، التي ظهرت في الصحف الاجنبية ، بصورة خاصة من قيمة شبكة الرادار وفعالية بطاريات الصواريخ المصرية التي كانت بالذات بمثابة مصيدة مميتة للطائرات الاسرائيلية في حرب يوم الغفران . وقد ذكرت الانباء ان المصريين غير مدربين على صيانة منشآت كهذه ، ولذلك فهي تقف مشلولة ، بسبب ذهاب المستشارين السوفيات .

كتب جيم هوغلاند من القاهرة ، في « واشنطن بوست» ، (٧٣/٣،٢٦) : « بحسب ادعاء احد الخبراء ، كان نظام الدفاع الجوي المصري، في الفترة بين ابعاد الخبراء السوفيات في تموز (يوليو) وبداية الشتاء، مكشوفاً لهجوم اسرائيلي . ومن خلال فشل شبكة الرادار المصري في كشف طائرة الركاب الليبية ، عندما حلقت فوق منطقة عسكرية مغلقة في الجانب المصري من القناة قبل تسللها الى سيناء ، ظهر انه ما زالت هناك نقاط ضعف كثيرة في نظام الدفاعات الجوية المصرية ، على الرغم من عودة عدة مئات من الخبراء السوفيات الى مصر في الشهور الستة الاخيرة ، واعادتهم لجزء مهم من تجهيزات الرادار ووحدات الصواريخ المتحركة ، التي اخذوها معهم عندما غادروا » .

واضاف هوغلاند « علم في القاهرة انه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ ، اقتربت طائرتان نفاثتان اسرائيليتان الى مسافة ٥٠ كلم من القاهرة ، دون ان ينجح المصريون في اطلاق صواريخ باتجاهها . وقد اطلق اخيراً صاروخ واحد بعد ان استدارت الطائرتان الاسرائيليتان وعادتا الى الجانب الشرقي من قناة السويس ... ومنذ ان ترك السوفيات مصر، لم تجر مناورات فرق اساسية ، واصبحت صيانة العتاد في الجيش اسوأ مما كانت ... ويوضح ضعف جهاز الجيش المصري المستمر ان تجدد الحرب سيكون بمثابة انتحار اكثر مما كان في الماضي » .

وفي نيسان (ابريل) ١٩٧٣ نقلت المجلة الاسبوعية الباريسية « الاكسبرس » البشرى

التالية : « تختبر اسرائيل نظام الدفاع المصري دون انقطاع . والنتائج التي توصل اليها الخبراء العسكريون هي ان مصر تشبه كيساً فارغاً . فاجهزة الرادار فيها شبه عمياء وردود فعلها بطيئة جداً » . هكذا ، لا اكثر ولا اقل .

وكتبت « افييشن ويك » ، مجلة الطيران الاسبوعية الاميركية، بالروحية نفسها : « اغلقت كل قواعد الصواريخ في مصر كنتيجة مباشرة لطرد المستشارين العسكريين السوفيات ، وبسبب عدم توفر الخبرة الفنية الضرورية لاستمرار هذا النظام » .

وجاءت البشارة الاخيرة من هذا الطراز عشية الحرب ، ايضاً من القاهرة ، في مقابلة نشرتها « لوموند » (٧٣/٩/٢) بقلم مراسلها في القاهرة، رولان دلكور ، وهذا نصها : « ان عدداً كبيراً من ال ٥٠٠ الى ٦٠٠ الف جندي مصري ، المعسكرين في جبهة قناة السويس ، ليسوا جنوداً مقاتلين ولا تتوفر فيهم القدرة على القتال ، وانما على القيام بخدمات خرقاء مختلفة ... ولا يستطيع الجنود الشباب ، الذين جندوا مؤخراً في مصر ، السيطرة على العتاد السوفياتي » .

ان اسلوب تسريب الاخبار المزيفة الى الصحف ، في اطار ما يسمى بـ « الحرب النفسية » في لغة الاستخبارات المهنية ، مألوف ومعروف في دول العالم الاكثر تطوراً ، ويتطلب تطبيقه إحكاماً كبيراً واستعانة بادوات متنوعة .

وكثيراً ما يجهل الصحافيون ان المادة المسربة اليهم من « خبراء » او « مصادر سرية » هي مادة ملفقة وهادفة . وهكذا يتحول الكثيرون منهم ، دون ان يدروا ، الى ادواتٍ تساعد في خلق جو من الذعر او الاستكانة لدى العدو ، بحسب المطلوب .

وتعتبر اجهزة الاستخبارات السوفياتية من اهم الاجهزة المتخصصة في هذا الاسلوب ، وربما اهمها على الاطلاق . ويطلق السوفيات على نظرية الحرب هذه اسم « الاعلام المضلل » — اي تشويه المعلومات بقصد التضليل . وفي منشورات تصدر في الغرب جاء اكثر من مرة ان جهاز المخابرات السوفياتي والاستخبارات العسكرية السوفياتية يضمان اقساماً خاصة الغاية منها استخدام هذا السلاح للايقاع بين الدول ، او تحطيم الروح المعنوية ، ونشر الشعور بالاحباط ، او التضليل . ويمكن الافتراض ان السوفيات علّموا المصريين والسوريين مبادىء هذه النظرية .

وقد اعترف احمد اسماعيل علي ، وزير الحربية المصري ، بنفسه انه مطلع على هذه النظرية اطلاعاً جيداً ، بقوله لحسنين هيكل : « انك تذكر بالتأكيد اننا سربنا انباء مقصودة ، لكي نصرف الانتباه عن نوايانا . فقد نشرنا مثلاً ان وزير دفاع رومانيا سيحضر لزيارتي في ٨ تشرين الاول (اكتوبر) . وطلبنا من « الاهرام » ان تنشر خبراً مختلقاً عن سفر ضباطٍ وجنودٍ مصريين الى مكة وفقاً لبرنامج معد سلفاً » . ان الوزير

المصري يؤكد في اقواله هذه ان مصر عرفت كيف تستخدم التسريب المقصود الى الصحافة المصرية والعالمية لتمويه نواياها بشأن الحرب ضد اسرائيل ، والموعد الدقيق المحدد لشنها .

هذا لا يعني ان كتابات الصحف كانت كلها مشوهة . ومن المحتمل جداً ان عدداً منها كان صحيحاً تماماً . فمستوى الجيش المصري في مجالات عديدة كان متدنياً جداً ، ولم يكن الامر سراً . انما خطة التضليل والتمويه ، واخيراً كانت المفاجأة المطلقة ، التي عمل المصريون والسوريون بموجبها ، بالتأكيد شرطاً اولياً وحيوياً لضمان استطاعة جيشين عاديين جداً ، كالجيشين المصري والسوري ، تحقيق انجاز ما ضد الجيش الاسرائيلي .

ان اشخاصاً ساذجين فقط يمكن ان يصدقوا انه بالامكان ايقاع جهاز استخبارات متطور وفعال ، كالجهاز المتوفر لاسرائيل ، في المصيدة بواسطة اخبارٍ كاذبة منشورة في الصحافة . ولكن ليس سراً ان اجهزة التجسس تجمع المعلومات التي تنشرها وسائل الاعلام ، وخصوصاً المعلومات العسكرية ، وتضيفها الى المعلومات المستقاة من وسائل اخرى . ان معلومات الاستخبارات كالفسيفساء ، تفصيل هنا وتفصيل هناك ، حتى التفاصيل التي تبدو ظاهرياً عديمة القيمة ، تجمع بدقة متناهية ، لتشكيل صورة كاملة من المعلومات . واذا ظهر تناقض بين المعلومات العلنية — المنشورة في وسائل الاعلام — وبين المعلومات الواردة من مصادر اخرى ، فان ذلك يستدعي اجراء المزيد من التدقيق ، والمقابلة ، والتحقق من مدى صحة المصادر . ولكن حتى لو اتضح ان المعلومات العلنية كاذبة او مضللة ، والمعلومات السرية اكثر ثقة ، يجب عدم الاستهانة بالتأثير المتراكم لاسلوب « تشويه المعلومات بقصد التضليل » .

فالمثابرة على استخدام هذا الاسلوب لفترة طويلة ، تخلق ترسبات لا واعية تشارك في تقدير الوضع على اساس المعطيات الاستخبارية ، وهذا نمط من « غسل الدماغ » يجب ان يعيه كل جهاز استخبارات يستحق التسمية، وان يجد الطرق الملائمة للتغلب عليه . ان اسلوب التفحص المكرر والموازي هو أحد الاساليب المتبعة في العالم للافلات من مصيدة الحمقى . فالى جانب كل فريق من المفكرين يقام فريق آخر موازٍ له ، مهمته تقويم المعطيات ذاتها ، واستخلاص نتائج منها ، بصورة مستقلة عن الفريق الاول . والقصد من اتباع هذا الاسلوب هو الحيلولة دون الوقوع في العثرات والاخطاء .

اما في اسرائيل ، فليس هناك أية مؤسسات او وسائل من هذا النوع ، وذلك بسبب التركيز المبالغ فيه على المعلومات الامنية المتوفرة لدى عدد من القادة ، واعتداد القيادة العليا بثقتها بنفسها ، وجو السرية والتكتم المتطرف .

ومن المعقول الافتراض ان السادات ، لمعرفته بنقاط الضعف في جيشه ، والسوريين

لمعرفتهم بطبيعة الجيش السوري الحقيقية ، وعلى الاخص السوفيات ، بذلوا جهوداً قصوى لتضليل اسرائيل وتخديرها ، ليضمنوا نجاحهم في عبور القناة في الجنوب ، واحتلال هضبة الجولان في الشمال ، على الرغم من الفوارق النوعية .

وعند الحديث عن هذه الفوارق النوعية لا بد من تذكر صورة الجيش الاسرائيلي، لا كما بدت للمصريين والسوريين فحسب ، بل كما بـدت للسوفيات ايضاً . فقد كان الجيش الاسرائيلي في نظرهم ، قبل حرب يوم الغفران ، جيشاً مفاجئاً وصاعقاً ، ولا يقهر . جيش حرب الايام الستة وغارات الكوماندو الجريئة . وكان الصحافيون الاجانب يكتبون من القاهرة ان اسطورة الجيش الاسرائيلي اعمق في ذهن المواطن المصري العادي مما هي في ذهن الاسرائيليين انفسهم .

والحقيقة هي ان السادات صرح بأنه مستعد للتضحية « بمليون جندي » من اجل ضمان الانتصار في سيناء . واعترف احمد اسماعيل علي ، وزير الحربية المصري ، بعد الحرب ان الجيش المصري سيخسر في عملية العبور ، بحسب تقديره ، من ٢٥ الى ٣٠ الف جندي . وهذا يعني انه كانت هناك تخوفات كبيرة من الحرب في اوساط هيئة الاركان المصرية ، وذلك في ضوء تقويم الجيش الاسرائيلي ، وفي الوقت ذاته وعي نقاط ضعف الجيش المصري . ولذلك قدر المصريون ان فرص نجاح عمليتهم ، ان كان لها ان تنجح اصلاً ، رهن بمقدار نجاحهم في استغلال عنصر المفاجأة . ولم يكونوا مدركين بعد لعيوب القيادة العامة الاسرائيلية والاستخبارات والحكومة .

وقد امكن معرفة مدى خوف المصريين الكبير من الجيش الاسرائيلي في ساحة القتال ذاتها ، عن طريق الاسرى المصريين ، فقد قال الكثيرون منهم انهم لم يحلموا ابداً في ان تتم عملية العبور بهذه السهولة الكبيرة . وكلما اكثر المرء من الاستماع الى كلامهم ، ازداد قناعة ان التقصير الاسرائيلي ، الذي ادى الى الوقوع في مصيدة التضليل ، ساهم في نجاح المصريين اكثر من السلاح الحديث والتدريبات المتقدمة .

وتخلق خطط الهجوم المصرية الانطباع بان المصريين كانوا ، عشية الحرب ، غير واثقين من انفسهم ، ومتخوفين من الجيش الاسرائيلي الى حد انه ، حتى في اكثر احلامهم زهواً ، لم يحلموا برؤية انفسهم على الضفة الشرقية ، إلا في رؤوس جسور معدودة وصغيرة . ولم يحلموا مطلقاً بنجاح فرقهم الخمس في عبور القناة بسلام ، وبرؤية انفسهم فجأة واقفين كجدار من الفولاذ من السويس حتى القنطرة — الجيش الثاني كتفاً الى كتف بجانب الجيش الثالث .

ومن اجل تعزيز عنصر المفاجأة ، نشر السوفيات ابتداء من يوم الخميس ، في ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، اي قبل ثلاثة ايام من اندلاع الحرب ، انباءاً توحي بأن

الخبراء السوفيات وعائلاتهم غادروا العاصمة السورية دمشق ، خشية اندلاع الحرب ، وبسبب عدم رغبتهم في مد يد المساعدة لحرب كهذه . وبذلك حقق السوفيات وحلفاؤهم ما ارادوه تماماً : « فسرت » هذه الانباء في القدس ، وفي واشنطن ايضاً ، وكأنها تعني : لن يجرؤ السوريون على شن الحرب ، بسبب تخلي الخبراء السوفيات عنهم ، حيث انهم غير قادرين ، بقواهم الذاتية ، على القيام بحرب تستحق الذكر .

وقد فعلت الخدعة السوفياتية فعلها بصورة سلسة جداً لدرجة ان موشيه دايان ، وزير الدفاع ، فسر بعد ثلاث ساعات من نشوب الحرب ، في الساعة ١٧,٠٠ من بعد ظهر يوم السبت ، الانباء المتعلقة بمغادرة الخبراء السوفيات ، تفسيراً ايجابياً ساذجاً : الخبراء السوفيات ، اي الاتحاد السوفياتي غير معني بهذه الحرب ، وبالتالي فان فرص السوريين تعيسة ، وستكون يد اسرائيل اكثر طلاقة . ولم يخطر ببال دايان مطلقاً ، عندما تفوه بهذه الاقوال ، ان الكارثة في هضبة الجولان كانت في اوجها ، وان نظام الدفاع الاسرائيلي الضعيف كان ينهار ، وان الجيش السوري في طريقه الى احتلال الهضبة بأكملها . تماماً كما حجب التفسير ذاته عن نظره خطر التدخل السوفياتي ، الذي برز عندما حاصر الجيش الاسرائيلي الجيش الثالث .

وهذا يعني ان السوفيات حققوا بخطواتهم خدعة استراتيجية ايضاً في الايام الحاسمة من الحرب ، دون ان يتعمدوا ذلك . فقد عاش موشيه دايان ، وحكومة اسرائيل اجمالاً ، في وهم مبني على تقويم خاطىء للوضع ، وبدا لهم وكأن لديهم متسع كبير من الوقت لادارة الحرب ، وكأن الاتحاد السوفياتي قد تم « تحييده » . ورفضوا ان يصدقوا ان موسكو قدمت للسادات ضماناً بالدفاع عن النظام المصري ، ولم يدركوا ان الوقت المتاح للجيش الاسرائيلي للقيام بعملية غربي القناة هو وقت محدود . وقد تأكد ذلك في ضوء التهديد السوفياتي بالتدخل ، الذي ارغم الرئيس نيكسون على وضع القوات الاميركية في حالة تأهب ، عندما هدد الجيش الاسرائيلي الجيش الثالث بخطر التطويق .

لقد كانت القيادة الاسرائيلية بعيدة جداً عن التقدير الصحيح لامكان التدخل والمشاركة السوفياتية في الحرب ، الى درجة ان نائب رئيسة الحكومة يغئال آلون ، قال لارئيل شارون ، في اثناء زيارته له في غربي السويس ، قبل ٢٤ ساعة من وقف اطلاق النار : « اريك ، لا داعي للاستعجال في احتلال الاسماعيلية . فلديك كل الوقت الذي تحتاجه » .

وعندما عاود جنود الجيش الاسرائيلي احتلال هضبة الجولان وموقع جبل الشيخ ، بدماء غالية وخسائر كبيرة ، تمكنت حكومة اسرائيل من الوقوف على براهين دلت على وقوعها ضحية لعملية التضليل : اكتشفت دلائل في هضبة الجولان ، في القيادات السورية ، على وجود مستشارين سوفيات في الجبهة في اثناء القتال . وروى اسرى سوريون

من موقع جبل الشيخ انه بعد فترة قليلة من احتلالهم للموقع ، حضر فنيون سوفيات وفكوا الاجهزة الالكترونية النادرة التي كانت في هذا المكان .

قال لنا الرقيب أبو العافيه ، من لواء « غولاني » ، وأحد المشاركين في احتلال الموقع : « لقد قيل لنا ان هذه هي عيون دولة اسرائيل » . ولم يدرك كم أصاب الهدف بهذا القول . لقد نجم عن احتلال موقع جبل الشيخ ضرر كبير لاسرائيل ، لا سابق له ، ولا يمكن لرجل الشارع العادي ان يتصور ابعاده .

ويمكن الآن ، في ضوء ذلك كله ، ان يتذكر المرء بشيء من السخرية ، ابراز وسائل الاعلام الاسرائيلية للانباء السوفياتية ـ السورية الموجهة التي نشرت خلال شهر ايلول (سبتمبر) . فقد تحدثت صحف بيروت ، المعروفة ، منذ فترة طويلة ، كأدوات فعالة لاجهزة التجسس الغربية والشرقية على حد سواء ، عن « تأزم العلاقات بين سورية والاتحاد السوفياتي » ، وعن « مغادرة المستشارين السوفيات » نتيجة هذا « التأزم » . ووجد هناك من ربط بين هذا التأزم وبين « الفشل السوري في المعركة الجوية الكبرى » ، التي دارت في ذلك الشهر بالذات ، حيث اسقطت ١٣ طائرة « ميغ » .

لقد تسببت النشوة الاسرائيلية الناجمة عن إسقاط طائرات الميغ ـ وهو انجاز عسكري بحد ذاته ـ في جعل هيئة الاركان العامة وحكومة اسرائيل مهيأتان لتهضما بسهولة اكثر الانباء المنشورة عن تصدع ظاهري بين دمشق وموسكو ، تماماً مثلما ابتهج قبل سنة المعلقون الاسرائيليون ، الذين يستقون « معلوماتهم » من مصادر رسمية للتصدع في العلاقات بين مصر والاتحاد السوفياتي .

ويمكن القول ان اسقاط طائرات الميغ السورية الثلاث عشرة ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، مثل اسقاط طائرات الميغ السورية في نيسان (ابريل) ١٩٦٧ ، قرّب موعد الحرب المخطط لها ، بينما كان وزراء اسرائيل يواصلون الادلاء بتصريحاتهم المطمئنة في مختلف البرامج الاذاعية ـ تلك البرامج التي استغلت ، وما زالت تستغل من قبل زعماء السلطة الحاكمة في اسرائيل ، لاجراء عمليات غسل دماغ .

ولم يتضح الا بعد الحرب ان قائد وحدات الصواريخ المضادة للطائرات في الاتحاد السوفياتي ، ليوتنانت جنرال فيودور بوندرنكو (٥٤ سنة) ، الذي قتل يوم السبت ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ، قد قتل في الاراضي السورية . وهذا يعني انه بينما كان الاعتقاد السائد في اسرائيل ان الروس يغادرون دمشق ، كان الاتحاد السوفياتي يرسل اليها رئيس خبراء الصواريخ لكي يشرف على ادارة حرب الصواريخ ضد الطائرات الاسرائيلية .

من الصعب معرفة مدى صحة الخبر الذي يقول ان فكرة مهاجمة اسرائيل في يوم الغفران نفسه ، لم تكن مصرية وانما سوفياتية . والشيء الاكيد هو ان الخبراء

الاسرائيليين ، من جملة تقديراتهم الخاطئة ، لم يعتقدوا ان العرب يمكن ان يبدأوا الحرب في بداية شهر تشرين الاول (اكتوبر) ، في بداية شهر رمضان باعتباره مناسبة دينية لهم . وعلى اية حال ، كانت المجلة الاسبوعية الفرنسية « نوفيل اوبزرفاتور » هي التي ذكرت ان رئيس البعثة العسكرية السوفياتية السابق في مصر ، الجنرال فاسيل فاسيلفتش اوكوينيف ، هو الذي حدد يوم الغفران « كيوم ملائم » لمفاجأة اسرائيل . شرحت الصحيفة : « قرأ الجنرال الروسي ان الاذاعة الاسرائيلية تتوقف عن البث في يوم الغفران ، ومن هنا تولدت الفكرة » .

وحتى لو لم تكن هذه الرواية صحيحة ، فمما لا شك فيه ان السوفيات كانوا وثيقي العلاقة بالسوريين ، ومتداخلين في الجيش السوري ، الى حد انه كان لا بد لهم من معرفة الموعد المجدد للهجوم . وهناك حقيقة انه مع الجسر الجوي السوفياتي المنقطع النظير ، الذي أقيم مع كل من مصر وسورية فور بدء المعارك ، لامدادهما بالصواريخ المضادة للطائرات ، والدبابات بصورة اساسية ، بدأت سفن الشحن السوفياتية المحملة بعتاد مماثل رحلاتها الى موانىء هاتين الدولتين .

وتظهر الحسابات ، اعتماداً على ما نشرته الصحف عن موعد وصول السفن الاولى الى سورية ومصر ، ان هذه السفن لا بد وان تكون غادرت موانىء البحر الاسود ، كميناء اوديسا ، فور بدء المعارك . وهذا معناه ان الروس كانوا قد جهزوها سلفاً بانتظار الحرب . بكلمات أخرى ، لقد نسق الاتحاد السوفياتي الامر سراً مع حليفتيه المحاربتين ، تماماً كما اقام في اواخر ١٩٧١ ، عشية المعارك بين الهند وباكستان وفي اثنائها ، جسراً جوياً لنقل السلاح الى الهند بواسطة المطارات المصرية .

وذلك لان هناك هدفاً استراتيجياً معيناً لم يتخل عنه الاتحاد السوفياتي حتى في جو « الهدوء والتفاوض » بينه وبين الولايات المتحدة ، ألا وهو ، وجوب عزل الشرق الاوسط قدر الامكان عن النفوذ الاميركي ، مثلما كان واجباً تحقيق السيطرة على المحيط الهندي ، لضمان أمنه بحسب رأيه ، وعزل اوروبا الغربية عن الولايات المتحدة . ولم يكن من المستغرب ان يلجأ الاتحاد السوفياتي ، في إطار عملية التضليل على المستوى الاستراتيجي العالمي ، الى تخفيف تواجده في البحر الابيض المتوسط ، ابتداء من سنة ١٩٧٣ .

ومع ان الاتحاد السوفياتي احتفظ ابتداء من صيف ١٩٧٢ بالعدد نفسه من السفن الحربية الذي كان له في البحر المتوسط ، الا انه خفض مستوى نوعية السفن بصورة تظاهرية ، فبدلاً من حاملات الصواريخ ، مثلاً ، ارسل الى البحر المتوسط مدمرات من طراز اعتق . ونجح نتيجة ذلك ، في خداع هيئة اركان حلف الاطلسي في بروكسل بشأن نواياه الحقيقية .

ان هيئة الاركان العامة هذه ، التي تتسم بنقص مذهل في الكفاءة ، والمسؤولة عن الدفاع عن اوروبا الغربية وحماية بوابة البحر الابيض المتوسط في مواجهة السوفيات ، نشرت بتاريخ ١٩٧٣/١٢/٢٨ تقريراً عن وضع الاسطول السوفياتي في البحر المتوسط ، وزعته كافة وكالات الانباء ، وجاء فيه :

« يذكر تقرير استخباري سنوي لحلف الاطلسي ، مقدم الى هيئة الاركان في بروكسل ، ان نشاط سلاح البحرية السوفياتي في البحر المتوسط ، انخفض قليلاً . فمقابل ٥٠ سفينة كانت متواجدة في اشهر الشتاء خلال السنوات الماضية كلها ، يبلغ عدد سفن الاسطول الآن ٤٠ سفينة فقط » . ويشدد التقرير على انه في فترة الاوج – قبل سنتين او ثلاثة – حشد الاتحاد السوفياتي في البحر المتوسط سفناً بلغ عددها ٨٠ سفينة . وكانت تلك هي الفترة التي سبقت وقف اطلاق النار بين اسرائيل ومصر ، وفترة الازمة بسبب مالطا .

« ولكن في نهاية سنة ١٩٧٢ لم يكن عدد السفن السوفياتية يتجاوز الـ ٥٠ سفينة . ويجب عدم اعتبار التخفيض القليل في عدد السفن علامة على تغيير جوهري في هدف موسكو بالاحتفاظ باسطول متنام في البحر المتوسط ، لا يقوم على حاملات هيلوكبتر فقط ، وانما ايضاً على حاملات طائرات » .

وعلى الرغم من التحذير المتعلق بالهدف السوفياتي الجوهري ، الوارد في نهاية التقرير ، فان التشديد فيه كان على الحقيقة المباشرة ، وهي ان « سلاح البحرية السوفياتية خفف نشاطاته في البحر المتوسط» . وقد تمكن السوفيات بهذه الوسيلة ، في إطار عملية التخدير العامة ، من تحقيق هدفهم في زيادة اطمئنان اسرائيل واوروبا الغربية في آن واحد ، مع انه كان واضحاً انه مثلما عادت السفن السوفياتية الى البحر الاسود ، فهي قادرة على العودة ثانية من هناك ، الى البحر المتوسط . وفعلاً كان عدد السفن السوفياتية الموجودة في البحر المتوسط ، في اثناء فترة حرب يوم الغفران ، لا يقل عن ٩٠ سفينة .

لقد وقعت الحرب النفسية السوفياتية العربية ، التي اشتملت على « المعلومات المضللة » ، على آذان صاغية وارض خصبة في اسرائيل . اذ كانت « تكمل » وتلائم تماماً ، كغطاء الطنجرة ، الاحساس بالاطمئنان لدى القيادة الاسرائيلية ، وعن طريقها ، لدى الشعب في اسرائيل . وكانت هذه الامور هي بعينها الامور التي تاقت القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل الى سماعها . وجاءت الاخبار الكاذبة كإضافة وسند لتصريحات غولدا مئير ، وموشيه دايان ، وآبا ايبن ، ورؤساء الاركان على اختلاف انواعهم ، وكل الآخرين الذين قالوا بامكان العيش هكذا سنوات طويلة في وضعية « اللاسلم واللاحرب » – وبذلك انقادت الى حالة غفلة كاملة في يوم الغفران .

لقد تحولت وسائل الاعلام الاسرائيلية الى مكبرات صوت قوية لتلك الاخبار التي سُربت الى عقول مواطني الدولة ليل نهار ، مع « الشروحات » الملائمة . وهكذا استطاع وزير الدفاع موشيه دايان ان يتفاخر في اجتماع للعاملين في وزارته ، قبل اسابيع معدودة من الحرب : « لا اتوقع حرباً في السنوات العشر القادمة . ولكن اذا نشبت قبل ذلك ، سأعود واشرح لكم لماذا نشبت ... » وابتسم جميع الحاضرين لسماع دعابات وزير الدفاع .

وبالنسبة الى شبكات الصواريخ المضادة للطائرات ، التي أُقيمت وطورت في كل من مصر وسورية ، تمسكوا ، يا للمصيبة ، بالروايات عن « الشلل » الذي أصابها و « انعدام فاعليتها » . ومن منا لم يسمع خبراء جويين اسرائيليين جادين يجيبون كل من وجه اليهم سؤالاً بهذا الخصوص : « سنصفيها بسرعة ... هناك حقاً عدة مشاكل ... ولكن سنتغلب عليها ... كفوا عن الانفعال من هذه الصواريخ ... » .

وفي هذه الاثناء ، عكف السوفيات ، ابتداء من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ ، على اقامة شبكة صواريخ هائلة في هضبة الجولان وحتى مشارف دمشق ، قائمة على صواريخ « سام – ٢ » و « سام – ٣ » ، وبصورة اساسية « سام – ٦ » . وكانت هذه الشبكة التي اكتملت في شهري آب – ايلول (اغسطس – سبتمبر) تقريباً ، مساوية في قوتها لشبكة الصواريخ التي اقامها السوفيات في غربي القناة في تموز (يوليو) ١٩٧٠ ، وتتماثل مع الشبكة المستخدمة في حماية المنشآت الاكثر اهمية داخل الاتحاد السوفياتي . وكانت تفوق في كثافتها شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التي أُقيمت في فيتنام لمواجهة سلاح الجو الاميركي .

ولم توقظ اقامة شبكة الصواريخ هذه حكومة اسرائيل من سدرتها . على الرغم من اتمام انشائها بسرعة قياسية ، ابتداء من مطلع السنة ، وذلك بعد ان قصفت طائرات الفانتوم العمق السوري في خريف وشتاء سنة ١٩٧٢ ، كرد فعل غير متناسب مع نشاطات الفدائيين الفلسطينيين . ان هذه الصواريخ ، التي عرضت للخطر قبل شهرين حرية النشاط الجوي حول طبريا وروش بينا – وهذه حقيقة أخفيت كغيرها عن الجمهور بحجة « اسباب امنية » كاذبة – ، لم تشعل الضوء الاحمر امام ابصار وزراء اسرائيل واعضاء « مطبخ غولدا الامني » .

ليس القصد من التشديد على دور السوفيات ، في التضليل والاستعدادات الاخرى للحرب ، الانتقاص من قدرة المصريين والسوريين ، او التقليل من مسؤولية الزعماء والقادة الاسرائيليين الذين وقعوا في مصيدة التضليل . فقد كان هؤلاء يدركون بوضوح ان اسرائيل تواجه في المنطقة الاتحاد السوفياتي ، وهذه حقيقة لفتوا النظر اليها هم انفسهم اكثر من مرة .

لقد كان في حوزة اسرائيل معلومات تدل على ان الاتحاد السوفياتي بدأ ، منذ مستهل شتاء ١٩٦٨ ، بنشاط كبير للتهيئة لحرب ضد اسرائيل ، الى حد مشاركة سوفياتية فعالة في الحرب . ويكفي هنا تفحص تصريحات قادة ووزراء اسرائيليين في تلك الفترة التي تشمل الشهور السابقة لحرب الاستنزاف . لقد ادركت حكومة اسرائيل بوضوح نوايا السوفيات في انزال قوات سوفياتية في منطقة القناة واعماق سيناء ، اذا دعت الحاجة الى ذلك . وتحدث الوزراء علناً عن هذا الامكان ، وحللوا مختلف جوانبه . واذا نسوا ذلك لفترة قصيرة ، فقد كان من المفروض ان يعيد طيران طائرات التجسس السوفياتية ميغ ٢٣ ، في سنتي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، تذكيرهم بذلك . بيد ان رد الفعل، حتى تجاه طيران هذه الطائرات فوق مناطق تحت سيطرة اسرائيل ، كان محدوداً ومضحكاً . صرح القادة الاسرائيليون ان « اسقاط طائرات ميغ ٢٣ ، ليس مشكلة » ، وبذلك تعاموا عما يختفي وراء طيران هذه الطائرات ، الذي ظهر في اثناء فترة ازمة يوم الغفران .

يستطيع المرء ان يجد في كل صحيفة اميركية تقريباً مادة عن اقمار التجسس الصناعية السوفياتية « كوزموس » ، التي تتجسس على الكرة الارضية بشكل دائم ، والتي تمر في سماء الشرق الاوسط واسرائيل عشرات المرات في اليوم احياناً . ان هذه الاقمار ليست متطورة كالاقمار الاميركية ، ولا تبث صورها مباشرة الى شاشة التلفزيون، وهي مضطرة الى الهبوط لاستخراج افلام التصوير من كاميراتها . ولكنها كافية لتزويد مصر وسورية سراً ، بتواضع ودون ضجيج ، بالمعلومات التي تثبت ان اسرائيل كانت غافية تماماً عشية يوم الغفران — اي انه ليس هناك تحشدات جدية للقوات الاسرائيلية في صحراء سيناء وهضبة الجولان . ويمكن الافتراض ان السوفيات قاموا بذلك فعلاً .

لقد روى الدكتور هنري كيسنجر ، عندما زار اسرائيل في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، للسفير الاميركي ان « الروس عرفوا قبل السادات ، في اثناء الحرب ، ان وضع مصر العسكري قد تحول واصبح صعباً . وبينما كان السادات واثقاً ان القوة الاسرائيلية التي عبرت القناة كانت صغيرة اظهرت صور الاقمار السوفياتية العكس » . ولذلك ، بحسب قول كيسنجر ، « بكّر السوفيات بطلب وقف اطلاق النار قبل ان يطلب السادات ذلك ، ضد ارادته ومستثيرين غضبه » .

وقد فعلت الخدعة السوفياتية فعلها ايضاً في المستوى السياسي . وهناك في ملفات وزير الخارجية آبا ايبن في القدس فيض من البرقيات الواردة من سفراء اسرائيليين في الدول الافريقية (قبل ان تقطع هذه علاقاتها مع اسرائيل) ، ومن اوروبا واماكن اخرى ، تحمل انباء وردية — على ورق وردي اللون ، كثيراً ما يستعمل في وزارة الخارجية لارسال البرقيات السرية . وقد اخطر الدبلوماسيون الاسرائيليون وزير الخارجية في برقياتهم السرية هذه ، انهم تحدثوا مع هذا المستشار السوفياتي ، او ذاك السكرتير الاول ، في حفلة

كوكتيل ، وعلموا من خلال الحديث ان « رغبة الاتحاد السوفياتي في تجديد علاقاته مع اسرائيل قوية » . ورافقت هذه المعلومات شروحات مفادها ان على اسرائيل ان توافق، قبل كل شيء ، على حل سياسي وانسحاب كامل وفقاً لقرار مجلس الامن ٢٤٢ . وقد تجاهل المسؤولون في القدس الشروحات ، ولكنهم نشروا بسرور في العالم اخباراً منسوبة الى « مصادر مكتومة » تنم في ظاهرها عن ان الاتحاد السوفياتي يجس النبض لتجديد العلاقات مع اسرائيل . ولم تحجب هذه الاخبار المنشورة ، النوايا السوفياتية تجاه الشرق الاوسط عن اعين العالم فحسب ، وانما كانت ايضاً بمثابة مخدر ذاتي لغولدا مئير وآبا ايبن ، خدرا بواسطته ايضاً مواطني الدولة جميعاً . وقد اكتملت الخدعة التكتيكية « بتحركات مضللة » للقوات المصرية ، تمت حرفياً تحت انف الجيش الاسرائيلي ، في الايام الاولى من شهر تشرين الاول (اكتوبر) . ففي سنة ١٩٧١ ، التي دعاها الرئيس السادات « سنة الحسم » ، بدأت مناورات العبور المصرية الكبيرة ، التي اشتملت على تحريك فرقة مدرعة بمساندة سلاح الجو وبتغطية من الصواريخ . وكانت وقتها حواس القيادة الاسرائيلية ما زالت متنبهة ، وما زالت محفورة في ذاكرتها اضواء حرب الاستنزاف التي قتل فيها نحو ٤٠٠ اسرائيلي ، وجرح اكثر من ألف . ولذلك تخوف المسؤولون في القدس ، عندما سافر السادات سراً الى موسكو في نهاية ربيع ١٩٧١ ، من ان يكون قد عاد منها بوعد واضح بضمان سوفياتي لحماية نظامه ، في حال نشوب حرب ، وتهديد الجيش الاسرائيلي للقاهرة .

وفعلاً ، بعد ذلك مباشرة ، ألغى السادات من جانب واحد اتفاق وقف اطلاق النار الذي تم التوصل اليه نتيجة المبادرة الاميركية في آب (اغسطس) ١٩٧٠ ، ووقع في الوقت نفسه تقريباً على معاهدة دفاع مع الاتحاد السوفياتي .

وكان من نتيجة تخوف الحكومة الاسرائيلية من تجدد القتال ، ان ابدى موشيه دايان ، وزير الدفاع ، استعداداً لتقديم تنازل كبير لمصر في اطار « حل مرحلي » . وقد حدث ذلك في اثناء زيارة وليم روجرز وزير الخارجية الاميركي ، لاسرائيل . قام دايان بجولة في سيناء مع مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الاوسط ، جوزيف سيسكو ، وألمح له ان اسرائيل ستوافق في اطار « حل مرحلي » على الانسحاب حتى ممر المتلا .

وكان بامكان السادات ، في جو كهذا يتخلله امل بانسحاب اسرائيلي اولي بمساعدة الولايات المتحدة ، الامتناع من الاقدام على مغامرة عسكرية . ولم يعد السادات الى طريق الحرب الا بعد ان اصابه اليأس من واشنطن .

ومع اقتراب شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١ ، ازداد التوتر العسكري في المنطقة . استكمل السادات استعداداته للحرب ، وتلقت مصر قاذفات قنابل من طراز «تو — ١٦»

مزودة بصواريخ «كيلط» جو – ارض القادرة على إلحاق اضرار كبيرة بالاهداف الارضية، وبصورة خاصة في المناطق المزدحمة بالسكان. ووصل التوتر الى درجة عالية حملت الجنرال حاييم بار – ليف، رئيس الاركان العامة في تلك الفترة، الذي لم يكن مبتهجاً لترك الجيش وتسنم منصب وزير في الحكومة قبل الانتخابات بسنتين ونصف، على الاعتقاد انه في ضوء الوضع سيتأجل موعد تركه للجيش. وكان رأي موشيه دايان ايضاً وقتها انه من غير المستبعد ان تكون الحرب على الابواب. واتخذ الجيش الاسرائيلي كل الاستعدادات الاساسية لمواجهة الحرب الممكنة. ووضع في حالة تأهب قصوى. بيد ان الحرب لم تنشب، وربما كان ذلك بسبب خوف المصريين من تأهب الجيش الاسرائيلي.

لقد حمّل السادات السوفيات تبعة تأجيل الحرب في خطاب علني، شرح فيه لشعبه انه اراد فعلاً شن الحرب، ولكن الاتحاد السوفياتي احجم عن مساعدته مساعدة كافية، واعترض حتى على شنها بسبب الحرب بين الهند وباكستان.

وسنتذكر نهاية شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١، كفترة التوتر الاخيرة على جبهة القناة. اذ بعد ذلك استدار التأهب الاسرائيلي واغفى – حتى وصل الى وضعية اغفاء مطلق في يوم الغفران.

بعد تلك الفترة بدأ السادات باتباع اسلوب «المناورات الكبيرة» لادخال السكينة في روع الاسرائيليين. فأجرى المصريون، خلال سنة ١٩٧٢، سلسلة من مناورات العبور، نفذوها حرفياً تحت انف الاسرائيليين. هيأوا مدارج عبور، واقاموا جسوراً امام كاميرات التلفزيون الاسرائيلية. وعرض التلفزيون الاسرائيلي مشاهد المناورات على المتفرجين.

واجرى المصريون في سنة ١٩٧٢، مرة واحدة على الأقل، مناورة ضخمة قرب القناة شملت العبور بكل التفاصيل، على مرأى جنود الجيش الاسرائيلي في تحصيناتهم شرقي القناة. وقد حظيت هذه المناورة بمساحات واسعة في صحف القاهرة، وحظيت بملاحظات ساخرة من قبل الخبراء العسكريين في القدس، وتل أبيب، على الرغم من اعلان حالة التأهب في الجانب الاسرائيلي بمناسبة اجرائها.

والامر المذهل، بنظرة الى الخلف، هو ان المصريين نفذوا عملياً في ٦ تشرين الاول (اكتوبر)، وبدقة متناهية، عبور القناة، تماماً مثلما تدربوا عليه امام بعض الاسرائيليين. ولم يبدلوا اي شيء في اساليبهم او «بروفتهم»، كما تظهر في الفيلم الذي ظهر على شاشة تلفزيون القدس.

عاد المصريون، مع اقتراب شهر ايار (مايو) ١٩٧٣، الى اجراء «مناورات كبرى».

ومع اقتراب ذكرى يوم الاستقلال ازداد التوتر في الجبهتين المصرية والسورية. وبدأت الصحف الاسرائيلية تتحدث عن احتمال هجوم مصري بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال اسرائيل. ويبدو ان التأهب العالي في الجيش الاسرائيلي في ذلك الوقت ردع المصريين عن القيام بهجوم. وعلى اية حال، عندما رد دافيد («دادو») ألعازار، رئيس الاركان، وموشيه دايان، وزير الدفاع، على الانتقادات الموجهة اليهما، بسبب تبديد الاموال على تنظيم العرض الضخم والتظاهري في القدس، شرحا ان عرض قوة الجيش في يوم الاستقلال يستهدف ايضاً ردع العرب عن مهاجمة اسرائيل، باظهار قوتها.

ونجح السادات، في اطار عملية التضليل، عندما لوحظت مرة اخرى تحركات للجيش المصري في نهاية ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣، في اقناع اسرائيل ان القصد هو اجراء مناورة فقط – وكان ذلك عندما تحركت الفرق المصرية الخمس التي كانت على الخط الاول لاجراء مناورة اخرى في سلسلة «المناورات الكبيرة».

وقد خلق المصريون الانطباع، بواسطة انباء علنية للنشر، بأن المناورة التي دعيت باسم «صلاح الدين، القائد العربي الذي هزم الصليبيين» لا تعدو كونها مجرد مناورة عبور اخرى.

وهكذا لم يوضع الجيش الاسرائيلي، للمرة الاولى، في حالة تأهب عالية لمواجهة مناورة بهذه الضخامة. ويمكن الافتراض انه لو استعد هذه المرة ايضاً كما ينبغي، لكان من المحتمل تأجيل موعد الحرب مرة اخرى، او ربما امكن تجنب وقوع مئات عديدة من الضحايا، سقطت بسبب فقدان الاستعداد الملائم، وضرورة اعادة احتلال اهداف سقطت بيد المصريين والسوريين كثمرة ناضجة.

ويجدر بنا، لاستكمال صورة الخدعة الروسية العربية، ان نقتبس جانباً من المقابلة الصحافية التي أُجريت مع وزير الحربية المصري الذي وخط الشيب شعره، ومع رئيس اركانه، في منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وكشف فيها جزءاً كبيراً من الحقيقة، رغم «الترميمات» التي أُجريت للواقع هنا وهناك.

قال وزير الحربية، اللواء احمد اسماعيل علي: ««كانت مفاجأة العدو كاملة. وقد دلت تصرفاته بعد عبور القوات المصرية للقناة، والمخابرات اللاسلكية التي التقطت لمحادثات المدافعين عن خط بار – ليف مع قيادتهم في عمق سيناء، على ارتباك كبير».

وكشف اسماعيل، في صدد تعداده للعوامل التي ساعدت على حفظ مبدأ السرية والمفاجأة، ان التكتم وصل الى درجة ان الموعد المقرر لبدء القتال لم يكن مطلعاً عليه،

بعد تحديده الاولي ، سوى شخصين فقط : السادات وهو نفسه : « عندما شرعنا في التعبئة ، كنت اعرف ان العدو يراقبنا بصورة دائمة . ولذلك كنت ارسل مثلاً لواء الى الجبهة ، وأعيد في الليل كتيبة ليحسب العدو ان القوات خرجت لاجراء مناورات وانتهت منها . واخرت ارسال عتاد العبور قدر الامكان ، لانه كان واضحاً لي ان اخراج العتاد من المخازن سيلفت نظر العدو الى نوايانا . وقد نقلت اجزاء الجسور المعدة لعبور القناة الى جوار الضفة في اللحظة الاخيرة ، في عتمة الليل ، وهي مغطاة بالبقول . وجرى اخفاؤها فوراً في اماكن معدة سلفاً .

« ومقابل ذلك ، حتى لا تثور شكوك الاسرائيليين ، وكي نسوقهم الى الاعتقاد ان القصد هو القيام بمناورات عسكرية بسيطة ، تحركت دبابات في وضح النهار باتجاه الجبهة ، ووصل قسم بسيط منها فقط الى نقاط الانطلاق ، بينما بقي معظم الدبابات مموهاً بانتظار ساعة الصفر . وقد سلمت تفاصيل الخطط الى قادة الجيوش قبل ايام معدودة من يوم « العبور » ، وبعد ذلك الى قادة الالوية والكتائب . وحفظ السر بصورة فعالة ، الى حد ان بعض الوحدات الامامية علمت بالامر قبل ٤٨ ساعة فقط من نشوب المعارك . ولم يعرف قسم من الوحدات بالهجوم المرتقب الا في صباح يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) » .

ووصف اسماعيل ايضاً كيف نسق الهجوم المشترك ضد اسرائيل سراً مع سورية . «فيما يتعلق بتحديد ساعة « الصفر » (ساعة بدء الهجوم المنسق) ، نوقش الموضوع بيننا وبين اخواننا في سورية قبل عدة ايام من بدء الحرب . وقد فضل السوريون ان يكون التحرك على ضوء الفجر الاول لتجيء الشمس من خلفهم . وفي عيون العدو . اما نحن ففضلنا التحرك في ضوء المساء الاخير ، لاسباب مختلفة : اتجاه الشمس ، ضرورات العبور ، إقامة الجسور ، فتح الطريق للعتاد الثقيل للدبابات ، في ظلمة الليل .

« وفي ٣٠ ايلول (سبتمبر) ابرقت ، بصفتي القائد العام للجبهتين ، إشارة إنذار للسوريين ان العملية يمكن ان تبدأ في اي وقت ، وان الرمز سيكون « بدر » . وسافرت في ٢ تشرين الاول (اكتوبر) الى سورية ، وناقشت موعد بدء الهجوم . وبعد مناقشة مفصلة صادق الرئيس الاسد على ساعة « ش » ، التي تحدد موعدها الساعة ٢ بعد الظهر . واضافة الى ذلك لم يتوقع العدو ان نتحرك في شهر رمضان ، وكان مشغولاً باحداث مختلفة ، بينها الانتخابات العامة التي استحوذت على اهتمام الجميع » .

وكشف وزير الحربية ، المصري ايضاً لماذا اختار يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) كموعد لبدء الحرب ، مع تعمده ، لاسباب دعاوية واضحة ، اغفال ذكر يوم الغفران ، الذي حل في اليوم نفسه : « كانت المعطيات التي نحن بحاجة اليها لتحديد موعد الهجوم :

١ — ليل مقمر في الساعات الحاسمة .

٢ — ليل تكون فيه سرعة جريان مياه القناة ملائمة للعبور .

٣ — ليل تكون عمليتنا فيه بعيدة عن نقطة استعدادات العدو .

٤ — ليل لا يكون فيه العدو مستعداً للعمل » .

وفي ضوء خطوات الخدعة على المستوى التكتيكي ، كان باستطاعة سعد الدين الشاذلي رئيس الاركان المصري ، قائد القوات الخاصة (الكوماندو) المصرية سابقاً ، الذي نجا بمعجزة سنة ١٩٦٧ عندما دمرت فرقته المدرعة على يد الجنرال اريك شارون في سيناء ، ان يصرح ايضاً لمراسل « الاخبار » : « ارتكب وزير الدفاع موشيه دايان عدة اخطاء في تقدير مدى قدرة القوات المصرية على عبور القناة . افترض ان كل هجوم مصري من هذا النوع مقضي عليه بالفشل سلفاً ، للاسباب التالية : قوة النار الشديدة للقوات الاسرائيلية المتمركزة في خط بار — ليف ، قدرة الاسرائيليين على تغطية مياه قناة السويس باقراص مشتعلة من قذائف النابالم ، الوقت اللازم لاقامة جسور على القناة . وكان تقدير دايان ان المصريين سيكونون بحاجة الى ما يتراوح بين ٢٤ — ٤٨ ساعة من اجل العبور ، وهذا وقت كافٍ لدفع التعزيزات الاسرائيلية الملائمة الى منطقة الهجوم » .

والخلاصة التي يصل اليها الشاذلي : « بنى وزير الدفاع الاسرائيلي اعتباراته هذه دون ان يأخذ بعين الاعتبار عدة عوامل حاسمة . اولاً ، لم يدخل في الحساب حقيقة ان جنود المشاة المصريين كانوا مزودين بصواريخ مضادة للدبابات والطائرات ستمكنهم من الصمود لفترة طويلة دون مساندة المدرعات . كما انه لم يأخذ بعين الاعتبار كفاءة رجال سلاح الهندسة المصري ، الذين نجحوا في إقامة الجسور خلال ٦ الى ٨ ساعات فقط » .

لقد حاول المسؤولون عن الامن في اسرائيل ، بعد ان سقطوا في مصيدة الحمقى بفعل الخداع المصري وخداع الذات ، ان يشرحوا للجمهور انه لم يكن بوسعهم السماح لانفسهم بتعبئة الجيش كلما اجرى المصريون مناورة ضخمة ، بسبب الخشية من الاضرار التي ستلحق بالاقتصاد الاسرائيلي . ماذا كان سيحدث ، على حد زعمهم ، لو استمرت تحشدات القوات المصرية شهوراً عديدة ؟

ليس ثمة نفاق ورياء وكذب اكبر من هذا الادعاء . لو تركنا جانباً الدم الذي لا يقدر بثمن ، فان تعبئة الاحتياطي بصورة كاملة لمدة شهر تكلف الاقتصاد الاسرائيلي اقل مما يكلفه يوم واحد من ايام الحرب . ويظهر حساب اجراه وزير المالية بنحاس سابير للاجابة عن سؤال حول كلفة الحرب مالياً في ايام القتال ، بما في ذلك الاضرار المباشرة وغير المباشرة التي لحقت بالاقتصاد الاسرائيلي ، ان الحرب كلفت حتى ٢٤ تشرين الاول

(اكتوبر) ١٩٧٣ ما مجموعه ٢٢ مليار ليرة اسرائيلية . واضطرت الحكومة نتيجة ذلك الى طبع اوراق مالية في الاسبوع الثالث من شهر تشرين الاول (اكتوبر) بسرعة ، وبكميات لم تعرفها اسرائيل في تاريخها .

لقد كانت الخدعة من جانب العدو كاملة الى حد انه حتى في يوم الغفران نفسه ، عندما صدرت الاوامر العاجلة بالتأهب والتعبئة ، لم يكن غولدا ودايان ورئيس الاركان قد آمنوا بعد بان حرباً شاملة تقترب حقاً ، ولم يقدروا ابعادها بشكل صحيح . ودون ذلك من الصعب شرح تقصيرات القيادة الكثيرة في ذلك اليوم ، والبطء الذي رافق اجراء المناقشات واتخاذ القرارات . والذي يبدو هو ان زعماء اسرائيل كانوا آسفين للتخلي عن اوهامهم .

ويمكن ان نعرف بماذا ارتبط ضياع الاوهام ، فيما يتعلق بوزير الدفاع على الاقل ، من الرواية التالية : بعد ثلاثة ايام من بدء القتال ، اشرك وزير الدفاع اشخاصاً مختلفين في تخوفاته ، وقال لهم : « وهكذا لن نستطيع بعد الآن غمس اقدامنا في مياه القناة ... وسنضطر الى توزيع قواتنا في ممري متلا والجدي ... وستستمر الحرب شهوراً عديدة ... » .

وسأله احد محادثيه : « هل ستستطيع الصمود هكذا لمدة شهور في حرب سيناء ... »

وأجابه دايان بابتسامته المعهودة : « سنصمد ... ولكن لن نأكل ، موس شوكولاد ، في المطاعم » .

وقيل له : « ولكننا شاهدناك اليوم تأكل في مطعم هرئيل في تل أبيب »

مطعم هرئيل المعروف بال« موس شوكولاد » الذي يقدمه .

وزم دايان شفتيه غاضباً .

الفصل الثامن

العجل المذهب

الجنرال اهرون ياريف قصير القامة سريع الحركة ، كان يسير غارقاً في التفكير بالقرب من الخيمة الضخمة التي أُقيمت على الكيلومتر ١٠٥ على طريق القاهرة – السويس. كان ذلك بعد يوم واحد من سريان وقف إطلاق النار في الجبهة الجنوبية ، في يوم ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) . وقد كانت بعض الشاحنات المصرية المحروقة لا تزال مبعثرة على الطريق والدخان يتصاعد من عجلاتها . اما على جانبي الطريق فكانت تطل فوهات المدافع المطلية باللون الاصفر والاخضر ، من خلال مواقع المدافع القوية المضادة للدبابات التي تركها المصريون لدى فرارهم . قبل ذلك بليلة واحدة اجتمع ، اول مرة منذ ٢٥ عاماً ، ضباط اسرائيليون وضباط مصريون لكي يتداولوا فيما يتعين من الترتيبات الحيوية لتثبيت وقف اطلاق النار . والآن ، كان المفروض ان يعقد الاجتماع الاول بين الوفدين العسكريين . لقد وصل الجنرال ياريف ، رئيس الوفد الاسرائيلي، وباقي اعضاء الوفد، الى المكان بطوافة . إلا ان الضباط المصريين لم يصلوا الى المكان في الساعة المحددة .

اخذ الجنرال ياريف يتنزه حول الخيمة ويستعرض المناظر الطبيعية الافريقية ، ثم حيّاه قائد وحدة المدرعات الذي كان مكلفاً بحماية ذلك القطاع . وعندما كان لا يزال يتساءل ما إذا كان المصريون سيصلون للقاء ، طلب العميد ياريف من قائد الوحدة ان يجمعه بجنوده .

لقد التقى بالجنود على إحدى الهضاب الرملية المشرفة على منطقة المعركة . وكانت الدبابات منتشرة حوله في مواقع الرماية ، مستعدة لمواجهة اية مباغتة قد تأتي من الغرب ، من اتجاه القاهرة .

اما باقي المقاتلين فقد كانوا يجلسون في ظل دباباتهم ، المكسوة بالغبار الصحراوي . وقف الجنرال ياريف ونظر اليهم – الى مجموعة من المقاتلين الذين اطلقوا ذقونهم حيث

كانت مآسي الحرب لا تزال بادية على وجوههم — ثم طلب ان يسمع منهم وقائع ما قامت به وحدتهم في الحرب . وقصّوا عليه . بكلمات بسيطة ، مشبعة بالالم ، دون تنميق . واطلعوه على كل ما كان يثقل قلوبهم .

وفي نهاية اللقاء ، وبينما هو في طريقه الى خيمة اللقاء مع الوفد المصري ، قال الجنرال ياريف لقائدهم : « انني اخجل من النظر في عيونهم — بماذا وكيف ارسلناهم للحرب ... »

لقد تكررت هذه الروايات نفسها في كل مكان ، من مرتفعات الجولان حتى الساحل الغربي لخليج السويس ، تنفس الجنود الصعداء في الساعات الاولى لوقف اطلاق النار ، في حين كانت تعتمل في قلوبهم تساؤلات لا نهاية لها . لم تكن المشاكل السياسية تقلقهم ، ولا سؤال لماذا نشبت الحرب . حتى المشكلة الاساسية التي كانت دولة اسرائيل كلها منهمكة بها في تلك الايام — كيف نجح العرب في مباغتة اسرائيل ؟ — حتى هذه لم تضايقهم . معظمهم من جنود الاحتياط ، وهم جنود مجازون لمدة ١١ شهراً في السنة . كانت خيبة الامل تنهشهم ، ومشدوهين من الطريقة التي ارسلوا بها الى الحرب .

ان ظروف اسرائيل الديمغرافية هي التي املت بناء الجيش الاسرائيلي كجيش شعبي لا مثيل له في العالم . بناءاً على ما تنشره الصحف العالمية المختصة بالشؤون العسكرية عن عدد الجنود الذين يمكن ان يجندهم الجيش الاسرائيلي في حالة حرب — نحو ٣٠٠ الف جندي ، وفقاً لتلك المصادر الاجنبية نفسها — اي معنى هذا ان ١٠٪ من السكان اليهود في دولة اسرائيل يجندون في أيام الحرب . هذه نسبة لا مثيل لها في أية دولة ، حتى في أيام الطوارىء . ومن اجل التمكن من تجنيد جيش بهذا الحجم ، خلال ساعات معدودة ، وضعت اسرائيل نظاماً فريداً من نوعه بحيث يمكن تعبئة جيش الاحتياط ، خلال فترة قصيرة ، وتحويله الى جيش مقاتل ومستعد للقتال . ويعتبر هذا النظام ، وطرق ممارسته ، حتى الآن ، نموذجاً وقدوة للقوات المسلحة في دول اخرى ، تسعى لتعلم هذه النظرية من اسرائيل .

ان نواة الجيش الاسرائيلي هي الجيش الدائم ، وعمدته جنود الخدمة النظامية ، الملزمون بتكريس ثلاث سنوات من حياتهم للخدمة الاجبارية في الجيش . بيد ان القوة الضاربة للجيش الاسرائيلي هي قواته الاحتياطية . ان وحدات الاحتياط ، التي يتدرب مقاتلوها شهراً واحداً في السنة ، هي في الواقع القوة الرئيسية للجيش الاسرائيلي .

ان القدرة على تجنيد قوات الاحتياط في فترة قياسية ، مدتها ٢٤ ساعة منذ لحظة البدء في التعبئة وحتى دخول المعارك ، هي التي مكنت القادة العسكريين في اسرائيل من المحافظة على حالة التأهب على الحدود — امام فرق قوية من جيشي مصر وسورية — بقوات قليلة ، قليلة الى درجة مزرية .

وحقيقة ان ٥٠٠ جندي كانوا يحتفظون فعلاً بالمائة وستين كيلومتراً ، التي هي طول خط بار — ليف على امتداد قناة السويس ، في حين حشد المصريون في الجهة المقابلة جيشاً قوامه ربع مليون جندي ، هذه الحقيقة تجسد نسبة حجم القوات ، والنسبة العددية بين الوحدات النظامية المقاتلة في الجيش الاسرائيلي وبين وحداته المقاتلة الاحتياطية .

كان المذهب الذي غرس في قلب كل جندي في اسرائيل منذ لحظة تجنيده ، يقضي دائماً بأن مهمة الجيش النظامي هي صد العدو ، في حالة هجوم وتأخيره ، الى ان تتم تعبئة وحدات الاحتياط ودفعها الى المعركة . ويعرف كل جندي احتياطي في اسرائيل انه منذ اللحظة التي يسمع بها من الاذاعة إشارة التحاقه ، او في لحظة استدعائه بواسطة شبكة العدائين المتشعبة والسريعة ، فانه يتحول خلال ٢٤ ساعة الى مقاتل بكل معنى الكلمة ، مزود بأجود العتاد ومستعد للقتال . ان هذا الايمان ، هو الذي غرس في قلوب مواطني اسرائيل انه ما من جيش عربي ، مهما كان كبيراً وقوياً ، يستطيع الانتصار على الجيش الاسرائيلي .

ان ما حدث في الساعات الاولى من حرب يوم الغفران ، وضع علامة استفهام ايضاً حول هذه الاسطورة .

لقد تم تجنيد الوحدات الاحتياطية الاولى لمواجهة الحرب منذ بداية الاسبوع الذي سبق يوم الغفران . ان حالة التأهب الزمت تعزيز القوات على الجبهات وتقوية الوحدات النظامية المساندة . ونظراً الى ان الحرب الشاملة لم تكن متوقعة، فقد تم تجنيد وحدات احتياطية قليلة للخط الاول . وسرح جزء من هذه الوحدات وأعيد الى البيت بعد يوم او يومين . وتبدد الانذار بامكان نشوب حرب في موعد قريب ، ولم تبق حاجة لهذه الوحدات .

وعندما ازداد التوتر على الجبهات ، وأُعلنت حالة التأهب بدرجة عالية مرة أخرى ، بدىء يوم الجمعة بتجنيد عدد من وحدات الاحتياط وافراد من وحدات لم تجند بعد . وهذه هي قوات الانقاذ والخدمات ، التي تعد اساساً تجهيزات الطوارىء ليكون بمقدورها استيعاب الوحدات المجندة في حالة تعبئة عامة . ولكل وحدة احتياط مخازن ومعدات خاصة بها ، من رباط الحذاء وحتى الدبابات ، والمدافع وعربات الجيب . وتحتوي مخازن الطوارىء هذه على كل المعدات اللازمة للانطلاق الى الحرب : العتاد الشخصي ، السلاح ، المعدات القتالية ، والوجبات الميدانية للتموين الذاتي الكافي للايام الاولى من الحرب .

يجب أن تكون جميع محتويات هذه المخازن صالحة للاستعمال وفعالة . فاذا كانت هذه المخازن تابعة لوحدات المدرعات ، ينبغي ان تكون الدبابات فيها مزودة بالذخيرة ،

وجاهزة للتحرك ، خلال ساعات معدودة ، حيث تزود الدبابات بالوقود والذخيرة من الاحتياطي الموجود في مخازن الوحدة ، كي يتمكن المجندون من ركوبها فوراً والانطلاق الى المعركة . وخلال الحرب فقط ، وبعد مضي فترة زمنية قصيرة ومحددة ، يجري العمل لامداد هذه الوحدات بالمؤن والذخائر من الجهاز اللوجستي العام التابع للجيش الاسرائيلي .

كما ان شبكة نقل عشرات الآلاف من جنود الاحتياط من بيوتهم في المؤخرة الى الجبهة تتألف هي الاخرى من جهاز احتياط . ان الجيش الاسرائيلي هو الجيش الوحيد الذي يخرج الى القتال في الباصات . في حين انه في مناورات التعبئة في ايام السلم ، يصل معظم جنود الاحتياط الى وحداتهم بسياراتهم الخاصة ، بحيث يمكن دائماً ، في كل ميدان مناورة ، مشاهدة اماكن مخصصة لوقوف السيارات الفخمة ، المزودة بأجهزة تكييف هواء ، اما في ايام الحرب فتتحول آلاف الباصات المدنية التابعة لشركات المواصلات داخل المدن وخارجها الى وسائط نقل حربية ، الى خط النار تماماً .

وتختفي الباصات الخضراء والزرقاء من شوارع المدن وطرقات البلد ، في اللحظة التي تعلن فيها التعبئة العامة ، حيث تقوم بنقل المجندين من اماكن تجمعهم الى معسكرات وحداتهم .

لقد أثبتت هذه الشبكة المعقدة والمدربة فاعليتها ، في الماضي ، بصورة مدهشة ، وفي ايام الحرب ، والمناورات التي لا حصر لها . ولكن في الساعات الاولى من حرب يوم الغفران ، وعندما كانت مجموعة قليلة من المقاتلين تخوض معركة حياة او موت على خطوط الجبهات ، وتقوم بصد القوات المصرية والسورية الغازية ، حدث خلل مخيب للآمال ، وغير متوقع في هذه الشبكة . وكان هذا اخطر تقصير في الحرب بالنسبة الى القوات المقاتلة .

لقد وضعت باصات شركات المواصلات في حالة تأهب قبيل ظهر يوم الجمعة ، على الرغم من ان هذه الباصات بقيت تخدم جمهور المسافرين — ملايين سارعوا الى بيوتهم استعداداً لصيام يوم الغفران — ولكن سائقيها امروا بان يكونوا مستعدين لأي استدعاء . في ظهيرة اليوم السابق لعيد الغفران ، تأخذ حركة المواصلات عادة بالتقلص ، ويبدأ السائقون باعادة الباصات الى الكاراجات ثم يذهبون هم ايضاً الى بيوتهم . اما في هذه المرة فقد طلب اليهم عدم الانصراف والانتظار بالقرب من الباصات . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر فقط ، عندما خلت شوارع المدن تماماً تقريباً بسبب حرمة يوم الغفران ، أُلغيت اوامر التأهب ، وسمح لمئات السائقين بالذهاب الى بيوتهم ، ولكن طلب اليهم عدم مغادرتها لاستدعائهم عند الحاجة . لقد انصرفوا ، بعد ان زودوا باصاتهم بالوقود وتركوها في حالة استعداد للتحرك فوراً .

وعلى الرغم من ذلك ، لم تعمل شبكة النقل كما كان مخططاً لها ، عندما اعلنت التعبئة العامة في صباح اليوم التالي ، ٥ تشرين الاول (اكتوبر) . وقال عدد من الضباط بعد ذلك انه في ساعات المساء ايضاً من ذلك اليوم نفسه ، وعندما كان الجنود ينتظرون في نقاط التجمع الخاصة بهم استعداداً للتحرك ، لم تصل اليهم الباصات التي كان من المفروض أن تنقلهم الى خطوط الجبهات ، مما اضطرهم الى تمضية ساعات ثمينة في انتظار لا فائدة منه . وبالمقابل ، يزعم رجال شركات المواصلات ان الباصات كانت مستعدة للتحرك مع سائقيها خلال اقل من ساعتين بعد استدعائهم ، في ساعات الصباح .

ويبدو اذاً انه حدث خلل في مكان ما ، وان الاشخاص المختصين بالتنسيق لم يقوموا في كل الحالات ، بتلبية طلبات الوحدات المجندة .

لم يحدث اي خلل في وحدات كثيرة ، وسار كل شيء كالمعتاد . ومن الوحدات من وجد جنودها انفسهم داخل دباباتهم ، بعد ١٢ ساعة فقط من الاستدعاء ، وهم يخوضون معارك لصد العدو . الا ان الصورة العامة لم تكن وردية الى حد كبير .

كانت احدى المشكلات الرئيسية مشكلة ناقلات الدبابات . لقد وقفت مئات من دبابات الجيش الاسرائيلي في مخازن الطوارىء ، مستعدة للتحرك ، الا ان هذه المخازن موجودة على بعد مئات الكيلومترات من خطوط الجبهات . وعندما يصل عادة انذار كاف عن احتمال نشوب حرب ، تنقل هذه الدبابات الى ميدان المعركة ، على متن ناقلات وذلك للتوفير في ساعات عمل محرك الدبابة ، وتجنب حدوث عطل محتمل في الطريق . ان عدد ساعات محرك الدبابة محدود . وبعد تشغيله عدداً معيناً من الساعات يجب استبداله بمحرك جديد . كما ان استهلاك محرك الدبابة للوقود كبير جداً . لذا يحرص ، بقدر الامكان ، على تشغيل محركات الدبابات الذاهبة الى المعركة ، في ميادين القتال نفسها ، وليس في الطريق اليها ، لتوفير ساعات عمل المحرك والامتناع من الاسراف في الوقود . ولهذا الغرض يوجد في كل جيش جهاز كامل من الناقلات الضخمة الحاملة للدبابات ، ومهمتها نقل الدبابات الى مواقع الانطلاق للقتال . وحتى في الجيوش الاكثر ثراء من الجيش الاسرائيلي ، لا يخصصون ناقلة لكل دبابة ، لأن كل ناقلة كهذه مهمتها نقل عدد معين من الدبابات خلال فترة زمنية محددة . ولكن في حالة الحرب الفجائية ، فان امكانات الجيش الاسرائيلي لم تف بالحاجة . وعندما تكون الحاجة ماسة لتعبئة الاحتياط دفعة واحدة ، ولدفع مئات الدبابات التابعة لوحدات الاحتياط الى الجبهة ، فانه من الطبيعي ان يتولد نقص في ناقلات الدبابات .

ازداد النقص هذه المرة لأن عدداً من هذه الناقلات كان مشغولاً ، في اليوم الذي نشبت فيه الحرب — قبل اعلان التعبئة العامة — في نقل وحدات مدرعة من مكان الى آخر . ونظراً الى عدم وجود تقدير مسبق بأنه ستكون هناك حاجة الى الناقلات ،

فقد وضع تحت تصرف تلك الوحدات عدد من الناقلات اكبر من عدد الدبابات الموجودة لديها . وقد استعملوها ايضاً لنقل الآليات والمعدات الاخرى . وهكذا ، وبطريق الصدفة البحتة ، لم يكن ممكناً وضع اعداد كافية من ناقلات الدبابات تحت تصرف الوحدات . ان القيادة العليا للجيش الاسرائيلي هي التي حددت سلم الافضليات ، واي وحدات مدرعة ، من التي تم تجنيدها ، تنقل اولاً الى نقطة التجمع والانطلاق . وقد تولد ، نتيجة ذلك ، وضع لم تستطع فيه وحدات مدرعة كاملة ، من التي تم تجنيدها ، الوصول الى الجبهات بسبب اضطرارها الى انتظار ناقلات الدبابات .

كان قادة الوحدات يرفضون الانتظار احياناً حتى ترسل اليهم ناقلات الدبابات . ولمعرفتهم بخطورة الوضع على الجبهات قرروا التحرك الى الجبهة بطوابير الدبابات وهي تسير على جنازيرها ، مع اهدار ساعات المحرك ، واستهلاك كميات كبيرة من الوقود . لقد اضطر عدد من الوحدات الى السفر بهذه الصورة مئات الكيلومترات . وكان من الطبيعي ان تحدث بعض الاعطاب في الطريق ، فتعطلت عدة دبابات ، واخرى سقطت جنازيرها . وسدت هذه الدبابات المعطلة محاور السير ، وتوقف جزء منها قبل ان يصل الى ميدان المعركة . تم اصلاح هذه الدبابات بمساعدة وحدات الصيانة الملازمة لها ، خلال فترة قصيرة ، تأخرت قوات الاحتياط في أثنائها عن اتخاذ مواقعها في الجبهات .

وفي الوقت ذاته ظهر خلل اشد خطورة ، حيث لم يجد بعض وحدات الاستطلاع المحمولة على سيارات الجيب ، في مخازن الطوارىء التابعة لها ، العدد الملائم من السيارات المقررة لهذه الوحدات وفقاً للوائح .

وقد اتضح ان عربات كانت تستخدم في تلك الاثناء لاغراض اخرى ، وحتى تم جمعها مرت ساعات مصيرية . كما وجدت آليات حربية اخرى في مخازن الطوارىء في وضع غير صالح . صحيح ان هذه الآليات كانت مطلية بصورة جميلة ونظيفة من الغبـــار ، حتى كان يستدل من مظهرها الخارجي انها مزيتة ومشحمة ، ولكن عندما جرت محاولة تشغيلها ، اتضح انها لا تعمل . كانت هناك حالات اهمل فيها المسؤولون عن مخازن الطوارىء التابعة لوحدات الاحتياط عملهم ، لم يهتموا بصلاحية المعدات التي في عهدتهم ، وقد وجدت معدات صدئة في بعض الحالات ، وفي حالات اخرى توقفت آليات ، من انواع مختلفة ، بعد تحركها عدة كيلومترات فقط .

وقد وقع جزء كبير من هذا الخلل بسبب تعنت المسؤولين الذين كانت مخازن الطوارىء في عهدتهم . وكجيش فقير ، يحرص الجيش الاسرائيلي على مسؤولية كل جندي الشخصية عن المعدات التي تعطى له ، سواء في التدريب او في اثناء الحرب . ويترتب على كل جندي التوقيع على كل قطعة يحصل عليها ، من مخازن الجيش ، مهما كانت صغيرة . وعندما يسرح من الخدمة ، ويسلم معداته ، يجبر على التعويض

عن قيمة كل قطعة مفقودة ، وفي حال عدم موافقته على ذلك يقدم الى المحاكمة العسكرية ، حيث يقرر القاضي مدى مسؤولية الجندي عن فقدان هذه المعدات ، او فقدانها بسبب ظروف خارجة عن ارادته . ولهذا الغرض يستخدم الجيش الاسرائيلي سجلاً متشعباً ، ويطالب كل جندي يتسلم معدات بالتوقيع على عدد غير محدد من النماذج . ان حرص المسؤولين عن المستودعات على املاء الجنود لجميع النماذج مفهوم — بحكم مسؤوليتهم الشخصية عن كل قطع المعدات ، التي تساوي ملايين عديدة من الليرات . وان اي فقدان لهذه المعدات يلقى على عاتقهم .

في حالة التعبئة المفاجئة ، عندما اقتضت الحاجة تزويد عشرات الآلاف من الجنود بالمعدات اللازمة لهم بسرعة ، زودت كل وحدة صغيرة بمعدات تساوي عشرات الملايين من الليرات . اصر رجال المستودعات ، الذين لم يكونوا قد علموا بنشوب الحرب بعد ، على ان يوقع كل جندي بمفرده على كل قطعة من المعدات التي يتسلمها . وقد رفضوا تحمل المسؤولية عن قيمة هذه المعدات . حدثت نتيجة هذا ، تأخيرات مصيرية في تزويد المعدات ، واعداد الوحدات للمعركة ، كان لها عواقب وخيمة . إلا ان القادة من اصحاب المبادرة امروا المسؤولين عن المستودعات بتسليم المعدات دون توقيع ، وقد وقعوا هم بانفسهم على معدات جميع جنودهم . ولكن بعض القادة الآخرين ، الذين كانوا لا يزالون غير مصدقين بانهم ذاهبون الى الحرب وليس الى مناورة اخرى ، تركوا الامور تجري ببطء صارخ .

وقد تأخرت وحدات اخرى بسبب نقص في بعض المعدات الصغيرة عديمة القيمة على ما يبدو . في إحدى الوحدات المدرعة ، التي جندت وأرسلت الى الجبهة الجنوبية ، كانت جميع الدبابات سليمة وصالحة للاستعمال ، ومزودة بالوقود والاسلحة ، وتحمل في جوفها كمية كافية من الذخيرة . كانت هذه قوة يمكن دفعها الى المعركة فوراً . ولكن اتضح فجأة انه على الرغم من تجنيد جميع جنود الاحتياط التابعين لهذه الوحدة وتجهيزهم عسكرياً ، وتشغيل محركات دباباتهم ، كان لا يزال من المستحيل شق طريقها بسبب نقص في بعض المعدات الصغيرة الثانوية ، كمصابيح الجيب او المناظير الميدانية . ان ثمن المنظار بالنسبة الى ثمن الدبابة لا يذكر ، انه يكلف اقل من ثمن قذيفة واحدة لمدفع دبابة . ولكن مصير كل معركة مدرعات يتوقف عادة على سرعة رد طاقم الدبابة ، وفي بعض الاحيان يتوقف مصير طاقم الدبابة على تلك الثواني القليلة التي يكتشف خلالها عدوه قبل ان يكتشفه هو . ان المنظار الميداني يساعد على كشف العدو بسرعة .

لقد حرص الجيش الاسرائيلي على تزويد كل طاقم دبابة بالكمية المطلوبة من المناظير الميدانية . ولكنها اختفت في عدة وحدات فجأة او نقصت . وبالمقابل كان

يمكن رؤية هذه المناظير معلقة في رقاب عدد من الضباط غير المقاتلين ، ورجال مستودعات . وموظفين على مختلف انواعهم ، والذين استعملوها كزينة من اجل المفاخرة .

وفي تلك الوحدة نفسها في الجنوب ، التي ظهر فيها نقص في مصابيح الجيب ومناظير الميدان للدبابات ، تم إصلاح هذا الخلل بمبادرة عدد من الضباط ذوي الفطنة . لقد سارع واحد منهم ، في منتصف ليلة ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، الى مركز شرطة بئر السبع ، وتم حصر جميع اصحاب المحلات ، الذين يفترض ان يكون لديهم مصابيح جيب وبطاريات صغيرة ، وفقاً لسجل اصحاب الحوانيت الموجود لدى الشرطة ، ثم ذهبت سيارات الشرطة الى بيوتهم ، وايقظتهم من نومهم وامرتهم بفتح محلاتهم . وهكذا تم جمع كميات من المصابيح الكافية لكل الوحدة ، والتي ساعدت رجال الدبابات على الاعتناء بدباباتهم وتشغيلها ليلاً .

وقد حلت مشكلة المناظير الميدانية بصورة مشابهة . كان احد ضباط الاحتياط في تلك الوحدة موظفاً مدنياً في وزارة المالية . وفي الليلة نفسها سافر الى مكاتب الوزارة في القدس ، وفتح احدها وفحص قوائم اذونات الاستيراد . واستطاع ، بمساعدة السجل ، ان يحصر مستوردي المناظير الميدانية في السنة الماضية ، بصورة خاصة ، لبيعها في محلات الرياضة والمعدات البصرية للاغراض المدنية ، ثم حمل القائمة وذهب الى اصحاب المحلات والمستوردين ، وجمع على طريقة حرب العصابات كمية المناظير اللازمة لوحدته .

ان الرواية المشهورة عن المعركة التي حسمت بسبب عدم وجود مسمار صغير في حذوة حصان القتال الاصيل ، قد تكررت في عدة اماكن ، ولكن بمفاهيم الحرب العصرية . فالدبابة الحديثة هي سلاح رهيب ، انها مزودة بمدفع بعيد المدى ، وبرشاشين ثقيلين يستخدمان عادة ضد قوات سلاح المشاة .

[......]

وفي وحدات معدودة وجد نقص حتى في بعض المعدات كالاسلحة الشخصية . لقد نسي بعض اطقم الدبابات ان يأخذ الاسلحة الشخصية ، وقد واجهوا في بعض الاحيان وضعاً كانوا يضطرون فيه الى مغادرة دباباتهم ، عند اصابتها ، دون ان يكون لديهم سلاح شخصي للدفاع عن انفسهم . وكانت هناك حالات من النقص في الذخيرة ليس بسبب عدم توفرها ، بل نظراً الى السرعة التي تم فيها الاستعداد ، حيث لم يكن هناك وقت كاف لجلبها من المخازن الملائمة . كما ان الوحدات التي ذهبت الى الحرب بكميات كافية من الذخيرة وجدت نفسها خلال الحرب في وضع تفتقر فيه اليها . وقد اعترف موشيه دايان وزير الدفاع ، بذلك صراحة من على منبر الكنيست . لقد حدث ذلك ، بصورة خاصة ، نتيجة التقويم غير الصحيح لشكل الحرب ، او للفترة

الزمنية التي ستستمر فيها . وقد قدرت كميات الذخيرة المطلوبة ، والتي ستحتاجها كل وحدة في فترة معقولة من الحرب ، استناداً الى معطيات حرب الايام الستة وعبرهـا . وهكذا تمت جميع الحسابات والتقديرات بحسب معطيات حرب الايام الستة ، التي كانت حرباً خاطفة . بينما فرضت حرب يوم الغفران واقعاً شوش جميع التوقعات ، وهكذا نفدت ذخيرة قطع معينة بسرعة .

وثمة قضية من نوع آخر تتمثل ، في الحقيقة ، في ان وحدات معينة من الجيش الاسرائيلي اضطرت الى القتال ضد اسلحة حديثة وعصرية جداً ، سوفياتية الصنع ، كانت متوفرة لدى المصريين والسوريين بكثرة ، بأسلحة قديمة وبالية ، كان جزء منها من مخلفات الحرب العالمية الثانية . لقد كان على دبابات قديمة من طراز « شيرمان » مواجهة دبابات سوفياتية من طراز ت ٦٢ — وفي معظم الحالات استخدموها بنجاح ملحوظ — وهناك دبابات اخرى لم تكن تلائم ظروف الحرب الحديثة هي دبابات « السنتوريون » بمحركات متيور العاملة بالبنزين خلافاً لدبابات السنتوريون المعدلة والحديثة . وقبل حرب الايام الستة ، بدأ الجيش الاسرائيلي يستبدلها بمحركات ديزل الاكثر متانة ، ولكن ، في حرب يوم الغفران ، كانت لا تزال هناك حاجة الى خدمات السنتوريون من طراز « متيور » .

بالامكان مواصلة تعداد قائمة طويلة ومضنية من حوادث الخلل ، التي تكشفت خلال التعبئة والاستعداد ، والتي اخرت دفع كل قوات الاحتياط الى الحرب في الساعات الحرجة ، وخلال باقي الايام الاولى من الحرب ، والتي اثقلت على جنود الجيش الاسرائيلي في الحرب ، حتى استكملت المعدات ، وليس المقصود المعدات القتالية وحدها .

عندما ارسل جنود الاحتياط الى الحرب ، لم يكن اي شخص يفكر انها ستكون حرباً طويلة . كان هناك اعتقاد ان جنود الاحتياط سيعودون الى بيوتهم بعد يوم او يومين ، هذا اذا اقتضت الحاجة اشتراكهم في القتال . وهكذا ارسلت وحدات الى الجبهة بملابس العمل ، دون كمية كافية من البطانيات ، ودون ملابس تمنحهم الدفء ومعاطف تقيهم البرد . ومنذ الليلة الاولى ، بدأ المقاتلون في مرتفعات الجولان ، او في صحراء سيناء ، يعانون البرد . ولم يتم التغلب على الخلل في هذا المجال ، إلا بعد وصول الامدادات بواسطة الجسر الجوي من الولايات المتحدة الى اسرائيل ، والتي شملت ، بالاضافة الى الاسلحة ، بطانيات ومعاطف ، ومشمعات ايضاً .

وهذه رواية الملازم يغئال ، قائد صغير في وحدة دبابات . ينتمي يغئال الى الطائفة اليمنية وهو متزوج وأب لطفلة ، يسكن في ريشون لتسيون . يقول يغئال : « شاهدت يوم السبت حركة في مدينة رحوفوت ، وفهمت ان شيئاً قد حدث . ذهبت انا وصهري

الى مركز الشرطة للاستعلام عما اذا كانوا بحاجة الي . قالوا انهم لا يعرفون ، ومن ثم ذهبت الى البيت . وبعد دقائق معدودة وصل باص وتوقف بالقرب من بيتي . وبادروني بالسؤال : انت الملازم يغئال ؟ وعندما اجبت بالايجاب قالوا لي : عليك ان تكون على مدخل البيت بعد خمس دقائق . خذ ملابسك وتعال ! لقد ربطت شريط حذائي وانا انزل من الباص .

« وصلت الى نقطة تجمعنا . وكان علينا ان نقتحم المخزن لان المسؤول عنه كان مجازاً . لقد ساعدنا الجنود في اعداد الدبابات . فحصت الدبابات ، وقدمت الى القائد قائمة بالاشياء الناقصة . لقد كانت المعدات على ما يرام ، ولكن كان ينقصنا مناظير ميدانية ومصابيح . وبعد ذلك اتضح لي ان رشاشي لم يكن صالحاً . لم يكن عامل التصليح موجوداً في السرية . اعطيت الاوامر بالتحرك في الساعة الرابعة صباحاً . وشعرت فوراً ان شيئاً ما في محرك دبابتي لا يعمل بانتظام ، ثم توقفت خلال السير ، وتفككت جنازيرها . ابقيت رقيب السرية لاصلاح الدبابة وواصلت السير بدبابته » .

هذه رواية نموذجية لموضوع التعبئة والتنظيم . وهناك الكثيرون يستطيعون ان يرووا مثله . ويبدو ان الافتراض ، الذي انقلب مع مرور الايام الى بديهية تقريباً ، بان الحرب لا تبدو في الافق على الاطلاق، اثر على جهاز التجنيد كله . حتى في الاماكن التي وصل اليها جنود الاحتياط اصطدموا بخلل صارخ ، وانعدام التنظيم ، ونقص في المعدات . ففي احدى الوحدات الطبية مثلاً ، وقع حادث يثير الاشمئزاز . لكل وحدة طبية صناديق طبية معدة ومختومة لاستعمالها في مراكز اخلاء المصابين في ميادين القتال ، ويحتوي كل صندوق منها معدات طبية متكاملة ، ابتداء من الضمادات وزجاجات صبغة اليود ، وحتى معدات جراحة تمكن من اجراء عمليات في ميدان المعركة ، تحت النيران . ان احدى هذه المعدات الحيوية جداً في هذا الصندوق الطبي ، الذي يبقى مختوماً لغرض استعماله في حالات الطوارىء فقط ، هي حقن المورفين التي تستخدم لتخفيف آلام الجرحى . وقد اكتشفت تلك الوحدة الطبية ان مخزون المورفين قد اختفى من داخل الصناديق المختومة بصورة غامضة .

وهناك نموذج من نوع آخر ، تقشعر له الابدان ، وهو قضية ملابس قوات المدرعات الواقية من النيران . لقد اتضح ، في ضوء دروس حرب الايام الستة ، ان معظم إصابات رجال المدرعات كان نتيجة الحروق التي تسببت لهم ، عند إصابة دباباتهم واشتعالها ، مما حدى بالجيش الاسرائيلي الى البحث عن حلول ملائمة لهذه المشكلة . وقد وجد الحل اخيراً . صنعت ملابس خاصة مصنوعة من الانسجة البلاستيكية الواقية من النيران ، وعندما تندلع النيران في الدبابة قد تحترق هذه الملابس ، وحتى قد تتفكك من شدة النيران . ولكنها ، حتى في هذه الحالة ، تقي رجل المدرعات من الحروق . وقد اتضح

في حرب يوم الغفران ان معظم رجال المدرعات الذين ارتدوا هذه الملابس ، لم يصابوا بالحروق تقريباً ، بينما أُصيب رجال الدبابات ، الذين ثنوا اكمام هذه الملابس ، بحروق شديدة في الاماكن المكشوفة من ايديهم ، في حين نجت باقي اعضاء اجسامهم من الحروق .

ثبت ان هذه الملابس هي وسائط دفاعية مفيدة كدرع الدبابة تقريباً . ولكن لم يكن لدى جميع رجال المدرعات ألبسة كهذه ، لا لان الجيش لم يجهد نفسه في اعداد كميات كافية منها ، بل لان الكثير من هذه الملابس اختفى من المستودعات ، لدى نشوب الحرب . ان الشكل القتالي لهذه الملابس حدى بالكثيرين للتزين بها . وكان بالامكان ان تشاهد خلال الحرب جنود الخدمات ، وحتى المراسلين العسكريين ، يرتدون الملابس الواقية من النيران ، بينما كان رجال المدرعات يفتقرون اليها . وقد تطرق الجنرال اهرون ياريف الى هذه الحقائق ، وغيرها ، التي يتناقلها الجنود بكثرة ، حيث اعترف : « لقد خجلت من النظر الى وجوه الجنود... كيف ارسلناهم الى الحرب ! » .

لا يجب ان يكون الخجل نصيب الجنرال ياريف وحده ، فهناك العديدون والطيبون ، في الجبهة وفي المؤخرة ، يتحملون مسؤولية هذا الوضع المخجل ، الذي ادهش الجنود عندما اكتشفوه في اثناء تجنيدهم للحرب .

هناك سببان أديا الى تولد هذا الوضع . خلل في التخطيط من جهة — وفساد وتلوث من جهة اخرى .

اذا كان الجيش الاسرائيلي قد تغير ، بالمقابلة مع صورته وشخصيته في الحروب السابقة ، فان ذلك نتيجة تغير المجتمع الاسرائيلي بأسره منذ حرب الايام الستة . ان الجيش الاسرائيلي ليس جزيرة معزولة ، بعيدة عن التأثيرات . ولانه جيش شعبي ، فان جنوده وضباطه يشكلون جميعهم جزءاً من المجتمع الاسرائيلي ، ولذلك اصابته ايضاً الظواهر السلبية التي عمت جميع طبقات المجتمع الاسرائيلي . ان التركيب البشري للجيش هو نموذج يمثل كل طبقات الشعب ، بكل ظواهره الايجابية والسلبية . والفرق الوحيد كامن في ان الظواهر المنبوذة في المجتمع الاسرائيلي تتحول الى ظواهر قاتلة عندما تنتشر في الهيئة المسؤولة عن أمن الدولة . ان فترة الهدوء والرخاء الطويلة التي اجتاحت اسرائيل منذ حرب الايام الستة ، وتسببت في خلق ظواهر التلوث ، والركض وراء الكماليات ، والثراء السريع ، والهوة الاقتصادية الآخذة بالاتساع ، كل هذه تركت بصماتها على الجيش الاسرائيلي .

وكان من الطبيعي ان الخبرين اللذين نشرا في الصحف الاسرائيلية ، عشية الحرب وبعدها ، كانا يتعلقان بهذا الجانب من صورة الجيش الاسرائيلي . لقد ابرزت الصحف

الصادرة في اسرائيل ، عشية يوم الغفران ، خبراً جنائياً بين اخبارها عن لقاء غولدا مئير ، رئيسة الحكومة ، مع برونو كرايسكي رئيس حكومة النمسا ، حول قضية معسكر الانتقال « شيناو » ، وبين اخبار عن قطع زائير لعلاقاتها مع اسرائيل . لقد تحدثت هذه الصحف عن ملازم في الجيش الاسرائيلي حكمته المحكمة العسكرية بالسجن بعد ان أدين بسرقة ذخائر من مخازن وحدة اخرى لاستعمالها في وحدته . وبعد ايام معدودة من وقف اطلاق النار ، نشرت الصحف الاسرائيلية ، بعرض متواضع ، خبراً عن ادانة ثلاثة من عمال مطار اللد بسرقة معاطف شتوية مخصصة للجنود على الجبهات ، من تلك التي وصلت الى اسرائيل عبر الجسر الجوي الاميركي .

ولربما كان في هذين الخبرين ما يفسر جزئياً السبب الذي جعل استعداد الجيش الاسرائيلي للحرب يبدو بهذه الصورة .

في سنة ١٩٥٦ ، وبعد حملة سيناء ، اهتز الجيش الاسرائيلي بأسره ليس من نتائج المعركة بالذات ، او من الانسحاب الذي اعقبها ، بل نتيجة محاكمة عسكرية في السنة نفسها ، واعترف احد المتهمين انه كان شريكاً في عملية تهريب كيسين من السكر الى السوق السوداء . وبحسب قوله فقد عرف ضابط كبير في الجيش الاسرائيلي بالامر ، وغض النظر رغم علمه بهذه المخالفة . ولقد وقعت هذه الحادثة قبل عدة سنوات خلال فترة التقشف في اسرائيل .

لقد تدرجت هذه الامور ، حتى علم بها دافيد بن – غوريون، رئيس الحكومة ووزير الدفاع في ذلك الوقت ، الذي لم يتردد لحظة واحدة في إصدار تعليماته الفورية بإعفاء الضابط الكبير من الخدمة العسكرية ، وحتى انه اعلن ذلك من على منبر الكنيست مع ابداء اسفه الشديد . وقع خبر تسريح الضابط الكبير من الخدمة على الجيش الاسرائيلي كالرعد في يوم صاف . لقد كان ذلك الضابط احد الضباط الاكفاء في صفوف الجيش ، وقد تنبأ له الكثيرون بمستقبل عسكري مشرق . لقد كان اعفاؤه من الجيش صدمة بالنسبة اليه ، والى المقربين منه ، والى رؤسائه ومرؤوسيه . وفي حرب الايام الستة فقط صفح عنه وأعيد اليه اعتباره . وفي حرب يوم الغفران برز في احدى المهام الكبيرة في ادارة الحرب .

عندما سئل دافيد بن – غوريون في حينه ، لماذا امر بالاستغناء عن خدمات هذا الضابط ، الذي كان مرتبطاً بصورة غير مباشرة بقضية تهريب اكياس السكر ، اجاب رئيس الحكومة ووزير الدفاع في ذلك الوقت : « علينا ان نحافظ على جيشنا نظيفاً ... » . لقد حدد دافيد بن – غوريون ، بحكمته ، مقياساً سامياً للاخلاق في الجيش الاسرائيلي آنذاك . ووفقاً لهذا المقياس كان يطلب من جندي او ضابط في الجيش الاسرائيلي اكثر

مما كان يطلب من المواطن العادي . ان حكم المليم كحكم المائة ، وحكم الضابط الكبير كحكم آخر الجنود .

نسيت هذه القصة عبر السنين . وقدامى العسكريين فقط ، في الجيش الاسرائيلي ، يذكرون قصة كيس السكر . في الوقت الحاضر تغيرت المقاييس في الجيش الاسرائيلي ، وتبدو اليوم قصة كيس السكر عملية بسيطة جداً . لقد ولد بعض تقصيرات حرب يوم الغفران منذ صباح ١١ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، في اليوم التالي لانتهاء حرب الايام الستة . لقد استيقظ الجيش الاسرائيلي ، في ذلك الوقت ، من غفلة طويلة وقد اسكرته نشوة النصر . لم يكن هناك حد للمديح الذي اغدق عليه من كل جانب .

لقد استخدمت الصحافة العالمية صيغة افعل التفضيل في وصفها لعمليات الجيش الاسرائيلي وبطولته . لقد وصف انتصاره في الحرب بأنه من اعظم الانتصارات العسكرية في التاريخ الحديث . وهكذا بدأت العملية التي تجتاح كل جيش منتصر تقريباً – عملية التلوث .

كان كبار قادة الجيش الاسرائيلي على رأس من اغدق عليهم هذا المديح والتبجيل العام ، وقد تنقلوا من موكب نصر الى آخر ، ومن مأدبة نصر الى اخرى . وتم تخليدهم جميعاً بمئات ألبومات النصر التي غمرت العالم بأسره . كان الجيش الاسرائيلي ، قبل حرب الايام الستة ، موضع التبجيل من جانب الشعب كله ، ولكن هذا التبجيل لم يولد ظواهر تقديس العسكرية ولا تقديس الابطال . وكان افضل مثل على ذلك حقيقة ان اكاليل البطولة والميداليات لم تكن معهودة للجيش الاسرائيلي في ذلك الوقت ، باستثناء عشرة اوسمة بطولة منحت في حرب الاستقلال .

واما الانتصار ، والتبجيل العام الذي اعقبه ، فقد خدّر الاحاسيس لدى جزء من قادة الجيش الاسرائيلي . فالضابط المجهول افاق ذات صباح وقد اصبح مشهوراً ومحبوباً من الشعب . وفجأة غدا ضباط كبار ، كانوا حتى ذلك الحين معروفين لقواتهم فقط او ربما لجنود الجيش الاسرائيلي جميعاً ، مواضيع الحديث والتقدير على ألسنة الشعب كله . لقد عرف كل طفل في اسرائيل اسماءهم وتاريخهم ومآثرهم ، وظهروا في المقابلات الصحفية ، وفي الاذاعة والتلفزيون . واتضح لهم فجأة ان هناك مردوداً للجهد . فالشهرة الكبيرة التي حظوا بها في البلد وفي العالم بأسره قد افسدتهم . نتيجة ذلك بدأ سباق محموم بين القادة على الشهرة ، وتشجيع بارز من الصحافة والناشرين على مختلف انواعهم .

نزل كبار القادة من الصحافة وشاشات التلفزيون الى صفحات الالبومات . فقد اصبحت ظاهرة الالبومات مثلاً يحتذى به . لقد اصدرها الناشرون الخصوصيون في الاسواق، وتخاطفها الجميع كالكعك الطازج . اما القيادات والوحدات فقد اصدرت ألبومات خاصة بها ، ونشرت في أحد هذه الالبومات صورة احد القادة لا اقل من ٢٠ مرة .

كان بين زمرة كبار الضباط في الجيش الاسرائيلي من سكر من نشوة الشهرة . وقد درج قول على احد القادة انه « مسفوع من وميض اضواء آلات التصوير المتوهجة » . وقالوا عن آخر انه لا ينبس ببنت شفة الا اذا وضعوا امامه ميكروفون .

لم يكن جميع قادة الجيش الاسرائيلي على غرار هؤلاء . كان وما زال حتى اليوم في الجيش قادة يمقتون حب الظهور ويقومون بعملهم بتواضع . ولكن هؤلاء الذين مثلوا هذا الوضع هم الذين قادوا الجوقة .

وهكذا قامت في اسرائيل أول مرة في تاريخها ، طبقة اجتماعية جديدة — طبقة الجنرالات . وقد اجاد دافيد بن — غوريون ، مؤسس دولة اسرائيل وخالقها ، في وصف معنى هذا الوضع ، في إحدى عباراته القليلة عشية موته . قال دافيد بن — غوريون آنذاك : « ان اعتبار الالوية انفسهم جنرالات ، هو كارثة » .

ان الجنرالات الذين احبوا مشاهدة صورهم تنشر في الالبومات والصحف ، لم يفوتوا اية مناسبة عامة من الظهور فيها امام الجمهور . لقد اصبحوا نجوماً اجتماعية لامعة ، تحولت الى بهرجة يستحيل التنازل عنها ، في اي حدث اجتماعي ، حفلة كوكتيل ، عرض افتتاحي ، او افتتاح معرض صور ، واصبحوا زبائن دائمين في المطاعم الفخمة في اسرائيل . وقد وصل التمادي باحد الجنرالات الى حد الاشتراك في الافتتاح العلني لوكالة منتجات التجميل . وفي الحفل الذي أُقيم بمناسبة صدور كتاب الزاوية [الصحافية] ، وصاحبة اللسان اللاذع سيلفي كيشت ، ظهرت مجموعة محترمة ، من رجال الامن وكبار الضباط ، امام عدسات آلات التصوير بالطبع .

ارتأت نساء الوسط الرفيع في مجتمع تل أبيب ، ان من واجبهن دعوة جنرال او اثنين على الاقل الى الحفلات التي يقمنها ايام الجمعة . ومن تنجح في دعوة جنرال اكبر واكثر اهمية ، تكون قد حظيت بنصر اجتماعي كبير في ذلك الاسبوع ، وكانت تهتم طبعاً في تسريب خبر عن ذلك الى زاوية الاشاعات الملائمة لاثارة حفيظة الأخريات .

ان المجتمع البراق ، بشبابه ومشيبه ، استوعب الجنرالات كأطفال التسلية . فقد تبنى اصحاب الملايين واثرياء الحرب قادة اتخذوا من اصحاب الملايين أوصياء . وفاز اولئك بالمقابل ، برحلات في وحدات الجيش الاسرائيلي لمشاهدة المناورات ، او الطيران بالطوافات فوق الحدود . وقد تمكنوا من الاطلاع على اسرار محظورة على البشر العاديين .

وذات مرة ، عندما كان احد الجنرالات في اجازة نهاية الاسبوع ، في احد الفنادق على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، استدعي لعملية استوجبت حضوره ، فخرج الى المهمة خلال الليل . وفي صباح اليوم التالي هبطت الطوافة التي اعادته في حديقة الفندق ، مقلقة راحة المصطافين هناك .

لقد اكثر الجنرالات من السفر الى الخارج ، وخصوصاً بهدف جمع الاموال لصندوق الجباية الموحدة . لقد تزاحم اليهود الاغنياء في المهجر على هؤلاء الجنرالات الاسرائيليين ، ووجدوا انه شرف كبير لهم احتضان عدد منهم . كما حظي عدد من كبار القادة برعاية اغنياء من طائفة النازحين عن اسرائيل .

وفي خارج اوقات العمل ، كان يمكن مشاهدة عدد من كبار القادة كزبائن دائمين في مقاهي « الموضة » المشهورة بأنها مراكز اجتماعية في تل أبيب ، وبينما هم محاطون بشعراء البلاط والغيد الاماليد اللواتي راودتهن الاحلام ، روى القادة مآثر الجيش الاسرائيلي وبطولاته . لم يكن هناك « رب بيت » مثل بن — غوريون في حينه ، ليوقف ظواهر كهذه ، تتضاءل بجانبها قضية « كيس السكر » . وعلى العكس فان موشيه دايان وزير الدفاع ، اعطى مثالاً شخصياً للجنرالات في تصرفاته العامة . وقلده الكثيرون منهم مفترضين انه يجوز لهم ما يجوز له . واذا جاز لوزير الدفاع مثلاً ان يتناول طعامه يومياً في اغلى مطاعم تل أبيب ، على حساب وزارة الدفاع ، فلماذا لا يحذو كبار الضباط حذوه ؟

كان هذا السلوك مرتبطاً بالجو العام في البلد ، الذي اعتراه الفساد في فترة حرب الاستنزاف . اكتشف الكثيرون من رجال الاعمال البارعين في وزارة الدفاع بالذات منجماً من الذهب . لقد خصصت وزارة الدفاع مليارات الليرات من اجل التحصينات على الجبهات ، ومن اجل إقامة مبان للجيش الاسرائيلي في الاراضي المحتفظ بها . لقد اخذ اصحاب العلاقات الملائمة ، واصحاب الحس التجاري المتطور ، على عاتقهم تنفيذ مشاريع تبلغ كلفتها عشرات الملايين من الليرات . لقد جنوا الجزء الاكبر من اموالهم من بناء خط التحصينات على جبهة قناة السويس ، وفي غور الاردن ، وفي مرتفعات الجولان . واصبح بعض من كان مقاولاً بسيطاً ، بين ليلة وضحاها ، من اصحاب الملايين . لقد رأوا ان من واجبهم اشراك كبار الضباط في حياة الترف التي يعيشونها — ولم يرفض هؤلاء دائماً الاقتراحات المغرية . لم يكن جميع المقاولين ، الذين عملوا في بناء التحصينات ، مستقيمين وجديرين بالثقة . كان من بينهم من غش وزارة الدفاع ، ومن دفع رشوة للحصول على مقاولات ، واشرك آخرون بعض الجنود في اعمال الغش لسرقة اموال الجمهور . ويمكن الوقوف على مدى تأثير هذه الظواهر على الجيش الاسرائيلي ، مما رواه قائد لواء في الجبهة الجنوبية : « خلال فترة الانكماش الاقتصادي قبل حرب الايام الستة ، كانت هناك استجابة للخدمة في الجيش النظامي وخصوصاً من قبل الضباط الذين لم يتمكنوا من ترتيب وضعهم الاقتصادي . وعلى خلفية حرب الايام الستة كان من الضباط من بقي في الجيش بعد الحرب مباشرة ، لانهم اعتبروا انفسهم يقدمون الكثير في هذا المضمار . في تلك الفترة اخذوا يتمتعون بالرخاء الاقتصادي ،

ولا شك في انه اثر على صغار الضباط بصورة اساسية — رغم انه اثار حسد الضباط القدامى . الاعلى رتبة . كانت هناك حالات اخرى ، ان ضابطاً صغيراً — برتبة نقيب او رائد — شغل شبكة كبيرة من عشرة جرارات واكثر ، وكان كل عامل جرار يتقاضى مبلغاً يتراوح بين الفين الى ثلاثة آلاف ليرة شهرياً ، بينما كان ذلك الضابط يتقاضى نحو ٥٠٠ ليرة فقط . « هذا يفقأ العينين ، ويصيب بالصمم » .

ولّد الاثراء السهل نسبياً ، طبقة جديدة من الاثرياء الجدد ، الذين كسبوا الاموال بسهولة وانفقوها بسهولة ايضاً . هم الذين املوا ، الى حد بعيد ، معدل الارتفاع المذهل في مستوى المعيشة في البلد ، خلال السنوات الست الاخيرة . ونتيجة لهذا زاد الطلب على المنتجات الكمالية ، كالسيارات الفارهة ، والاثاث الثمين ، والمباني الواسعة الاكثر كلفة . ان سلوك هذه الطبقة القليلة نسبياً جرف وراءه الآخرين ، من بينهم من لم يستطع الصمود امام الضغط وفشلوا في منتصف الطريق .

كان من بين هؤلاء الفاشلين ضباط من سلاح الطيران ، الذين تعاونوا مع مزود تجهيزات مكتبية للجيش الاسرائيلي ، وتآمروا معه من اجل خداع الجيش ، كما تم القبض على جنود من سلاح البحرية ، او مسؤول عن مخازن « الكانتين » ، في محاولة التهريب والسرقة .

لقد بدأت تظهر في الصحف اخبار عن جنود وضباط ارتشوا وقدموا الى المحاكمة ، او عن مجموعة جنود ضللت اباً فقد ابنــه الجندي ، واراد ان يعرف كيف قتل بالضبط .

لم يكن القادة الكبار دائماً مثالاً ايجابياً في هذا المجال . فقد حاول حاييم بار — ليف مثلاً ، عند انتهاء عمله ، كرئيس للاركان ، الاهتمام بامكان منح سائقه الشخصي في الجيش امتيازاً لفتح محطة وقود ، كان قد فقد حقه في الحصول عليها ، عندما كان مشوهاً ، قبل ذلك بعدة سنوات . وقد اثار نشر هذا الامر في إحدى الصحف المسائية غضبه . وتبنى الجنرال حاييم بار — ليف ، وعدد من كبار الضباط الآخرين ، موضة تدخين السيجار الثمين ، وهو امر غير منبوذ طبعاً ، ولكنه يشير الى الجو ونهج الحياة اللذين كانوا يعيشون فيهما . لقد قفز مستوى معيشة قادة الجيش ، الذي كاد يكون سبارتياً ، دفعة واحدة ، الى اعلى المستويات .

واما من الناحية الظاهرية ، فقد ثابر هؤلاء القادة على الاهتمام بماضيهم البعيد ، وعدم الانفصال عنه ، والاشتراك في اجتماعات البلماح ، وتنظيم الحفلات على طريقة الدولة التي ما تزال في طريق التكوين .

قال عنهم الجنرال (متقاعد) عيزر وايزمن ساخراً : « انهم لا يضعون ربطات عنق . ولكنهم يرتدون قمصاناً ثمن الواحد منها ٨٠ دولاراً ... »

فجأة بدأ كبار القادة يكرسون وقتاً لمواضيع هامشية : تلقى احدهم اسدين كهدية . رباهما في قيادته العسكرية وحتى انه اقام لهما عريناً خاصاً . وآخرون رعوا جوقات الترفيه العسكرية ، العاملة تحت قيادتهم ، وبذلوا كل ما في وسعهم لاضفاء العظمة عليها واشهارها هي واناشيدها . مثلاً ، اتصل احدهم مرة ، هاتفياً ، بمحطة الاذاعة العسكرية ، وامر باذاعة نشيد معين تقدمه جوقة قيادته . وقد تدخل قائد كبير آخر في إخراج حفلة ترفيهية ولم يتغيب عن أية بروفة للجوقة . واصبح العرض الاول لبرامج الجوقات العسكرية ، أمسيات اجتماعية لامعة في تل أبيب . وكانت النخبة المتعجرفة في تل أبيب تجتمع في بيت الجندي لمشاهدة المجندات والمجندين الذين يظهرون امامهم ، دون ان يفهم هؤلاء ، في كثير من الحالات ، لغتهم وطريقة حديثهم الجديدة . وبدلاً من ان يكيفوا انفسهم للظهور امام الجنود في ظروف الميدان ، فقد كان الانفعال الكبير عند الجوقات العسكرية عشية ظهورها في تل أبيب بالذات .

ويعود السؤال ما هو المسموح للقائد الكبير ، وما هو المحظور عليه ، ليقف دائماً في ظل تصرفات موشيه دايان وزير الدفاع . وكانت القاعدة ان المسموح به للحاخام — مسموح به أيضاً لبقرته . كان دايان يقود سيارته بسرعة ، دون الانتباه الى اشارات المرور والمفارق ، وهكذا فعل رئيس الاركان وكبار الضباط الآخرين . كان يتناول طعامه في مطعم « كفريتشيو » الفخم — كذلك كان يتدفق الآخرون في اعقابه . لقد تهامسوا في الجيش الاسرائيلي بقصص موشيه دايان « الطائش » ، وجرى كلام كثير ، بين اشياء اخرى ، عن معدات عسكرية وضعت تحت تصرفه ، بما في ذلك الطوافة العسكرية ، لنقل الاثريات واللقى الاثرية الاخرى الى مجموعته . من الصعب القول ان وزير الدفاع كان قدوة شخصية ومثالاً سامياً على المستوى الاخلاقي والمحافظة على القانون في الجيش الاسرائيلي .

اهتم دايان ، في نطاق وزارته ، بموضوعين رئيسيين : العمليات القتاليـة للجيش الاسرائيلي ، والمناطق المحتفظ بها . لقد كرس جزءاً كبيراً من وقته لمعالجة مشاكل المناطق الى ان لازمه لقب « قيصر المناطق » . اما المواضيع الاخرى فقد كانت من اختصاص الجنرال (احتياط) تسفي («تشيري») تسور ، الذي اعتمد عليه دايان ، في المجال الاقتصادي ، اعتماداً كلياً . ونتيجة هذا ، دهش مثلاً ، في السنة الاخيرة ، عندما سمع بالنقد الموجه الى ما يجري في الصناعة الجوية — اكبر مشروع صناعي في اسرائيل . لقد بدأ يهتم بالموضوع ، واكتشف ، ان الاوضاع في الصناعة الجوية لا تسير كما يروقه . لقد صب جام غضبه على تسفي تسور ، الذي لم يدر المشروع كما يجب ، ولم يقدم له تقريراً عما يجري . ونتيجة لذلك توترت العلاقات بينهما في السنة الاخيرة . وفي الواقع أبعد تسور عن دايان حتى انه طلب قبيل نهاية السنة الاستقالة من منصبه .

وحتى في وزارة الدفاع التي يترأسها موشيه دايان ، جرت الامور بصورة متعبة ومرهقة . لقد دارت حروب اليهود حول تقاسم الامجاد والمناصب ، وكانت التغييرات في قيادة الوزارة صغيرة بصورة مذهلة .

لقد كان لهذا الوضع انعكاسات خطرة على الانضباط والقيم في الجيش الاسرائيلي . لقد حذر الجنرال (احتياط) حاييم هرتسوغ ، المعلق العسكري ، في مقالين ، من انخفاض الانضباط في الجيش الاسرائيلي ، كما برز بعد حرب الايام الستة بصورة خاصة . وكان عدد القتلى في حوادث الطرق في الجيش الاسرائيلي بالنسبة الى مجموع السكان مؤشراً واضحاً على ذلك . وبعد ان عين الجنرال شموئيل غونين رئيساً لقسم التدريب فقط ، قبل ان يعين قائداً للجبهة الجنوبية ، اتخذ مجموعة من الخطوات الجذرية التي أدت الى تخفيض عدد الحوادث في الطرق وفي التدريبات . لقد زعم الجنرال هرتسوغ مثلاً ، ان السماح بوضع القبعة العسكرية على كتفية البزة ، بدلاً من وضعها على الرأس ، او السماح للمجندات بإسدال شعورهن وتطويلها ، كانت دليلاً على رضوخ سلطات الجيش لتجاوزات الجنود لقواعد الانضباط .

كان للمناخ العام في الدولة جزء في سلم الافضليات الذي منحه الجيش الاسرائيلي بالنسبة الى توزيع ميزانيات الامن الضخمة التي وضعت تحت تصرفه . اذا كان بالامكان تخصيص مبلغ ١٧ مليون ليرة اسرائيلية لبناء قلعة فخمة نسبياً ، في المناطق المحتفظ بها — قلعة كفير — او تخصيص عشرات الملايين من الليرات من اجل اجراء عروض عسكرية « لرفع الروح المعنوية » — في الوقت الذي كان هناك نقص في الميزانيات لشراء وسائل قتالية اولية — فهذا يدل على ان هناك خللاً ما في سلم الافضليات في الجيش الاسرائيلي .

ان نصيب ميزانية الدفاع في الميزانية العامة ، حال دون امكان تخصيص موارد مالية اكبر لحل مشكلة الضائقة الاقتصادية في الدولة ، او بناء مساكن للازواج الشباب . ونتيجة لهذا تزايدت المطالب بتخفيض ميزانيات الدفاع ، وتقليص حجم الاقتصاد العسكري . ان ظاهرة الاسراف في الجيش بهرت عيون الجمهور ، وقد قال الجنرال اريك شارون ، عندما سرح من الخدمة العسكرية ، انه بالامكان تقليص ميزانية الدفاع بمبلغ مليار ليرة في السنة بسهولة ، دون المساس باحتياجات الدفاع في الدولة .

انضمت الى هذه الظواهر الشائنة ، ظاهرة التسيس المتزايد في الجيش . لقد كانت نتيجة مباشرة لعملية تقديس الجنرالات ، الذين كلما اصبحوا اكثر شعبية ، بدوا في نظر الاحزاب بانهم جاذبو اصوات مضمونة في ساعة الانتخابات ، اذا ما وضعوا في قوائم المرشحين التابعة لها . لقد تولد وضع اصبحت الاحزاب فيه تغازل بعض الجنرالات حتى في اثناء فترة خدمتهم العسكرية . حتى ان الجنرالات الذين سرحوا من الجيش

الاسرائيلي « هبطوا » مباشرة الى الحياة السياسية دون فترة سكون وانتظار . فقد عين الجنرال حاييم بار — ليف وزيراً في الحكومة ، من قبل حزب العمل ، بعد ان خلع بزته العسكرية بفترة قصيرة . ودخل الجنرال عيزر وايزمن ايضاً الوزارة ، من قبل حزب جاحل ، في الفترة التي كانت فيها حكومة تكتل وطني في اسرائيل . لقد اخذ العمل السياسي يستهوي الجنرالات . ولم يكن هناك من يوقف مسيرة التسيس في الجيش الاسرائيلي ويمنعها .

وعلى هذا الاساس ، كان اعتزال الجنرال اريك شارون ، قائد المنطقة الجنوبية ، من الجيش قبل ثلاثة اشهر من الحرب فقط ، صدمة . واضطر شارون ، الذي لا يعترض احد على كفاءاته كرجل عسكري محترف وقائد قادر على اثارة جنوده ، الى اعتزال الجندية بعد ان شعر ان الطريق الى منصب رئيس الاركان مغلق في وجهه ، بسبب المعارضة السياسية من قبل قادة حزب العمل بحسب رأيه . وفجأة اعلن : « تعذر علي الاستمرار في خدمتي العسكرية » ، فخلع بزته وقفز بين ليلة وضحاها الى الحمام السياسي الصاخب في اسرائيل ، وذلك من اجل توحيد احزاب المعارضة اليمينية في حزب واحد — الليكود .

عندما نشبت الحرب وجند الجنرال شارون في الاحتياط ، وعين قائداً لفرقة مدرعة في سيناء ، كان هناك جنرالات آخرون محسوبين على الحزب الحاكم . ونتيجة لهذا بدأ الجنود في الميدان ، في اثناء الحرب ، يتحدثون عن « فرقة الليكود » او عن « فرقة المعراخ » . فالحاجز الذي اهتم دافيد بن — غوريون باقامته طوال سنوات عمله كرئيس للحكومة ووزير للدفاع ، بين الجيش والحياة السياسية ، سقط قبل سقوط خط بار — ليف .

الفصل التاسع

عنوان على الحائط

عندما أقام بلشاصر ملك بابل ، حفلة شراب لعظمائه الالف ، كما جاء في التوراة (دانييل «ه») ، وبينما كان المحتفلون يشربون النبيذ في أواني الذهب التي سلبها نبوخذ نصر من الهيكل ، برز جزء من يد وكتب على مرأى من الحفل المخمور عنواناً على الحائط : «احصى الله ملكك وانهاه» . ولم يستطع اي من حكماء بابل فك رموز هذا العنوان . وقد نجح النبي دانييل وحده في قراءتها وتفسير معناها : تحذير بالنسبة الى المصير المنتظر لمملكة بابل .

وابتداء من الحادي والثلاثين من شهر أيار (مايو) سنة ١٩٧٢ ، كررت حفلة شراب بلشاصر ، والعنوان على الحائط ، نفسها . وهذه المرة في اسرائيل . وبينما كانت الدولة بأجمعها منتشية من الازدهار الاقتصادي الذي لم يسبق له مثيل ، ومن الارتفاع السريع في مستوى المعيشة ، ومن الهدوء على الحدود ، بدأت تظهر على حيطانها عناوين غريبة لم يستطع أي من حكمائها فك رموزها . وكانت هذه عناوين تحذيرية ، مما هو آت ، ومما يحتمل ان يهدد مصير الدولة . ولم يكن هناك عنوان واحد بل سلسلة طويلة من العناوين التحذيرية ، التي كان ينبغي ان تشعل اضواء حمراء أمام اعين القيادة السياسية والامنية في اسرائيل . ولكن هؤلاء ، في نشوة انتصاراتهم وسيطرتهم الراسخة ، لم يستطيعوا فك رموز العناوين المكتوبة على الحائط ، التي تضمن كل منها خلاصة تلك التقصيرات التي أدت بدولة اسرائيل الى حافة الكارثة ، عندما برزت وظهرت يوم الغفران سنة ١٩٧٣ .

في تلك الايام ، كانت اسرائيل تبدو في نظر العالم قلعة عسكرية لا يمكن هزيمتها . وكانت الجيوش الاخرى تنظر ، بحسد وغيرة ، الى قوة الجيش الاسرائيلي وجرأته ، وعملياته المفاجئة والمبتكرة . وعم العالم بأسره تقدير مقاتلي الجيش الاسرائيلي واكبارهم . واصبح موشيه دايان ، القائد العسكري الأعور ، رمزاً ونموذجاً مجسداً للقائد العسكري المنتصر الذي لا يعرف الخوف . والاعمال العسكرية التي اضطرت اسرائيل الى تنفيذها في محاربة

الارهاب الفلسطيني ، صوّرت مقاتلي الجيش الاسرائيلي ، في نظر الرأي العام العالمي ، كسوبرمان تتوارى اعمال جيمس بوند البطولية خجلاً امام اعمالهم . وغارة الجيش الاسرائيلي على قلب بيروت ، عاصمة لبنان ، في نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٣ ، عندما وصلت القوات المغيرة الى المدينة عن طريق البحر ، وتوجهت بالسيارات لتصفية بعض زعماء « منظمات التخريب » ، ولنسف قيادة احدى المنظمات في المدينة ، هذه الامور ضخمت من مظهر قوة اسرائيل العسكرية ليس في نظر العالم فقط ، بل وفي نظر الاسرائيليين أنفسهم أيضاً .

لكن بريق بعض العمليات العسكرية الباهرة والمعقدة ، التي تكللت بالنجاح ، اخفى سلسلة فشل طويلة من عمليات الامن والاستخبارات العسكرية ، التي كان كل منها بمثابة عنوان على الحائط .

في الحادي والثلاثين من ايار (مايو) سنة ١٩٧٢ ، وصل الى مطار اللد ، على متن طائرة تابعة لشركة اير فرانس ، في رحلة جوية من باريس عن طريق روما ، ثلاثة من المسافرين اليابانيين الذين ظهروا بمظهر السياح تماماً ، لكنهم كانوا فعلاً أعضاء المنظمة اليابانية المتطرفة ، النجم الاحمر . وانتظروا حتى أُدخلوا الى قاعة الانتظار الكبيرة ، في ردهة الاستقبال في المطار ، ثم تقدموا الى ممرات الامتعة المتحركة ، وانتشلوا حقائبهم ، وسحبوا من داخلها بنادق هجومية من طراز كلاشينكوف ، وقنابل يدوية ، وفتحوا النار فوراً على المسافرين المتجمعين في ردهة الانتظار ، وعلى اولئك الذين قدموا لاستقبالهم ، والذين كانوا ينتظرونهم خارج الحاجز الزجاجي . وألقوا القنابل ، دون تمييز ، وسط جمهور يضم عدداً كبيراً من الاولاد والنساء ، وافرغوا ، خلال بضع دقائق ، مخازن رصاص كاملة من بنادقهم الهجومية ، دون ان يتمكن احد من رجال الامن المتواجدين في المطار من إيقافهم . وخلال دقائق معدودة جعلوا من ردهة الانتظار مسلخاً ، فقتلوا ٢٤ شخصاً ، وجرحوا عشرات آخرين ، معظمهم حجاج من بورتوريكو . وقد قتل اثنان من المهاجمين ، في اثناء محاولتهما الهرب ، وقبض على ياباني ثالث يدعى كوزو اوكاموتو ، وقدم الى المحاكمة العسكرية ، وحكم عليه بعد ذلك بالسجن المؤبد في اسرائيل . وظلت اسرائيل مصدومة لبضعة أسابيع . لقد اثارت سلسلة التقصيرات الامنية ، التي مكنت من تنفيذ المجزرة ، الرأي العام الاسرائيلي اكثر من المذبحة ذاتها . فحمام الدماء في اللد لم يكن مجرد جريمة منكرة قام بها المتعصبون اليابانيون ، ومرسلوهم العرب ، بل كانت ايضاً هزيمة قاطعة للجهاز الامني الاسرائيلي .

كان التقصير الاول ، الذي مكن من تنفيذ المجزرة ، تقصيراً واضحاً للمخابرات . وبعد مجزرة اللد ، حاولت بعض الجهات الامنية تبرئة ساحتها بادعائها : « هذه ظاهرة جديدة ، واسلوب جديد لم نعرف شيئاً عنه ، ولم نستعد لمثل هذا الامكان المروع » .

ولكن اتضح ايضاً في هذا الحادث ، تماماً كما كان يحتمل ان يحدث في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٧٣ ، انه كان لدى الجيش الاسرائيلي . ولدى جهاز المخابرات الاسرائيلية ، معلومات مفحوصة ومدروسة دلت على ان منظمات الارهاب الفلسطينية لها صلات وثيقة بمنظمات يسارية عنيفة في انحاء العالم ، تتعاون معها وتجند متطوعين منها لاقامة فيلق من الارهابيين الاجانب .

ولم تكن لدى اسرائيل معلومات واضحة في هذا الشأن فحسب ، بل انه أُلقي القبض فيها على عدد من المواطنين الاوروبيين العاملين لحساب المخربين ، قبل وقوع مجزرة اللد ، والذين حاولوا تنفيذ عمليات تخريب في اسرائيل لحسابهم . وبعد فترة وجيزة من مجزرة اللد ، اشار الجنرال دافيد ألعازار ، رئيس الاركان ، الى انه كانت لدى الجيش الاسرائيلي معلومات اشارت الى ان متطوعين يابانيين من اعضاء منظمة النجم الاحمر السرية الماركسية ، يتدربون في معسكرات تدريب المخربين في لبنان . وقد كان هذا احد الحوادث البارزة التي فشل فيها جهاز الامن في تقويم المعلومات ، ولم يستخلص منه العبر المتوجبة .

اما التقصير الثاني في هذه القضية ، فقد اشار الى وجود خلل ما في الجهاز المفكر الذي يتولى تقويم اساليب العمل الممكنة للمخربين ، وتحديد طرق مكافحتها . وحتى ذلك الوقت ، ابتداء من اختطاف طائرة أل – عال الى الجزائر في صيف سنة ١٩٦٨ ، ركزت منظمات التخريب الفلسطينية اساساً على اختطاف الطائرات ، ومهاجمة طائرات أل – عال ومكاتبها في اماكن مختلفة من العالم . ان احداً من اولئك الذين كان يتوجب عليهم القيام بذلك ، لم يأخذ بالحسبان خروج « المخربين » عن نمط اعمالهم ، بالدخول الى اسرائيل نفسها وتنفيذ عمليات داخلها ، وعدم الاكتفاء باختطاف الطائرات وهي في الجو .

لقد اشارت مجزرة اللد الى وجود ثغرة عميقة في جهاز الوقاية الاسرائيلي . وفي الحقيقة ، كان بامكان شخص ما احضار سلاح في حقيبته ، في رحلة من خارج البلد ، واستلام الحقيبة في قاعة الانتظار في المطار ، واخراج سلاحه منها هناك ، وفتحه النار دون ازعاج . لانه حتى ذلك الوقت ، كانت شركات الطيران الدولية قد اتخذت تدابير امن فقط ضد امكان اختطاف الطائرات وهي في الجو . ولم يكن يفتش ، حتى ذلك الوقت ، من امتعة المسافرين المتوجهين الى اسرائيل ، الا الحقائب المحمولة باليد ، اما حقائب الداخلين الى البلاد وامتعتهم غير المحمولة باليد ، فلم يجر تفتيشها قبل ان تسلم الى اصحابها في صالة المطار . ولم يفكر احد بامكان قيام بعض المخربين الانتحاريين بنقل سلاح في امتعتهم واستخدامه بعد استلامهم لها .

وهناك تقصير لا يقل خطورة ، وهو عدم تقويم مدى أستعداد شركات الطيران

الاجنبية للقيام بفحص وقائي للمسافرين الى اسرائيل ولأمتعتهم . وبعد وقوع الكارثة ، حاولت غولدا مئير رئيسة الوزراء ، إلقاء المسؤولية على المسؤولين عن شركة اير فرانس للطيران ، فاتهمتهم ، بصورة غير مباشرة ، بأن اهمالهم هو الذي مكن اليابانيين من نقل سلاح وقنابل في أمتعتهم .

وقد زادت رئيسة الوزراء ، بمحاولتها هذه بالذات ، من خطورة مسؤولية اسرائيل عن التقصير . فإهمال شركات الطيران الاجنبية ، في اجراء فحوص أمنية على مسافريها المتوجهين الى اسرائيل . كان امراً معروفاً من قبل . واذا كان معروفاً بالفعل ، ان شركات طيران معينة تتوانى عن اجراء تفتيش أمني ، فلماذا لم تتخذ اجراءات ملائمة لمواجهتها قبل المجزرة ؟ لماذا لم تأخذ اسرائيل على عاتقها اجراء تفتيش اكثر دقة في أمتعة مسافري هذه الشركات ؟

وكان التقصير الاخير ، عدم توفير الوقاية ، وانعدام الاستعداد والتأهب في قاعة الانتظار والتفتيش في مطار اللد . ففي غالبية مطارات العالم ، يتجول في قاعات الانتظار حراس مسلحون ورجال أمن متسترون ، ويوجد في مطار اللد ايضاً ، الذي هو شريان المواصلات الجوية الدولي الوحيد لاسرائيل ، رجال أمن ووقاية . ولكن الحقيقة هي ، انه عندما بدأ اليابانيون الثلاثة باطلاق النار في كل اتجاه، واصابوا قرابة المائة شخص ، لم يكن في قاعة الانتظار حتى رجل أمن واحد مسلح ، لكي يرد عليهم بالمثل ويسكتهم .

وكانت القضية تقصيراً أمنياً صارخاً . ولكن عندما هدأت الحالة اتضح ان شيئاً لم يحدث . فلم يعف احد من الخدمة ، ولم يعزل آخر ، ولم يستخلص احد عبراً شخصية بالنسبة الى المسؤولين عن التقصير . وكما في احوال اخرى عديدة ، عينت حكومة اسرائيل ايضاً هذه المرة لجنة تحقيق في نطاق « داخلي » . وكما هو مألوف ومعتاد في اسرائيل . فقد كانت الحكومة هي التي حققت مع نفسها . ولم يعاقب احد على هذا الاهمال الشنيع الذي اودى بحياة أناس كثيرين . واما استنتاجات لجان التحقيق تلك ، اذا وجدت اصلاً . فلم يعلم بها الجمهور قط ، وقد عرفت أبواق دعاية الحكومة كيف تشوه الحقائق المروعة وتسكت كافة الاتهامات .

لقد وصف الجنرال دافيد ألعازار ، رئيس الاركان ، (الذي عين مسؤولاً عن الأمن في مطار اللد بعد ان اختطفت مجموعة من « المخربين » طائرة الركاب سابينا قبل اسابيع معدودة من مجزرة اللد ، وهبطت فيها في المطار ، وهددت بنسفها ، لكن مجموعة من الجيش الاسرائيلي نجحت في السيطرة على الطائرة وانقاذ ركابها) مجزرة اللد بانها « من كوارث الطبيعة » . وكانت هذه محاولة لجعل ما حدث ضمن إطار الكوارث التي تتسبب بها « قوة عليا » ، والتي ليس بمقدور الانسان الحيلولة دونها . فعندما نتحدث عن « كوارث الطبيعة » فلا حاجة للبحث عن المذنبين والمسؤولين . وعندما سمع احد

المقربين من رئيس الاركان هذا الوصف أبدى ملاحظة ، بأسف : « اذا كانت مجزرة اللد من كوارث الطبيعة ، فلا اعرف ماذا نسمي الهزة الارضية » ، والهزة الارضية الكبيرة حصلت بعد اربعة اشهر عشية رأس السنة العبرية .

حدث ذلك عندما نجحت مجموعة من رجال منظمة ايلول الاسود ، الذراع الخفية لمنظمة « فتح » الفلسطينية ، في اليوم الحادي عشر للالعاب الاولمبية ، في الدخول الى مبنى البعثة الاسرائيلية في المدينة الرياضية . وقد قتلوا على الفور ، احد الرياضيين الاسرائيليين الذي حاول صدهم ، واسروا عشرة رهائن آخرين من رياضيي البعثة ومدربيها ، وهددوا بقتلهم إذا لم تفرج حكومة اسرائيل عن ٢٥٠ مخرباً عربياً في سجونها .

وبعد ساعات طويلة من المفاوضات المضنية ، سمحت حكومة بافاريا للخاطفين المسلحين بالخروج في طوافات مع رهائنهم الى المطار العسكري المجاور ، حيث وعدتهم بوضع طائرة تحت تصرفهم هناك ، ولكن محاولة غبية فاشلة من قبل رجال شرطة ميونيخ ، لانقاذ الرهائن وإصابة الخاطفين ، أدت الى مقتل الاسرائيليين العشرة . واليوم بات معروفاً ، من الفحوص التي أُجريت لجثث القتلى الاسرائيليين ، ان معظمهم لم يقتل برصاص الخاطفين ، بل برصاص الشرطة الالمانية التي حاولت انقاذهم عن طريق القنص من بعيد ، في أثناء الليل ، دون ان تكون مزودة حتى بأجهزة تصويب ليلية .

حاولت حكومة أسرائيل ان تلقي المسؤولية على عاتق غيرها أيضاً ، في هذه الكارثة التي هزت اسرائيل اكثر من أي هجوم إرهابي سابق . فقد ألح وزراؤها والناطقون باسمها ، بشكل مباشر وغير مباشر ، بإلقاء المسؤولية ، عن مقتل الرياضيين ، على عاتق حكومة المانيا ، التي لم تتخذ التدابير الملائمة لحراسة المدينة الرياضية في ميونيخ ، وحماية حياة الرياضيين الاسرائيليين . لكن المسؤولية الاساسية كانت تقع على عاتق حكومة اسرائيل . فحقيقة نجاح مخربين عرب مسلحين في الدخول ، دون ازعاج ، الى مبنى البعثة الاولمبية الاسرائيلية في المدينة الرياضية ، كانت هزيمة نكراء لجهاز الامن الاسرائيلي ، وتقصيراً أمنياً خطيراً ، بمثابة ألف دليل على ان فساداً ما يتخلل جهاز الامن الاسرائيلي . وكان الاساس في كل هذه التقصيرات يكمن ، هنا ايضاً ، في تقويم جهاز المخابرات الخاطىء . ان التصارع بين جهاز الامن الاسرائيلي ، وبين منظمات الأرهاب الفلسطينية ، قد خرج في هذه المرحلة عن إطار القوة ، واصبح تصارعاً بين الادمغة والمكائد . وفي الوقت الذي يجهد « المخربون » فيه أدمغتهم لاستنباط اساليب جديدة لضرب اسرائيل ، فقد كان عــلى جهاز الامن الاسرائيلي ان يفكر مسبقاً بكل امكان كهذا والاستعداد له .

ولم تخف على جهاز المخابرات الاسرائيلي ، حقيقة ان المانيا تستخدم كأحد القواعد الرئيسية للنشاط التخريبي العربي في اوروبا . فالمعلومات التي وصلت من مصادر مختلفة ،

اشارت الى حقيقة ان إحدى المنظمات التخريبية العربية على الاقل ، تعد عملية ضد اسرائيل بمناسبة الالعاب الاولمبية في المانيا . وإزاء هذه المعلومات ، فقد كان واضحاً ان البعثة الاسرائيلية الاولمبية بحاجة الى حماية محكمة ، لانها ستكون هدفاً ممتازاً ، ومكشوفاً لضربات « المخربين » .

ولكن على الرغم من هذه المعلومات المتوفرة لدى المخابرات ، فقد كان التقدير ان هناك احتمالاً ضئيلاً فقط لامكان مهاجمة البعثة الاسرائيلية . وجزمت الفرضية الاساسية لهذا التقدير بانهم « لن يتجرأوا » . وكان الخط الفكري الذي ارتكز اليه هذا التقدير الخاطىء كما يلي : « ان الدورة الاولمبية شعار لاخوة الشعوب ، ولتكتل الانسانية حول الرياضة . وتشارك غالبية دول العالم في الالعاب الاولمبية . وكل محاولة لتوجيه ضربة للبعثة الاسرائيلية لهذه الالعاب ، هي بمثابة محاولة لتخريب الالعاب الاولمبية نفسها . ولذا لن تجرؤ أية جهة عربية على اتخاذ خطوة قد تثير العالم كله ضد القضية العربية .

وحتى بعد ان دحض تقدير المخابرات هذا ، لم ينته مسلسل التقصيرات . فكل ما حدث في الساعة العشرين ، التي مرت منذ اللحظة التي علم فيها بهجوم رجال ايلول الاسود، وحتى نشر نبأ موت الرهائن ، يكوّن صورة بائسة كاملة من العجز والافلاس .

فخلال تلك الساعات ، لم تتخذ حكومة اسرائيل أية مبادرة حقيقية بهدف انقاذ حياة الرهائن . فقد وقفت كمتفرج على المأساة الدائرة في ميونيخ ، منتظرة حدوث أعجوبة ، مبيحة حياة رجال البعثة لرحمة الالمان ومقدرتهم ، او عدم مقدرتهم ، على انقاذهم من أيدي آسريهم . وخلال الساعات التي كانت حياة الرهائن معلقة أمامهم ، لم يقدر وزراء حكومة اسرائيل خطورة الوضع . فالنبأ حول احتجاز الرهائن ، وصل الى اسرائيل ساعة كانت رئيسة الوزراء تستعد لمعركة كلامية في الكنيست ، لاقناع اعضائه بالموافقة من جديد على تعيين يعقوب شمشون شابيرا وزيراً للعدل . وبينما كانت المعلومات تتدفق من ميونيخ ، دون انقطاع ، واصل اعضاء الحكومة المجتمعون في مبنى الكنيست ، المناقشات والاستشارات حول قضية شابيرا .

وبدلاً من ان تعقد جلسة سريعة تدعو اليها جميع الجهات والاشخاص ذوي العلاقة ، لترسلهم بالسرعة الممكنة الى المانيا لكي يشاركوا في المفاوضات مع الخاطفين ، ويتخذوا خطوات تخطيط انقاذ الرهائن ، اكتفت حكومة اسرائيل ببيان وجهته الى الالمان ، بانها غير مستعدة ابداً للبحث في اطلاق سراح « المخربين » المسجونين مقابل الرهائن ، او في تنفيذ اي مطلب ابتزازي آخر للخاطفين . وفي المرحلة نفسها ، وفي ساعات الصباح من يوم الاختطاف ، اعطت حكومة اسرائيل موافقتها للالمان لاستخدام القوة ، اذا لم يكن هناك خيار آخر ، لاطلاق سراح المختطفين . وقد اعطيت هذه الموافقة

دون ان تعلم أسرائيل شيئاً عن خطط الانقاذ ، وعن المخاطر او الاحتمالات الكامنة فيها ، في سبيل اطلاق سراح المختطفين .

وفي الساعة السادسة مساء ، من اليوم ذاته ، وعندما كان موعد الانذار الاخير ، الذي اعطاه رجال ايلول الاسود في ميونيخ، على وشك الانتهاء ، وجدت غولدا مئير رئيسة الحكومة ، متسعاً من الوقت لترك مكتبها ، والسفر الى بيت اليشيفع في القدس ، للاشتراك في احتفال بمناسبة السنة الجديدة . وبعد ذلك أوضح المقربون منها معنى تصرفها الغريب هذا بقولهم : « لم يصدق أحد اسوأ الاحتمالات » . ويعكس هذا القول جيداً اللامبالاة ، وعدم القدرة على التصرف ، اللذين ميزا حكومة اسرائيل في تلك الساعات المصيرية . فقد ضلل بعضهم وزراءها بحملهم على الاعتقاد انه لا مجال للخوف ، وان خبرة الماضي قد تدل على ان الارهابيين الفلسطينيين ليسوا إلا جبناء ، ويكفي ارهاقهم و « المماطلة » في المفاوضات معهم حتى يمكن التغلب عليهم واخضاعهم .

وبعد تأخير ملحوظ ، قررت الجهات المعتمدة ان ترسل الى المانيا موظفاً كبيراً ، لم يكن على حد قول الصحافة الاجنبية سوى رئيس مؤسسة المخابرات العامة في اسرائيل الجنرال تسفي زمير نفسه . ولم يغادر المبعوث الاسرائيلي إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر ، ولدى وصوله الى ميونيخ لم يتمكن إلا ان يكون شاهداً للمعركة التي جرت في المطار العسكري حيث احضر الرهائن مع مختطفيهم

وعندما كان المبعوث في طريقه الى المانيا ، وصل الى حكومة اسرائيل المطلب الاخير الذي تقدم به الخاطفون « المخربون » . فقد تخلوا عن مطالبهم السابقة ، وطلبوا الآن وضع طائرة تحت تصرفهم ليطيروا بها ، مع الرهائن ، الى دولة عربية، ولم تستطع الحكومة الالمانية الاستجابة لهذا المطلب دون موافقة اسرائيل . ولو فعلت ذلك ، لأتهمتها اسرائيل فوراً بالتخلي عن الرهائن الاسرائيليين . ولو وافقت حكومة اسرائيل على هذا المطلب ، لسمح الالمان للخاطفين بان يستقلوا الطائرة مع الرهائن ، وعندها لو نقل الرهائن الى اية دولة عربية ، فقد يكون من الصعب اطلاق سراحهم ، وربما كان من الضروري دفع ثمن ما مقابل ذلك، الا ان احتمال بقائهم في قيد الحياة كان اكبر ، دون ادنى شك .

لكن حكومة اسرائيل اوضحت للالمان انها غير مستعدة لاعطاء موافقتها على نقل الرهائن مع خاطفيهم الى دولة عربية . وهكذا لما لم يبق امام الخاطفين اي منفذ للتراجع ، فقد تقرر مصير الرهائن — الموت .

وبالاضافة الى هذه الاخطاء في التقدير ، والتي لازمت المأساة من بدايتها حتى نهايتها ، كانت هناك تقصيرات في مجالات مختلفة منها : عدم مرافقة رجال الامن للبعثة الاسرائيلية الى الدورة الاولمبية . ان المقر الاسرائيلي في المدينة الرياضية ، لم يكن

بحراسة رجال امن اسرائيليين ، وكذلك ، لم تعط توجيهات لاحد من البعثة الاسرائيلية ، ولم يزود احد بسلاح لمواجهة احتمال قيام الارهابيين العرب بهجوم . وايضاً ، لم يكن عضو البعثة الاسرائيلية ، الذي اتفق على ترتيبات الامن مع رئيس شرطة ميونيخ ، رجل أمن محترف ، بل كان طبيب الوفد الدكتور ماتي كرفتس . ان هذه الامور كلها تتجمع لتكون صورة كاملة من الاهمال الاثيم . لكن ، لم يكن احد ، في حكومة اسرائيل ، مستعداً ليأخذ على عاتقه مسؤولية ما حدث في ميونيخ . بل على العكس ، فقد بذل كل واحد من وزراء حكومة اسرائيل جهوداً للتملص من المسؤولية . واما موشيه دايان وزير الدفاع ، فقد حرص على ان يوضح فوراً في بيان صحفي ، بأن قضية ضمان سلامة الاسرائيليين في الخارج ليست من مسؤولية وزارته .

ولكي تبرىء نفسها من المسؤولية ، هاجمت حكومة اسرائيل ، بشكل غير مباشر ، الاهمال الذي أبدته سلطات بافاريا . ولكن الغضبة العامة ، التي قامت في اسرائيل على التقصيرات، اضطرت الحكومة ثانية ان تسحب من جعبتها العلاج الروتيني المجرب : لجنة تحقيق . وفي هذه المرة أيضاً ، كما في الحالات السابقة ، كانت هذه لجنة لطمس المعالم ، عملت بسرية ، وقد حققت الحكومة فيها مع نفسها .

وكان كافياً أن نفحص مدى الصلة بين أعضاء تلك اللجنة وبين الحكم ، لكي نعرف مقدرتها على نقد ومراقبة تقصيرات الحكومة . فاعضاء اللجنة الثلاثة هم : موشيه كشتي ، مدير عام وزارة الدفاع سابقاً ومدير شركة « تسيم » ، المقرب من الوزير بنحاس سابير ، وافيغدور برطال ، مدير معامل التكرير في حيفا ، وبنحاس كوبال ، المفتش العام للشرطة سابقاً ، والذي كان معروفاً بنزاهته ، ولكنه يفتقر الى الشجاعة في علاقاته العامة ، والى الفطنة ، حيث حرص على ألا يخوض نزاعاً مع احد .

وليس غريباً ان تجد اللجنة ، في اعقاب التحقيق السري ، ثلاثة من الموظفين ذوي الرتب المتوسطة هم « المذنبون » : ضابط أمن في سفارة اسرائيل في بون ؛ موظف في وزارة الخارجية كان على وشك الاحالة الى التقاعد ، على اي حال ؛ وموظف في جهاز الامن كان ايضاً على وشك التقاعد ، وقد استمر في عمله فقط لانه كان مريضاً في القلب ، وخشوا ان يفصلوه لئلا يسببوا له انفعالاً . وقد عزل هؤلاء الثلاثة من مناصبهم . بعد « قطع الرؤوس » المزري ، الذي لم ينطو على النقد ضد وزير او اي موظف كبير ، لان هؤلاء ، في نظر غولدا مئير ، « دائماً على ما يرام » ، نسي الرأي العام في اسرائيل قضية ميونيخ ايضاً . وغرقت تقصيراتها ، التي كان يجب ان تشعل « ضوءاً احمر » بالنسبة الى المستقبل ، في متاهات النسيان .

ولم تمر ثلاثة اشهر وحدثت قضية اخرى . ففي نهاية كانون الاول (ديسمبر)

١٩٧٢ سيطرت مجموعة من رجال ايلول الاسود على سفارة اسرائيل في بانكوك ، عاصمة تايلاند ، واحتجزت بعض موظفي السفارة ، وبينهم سفير اسرائيل في كمبوديا ، كرهائن .

ولم تكن المفاجأة في الهجوم بحد ذاته بل في حقيقة نجاحه . لانه ، منذ كارثة ميونيخ ، عرف جهاز الامن الاسرائيلي ان جميع مفوضيات اسرائيل في الخارج هي اهداف ممكنة لهجمات « المخربين » ، ولمحاولة الاستيلاء عليها . ولاستباق الضرر ، بعد كارثة ميونيخ ، زادت وسائل الحراسة والحماية على المفوضيات الدبلوماسية الاسرائيلية في انحاء العالم . وقد طلب من رجال الامن فيها ان يكونوا على استعداد دائم . وقد اتخذت سلسلة كاملة من التدابير للحيلولة دون حدوث مفاجأة اخرى على غرار ميونيخ ومع هذا فقد نجح رجال ايلول الاسود في اقتحام مبنى السفارة الاسرائيلية في بانكوك بسهولة مذهلة .

وبقيت غالبية تفاصيل هذه القضية مغطاة بالضباب بالنسبة الى المواطن الاسرائيلي ، وبذلت الحكومة ، التي كانت تعرف جيداً الهيجان الذي حصل في اعقاب مجزرة الرياضيين في ميونيخ ، جهوداً لطمس معـالم الحقيقة الاساسية وهي انه ، بأعجوبة فقط ، تم الحؤول دون كارثة كبيرة في بانكوك . وعندما نجحت حكومة تايلاند الابية ، وسلطات الامن فيها ، في اجراء مفاوضات مع « المخربين » أدت في نهاية الامر الى اطلاق سراح الرهائن ، اكتفت حكومة اسرائيل ببيان رسمي بموجبه « لن تكون هناك تنازلات « للمخربين » . وقد سارعت الحكومة في عرض اطلاق سراح الرهائن كمكسب اسرائيلي ، وكأن الامر كان ثمرة موقفها المتصلب . وقد سارع كل من غولدا مئير رئيسة الوزراء، وآبا ايبن وزير الخارجية ، والوزراء غليلي ويغئال آلون ، في اخذ الصور من اجل الصحافة الداخلية والعالمية ، وهم يشربون كؤوس الشمبانيا احتفالاً بالحدث .

وايضاً ، بعد التقصير الخطر المتمثل في نجاح اقتحام السفارة الاسرائيلية في بانكوك، لم تعين اية لجنة تحقيق جدية لفحص العوامل التي كان يحتمل ان تؤدي الى كارثة . وقد انتهى كل شيء في « مطبخ » غولدا السياسي ، داخل النادي الامني المغلق لاسرائيل ، والذي يحتكر منذ سنتين شؤون الامن ، ولا يسمح لأناس من الخارج بتوجيه النقد او التنديد بالتقصيرات .

وكل ما فعلته الحكومة للتحقيق في القضية ، كان إرسال الجنرال (احتياط) اهرون ياريف الى بانكوك . وقد ذكرت « معاريف » في ٧٢/١٢/٣١ ما يلي حول سفر الجنرال ياريف : « ... ما زال مستشار رئيسة الوزراء الخاص لشؤون الارهاب في بانكوك مستمراً في التحقيق مع موظفي السفارة الاسرائيلية في تايلاند ، ويجري محادثات مع جميع الجهات الحكومية المحلية بخصوص ما حدث في السفارة الاسرائيلية . ويرفض

السيد ياريف الادلاء بتفاصيل حول خطواته ، واعلن انه سيقدم تقريراً ، حول النتائج التي توصل اليها ، الى السيدة غولدا مئير ، رئيسة الحكومة » .

وهنا ايضا تكرر الاسلوب نفسه : فحكومة اسرائيل حققت مع نفسها ، وقدمت تقريراً حول خلاصة التحقيق الى نفسها ، كما هو متبع في الاساليب المألوفة لدى انظمة الحكم الفردية التي لا يهمها الرأي العام .

فماذا كانت نتائج ذلك التحقيق الذي أجراه الجنرال ياريف في بانكوك ؟ لم تعط اية تفاصيل للجمهور ، ولكن كان بالامكان الوقوف على نزر يسير منه بطريقة غير مباشرة . من خلال ما ذكرته « يديعوت احرونوت » (٧٣/١/١٥) ، في نبأ حول محاضرة ألقاها الجنرال (احتياط) ياريف إمام مجموعة من ضباط الجيش الاسرائيلي المسرحين في حزب العمل في حيفا : « اظهر التحقيق في بانكوك انه ، نتيجة الاهمال ، ترك احد ابواب السفارة دون اقفال ، ومنه دخل «المخربون» » .

وهكذا علم الجمهور في اسرائيل من هو المذنب في التقصير الذي حدث في بانكوك — الباب . ولكن هذا التصريح المذهل ايضاً ، من مستشار رئيسة الحكومة لشؤون مكافحة الارهاب ، لم يعط بشكل رسمي . فقد كان على مواطني اسرائيل ان ينتظروا الى حين عقد اجتماع لهيئة حزبية ، من درجة ثانية في حيفا ، لكي يعلموا « بحادث الباب » .

لم يكن الباب المذنب الوحيد . فقبل ذلك ، في الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ ، كشفت « معاريف » مذنباً آخر . ففي عرض لاستنتاجات الجنرال ياريف من رحلته الى بانكوك ذكرت الصحيفة : « ان احد الآراء يفترض بان ترتيبات الامن في بانكوك ، بسبب البنية الخاصة لمبنى السفارة ، لم تكن كاملة . ويقول رأي آخر ان ترتيبات الامن ذاتها كانت ملائمة ، ولكن في بانكوك لم يحرص على هذه الترتيبات من كان يفترض فيهم الحرص » .

وهكذا وجد اخيراً مذنب آخر : مبنى السفارة .

واليوم يبدو وقع هذه الامور كنكتة مروعة ، وكزاوية تسلية صحافية ، وكأساطير للاولاد المتخلفين . وقد بلع مواطنو اسرائيل هذه الامور بجد كأنباء موثوقة ، دون ان يتحفظ احد حيالها . وكل « تفسير » كهذا للفشل — استقبل كآيات منزلة . وبدلاً من نتائج التحقيق ، واستنتاجات جادة ، بلع مواطنو اسرائيل توضيحات غير جادة ، من هذا النوع ، لانهم اعتمدوا على كون المسؤولين عن أمن الدولة « يعرفون ما يفعلون » .

يجب أن نذكر ان الجنرال اهرون ياريف ، قد عين في وظيفته مستشاراً لرئيسة الحكومة لمكافحة الارهاب بعد كارثة ميونيخ . وفي البداية بدا ان مجزرة ميونيخ ، التي

أذهلت الجمهور الاسرائيلي ، ستزعزع أسس المؤسسة الامنية في اسرائيل ، وستؤدي الى بضعة تغييرات شخصية مهمة في القيادة الامنية ، او الى بلورة مبادرة في المعركة المريرة ضد منظمات الارهاب ، التي سببت لاسرائيل اضراراً بشرية واقتصادية لا تقدر ، والى تبذير مبالغ مالية ضخمة على « تدابير الامن » التي بدت احياناً بلا قيمة . لكن الخطوة الوحيدة التي تمت ، كانت تعيين العميد (احتياط) ياريف في المنصب الخاص الذي ابتدع من اجله .

وياريف القصير القامة ، وصاحب النظارات ، لبق وسلس الحديث . وكان يشغل قبل هذا التعيين ، خلال تسع سنوات ، منصب رئيس شعبة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي ، وقد حظي « اهرلي » كما يسميه اصدقاؤه ، او « الارنب » كما يسميه اصدقاؤه من فترة الخدمة في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية ، بشهرة وسمعة كبيرتين في منصبه السابق ، لانه عرف كيف يبرز ، امام الرأي العام في اسرائيل والعالم ، نجاحات الاستخبارات الاسرائيلية ، وخصوصاً بعد حرب الايام الستة .

ومع تسريحه من الجيش الاسرائيلي في خريف ١٩٧٢ ، كان من المفروض ان يخلف ياريف الجنرال (احتياط) تسفي تسور ، كمساعد خاص لموشيه دايان وزير الدفاع . ولكن انعكاسات مجزرة ميونيخ ، اضطرت غولدا مئير ، رئيسة الوزراء ، الى اتخاذ خطوة تظاهرية نحو إعادة التنظيم ، إزاء الموجة المتزايدة من الارهاب الفلسطيني . لذلك اختطفت ياريف من يدي دايان ، وعينته مستشاراً خاصاً لها لشؤون مكافحة الارهاب ، بعد ايام معدودة من قضية ميونيخ .

ولا شك ان ياريف هو رجل واسع الاطلاع ، وصاحب عقل تحليلي لامع وشخصية حازمة . لكن السؤال الذي لم يجرؤ احد في اسرائيل على المجاهرة به هو : بماذا يمكن ان يساهم هذا المستشار لمكافحة الارهاب ، اكثر مما ساهم في وظيفته العظيمة الاهمية كرئيس لشعبة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي ؟ لان وظيفة المستشار — وليس مهماً على الاطلاق مدى صلاحيته — تبدو دون اسنان تماماً ، اذا قيست بالفترة التي سيطر فيها ياريف على الجهاز الهائل المسمى « الاستخبارات العسكرية » . فكرئيس لشعبة الاستخبارات في هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي ، في فترة حاسمة من ايام وجود دولة اسرائيل بين السنوات ١٩٦٣ — ١٩٧٢ ، كان اهرون ياريف مسؤولاً بشكل او بآخر عن المجال الفلسطيني . ففي الوقت الذي كانت فيه منظمات « التخريب » الفلسطينية في مرحلة الاعداد ، في السنين التي سبقت سنة ١٩٦٧ ، وبعد ان زادت من نشاطها منذ حرب الايام الستة ، كان الجنرال ياريف شريكاً وعضواً بارزاً في القيادة الامنية ، التي استهانت في البداية بهذا الاعداد ، وبعد ذلك عملت ضده بقصر نظر .

فقد كان الجنرال ياريف عضواً في الهيئة العامة التي قررت ، رداً على الاعمال

الارهابية التي نفذها المخربون في اوروبا ضد اهداف اسرائيلية ، ارسال اسراب القاذفات التابعة للجيش الاسرائيلي الى سورية، والالوية المدرعة الى لبنان ، لدفع هاتين الدولتين للعمل ضد « المخربين » العاملين من اراضيهما . لقد كان ينتسب الى ذلك الطاقم الذي قرر استخدام مطارق جوية ثقيلة ضد نخزات الدبابيس ، بدل ان يجد « الملاقط » المناسبة لاستئصال هذه الدبابيس ، الى ان يصبح ممكناً أستئصال جذر القضية بوسائل سياسية .

لكن الرأي العام في اسرائيل تقبّل تعيين ياريف دون تحفظ ، ودون تقديم اية اسئلة ، وحصلت غولدا مئير ثانية على مبتغاها . لان التعيينات لدى امرأة كغولدا ، لا تجري وفقاً لمؤهلات الرجال المعنيين ، او وفقاً لمتطلبات الوظيفة ، فغولدا مئير تتصرف كإمرأة انفعالية ، على المستوى الرسمي ايضاً ، وفقاً لمحبتها وكرهها الخاصين . فهي « تحب » ياريف — لذا فمقامه محفوظ . واذا كانت راضية عن « الهدوء والامن » اللذين اضفاهما حاييم (بار — ليف) فان مستقبله مضمون تحت حكمها . وكونها على صلة مع سيمحا دنيتس — الذي كان بمثابة حاجب ومستشار يدخل الى مكتبها ويخرج منه — كان كافياً لتعيينه في منصب السفير في واشنطن ، خلافاً لرأي وزير الخارجية آبا ايبن ، وعلى الرغم من انه قيل عنه بأنه يفتقر الى المؤهلات اللازمة لاجراء اتصالات ومفاوضات في عاصمة الدولة التي اصبحت ، على حد قول غولدا نفسها ، « حائط المبكى الحقيقي » لاسرائيل . وعندما لم يعد السفير السابق في واشنطن ، الذي اخذ يظهر اتجاهات مستقلة في العمل ، يتمتع باعجابها ، فقد كان هذا كافياً لكي تفرض على رابين ، الذي يعتبر من اواخر العسكريين ذوي التفكير الصافي في قيادة حزب العمل ، حياة المنفى السياسية الى ان تتكرم وترد له اعتباره .

وفي المجال الفلسطيني ، كما في المجالات الاخرى ، لم تتعود غولدا تفحص الامور بموضوعية . فقد كانت تحسم وفقاً لمحبتها او كراهيتها . فهي تحب اهرون ، ولذلك جعلت منه كاتم اسرارها لشؤون مكافحة الارهاب .

يكفي ان نذكر كيف انهى الجنرال ياريف عمله في منصبه كمستشار خاص ، لندلل الى اي حد تحكمت الحسابات المحورية ، وليس الاعتبارات الموضوعية ، في هذا الموضوع الحيوي المتعلق بمكافحة الارهاب الفلسطيني — الذي شغل حكومة اسرائيل وصرف نظرهـا عن قضايا مصيرية مهمة في السنتين اللتين سبقتا حرب يوم الغفران . فقبل مائة يوم من موعد انتخابات الكنيست الثامن ، التي كان من المقرر اجراؤها في الحادي والثلاثين من تشرين الاول (اكتوبر) ، استقال الجنرال ياريف من منصبه هذا ، بنصيحة غولدا ومبادرتها ، لكي يستطيع ترشيح نفسه للكنيست في لائحة مرشحي المعراخ . وبينما لم يأخذ زعماء « المخربين » ، كجورج حبش أو ياسر عرفات ومبعوثيهم ،

اجازة بمناسبة الانتخابات ، كان باستطاعة ياريف ان يستعفي ، وكأن المعركة انتهت ، ولم يعد لرئيسة الوزراء اية حاجة لخبير في هذا المجال . حيث عينت غولدا ، بدلاً من ياريف لمنصب مستشارها في مكافحة الارهاب ، العقيد يسرائيل ليئور ، سكرتيرها العسكري ، وهو شخص سلس المعشر ، يمكن ان يكون سكرتيراً عسكرياً فعالاً لرئيسة الوزراء ، التي تنقصها الخبرة في الشؤون العسكرية ، ولكن بموجب مؤهلاته وماضيه ، وبموجب سيرة حياته الرسمية ، ليست له اية خبرة في هذا المجال الحساس ، مجال مكافحة الارهاب . وبتعيين العقيد ليئور ، كخلف لياريف ، جعلت غولدا من تعيينها لياريف مهزلة . فاذا كان ضابط من المرتبة الثالثة في الجيش الاسرائيلي مؤهلاً لاشغال المنصب ، فلماذا كانت هناك ضرورة ، منذ البداية ، لتعيين ضابط من الصفوف المنتخبة في الجيش لهذا المنصب ؟

ولكن قضية ياريف هي قضية هامشية ، الهدف منها ان نبرهن بأي قـدر من الجد نظرت الحكومة الى مكافحة الارهاب . فتعيين ياريف لمنصب كاتم الاسرار لم يغير قيد انملة من استمرار مسلسل التقصيرات ، التي اشارت الى عيوب خطرة في اعمال القيادة الامنية في اسرائيل .

واخطر هذه الاعمال ، حدث في الحادي والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٧٣ . ففي ذلك اليوم من العواصف الرملية في شبه جزيرة سيناء ، لاحظت اجهزة الرادار ، التابعة لسلاح الجو في سيناء ، طائرة اجتازت الحدود من مصر الى اسرائيل ، جنوبي قناة السويس ، ثم غيرت خط سيرها نحو الشمال ، في اتجاه وسط سيناء ووسط اسرائيل . وعلى الفور انطلقت نحوها طائرتان مقاتلتان من سلاح الجو . وعندما كشفتا الطائرة التي كانت تطير باطمئنان فوق سيناء ، ذهل الطيارون مما رأت اعينهم . فقد كانت طائرة ركاب كبيرة من طراز بوينغ ٧٠٧ ، ظهرت عليها بوضوح الشارات المميزة للخطوط الجوية الليبية ، مكتوبة بالعربية على جوانبها . وقد طلب منها طيارو المقاتلتين الاسرائيليتين ، اللتين لازمتا طائرة البوينغ ، بواسطة الاشارات المتعارف عليها ، وبواسطة حركات الايـدي ، الهبوط في اقرب المطارات ، مطار رفيـديم العسكري (بير جفجافة) .

ولاسباب مأساوية اتضحت مؤخراً فقط ، لم يستجب طيارو الطائرة الليبية لتعليمات طياري المقاتلتين الاسرائيليتين . وقد ظهرت طائرة البوينغ في البداية وكأنها على وشك الهبوط على مدرجات مطار رفيديم . لكنها ارتفعت حالاً ، وحلقت عالياً وغيرت خط سيرها ، متجهة جنوباً ، عائدة الى مصر . ولقد باءت جهود طياري المقاتلتين الاسرائيليتين ، اللتين واصلتا مطاردة الطائرة الليبية ، في إعطاء الاشارات لطياريها بالهبوط ، بالفشل . وقد اطلقوا بعض الطلقات التحذيرية نحو مقدمة الطائرة ، وعندما لم يساعد هذا الامر ،

اطلقوا النار نحو مفصل اجنحة الطائرة ، بهدف اجبارها على الهبوط اضطرارياً في المنطقة التي في يد اسرائيل ، قبل ان تتمكن من عبور قناة السويس عائدة الى مصر .

وبالفعل ، بدت الطائرة وكأنها على وشك الهبوط على سهل رملي في سيناء ، وعندها حدث انفجار هائل ، واشتعلت الطائرة باكملها وهي بمحاذاة الارض ، وتفجرت الى شظايا . وقد اسرع جنود الجيش الاسرائيلي المعسكرين في قاعدة ارضية قريبة ، فرأوا منظراً تقشعر له الابدان : عشرات من جثث القتلى والجرحى كانت ملقاة بشكل دائري من مكان تحطمها . وقد قتل ١٠٦ من ركاب الطائرة ، غالبيتهم من المواطنين المدنيين المصريين والليبيين ، وبينهم نساء واولاد ، ونجا بعض المسافرين بأعجوبة ، ومنهم الطيار المساعد للطائرة ، وعندها فقط ظهر حجم المأساة . فقد اتضح انها طائرة مدنية ليبية ، كانت في رحلة عادية من بنغازي في ليبيا الى القاهرة . وبسبب العاصفة الرملية في الصحراء الغربية ، وبسبب مجموعة ظروف مأساوية غريبة اخرى ، ضل الطيار الفرنسي والليبي طريقهما ، ودخلا خطأً الى المجال الجوي الذي تسيطر عليه اسرائيل . وظلوا يعتقدون ، حتى اللحظة الاخيرة ، انهم فوق الاراضي المصرية ، وان الطائرات المقاتلة ، التي رافقتهم ، هي طائرات مصرية . والمأساة المروعة التي احدثت فوراً تحولاً حاداً لدى الرأي العام العالمي بالنسبة الى اسرائيل ، حدثت هي ايضاً بسبب سلسلة من التقصيرات والاخطاء ، والتقديرات الخاطئة ، والحسابات المتسرعة ، التي اثبتت ان القيادة الامنية في اسرائيل فقدت توازنها .

وهنا ايضاً ، شكلت اعمال منظمات التخريب الفلسطينية الارهابية اساساً للفاجعة التي بلغت حد الجريمة . وعلى حد مزاعم القيادة الامنية الاسرائيلية ، بما فيها تصريحات رئيس الاركان الجنرال ألعازار ، فقد وصلت اسرائيل ، في الايام التي سبقت اسقاط الطائرة الليبية ، انباء تفيد ان هناك احتمالاً بان يرسل « المخربون » طائرة تحمل مجموعة انتحارية الى اسرائيل . وبالفعل هناك شيء من الحقيقة في هذا الادعاء . فمما لا شك فيه ، انه كانت لدى منظمات المخربين المتطرفة خططاً لاختطاف طائرة ركاب ، والتوجه بها نحو احد مراكز تجمع السكان الكبيرة في اسرائيل ، والتهديد بتنفيذ عملية انتحارية على نسق « الكاميكازا » اذا لم ترضخ اسرائيل للانذار الذي سيوجه اليها باطلاق سراح رفاقهم المسجونين في السجون الاسرائيلية .

والدليل على وجود هذه الخطة ، تبين مؤخراً بعد خمسة اشهر ، عندما اختطفت ، في تموز (يوليو) ١٩٧٣ ، طائرة جمبو يابانيـة اقلعت من باريس ، بقصد استخدامها كقنبلة طائرة في سماء اسرائيل . ولكن لحسن الحظ ، قتلت قائدة العملية ، وهي شابة فلسطينية مسيحية ، في حادث وقع في الطائرة عند اقلاعها ، وعندها فشل مخطط المختطفين ،

الذين اطلقوا على انفسهم اسم « شهداء جبل الكرمل » . وقد تجول رفاق قائدة العملية دون اي هدف ، بين أمارة دبي في الخليج الفارسي ، وبين مطار دمشق مع جميع ركاب الطائرة ، الى ان هبطوا بعد اربعة ايام في مطار بنغازي ، حيث فجروا هناك الطائرة بعد دقائق معدودة من اخلائها من الركاب .

وقد دار في خلد قادة الجيش الاسرائيلي ، امكان تنفيذ مثل هذه الخطة الانتحارية ، عندما علموا ، اول مرة ، بان طائرة مدنية تحمل شارات ليبية قد اخترقت المجال الجوي الاسرائيلي آتية من مصر . وكان التخوف الاول ان تكون هذه هي « طائرة الانتحار » التي انذروا بها سلفاً . لذلك كانت هناك اهمية كبرى للحيلولة دون استمرار توجه الطائرة نحو مراكز تجمع السكان في اسرائيل ، ولهذا السبب اصدر رئيس الاركان امراً باعتراض الطائرة واسقاطها اذا لم تستجب لأوامر الهبوط في رفيديم .

بعد اسقاط الطائرة فقط اتضح انه حدث خطأ مأساوي مروع ، نتيجة تقويمات خاطئة وحكم غير صحيح ، ذلك الخطأ الذي اودى بحياة اكثر من مائة من البشر الابرياء . وعندما اتضح الامر ، لم يكن هناك شيء طبيعي يمكن عمله اكثر من التعبير عن الندم ، والاعتراف بالخطأ ، والاعتذار علناً على مسمع من العالم ، والتعهد بتعويض عائلات القتلى . ولكن بدلاً من ذلك ، تجندت كل القيادة السياسية ـ الامنية الاسرائيلية لتبرير العمل ، والتغطية على المسؤولين عن الخطأ ، الذي تقشعر له الأبدان ، وتبرئتهم من كل ذنب وجرم . وخلال ذلك ايضاً كشفت التقصيرات التي سببت الفاجعة .

يرتبط التقصير الاول ، بالشكل الذي أعطيت فيه التعليمات لاجبار الطائرة على الهبوط ، حتى بعد ان اتضح انها غيرت اتجاهها ، وانها متجهة نحو مصر . وكان قائد سلاح الجو في تلك الفترة ، الجنرال مردخاي (« موتي ») هود ، هو الذي يتحمل المسؤولية المباشرة عن إصدار امر الاعتراض . لكن موتي هود لا يستطيع العمل على مسؤوليته الخاصة ، وكان عليه أن يأخذ اذناً بذلك من رئيس الاركان . وبالفعل فقد اتصل الجنرال هود برئيس الاركان، ووضع القرار بين يديه . وعندما ارتسمت صورة الوضع لرئيس الاركان الجنرال دافيد ألعازار ، كان عليه ان يتخذ قراراً خلال دقائق معدودة ، لأنه كان واضحاً في ذلك الوقت ، ان الطائرة الليبية تتجه غرباً للخروج من منطقة سيناء . وهكذا كان الوضع الذي اختبرت فيه قدرة القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي : القدرة على اتخاذ قرار مصيري متزن خلال ثوان او دقائق معدودة . وهذه القدرة ليست مطلوبة من رئيس الاركان فقط ، فهو نفسه يطلبها ايضاً من كل قائد دبابة ، ومن كل قائد فصيلة او سرية في سلاح المدرعات . ان الحكمة واتخاذ القرارات السريعة ، لازمان في اثناء القتال ، لان حياة الافراد متعلقة آنذاك بهذين الامرين .

وما احرى القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي بالتقدير المسؤول والرد السريع ، فلهذا

اطلقوا النار نحو مفصل اجنحة الطائرة ، بهدف اجبارها على الهبوط اضطرارياً في المنطقة التي في يد اسرائيل ، قبل ان تتمكن من عبور قناة السويس عائدة الى مصر .

وبالفعل ، بدت الطائرة وكأنها على وشك الهبوط على سهل رملي في سيناء ، وعندها حدث انفجار هائل ، واشتعلت الطائرة باكملها وهي بمحاذاة الارض ، وتفجرت الى شظايا . وقد اسرع جنود الجيش الاسرائيلي المعسكرين في قاعدة ارضية قريبة ، فرأوا منظراً تقشعر له الابدان : عشرات من جثث القتلى والجرحى كانت ملقاة بشكل دائري من مكان تحطمها . وقد قتل ١٠٦ من ركاب الطائرة ، غالبيتهم من المواطنين المدنيين المصريين والليبيين ، وبينهم نساء واولاد ، ونجا بعض المسافرين بأعجوبة ، ومنهم الطيار المساعد للطائرة ، وعندها فقط ظهر حجم المأساة . فقد اتضح انها طائرة مدنية ليبية ، كانت في رحلة عادية من بنغازي في ليبيا الى القاهرة . وبسبب العاصفة الرملية في الصحراء الغربية ، وبسبب مجموعة ظروف مأساوية غريبة اخرى ، ضل الطيار الفرنسي والليبي طريقهما ، ودخلا خطأ الى المجال الجوي الذي تسيطر عليه اسرائيل . وظلوا يعتقدون حتى اللحظة الاخيرة ، انهم فوق الاراضي المصرية ، وان الطائرات المقاتلة ، التي رافقتهم ، هي طائرات مصرية . والمأساة المروعة التي احدثت فوراً تحولاً حاداً لدى الرأي العام العالمي بالنسبة الى اسرائيل ، حدثت هي ايضاً بسبب سلسلة من التقصيرات والاخطاء ، والتقديرات الخاطئة ، والحسابات المتسرعة ، التي اثبتت ان القيادة الامنية في اسرائيل فقدت توازنها .

وهنا ايضاً ، شكلت اعمال منظمات التخريب الفلسطينية الارهابية اساساً للفاجعة التي بلغت حد الجريمة . وعلى حد مزاعم القيادة الامنية الاسرائيلية ، بما فيها تصريحات رئيس الاركان الجنرال ألعازار ، فقد وصلت اسرائيل ، في الايام التي سبقت اسقاط الطائرة الليبية ، انباء تفيد ان هناك احتمالاً بان يرسل « المخربون » طائرة تحمل مجموعة انتحارية الى اسرائيل . وبالفعل هناك شيء من الحقيقة في هذا الادعاء . فمما لا شك فيه ، انه كانت لدى منظمات المخربين المتطرفة خططاً لاختطاف طائرة ركاب ، والتوجه بها نحو احد مراكز تجمع السكان الكبيرة في اسرائيل ، والتهديد بتنفيذ عملية انتحارية على نسق « الكاميكازا » اذا لم ترضخ اسرائيل للانذار الذي سيوجه اليها باطلاق سراح رفاقهم المسجونين في السجون الاسرائيلية .

والدليل على وجود هذه الخطة ، تبين مؤخراً بعد خمسة اشهر ، عندما اختطفت ، في تموز (يوليو) ١٩٧٣ ، طائرة جمبو يابانيـــة اقلعت من باريس ، بقصد استخدامها كقنبلة طائرة في سماء اسرائيل . ولكن لحسن الحظ ، قتلت قائدة العملية ، وهي شابة فلسطينية مسيحية ، في حادث وقع في الطائرة عند اقلاعها ، وعندها فشل مخطط المختطفين ،

الذين اطلقوا على انفسهم اسم « شهداء جبل الكرمل » . وقد تجول رفاق قائدة العملية دون اي هدف ، بين امارة دبي في الخليج الفارسي ، وبين مطار دمشق مع جميع ركاب الطائرة ، الى ان هبطوا بعد اربعة ايام في مطار بنغازي ، حيث فجروا هناك الطائرة بعد دقائق معدودة من اخلائها من الركاب .

وقد دار في خلد قادة الجيش الاسرائيلي ، امكان تنفيذ مثل هذه الخطة الانتحارية ، عندما علموا ، اول مرة ، بان طائرة مدنية تحمل شارات ليبية قد اخترقت المجال الجوي الاسرائيلي آتية من مصر . وكان التخوف الاول ان تكون هذه هي « طائرة الانتحار » التي انذروا بها سلفاً . لذلك كانت هناك اهمية كبرى للحيلولة دون استمرار توجه الطائرة نحو مراكز تجمع السكان في اسرائيل ، ولهذا السبب اصدر رئيس الاركان امراً باعتراض الطائرة واسقاطها اذا لم تستجب لأوامر الهبوط في رفيديم .

بعد اسقاط الطائرة فقط اتضح انه حدث خطأ مأساوي مروع ، نتيجة تقويمات خاطئة وحكم غير صحيح ، ذلك الخطأ الذي اودى بحياة اكثر من مائة من البشر الابرياء . وعندما اتضح الامر ، لم يكن هناك شيء طبيعي يمكن عمله اكثر من التعبير عن الندم ، والاعتراف بالخطأ ، والاعتذار علناً على مسمع من العالم ، والتعهد بتعويض عائلات القتلى . ولكن بدلاً من ذلك ، تجندت كل القيادة السياسية ــ الامنية الاسرائيلية لتبرير العمل ، والتغطية على المسؤولين عن الخطأ ، الذي تقشعر له الأبدان ، وتبرئتهم من كل ذنب وجرم . وخلال ذلك ايضاً كشفت التقصيرات التي سببت الفاجعة .

يرتبط التقصير الاول ، بالشكل الذي أعطيت فيه التعليمات لاجبار الطائرة على الهبوط ، حتى بعد ان اتضح انها غيرت اتجاهها ، وانها متجهة نحو مصر . وكان قائد سلاح الجو في تلك الفترة ، الجنرال مردخاي (« موتي ») هود ، هو الذي يتحمل المسؤولية المباشرة عن إصدار امر الاعتراض . لكن موتي هود لا يستطيع العمل على مسؤوليته الخاصة ، وكان عليه أن يأخذ اذناً بذلك من رئيس الاركان . وبالفعل فقد اتصل الجنرال هود برئيس الاركان، ووضع القرار بين يديه . وعندما ارتسمت صورة الوضع لرئيس الاركان الجنرال دافيد ألعازار ، كان عليه ان يتخذ قراراً خلال دقائق معدودة ، لأنه كان واضحاً في ذلك الوقت ، ان الطائرة الليبية تتجه غرباً للخروج من منطقة سيناء . وهكذا كان الوضع الذي اختبرت فيه قدرة القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي : القدرة على اتخاذ قرار مصيري متزن خلال ثوان او دقائق معدودة . وهذه القدرة ليست مطلوبة من رئيس الاركان فقط ، فهو نفسه يطلبها ايضاً من كل قائد دبابة ، ومن كل قائد فصيلة او سرية في سلاح المدرعات . ان الحكمة واتخاذ القرارات السريعة ، لازمان في اثناء القتال ، لان حياة الافراد متعلقة آنذاك بهذين الامرين .

وما احرى القائد الاعلى للجيش الاسرائيلي بالتقدير المسؤول والرد السريع ، فلهذا

عين رئيساً للأركان . ويتقاضى مقابل ذلك اعلى راتب بين جميع موظفي الدولة ، حتى راتب الرئيس . ومن اجل هذا هو رئيس للاركان : للوصول الى تقويم سريع للوضع ، خلال دقيقتين او ثلاث ، ولادراك انه اذا كان هناك ادنى الشكوك في ان الطائرة الليبية ليست الا طائرة ركاب ضلت طريقها ، وهي الآن عائدة الى خط سيرها ، فيجب اذن منحها فرصة الافادة من الشك للانصراف . لكن رئيس الاركان ، في مثل هذه الحالة ، ليس المرجع الاعلى . فهو يخضع لوزير الدفاع ، وكما اتضح بعد ذلك ، حاول رئيس الاركان بالفعل ، ان يتصل بموشيه دايان وزير الدفاع ، لاستشارته ولاتخاذ القرار المصيري معاً . لكن ، لشديد الدهشة ، لم ينجح احد في الاتصال بدايان ، على الرغم من انه يمتلك احد احدث اجهزة الاتصال المتطورة في العالم ، وقد ادعى بعد ذلك ، انه في ذلك الوقت تماماً ، نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، كان في بيته في ضاحية « تسهالا » .

ونظراً الى عدم اجراء اتصال بوزير الدفاع ، بقي كل شيء متعلقاً على تقدير رئيس الاركان . وهنا ظهرت حقيقة كانت كافية وحدها لاثارة الرأي العام الاسرائيلي ، هي ان رئيس اركان الجيش الاسرائيلي له صلاحيات جبارة في تقرير مصير حياة البشر . فقد اتضح ان من صلاحية رئيس الاركان ان يصدر امراً ، على مسؤوليته ، باسقاط طائرة مدنية مشتبه بها ، دون حاجة للحصول على موافقة الحكومة ، او وزير الدفاع ، على ذلك .

ولسوء الحظ ، لم يكن الجنرال ألعازار في كامل قدرته ، عندما طلب منه اتخاذ قرار حاسم . ففي ذلك الوقت ، كما وصف بشكل تصويري في احدى الصحف الاسرائيلية المسائية ، كان في الحمام ، في بيته في تل أبيب ، عندما بلغه نبأ دخول الطائرة الليبية ، وقد استيقظ من نومه القصير قبل لحظة فقط ، بعد ليلة لم يذق فيها طعم النوم . فطيلة الليلة السابقة ، كانت وحدات من الكوماندو الاسرائيلي تغير بنجاح كبير على قواعد المخربين الفلسطينيين شمالي بيروت . وكان رئيس الاركان يقظاً طيلة سير العملية لكي يبقى على اتصال مع المغيرين . وبعد انتهاء العملية عاد الى بيته لكي يأخذ قسطاً من النوم ، وبعد ذلك اراد ان ينشط نفسه فدخل الحمام ليغتسل قبل ان يعود الى مبنى القيادة العامة .

وعندها ، ومن خلال سوء تقدير الامور ، اصدر رئيس الاركان الموافقة التي أدت الى اسقاط الطائرة . فقد اصدر امراً : يجب اجبار الطائرة على الهبوط — اي اسقاطها اذا كانت غير مستعدة للهبوط .

ومثل هذا الخطأ الذي اودى بحياة اكثر من مائة شخص ، ليس امراً بسيطاً . فاذا كان رئيس الاركان مهيأ لارتكاب خطأ بهذا الحجم ، فليس هناك اية ضمانة تحول دون ان يخطىء ايضاً في حالات اخرى . ولو حدث ذلك في أية دولة ديمقراطية اخرى ،

لاجبر المسؤولون عن مثل هذه الفاجعة ، على تحمل مسؤوليتهم والاستقالة من مناصبهم . لكن اسرائيل ليست دولة كسائر الدول . فليس قائد سلاح الجو ورئيس الاركان لم يعترفا بخطئهما فحسب ، بل تلقوا تغطية ومساندة كاملتين من موشيه دايان وزير الدفاع . وقد كان هذا مظهراً فظيعاً لقيادة دولة ، تدعي انها دولة متمدنة ، عندما اعتمدت تقديراً خاطئاً ادى الى مقتل أناس ابرياء . وقد كان هذا ، عرضاً بارزاً لبلادة الحس والتفكير ، لدى الحكومة ، ورئيس الاركان ، والكنيست ، الذين كانوا مستعدين للتغطية كل على الآخر ، لكي يطمسوا خطورة هذا العمل . وعندما ظهر موشيه دايان ، وزير الدفاع ، في مؤتمر صحافي عقد بعد ثلاثة ايام من اسقاط الطائرة ، اعترف بأن تقدير رئيس الاركان قد يكون خاطئاً ، لكنه يبرره بعد وقوع الحادث . ومنذ تلك اللحظة ، بدأت تعمل الآلة الجبارة لمحو المعالم ، للتغطية المتبادلة ولخداع النفس . وكل من تجرأ على نقد العمل ، او الدعوة الى استقالة وزير الدفاع ورئيس الاركان ، وصف « بالخائن » او « احمق من ناحية امنية » .

صحيح ان وزير الدفاع وجه بعض النقد الشديد ، على نطاق خاص ، بسبب قضية الطائرة الليبية ، لكن شجاعته تجاه الجمهور لم تصل الى اكثر من ذلك . لانه هو نفسه جعل رئيس الاركان في وضع يتمتع بمثل هذا النوع من الصلاحيات — اي ، حتى لو كان لديه متسع من الوقت لاستشارة وزير الدفاع ، فيما يتعلق بقراره ، فلم يكن ملزماً اصلاً بعمل ذلك . وهنا برز ثانية اسلوب دايان كوزير للدفاع : فهو يملأ فمه بالماء في كل ما يتعلق برئيس الاركان ، او على حد تعبير الجملة المحببة لديه : « لا استطيع التدخل في قرارات رئيس الاركان » . وهكذا جعل دايان نفسه مسؤولاً بقدر لا يقل عن مسؤولية رئيس الاركان ، عن الخطأ الذي ارتكب في اسقاط طائرة الركاب الليبية . فمنذ اللحظة التي وقف فيها وغطى على رئيس الاركان ، اصبح شريكاً كاملاً في تحمل المسؤولية .

كانت قضية إسقاط الطائرة الليبية على درجة من الخطورة ، تكفي لاجراء تعديل شامل في اسلوب التقويم في القيادة الامنية ، وفي إصدار الاوامر . لكن الرأي العام مر على ذلك مرور الكرام ولم يقم بأي عمل ، ولم تؤلف حتى لجنة تحقيق في هذا الحادث ، باستثناء لجنة تحقيق داخلية عادية للجيش الاسرائيلي ، حيث كان واضحاً انه ليس باستطاعتها استخلاص النتائج ضد رئيس الاركان .

ولم تكن هذه آخر التقصيرات . فمنذ شباط (فبراير) ١٩٧٣ ، وحتى تشرين الاول (اكتوبر) من تلك السنة ، حدثت سلسلة اخرى من الاحداث الخطيرة ، تضمنت كل واحدة منها تقصيرات في مجالات الاستخبارات والتقويم والتنفيذ .

ففي مساء يوم السبت ، الحادي والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٧٣ ، جرى في

ضواحي القرية النرويجية ليلهامر ، ما كان مفترضاً ان يصبح عملية تصفية احد الزعماء الكبار في ايلول الاسود . الا ان هذه العملية اصبحت ، على حد وصف المجلة الاميركية الاسبوعية « تايم » ، مأساة من الاخطاء ، ألقت أضواءاً كئيبة على منفذيها . ففي ذلك اليوم أُطلقت النار على احمد بوشيكي ، المواطن النرويجي من اصل مغربي ، بينما كان على عتبة بيته في ليلهامر . واتضح بعد موته فقط انه لم تكن له اية صلة بمنظمات التخريب ، وانه قتل كما يبدو ، بعد ان شخص خطأ ، كزعيم منظمة ايلول الاسود ، حسن سلامة . فالبدائية والغباء اللذان اقترنا بتنفيذ العملية ، التي نسبتها السلطات النرويجية الى المخابرات الاسرائيلية ، أدت الى إلقاء القبض على شبكة كاملة ، وصفت كشبكة عملاء اسرائيليين ، ما زالوا حتى هذا اليوم معتقلين في النرويج بانتظار محاكمتهم .

وفي الاسبوع الاول من شهر آب (اغسطس) ١٩٧٣ ، اقلعت طائرات مقاتلة اسرائيلية نحو المجال الجوي اللبناني ، محلقة فوق مطار بيروت الدولي ، ولازمت طائرة ركاب لبنانية ، كانت متوجهة نحو العراق ، ثم أجبرتها على تغيير وجهة سيرها نحو اسرائيل ، حيث هبطت هناك في مطار عسكري في شمالي البلد . وبعد ان تم فحص جميع ركاب الطائرة ، سمح لهم بالصعود الى الطائرة والعودة الى بيروت . وقد اوضحت اسرائيل آنذاك ، بأنها اعترضت الطائرة اللبنانية ، خارقة القانون الدولي ، لانه كانت لديها معلومات معقولة تفيد ان جورج حبش ، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، موجود في الطائرة . وفيما عدا تقصير الاستخبارات الذي اقترن بذلك ، فقد برهن عمل القرصنة هذا ، على سوء التقدير لدى موشيه دايان وزير الدفاع ، الذي اخذ على عاتقه مسؤولية هذا العمل ، هذه المرة ، لكنه رفض استخلاص النتائج ، إزاء الفشل المهين ، والاستقالة .

وبعد بضعة ايام من اعتراض الطائرة اللبنانية ، اختطف مجنون ليبي ، يدعى محمد التومي ، طائرة ركاب لبنانية من طراز بوينغ ، كانت في طريقها من بنغازي الى بيروت ، واجبر قائدها على التوجه الى اسرائيل ، وإنزال الطائرة في مطار اللد . ولعل القضية باكملها تبدو مسرحية ، لولا انه كان خلفها تقصير اسرائيلي خطر جداً . فعندما اعترضت الطائرة الليبية في سيناء في حينه ، كان احد التعليلات لاسقاط الطائرة ، الخوف من ان تكون مصيدة حية « للمخربين » ، الذين ينوون التوجه بها نحو احدى المدن الاسرائيلية وتفجيرها هناك ، والتسبب في عملية قتل جماعي . وعندما اختطفت طائرة الجمبو اليابانية الى دبي ، أُثير ثانية التخوف من ان يكون خاطفوها ينوون التوجه بها الى حيفا ، او تل أبيب ، وتفجيرها هناك . واكدت الجهات الاسرائيلية المسؤولة انها « اتخذت جميع الوسائل للحؤول دون تنفيذ الامر » . وهنا ، عندما اختطف التومي الطائرة اللبنانية فوق قبرص ، وامر قائدها بالتوجه نحو تل أبيب ، نجح في تنفيذ ما ادعي انه

غير قابل للتنفيذ ، فقد اخذ اذناً بالتحليق فوق تل أبيب ، دون ان يعلم احد ان خاطف الطائرة هو شخصية غريبة « محب لاسرائيل » . وبالمقدار نفسه كان بالامكان ان يكون كاميكازا (انتحاري) يابانياً ، ينوي تفجير الطائرة فوق تل أبيب . وعلى الرغم من ذلك لم يتخوف أي شخص ، هذه المرة ، من هذا الاحتمال .

وفي يوم الجمعة ، ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ ، وقبل اسبوع واحد فقط من حرب يوم الغفران ، اختطف « مخربون » فلسطينيون ، ثلاثة مهاجرين يهود من روسيا ، في أثناء مرورهم في القطار من تشيكوسلوفاكيا الى النمسا . وقد احتفظ الفلسطينيون بالمهاجرين المسنين طوال الليل في مطار فيينا ، مشترطين ، لاطلاق سراحهم ، تعهد حكومة النمسا بتصفية معسكر الانتقال شيناو ، الذي استخدم لاستيعاب المهاجرين اليهود من روسيا في طريقهم الى اسرائيل . وقد خضع برونو كرايسكي ، رئيس حكومة النمسا ، اليهودي ، لابتزاز « المخربين » ، من خلال تعهده بتصفية معسكر شيناو . وما عدا الانعكاسات الاخرى لهذه القضية ، التي سنتحدث عنها فيما بعد ، فقد كشف هنا تقصير آخر للمخابرات الاسرائيلية . فقد كان عليها ان تحمي المهاجرين منذ لحظة دخولهم الى النمسا ، إزاء الانباء والمعلومات التي وصلت قبل ذلك ، بخصوص نية « المخربين » توجيه ضربة للهجرة من روسيا عن طريق النمسا . وببساطة لم يكن رجال الامن الاسرائيليون ، الذين كانوا في محطة الحدود في اثناء عملية الخطف ، يقظين بما فيه الكفاية للحيلولة دونها . وعندما علم بعملية الاختطاف اصبح الوقت متأخراً .

وهكذا انتهت قضية التقصيرات الانذارية ، وبدأت تقصيرات حرب يوم الغفران . وبنظرة الى الوراء ، عندما نستعرض سلسلة الفشل المخيف التي انتابت القيادة الامنية في اسرائيل ، والجيش الاسرائيلي ، وجهاز الاستخبارات والمخابرات الاسرائيلية ، خلال فترة بهذا القصر ، من الصعب ان نفهم كيف كان ممكناً حدوث هذا كله ، دون ان يتلقن المعنيون بالامر درساً من ذلك ، ويستخلصون الاستنتاجات الملائمة . وكان يبدو ، وكأن يد الله قد ارسلت خلال سنة لانذار القيادة الامنية — السياسية في اسرائيل ، وتحذيرها من الاخطار المحدقة بالدولة ومواطنيها ، نتيجة ما تم عمله وما لم يتم في مختلف اجهزة الامن الاسرائيلية المؤتمنة على امن الدولة . وكما في حفل شراب بلشاصر ، ظهرت من حين لآخر اليد التي سجلت علامات التحذير على الحيطان . لكن وزراء اسرائيل ، كعظماء بابل الألف ، كانوا مبهورين الى حد لم يكونوا قادرين فيه على رؤية اشارات الانذار وفك رموزها .

وعندما فسر النبي دانييل معنى الجملة « احصى الله ملكك وأنهاه » على مسمع من بلشاصر ، كان الوقت قد اصبح متأخراً جداً . ففي تلك الليلة مات بلشاصر ، وتفككت مملكته ، وسقطت مملكة بابل في يد الفرس . لكن اسرائيل ، لحسن الحظ ، نجت من مصير مشابه ، على الرغم من عمى زعمائها .

وثيقة

لا اجد الكلمات التي أعبِّر فيها امامكم عما يجول في خاطري تماماً . واذا كان عليَّ ان افعل ذلك ، واذا كان عليَّ ان اقول ما افكر به تماماً ، فسيستلزم هذا وقتاً طويلاً ، وجهداً كبيراً ، ولا ادري ان استطعت الى ذلك سبيلاً . فسأُحاول ، قبل كل شيء ، ان أُعبر بكلمات بسيطة ، عن الامتنان لكم على ما فعلتموه ، وان اوضح لكم ، بعد ذلك ، ما نواجهه .

... لست أدري اذا كنتم تتصورون ، او اذا كنتم قادرين على ان تتصوروا ، ما فعلتموه في ايام الحرب الثلاثة الاولى . وارجو ألا تظنوا انني استخدم العبارات المنمقة ، او انني أُحاول ان اترك لديكم انطباعاً ما ، او اي شيء آخر ، فارجو ان تتقبلوا الامور على علاتها : فلو لم ننجح في إيقاف السوريين ، في هضبة الجولان ، لهزمت دولة اسرائيل . والذي اوقف السوريين في هضبة الجولان كان هذه التشكيلة ... فهذا هو الوضع ببساطة ، وهو يتعلق بكل واحد منكم من اصغركم رتبة الى اعلاكم . ان هذه التشكيلة قد انقذت دولة اسرائيل من الهزيمة، ومن الكارثة . ولم نكن لنتجرأ على اجتياز قناة السويس لولا الهجوم الناجح لهذه التشكيلة في الشمال . وكان الامر على وشك الوقوع . ففي مرات اربع كان صمودنا ، او سقوطنا ، معلقاً بشعرة . واذا كان لدى اي منكم خيال كاف ، فليتصور السوريين وهم يجتازون نهر الاردن وبحيرة طبريا ، مع حاملات جنودهم البرمائية ، ومع جميع وسائلهم التي تركوها محترقة في المنطقة . ولم يكونوا بعيدين عن ذلك . فالذي حال دون انجازهم ذلك ، وحال دون هذا النجاح وتدمير دولة اسرائيل ، هو طواقم دبابات قليلة من هذه التشكيلة . وكانت حقاً قليلة .

لست أدري ... وليس لدي المزيد من الكلمات لأصف ، او أروي ، او أُحدِّد هذه الحقائق . ليس لدي المزيد . لست كاتباً ولا شاعراً ، ولكن هذا ما قل ودل لمن يفهم اللغة البسيطة . لقد كان هنالك من هم على استعداد للتسليم ، بما سيعقب ذلك ، وهنالك من ليسوا على استعداد للتسليم . والذي لم يكن على استعداد للتسليم هو هذا الجمهور الجالس هنا . ومرة اخرى اقول : انتم تنتمون الى اولئك الذين انقذوا دولة اسرائيل من كارثة وهزيمة في حرب يوم الغفران . ونحن لم نعرف بعد ما جرى تماماً في كل مكان ، ولا نعرف من عمل ، وماذا عمل ، وكيف ، لكن النتيجة العامة

معروفة . فنحن كنا اول من اجتاز الحدود للهجوم ونحن — انتم ، الذين مكنتم دولة اسرائيل من التقاط انفاسها ، ومن رفع رأسها ، ومن نجاتها من هذه الحرب بالشكل الذي نجت فيه ، هنا بصورة أفضل ، وهناك باختلاف ما . وبفضلكم لا يوجد حتى جندياً سورياً واحداً في الهضبة ، وقد دمرنا عشر دبابات مقابل كل واحدة أُصيبت لنا — لم تدمر وانما أُصيبت — وقاتلنا بميزان قوى يساوي ١:٨ ، ١:٥ ومرة اخرى ١:٦ الى ان سرى مفعول وقف اطلاق النار .

« من خطاب القاه العميد رفائيل (رفول) ايتان قائد تشكيلة في الجبهة الشمالية بعد وقف اطلاق النار في تشرين الاول (اكتوبر) »

الفصل العاشر

واذ من الشمال

من شبكة لاسلكي اللواء ، التي كانت دبابة الملازم تسفيكا مرتبطة بها ، سمع هذا احد قادة قوات اللواء المدرع الذي ينتمي اليه يصرخ : « دبابات سورية تطوق العليقة » . والملازم تسفيكا ، فتى اشقر طويل القامة ، تطل من عينيه الخضراوين نظرة طفولية ، قاد قوة صغيرة من الدبابات في طريقه الى « محور النفط » . وفي احدى ساعات الليل ، ما بين ٧ و ٨ تشرين الاول ، تلقى تسفيكا تعليمات بالخروج للبحث عن قائد لوائه الذي انقطع الاتصال به ، منذ ساعات المساء . وقبل ذلك ببضع ساعات ، شاهد تسفيكا دبابة قائد اللواء منقلبة بالقرب من احد الوديان في هضبة الجولان . ولم يعرفوا مصيره . وكان جنود مذعورون يتراكضون على امتداد الطريق بأسره ، منهم رجال اطقم دبابات أصيبت واشتعلت فيها النار ، وجنود سلاح مشاة اضاعوا قواتهم ، وفلول قوات ، كانوا خلال الساعات الثلاثين لاندلاع الحرب ، يخوضون معركة يائسة لصد طوفان الدبابات السورية التي غمرت مرتفعات الجولان . وعندما شاهدهم تسفيكا اغرورقت عيناه بالدموع . ولم يخطر على باله ابداً انه سيرى جنود الجيش الاسرائيلي في هذا الحال . وكانوا هائمين على وجوههم ، في مؤخرة القوات السورية التي تقدمت غرباً ، وهم لا يعرفون مواقع العدو ، ولا مواقعهم . واخذ يصرخ بهم ويصدر لهم الاوامر . ولم تمض بضع دقائق حتى عادوا جنوداً في قوة منظمة ، ثم امرهم بالصعود الى الدبابات التي كانت معه .

عندما وصل تسفيكا الى العليقة ، في وسط هضبة الجولان ، لاحظ ثلاث دبابات للجيش الاسرائيلي ، في حالة حسنة ، وصالحة للاستعمال . كانت خالية ، اذ غادرتها اطقمها . في هذه اللحظة شعر تسفيكا ان قواته أخذت تتركه . وكان معصباً ، والدم ينزف من جروح أصيب بها في احدى المعارك التي خاضها ، بصورة متواصلة ، في اليوم الاخير . نزل من الدبابة ، وخلع خوذته ووضعها على قفاها وقال لنفسه : «انتهيت» .

تذكر تسفيكا ، وهو من كيبوتس لوحامي – هاغيتاؤوت في الجليل الغربي ، وابن لوالدين نجيا من الكارثة ، وذاقا فظائع الكارثة النازية في الحرب العالمية الثانية : « كنت جريحاً . وربما كنت قادراً على الصمود ، جسدياً ، ومواصلة القتال بضع ساعات اخرى . ولكني كنت محطماً معنوياً . نزلت من الدبابة بإحساس ان الجيش الاسرائيلي قد انتهى ، وان هضبة الجولان لن تصمد . واحسست بانني جندي مهزوم ومضروب . ويصعب عليّ وصف ما ألمّ بي في تلك اللحظات ... لقد كان شعوراً بالعجز لعدم وجود قوة تهب لمساعدة الرجال في مواقع ضعفها . وسمعت ، من شبكة لاسلكي اللواء ، قائد الجبهة يقول انه لا خيار امامنا ويجب ان نتدبر امرنا بما عندنا حتى تصل النجدة . وكان بين ما لازمني بعد هذه الحرب الشعور بالوحشة . ليست وحشة في غرفة ، وانما في حرب ، بدبابة واحدة » .

وحيداً في الحرب . خلال الـ ٣٦ ساعة الاولى من القتال في هضبة الجولان ، كان الكثيرون من رجال اطقم الدبابات الستين ، في لواء تسفيكا ، يشعرون الشعور نفسه . وكانوا مبعثرين في القطاع الجنوبي من هضبة الجولان بأسره ، بوحدات صغيرة ودبابات منفردة ، وحاولوا عبثاً وقف قوة قوامها نحو ٦٠٠ دبابة سورية ، في هذا القطاع وحده ، من الزحف باتجاه دولة اسرائيل . وفي اماكن كثيرة شقت الدبابات السورية طريقها ووصلت منذ ظهر اليوم الاول ، الى بعد بضعة كيلومترات من الخط الاخضر ، حد دولة اسرائيل عشية حرب الايام الستة . وقاتل معظمهم ومات دون أن يدري بهم أحد . ان قصة قتال الملازم تسفيكا ، هي قصة ملحمة قتال الصد في هضبة الجولان ، ونظراً الى الظروف الخاصة التي ذاع اسمه فيها على لسان جميع مقاتلي الهضبة ، اصبحت رمزاً لهم .

ظهر يوم السبت ، السادس من تشرين الاول (اكتوبر) ، كان الملازم تسفيكا في منزله في كيبوتس لوحامي – هاغيتاؤوت بين نهاريا وعكا ، حيث يقوم متحف فاخر لذكرى مقاتلي الغيتو في مدن اوروبا في الحرب العالمية الثانية .

وقبل ذلك بايام كان تسفيكا قد سرح من وحدته ، التي كان يشغل فيها منصب قائد سرية ، ثم خرج في اجازة قبل ان يتوجب عليه دخول دورة اخرى في مراحل تقدمه المهني . وفي الساعة الثانية ظهراً مرّ سرب من طائرات سلاح الجو فوق الكيبوتس . وبعده سرب آخر وآخر . وكان من الواضح ان شيئاً ما يجري . سارع الى جهاز الراديو وسمع من نشرة الاخبار ان الحرب اندلعت . ولم يكن منتسباً لأية وحدة ، لذا لم يستدعَ ولم يطلب منه الالتحاق . ولكن لم تكن في نفسه ذرة من الشك ان موقعه مع جنود وحدته المدرعة ، الذين تركهم في هضبة الجولان . ارتدى بزته ، وخرج الى الطريق ووقف يلوح بيده للسيارات المسرعة علّ احداها تقله . ووصل بسيارة عابرة الى معسكر

وحدته ، في مؤخرة الجبهة . وقال : « لم اجد من اتحدث معه ، ولم يكن هناك من يصدر الاوامر . والتقيت ببضعة اشخاص كان وضعهم كوضعي . اذ لم يكن هناك من يحدد لهم ما يجب ان يفعلوه . ذهبنا الى مجنزرة وفتحنا اللاسلكي . حدث هذا بعد ان وصل الى المعسكر جنود رووا أن قائد سريتهم ، الذي حل محلي ، قتل . واقترحت باللاسلكي ان اعود وأتولى قيادة سريتي السابقة » .

اقرت اعادة تعيين تسفيكا باللاسلكي . والآن بقيت امامه مشكلة واحدة فقط : العثور على سريته لكي يتولى قيادتها . وخرج يجري الى موقع مجموعة القيادة الامامية في مفترق نفاخ في مرتفعات الجولان ، وهناك فقط ادرك ما حدث لوحدته خلال الساعات القليلة التي انقضت منذ ان بدأت الحرب . لم يكن امامه اي امكان للذهاب من المعسكر الى الخط الامامي ، حيث كانت لا تزال هناك دبابات قليلة تقاتل . ولم تكن الدبابات متوفرة للذهاب لمساعدتهم . وكانت الانباء تصل تباعاً عن مقتل رفيق ، ثم آخر وآخر وهكذا . كما قُتل ايضاً نائب قائد اللواء . وعلى مدخل المعسكر كانت تقف اربع دبابات مصابة تابعة للوحدة . وتدل الثقوب التي حدثت في ابراجها وهياكلها ، وعلامات الحروق فيها ، على انها انهت مهمتها في الحرب . وكانت جثث القتلى من اطقم تلك الدبابات لا تزال متروكة فيها . كان لا بد من اخراجها واخلائها ، وغسل الدماء عن جدرانها الداخلية ، وجمع اجزاء الجثث منها . وقام بهذا العمل تسفيكا ، وبضعة جنود مذعورين ، لم يسبق لهم ان رأوا جثثاً مقطعة داخل دبابة اسرائيلية . كانت هذه الدبابات الاربع المصابة ، القوة الاحتياطية الوحيدة التي كان بالامكان ، في تلك اللحظة ، ارسالها لنجدة القوات المقاتلة في الجبهة . وقد حاولوا تشغيل الدبابات المصابة من جديد ، ولكنها كانت بمثابة « جيف » ، غير صالحة للقتال بعد . ولكن رجال وحدة صيانة حاولوا تشغيلها من جديد ، واصلاح ما يمكن اصلاحه . مرت ساعتان الى ان تم تشغيل واحدة منها . دخل الملازم تسفيكا اليها ، وكان على وشك الانطلاق في الطريق عندما اتضح ان دبابة اخرى أُصلحت جزئياً .

تناول تسفيكا جهاز اللاسلكي ، واجرى اتصالاً مع قائد اللواء وقال له انه نظم « قوة » مستعدة للخروج للقتال . وكانت الاطقم غير منظمة . ولكن التدريب الموحد ، الذي يوفره الجيش الاسرائيلي لرجال مدرعاته ، مكنهم فوراً من العمل كطاقم دون المزيد من التدريبات . واطلق عليها قائد اللواء الاسم « قوة تسفيكا » . وفي نحو الساعة التاسعة ليلاً ، عشية يوم الغفران ، بدأت دبابتا تسفيكا التحرك الى خط النار . وسمعت جميع الدبابات من خلال شبكة اللاسلكي ان « قوة تسفيكا » دخلت المعركة . وروى احد رجال المدرعات : « تشجعنا عندما سمعنا ذلك . كان هذا بالنسبة الينا كدليل على ان النجدة قد وصلت ، وانهم بدأوا يدعموننا . سمعنا في اللاسلكي عن قوة «تسفيكا» .

وكنا مقتنعين انهم قادمون لانقاذنا » . بالنسبة الى ذلك المقاتل ، والى عشرات من رفاقه ايضاً ، لم يكن هناك اية فكرة بان هذه النجدة لم تكن الا دبابتين مصابتين ، شبه صالحتين للاستعمال . وحتى لقائد اللواء ، لم يكن حجم « قوة تسفيكا » واضحاً الى الآن .

روى تسفيكا قائلاً : « كان الضغط كبيراً للخروج الى ساحة القتال بسرعة . وكان الوضع غامضاً . اعتقدنا انهم استطاعوا صد السوريين ، وانهم سينجحون خلال الليل في تطهير المنطقة ، وان الحرب ستنتهي في اليوم الثاني . كلفت بمهمة الخروج من نفاخ والتقدم على امتداد « محور النفط » الى الجنوب الشرقي ، والدخول الى محور خشنية ، وبدا كأن قوة سورية صغيرة كانت هناك ، فكلفت بالوصول الى أحد مواقعنا على الخط ، وتطهير المحور حتى الموقع . ومن الاستماع الى شبكة لاسلكي اللواء ، وبحسب تقويمي للموقف ، لم تبدُ لي المهمة صعبة ومعقدة » .

كانت على محور خشنية ، في ذلك الوقت ، مئات الدبابات السورية ، التي اخترقت المواقع الموجودة على الخط ، واندفعت الى الامام دون توقف . وتحركت الدبابتان اللتان كانتا تحت قيادة تسفيكا، الواحدة الى جانب الاخرى ، وبرجاها يستديران طوال الوقت ، لكي تحميا نفسيهما من الجهات الاربع . كان الليل مظلماً . ولكن المنطقة كانت معروفة لتسفيكا منذ ايام خدمته على الخط . ساروا ببطء وحذر . مرت ساعة قبل ان لاحظ تسفيكا اول دبابة سورية ، بالقرب من مفترق طرق خشنية . « كانت على بعد عشرة امتار مني . اطلقت عليها النار فأُصيبت واحترقت في مكانها . انبعث منها وهج . ولذلك عدت الى الوراء . وعندئذ اتضح لي ان جهاز اللاسلكي لا يعمل ، وليس عندي اي اتصال داخلي او خارجي . وكان من المستحيل العمل بهذه الدبابة ليلاً . انتقلت الى الدبابة الثانية واستبدلت قائدها حغاي . قلت له : « انظر الي وافعل ما افعله انا اذا كان ممكناً » . علمته ان يقوم بما يسمى « تقليد القائد » . وخلال وقت قصير وصلت الى المكان دبابة سورية اخرى أُصيبت هي ايضاً واحترقت . وشاهدت على الفور دبابات سورية اخرى وكذلك « البراقات » . كأعين الهر ، للدلالة على خط سيرها . وفي هذه الاثناء وجدت ان الدبابة السورية التي كانت بجانبي قد اختفت . ادركت انني وحيد وحولي دبابات سورية كثيرة ، منتشرة امامي وعلى يميني . اطلقت النار الى يميني وامامي ودمرت بضع دبابات سورية . كان علي ان اتراجع طوال الوقت . وأخذوا يبحثون عني وبدأوا ينيرون المنطقة . دمرت بضع دبابات اخرى . وسألني قائد اللواء كم دبابة معي . فأجبته : « وضعي سيىء ولا أستطيع ان اقول لك كم » .

وسمع تسفيكا ، من جهاز اللاسلكي ، اصواتاً تصرخ طالبة المساعدة . كان هؤلاء رجال المجموعة الفنية التابعة للواء ، الذين أُصيبت مجنزرتهم اصابة مباشرة ، في اثناء الليل ، وهربوا منها ولاذوا في مخبأ . وفي صباح اليوم التالي ، كما اتضح في وقت لاحق ،

سقطوا في الاسر السوري ، حيث قيدهم السوريون بالسلاسل ، في ايديهم وارجلهم ، وعصبوا عيونهم ، وادخلوهم الى احدى مصفحاتهم . وبعد يومين ، وجد رجال المجموعة الاثني عشر مقتولين جميعاً بالرصاص داخل المصفحة السورية . وكان السوريون يطلقون النار على الاسرى المقيدين بالسلاسل لدى فرارهم .

كان بالامكان ان تسمع ، من جهاز اللاسلكي ، ما يحدث لكل دبابة بقيت من فلول القوة المقاتلة في اللواء . وكانت التقارير على حافة اليأس . فقد ابلغوا عن نفاد الوقود ونقص في الذخيرة . وقال تسفيكا « ان الشعور بالعجز اكتنفهم جميعاً ، بمن فيهم القائد الكبير ، لانه لم تكن عنده في تلك المرحلة قوة أخرى لتعزيز الخط » .

وفي نحو منتصف الليل ادرك تسفيكا انه لم يعد وحيداً ، فقد وصلت بضع دبابات بقيادة قائد سرية ، تابعة للواء آخر ، لمساعدته . ومع ذلك ، بقوا قوة صغيرة لا قيمة لها ، بالمقابلة بالقوة السورية الهائلة امامهم ، ولكنهم قرروا مواصلة التحرك والتقدم على امتداد « محور النفط » . انقسموا الى طابورين اخذا يتحركان ، احدهما بموازاة الآخر ، وهما يغطيان بعضهما بعضاً .

قال تسفيكا : « حاولنا التقدم فأُحرقت ، على الفور ، اول دبابة لنا ، واتضح ان الاصابة كانت ناتجة عن بازوكا . ادركت ان المحور كان مسدوداً بواسطة دبابات مزودة بالاضاءة . وكانت تعبر الخط طوال الليل ألوية مدرعات باضوائها الكاملة . «فكرنا» وقررنا ان نرسل الى اعلى دبابة لمساعدة تلك المصابة . صعدت بدبابتي للتغطية الجانبية . ولم نكد نفكر حتى اشتعلت النيران بثلاث من دباباتنا ، وأُصيبت دبابتي ايضاً . اندلع لهب كبير ، وأُصيب المدفعي الذي كان معي . شعرت بالهزة وبالنار ، وتدحرجت خارجاً منها ، اضطجعت ، ولكني ادركت انني اذا بقيت مضطجعاً فستنفجر الدبابة بالقرب مني ، فركضت الى الجدار ، وتذكرت وانا راكض انني متجه نحو القوة السورية ، فعدت الى احدى دباباتنا الاخرى . وشعرت في تلك المرحلة بانني جريح ، ولكن ذلك لم يستدع اخلائي . أُصبت في كلتا ذراعي ، وفي الجهة اليسرى من وجهي . صعدت الى دبابتنا قبل ان تطلق هي علي النار . طلبت من قائدها مغادرتها وصعدت عليها . اما الدبابات الست الاخرى ، التي بقيت من القوة ، فقد عادت الى الوراء ، ومرة اخرى بقيت وحدي مع دبابة واحدة .

« شاهدت قوافل الدبابات السورية مع شاحنات التموين والذخيرة تسير وراءها . ورأيت انها لا تتجه نحوي ، فقررت التعامل معها في حال اتجاهها نحوي فقط . ولو لم افعل ذلك لهاجمتني طبعاً . لم اكن عندها اعرف حجم القوة السورية بعد . وعرفت اليوم انها كانت فرقة مدرعات ، جعلت من مفترق خشنية قاعدة تموين لها » .

احتلت دبابة الملازم تسفيكا الوحيدة مركزاً كان مجهزاً داخل « محور النفط » .

وكان من حين لآخر يغير من مركزه ، ويطلق النار نحو دبابة سورية ، ويشعلها ثم يعود الى الوراء . في الساعة الثالثة صباحاً توقف عن اطلاق النار ، وساد الهدوء القطاع ، فقد اصدر قائد اللواء امراً لاسلكياً بوقف القتال ، لئلا تستنزف القوات ، والانتظار حتى الصباح حين وصول دبابات اخرى ، والى ان تظهر طائرات سلاح الجو . ومع الفجر وصلت الى تسفيكا سرية مدرعات . فأعد القوة ، التي اصبحت الآن تحت تصرفه ، لمواجهة امكان قيام الطائرات والمدرعات السورية بالهجوم عليه . وقدر انه لا يستطيع ان يتولى بنفسه قيادة القوة الموضوعة تحت قيادته ، فتوجه الى قائد اللواء يطلب منه ارسال قائد آخر ، « اكثر قدرة » . ووعد قائد اللواء ان يحضر بنفسه . وبينما كانا يتحدثان باللاسلكي ، بدأ قصف مدفعي سوري على « قوة تسفيكا » . وعلى الفور اغارت نحوه دبابات سورية .

« نشبت معركة عن بعد ١٥٠٠ متر ، مدرعات بمدرعات . كانت لديهم دبابات كثيرة ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يقاتلون » ، هذا ما تذكره تسفيكا ، واضاف « دمرنا لهم خلال ذلك اليوم دبابات كثيرة . وقام حغاي ، وقائد فصيلة آخر ، بعمل رائع ودمرا عشرات الدبابات السورية . وسارت الامور معنا بصورة جيدة جداً ، مع الأخذ بالحسبان حقيقة انه كانت هناك فرقة سورية مدرعة كاملة ضد ١٦ دبابة . وعند الظهر تحسن الموقف لصالحنا » .

لم يكن هذا الا وهماً ، حيث اتضح ان السوريين قاموا بمناورة تضليل . فبينما كانت إحدى قواتهم المدرعة تضغط على « قوة تسفيكا » ، قامت قوة اخرى بالالتفاف وانقضت على مفترق طرق نفاخ ، وعلى معسكر القيادة فيه . وتلقى تسفيكا امراً بالانسحاب ، والاسراع الى مساعدة نفاخ ، حيث لم تبق هناك دبابات لمواجهة الانقضاض السوري . وعندما وصلت الدبابات السورية الى جدار المعسكر . استطاع تسفيكا بدبابته ، ومعه قائد فصيلة دبابات آخر بدبابة وحيدة ، الدخول الى المعسكر لمحاولة صد السوريين . في هذه اللحظة أصيب سائق دبابة تسفيكا بصدمة . فلدى مشاهدته الجنود الفارين أمام الدبابات السورية انفجر بالصراخ ، وغادر الدبابة ، وصعد الى مجنزرة ، وهرب من المعسكر . وبقي تسفيكا دون سائق ، في دبابة مصابة وغير صالحة للعمل .

في تلك اللحظات الحرجة ، التي بدا فيها ان مفترق الطرق المسيطر على جسر بنات يعقوب ، سيسقط في يد السوريين ، وصلت المساعدة من الشمال . فقد استطاعت قوات وحدة مدرعات ، كانت تقاتل في القطاع الشمالي من هضبة الجولان ، ان تصد محاولات فرق المدرعات السورية للتوغل في ذلك القطاع ، وارسلت وحدات باتجاه مفترق طرق نفاخ ، فأوقفت الدبابات السورية التي انقضت على المعسكر . صعد الملازم تسفيكا الى احدى الدبابات وعاد الى « محور النفط » ، الى ان انهار خلال ساعات الليل ،

بعد ٣٠ ساعة من القتال ، ونقل الى المستشفى . وبحسب تقدير قادته دمر الملازم تسفيكا وحده نحو ٦٠ دبابة سورية . ولكنه لا ينسب الى نفسه سوى ٢٠ فقط . قال للمراسلين العسكريين ، يونا شمشي واهرون لاهف « اشعر ان من واجبي القول بأن هناك رجال احياء ، وآخرون لم يبقوا في قيد الحياة ، قاموا باعمال رائعة لا يعرف أحد عنها . انني اعلم ان شعب اسرائيل يبحث بعد هذه الحرب عن ابطال ، وتسفيكا هو واحد منهم . ولكنني اعتقد انه يجب البحث عن البطولة الحقيقية لهذا اللواء . وقد قام الرجال في الجبهة باعمال غير اعتيادية ، اريد ان انحني اجلالاً امامها » .

بينما اخترق القطاع الجنوبي من الهضبة بأسره . واخذت الدبابات السورية تتقدم في سفوح الهضبة ، باتجاه سهل الحولة وغور طبريا ، لم يستطع السوريون اختراق الخطوط الدفاعية على سفوح جبل الشيخ ، وفي القطاع المواجه لمدينة القنيطرة . فوحدة المدرعات التي احتلت هذا القطاع ، تحركت الى مراكزها في الساعة الثانية بعد ظهر يوم الغفران ، عندما اندلعت الحرب . وفي اثناء الليلة الاولى من الحرب فقط ، التحمت دبابات هذه الوحدة بالالوية السورية المزودة بدبابات حديثة من طراز تي. ٦٢ وعليها معدات للرؤية بالاشعة ما تحت الحمراء ، تمكنها من القتال ليلاً . وفي الليل لم يستطع السوريون الاختراق ، فاستأنفوا هجومهم عند الفجر . وقد دمرت قوة مكونة من لواء مدرع سوري بكامله تقريباً . ولكن القيادة العسكرية السورية لم تيأس . فقد واصلت ارسال المزيد من الالوية المدرعة في محاولة لاختراق الجبهة .

بالنسبة اليهم ، كان احتلال مدينة القنيطرة ، مدينة مهجورة وخربة تقع على بعد بضعة كيلومترات فقط من خط وقف القتال ، مهمة معنوية من الدرجة الاولى . فالقنيطرة ، بالنسبة الى السوريين ، تمثل هضبة الجولان بأسرها . وقد تم صد جميع محاولات التوغل في اليوم الثاني من الحرب . وعند الليل كانت الدبابات التي صدت الهجوم السوري ، خالية من الوقود والذخيرة ، وهي تدرك انها مقدمة على ليلة قتال اخرى . والسوريون ، خلافاً للمصريين ، خرجوا هذه المرة لقتال مدرعات ليلي ، لمعرفتهم بتفوقهم على المدرعات الاسرائيلية في اثناء الليل . واستطاعت قافلة امدادات الوصول ، تحت نيران المدفعية الكثيفة ، الى دبابات الوحدة وتزويدها بالذخيرة قبل بدء الهجوم السوري الليلي بوقت قصير ، وتم صد هذا الهجوم ايضاً .

منذ الساعات الباكرة من صباح ذلك اليوم ، اخذت قيادة المنطقة الشمالية « تقطر » دبابات منفردة لتدعيم القوات المدرعة المقاتلة في الهضبة . ولم يتمكن رجال الاحتياط ، الذين وصلوا الى وحداتهم منذ يوم السبت ، من الانتظام ، فكل دبابة أعدت للسفر زودت بطاقم ، بصورة ارتجالية ، وأرسلت فوراً الى الهضبة . « يجب ايقافهم بكل ثمن » ، قال قائد المنطقة ، الجنرال يتسحاق (« حاكا ») حوفي . وقد تولى القيادة في الجبهة نفسها

العقيد رفائيل (« رفول ») ايتان ، وهو ضابط مظلي قديم ، لم ينتزع عن رأسه للحظة قبعة اللباد قاتمة اللون وواسعة الاطراف ، التي حصل عليها كهدية من مدربه في دورة كوماندو سابقة في الولايات المتحدة . وصل رفول الى الحرب وهو مصاب بجراح طفيفة . وكان قد جرح يده بمنشار في منجرته الخاصة في مستعمرة تل عدشيم عشية الحرب .

تسلقت بضع دبابات الى الهضبة من غور الاردن ، وهي ايضاً ، كرفيقاتها التي كانت غارقة في القتال منذ ٢٤ ساعة ، لم تدرك بعد انها تخوض حرباً شاملة . وبعد ان قطعت بضع كيلومترات وجدت نفسها في مواجهة مدافع الدبابات السورية ، التي نصبت لها كميناً في اعلى الطريق . فأُصيبت واحترقت الواحدة تلو الاخرى ، واستطاع بعضها الانسحاب الى الوراء . وفقط بعد إصابة نحو ٨ دبابات ، حشد قائد الوحدة قوة مكونة من بضع دبابات في وحدة واحدة ، وصعدت الى اعلى الهضبة بتشكيلة قتالية . واعتقد السوريون ان التحرك بتشكيلة مكونة من عدة دبابات مجتمعة تبشر ببدء هجوم مضاد . وامرت دباباتهم الامامية بالانسحاب بضعة كيلومترات لتحسين مواقعها والتمركز على خط رؤوس التلال بدلاً من سفوحها .

في هذه الاثناء كانت طائرات سلاح الجو تغير اسراباً اسراباً على ارتفاع منخفض ، وتحاول قنص الدبابات السورية وعرقلة تقدمها . جلس الجنرال (« احتياط ») مردخاي (« موتي ») هود ، الذي عين مستشاراً جوياً في القيادة الشمالية ، في مقر القيادة . وعندما وصلت الى الاركان العامة انباء عن تقدم السوريين ، تسلم موشيه دايان ، وزير الدفاع ، جهاز اللاسلكي بنفسه .

كان لدى دايان حساسية خاصة من الحرب في هذا القطاع . فخلال حرب الاستقلال ، عندما زحفت الدبابات السورية من سفوح الجولان ، واحتلت مستوطنتي مساده وشاعر هجولان ، وهاجمت ، من مفترق طرق سمخ ، أسيجة مستوطنة دغانيا أ . أرسل دايان في مهمة مباشرة من قبل دافيد بن – غوريون ، رئيس الحكومة آنذاك ، الى هذا القطاع . وكلف بتنظيم الدفاع عن غور الاردن ومنع السوريين من مواصلة التوغل « بكل ثمن » . وقد وضعت تحت قيادته المدافع الوحيدة التي كانت في حيازة الجيش الاسرائيلي آنذاك . وبدا الآن وكأن شيئاً لم يتغير ، وانه بعد ٢٥ سنة من بناء القوة الذاتية لا تزال هناك حاجة لحل المشكلات ذاتها في ذلك القطاع .

اجادت الطائرات في إصابة الدبابات ، ولم يكن في مقدورها إيقاف طوفان ١٢٠٠ دبابة . ونشطت طائرات سلاح الجو السوري في المنطقة ، فهاجمت اهدافاً ارضية ، واشتبكت في معارك جوية مع الطائرات الاسرائيلية . ولكي يكون بالامكان العمل ضد المدرعات السورية ، كان لا بد من الضرب في مؤخرتها ، بهدف شل الطيران السوري . ولهذا الغرض تقرر ضرب الاهداف الاستراتيجية في سورية ومطاراتها العسكرية .

روى طيار طائرة « فانتوم » : « انطلقنا بتشكيلين واتجهنا الى دمشق . اطلقوا علينا النار من جميع انواع المدافع المضادة للطائرات ، واطلقت الصواريخ بصورة خفيفة نسبياً . ولم يكن من السهل إصابة مبنى واحد في مدينة كبيرة كدمشق . انقسمنا الى تشكيلين ، وهاجم كل تشكيل مبنى واحداً . اسقطنا عليهم عشرات الاطنان من القنابل . وادخل احدنا قنبلة الى الطابق الثاني مباشرة » .

كان المبنى الذي تحدث عنه الطيار هو مقر قيادة سلاح الجو السوري في قلب دمشق . وبموازاة هذه القيادة ، قصف ايضاً مبنى وزارة الدفاع السورية . وفي اليوم نفسه ، وفي الايام التالية ، هاجم سلاح الجو مطارات ومعامل تكرير ، وجسور ، وخزانات وقود . وروى الطيار « اصبنا مرافق رئيسية بالقرب من معامل التكرير في حمص . شب حريق كبير ، وتطايرت قطع الانابيب والخزانات في الجو . وكان هذا الحريق بمثابة علامة فارقة لموقع الشرق الاوسط بالنسبة الى الطائرات القادمة من اوروبا » .

تحدث زكريا اسماعيل ، نائب وزير الخارجية السوري ، بعد الحرب ، عن مدى فاعلية هذا الهجوم فقال : « لقد دمر معملا التكرير في سورية . كما عطل ايضاً ٨٩ بالمائة من طاقة توليد الكهرباء السورية » .

كانت الشبكة الدفاعية المضادة للطائرات ، التي اقامها الروس في سورية ، تشكل عقبة آنية امام توغل الطيارين الاسرائيليين الى الاعماق . وفي يوم الاحد نفسه كانت احدى المهام الاساسية لسلاح الجو مهاجمة بطاريات الصواريخ الحديثة وتدميرها ، لكي يوفر لنفسه مجالاً اوسع للعمل . وروى طيار « فانتوم » : « منذ الغارة الاولى فقد بعض الرفاق . وعندما تسمع عن الطائرة الاولى التي سقطت في سورية ، تشعر بانقباض في القلب . وعندما سقط الطيارون الاوائل اخذنا نشعر ان هذه حرب حقاً . وفي ردهة قاعدة السرب اخذ الرفاق يتناقصون » ... كان السوريون يطلقون الصواريخ بضراوة ودون حساب . عشرات الصواريخ على كل طائرة . وحدث انهم اصابوا بصواريخهم ايضاً طائرات سورية كانت في الجو ، ومع ذلك لم يتوقفوا عن الاطلاق شرط ان يسقطوا طائرات اسرائيلية . وفي بعض المعارك الجوية ، التي نشبت في الاجواء السورية ، اشتركت في بعض الاحيان نحو ٥٠ طائرة من كل جانب ، وكان من الصعب التمييز بين طائرة العدو ، و « الصديق » .

ومن اقوال احد الطيارين الذين اشتركوا في المعارك الجوية في هضبة الجولان : « عندما تجلس داخل الطائرة ، وتنظر في الخريطة ، تدقق فيها المرة تلو الاخرى ، تكون منهمكاً اكثر من اللازم ، ولا وقت لديك للخوف . في لحظة دخولك الى الطائرة تشعر بانقباض في القلب ، ثم تنسى نفسك بعدها . وعندما تعبر الحدود تشعر بانقباض آخر ، ولكنك تحس بالمسؤولية وبواجب بذل اقصى الجهد . عليك ان تجد الهدف

وان تقوم بتوجيه الطائرة الى الهدف وتصيبه عـلى الوجه الأفضل . كل شيء حتى الحد الاقصى ، فاذا لم تجد الهدف ، ولم تصبه ، فكأنك لم تفعل شيئاً . ومن غير اللائق ان تعود مع القنابل ، او تلقيها في البحر ... هذا ما حدث عندما عادت طائرات سورية للهبوط في مطاراتها ، واكتشفت انه لم يبق مكان تهبط فيه . ولما لم يكن لديها المزيد من الوقود لتواصل الطيران الى مطارات اخرى ، تركوا طائراتهم بكل بساطة » .

بينما كان سلاح الجو يساهم بكل ما في طاقته في اجواء الجولان ، من خلال تركيز قوته في الشمال وتجاهل ما يجري في القطاع الجنوبي ، بدأت وحدات الاحتياط المدرعة تتسلق الهضبة بصورة منظمة . كانت المشكلة انه كان يترتب على هذه الوحدات ان تقاتل ، منذ اللحظة التي تبدأ فيها تسلق الهضبة ، في المنحدرات ، في مواجهة الدبابات السورية التي تمركزت على القمم .

ران ، قائد وحدة دبابات ، عضو كيبوتس بيت هشيطا ، تلقى أمر تجنيده ، يوم السبت في الساعة ١٠,٠٠ صباحاً . وقد انطلق الرجال في جميع انحاء البلد يركضون لكي يجمعوا طواقم دبابات وحدته الاحتياطية . وقد ارسلت بعض الطواقم بالجو مباشرة الى الشمال . كانت هذه وحدة تجندت بسرعة ، وتأهبت للخروج الى المعركة ، قبل عشرين ساعة من أية وحدة احتياط اخرى في الشمال . وفي الساعة الخامسة صباحاً من يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، كانت دباباته قد عبرت نهر الاردن . وروى ران : « من الصعب القول اننا كنا مستعدين للحرب . كانت القضية كلها تشبه سباقاً مسعوراً للدبابات لايقاف السوريين . كنت في إحدى الدبابات . مررنا بمزرعة البقر كتشا ، واصطدمنا بالدبابات السورية الاولى . ولو تأخرنا نصف ساعة لاصبحت في عين جيف او عبرت نهر الاردن . تلقيت تعليمات بالوصول الى ال ــ عال والقيام بالصد بأي ثمن . وهناك صديناهم ، على بعد خمسة كيلومترات عن بحيرة طبريا . وجرحت هناك وأُصبت بشظايا ، فنقلوني الى المستشفى حيث مكثت ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع ، وفي الساعة الرابعة ليلاً ، عدت الى الوحدة » . وقد علم ران ، في وقت لاحق ، ان اخاه يوسف ، الذي قاتل هو ايضاً كرجل مدرعات في هضبة الجولان ، قد قتل .

كان بوعاز كوهن ، جندي احتياط ، عمره ٢٦ سنة ، من كريات حاييم ، يقضي يوم الغفران في نزهة على شاطىء الكرمل . كان يضطجع على شاطىء البحر ، ويستمع الى موسيقى غاز كانت تبثها محطة اذاعة « صوت السلام » التابعة لابي ناتان . كانت هذه المحطة الوحيدة في اسرائيل التي بثت الموسيقى يوم الغفران من على ظهر « سفينة السلام » الراسية امام شاطىء اشدود . وفي الساعة الثانية ظهراً ، التقط ابي ناتان في سفينته اذاعة من صوت القاهرة . وهكذا علم باندلاع الحرب واعلن عن ذلك من

محطته . واعتقد بوعاز كوهن أن ابي يحاول التفذلك ، وربما كانت هذه إحدى وسائله للدعوة ضد الحرب . ولكن الناس بدأوا يركضون على الشاطىء ويصرخون : « حرب » . ركض الى منزله ووجد أمراً باستدعائه ينتظره . وقال : « سافرت الى الهضبة ، وانا مقتنع انها حادثة كبيرة بالتأكيد . لم افكر بانها حرب . ولو كانت كذلك لاستدعوني الى الاحتياط في وقت سابق » .

عندما وصل الى وحدته الاحتياطية اتضح ان دباباتها اختفت . وقد أُلحق بمجنزرة ، وأُرسل في الليلة ذاتها الى اعالي الهضبة الى « محور النفط » . وقال : « سافرنا وسمعنا ان هناك اشتباكاً شاملاً . شاهدنا طوال الليل دبابات محروقة . وفي ضوء لهيبها قامت دباباتنا بتنسيق الاتجاهات . امرونا بالتحرك . الى اين ؟ لا أحد يعلم . تحركنا وشاهدنا دباباتنا محروقة . قالوا لنا ان قادة قتلوا . انتظرنا حتى الصباح . ولم تغمض لنا عين ولو لحظة . وفي الصباح اندلعت المعركة حول « محور النفط » . شاهدنا قواتهم تأتي من الجانب الأيمن ، ولم يكن هناك من يصدها أبداً . شاهدنا طوال الوقت دباباتهم في الافق ، تصعد وتختفي . وعندما شاهدنا امامنا نحو ٣٠٠ دبابة سورية بدأنا « نتقدم الى الوراء » . عدنا الى نفاخ . واستمعنا هناك الى اللاسلكي . لم يكن أمامنا مكان نذهب اليه . نظمنا قوة مؤلفة من ٤ دبابات ، ودافعنا عن انفسنا . وقد احصينا بانفسنا عشر دبابات سورية دمرت . اطلقوا علينا النار طوال الليل . ذهبنا لننام على ظهور الدبابات . ولكن بعد ربع ساعة طوينا اكياس النوم وقفزنا الى الداخل . لم نأكل . ولم تمكنا حالتنا النفسية من الخروج من داخل الدبابة » .

بينما كانت دبابات الوحدة الاحتياطية تحاول صد اختراق المدرعات السورية ، استمرت وحدات قليلة ومحاصرة ، تركت في مؤخرة السوريين ، بالقرب من خط وقف القتال ، تخوض معارك يائسة دفاعاً عن حياتها . واجبر الملازم بوعاز ، قائد وحدة مدرعات سورية على مغادرة دبابته ، بعد إصابتها وتعطلها . وقد ساعد رفاقه الاصحاء على انتشال الجرحى . ساروا مشياً على الاقدام ولجأوا الى احد المواقع الاسرائيلية بالقرب من مفرق الرفيد ، حيث كانت فرقة مدرعات سورية قد عبرت باتجاه خشنية .

روى الملازم بوعاز ، نائب قائد سرية اصبح في نهاية الحرب قائد سرية ، وكان ذلك يوم الاحد ٧ تشرين الاول (اكتوبر) : « في الساعة العاشرة صباحاً ، بدأ رتل من المدرعات السورية يتوغل في الهضبة ، وهو يسير على محور قطنة ــ خشنية . وبعد ذلك اخذ يتحرك رتلان آخران من المدرعات السورية . وبدا لي انني رأيت مثل هذا المشهد ، قبل بضع سنوات ، في افلام عن الحرب العالمية الثانية ، وكيف تقدم الجيش الالماني في اوروبا ــ هكذا تماماً . تحركوا في رتلين ، يفصل بينهما ٥٠ متراً ، كأنهما ملتصقان . فوهات المدافع نحو السماء ، وجنود مشاة يسيرون بين الدبابات . وقد ضم

الرتل ايضاً شاحنات تموين . كانت جميعها تسير ببطء : صفان مستقيمان كحد المسطرة يدخلان اراضينا . وما عسى يغضبك اكثر من عجزك عن القيام بأي عمل ، عدا مشاهدتهم يدخلون — باستخفاف .

« ابلغت نائب قائد الفرقـــة وقلت : « اطلب شيئاً واحداً — عليكم هذه المرة ان تحضروا طائرات » . وفعلاً وصلت طائرتان ورشقتا الدبابات ، ولكنها لم تطلق الصواريخ . كان هناك شعور رائع ، ولكن لخمس دقائق لا اكثر . هذا لم يؤثر على السوريين . واصلوا التحرك ، وكأن شيئاً لم يحدث ، حتى انهم لم يطلقوا علينا نيراناً مضادة للدبابات ، بل اطلقوا بضعة صواريخ وهذا كل شيء . شاهدت طائرة « فانتوم » أُصيبت ، ورأيت الطيارين يهبطان بالمظلة . تمنيت ان يهبطا في اراضينا ، وهذا ما حصل . ومنذ ذلك الحين لم تكن هناك طائرات . وعندئذ تقدم الرتل بأسره الى الامام . واحتل جميع تلال منطقة خشنية ، وهرول الى القرية . في هذه المرحلة اخبرونا انهم سيخلوننا . كان بيننا عدد من الجرحى في حالة يرثى لها فعلاً : حروق وحرائق والى غير ذلك من هذا القبيل . امرونا بالنزول الى مفرق الرفيد ، والعودة الى قوتنا المدرعة التي بقيت في الميدان . نزلنا الى الرفيد واتضح لنا هناك انه لم يتم اي اخلاء بسرعة . كان علينا أن نتأهب مرة اخرى للدفاع عن المكان .

« وكان على جانب من الاهمية ، اتصالنا مع قوة من المشردين والجرحى ، كانوا جميعاً جنوداً هجروا دباباتهم المعطبة ، وجميع القوات التي كانت لا تزال تقاتل مع وحداتها . وكل ما تبقى في الجبهة الجنوبية ١٢ دبابة . اعتقدت انها كانت اكثر ، ولكن هذه الدبابات الاثنتي عشرة هي كل ما تبقى هناك . بقينا هناك حتى الساعة ١٢,٠٠ ظهراً . علمت ان الجميع تحصنوا على تل الفرس وحوله . اما نحن فقد بقينا في الرفيد . بدأ قصف رهيب ، ولم يبق اثر تقريباً لجميع المركبات شبه الثقيلة ، بما في ذلك سيارات الاسعاف . وفجأة توقف القصف . شعرنا اننا مجبرون على الركض الى اعلى . ان شيئاً سيحدث الآن . وحقاً اخذوا ينزلون رجال كوماندو من الطوافات . كان لدينا شعور بأنهم سينقضون على الدشمة التي كنا نختبىء فيها . كان الوضع كئيباً ، وكان هناك جنود يرقدون داخل الدشمة . اطلقنا النار على الطوافات بالرشاشات وانضمت الينا الدبابات . كان شعور جيد ان نرى اول طوافة تهبط ، ثم تسقط الثانية وتتحطم . والحقيقة اذا كان هناك شعور بالخوف من هذه الحرب ، كان هذا الشعور بأن سلاح المشاة سينقض عليك في كل لحظة . وكان المسدس كل ما تبقى لي في تلك اللحظة . ولكن لم تكن معي عيارات نارية ، ولم يعد يساوي اكثر من ان تقذف به الى مسافة ٦ أمتار .

خلال هذه المراحل كنت لا أزال على اتصالٍ ما بمواقع سلاح المشاة التابع لنا

في خط وقف القتال . ولم اكن اعرف انهم ينوون اخلاء بعضهم . وانه تم إخلاء البعض الآخر من هذه المواقع . كان لدينا هناك موقع واحد فقط . يقع في الجنوب . ويطلب المساعدة طوال الوقت ، دون ان تتوفر . كان محاصراً ببضع سرايا من الدبابات السورية . وناداني قائد ذلك الموقع باللاسلكي وقال : « عليك ان ترسل الي العون ! فما عساك تقول لشاب كهذا ؟ وانت في مكان يصعب عليك التقدم فيه مترين الى الامام . فكيف بك ان تصل اليه . في مرحلة معينة قال لي انه سيتوقف عن الكلام . فقد دخلت عليه دبابتان سوريتان في الموقع . عندما وصلت الى مفرق الرفيد . حاولت الاتصال مرة اخرى مع ذلك الموقع ، فوجدتهم لا يزالون على قيد الحياة . دهشت لذلك جداً ، حيث اعتقدت ان تلك كانت نهايتهم . وصرخ أحد جنود ذلك الموقع ، في اللاسلكي ، بأن القائد الذي طلب مني النجدة ، دمر الدبابتين وقُتل . واتضح بعد ذلك انه جُرح فقط . وكانت هذه مفاجأة ثانية لي في هذه الحرب . اتضح لي ان ذلك القائد هو ابن قريتي .

« كانت هذه إحدى اصعب اللحظات بالنسبة الي ، حيث بدأ رجال ذلك الموقع يطلقون صرخات يائسة في اللاسلكي : « لن نستسلم . سنصمد حتى النهاية . ولكن لم تعد عندنا ذخيرة ... الجميع جرحى ... الجميع قتلى ... اصبحنا معزولين . بلغوا سلامنا للأهل . [...] سنبقي على الرصاصات الاخيرة لنستخدمها ضد انفسنا » . كان هذا آخر ما قالوه .

« كان هذا شعور مسادا بكامله » .

« استمر هذا الوضع بضع ساعات ، ولم يكن ساراً ابداً . بقينا صامدين حتى المساء ، ثم اتصلت بقائد الكتيبة وقررنا الانسحاب قبل الظلام . ادركت انه ستكون هناك مشكلة خطرة . كنا محاصرين تماماً . عكفت على الخرائط ، وبحثت عن طريقة نستطيع بها التخلص من هذا الامر . وفي المساء ارسلوا لنا ثلاث دبابات ، حملوا عليها جميع من كان في تلك المنطقة . وقفز على كل دبابة ١٥ رجلاً تقريباً ، وجلس على كل نتوء في الدبابة شخص وهو يفكر في نفسه بكيفية الخروج من هذا المكان . كان من الواضح ان هناك امكانين : اما ان نقع في الاسر ، واما ان نُقتل هنا . وكان من المستحيل الصمود في هذا المكان . اخذنا نفكر بالانسحاب فقط في اللحظة التي ابلغونا فيها ان هُناك قوات وراءنا من جهة الهضبة . كانت احدى اللحظات المفرحة عندما وصلت فيها قوات لنجدتنا الى المنطقة ، وعلمنا ان هناك من سيصعد الى اعلى وينجز الامر . ما كنا لنترك المنطقة لولا ابلاغنا بان هناك من يتقدم نحو الهضبة . كان هناك احتمال بأن اشخاصاً من الاحتياط انتظموا ، هذا على الرغم من انني كنت لا أزال يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) . لا أُصدق ان هناك حرباً في البلد بأسره . كنت اعتقد بأن ما يحدث محصور في هضبة الجولان .

« قبيل المساء صعدنا الى الدبابات واخذنا نتحرك الى الوراء . داعبنا السوريين قليلاً . لم نسر على المحاور . نزلنا في جميع المحاور الفرعية والمداخل ، ومررنا بين قوات كثيرة لهم . مررنا فعلاً بين مرابض الدبابات ، وحرصنا على ألا نكشف . ولكن كيف تحافظ على الهدوء وانت تسير بالدبابات . في هذه اللحظة شعرت انا شخصياً انني انهيت مسؤوليتي . وكان عوزي قائدي ، آمراً للقوة . اغمضت عيني داخل الدبابة . وعندئذ ضمدوني . وكان وجهي يؤلمني حيث تلقيت فيه الكثير من الشظايا .

« وروى الرفاق في البرج انهم شاهدوا في الطريق قوات سورية غير اعتيادية . وعرفت بذلك لانني شاهدتهم يدخلون . ودهشت من توقف هذه القوة السورية بأسرها ، فجأة بالقرب من خشنية ، واتخذت مواقعها هناك .

« لقد ازعجتني هذه المشكلة بما فيه الكفاية . وحاولت ان اسبر اغوار امور غير واضحة لي . قلت في نفسي : صحيح ان السوريين يقاتلون بصورة لا بأس بها ، ولكنهم يقاتلون تماماً كما تعلموا ، وكما خططوا سلفاً ، وعندما يتلقون ضربة ، او يحاولون تغيير شيء ما ، يتحطمون ويظهرون مستوى سيئاً جداً . سيء فعلاً . وعندما سمعت كيف ان قائد دبابتنا ، داني باركوفيتش رحمه الله ، تسلم قيادة قوة قوامها سرية مدرعات في المنطقة ، ادركت ان هذا هو السبب الذي يجعلنا ننتصر في الحقيقة . ونحن قادرون على ارتجال امور خلال ثوان . ويبدو ان جميع اليهود جنرالات ، هذا ما قيل لهم ذات مرة ، وهذا ما حدث . وببساطة توقف السوريون في تلال الهضبة ولم يتقدموا الى ابعد من ذلك . لماذا ؟ — سنسألهم مرة ، وآمل ان يتاح لنا ذلك » .

انتهت هنا قصة الملازم بوعاز . وكما نجحت قوته كذلك فعلت قوات اسرائيلية مدرعة أخرى . كان السوريون قد تخطوها لدى توغلهم . حيث نجحت في يوم الاثنين ، ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ، في شق طريقها عائدة للالتحاق بقوات الاحتياط التي تحركت ، بتشكيلات مدرعة ومنظمة ، لوضع حد لعملية الاختراق التي قام بها السوريون . فالنتوء الذي اوجدته فرقة مدرعة سورية ، في منطقة خشنية ، تحول خلال فترة وجيزة الى جيب حوصر من جهاته الاربع ، واصبح مقبرة مخيفة لمئات الدبابات السورية وافراد اطقمها .

تقع بين خشنية ومفرق الرفيد ، تلة شاهقة ، اصبح اسمها احد معالم معركة الجولان ، تل الفرس ، وهو واحد من سلسلة التلال المنتشرة في هضبة الجولان وليست الا فوهات براكين خامدة ، تشرف على كل قطاع خشنية . لقد تحصنت في هذا المكان ، في اليوم الاول للحرب ، قوة مدرعة اسرائيلية استطاعت انقاذ بعض رجال مواقع الخط الاول ، وخاضت معركة بطولية مع الدبابات السورية التي حاصرتها واستطاعت انقاذ نفسها . واحتل السوريون التل ، ووضعوا في مدخله الغربي دبابة لحماية الثغرة الوحيدة

التي يمكن الوصول منها الى قمته ، وتولى ضباط سوريون في مواقع الاستكشاف الامامية توجيه مدفعيتهم نحو الجبهة الاسرائيلية بأسرها ، وكأنها مفروشة تحت أرجلهم .

في ظهيرة يوم الثلاثاء ، ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، كلفت قوة قوامها مدرعتان ، ووحدة مشاة مؤلفة من اربع ناقلات جنود ، بانتزاع التل من أيدي السوريين . وكانت دبابة سورية واحدة متخندقة في مدخل التل ، بينما كان على التل نفسه عدد كبير من جنود المشاة السوريين . وفي اللحظة التي ظهرت فيها القوة الاسرائيلية على سفح التل ، اطلقوا عليها النيران من جميع اسلحتهم ، واصابوا فوراً قائد احدى الدبابات ، فأمر عامير ، قائد القوة المكلفة باحتلال التل ، جنوده بالانسحاب لتنظيم صفوفهم . وقد اعد القوة للهجوم على الموقع ، حيث تصدرتها الدبابة التي بقيت له ، وسارت وراءها ناقلات الجنود الأربع ، وما كادت الدبابة تطلق ثلاث قذائف نحو التل حتى بدأ الجنود السوريون بالفرار . غير ان الدبابة السورية ، التي على مدخل التل ، وهي مخفية كلها تقريباً ، كانت تطل من حين لآخر لتخرج فوهة مدفعها وتطلق النيران على القوة المهاجمة . واصلت القتال فاصابت الدبابة وثلاثاً من ناقلات الجنود ، واشعلت فيها النار .

كانت الطريقة الوحيدة لضرب الدبابة السورية المنفردة ، بواسطة جنود المشاة . فالجنود الذين قفزوا من الناقلات المصابة ، احاطوا بالدبابة ، واطلقوا عليها النيران ، والقوا عليها قنابل يدوية . ولكن الدبابة السورية بدت وكأنها ترفض ان تُصاب . وكانت تطلق النيران بصورة متتالية على مجموعات المشاة التي حولها ، حتى ان قائدها القى قنابل يدوية من البرج على مهاجميه . واصابت احدى القنابل التي أُلقيت عليه الغطاء الذي يقيه ، ولكنه استطاع ان يلقيها ثانية على الجنود الاسرائيليين . واخيراً نفدت ذخيرة رجال الطاقم السوري ، فقفزوا من الدبابة ، وحاولوا الهرب ، لكنهم سقطوا بنيران مدفع رشاش .

اصبح التل خالياً من البشر ، فقد هجره الجنود السوريون ، وبدأ رجال الوحدة الاسرائيلية حملة تمشيط للتأكد من عدم بقاء قوات معادية . وفجأة شوهد على التل ثلاثة جنود ، فاتخذ المقاتلون مواقع لهم ووجهوا اسلحتهم نحوهم ، الا ان هذه الاشباح الثلاثة اختبأت هي ايضاً . وسادت لحظات من التوتر . الا ان المقاتلين سمعوا اصواتاً تتكلم العبرية حيث قال احد الجنود « هذه مصيدة ، يحاولون خداعنا » . لقد اخطأ . فعندما ظهرت هذه الاشباح مرة اخرى على منحدر التل ، ثبت انها جنود اسرائيليون . كان هؤلاء فلول القوة التي قاتلت على التل يوم السبت ٦ من الشهر . وقد بقوا مختبئين قرب التل ثلاثة أيام متتالية ، دون ان يكتشفهم السوريون الذين احتلوه .

لم يكن هؤلاء المشردين الوحيدين . وكلما تقدمت وحدات الاحتياط المدرعة ، وصدت السوريين الى ما وراء خط وقف القتال ، كان يظهر في الميدان المزيد من الجنود الاسرائيليين ، الذين غمرت طريقهم الدبابات السورية ، واخذوا يبحثون عن مخبأ الى

ان يتمكنوا من انقـــاذ انفسهم ، او الالتحاق بقوات اخرى . وكانت بين المشردين ايضاً وحدة استطاعت الفرار من موقع جبل الشيخ ليلة يوم السبت ، بعد ان احتل جنود الكوماندو السوريون الموقع .

عندما استولى السوريون على الموقع ، والتلال المحيطة به ، انزوى جنود الجيش الاسرائيلي داخل الحصن ذي الجدران السميكة من الاسمنت ، واغلقوا وراءهم الابواب الفولاذية غير القابلة للاختراق ، ومنعوا السوريين من الدخول الى الحصن نفسه . وداخل الحصن ، المبني من ثلاث طبقات تحت الارض ، انكفأت كل مجموعة في احدى القاعات ، التي كانت تحتوي على معدات الكترونية حديثة جداً ، واغلقت عليها الابواب الفولاذية الداخلية . وهكذا كان المقاتلون داخل الحصن نفسه معزولين عن بعضهم بعضاً ، دون ان يعرفوا شيئاً عن المجموعات الاخرى . وقبيل الظلام اخذ القائد مجموعة الجنود التي كانت معه ، وفتح احد الابواب الخارجية واستطاع التسلل عبر القوات السورية التي كانت تطوق الحصن ، دون ان تتنبه له ولرجاله . ولكي يتحاشى كل اصطدام مع القوات السورية ، توجه في البداية نحو الاراضي السورية بالذات ، ومن هنا بدأ مسيرة ليلية طويلة ومضنية حتى وصل الى المنطقة التي تحتفظ بها قوات الجيش الاسرائيلي .

في اليوم التالي ، استطاع السوريون دخول الحصن نفسه عن طريق الباب الذي تركه قائد الموقع مفتوحاً وراءه ، واستولوا على الاجهزة الموجودة فيه وعلى رجاله . ولكن احدى الوحدات استطاعت الصمود خمسة ايام ، وهي محصنة وراء الابواب الفولاذية ، الى ان استسلم افرادها وأسروا .

قبيل ساعات المساء من يوم الثلاثاء ، ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، تم تطهير جيب المدرعات السوري الكبير في منطقة خشنية . وفي القطاع الجنوبي من الهضبة ، حيث تمت اعمق عملية توغل ، دحر السوريون الى ما وراء خط وقف القتال . ولم تتخل القيادة السورية عن القتال في هضبة الجولان ، على الرغم من انها فقدت مئات الدبابات وآلاف الجنود . وبدأت في جنوبي الهضبة ، ومن داخل الاراضي السورية ، تتطاير عشرات من صواريخ ارض ــ ارض السوفياتية من نوع « فروغ » ، التي لم توجه نحو قوات الجيش الاسرائيلي في الهضبة ، بل ضد الاهداف المدنية في اعماق الاراضي الاسرائيلية ، على بعد ٧٠ كيلومتراً من خط الجبهة . وقد سقطت الصواريخ ، ذات القوة الهائلة ، على مستوطنات مرج ابن عامر ، التي لم تعرف الحرب منذ حرب الاستقلال. وسقطت صواريخ من هذا النوع على مشمار هعيمك ونهلال ، وكفار باروخ ، وكيبوتسات ساريد ويفعات وغفات . ولم تسبب اضراراً مهمة الا في كيبوتس غفات ، حيث سقط احد الصواريخ وسط منطقة سكن اطفال الكيبوتس ، بين ملجأين للاطفال ، وأصيب ١٥ مبنى من شدة الانفجار . واطلق السوريون ٢٠ صاروخاً من هذا النوع ، لضرب

مطار رامات دافيد العسكري ، كما قال المراسلون الاجانب ، ولكن معظم الصواريخ اصابت المستوطنات المدنية . وفي اليوم ذاته انطلقت طائرات سلاح الجو تقصف دمشق كرد مضاد .

وفيما كانت قواتهم تصد وتدمر في القطاع الجنوبي ، بدأ السوريون محاولة اختراق جديدة بقوة مدرعة ، في القطاع الشمالي من هضبة الجولان ، هذه المرة ، في مواجهة القنيطرة . فقد بقي السوريون ، اول ثلاثة ايام بلياليها من الحرب ، يهاجمون هذا القطاع ، ويقومون بهجوم مكثف واحد خلال الليل ، وهجومين او ثلاثة خلال النهار . وواجههم تشكيل مدرع نظامي واحد ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق خطوطه . ولم تكن هناك اية قوات اضافية وراء هذا التشكيل ، خلال اول يومين من الحرب ، ولو استطاعوا اختراقه ، لكان طريق السوريين الى الغرب ، باتجاه سهل الحولة والجليل الاعلى ، ممهداً . وفي الحقيقة لم يكن هناك ما يصدهم . وقال قائد التشكيل ، وهو ضابط مدرعات لامع ، اصبح احد ابطال حرب يوم الغفران : « ربما كان مجرد معرفة هذا الوضع ، هو الذي منح الجنود والضباط الشجاعة والقوة الجسمانية للقتال بصورة متواصلة ، اربعة ايام وثلاث ليال ، في مواجهة قوات سورية تتجدد وتدخل المعركة معنا في كل مرة وهي منتعشة » .

لم يتحرك تشكيله المدرع ، حتى صباح اليوم الرابع من الحرب ، متراً واحداً من مراكزه . ولكن في صباح يوم الثلاثاء ، ٩ من الشهر ، وفي الساعة التاسعة تقريباً ، بدأ السوريون هجوماً شديداً جداً على مراكز دبابات التشكيل . ففي البداية ركزوا قصفاً مدفعياً ثقيلاً على المنطقة ، واضطرت الدبابات الى تغيير مراكزها ، لكي لا تبقى اهدافاً ثابتة للمدفعية . وفي اللحظة التي كانت فيها دبابة اسرائيلية تغادر مركزها ، كانت دبابة سورية تنطلق وتحتل المركز .

وفي الوقت ذاته ، اخذت ارتال الدبابات السورية من طراز تي ــ ٦٢ تلتف ، بحركة كماشة ، حول تلك القوة ، وهي تقصف من الشمال والجنوب محاولة محاصرتها . واخذت دبابات التشكيل تصاب الواحدة تلو الاخرى . وظهرت بعض الدبابات السورية في مؤخرتها وحاصرتها من كل جانب . وبقيت لدى قائد التشكيل ، خلال هذه المرحلة ، ٣٠ دبابة صالحة للقتال ، وكان عليه ان يجري تقويماً سريعاً للوضع . كانت دباباته الثلاثين محاصرة بـ ٢٠٠ دبابة سورية ، وستنتهي كل محاولة يقوم بها لاختراق حلقة الحصار ، بمأساة . ولكن قائد التشكيل ، وهو شاب طويل القامة من تل أبيب ، كان خلال حرب الايام الستة قائد سرية مدرعة ، قرر التصرف خلافاً لكل ما ينص عليه مذهب حرب المدرعات .

جمع الدبابات الثلاثين الباقية له كقبضة فولاذية ، وصوّب مدافعها الى جميع

الاتجاهات . وهكذا اوجد لنفسه تركيزاً كبيراً من النيران ، منع الدبابات السورية من مهاجمته . وكانت الدبابات متجمعة في مساحة صغيرة من الارض ، كالقنفذ الذي يتقوقع داخل نفسه ، واشواكه موجهة الى كل ناحية ممكنة . وعندما لاحظ ارتال الدبابات السورية تتحرك عن يمينه ويساره ، امر قائد التشكيل هذه القبضة النارية بأسرها التحرك ككتلة واحدة ، مرة نحو الشمال واخرى نحو الجنوب ، لكي يضرب القوات التي تحاصره . ولكن وضع القوة المركزة بما فيه الكفاية كان ميؤوساً منه في مرحلة معينة . فاخذت ذخيرته تنفد . وقال قائد التشكيل بلهجة متواضعة ، « كان الوضع كئيباً تماماً ، ولكننا أدركنا انه لا يجوز لنا التحرك من هناك » .

كانت خطورة الوضع اكثر وضوحاً للعقيد رفائيل ايتان ، قائد الفرقة . فقد ارسل قوتين مدرعتين لمساعدة التشكيل المحاصر ، تحركت احداهما من الشمال والثانية من الجنوب . وكانت من الجنوب قوة يوسي ، صاحب الوجه الطفولي البريء ، الذي اصبح منذ حرب الايام الستة احد اشهر جنود الجيش الاسرائيلي . ونشرت صورته ، وهو غاطس في مياه قناة السويس ويمسك بيده رشاش « كلاشينكوف » ، على غلاف عدد الحرب من مجلة « لايف » الاميركية ، الصادر في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، واصبحت احد رموز تلك الحرب . كان يوسي عشية حرب يوم الغفران خارج اسرائيل ، حيث تزوج قبل ذلك بأيام قليلة ، وسافر لقضاء شهر العسل في الخارج . وعندما نشبت الحرب عاد الى البلد في أول طائرة . وفي اليوم التالي كان قد تسلم قيادة وحدة مدرعة في هضبة الجولان ، قتل قائدها . ثم استدعي لمساعدة صديقه الحميم ، قائد التشكيل المحاصر .

وصل الى ميدان القتال في الوقت الملائم تماماً . وقال قائد الفرقة : « لو تأخر بضع دقائق ، لاختلفت نتيجة المعركة تماماً » . اوقف يوسي ، بالدبابات القليلة التي كانت تحت قيادته ، تقدم المدرعات السورية واصاب جناحها ، بعد ان وصلت دباباتهم على بعد نحو ٣٠ متراً فقط من القبضة الفولاذية المحاصرة . وفي الشمال ، صدت قوة مدرعة اخرى الدبابات السورية واجبرتها على الانسحاب . وقد جرح هو نفسه في معركة استمرت ساعة ونصف فقط . كانت هذه اكثر اللحظات رهبة بالنسبة الى التشكيل المدرع المحاصر . وخسر السوريون في تلك المعركة نحو ١٣٠ دبابة ، معظمها من احدث الانواع التي ينتجها الاتحاد السوفياتي .

كان يلزم ذلك التشكيل المدرع ، الذي عزز ، يوماً واحداً فقط ، لكي يلعق جراحه ، ويتأهب للانتقال من الصد الى الهجوم . وفي اليوم التالي ، الاربعاء ، ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ، كانت هذه اول وحدة مدرعة اسرائيلية عبرت خط وقف القتال الى الشرق ، داخل الاراضي السورية ، على محور القنيطرة — دمشق . وتوغلت

هذه الوحدة ، منذ اليوم الاول ، الى عمق الخطوط الدفاعية السورية ، خلف الخط البنفسجي . وقال قائد التشكيل : « منذ اللحظة التي بدأنا فيها الهجوم لم يعد في مقدور السوريين ايقافنا » . وخلال يومين كانت قواتنا قد وصلت على بعد نحو ٥٠ كيلومتراً من دمشق . لقد توقفت ، بناءً على قرار من اعلى المراتب ، وتمركزت يوم ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) على خط دهمهم فيه وقف اطلاق النار ، الذي اعلن بعد ذلك بعشرة ايام .

كانت قوات التشكيل منصرفة ، خلال هذه الايام العشرة ، الى تطهير المنطقة التي احتلتها ، والى صد محاولات الاختراق السورية . وكان القتال في هذه المرحلة ، شبيهاً بمرحلة الصد خلال الايام الاولى من الحرب . بيد انه انعكست الآية هذه المرة . فالسوريون هم الذين قاتلوا في معركة الصد ، ودارت الحرب على ارضهم ، وكانوا هم المستنزفين هذه المرة .

لم يكن السوريون قد عرفوا بعد ان القوة الاسرائيلية المدرعة المهاجمة تلقت تعليمات بالتوقف ، وعدم التقدم نحو دمشق . فقد نقلوا الى الجبهة بسرعة جميع قواتهم المساندة . حتى ان الفرقة السورية المدرعة الثالثة ، والتي يقودها شقيق الرئيس السوري ، والتي كانت مخصصة لحماية دمشق من محاولات انقلابية ، أرسلت هي ايضاً الى الجبهة . ثم اخذت تزحف من الشرق والجنوب قوات مدرعة عراقية وسعودية ، وظهر من حدود الاردن « الوفد التمثيلي » الاردني ، بصورة لواء من المدرعات الاميركية من طراز « باتون » .

لم يتحمس حسين ، ملك الاردن ، لدخول المعركة . فما زالت اهوال حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، راسخة في ذاكرته . وعلى الرغم من معرفته انه اذا حاول عبور نهر الاردن الى الغرب ، كان يكفي مجرد تهديد سلاح الجو الاسرائيلي بالهجوم على بلده ، لثنيه عن مهاجمة اسرائيل ومحاولة استعادة الضفة الغربية ، فقد كان على حسين واجب تكريم « حرب رمضان » ، وساهم من اجلها بأفضل ألويته المدرعة ، اللواء المدرع رقم ٤٠ . ولم يغضب عليه احد في اسرائيل . وعندما أُصيبت الدبابات الاردنية الاولى في الاراضي السورية ، امتنعت اسرائيل ، خلال عدة ايام ، من الاعلان عن ذلك ، لعدم المساس بكرامة الملك والحط من هيبته .

كان قائد وحدة المدرعات الاسرائيلية التي واجهت اللواء الاردني ، وبددت آماله في انقاذ سورية ، قد عاد قبل فترة وجيزة من دورة قادة مدرعات في قاعدة فورت نوكس في الولايات المتحدة . وفي تلك القاعدة ، التي تحمل اسم قائد المدرعات الاميركي الجنرال باتون ، يتدرب ضباط مدرعات اسرائيليون وأُردنيون جنباً الى جنب . فعندما بدأ الاردنيون اول هجوم لهم ، اخرج القائد الاسرائيلي من جيبه صورة ملونة ، أُخذت في تلك القاعدة ، وظهر فيها يبتسم بصحبة قائد المدرعات الاردني . وتوقع ان يكون هذا قائد اللواء الاردني . وفي نهاية الحرب ، تلقى هذا القائد الاسرائيلي تذكرة طيران من

قائد مدرسة المدرعات في فورت نوكس ، وهو ابن الجنرال باتون . وبالاضافة الى التذكرة ، دعوة من قائد المدرسة الاميركية للمدرعات الى الضابط الاسرائيلي ليحل ضيفاً عليه ، ويستعرض معه جميع احداث المعركة التي خاضها وعبرها . وقال الضابط الاسرائيلي ، وكأنه يحدث نفسه : « آمل انه ارسل دعوة مشابهة الى قائد اللواء الاردني ايضاً . وسيكون ممتعاً مقابلة المعركة كما رآها الطرفان . ولكنني سأكون مضطراً لاقول للضابط الاردني – يا لخسارة الوقت الذي اضاعه في فورت نوكس . فانه لم يتعلم شيئاً » .

تسنى للتشكيل المدرع في الشمال ، ان يدمر ٣٥٠ دبابة من بين ١١٠٠ دبابة سورية تم تدميرها في جميع معارك هضبة الجولان . وبعد انتهاء الحرب ، وبعد عودة الهدوء الى المنطقة بايام كثيرة ، كان رجال مدرعات التشكيل يعودون الى السهل على خط وقف القتال ، حيث صدوا هناك السوريين خلال الايام الاولى من الحرب . وقد تنزهوا بين حطام الدبابات السورية المحروقة ، واحصوها ، وكأنهم لا يصدقون صحة احصائهم . وكانوا يقولون بينهم وبين انفسهم مراراً وتكراراً : « لا يُصدق اننا نحن الذين فعلنا كل ذلك » . وقد اطلقوا على هذه المنطقة اسم « سهل البكاء » .

منذ ذلك اليوم ، ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ، الذي عبر فيه جنود التشكيل الفولاذي خط وقف القتال ، واخذوا يدمرون المواقع السورية الدفاعية المحصنة ، حدث تحول . فقد زال الخطر الذي تهدد دولة اسرائيل من الشمال ، وزال الخطر على كيانها . ومنذ تلك المرحلة اصبح بالامكان نقل مركز ثقل الحرب الى الجبهة الجنوبية ، حيث كانت فرق المدرعات الاسرائيلية تنتظر دورها هناك للبدء بالهجوم المضاد .

الفصل الحادي عشر

حيوانات الديناصور على السويس

قفز قائد وحدة المظلات على مجنزرة القيادة ، التي كانت تسير في مقدمة رتل من الآليات المدرعة ، ونظر حوله وكأنه لم يصدق ما شاهدته عيناه . فقد وجد نفسه واقفاً داخل منبسط من الارض ، محاطاً بحواجز ترابية . وظهر وراء الحاجز الغربي لمعان مياه قناة السويس . كانت المياه ساكنة ، حوّلها القمر الفضي الباهت الى مرآة كبيرة مستطيلة . وكانت عقارب الساعة تشير الى ... من يوم ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) . ولم يستطع القائد التحكم بانفعاله . وصاح بحماسة ، « نحن في القناة ، نحن في القناة » .

توقف رتل الآليات التي نقلت مقاتليه على امتداد الحاجز ، وساد هدوء رهيب استمر بضع ثوان . وفي الخلف ، في عمق صحراء سيناء شرقاً ، لم يتوقف هدير القصف ووميض القذائف لحظة واحدة . وقد شقت زخات غزيرة من الرصاص الموجّه ، الظلام من جميع الجهات . ومن حين لآخر كانت قنبلة مضيئة تهوي ببطء عن بعد ، وتضيء المنطقة في مؤخرة المظليين . ولكن هنا ، في المكان الذي أُطلق عليه « الساحة » ، تهيأ للمظليين وكأنهم خرجوا من مجال الحرب . ولولا قذائف مدفع هاون قليلة كانت تنفجر حولهم من حين لآخر ، لما شعروا انهم موجودون في قلب منطقة المعارك .

لم يكن هناك مجال للانفعال والاندهاش من حقيقة انه بعد عشرة ايام من عبور ١٠٠ ألف جندي مصري القناة على امتدادها ، ودحر قوات الجيش الاسرائيلي من خط المياه الى عمق سيناء ، عادوا يقفون على ضفة القناة ، وهذه المرة بهدف العبور الى ضفتها الغربية ، الى داخل الاراضي المصرية . ولم يكن يفصل بين القارة الآسيوية ، التي وقفوا عليها ، وبين القارة الافريقية امامهم سوى ١٨٠ متراً من الماء ، الساكن تقريباً . وانزلت قوارب مطاط صغيرة من الآليـــات بسرعة . وتسلق بضع مجموعات من الجنود ، الذين يحملون مدافع رشاشة ، قمة الحاجز الترابي الممتد على طول القناة ، لتغطية القوارب الاولى التي أُنزلت الى الماء . وبعد بضع ثوان ، بدأ عدد من القوارب

يسير الى الضفة الاخرى من القناة . وكانت ظلالها الداكنة كالبقع الصغيرة على المياه الفضية اللامعة . كانت هذه اطول دقائق العبور المتوترة .

لم يسمع من الجانب الثاني للقناة اي همس ، ولم يكن بالامكان ملاحظة اية حركة او دليل على الحياة . ولكن احداً لم يكن قادراً على معرفة ما اذا كانت المنطقة ، التي كانوا سينزلون فيها ، خالية حقاً من البشر ام ان المصريين ينتظرون هناك ، واصابعهم على المدافع الرشاشة ، بانتظار اللحظة التي سيخرج فيها المظليون من قوارب المطاط لينزلوا في الضفة الغربية . وقبل ان يصل المظليون الى الضفة الشرقية للقناة ، اطلقت المدفعية الاسرائيلية كميات هائلة من القذائف على المنطقة المعينة للانزال ، على بعد نحو ٢٠٠ متر شمالي النقطة التي يتصل فيها طرف قناة السويس بالبحيرة المرة الكبيرة . وقد ألقي على المنطقة ، التي لا تزيد مساحتها عن ٥٠٠ متر مربع ، خلال ساعتين فقط ، لا أقل من ٧٠ طناً من القذائف المدمرة التي اجبرت ، كما يبدو ، القوة التي كانت تتولى حراسة المنطقة ، على الفرار . وبحسب احد الآراء ، كان في تلك المنطقة جنود فلسطينيون ، سارعوا الى الهرب عندما بدأ القصف . ولكن بعد ان صمت هدير المدافع ، ربما عادوا واحتلوا مواقعهم .

وصلت القوارب الاولى الى الجانب الآخر من القناة ، بصمت . ونزل منها بعض المظليين ، ورجال وحدة الهندسة ، بسرعة الى الارض الموحلة على ضفة القناة ، حيث كان المكان مستوياً تغطيه النباتات الكثيفة . وعلى بعد بضع عشرات من الامتار فقط ، وراء ذلك المنبسط من الارض ، يرتفع الحاجز الترابي على القناة من الجانب المصري ، الذي يسد الطريق الى الجانب الثاني . كان ذلك المنبسط من الارض مزروعاً بالالغام ، نثرت عليه مكعبات مسننة من الباطون ، الغرض منها حماية المنطقة من اختراق محتمل بالدبابات . وتقدمت مفرزة الهندسة ببطء ، وسارت في الممر الضيق الذي وقع الاختيار عليه كطريق للاختراق . وقد زاد الصمت التام ، الذي ساد في كل ناحية ، من الاحساس بالتوتر والخوف من المجهول . تم اختراق الممر الى قمة الحاجز ، في الجانب المصري ، تدريجاً . وتسلقت المجموعة الاولى الى قمة الحاجز وغرزت عليها ساريتين ، علق عليهما مصباحان ملونان . فكانا علامتين ترشدان القوة المخترقة ، الى الطريق — فالمصباح الاحمر ارشد القوة التي كان عليها التوجه يميناً ، والمصباح الاخضر ارشد القوة التي تتجه الى اليسار .

انتظر قائد مفرزة الطليعة حتى انهى رجاله وضع العلامات على ممر الاختراق بخطوط بيضاء ، تلمع في الظلام ، وعندئذ ابلغ باللاسلكي الذي في يده ، قائد قوة المظليين العاملة ، الذي كان ينتظر على الجانب الشرقي من القناة : « تم التنفيذ بحسب المخطط ، نحن بانتظاركم » .

أعطيت الاشارة ، وانطلقت عشرات قوارب المطاط الصغيرة التي كانت تنتظرها في الجانب الشرقي من القناة ، الى الماء ، وعبرت القناة مخلفة وراءها آثاراً من الزبد . وبدا المنظر للحظة ، بسبب السكينة الريفية التي كانت سائدة هناك ، كمباراة تجديف وعبور . وخلال بضع دقائق ، اصبح المظليون في الضفة الغربية ، وانطلقوا الى الامام على امتداد الممر المعلم فوق الحاجز الترابي ، وهم ينشطرون يميناً وشمالاً كما كان مخططاً . وخلال فترة قصيرة احتل المقاتلون من المظليين مراكز على امتداد الحاجز ، اي على طول كيلومتر شمالي نقطة الانزال ، وبضع مئات من الامتار جنوبيها ، في اتجاه البحيرات المرة . وفي تلك الاثناء لم يصطدموا الا بافراد من الجنود المصريين الذين فوجئوا وهم في مواقعهم ، لانهم لم يلاحظوا العبور ابداً . وقد تم احتلال الحاجز واندفعت قوة اخرى الى الامام ، انحدرت الى الجهة الثانية واحتلت مراكز لها داخل غابة اشجار الكينا التي تبعد بضع عشرات من الامتار عن الحاجز . وقبيل الصبح كان بمقدور قائد قوة المظليين ان يبلغ قائد الفرقة ، الجنرال اريئيل (« اريك ») شارون ان « رأس الجسر قد احتل كما هو مخطط » .

« التخندق ، التخندق » هكذا انتقل الامر همساً عند بزوغ الفجر . ومن يدري ماذا يخبىء الصباح . انتزعوا معاولهم واخذوا يحفرون بسرعة داخل الارض الرملية . حفروا استحكامات ومراكز دفاعية بسيطة . وكان المهم هو توفير غطاء للرأس عندما يبدأ القصف . اقترب جندي اللاسلكي وهو منحن قليلاً ، وهوائي كبير يرتفع من الجهاز الذي على ظهره ، اقترب من قائد وحدة المظليين ، وناوله سماعة الجهاز ، وقال له بصوت خافت ، وكأنه عامل هاتف يحول مكالمة هادئة الى رئيسه في المكتب ، « رئيس الاركان يريد التحدث اليك » .

قال قائد وحدة المظليين لرئيس الاركان ، الذي كان ينتظر نتائج العبور بتوتر : « نعم كل شيء على ما يرام ، نحن بخير ، نحن في افريقيا ، كل شيء يسير كما هو مخطط له . شكراً ايها القائد » . لم تكن هذه المكالمة الوحيدة . لان الجنرال حاييم بار — ليف قائد الجبهة الجنوبية ، والجنرال شموئيل غونين قائد المنطقة ، سارعا الى الاتصال هما ايضاً . وارادوا جميعاً ان يعرفوا مصير القوة ، وكيف تم الاختراق ، وهل واجهوا مقاومة ، وهل خاضوا معركة . وفجأة ، وفيما كان الجنود يصغون الى مكالمات قائدهم القصيرة مع القادة الآخرين في المؤخرة ، بدأوا يستوعبون ابعاد الموقف : أقيم رأس جسر على ارض مصر .

كشفت اشعة الشمس الاولى للمقاتلين المتخندقين داخل الحفر الدفاعية ، روعة الارض الافريقية التي دخلوها كاملة . بدا كل شيء ساكناً وهادئاً جداً . ولكن قائد القوة اخذ يصدر اوامر التأهب الى القوات . فقد توقعوا هجوم طائرات سلاح الجو

المصري ، وكانوا ينتظرون وابلاً من القذائف . ولم يكونوا في مجمل الامر سوى جزيرة صغيرة في قلب قوات العدو غربي القناة وشرقيها . ولكن بينما كانوا ينتظرون الانزالات المرتقبة بتوتر ، كانت اكثر المشكلات ازعاجاً لهم ، هي كيف يبدأون الصباح بكأس شاي ساخن ، وهي المشكلة الرئيسية التي يواجهها كل جندي في كل صباح .

اقام بعض اصحاب المبادرة فرناً ميدانياً بسيطاً من بضعة حجارة ، وجدوها في احد المواقع ، وجمعوا اغصان واوراق شجر يابسة ، وسخنوا الماء في علب بازيلا فارغة . اول شاي على ارض مصر . وقال احد الجنود : « من المؤسف انه لا يمكن الحصول على النعناع هنا » .

كان قائد القوة منحنياً على الارض ، يرسم خطوطاً على الرمل . وقال : « استغرب من المصريين . كان عليهم ، بحسب تقديري ، ان يبدأوا بالقصف » . ولكن القيادة المصرية في الجبهة لم تدرك بعد ما جرى في اثناء الليل . ومن المؤكد ان قادة الاركان المصرية تلقوا من رجالهم في منطقة البحيرات المرة تقارير حول ظهور قوة مشاة اسرائيلية هناك ، ولكن يبدو انهم قدروا ان هذه القوة صغيرة وعديمة القيمة .

كان المكان الذي جلس فيه قائد قوة المظليين ، على بعد بضع مئات من الامتار شمالي مدخل البحيرة المرة الكبيرة . وكان بالامكان رؤية مياه البحيرة من هناك ، وبالمنظار كان ممكناً مشاهدة السفن الراسية في مياهها ، منذ ان انحصرت هناك خلال حرب الايام الستة .

وتساءل احدهم : « من الذي حدد عبورنا من هنا بالذات ؟ » .

فأجاب جندي على رأسه قبعة ، بجد : « هذا مكتوب في التوراة » .

وبحسب احدى النظريات فان بني اسرائيل عبروا البحر من ذلك المكان المقفر لدى خروجهم من مصر قبل ٤٠٠٠ سنة .

واخذ ناظم شعر سريع البديهة يدندن بسخرية :

« ايها القارب والبحيرة المرة ، عدنا اليكما مرة اخرى »

وقال احد القادة : « إذا لم يقيموا هنا جسراً بسرعة ، سنضطر بعد قليل الى العودة مرة اخرى الى عملية سيدنا موسى » .

كان يجري في ذلك الوقت نشاط واسع على مياه القناة ، في منطقة العبور . وكانت قد أُلقيت الى الماء العوامات الاولى ، التي أُحضرت الى هناك ، وبدأت تمخر المياه من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية ، وهي محملة بالدبابات والجنود .

وكان رجال سلاح الهندسة واقفين على جانبي القناة وهم يفحصون ويقيسون ويمهدون الارض لاقامة اول جسر من العوامات .

بينما كان المظليون لا يزالون متخندقين في الضفة الغربية ، وصلت جرافات الى مكان العبور عند الفجر . وبضجيج ، قيل انه سيوقظ المصريين من القناة حتى القاهرة ، اخذت تلتهم الحاجز الترابي المرتفع الذي كانت عليه علامات من احجار القرميد الحمراء . وقاد الجنرال شارون ، قائد الفرقة نفسه ، الذي ظهر بشعره الفضي وجسمه الضخم ، رجال المعدات الميكانيكية الى القطاع الضيق من الحاجز ، الذي وضع عليه بيديه علامات من احجار القرميد الاحمر قبل ذلك بثلاث سنوات ، لمقتضى اختراق محتمل . وكانت لا تزال تدور جنوبي منطقة العبور وشماليها معارك مدرعات ومشاة مريرة . ولكن كان الهدوء النسبي يسود منطقة العبور نفسها ، ولم يكن المصريون قد علموا بعد بما يجري .

بعد ان فتحت ثغرات في القطاع الضيق من الحاجز الترابي في الضفة الشرقية ، بدأ الجميع يعدون الدقائق التي تمر بتوتر متزايد . هل ستصل معدات العبور في موعدها ؟ .

اصطدمت قافلة معدات العبور « الهولات » ، كما اطلق عليها الجنود ، بصعاب عديدة وهي في طريقها الى المحور الذي شق الى منطقة العبور خلال الليل . وفي تلك الساعات ، لم يكن قد تم بعد تطهير المحور بأسره . وكانت الدبابات المصرية تقف على بعد بضع مئات من الامتار منه ، والمدفعية المصرية تدك الطريق بتصويب دقيق . وكان يخيل ان القوافل التي تسير عليها ستقع بين اذرع عنكبوت الحرب الرهيبة . وأُصيبت عوامات ، ودمرت سيارات وذخيرة ، وناقلات وقود على المحور ، وأُغلقت الممرات ، وتولدت عراقيل سير كان يخيل انه لا يمكن التغلب عليها وإزالتها .

كانت تقف بالقرب من نقطة العبور ، دبابات انتظرت نقلها الى الجانب الغربي من القناة . ولكن معدات إقامة الجسور والعبور لم تكن قد وصلت بعد . وثار خوف للحظة انها لن تصل ابداً . ولكن آليات إقامة الجسور استطاعت في النهاية ان تشق طريقها الى منطقة العبور . وقد وصلت اولاً العوامات . ونظر اليها في البداية باستخفاف ، إلا انها انقذت فيما بعد عملية العبور بأسرها .

أُلقي بالعوامة الاولى الى الماء . صعدت عليها الدبابة الاولى ببطء واخذت تسير غرباً ، في الوقت الذي كان مئات الجنود يقفون على جانبي القناة يشاهدون « الهولة » مبحرة ، والقلق يتملكهم . وبعد ان قطعت العوامة الاولى نصف الطريق ، دون عراقيل ، زال التوتر . وانفجر المقاتلون المنهكون بالتصفيق ، وكأنهم يشكرون المركبات القديمة التي تئن ، والتي علقوا عليها آمالهم .

قال غيورا ، قائد اول دبابة عبرت القناة صباح يوم ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) : « بدا هذا لنا نزهة صباحية في رحلة صيد في افريقيا . وكنا نسمع من بعيد وبوضوح اصداء المعركة التي كانت تدور في ذلك الوقت في « المزرعة الصينية » ، واما هنا عندنا ، فكان كل شيء هادئاً . نزلت الدبابة من مركبة مد الجسور ، وفجأة اكتشفنا عالماً آخر . اشجار الكينا العالية ، واشجار النخيل ، والخضرة في كل مكان تقع عليه العين . واخذنا ندب في ارض سوداء . ومن المدهش انه كان عندي وقت للتنبه لمثل هذه الامور ، وانا راسخ في برج دبابة وحيدة . اما ورائي فكانت قناة ماء عرضها ١٨٠ متراً ، تفصل بيني وبين رفاقي . واما امامي ، فلم أكن أعلم بما يجري هناك » .

كان اللقاء بين المظليين ، الذين انتظروا منذ بضع ساعات في الجانب الغربي من القناة ، وبين طاقم الدبابة الاسرائيلية الاولى التي عبرت القناة ، مؤثراً . وقد ادرك المظليون ، وهم من لواء متمرس في القتال ، ان الاحتمال الوحيد للصمود في الجانب الغربي يتوقف على نجاح نقل قوة مدرعة الى هذا الجانب . وقد لوحوا للدبابة بأيديهم وهم يهتفون من الفرح . وفي اعقاب الدبابة الاولى اخذ يعبر القناة المزيد من الدبابات ، واحدة تلو الأخرى ، على العوامات القديمة لتعزيز القوة المدرعة الاسرائيلية الموجودة غربي القناة . وعندما اصبحت هناك خمس دبابات في الجانب الغربي كان في مقدور الجنرال شارون قائد الفرقة ، ان يبلغ القيادة بجهاز اللاسلكي بكلمات بدت له لسببٍ ما ملائمة جداً للاشارة الى الحدث : « بدأ غزو افريقيا » .

وبدأت تصل ببطء شديد عوامات اخرى الى « الساحة » . وقد انزلت هذه العوامات الداكنة الى الماء وهي عبارة عن عوامات على جوانبها محركات ذات قوة هائلة . وقد بذل رجال الهندسة جهوداً جبارة من اجل وصل بعضها ببعض لكي يؤلفوا منها جسراً مترابطاً بين ضفتي القناة . كانت إقامة جسر مترابط حيوية لنقل المعدات المساندة : قوافل الوقود ، والذخيرة والامدادات التي تخرج عادة في اعقاب القوات المقاتلة . وكانت الدبابات غربي القناة تنتظر قافلة الامدادات بفارغ الصبر .

في ساعات الظهيرة مرت فوق منطقة العبور طائرة « ميغ » مصرية . واخذت جميع الرشاشات تقذفها بالنيران ، ولكن الطائرة اختفت ولم يعد لها وجود . ويبدو ان طيارها لاحظ ما يجري وابلغ قادته بذلك . وبعد ساعتين بدأ اول قصف مصري شديد . واول قصف هو الاصعب دائماً . ومهما استعديت له ، فانه يدهمك لا محالة . ولكن عندما بدأ القصف لم يكن المظليون غربي القناة قلقين كثيراً . فلم يعودوا جزيرة معزولة . فالقصف المصري الذي بدأ ظهر يوم الثلاثاء ، ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، تزايد تدريجاً واصبح قصفاً مدفعياً مكثفاً ، كان موجهاً اساساً الى منطقة « الساحة » ، وعلى

المكان الذي مد فيه جسر العوامات على سطح القناة . ومنذ هذه اللحظة وحتى انتهاء الحرب ، لم يتوقف تقريباً .

وبينما كانت الدبابات التي نقلت الى الضفة الغربية تبدأ مهمتها الاولى : اشتباك قصير مع دبابات مصرية اندفعت نحوها ، والاغارة على قواعد الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام ٢ وسام ٣ ، بهدف فتح ممر جوي يتيح تقديم مساندة جوية للقوات العابرة ، سار العمل ببطء لاقامة الجسر تحت نيران المدفعية . واكتفى المصريون بقصف مدفعي ، وفي هذه المرحلة دفعوا بقوات الى الميدان . وكان اللواء سعد مأمون ، قائد الجيش المصري الثاني المعسكر شرقي القناة ، موجوداً في قيادته في الاسماعيلية ، على بعد نحو ٢٠ كيلومتراً من موقع العبور . ووصلت اليه تقارير متقطعة حول محاولة العبور ونقلها الى الاركان العامة في القاهرة . ولكنه وقادته ايضاً لم يعيروا هذه التقارير اهتماماً جاداً ، ولم يقوّموا بصورة صحيحة نوايا القوة الاسرائيلية التي اخذت تتمركز في الضفة الغربية . وقال مأمون للجنرال سعد الدين الشاذلي ، رئيس هيئة اركان الجيش المصري : « لا مشاكل ، نستطيع التغلب على ذلك » .

لم يكن الوحيد الذي ساورته الشكوك إزاء احتمالات نجاح محاولة العبور الاسرائيلية . ففي الجانب الاسرائيلي ايضاً ، في القيادة الامامية للجبهة الجنوبية ، كانوا يتابعون ما يجري بتوتر وقلق . وقد ساورت الضباط الاسرائيليين ، الذين تلقوا تقارير عما يجري بالنسبة الى اقامة رأس الجسر الاسرائيلي للاختراق غرباً ، شكوك خطيرة . وفي وقت معين ، مساء يوم الثلاثاء ، لم يكن قد تم بعد استخدام جسر العوامات ، وكانت قذائف المدفعية المصرية تصيب عدداً منها وتعرقل مواصلة إقامة الجسر ، اخذ الضباط في القيادة الامامية يتنبهون للاخطار المحدقة بقوة العبور .

في الساعة ٢٣,٠٠ أُصيب جسر العوامات الذي أُقيم على القناة ، وفتحت فيه فجوة . واخذت احدى العوامات ، التي يتكون منها الجسر ، تشتعل . وفي الوقت ذاته احتشدت في « الساحة » ، وفي الطرق المؤدية اليها ، عشرات المركبات المحملة بالامدادات والذخيرة . وكان ضباط الهندسة مرتبكين . وحتى تلك اللحظة لم تصل العوامات الاحتياطية التي ستحل مكان تلك التي أُصيبت . كانت مسمّرة في مكان ما على المحور ، في زحمة السير الهائلة التي تكونت عليه . ولكن فكرة لمعت في ذهن احد ضباط الهندسة . فقد امر دبابة لمد الجسور من طراز « باتون » بالصعود الى الجسر . فصعدت الدبابة ، وتوقفت بالقرب من المكان الذي فتحت فيه الفجوة . ومدت فوق جسر العوامات ، الجسر المعدني القابل للانطواء ، وبذلك سدت الثغرة . وفي الوقت ذاته ، واصل رجال الهندسة العمل ، خلال اربع ساعات متتالية ، لاصلاح الفجوة في الجسر . وفي هذه الاثناء ازدادت شدة القصف . وتم إخلاء القتلى الاوائل على الجسر الى مؤخرة « الساحة » .

وقد عملت محطة تجميع الجرحى طوال الليل تحت النار ، من أجل مساعدة الجرحى ونقلهم الى الخلف . وعمل رجال الهندسة طوال الليل ، مكشوفين للنار خلال ساعات طويلة ، لنقل القوافل واخلاء « الساحة » قليلاً ، التي كانت مكتظة بالرجال والآليات ، وكانت كل قذيفة تنفجر داخلها تسبب ضرراً وتؤدي الى سقوط قتلى .

روى عاموس الذي عين قائداً للجسر : « كانت تلك الليلة اصعب ليلة في حياتي ، كان علينا ان ننقل على الجسر وحدات مدرعة ومدفعية . لم تكن هناك سيطرة على المحاور . وواصلت آليات اخرى التقدم . وكنت اركض من دبابة لاخرى تحت القصف وأوجه الدبابات وفانوس صغير في يدي . ونظراً الى اننا ادخلنا دبابة مد الجسور الى الفجوة ، كان علينا ان نوجه الحركة ببطء ، خشية ألا تصمد عوامات اخرى تحت الحمل . وبعد كل رشق من المدفعية ، كان علينا ان نركض ونتفقد الجسر من جديد . وكان يحدث في كل مرة عطل آخر ، ويخرج رجال الهندسة في الظلام لاصلاحه » .

واصلت العوامات ، خلال جميع تلك الساعات الرهيبة ، نقل الدبابات الى الضفة الغربية . وقد تلقت عوامة ، كانت تسير في وسط القناة ، إصابة مباشرة وغرقت الدبابتان اللتان عليها . وقد استطاع ثلاثة فقط ، من افراد الطواقم الثمانية ، القفز منها الى الخارج .

عندما اخذت التقارير عما يحدث حول نقطة العبور تصل الى قيادة الجبهة الجنوبية ، في الجانب الشرقي من القناة ، ازدادت المخاوف على مصير « رأس الجسر » .

صاح الجنرال شموئيل غونين ، قائد المنطقة باللاسلكي ، بالجنرال شارون ، قائد الفرقة الذي كان يتولى عملية إقامة رأس الجسر : « ليس هذا ما وعدتنا به » .

في الليلة السابقة ، في ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، كان في القيادة الجنوبية وزيران : موشيه دايان ، وزير الدفاع ، ويغئال آلون ، نائب رئيسة الحكومة . وكانا يتابعان عملية عبور المظليين عن كثب . وعندما اتضح ان المظليين عبروا الى الجانب الثاني من القناة ، دون عثرات ، رغب آلون في النوم . فقد كان تعباً من التوتر الذي رافق العبور واراد ان يستريح على احد السريرين الخاليين في غرفة الجنرال غونين قائد المنطقة ، تحت الارض . وقد تجاهل احد الجنود طلب آلون وقال للحاضرين في غرفة العمليات باستخفاف استعراضي : « اقترح ان ينصرف من ليس له عمل هنا » . وقد فرش آلون لينام في احدى الحافلات خارج غرفة العمليات . وبقي دايان مكانه . وجلس معتجراً في الزاوية في حالة معنوية كئيبة . وفي نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت انباء من القوات التي كانت موجودة على المحور وحوله ، تفيد انه ظهرت صعاب حالت دون الاحتفاظ بالمحور مفتوحاً ودون نقل معدات العبور وقافلة الامدادات عليه .

في البداية تدخل دايان في سير الأمور فقال : « اقترح إعادة المظليين الذين عبروا

القناة » . وعندها كان في الغرفة الجنرال ألعازار ، رئيس هيئة الاركان ، والجنرال حاييم بار – ليف قائد الجبهة ، والجنرالان شموئيل غونين وعاموس حوريب والعقيد اوري بن – آري . فعارضوا دايان الذي قبل برأيهم .

ولكن في ليلة اليوم التالي ، عندما ظهرت صعاب في العبور ، تهيأ للقادة الكبار ، ان الجنرال شارون قائد العبور لا ينصاع لاوامرهم . وقبل الصباح اراد الجنرال بار – ليف قائد الجبهة ان يوجه اللوم الى الجنرال شارون لعدم الانضباط والانصياع لاوامر الاركان . في تلك اللحظة كان هناك يورام بري ، الناطق باسم حزب العمل الذي جند للقيادة كناطق باسم الجيش الاسرائيلي . ونظراً الى انه كان مقرباً من بار – ليف ، سمح لنفسه ان يخاطبه قائلاً : « أنت رجل سياسة وعليك ان تفكر بالاهمية السياسية التي قد تنسب الى هذه الخطوة » . ورد عليه بار – ليف وهو يصرخ تقريباً : « هل تتحدث عن السياسة في هذا الوقت ؟ المقصود هنا قرارات عسكرية حاسمة » .

قال الجنرال شارون في وقت لاحق ، بعد وقف القتال في حديث لمراسل « نيويورك تايمز » ، عما حدث في تلك الليلة : « لم يعجز المصريون وحدهم عن استقراء المعركة ، بل اعتقد ان رجالنا ايضاً لم يفهموا ما حدث » . وشرح شارون ان القادة الآخرين لم يصدقوا انه سينجح في حماية رأس الجسر وطرق الوصول اليه لإتاحة نقل المزيد من القوات عن طريق الثغرة . وقال شارون : « لقد تصرفوا بروية وبحذر شديد . فالقيادة الاسرائيلية اخّرت نقل التعزيزات الى رأس الجسر الذي اقمته في القناة ، نحو ٣٦ ساعة ... صحيح انه من الصعب تصور مشقة المعركة وضراوتها . اعترف بأن وجودي شخصياً هناك ربما كان مجازفة – ولكن من الناحية العسكرية ، كان الوضع آمناً بما فيه الكفاية » .

على حد قول شارون لم ترد القيادة العليا تعزيز رأس الجسر الذي أقامه قبل ان يقيم جسوراً فعلية على القناة . وكان يعتقد هو بنفسه انه لم تكن هناك حاجة للجسور وان إقامتها خطأ . وفي رأي شارون كانت الجسور عرضة للإصابة بسهولة ، وكان من المفضل نقل الدبابات الى الجانب الثاني من القناة على مركبات العبور ، بواسطة استخدام العوامات كمركبات عبور وليس كوسائط لإقامة الجسر . اصبح النقاش حول هذه النقطة احد نقاط الخلاف العسكرية الاساسية للحرب . وبالنسبة الى اريك شارون – الذي يبلغ من العمر ٤٥ سنة ، وله ماض عسكري اذ خدم في الجيش الاسرائيلي طوال ٢٥ سنة ، اقترن اسمه خلالها بهالة مقاتل اسطوري ومخطط استراتيجي لامع – كان عبور القناة بمثابة عمل اسطوري . وبالاضافة الى الاعتبارات العسكرية الخالصة ، تفاعلت في نفسه عوامل عاطفية ونفسية . وقال في احدى المقابلات الصحافية : « كنت اصدر التعليمات برفع العلم الاسرائيلي ، بعد احتلال كل موقع عسكري على الجانب الثاني من القناة ، حتى ان دبابة صعدت الى اعلى الحاجز لكي تطلق النار منه على المصريين الذين كانوا

في الضفة الشرقية. كانت لهذا الامر قيمة نفسية، لان المصريين شاهدوا علمنا وراء ظهورهم».

لم يكن عبور القناة ينطوي على عنصر عاطفي في نظر الجنرال شارون وحده. بل ساد لدى الكثيرين من ضباط الجيش الاسرائيلي خلال السنين، الاحساس بانه سيكون بالامكان التغلب على الجيش المصري وإجبار مصر على عقد سلام مع اسرائيل فقط بعد ان يعبر الجيش الاسرائيلي القناة ويتواجد على ارض مصر فعلاً. صحيح ان سيناء ارض مصرية، ولكن شبه الجزيرة هي منطقة صحراوية قاحلة وغير مأهولة، وكانت اساساً حاجزاً بين اسرائيل ومصر. ولم يكن عبور القناة تحدياً عاطفياً وحسب، بل بمثابة أسطورة.

وبنفس القدر الذي كانت تشكل فيه هذه الاسطورة تحدياً للحالمين بتحقيقها، كانت في نظر الآخرين «من المحرمات». وكان من بين هؤلاء موشيه دايان وزير الدفاع. ففي حملة قادش سنة ١٩٥٦، عندما تقدمت قوات الجيش الاسرائيلي في اتجاه القناة، امر دايان، الذي كان رئيس هيئة اركان الجيش الاسرائيلي آنذاك، بالتوقف على بعد بضع كيلومترات عنها وعدم الاقتراب من خط المياه. وفي حرب الايام الستة خاف دايان مرة اخرى مما هو متوقع لو احتل الجيش الاسرائيلي الضفة الشرقية للقناة حيث سيؤدي ذلك الى شلها. وقد وصل الجنرال غونين — الذي كان عقيداً خلال حرب الايام الستة، وقائد لواء مدرع — بدباباته الى ضفة قناة السويس على الرغم من الامر الصريح الذي اصدره وزير الدفاع. وبعد ما حدث ذلك اقر دايان احتلال ضفتها الشرقية. حتى ان غونين الذي كان مشحوناً بالحماسة طلب اذناً بعبور القناة لمطاردة الجيش المصري الذي فرَّ من سيناء مذعوراً. ولم يعطَ له هذا الاذن.

وخلال حرب الاستنزاف فقط انتهك الجيش الاسرائيلي هذه «المحرمات» التي كانت قائمة بالنسبة الى العبور الى غربي القناة. ورداً على قصف المدفعية المصرية لتحصينات الجيش الاسرائيلي على خط القناة، قامت القوات الاسرائيلية بعدة غارات على الجانب الغربي من القناة. وجرت اكبر واحدة منها في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٧٠، قبل وقف القتال بشهر. كانت هذه غارة كوماندو من المشاة استخلصت منها عبرَ كثيرة. وكان من الواضح بعد هذه الغارة، انه من اجل نقل قوات كبيرة، وخصوصاً مدرعة، لا بد من اعداد جهاز معقد وجاهز للعمل كما يجب، وينبغي ان يتضمن معدات عبور متطورة.

بيد انه خلال فترة وقف القتال فقط اخذ الجيش الاسرائيلي يعد بصورة منهجية، خططاً لعبور القناة، اذا جدد المصريون القتال. وكانت النظرية العسكرية المعهودة

آنذاك في الجيش الاسرائيلي تقضي بأنه في حال تجدد القتال سيكون من الضروري نقل الحرب الى داخل الاراضي المصرية، من اجل تدمير الشبكات المكثفة المضادة للطائرات، وكذلك من اجل نقل الحرب الى الساحة المصرية نفسها. وكان الجنرال شارون الذي عين في تلك الاثناء، قائداً للمنطقة الجنوبية، المسؤول عن خطط العبور هذه. وكان من الواضح له، كغيره من القادة في الجيش الاسرائيلي، انه اذا تجددت المعارك حقاً بعد فترة الاشهر الثلاثة التي سرى خلالها مفعول اتفاق وقف القتال الذي وقِّع في ذلك الحين، لا يمكن لحرب الاستنزاف ان تستمر بمنوالها السابق، كحرب دون حسم. وفي تلك الايام نشر الجنرال (احتياط) عيزر وايزمن، وقائد سلاح الجو الاسرائيلي سابقاً، مقالاً قال فيه ان على اسرائيل ان تضرب المصريين لانهم خرقوا وقف القتال بواسطة تقريب الصواريخ من خط القناة، والوصول حتى مداخل القاهرة، لكي يصبح بالامكان الوصول الى اتفاق للمدى البعيد، اذا لم يؤد هذا الامر الى السلام.

كان شارون قريباً من نظرية وايزمن. حتى كان يفكر ان بمقدور الجيش الاسرائيلي ان يشكل تهديداً للقاهرة، العاصمة المصرية، وان هذا التهديد وحده هو الذي قد يحدث التغيير لدى المصريين لحملهم على توقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل.

وفي خطة العبور التي اعدها الجنرال شارون لمواجهة احتمال تجدد القتال، وقع الخيار على عدة نقاط تقرر ان تعبر منها قوات الجيش الاسرائيلي القناة. وكان احد هذه الامكنة، المكان الذي تتصل فيه قناة السويس بالطرف الشمالي للبحيرة المرة الكبيرة، في مواجهة الدفرسوار. وقد وقع الاختيار على هذه النقطة لوقوعها على طرف البحيرة المرة، حيث يتكىء طرفها الجنوبي على «كتف» البحيرة التي تحميها من هذه الجهة. وعندما واصل الجيش الاسرائيلي استكمال الشبكة الدفاعية لخط بار — ليف بواسطة شق طرق جديدة الى القناة وزيادة ارتفاع الحاجز الترابي على امتدادها، كان الجنرال شارون مدركاً لمشكلة ان زيادة ارتفاع الحاجز وتكثيفه قد يعرقلان عبور الجيش الاسرائيلي القناة في المستقبل، اذا اقتضت الامور ذلك. ولهذا امر باعداد الحاجز سلفاً بصورة تتيح العبور وقت الحاجة.

يلتقي في هذه النقطة التي تسمى «الساحة»، طريقان جانبيان موازيان للقناة ويؤديان من هناك شمالاً الى طاسة، الى خط المياه بالذات. وبناءً على تعليمات شارون في حينه، أُقيم هناك ما يشبه موقف سيارات منبسط، طوله ٤٠٠ متر وعرضه نحو ١٥٠ متراً، وقد أُحيط بأسره بحواجز ترابية عالية. وفي الحاجز المقابل للقناة أُقيم قطاع رفيع نسبياً، بحيث يكون بالامكان فتح ثغرة في الحاجز عن طريقه. وقد وضع اريك بيديه علامة على مكان الاختراق المخطط له بواسطة احجار قرميد حمراء.

ومن جهة اخرى، اخذ الجيش الاسرائيلي يتزود منذ وقف القتال في ١٩٧٠،

بمعدات عبور وإقامة جسور ، لم تكن في حوزته قبل ذلك ، لأنه لم يواجه في السابق تحدي عبور عائق مائي . وقد حصل على معدات العبور من كل مكان أتيح له .

وبعد اندلاع الحرب مباشرة ، وبينما كان الجنرال شارون يهرول مع قيادته جنوباً الى جبهة القناة ، وبينما كانت دبابات فرقته تعد نفسها في المؤخرة ، طلب من رجال قيادته ، ان يحضروا له خطط العبور المعدة . وكان من الواضح له ان الحرب مع المصريين لا ينبغي ان تدور في الضفة الشرقية التي استولوا فيها على مواقع بل في الضفة الغربية من القناة ، في مؤخرتهم . وكما اقام في حينه وحدات الكوماندو التابعة للجيش الاسرائيلي ، وكما ترأس المظليين خلال فترة عمليات الانتقام ، كان شارون مناصراً متحمساً لاستراتيجية الاسلوب غير المباشر . وقد نفذ هذه النظرية على نطاق واسع ، خلال حرب الايام الستة ، حيث كان آمراً لفرقة مدرعة عندما خطط وادار المعركة في مواقع ام الكتف ، في الجزء الشمالي من سيناء . كانت هذه معركة كلاسيكية ، ولكنها اروع معارك حزيران (يونيو) ١٩٦٧ الخاطفة .

بينما كان الجنرال شارون مهرولاً في اتجاه القناة ، لم تكن عنده بعد صورة واضحة للوضع الذي قام في المنطقة منذ اندلاع الحرب . فقد كان يؤمن ان باستطاعته تنفيذ خطط العبور التي اعدهـا بسهولة نسبية . ولكنه لم يكن اول من فكر بهذا الامكان . فعندما اندلعت الحرب ، في الساعة ١٣،٥٠ ظهر يوم السبت من تشرين الاول (اكتوبر)، كان قادة فرقة سيناء ، الذين كان من الواضح لهم ان الحرب ستندلع في كل لحظة ، منكبين على خرائط خطط العبور . وكانوا لا يزالون غير مدركين بعد نوع الحرب التي سيواجهونها ، ولم يقدروا حجمها . وكان من الواضح لهم بناءً على المفاهيم المعهودة ، انه اذا هاجم المصريون بصورة محدودة ، سيكون من الضروري استخدام الخطط المعدة لعبور القناة من اجل القيام بغارات على قواعد الصواريخ المصرية .

من هذه الناحية اخطأت القيادة الاسرائيلية بأسرها في « استقراء » المعركة . وفي مساء اليوم الثالث للحرب فقط اتضح لقادة الجبهة الجنوبية وقيادة الجيش الاسرائيلي العليا بعدهم ، ان شكل الحرب هذه المرة سيكون مختلفاً عما كان عليه في الحروب السابقة . وحتى ذلك الحين كان الكثيرون لا يزالون يؤمنون ، ان هذه الحرب لن تكون سوى اليوم السابع من حرب الايام الستة .

وهكذا حدث في يوم الاثنين، ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ، فقد حاولت تشكيلات مدرعة للجيش الاسرائيلي ان تشق طريقها الى القناة .

استطاعت قوات شارون ان تصد بهجومها المصريين الى بعد ٥ كيلومترات من خط القنـاة . حتى ان احـدى قوات الفرقة وصلت الى مفرق التحصين المجاور

لنقطة الاتصال بين البحيرة المرة الكبيرة وبين قناة السويس . وهي لم تصل في الحقيقة الى القناة لان تعليمات صدرت اليها بالرجوع ، في اعقاب سحق قوات فرقة الجنرال ادان في الشمال . ولكن ظهر خلال المعركة امر كان بالغ الاهمية عندما حان وقت العبور . فقد اتاحت تحركات القوات المصرية في هذه المنطقة للجنرال شارون ان يكتشف ان تجمع هذه القوات في هذا القطاع ضحل ، وانه يوجد بالصدفة « فتق » بين الجيش المصري الثاني — الذي تمركز شمالي هذه النقطة وحتى مدينة بور سعيد — وبين الجيش المصري الثالث ، الذي كان منتشراً من هذه النقطة جنوباً وحتى مدينة السويس . كان من قبيل الصدفة المحضة فقط ان « الفتق » بين الجيشين — وهو قطاع لم يحتفظ فيه اي من الجيشين بقوات مهمة لانه كان قطاع الوصل بينهما — نتج تماماً في المكان الذي اعد فيه اريك في ذلك الحين « الساحة » للعبور .

وفي الليلة ذاتها ، ليلة اليوم الثالث للحرب ، قدم اريك الحجة لاستصدار مجموعة من الاوامر في قيادة المنطقة الجنوبية ، وابلغ « بالاكتشاف » ، وطلب المصادقة على اعداد فرقته للعبور .

كانت امامه ثلاثة اعتبارات عندما قدم خطته لعبور القناة :

- لم تكتشف اية قوة مصرية مهمة في مواجهة « الفتق » .
- ان العبور الى الضفة الغربية قد يشوش استعدادات الجيش المصري بأسرها . وبهذه الطريقة سيصبح ممكناً ضرب المدرعات المصريـة التي كانت لا تزال تنتظر غربي القناة ، وبعد ذلك تدبر امر فرق سلاح المشاة المصرية التي كانت قد تمركزت في الشرق .
- ان هذا الاختراق قد يشل بطاريات الصواريخ المصرية التي منعت سلاح الجو الاسرائيلي من القيام بنشاط واسع في الجبهة الجنوبية .

ولكن المصادقة على فتح ممر لم تعط للجنرال شارون . وقد جرى نقاش حاد في قيادة الجيش الاسرائيلي العليا بهذا الشأن . واعرب الجنرال دافيد ألعازار ، رئيس هيئة الاركان، عن رأيه في خطة اريك بما نصه : « ان هذه الخطة هي [لعبة] بوكر . لن نراهن على اريك، نظراً الى ان قواته هي الوحيدة الناشطة لدينا» . وقد وافق الجنرال غونين، قائد المنطقة الجنوبية على رأي رئيس هيئة الاركان . وكان سحق قوات بيرن ، قبل ذلك بيوم ، بالقرب من منطقة الفاردان ، لا يزال ماثلاً في ذهنه . فالخوف من احتمال سحق فرقة شارون ايضاً، وعندها لن تبقى وراءها قوات اخرى تستطيع صد المزيد من محاولات الاختراق المصرية ، هذا الخوف كان الاعتبار الحاسم لرفض فكرة العبور .

ولكن هذا لم يكن التعليل الوحيد . ففي اليوم ذاته كان المصريون لا يزالون يحتفظون

في الخلف بفرقتين مدرعتين ، رقم ٢١ و ٤ ، لم يلق بهما في المعركة . وكان من الواضح انه من اجل تغيير ميزان القوى في الجبهة ، ينبغي ضرب هاتين الفرقتين وتدميرهما .

دار النقاش حول السؤال هل ينبغي ضرب هاتين الفرقتين بهجوم مضاد مخطط او من المفضل الانتظار حتى تقوما هما بالهجوم وعندئذ يمكن ضربهما من مواقع دفاعية . فالذين تمسكوا بالرأي الثاني قالوا ان محاولة الفرقتين المصريتين المدرعتين الموجودتين في الخلف القيام باختراق ، ستبعدهما عن شبكة المدفعية المكثفة المخصصة لمساعدتهما وعن « مظلة » الصواريخ التي حرمت سلاح الجو الاسرائيلي من حرية العمل للتشويش على عملهما وتحركاتهما .

كان النقاش في القيادة بشأن توقيت العبور وهدفه بمثابة « القشة التي قصمت ظهر البعير » . ويصح هذا الامر بصورة خاصة على العلاقات التي كانت سائدة بين الجنرال شارون وبين شموئيل غونين قائد المنطقة ، الذي حل محله في منصبه قبل شهرين ونصف فقط . « حرب الجنرالات » هذه التي ألقت بظلها على الجبهة الى حين انتهاء الحرب .

دار النقاش في البداية بين الجنرالين بأسلوب صامت . وكان الجنرال شارون ، الذي يعتبر قائداً عاصفاً وينبض بالحيوية ، وصاحب شهرة وماض عسكري مثير ، جنرالاً اكبر من الجنرال غونين . ولكن الحرب وجدت غونين قائد منطقة ، واضطر اريك ان يكون خاضعاً له ، عندما عاد من الحياة السياسية الى الجيش بعد بضعة اسابيع من خلعه بزته وتسريحه . ولم تكن هناك هوة بين شخصيتيهما فحسب ، بل وايضاً بين مفاهيمهما العسكرية . فبينما تفكير اريك العسكري هو تفكير قائد مظلات ، فان تفكير غورديش (غونين) — ضابط شجاع وصاحب هالة بطل حرب الايام الستة — هو « تفكير مدرعات » من اساسه . لقد درج على القول لزملائه دائماً : « المظليون هم سلاح ممتاز . اعطوني ٤ مظليين داخل دبابة ، وعندها ترون هول قوة الجيش الاسرائيلي » . وعندما سئل في مرة اخرى اذا كان « فرسان الجو » ، قوات المشاة التي يتم انزالها من الطوافات ، يشكلون بديلاً لسلاح المدرعات ، اجاب : « عندما يصبح للطوافة محركان مثل الدبابة ، تغدو عندئذ سلاحاً يمكن الاعتماد عليه » .

برز التوتر فوراً في الاتصالات التي جرت بينهما منذ ان وصل الجنرال شارون الى الجبهة الجنوبية . وحاول اريك ان يشرح لغورديش انه جنرال اكبر منه وانه من المفضل ان يولي نصائحه اهتماماً . واما الجنرال غونين فحاول ان يشرح لاريك انه الآن صاحب الصلاحية القيادية في الجبهة ، بحكم كونه قائد المنطقة الجنوبية ، وان جميع قادة الفرق ، بمن فيهم اريك ، خاضعون له .

وفي يوم الاربعاء ، ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ، اليوم الخامس للحرب ، وصل

الجنرال حاييم بار — ليف الى الجبهة الجنوبية . وبدا اول وهلة انه ارسل كممثل خاص لرئيس هيئة الاركان لإسداء المشورة الى جانب قائد الجبهة الجنوبية . بيد انه كان من الواضح انه عين رئيساً لاركان الجبهة . ولم يحصل على تعيين رسمي لذلك ، ولكنه لم يترك مجالاً للشك بشأن القصد الحقيقي . وفور وصوله الى غرفة العمليات جمع حوله جميع كبار ضباط القيادة . وقال لهم بلهجته الهادئة والبطيئة والواثقة : « ارسلني رئيس هيئة الاركان الى هنا كممثله الشخصي ... وانا كما تعلمون ، اقدم ضابط بينكم ... وانا ايضاً ضابط صاحب اعلى رتبة بينكم ... ولدي ايضاً خبرة اكثر من اي شخص منكم ... » .

روى احد الشهود الذين كانوا حاضرين ، « اعتقدنا ان بار — ليف سيطلب بعد هذه المقدمة اذناً بالاشتراك بالمشاورات وإسداء النصح . وذهلنا عندما اكمل الجملة» . وكانت بقية جملة بار — ليف ما نصه : « لذلك ، وانطلاقاً من هذه اللحظة ، انا الذي اصدر الاوامر هنا » .

وخيم الصمت على غرفة العمليات . ولم يعرف احد كيف « يبتلع » هذا التعيين ، الذي كان مفاجأة لهم جميعاً . كان هذا تعييناً لم يسبق له مثيل ، وخصوصاً ان الجنرال بار — ليف كان في ذلك الوقت وزيراً في حكومة اسرائيل ايضاً . ولم يجرؤ احد على الاعتراض على هذا التعيين .

حاول بار — ليف في المرحلة الاولى ان يصلح قليلاً « الخلل » الذي تولد بين الجنرالين غونين وشارون . ومنذ تلك اللحظة وصاعداً ، تولى شخصياً الاتصال باريك ، وهو الذي ابلغه بجميع اوامر القيادة . ولكن التوتر لم يخف ، لانه بدلاً من « الخلل » بين اريك وغورديش تولد الآن « خلل » بين اريك وبار — ليف . وقد دخل الصورة هذه المرة العنصر السياسي . وقبل ذلك باسبوع واحد فقط تزعما كلاهما ، كخصمين سياسيين ، معسكرين غريمين تصادما في حرب انتخابات عنيفة . وكان من المستحيل محو النزاع الفكري بينهما بين عشية وضحاها .

عندما انضم بار — ليف ايضاً الى الرافضين لخطة اريك الخاصة بالعبور ، كان اريك يتجول في قيادة فرقته كالاسد في القفص . وقد شعر انهم يكيدون له ، ويعرقلون خطواته بسبب خصومة سياسية ، ويرفضون خططاً قادرة على تغيير وجهة المعركة ، فقط لكي لا يكون هو بطل الانتصار . وتعزز احساس اريك هذا بانباء بلغت مسامعه ، حول معركة التشهير التي اخذ « العملاء السياسيون » المجندون يخوضونها ضده في الجبهة . وقد سماه احدهم « رئيس عصابة » . ولكن هذه مشكلة اخرى ستعالج في فصل آخر .

حاول الجنرال شارون المحبط والغاضب ان يستخدم كل قوة تأثيره لاقناع القيادة

بخططه . وقد صرخ على كل من كان مستعداً ان يصغي اليه : « انهم ببساطة لا يدركون ما يجري هنا . انهم يهدرون فرصة لضرب المصريين . فبعد قليل سيتم الاعلان عن وقف القتال وسنبقى نحن مسمّرين هنا » .

انتقد بشدة انعدام الحصافة لدى القيادة وغلوها في الحذر . وقال : « من حسن حظي اني لم اكن مثلهم في دورة ضباط صف في جعاره والا لكان اسلوب تفكيري مثلهم تماماً » . كان اريك واثقاً من ان شخصاً واحداً فقط قادر على الوقوف الى يمينه واستخدام نفوذه لدى قيادة الجيش الاسرائيلي العليا لصالحه : موشيه دايان ، وزير الدفاع . وفي الحقيقة كان دايان حتى ذلك الحين يزور القيادة الجنوبية كل يوم تقريباً ، ولكنه امتنع من الوصول الى قيادة فرقة اريك بصورة غامضة . وقد طلب اريك الاجتماع به وجهاً لوجه ، وان يبسط امامه خططه ، وان يحصل منه شخصياً على المصادقة على تنفيذها . وقال : « ان كل يوم يمر ، يضيع هباءً . اليوم لا يزال هناك فتق بين الجيشين ، ولكن غداً يستطيعون ان يسدوه ، وسيكون من المستحيل عندئذ تنفيذ الخطة ، او انها ستكلف ثمناً باهظاً جداً » .

وبينما كان يواصل البحث في خطته مع بار – ليف ، وبينما تدرج النقاش بينهما حول توقيت العبور الى نقاش مذهبي ، وتاريخي ، وفلسفي ، واخلاقي ، نزلت على مقر القيادة ضربة لم تكن متوقعة . وفي ظهيرة يوم الخميس، ١١ من الشهر ، قتل قائد فرقة سيناء ، الجنرال ابراهام (البرت) مندلر . وكان موته ضربة معنوية قاسية لجند الجيش الاسرائيلي في الجبهة الجنوبية . فالمقاتلون ، وخصوصاً الذين استمعوا لصوته في اجهزة اللاسلكي ، اطلقوا عليه اسم « الصوت » . كان صوت البرت ، الجنرال طويل القامة وصاحب العينين المخمليتين الزرقاوين ، دائماً هادئاً ومهدئاً . وحتى في ساعات اليأس التي شهدتها الجبهة خلال الايام الاولى للحرب بدا صوته موزوناً وهادئاً ، كصوت الطبيب خلال العملية . فقد قتل باصابة مباشرة في مصفحة قيادته ، بينما كان يقوم بجولة في لواء مدرع تابع لفرقته في الخط الامامي ، حيث كان هذا يخوض معركة مع قوات مدرعة مصرية في القطاع الجنوبي من القناة .

لكل حرب رموزها . وكان موت البرت احد الرموز المحزنة لهذه الحرب . والبرت من مواليد مدينة لينتس النمساوية ، ينتمي الى جيل الجنرالات الاسرائيليين الذين كانوا خلال حرب الاستقلال قادة سرايا . فهذا القائد القرمزي الوجه ، والمتشدد في امور الانضباط ، كان سيسرح من منصبه كقائد للقوات المدرعة التابعة للجيش الاسرائيلي في سيناء يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) . وعشية الحرب ودّعه مرؤوسوه . وألبرت الذي كان خلال حرب الايام الستة آمراً للواء مدرع اخترق الخطوط السورية في معركة بطولية في هضبة الجولان ، كان سيخلف الجنرال ادان كقائد لوحدات

الجيش الاسرائيلي المدرعة . وتنبأوا له ان يقفز في سلم العمل العسكري وان يعين يوماً ما في منصب رئيس هيئة الاركان .

قال في حديثه الاخير الى الصحافيين ، على مدخل غرفة عملياته : « لقد غيرت هذه الحرب في نظري قيماً كثيرة واشتهرت بانني ضابط متعنت ، ومحترف ، ولكنني في الأساس ليبرالي . والآن بعد هذا الهجوم المفاجىء الذي قام به المصريون ، يبدو لي اننا لن نستطيع بعد ذلك ابداً ان نسمح لانفسنا ركوب مخاطرات من هذا النوع » . واضاف يقول : « سيكون اصعب جزء في هذه الحرب ، بالنسبة الي ، هو الذهاب الى عائلات جنودي الذين قتلوا » .

لقد وفر عليه القدر هذه المهمة المحزنة . فقد اصبح بعد ثلاثة ايام من ذلك بين القتلى . وقد رمز موته الى سقوط الخط الذي كان مسؤولاً عنه عندما اندلعت الحرب .

اجرى الجنرال البرت احد احاديثه اللاسلكية الاخيرة مع قائد المنطقة . وكان الجنرال غونين يطير في تلك اللحظة بطوافة فوق خط الجبهة . وطلب من البرت ان يعين باللاسلكي المكان الموجود فيه ، لانه اراد ان يلتقي به في وقت لاحق . فابلغه البرت بموقعه . وبعد ذلك بدقائق معدودة سكت اللاسلكي في مصفحة قيادة البرت . وحاول اللاسلكي في طوافة الجنرال غونين ان يتصل به مرة اخرى ، ولكنه لم يستطع . وقال الجنرال غونين لمرافقيه : « اعتقد ان شيئاً ما حدث لالبرت » . وعندما علم غورديش بموت البرت ، أنّبه ضميره . والتفكير بذلك قضّ مضجعه .

في اليوم التالي سافر الجنرال غونين الى المكان الذي قتل فيه البرت . واتصل بقيادته وابلغها بالمكان الذي يقف فيه . وكرر ذلك ، وعاد وابلغ بالنقطة التي يقف فيها بدقة . ثم قفز وصعد الى التلة المجاورة ووقف عليها مكشوفاً . فاذا كان البرت قد أُصيب حقاً بعد ان حدد المصريون مكانه بموجب تفاصيل المحادثة اللاسلكية ، فلا شك انهم سيكتشفون الآن مرة اخرى اين يقف الجنرال غونين . فاذا اطلقوا النار على البرت في اعقاب تلك المحادثة ، فانهم سيطلقون النار الآن على غونين ايضاً .

وقف الجنرال غونين على التلة بضع دقائق وهو منتصب القامة ، دون حركة كمن ينتظر ان يبدأوا اطلاق النار عليه ، وكأنه أراد ان يصدر على نفسه ، الحكم إياه الذي كان من قدر البرت . ولكن شيئاً لم يحدث . ولم يطلق احد النار على قائد المنطقة ، ولم تطلق صواريخ في اتجاهه ، ولم يقع اي قصف مدفعي بالقرب منه . وعندئذ فقط هدأ روعه .

استدعي العميد كالمان مـاغين ليحل مكان الجنرال البرت الذي قتل . وكان ماغين سيخلف البرت كقائد للقوات المدرعة في سيناء في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ،

ضمن اطار التنقلات العادية بين ضباط الجيش الاسرائيلي . وقد تولى ماغين الذي جرح خلال حرب الاستنزاف في منطقة القناة ، خلال الايام الاولى للحرب ، قيادة القوات التي كانت تدافع عن القطاع الشمالي من القناة ، في مواجهة مشارف القنطرة . استدعي هذا الضابط المتواضع والفعال ، الذي كان خلال حرب الايام الستة عقيداً ، الى دشمة القيادة في الاركان . وعلى الضوء الخافت في الدشمة ، وعلى ضجة اجهزة اللاسلكي التي كانت تبعث بالتقارير عن المعارك الدائرة ليس بعيداً من هناك ، جرت مراسم مؤثرة . وكان هناك في ذلك الوقت الجنرال (احتياط) عيزر وايزمن (الذي لم يحصل على منصب محدد في الحرب) . وانتزع عيزر من كتفيه الشارات الميدانية وسلمها الى دافيد ألعازار رئيس الاركان ، الذي علقها على كتفي قائد فرقة سيناء الجديد .

لم يضع موت البرت حداً للنقاش حول توقيت العبور الى الغرب . وطلب الجنرال شارون الذي اصطدم برفض متكرر لتنفيذ خطته ، اذناً لتدريب قواته على استخدام معدات اقامة الجسور والعبور على الاقل . وكان عنده سبب وجيه لذلك . وتستخدم معدات اقامة الجسور بواسطة الدبابات . والدبابات التي كانت قد تدربت على نقل المعدات لم تكن موجودة في ذلك الحين تحت قيادته . وفي الليلة ذاتها ، مساء يوم الخميس ، جلس في غرفة عملياته حتى ساعات الصباح الباكرة تقريباً وادار من هناك ما حظي بعد ذلك بكنية « ليلة التليفونات » .

وصف احد شهود العيان ما جرى في تلك الليلة فقال : « بدا ذلك وكأنه معركة من خلال مشهد سوريالي وفي الخارج كانت ليلة قمراء . وكان الجنود في حالة تأهب في مواقعهم . وفي كل ليلة كان المصريون يحاولون انزال رجال كوماندو في المنطقة بالطوافات لكي يعملوا في مؤخرة الجيش الاسرائيلي . ولكن معظم الجنود شعروا بان شيئاً ما غير عادي يجري هناك . فقد كانوا في وسط الحرب ولم يتسن لاكثريتهم العظمى منذ بضعة ايام الاشتباك بالعدو . وتولد توتر اخذ يتزايد . وقال احد القادة « انهم يضربون الارض بأرجلهم » . ومما ادى الى تخفيف حدة التوتر صواريخ « فروغ » و « كيلط » التي اطلقها المصريون طوال تلك الليلة من الجانب الغربي من القناة من طائرات طوبولوف التي كانت تحلق فوق الاراضي المصرية . وكان بالامكان ملاحظة الصواريخ التي كانت تطير ببطء ، وهي متوهجة في السماء . وعندما كانت تلاحظ ، كانت تطلق عليها النيران من مئات فوهات اجهزة اطلاق النار . كان هذا مثل احتفال الالعاب النارية في ليلة عيد الاستقلال . وقد تطايرت العيارات الموجهة حتى ان بعضها كان يصيب صاروخاً سرعان ما يتفجر في السماء . وكان هذا منظراً رائع الجمال حتى ان آلاف الجنود تخلوا عن النوم لكي يشاهدوه . وكان قائد الفرقة نفسه يخرج من حين لآخر من غرفة العمليات لكي يشاهد هذا المنظر » .

استمرت انباء مقلقة من الوحدات الفرعية تصل الى غرفة العمليات . وسمعوا في احد الاماكن هدير محرك طوافة تقترب ، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد المكان الذي هبطت فيه . وشاهدوا في مكان آخر طوافة تهبط باضوائها الكاملة . ووصلت انباء من القطاع بأسره عن رجال كوماندو مصريين . وكان قادة الوحدات الفرعية متوترين . وقد اقلقهم انزال رجال الكوماندو . ولكن الجنرال شارون تلقى جميع هذه الانباء بعدم اكتراث . وكان رده على ذلك مستنداً الى التجربة التي حصلت مع جنوده لدى احتكاكهم برجال الكوماندو في الليالي السابقة : « لا بأس ، فلينزلوا . ماذا يستطيعون ان يفعلوا ؟ فليناموا الليل ، وفي الصباح سنقبض عليهم » . وطلب احد قادة الوحدات الذي كشف قوة كوماندو ، اذناً باطلاق النيران عليهم من مدفع مزدوج مضاد للطائرات . وافق اريك وقال له « ممتاز » . ولكن العقيد ابراهام (« ابراشا ») طمير ، الذي كان جالساً بالقرب منه ، اضاف ملاحظة من عنده : « سيكون هذا موتاً باهظ الثمن » .

غادر ابراشا ، رئيس قسم التخطيط في الاركان العامة لدى اندلاع الحرب ، مكتبه في الاركان ، وانضم الى قيادة فرقة الجنرال شارون . وهناك اخذ يساعد اريك في اعداد خطط العبور وتعديلها . ووصلت الى القيادة انباء بشأن ارسال لواء مدرع اردني الى سورية . فقال ابراشا مازحاً : « رائع ، الآن يتدبر الاردن امر السوريين والعراقيين ولربما يحصل بالمقابل على الضفة » .

لم يكن ابراشا الوحيد الذي تطوع في فرقة شارون . كان بالامكان مشاهدة مقاتلين قدماء هناك مثل زافله سلوتسكي ، من مقاتلي وحدة الكوماندو ١٠١ سابقاً ، التي كانت في بداية الخمسينات تحت امرة شارون . ولم يجنده احد ، ولكنه ارتدى بزته وجاء لكي يكون مرافق اريك . وقال : « اعرفه منذ اكثر من ٢٠ سنة . ولا احد يستطيع ان يفهمه جيداً اكثر مني » .

صارع زافله ، وغيره من الضباط ، النعاس . ونام البعض على كراسيهم بعد ان مرت عليهم ايام كاملة دون نوم . الا ان اريك ، الذي لم تغمض له عين طوال الوقت ، بدا وكأنه ليس للتعب سلطان عليه . كان مصاباً بالرشح والبرد ، وكان طوال الوقت يمسح المخاط عن أنفه بمنديل . ولكن في الوقت الذي بدا فيه السكون يخيم على القطاع بدأت الحياة عندها فقط تدب في اريك . وبدأ في منتصف الليل حرب تليفونات في عدة جبهات بواسطة مجموعة اجهزة الهاتف الموجودة بالقرب منه .

قال لاحد الحاضرين : « انهم فوق ، معزولون عن الواقع . لماذا لا يفهمون انه توجد هنا قوة كافية لتدمير المصريين ؟ وفي النهاية سينتهي كل شيء بوقف القتال ونحن في هذا الوضع » .

ولكن عندما فكر اريك بالعبور الى غربي القناة ، عملت قيادة المنطقة الجنوبية علـى وقاية اسرائيل من محاولة محتملة لاختراق مصري باتجاه تل ابيب . وقد ايقظت المحادثات الصاخبة زافله من نومه . وقد لاحظ اريك ذلك ، وامر سلوتسكي ، « اذهب الى النوم » ولكن هذا رفض قبول الامر ، وقال : « اخاف ان اتركه وحده ، ففي النهاية سيخضع لليهود » .

اهتم الجنرال شارون بعد ذلك بما يجري في الجبهة السورية : « ماذا يجري هناك ؟ كم تقدمنا ؟ » ، واضاف آخر بلهجة تنم عن خيبة الامل : « وغداً ، مرة أخرى سينصب كل الجهد هناك » .

دق جرس الهاتف مرة اخرى ، وكان الجنرال (احتياط) عيزر وايزمن على الخط ، وابلغه : « يشبه الشعور هنـا فترة الانتظار التي كانت سائدة قبل الايام الستة » ، وحاول وايزمن ان يطمئنه ، ولكن اريك لم يقتنع : «المحنة هي انه يسود شعور في الاماكن التي تتجول فيها ان الوضع هنا يشبه المراحل الاخيرة من غيتو وارسو » .

حاول الجنرال شارون خلال ساعات الليل القصيرة ان يقتفي اثر دايان . لم يعثر عليه . واتصل هاتفياً بابنته ياعيل وبزوجته راحيل كورم . يا لخيبة الامل . وقال بسخرية : « لم ينم في المنزل هذه المرة ايضاً » .

ولكن حرب ليلة التليفونات تكللت ، مع كل ذلك ، بنجاح ما . وفي اعقاب المحادثات التي اجراها اريك طوال تلك الليلة ، وصل موشيه دايان في النهاية ، بعد اسبوع من القتال تقريباً ، الى قيادة اريك ايضاً . وبسط اريك امامه خططه . وبدا دايان وكأنه قبل الفكرة ، ولم يكن حتى ذلك الحين قد اشترك في القرارات الحاسمة في الجبهة الجنوبية . ويبدو الآن وكأنه وجد حصاناً يمتطيه . وقد تعهد باقناع القيادة العليا بضرورة القيام بمحاولة العبور . وفي الحقيقة انه في اعقاب تدخل دايان من وراء الستار ، اعدت القيادة الجنوبية خطط العبور وارسلتها الى الحكومة لاقرارها .

تكشفت خلال هذه المرحلة من التخطيط بضع مشكلات حرجة . كانت المشكلة الاولى ، تجميع وسائط العبور التي كانت موجودة بعيداً عن نقطة العبور المخصصة . وكان من الصعب القول ان معدات العبور مجهزة كما يجب . ليس فقط لان احداً لم يقدر ان الحرب ستندلع ، بل لانه بعد ان اندلعت اعترت الكثيرين شكوك بامكان العبور على نطاق واسع .

واتضح بحسب الخطة ، ان احدى مراحل العملية اقتضت استخدام قوة مظلات كسلاح مشاة .

والمصريون ، كأنهم قرأوا النقاش الذي جرى في تلك الايام في الجانب الاسرائيلي ، ساعدوا من جانبهم بتقديم موعد العبور . ففي يوم الاحد ، ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، بدأوا محاولة اختراق الى الشرق من خط المياه وهم يزجون في المعركة فرقتي المدرعات الاحتياطيتين . وقد جرت في ذلك اليوم اكبر معركة دبابات في تاريخ الحروب ، في القطاعين الاوسط والشمالي من القناة . وقد اشتبكت اكثر من الف دبابة من الجانبين في معركة استمرت ساعات طويلة .

بدأت المدرعات المصرية ، خلال ساعات ما بعد ظهر الاحد ، تغير من مراكزها . فقد تحرك المصريون بطابورين ، ومن ورائهم قوة اضافية كان من المفروض ان تدخل ميدان القتال في اللحظات الحرجة من المعركة ، لحسمها . ومنذ اللحظة التي خرجوا منها عن مدى مدفعيتهم ، انتشرت طوابير الدبابات المصرية الى الشمال والجنوب على شكل مروحة ضخمة . فخرجت المدرعات الاسرائيلية لمواجهتها ، وخاضت معها معركة اشتباكية بالحركة والنار . واستمرت معركة المدرعات ساعتين . كانت هذه معركة دبابات بدبابات كلاسيكية . وكان الامر الذي حسم نتائجها هو تفوق مدفعية الدبابات الاسرائيلية ، لان المصريين لم يبرزوا في هذه المعركة الوسائل التي استخدموها في المراحل السابقة من المعارك : الصواريخ والمدفعية . ففي هذه المرة استخدموا سلاح المشاة وهو منقول على المجنزرات ، والصورة المعروفة والمخيفة لعشرات الآلاف من رجال سلاح المشاة يتراكضون على الرمال ويطلقون الصواريخ من فوق كل تلة ومن وراء كل شجيرة ، لم تتكرر هنا .

خلال ساعتين من سير المعركة احرقت في القطاع الاوسط وحده بين ١٠٠ و ١٥٠ دبابة ومصفحة مصرية . وقد تم دحر هجوم الفرقة المدرعة رقم ٢١ في القطاع الاوسط عند المساء . واما الفرقة الرابعة المصرية ، التي كان قائدها اكثر حذراً ، فقد ألقت في المعركة لواءاً مدرعاً واحداً فقط ، من بين ثلاثة ألوية تابعة لقيادتها . وكان قد تم حتى المساء تدمير اكثر من ٢٠٠ دبابة مصرية في الجبهة بأسرها .

لقد اصبح واضحاً منذ تلك المرحلة ان المذهب القتالي المصري خرج من اطار المذهب السوفياتي . وجرى التخطيط المصري حتى ذلك الحين بصورة دقيقة ، بموجب ما كان مدوناً في الكتب ، وبناءً على سلسلة تدريبات قتالية مدروسة . ومنذ ذلك الوقت وصاعداً ، عندما كان على قادة الجيش المصري تحريك القوات الى الامام ، لتنفيذ حركة قتالية وخطوات غير متوقعة املتها ظروف المعركة ، تصرفوا بحسب اسلوب متزمت وثابت ، لم يأخذ بالحسبان تقريباً التغيرات السريعة للوضع في الميدان .

كان بالامكان اجمال صورة الوضع في الجبهة الجنوبية في ليلة يوم الاحد . فقد لازم المصريون انجازاتهم الاولى . فالمرحلة الاولى — عبور القناة وإقامة رأس الجسر

شرقيها – تكللت بالنجاح . واما المرحلة الثانية فقد حققت نجاحاً جزئياً فقط . ويقضي المذهب السوفياتي بان تعبر في هذه المرحلة القوات المدرعة عن طريق رأس الجسر ، وتتأهب من اجل الاختراق الى الامام . وموازاة لذلك يتم انزال ألوية سلاح المشاة ، ووحدات الكوماندو والمظليين على الممرات الرئيسية في سيناء ، وتنفذ عمليات لعرقلة الاستعدادات في مؤخرة العدو وتضرب قياداته الخلفية والقوات المساندة . صحيح ان المدرعات المصرية عبرت القناة وانتقلت الى الشرق ، ولكن سلاح المشاة التزم مكانه . وقد فشلت جميع الخطط المصرية لعرقلة الاستعدادات الخلفية ايضاً . واسقطت في منطقة سيناء اكثر من ٢٠ طوافة مصرية حاملة جنود . وضربت قوة مظلية عندما انزلت في وادي جندي . وخشيت القيادة المصرية ارسال المزيد من الوحدات المجوقلة ، لئلا تُباد . واتضح ايضاً ان التفوق الجوي الاسرائيلي بقي قائماً ، وكان للطيارين الاسرائيليين اليد الطولى في جميع المعارك الجوية التي وقعت في اجواء سيناء . وعندما حاول المصريون تنفيذ المرحلة الثالثة بناءً على المذهب السوفياتي ، الخروج من مراكزها والاختراق الى الامام ، صدوا وضربوا .

في اليوم التالي ، ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، برز التحول الذي حدث في الجبهة المصرية واصبح بالامكان تنفيذ خطة العبور التي استهدفت اختراق خطوط المصريين ، وعبور القناة ، وإقامة رأس جسر على الضفة الغربية ، والتحرك من رأس الجسر الى الجنوب والشمال ، وتطويق جميع القوات المصرية شرقي القناة وتدميرها او إجبارها على الاستسلام .

كان هذا هو الهدف العسكري ابتداءً من ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) . وعندما تم الاتفاق على وقف القتال في الجبهة المصرية في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، وبعد ان توقف القتال فعلاً في صباح ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، اتضح انه لم يتم احراز سوى جزء من هذا الهدف . فمن الناحية العسكرية لم يستطع الجيش الاسرائيلي تحقيق هدف العبور كاملاً ودحر الجيش المصري . وبناءً على تلك الاعتبارات العسكرية دون الاخذ بالعوامل السياسية ، لم يتحقق الهدف . ان تمركز الجيش الاسرائيلي في منطقة واسعة غربي القناة ، ومحاصرة الجيش الثالث شرقي القناة ، هو إنجاز مهم .. ولكن المسافة شاسعة بين هذا وبين الانتصار الحاسم .

ما الذي حال دون تحقيق هذا الهدف ؟

كانت خطط العبور جاهزة ومقرة . ففي الساعة ١٦,٠٠ ، يوم ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، عندما اصبح واضحاً ان معركة المدرعات الكبيرة التي جرت في الجبهة صدت المصريين ، اتصل الجنرال حاييم بار – ليف بالجنرال شارون . وقد علم بار – ليف بالمشكلات الصعبة التي ثارت حول قطر معدات العبور . وقال لأريك :

« اسمع ، انني ادرك المشكلة ، اذا كنت قادراً على التنفيذ الآن – فحسناً ، وإلا أجّل الخطة » .

درس الجنرال شارون كلام الجنرال بار – ليف خلال بضع دقائق . وكان القرار الحاسم الذي واجهه مصيرياً . لانه بحسب الخطة التي أُقرت ، كان على فرقته ان تخترق المحور الى نقطة العبور ، لإقامة رأس الجسر وتمكين فرقة بيرن من الاختراق متوغلة الى داخل الاراضي المصرية . وروى احد الضباط ، الذي كان موجوداً في تلك الدقائق في دشمة القيادة والذي كان مكلفاً بابلاغ الجنرال شارون بشأن تقدم معدات العبور :

« فكر اريك ملياً بضع دقائق . كانت هذه لحظة الحقيقة . وقال وكأنه يخاطب نفسه : « اذن ماذا أُجيبه ؟ » كان اريك مضطراً لتنفيذ هجوم العبور حتى ولو وصلت المعدات بين يومين ، لانه تولد مثل هذا الوضع الغريب . وتراكم لدينا خلال الايام الثمانية شعور اسوأ من ذلك الذي تراكم خلال فترة الانتظار التي سبقت حرب الايام الستة . فالمصريون يجلسون هنا في مواجهتنا واذا انتظرنا يوماً آخر ، فان «الفتق» بين الجيشين قد يرتق . وعندئذ اتصل اريك ببار – ليف وقال له باختصار : « انني منطلق » . وبعد بضع دقائق اتصل ببار – ليف مرة اخرى وابلغه : « بار – ليف انني اتحرك » . غادر دشمة القيادة ، ودخل الى المجنزرة وانطلق الى المنطقة » .

ان احداً لم يتخيل في الماضي ان القوات العابرة ستضطر الى الوصول الى نقطة العبور عن طريق مواقع العدو المستحكمة والمحصنة جيداً .

كان لا بد من خلق عدة ظروف اساسية لوقاية رأس الجسر . اولاً ، ممر واسع على قدر الامكان تكون داخله محاور حركة حرة للعبور وبعيدة عن مرمى مدفعية العدو بقـدر المستطاع . وكان هناك محوران موازيان في القطاع الاوسط يؤديان الى نقطة العبور . وكان جنود مصريون متمركزين في اجزاء من هذين المحورين . وكانت الدبابات المصرية تسيطر عليهما من اطرافهما . وقد وضعت خطة خاصة لفتح الممر .

كانت قوات العبور نفسها تتألف من قوتين اساسيتين : قوة مظليين محمولة على مجنزرات ، وكانت مهمتها الوصول الى ضفة القناة وعبورها بالقوارب المطاطية ، والتقدم الى الجانب الغربي لتمكين مد الجسور . وكانت القوة الثانية ، تشكيلاً مدرعاً وظيفته الاختراق الى الغرب في المحور ، وحماية معدات العبور التي تتبعها ، واتخاذ مواقع حول رأس الجسر ، وبعد مد الجسور فوراً تعبر وتنضم الى المظليين .

انطلقت القوات الى مهماتها في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، قبل الظلام تقريباً .

بدأت القوات العاملة المختلفة في فرقة شارون تخوض معارك ضارية ودامية . واخذت القوة التي تحركت من الشمال الى المحور تخوض معارك مع وحدات سلاح المشاة المصرية

التي كانت متخندقة جيداً . واتضح ان المصريين عززوا استعداداتهم بقوات اكبر كثيراً مما كان يعتقد في البداية . وقد استمرت المعركة في هذا القطاع ، حول المواقع المصرية التي كانت تسيطر على المحاور ، ثلاثة ايام متتالية . وكانت اصعب المعارك بصورة خاصة تلك التي جرت حول الموقع الذي عرف باسم « المزرعة الصينية » . وستدون هذه المعركة في تاريخ حروب اسرائيل بانها اصعب المعارك التي خاضتها اية قوة في الجيش الاسرائيلي . وقد دارت في وقت ما وفي مراحل معينة من القتال ، الى ان تم اخضاع الموقع واحتلاله ، معارك دبابات داخله ، حيث وقفت الدبابات على مسافة ١٠ امتار من بعضها بعضاً . وفي أحد الاماكن شوهدت دبابة « باتون » اسرائيلية محترقة على بعد متر واحد من دبابة ت. ٥٥ مصرية مصابة ، حيث لامست مدافعهما بعضها البعض . وقد قال الجنرال شارون بحزن عندما زار المكان في نهاية القتال : « ماتوا في وقت واحد » .

كانت مهمة القوة التي تحركت من الجنوب الى المحاور اسهل ، وكانت هذه قوة مدرعة تحت امرة قائد خاض معارك مدرعة منذ لحظة اندلاع الحرب . وقد استطاع الوصول حتى البحيرة المرة ، واتجه شمالاً على امتداد ضفتها ، واحتل الطرف الغربي لمحور الحركة وبدأ يعود الى الشرق في اتجاه قوات العبور التي كانت تنتظر على مدخل المحور . وقد مر في طريقه بحاميات كثيفة مضادة للدبابات وخاض معها معارك ضارية . بيد ان القوة استطاعت ان تحقق هدفها . وفتح المحور امام قواتْ العبور .

كانت المدفعية المصرية تعمل طوال ذلك الوقت بوتيرة فتاكة . ونزلت مئات الاطنان من القذائف على مكان رأس الجسر المنتظر إقامته وعلى محاور الحركة المؤدية اليه . وكان المصريون مقتنعين ، كما يبدو ، بان الجيش الاسرائيلي بدأ هجوماً مضاداً على قواتهم في الضفة الشرقية . وكان هذا احد الاسباب التي سهلت على قوة المظليين التسلل الى خط المياه تحت القصف المدفعي . بعد احتلال نقطة العبور وتحرك الدبابات الاولى الى الغرب ، بقي محور الحركة المؤدي الى نقطة العبور تحت القصف المدفعي الدائم . وقد اغلقته آلاف الآليات التي سارت فيه بازدحام ، متجهة نحو القناة ، وعرقلت السير فيه . اما الفرقة الثانية التي كان من المفروض ان تسير في المحور الى نقطة العبور ، وتعبر القناة لتكون الاولى التي تتحرك جنوباً لتطويق الجيش الثالث شرقي القناة ، تأخرت ولم تنطلق في طريقها . وهكذا تولد وضع بدا فيه في الظاهر ان رأس الجسر في الجانب الغربي من القناة قد احتل ، بيد انه لم يستغل لادخال قوات عن طريقه تتوغل الى الداخل .

تشكل هذه القضية إحدى نقاط الخلاف الاساسية في الحرب . وادعى الجنرال شارون ، فيما بعد ، ان القيادة العليا تلكأت اكثر من ٣٦ ساعة حتى نقلت الفرقة الثانية عن طريق رأس الجسر الذي اعدته .

وقال احد الضباط : « كان هذا اليوم ، الخامس عشر من الشهر ، يوماً رائعاً ، يوماً عرفنا فيه اننا خارجون من القطاع الذي كنا مسمّرين فيه منذ بداية الحرب . وبحسب الخطة توجّب علينا العبور ، والتوجه جنوباً بينما تتجه فرقة اريك شمالاً . ولكنني شاهدت ما يجري على المحاور . وعلى الرغم من جميع الضغوط علي ، قررت التحرك على محاور اخرى غير التي أعطيت لنا ... وشاهدت منذ الصباح ان رأس الجسر ، لم يكن رأس جسر ، بالمصطلحات العسكرية . فرأس الجسر هذا عبارة عن شيء يمتد ، ويبعد المدفعية عن مجال الضرب على الجسور . بينما كان العدو يحتل المحورين اللذين يؤديان الى نقطة العبور » .

ان ما حدث حقاً على المحاور التي أدت الى نقطة العبور كان مشهداً من الصعب وصفه . فقد سدت المحور آلاف الآليات . وزحفت قوافل لا نهاية لها من التموين والذخيرة والوقود والجنود على المحور متراً متراً . واقتضت الضرورة في تلك الساعة إخلاء المصابين من القناة شرقاً . وقال احد الضباط الذين عهد اليهم فتح المحور وضمان الحركة فيه : « كل من كان منخرطاً في هذه القضية وشاهد ما يجري قال ان هذا لن يتم . فالاشخاص الذين عالجوا مثل هذه الامور عدة سنوات اقتنعوا بان هذا لن يتم . وكان الازدحام مخيفاً . ولكننا تغلبنا على ذلك . فاوقفوا قافلة كانت قادمة من اليسار ، وحولوا أخرى جاءت من اليمين الى الطريق ، وساروا بصورة متعرجة بين القوافل الغارزة . وكلما أصيبت سيارة بقذيفة رموها جانباً . وقد أصيبت شاحنة ذخيرة واخذت تنفجر . وببساطة انتظروا الى ان تم تفجرها واخلوها جانباً . كانت فوضى منظمة » .

على بعد بضعة كيلومترات من نقطة العبور دارت معركة حول « المزرعة الصينية » . واستمرت طوال الوقت . وقد اطلق هذا الاسم على ذلك الموقع المصري لان في وسطه ، بالقرب من خط سكة حديد القناة ، عدة مبان كانت تستخدم قبل حرب الايام الستة ، كمحطة تجارب زراعية مصرية . واقام فيها خبراء زراعة وري يابانيون ، وكانت بعض جدران المنازل تحمل عناوين باللغة اليابانية . وعندما وصل جنود الجيش الاسرائيلي الى ذلك المكان، في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، اعتقدوا ان هذه الكتابة اليابانية ما هي سوى كتابة صينية . وهكذا اطلقوا على المكان لقب « المزرعة الصينية » . كانت المعركة في « المزرعة الصينية » مستمرة منذ ٤٨ ساعة . وقد تراجعت القوة المدرعة التي انقضت على الخطوط المصرية ، وهي تتكبد خسائر فادحة . وعند ليلة يوم الاربعاء تقرر إرسال قوة مظلات من المشاة ، لمحاولة تطهير التجهيزات المضادة للدبابات المخندقة . وقد احضر المظليون من منطقة ابو رديس ، بعد ان انهوا هناك معركة مع قوة كوماندو مصرية ، حاولت قطع وادي جندي والوصول الى مؤخرة الخطوط الاسرائيلية .

روى يتسحاق ، قائد قوة المظليين التي استدعيت للانطلاق الى « المزرعة الصينية » ،

وهو يقود رجاله : « اعتقدنا ان دورنا في الحرب انتهى بذلك . وعرضوا امامنا خريطة بمقياس ١ : ١٠٠,٠٠٠ : ، وقالوا لنا ما يلي تقريباً : « احدى قواتنا في طريقها لعبور القناة ، واصبحت قوة اخرى موجودة غربي القناة ، في الجانب المصري . والحاميات المضادة للدبابات تغلق الطريق على المحاور الاساسية . ينبغي تصفيتها » . وكنا قد انطلقنا في الطريق بعد فترة وجيزة من تسلمنا هذا الامر » .

أحضر المظليون الى منطقة القتال بالباصات والطوافات . وسمعوا باللاسلكي امر قائد الوحدة يقول : « صيادو الدبابات يحولون دون تنفيذ المهمة . انقضوا عليهم ودمروهم ، بأسرع ما يمكن » . ساروا على المحور بضع مئات من الامتار ، وفجأة فتح عليهم اتون من النار [. . .] وصاح احد القادة : « يا الهي ، مــاذا يجري هنا ؟ » . ولم يبق للمظليين سوى الالتصاق في الارض والانتظار حتى تمر العاصفة . استمر السير الى الامام . وكانت اجهزة اللاسلكي تهمهم طوال الوقت ، بسرعة اكبر ، بسرعة اكبر . كانت ليلة قمراء ، وفجأة ابلغ احد قادة القوة : « ارى شيئاً يثير الريبة ، سطح ابيض على الرمال » . وامتنع المظليون من اطلاق النار فقد خشوا ان يكون رجال مدرعات اسرائيليون هربوا خلال النهار من دباباتهم المحترقة ، جالسين على الرمال .

واصل المظليون السير ، واخذوا يتركون خلال سيرهم وحدات فرعية ، بقصد ابقائها في المنطقة وخلق حاجز حي بين القوات المصرية وبين المحور الذي كانت تتحرك عليه القوافل في طريقها الى الجسر . وعندما امر يتسحاق، قائد القوة ، قائد فصيلة بالتخندق في احد الاماكن خلال السير ، فتحت النيران على قوة المظليين واصطادتهم وهم مكشوفين على الكثبان الرملية . وظهر بعد انتهاء المعركة فقط ، انه كان في تخوم هذا المحور ، الذي فتحت منه النيران عليهم ، ١٠ مراكز رشاشات « جوريونوف » ، وفصيلتان من الدبابات ، وسريتان من سلاح المشاة المصري مزودتان بصواريخ مضادة للدبابات ، وخلف هذا الموقع مباشرة ، موقع مصري آخر ، بالحجم ذاته ، وخلفه موقع آخر ، وهكذا دواليك ، حتى « المزرعة الصينية » ، التي كانت بعيدة المنال بالنسبة اليهم .

لم يختبر المظليون في تاريخهم مثل هذه الكمية من النيران ، وكان من بينهم من هم اصحاب ماض قتالي غني . كان عدد المصابين يزداد من لحظة الى اخرى . وقد أضيء الليل المظلم بقنابل مضيئة وعيارات الاشارة .

لقد فشلت محاولة ارسال وحدة اخرى لانقاذ سرية الطليعة ، او الانقضاض على الهدف المصري ، وقد نزلت على وحدة الانقاذ نيران الهاونات واوقعت فيها قتلى وجرحى . وقتل قائد وحدة الانقاذ ، الذي حاول انتشال مصابيه . واستمرت المعركة ساعات طويلة . واجبرت النيران المظليين على التزام الارض ولم تمكنهم من الانقضاض ، او حتى من التراجع . واستمرت عملية انتشال الجرحى طوال تلك الليلة ، وفي حالات عديدة أصيب

ايضاً المتشلون . كما أصيبت محطة تجميع الجرحى ، وأُصيب عدد كبير من الجرحى الذين كانوا فيها مرة اخرى .

روى احد القادة : « كان المصريون يطلقون الصواريخ بسرعة اطلاق نيران الرشاشات . وكانت مدافع الجوريونوف تطلق النار طوال الليل ، واصابت قذائف المدفعية رجالنا ، الذين بقوا ملازمين الكثبان الرملية في الطريق الى المزرعة الصينية » .

بعد بزوغ الفجر كان من الواضح انــه ينبغي ارسال قوة مدرعة بصورة عاجلة ، لانقاذ قوة المظليين المصابة والمضروبة .

انطلقت احدى الوحدات الفرعية لانقاذ المظليين المنبطحين على الرمال بين المحورين المؤديين الى رأس الجسر . وسمع قائد وحدة المظليين باللاسلكي بوضوح صوت قائد المدرعات ، الذي كان يسير بالدبابات بالقرب منه . وشرح له وضعه ودعاه للمساعدة في انقاذ المظليين . ولم يستطع اهود، قائد الكتيبة المدرعة، تحديد مكان قوة المظليين بدقة . ولكي يساعده على تحديد المكان فتح قائد المظليين قنبلة دخان احمر ، حيث حدد المصريون بواسطتها مكان المظليين وانزلوا ضربة مدفعية شديدة على المكان الذي تجمعت فيه القوة الشحيحة . وبدأت القوة المدرعة تنقض على المواقع المصرية ، وهي تتكبد الخسائر من النيران المضادة للدبابات . وفي الوقت ذاته بدأت تنتشل المظليين المصابين . ولم يبق في هذه المرحلة سوى القليل جداً من العيارات النارية في جعبات المظليين . وكان من الواضح انه يجب ترك مهمة تطهير المزرعة الصينية للمدرعات . واستمرت حقاً المعركة حول المزرعة الصينية .

استطاعت القوات المدرعة الاضافية التي دفعت الى المزرعة الصينية ، بعد معركة دامية، تطهير الموقع ، الذي اصبح وادياً رهيباً لقتل البشر وإفناء الآليات .

استمر في تلك الاثناء نقل القوات على الجسور . وتولت الدبابات التي عبرت القناة الى الضفة الغربية ، مهمات « صيادي الصواريخ » . وبذلك انقلب رأساً على عقب ، المذهب العسكري الكلاسيكي ، الذي كان يقضي حتى تلك اللحظة ، بأن سلاح الجو هو الذي يأخذ على عاتقه فتح الباب للمدرعات . ففي هذا المكان انقلبت الوقائع رأساً على عقب . فالدبابات هي التي بدأت تفتح الباب لسلاح الجو ، حيث داست بجنازيرها قواعد الصواريخ ومكنت سلاح الجو من العمل ، في مرحلة لاحقة ، في اجواء جبهة القناة ، بحرية .

في تلك الاثناء كانت بعض الدبابات من فرقة شارون تتوغل غرباً . ولم يحظ هذا الاختراق برضى قادة الجبهة الجنوبية . فخشوا ان يكون هم الجنرال شارون التقدم بدباباته الى اقرب مسافة ممكنة من القاهرة ، بدلاً من توسيع رأس الجسر . فقد امروا شارون بإعادة قواته الى الوراء .

بينما كانت دبابات شارون المعدودة توسع رأس الجسر في الجانب الغربي ، شرعت فرقة الجنرال ادان تشق طريقها الى نقطة العبور . وفي الحقيقة لم يكن هذا رأس الجسر بالمعنى الكلاسيكي لهذه الكلمة . ولم تكن المحاور قد فتحت بعد بصورة كاملة . فبينما كان احدها في مرمى الاسلحة والدبابات المصرية ، كان المحور الجنوبي هدفاً دائماً للقصف المدفعي المصري ، وسدّ بقوافل الامدادات التابعة لفرقة شارون . وكانت فرقة بيرن بحاجة الى كثير من زمام المبادرة ، وفي بعض الاحيان الى بهلوانية فعلية ، لكي تشق طريقها الى الجسور . وانهمك جزء من قوات بيرن بالقتال وهو يتقدم ، وانصرف جزء آخر الى اخلاء هذا المحور الجنوبي . وساعد جزء آخر قوات فرقة شارون على تطهير « المزرعة الصينية » لانقاذ المظليين المصابين هناك ، واما جزء صغير فقط من الفرقة فشق طريقه الى الجسر . وعملت جرارات ثقيلة في المحور لاخلاء الطريق ، وهي تجرف جانباً السيارات المصابة ، وتلك التي هجرها سائقوها تحت القصف . وكان من الواضح انه اذا لم تنتقل فرقة بيرن الى غربي القناة ، قد يقضي هجوم مصري مضاد على رأس الجسر الذي كان معلقاً في الهواء .

ادرك المصريون ، منذ ليلة يوم الاربعاء، ١٧ تشرين الاول (اكتوبر)، ان القضية لم تعد مجرد محاولة عبور تقوم بها قوة عاملة صغيرة فقط ، كما وصفتها غولدا مئير رئيسة الحكومة في الكنيست ، بل قوة اخطر من ذلك بكثير ، قد تغير وجهة المعركة . وفي الحقيقة ، [...]

أضيف الى جسر العوامات الاول في تلك الاثناء جسر آخر ، واخذت الحركة تسير بصورة اكثر انتظاماً .

روى الجنرال ادان : « عبرنا الجسر في العاشرة ليلاً ، وكانت ليلة قمراء جميلة . وما كادت تمر ثلاث من دباباتنا حتى تعطل الجسر . وبقي متهاوياً لوقتٍ ما . وبينما كنا متجمعين هناك ، تلقينا اشد قصف عرفناه » .

منذ اللحظة التي اكتشف فيها المصريون حقيقة وجود رأس الجسر وحجمه ، وجهوا اليه معظم القوة المدفعية التي كانت في حوزتهم في تلك المنطقة . وقد بذلوا جهوداً مضنية لهدم الجسور وضرب القوات الموجودة حولها . واذا كانوا قد امتنعوا حتى تلك المرحلة من دفع طائراتهم الى المعركة بكميات كبيرة ، فقد شرعوا الآن يرسلونها موجات موجات نحو الجسور والمحاور المؤدية اليها . وكانت الجسور نفسها محملة قوات كانت تسير الى غربي القناة وآليات تفرغ حمولتها في الغرب وتعود الى الشرق . وكانت « الساحة » الموجودة بالقرب من الجسور هي المحطة الاساسية لاخلاء المصابين الى الشرق . واما طوافات سلاح الجو التي ضحت كثيراً لانتشال الجرحى ، فلم يسمح لها بعد بالهبوط في الجانب الغربي من القناة خوفاً من إصابتها بالصواريخ .

في تلك الاثناء اضطروا الى اخلاء الجرحى عن طريق الجسور . ونقل الجرحى الى ضفة القناة ، حيث حملوا على قوارب من المطاط كانت تعبر القناة الى الشرق ، الى محطة التجميع الطبية التابعة للكتيبة . ومن هناك كانوا يحملون على دبابات الاخلاء الى محطة ابعد في المؤخرة .

تعرضت الساحة خلال جميع تلك الايام للقصف والهجمات الجوية المتواصلة . وفي رسالة بعث بها قائد الجسر الى زوجته ، في لحظة فراغ في احد تلك الايام ، كتب يقول :

« لئن انقضت هذه الليلة علي ، فانها كانت أعجوبة . اطلقوا علينا نيران الكاتيوشا طوال الليل . وكانت قافلة من الذخيرة تقف في وسط الساحة . خفت من ان تنفجر سيارة الوقود ، وحقاً اشتعلت داخل الساحة سيارة كهذه . وكان هناك سائق جرار ، لا اعرف كيف صادف وجوده على جراره ، ملأ « الجرافة » بالرمل وصبه على السيارة واطفأها تحت القصف . ثم توجه الى السيارة الثانية . وانفجرت على مسافة قريبة منه . لا أعلم كيف لم يقتل . كان القصف كارثة . كان الرفاق يهجرون السيارات ويتركونها دائرة . وشاهدت فجأة تحت القصف جندياً يقفز الى سيارة نقل وينزل منها الراديو . كل شيء تحت القصف . وصاح فيه احدهم : « هيه ، اترك الراديو » اجابه الجندي : « لا تهرب مرة ثانية من السيارة تحت القصف » . كان هناك رفاق سائقون ، غريبون حقاً من بقايا الحرب العالمية الثانية ، مسنون . جاء الي احدهم وسألني : « ماذا تريدون مني ؟ » تلقى ضربة في سيارته بينما كانت على الجسر . وقطروه بواسطة دبابة وتركوه جانباً . وبعد يومين وصل الي ومعه بندقية تشيكية . واسأل شخصاً كهذا في سن والدي : « ماذا تفعل هنا ؟ » فأجاب : « ضربت سيارتي ، وانا مضطجع هنا في حفرة منذ يومين » . ارسلته الى البيت . ما حاجتي به لكي يكون على ذمتي ؟

« كان القصف اكثر الامور قسوة مرت علينا هنا ، حيث رافقته غارات جوية . فعندما يكون ذلك مجرد قصف ، فليكن ، ولكن عندما يأتي مع هجوم جوي ، فانه اصعب كثيراً . فعندما تسقط القذائف ، تريد ان ترى اين تسقط لكي تهرب منها ، لكي تغير موقعك . ثم تسقط المدفعية وعندها تريد ان تدفن الرأس في الرمل ، كان هذا أتوناً حقاً . ويبدو ان المصريين قرروا القضاء على الجسر . وقد انزلوا علينا يوم الخميس ٣ اسراب رباعية من الطائرات . واصابوا الصواريخ اصابات مباشرة وكذلك النابالم على الجسر . وعندها ايضاً قتل ضابط الهندسة . كان رجال الهندسة هؤلاء ابطالاً فعلاً » .

بينما كانت تتساقط قذائف المدفعية الثقيلة على الجسر مرت القوافل الى الغرب ، واخذت المعركة على رأس الجسر تزداد حدة . وقال ايلان وهو مظلي كان ملازماً لقوة الحماية وجلس قرب الجسر : « كنا جالسين في مجنزرة ، وسقطت علينا قذيفة خطرة .

وفجأة سمعنا واحداً يصرخ في الخارج : « رجلي ، رجلي ، جرحت » . تطلعت حولي في المجنزرة . جلست بالقرب من اللاسلكي ، والقصف في الخـارج ، الى ان قفز احد الرفاق ، سائقنا الى الخارج ونقل الجريح الى مخبأ . وقتل شقيق ذلك السائق ، ابن كيبوتس ، واب لثلاثة اولاد ، في الحرب . والتقى كلاهما ، سائقنا الشجاع وشقيقه على الجسر خلال ساعة العبور ، وتعانقا وقبّلا بعضهما بعضاً . وبعد مضي اسبوع قتل الشقيق » .

اصبحت « الساحة » الكبيرة اكثر المفارق المفعمة بالضجيج في الجبهة الجنوبية . ووقف رجال الهندسة فيها ووجهوا السير . وقامت الدبابات بحماية « الساحة » من الهجوم وهي مرابطة على قمم الحواجز ، وانتشرت حولها مواقع مضادة للطائرات . وقطع « الساحة » طريقان يؤديان الى المحورين . وكانت على مداخل « الساحة » مفازر مراقبة متخندقة ، وانتشرت على امتدادها معدات هندسية : جرارات ثقيلة ، وعوامات ، وعوامات لاقامة الجسور ، وقوارب ، وبقايا آليات محروقة أُخليت جانباً لافساح السير في الممرات. وأُقيم في « الساحة » معسكر اعتقال للاسرى الذين احضروا مـن الغرب . وكان الاسرى مشدوهين بما يجري حولهم ، وهم يعانون من محنة مزدوجة : من جهـة وقعوا في الاسر ، ومن جهة اخرى كانت نيران مدفعيـة رفاقهم تنزل عليهـم . كان الاسرى ينقلون عادة الى الشرق باقصى سرعة ممكنة ، ولكن كانت هناك حالات أُصيب فيها اسرى ذوو حظ سيء من النيران المصرية . وقتل في إحدى هذه الحالات ضابط مصري وطلب جنوده موافقة الشرطي العسكري الذي تولى حراستهم على دفن قتيلهم . فقد نقلوا الضابط المصري الى ضفة القناة وحفروا القبر تحت النيران ، وغطوا القبر وأدوا التحية العسكرية للضابط الميت .

وفي حالة اخرى قتل بالقصف ذلك الشرطي العسكري . كان هذا مشهداً وكأنه مأخوذ من عالم آخر ، حيث كانت القذائف تسقط داخل « الساحة » والاسرى وحراسهم يحفرون الحفر بأظافرهم ، والتزموا الارض بكل قوتهم .

وكتب عاموس لزوجته في رسالة اخرى يقول : « كان هناك مثلاً قطاع كان عبوره احدى التجارب القاسية، وكان هناك قصف. وفجأة صراخ : طائرات، واغارت الطائرات ، واما انا فقفزت مذعوراً . وقد ألقت قنابل نابالم وأُصبت انا بشظاياها . ركضت باتجاه الجسر، وبينما كنت اركض شاهدت اربع طائرات « ميغ » تغير علينا والتصقت بالحاجز الترابي ورأيت القنابل تسقط والصواريخ تنطلق ، لحظة ضيق ما لبثت ان انقضت . اقتربت من الجسر ورأيت هناك مسلخاً ونحو عشرة من الرفاق اختبأوا بين الحاجز وبين جرار كان هناك . اغارت عليهم الطائرة واصابتهم هناك ، وكان كل شيء حولهم يشتعل. كان منهم القتلى والجرحى ، فنقلنا الجرحى الى محطة تجميع الكتيبة.

« كانت هناك تلة صغيرة ، داخل « الساحة » عليها حمالات وحمالات وحمالات ، وهي مغطاة بالبطانيات . وبمرورك من هناك تشاهد احذيـة حمراء وسوداء وخضراء ، وتشاهد اطراف خصائل الشعر الاشقر والاسود . كانوا هناك بالعشرات وخشيت ان ارفع بطانية ، فان رفعت بطانية رأيت رفيقاً » . واستطرد عاموس يكتب لزوجته : « واعلمي ان على القائد ان يقلل قدر الامكان من الرضوخ لعواطفه في ظروف كهذه ، والا انتهى. هناك وظيفة وهناك ضرورة لمن يشجع الآخرين فلا يجوز ان يعزي الواحد الآخر .

« كنت أُفكر ملياً في تلك الصفوف من الحمالات ، في الليالي الطوال ، وانتظرت مطلع النهار لأبتعد عن تلك المناظر ولكي اتوقف عن الركض في الظلمة تحت القصف . فخلال النهار يبدو كل شيء مختلفاً . ففي الليل يطلقون النار بصورة متواصلة . وما الذي لم ينزل علينا هناك . فلا شيء اقل من عيار ١٦٠ ملم . وكان يسقط بصوت يسبب علة . وكانت الساعات تمر زحفاً . وفي ساعات النهار فقط كان هناك بعض الهـدوء لان طائراتنا كانت تحوم » .

استمرت المعركة الدفاعية التي خاضها مقاتلو « الساحة » ٧ أيام متتالية ، منـذ السادس عشر من الشهر وحتى يوم وقف القتال . وحكى عيران الضـابط الطبيب : « انك تتلقى وتتلقى وتتلقى ، دون ان يكون في مقدورك ان تفعل شيئاً . وكأن احداً يوقفك في الزاوية ويضربك بقبضته وكل ما تستطيع ان تفعله هو ان تتلقى الضربات . ولكن هناك فارق بين كسر احد اسنانك وبين فقدان حياتك . وحـدث مرة قصف شديد ، وخرجت بسيارة جيب الى الجانب الآخر لأحضر الجرحى . وعندما عدت من هناك ، على الجسر ، سقطت قذيفة في الماء ، امامي تماماً . ووصلت الى محطة تجميع الجرحى واذ بقذيفة تسقط على بعد ١٠ امتار امامي . قفزت الى دبابة الاخلاء وطرقت لهم على الباب فاعتقدوا ان ذلك طرق شظايا على الباب ، ولم يفتحوا . ولم يدخلوني الا بعد ان سمعوا صراخي . ثم خرجت ومرة اخرى سقطت قذيفة واختبأت في مكان ما . جلست وطأطأت رأسي ، سمعت الصفير وزعقات الشظايا ، وبعد ان خف القصّف التفت وشاهدت دبابة تشتعل . وكان هناك قبل ذلك طاقم دبابة تناول وجبته ، فقد تلقى افراده الاربعة إصابة مباشرة ولم يبق منهم احد » .

رغم جميع الجهود التي بُذلت لاصابة الجسور فشلت محاولة المصريين لضرب رأس الجسر . وواصلت الفرقة المدرعة الاسرائيلية الاختراق الى الغرب بقوة اندفاع متزايدة ، ومنذ اللحظة التي اخذت تعمل بكتل كبيرة « عاد الجيش الاسرائيلي لنفسه » كما وصف ذلك احد قادة المدرعات، ولم يعد هناك انتظار داخل المواقع وخوض معارك ساكنة ، بل حركة الى الامام والهجوم ، صورة القتال التي كانت معهودة للجيش الاسرائيلي دائماً وابداً .

الا ان ما حدث حول رأس الجسر خلال الايام الاولى لإقامته ، اثر تأثيراً كبيراً في ما حدث غربي القناة في الايام التي اعقبت ذلك . فعامل الزمن الذي لم يؤبه له خلال المراحل الاولى من العبور ، قـام بدور حاسم بالنسبة الى الصورة التي تولدت في الوقت الذي توقفت فيه قوات الجيش الاسرائيلي في خطوط وقف القتال صبـاح يوم ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) .

الفصل الثاني عشر

انهيـار سياسي

رفع المزارعون ، في حقول يوغسلافيا ، رؤوسهم الى السماء ، ولم يصدقوا ما رأت عيونهم . وابتداءً من ساعات ما بعد ظهر يوم الاربعاء ، ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، ظهرت في سماء يوغسلافيا طائرات نقل سوفياتية ضخمة، من طراز « انطونوف » ، وهي تطير تباعاً على ارتفاع متوسط ، بفارق زمني لا يزيد عن بضع دقائق بين الواحـدة والاخرى . وهدير الطائرات الهائل افزع القطعان ، وسارع القرويون المذعورون ، الذين لا تزال ذكرى الغزو السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا عالقة في اذهانهم ، الى مغادرة الحقول والعودة الى منازلهم .

قطعت عشرات طائرات النقل السوفياتية الحدود الفاصلة بين هنغاريا ويوغسلافيا وطارت شرقاً ، باتجاه دوبروبنيك ، مدينة الاصطياف اليوغسلافية . وخلال ساعات المساء من يوم الاربعاء ، هبطت اكثر من ٣٠ طائرة كهـذه في مطار عسكري جنوبي يوغسلافيا . ولم يكن هذا غزواً ولا مناورة عسكرية . فطائرات النقل السوفياتية ، التي تقل جنوداً مظليين ، كانت في طريقها الى الشرق الاوسط ، وكانت ستنقل الى مصر جواً ما يقرب من ٦٠٠٠ جندي روسي مسلحين ، ومزودين بأجود الاسلحة السوفياتية .

ومنذ ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ، أُعلنت حالة التأهب ، بدرجة عالية ، بـين الوحدات القتالية للجيش الاحمر الموجودة في دول حلف وارسو . وفي اليوم ذاته ، اخذت تصل طائرات نقل من الاتحاد السوفياتي الى اقليم باكوني ، جنوبي هنغاريا ، حيث يعسكر هناك ما لا يقل عن ١٢ فرقة سوفياتية . وخلال ساعات الظهر من يوم ٢٤ من ذلك الشهر ، تلقى بعض ألوية المظليين الروس ، في هذه الفرق ، اوامر بالتحرك ، والتوجه الى المطارات العسكرية ، التي اعلن قبل ذلك بانها مناطق مغلقة ، ولم يسمح لاحد بالاقتراب منها . صعدوا الى الطائرات ، بعلم واضح انهم سيشتركون ، خلال بضع ساعات ، في الحرب الدائرة في الشرق الاوسط .

عندما نقلت الانباء الاولى ، حول طائرات النقل السوفياتية المتجهة الى الشرق الاوسط ، الى ريتشارد نيكسون ، رئيس الولايات المتحدة ، اصدر تعليمات فورية باعلان حالة التأهب بين القوات المسلحة الاميركية ، في نقاط مختلفة من انحاء العالم . وتأهبت وحدات محوقلة من القوات المسلحة الاميركية ، في بعض الدول الاوروبية ، تنتظر امراً بالتحرك . وفي الولايات المتحدة نفسها ، فتحت مخازن الطوارىء في بعض معسكرات الجيش ، وزودت القوات المجوقلة بالذخيرة والعتاد استعداداً لامكان الخروج الى الحرب . كما ان الاسطول الجوي الاستراتيجي الاميركي ، الذي يضم طائرات مزودة بالاسلحة الذرية ، دخل هو ايضاً الى حالة التأهب .

في تلك اللحظات تهيأ للمراقبين عن بعد ، الذين لم يكونوا مزودين بآخر تطورات الاحداث السياسية التي تجري وراء الستار ، ان مواجهة عسكرية بين الدولتين الكبريين اصبحت لا مفر منها ، وان العالم يقف على حافة حرب عالمية ثالثة . ودعا الرئيس نيكسون مجلس الامن القومي الى الاجتماع وشرح ، خلال ثلاث ساعات ، لقادة الاركان الموحدة ، ولكبار مساعديه ، الدوافع التي حملته على اعلان حالة التأهب ، التي لم تعرف الولايات المتحدة مثلها منذ « أزمة الصواريخ » سنة ١٩٦٢ ، عندما هدد الرئيس جون كنيدي بالعمل ضد كوبا ، اذا لم يوقف السوفيات فوراً شحنات الصواريخ ، التي ارسلوها بطريق البحر الى هذه الدولة .

واعرب مجلس الامن القومي للولايات المتحدة عن تأييده لخطوة الرئيس ، بعد ان اطلع على الانباء بشأن نوايا السوفيات ارسال قوات مسلحة للتدخل فعلياً في حرب الشرق الاوسط .

فجر ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، جرى امام العالم المذهول اختبار قوة بين الدولتين الكبريين . إلا ان هذا كان مجرد استعراض عضلات فقط ، كما اتضح خلال ساعات قليلة . فبعد ان رأى السوفيات ان الولايات المتحدة مستعدة لارسال قواتها هي ايضاً الى الشرق الاوسط ، على الرغم من تجربتها المرة في فيتنام ، تراجعوا عن خططهم . وفي صباح ٢٥ من الشهر ، استيقظ مواطنون يوغسلافيون ، مرة اخرى ، على هدير طائرات كانت هذه المرة ، الطائرات الروسية عائدة من يوغسلافيا الى هنغاريا ، تقل الجنود الروس الذين على متنها الى قواعدهم .

خلال ساعات معدودات فقط بدا وكأن مصير الانسانية في خطر ، بسبب الحرب الدائرة ، للاسبوع الثالث ، بين الدول العربية واسرائيل . وفي وقت لاحق ، توصل بعض المراقبين الى استنتاج ان هذا كله كان مجرد ذعر وهمي ، وان قادة الاتحاد السوفياتي لم يقصدوا ابداً إرسال قوات الى الشرق الاوسط ، بل قصدهم الوحيد هو تخويف الاميركيين واجبارهم على التدخل في الوضع .

الا ان المسافة بين محاولات التخويف والحرب الفعلية ليست كبيرة ، كما يدل التاريخ . فاذا كان هذا حقاً هو قصد الروس ، فانهم نجحوا في تحقيقه . ومنذ تلك اللحظة وصاعداً ، اخذت حكومة الولايات المتحدة تعترف بخطورة التدهور المتوقع ، وصعدت من ممارسة الضغط على اسرائيل التي فقدت في الحقيقة ، من هذه اللحظة ، الدعم السياسي للدولة الصديقة الأخيرة التي بقيت لها في العالم .

هددت حرب يوم الغفران ، خلال الايام الاولى ، وجود دولة اسرائيل في الصميم . بيد ان اسرائيل كانت في وضع حرج ، من الناحية السياسية ، منذ نشوب الحرب وحتى هذا اليوم بالذات . فاسرائيل معزولة تماماً تقريباً في الساحة الدولية ، ومعتمدة بصورة مطلقة على حسن نية حكومة الولايات المتحدة . ومعظم الدول الافريقية قطع علاقاته بها . وحكومات دول اوروبا الغربية ، التي رضخت لابتزاز سلاح النفط الذي استخدمته الدول العربية ، فضّلت الحصول على النفط عن التضامن مع اسرائيل .

انهار خط الدفاع السياسي لدولة اسرائيل بقوة ، عندما سقط خط بار — ليف في سيناء . فسقوط الخط العسكري كان موقتاً . وفي اعقابه جاء اختراق المدرعات الاسرائيلية الى الضفة الغربية من قناة السويس . وترك سقوط الخط السياسي اسرائيل مكشوفة ، دون دعم سياسي ، ودون تفهم لمواقفها ، وبالذات في هذا الوقت المصيري جداً للدولة .

كان الافلاس السياسي لحكومة اسرائيل ساحقاً ومطلقاً ومأساوياً .

لم يكن هذا نتيجة خطأ او تقصير لمرة واحدة . بل ان ذلك نجم عن سلسلة من الاخطاء في التقدير ، وعن تقصيرات سياسية ، بدأت منذ حرب الايام الستة ، واستمرت حتى حرب يوم الغفران .

لم تكن لدولة اسرائيل ، خلال هذه السنوات ، من الناحية العملية سياسة خارجية مطلقاً ، كما لم تكن عندها وزارة خارجية جديرة . فالوزارة التي تحمل اسم وزارة الخارجية ويترأسها الوزير آبا ايبن ، لم تعد ، منذ زمن بعيد ، تشكل عنصراً ذا وزن ، ليس إزاء الخارج فحسب ، بل وايضاً إزاء الداخل . فقد انحصرت مهامها في إدارة المراسم الدبلوماسية ، والمحاولات الفاشلة لشرح سياسة لا يمكن شرحها ، لانها لم تكن قائمة . وكما هو الحال على الصعيد العسكري ، كذلك على صعيد السياسة الخارجية ، كان هذا الخط السياسي لقيادة دولة اسرائيل ، الذي طوع لاغراضه الاعتبارات العسكرية واعتبارات السياسة الخارجية .

لا يوجد في اسرائيل ، من الناحية الفنية ، اية جهة مسؤولة عن تقويمات سياسية للوضع ، وعن آفاق العمل المفتوحة امام اسرائيل في العالم ، ودراسة طرق عمل الدول

الصديقة والمعادية . فالاجتماعات التي تعقد من حين لآخر في مكتب وزير الخارجية ، تنهمك بمشكلات آنية والاستماع للمحاضرات . ولم يمارس ابداً التحليل الجاد لمشكلات اسرائيل الخارجية . ولم تطلب مطلقاً ولم تضغط على حكومة اسرائيل من اجل وضع سياسة تتفق ومقتضيات سياستها الخارجية . فالعبارة التي صاغها دافيد بن – غوريون في حينه : « ليس مهماً ما يقوله الغوييم ، بل المهم ما يفعله اليهود » ، اصبحت حجر الزاوية في تقدير سياسة اسرائيل الخارجية .

من الواضح ان استخفاف قيادة الدولة بوزارة الخارجية كان سبباً في عدم تأثير المناقشات والتحليلات الجادة ، في حال اجرائها ، على المراتب المقررة في دولة اسرائيل . وشعبة الابحاث في الاستخبارات العسكرية ، التي تعد تقويمات عسكرية للوضع ، تعد ايضاً ، وبصورة هامشية ، تقويمات سياسية تتعلق اساساً بالشرق الاوسط . كما ان لجنة الخارجية والامن منهمكة ، بصورة عامة ، في الجولات المنظمة ، والاستماع الى الاشخاص الذين يقدمون لها التقارير عن الاحداث التي وقعت ، وعن القرارات التي اتخذت . وفي احيان نادرة جداً فقط ، حاولت هذه اللجنة فحص أُسس سياسة اسرائيل الخارجية ، والاطلاع على العناصر الدولية ذات التأثير البالغ على الوضع في المنطقة .

لم تكن في اسرائيل ابداً هيئة على غرار « مجلس الامن القومي » في الولايات المتحدة ، الذي هدفه تعيين الخطوط الاساسية لسياسة الخارجية والامن والبحث في الاوضاع التي تشكل خطراً على امن الدولة . وفي غياب هيئة كهذه ، وفي غياب سياسة خارجية متبلورة وهادفة (الخطوط الاساسية لسياسة اسرائيل صيغت آخر مرة سنة ١٩٥٦) ، لم يبق لممثلي اسرائيل وسفرائها في العالم سوى المناورة ، في معظم الحالات ، في مجال ضيق بحسب كفاءاتهم .

ان احد النماذج الصارخة للدور الذي قام به ، او بدقة اكثر ، الذي لم يقم به ، السلك الخارجي الاسرائيلي ، في المعركة السياسية التي لازمت المعركة العسكرية ، خلال الحرب الاخيرة ، هو شبكة العلاقات بين اسرائيل وحليفتها ، الولايات المتحدة ، خلال هذه الفترة .

ان العلاقات الخاصة التي نسجت بين اسرائيل والولايات المتحدة ، منذ بضع سنوات ، منذ ان تبنت اسرائيل « التوجه الاميركي » بدلاً من « التوجه الاوروبي » ، اقتضت اسناد مهمة الاتصال بين الدولتين الى شخصية اسرائيلية على مستوى عال . فكانت هذه الشخصية يتسحاق رابين ، رئيس هيئة اركان الجيش الاسرائيلي سابقاً ، الذي عين ، بعد حرب الايام الستة ، سفيراً لاسرائيل في الولايات المتحدة . وكشخصية لامعة ، ذات قدرة تحليلية نادرة ، نجح رابين ، بفضل كفاءاته الشخصية ، الى حد بعيد ، في توثيق شبكة العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل وبلوغها الذروة . وكانت

مكانة رابين في واشنطن فريدة من نوعها . فقد نجح في إقامة علاقات مع شخصيات مهمة ، وحظي بالتقدير الشامل من قبل جميع زعماء الادارة الاميركية ، وعرف كيف يعمل لخدمة مصالح دولة اسرائيل ، بصورة لم يسبق لها مثيل ، حتى بالنسبة الى الدبلوماسيين القدماء واصحاب الخبرة الغنية في دول كبرى . وفي الحقيقة ، اصبح رابين ، خلال سنوات خدمته كسفير في واشنطن ، بمثابة وزير لشؤون الولايات المتحدة في الحكومة الاسرائيلية .

لم يعتبر نفسه مرتبطاً بوزارة الخارجية ، فقد كان يرسل التقارير مباشرة الى رئيسة الحكومة ، بموجب اتفاق معها تم في حينه بحضور آبا ايبن وزير الخارجية . وعندما اخذت العلاقات بين السيدة مئير وآبا ايبن تتوتر ، لم تفِ غولدا مئير بوعدها ، الذي قطعته على نفسها منذ سنة ١٩٧٠ ، فلم تسلم آبا ايبن التقارير والبرقيات المهمة ، التي تلقتها مباشرة من يتسحاق رابين ، والمتعلقة بشؤون مهمة وحساسة . وفي بعض الاحيان ، تولدت اوضاع بقي فيها وزير الخارجية الاسرائيلي خارج الصورة . كما نتجت قطيعة تكاد تكون تامة بين السفارة في واشنطن وبين وزارة الخارجية في القدس .

كانت العلاقات بين رابين والقنصل الاسرائيلي في نيويورك – في البداية كان القنصل رحبعام عمير وبعد ذلك دافيد رفلين – متوترة . وتعتبر القنصلية الاسرائيلية في نيويورك مملكة آبا ايبن ، الذي حرص على ان يضع فيها مقربيه . ونظراً الى ان القنصلية في نيويورك كانت على اتصال وثيق بالمنظمات اليهودية في الولايات المتحدة ، تولد وضع كانت فيه العلاقة بين السفير في واشنطن ، وبين هذه المنظمات اليهودية في نيويورك ، متدهورة جداً .

بعد شهر تموز (يوليو) ١٩٧١ ، عندما نشبت خلافات في الرأي بين السفير رابين وحكومة اسرائيل ، حول مسائل تتعلق بالسياسة الخارجية ، بدأت السيدة مئير تتحفظ حيال السفير ، الذي اثبت ، بحسب رأيها ومزاجها ، استقلالية زائدة في الرأي . فهي لم تحب ابداً اشخاصاً اعربوا عن آراء مناقضة لآرائها واصرّوا عليها . لقد هوجم رابين في تلك الايام عن طريق اجهزة الاعلام الاسرائيلية ، بإيحاء من وزارات الحكومة المختلفة ، بسبب علاقته الوثيقة بادارة نيكسون . ومنذ اللحظة التي وصل فيها الى واشنطن ، في سنة ١٩٦٨ ، استطاع رابين إقامة علاقة مباشرة بالبيت الابيض عن غير طريق وزارة الخارجية الاميركية . فقد ادرك انه يجب الحيلولة دون الوضع الذي تولد في سنة ١٩٥٦ بأي ثمن ، عندما خرجت اسرائيل الى حملة سيناء ، بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا ، دون ان تطلع واشنطن على سر اعتباراتها ومخططاتها . وقد اجبرت اسرائيل على الانسحاب آنذاك ، بضغط اميركي – روسي مشترك . ومع مرور الايام اتضح ان الرئيس ايزنهاور ودالاس وزير خارجيته ، لم يعارضا في الحقيقة العملية الاسرائيلية ، بل استاءا من حقيقة انهما لم يشركا في الاعتبارات ، وبذلك فوجئا بالحملة .

جزم رابين انه يجب على اسرائيل ان تقيم علاقات جيدة مع الادارة الاميركية ، وان تفهم المبادىء الاساسية للسياسة الاميركية في الشرق الاوسط . ولما كان رابين يؤمن بان المصلحة الاسرائيلية تقتضي حشد جميع الموارد والوسائل ضد الادارة الاميركية ، لم يتردد في خوض مواجهة مكشوفة عن طريق « الصفحات الوردية » ، التي كانت السفارة تطبعها وتوزعها من حين لآخر ، لكي توضح موقف اسرائيل ، وتطلع الرأي العام في الولايات المتحدة عليه ، عبر التوجه المباشر لوسائل الاعلام .

بعد ان انهى رابين وظيفته وعاد الى اسرائيل ، كان يبدو ان حكومة اسرائيل لم تعد مهتمة بسفير له موقف شخصي مستقل . فقد قررت غولدا ان عليها مواصلة السيطرة المباشرة على علاقات اسرائيل بالولايات المتحدة ، فضغطت لتعيين سمحا دنيتس ، مستشارها السياسي ، سفيراً في واشنطن . ان دنيتس ، الذي بدأ مهنته الدبلوماسية كحاجب في سفارة اسرائيل في واشنطن ، خلال فترة دراسته في الولايات المتحدة ، كان رئيس مكتب غولدا وكاتم سرها . فكانت هذه الصفات كافية لرئيسة الحكومة ، لكي تعطي اشعاراً نهائياً لتعيينه . وكما في حالات كثيرة اخرى ، اضطرت حكومة اسرائيل ، هذه المرة ايضاً ، ان تخضع لرأي غولدا ، وان تقبل حكمها . ربما كان دنيتس السلس وعديم الخبرة الدبلوماسية كسفير ، ملائماً لوظيفة تمثيلية كتلك التي يتولاها معظم سفراء اسرائيل في دول العالم ، ولكن علاقات التقدير والقربى ، والثقة ، والمشورة التي نسجها يتسحاق رابين قبله ، بعيدة المنال بالنسبة اليه . وكان تعيينه كوضع وحدة من سلاح المشاة ، مزودة بالاسلحة الخفيفة ، في جبهة تتطلب قوة مدرعة ومدفعية . ان صنيعة غولدا مثير لم يثبت كفاءته كسفير كبير وقت الازمة الاخيرة .

عندما نشبت حرب يوم الغفران ، كان الموقع الامامي لجبهة اسرائيل الخارجية ، في واشنطن ، مكشوفاً ، ولم تقف امام الاختراق السياسي الذي قام به بطل المناورات ، هنري كيسنجر ، اية قوة اسرائيلية مهمة . ومن خلال نظرة الى الوراء كان ذلك احد التقصيرات الخطرة لحكومة اسرائيل ، الذي لم يقل اهمية عن التقصيرات الاخرى في الحرب .

ويوم السبت ، ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، في الساعة ٩,١٥ صباحاً (بتوقيت نيويورك) دق جرس الهاتف في غرفة وزير الخارجية الاسرائيلي ، في فندق « بلازا » في نيويورك ، وكان هنري كيسنجر على الخط ، للمرة الثالثة في ذلك الصباح .

قال كيسنجر : « سيد ايبن ، تلقيت في هذه اللحظة نبأ من المخابرات (سي. آي. ايه) ان معارك تدور في منطقة قناة السويس . انني افترض انكم لستم البادئين » .

أجاب ايبن : « آمل انه لم يكن هناك اي عمل غير مسؤول . وكما قلت لك سابقاً ، لم يكن في نيتنا بدء حرب وقائية ، وسأفحص الامر حالاً وأعلمك » .

أدى جواب آبا ايبن المرتبك ، في اليوم الاول للحرب ، الى عدم تفهم ، استمر بضع ساعات . واعتقد الاميركيون طوال ذلك الوقت ، ان اسرائيل هي التي بدأت الحرب .

وكانت المفاجأة بالنسبة الى آبا ايبن ايضاً تامة . فقد سمع وزير الخارجية الاسرائيلي اول مرة ، قبل ساعتين ونصف فقط ، بانه من المتوقع ان تندلع حرب في الشرق الاوسط . وفي ذلك الصباح من يوم الغفران ، وفي الساعة ٦,٠٠ ، دق جرس الهاتف في غرفة ايتان بن – تسور ، مستشار وزير الخارجية ، الذي كان يرافقه في رحلته الى الجمعية العمومية للامم المتحدة ، وكان صوت المتحدث ، رجل القنصلية الاسرائيلية في نيويورك ، يرتجف وهو يقول : « وصلت برقية مذعورة جداً للوزير . اننا نرسلها اليكم فوراً » . وكانت البرقية موقّعة من الوزير يسرائيل غليلي . وقد قرأها بن – تسور بصورة سريعة ، ثم سارع الى البحث عن وزير الخارجية . وجاء في البرقية ان انباءً وثيقة تشير الى خطر قيام مصر وسورية بهجوم منسق على اسرائيل مع حلول المساء ، مساء يوم السبت . وطلب من آبا ايبن الاتصال فوراً بهنري كيسنجر ، وزير الخارجية ، وإبلاغه مضمون الخبر والطلب منه التوسط لدى المصريين لثنيهم عن القيام بعمل عسكري .

حاول بن – تسور الاتصال بآبا ايبن هاتفياً من داخل الفندق ، وإبلاغه مضمون البرقية . بيد ان آبا ايبن ، الذي اراد ان يقضي صباح يوم الغفران في سريره ، كان قد قطع الهاتف وراح يغط في نوم عميق . وفقط ، بعد ان دق بن – تسور على الباب ، وهو يائس خلال ربع ساعة ، استيقظ آبا ايبن وخرج لمعرفة ما يجري .

وقال آبا ايبن بعد ان انهى قراءة البرقية ، « اطلب لي كيسنجر بصورة مستعجلة » .

وحتى لحظة استلام البرقية لم يعرف آبا ايبن ، الذي غادر البلد قبل يوم رأس السنة ، ان هناك خطراً لاندلاع الحرب ، ولم يعرف ايضاً ان وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية تلقت قبل ذلك بيومين ، أي يوم الخميس ، تقويماً من عناصر الاستخبارات الاسرائيلية ، جزمت فيه انه من غير المتوقع ان تنشب حرب في الشرق الاوسط .

في مساء اليوم السابق ، يوم الجمعة ، ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، وصلت الى آبا ايبن رسالة من البلد ، طلب فيها اليه الاجتماع بكيسنجر لتسليمه مظروفاً يحتوي على مادة مهمة وصلت من اسرائيل . وآبا ايبن ، الذي لم يكلف احد نفسه باطلاعه على محتوى هذا المظروف ، اعلن فوراً انه لا يستطيع مقابلة كيسنجر لانه عيّن مقابلات ، خلال تلك الساعة ، مع عدد من وزراء الخارجية الذين يحضرون الجمعية العمومية للامم المتحدة . ولم يرَ آبا ايبن ، الحريص على قضايا المراسم ، سبباً لإلغاء المقابلات .

ولذا تم الاتفاق على نقل المظروف المستعجل مباشرة الى مكتب كيسنجر في واشنطن لكي يرسل من هناك اليه في نيويورك .

وكما ذكرنا ، لم تعط لآبا ايبن اية اشارة عن مضمون المظروف الذي كان يحتوي على تقويم جديد للموقف، تم فيه الاعراب عن التحفظ حيال الجزم السابق المشترك ، بين اجهزة الاستخبارات في البلدين ، بأن العرب لن يبدأوا الحرب . وجاء في المظروف الذي نقل الى كيسنجر بعد ذلك ، انه على الرغم من « التأهب الدفاعي للقوات المصرية والسورية » ، هناك امكان لبدء القتال من جانبهم .

لكن هذا المظروف لم يصل الى وجهته في اليوم نفسه ، الجمعة ، على الرغم من جميع الجهود . فقد سلم الى كيسنجر في صباح اليوم التالي فقط ، مع مادة خلفية اعدتها له اجهزة الاستخبارات الاميركية ، ووزارة الخارجية . وعندما ايقظوه من نومه في منزله في نيويورك ، سلموه ايضاً البرقية التي وصلت في تلك الاثناء من تل أبيب ، من سفير الولايات المتحدة ، كنت كيتينغ . وقد بعث السفير في برقيته تقريراً عن اجتماعه بغولدا مئير رئيسة الحكومة ، الذي عقد في مكتبها في تل أبيب في صباح يوم الغفران . وقد ابلغته في هذه المناسبة انه بناءً على انباء موثوقة، وصلت الى حكومة اسرائيل ، سيبدأ المصريون والسوريون الحرب هذا المساء ، وكما يبدو في الساعة ١٨،٠٠ . وطلبت السيدة مئير من السفير الاميركي ان ينقل ذلك فوراً الى البيت الابيض .

سأل السفير : « هل تريدون توجيه ضربة وقائية قبل ان يهاجموكم ؟ »

قالت السيدة مئير باصرار : « كلا ، كلا في اي حال من الاحوال ! . ارجو ان توضح ذلك للسيد كيسنجر » .

بعد ان اطلع كيسنجر على تقرير سفيره في اسرائيل ، تلقى مكالمة هاتفية من آبا ايبن ، طلب فيها منه التدخل لدى المصريين والسوريين لثنيهم عن البدء بالحرب . بيد ان كيسنجر كان لا يزال غير مقتنع بان العرب هم الذين سيبدأون القتال . وقد اعتمد على تقدير قدم اليه — ثبت في وقت لاحق فقط انه عملية تضليل ناجحة — وبموجبه ان الروس ينقلون مستشاريهم من سورية ومصر خوفاً من ان تكون اسرائيل هي البادئة بالهجوم . وبعد جهود كثيرة استطاع كيسنجر ان يتصل هاتفياً بمحمد الزيات وزير الخارجية المصري ، الذي كان في نيويورك لمناسبة انعقاد الجمعية العمومية للامم المتحدة . وزعم الوزير المصري انه لا يعرف شيئاً عما يجري ، وانه سيستقصي الامر . وطلب كيسنجر من الزيات ابلاغ حكومته بأن اسرائيل حصلت على خطط التأهب لهجوم مصري ، وانه يطلب من مصر الامتناع من القيام بعمل عسكري . وبعد حديثه مع سفير مصر ، اجرى كيسنجر بين الساعة ٧،٠٠ و ٨،٠٠ صباحاً ، عدة محادثات هاتفية مع الرئيس نيكسون ، الذي كان موجوداً في ذلك الوقت في منزله ، في كي بيسكين في فلوريدا . وقد ابلغ الرئيس ان الوضع في الشرق الاوسط على حافة الانفجار ، وانه يحاول التأكد مما اذا كان الروس متداخلين في هذا الامر بصورة فعالة . وقد امر نيكسون

باقامة فريق عمل خاص على الفور ، يتكون من ممثلي وزارة الخارجية ، والبنتاغون ، ووكالة الاستخبارات المركزية ، ورؤساء اركان القوات المسلحة . وقد بدأ هذا الفريق يعمل منذ صباح يوم السبت برئاسة كيسنجر . وأقيمت في البيت الابيض في فلوريدا ايضاً قيادة طوارىء خاصة ، ترأسها الجنرال اليكسندر هيغ ، الذي كان على اتصال دائم مع هنري كيسنجر .

في الساعة ٩،٠٠ صباحاً (٣ بعد الظهر بحسب توقيت اسرائيل) تلقى كيسنجر خبراً من وكالة الاستخبارات المركزية يفيد ان المعارك على امتداد قناة السويس قد بدأت ، وان الطائرات المصرية تهاجم المراكز الاسرائيلية في سيناء . وبما انه ، بحسب التقارير الاسرائيلية ، كان المصريون سيهاجمون في الساعة ١٢،٠٠ ظهراً (بتوقيت نيويورك) ، تولد لدى كيسنجر انطباع بان ما يجري هو عملية وقائية اسرائيلية ، جاءت لكي تستبق الهجوم المصري . ولذا سأل على الفور ، كما ذكرنا ، آبا ايبن هاتفياً اذا كانت اسرائيل هي التي بدأت العمليات الحربية .

لوحظت في سفارة اسرائيل في واشنطن استعدادات كثيرة منذ الساعة ٥،٠٠ صباحاً . وقد اثير ، في برقية من وزارة الدفاع الى الملحق العسكري في السفارة الجنرال موتي غور ، امكان بدء العرب بالهجوم خلال ١٢ ساعة . وقد طلب من العاملين معه في السفارة البقاء على اهبة الاستعداد . الا انه في تلك الساعات المصيرية تغيب الشخص الرئيسي في السفارة .

كان السفير سمحا دنيتس موجوداً ، في ذلك الوقت ، في اسرائيل ، بمناسبة وفاة والده . وقد وصل الوزير المفوض مردخاي شليف ، وهو رجل متدين ، الى السفارة بعد ذلك ببضع ساعات ، في ذروة الصوم . بيد انه بعد نشوب المعارك بوقت قصير ، اخذت تصل الى مكتب الملحق البرقيات الاولى والتي طلب فيها من موتي غور العمل فوراً لتأمين الامدادات العسكرية المتواصلة الى اسرائيل .

عندما علم الدكتور كيسنجر بنشوب المعارك ، اجتمع بوزير الخارجية آبا ايبن في نيويورك ، ثم طار بعد ذلك على الفور الى واشنطن لكي يترأس فريق العمل . ومن واشنطن تحدث كيسنجر مرة اخرى هاتفياً مع آبا ايبن مستفسراً عن تقدير اسرائيل للوضع العسكري . وسأل كيسنجر : « كم يوماً تحتاجون لكي تتغلبون على هذا الوضع ؟ » . وقد قيل في الجواب ، بعد التشاور مع البلد ، ان الحرب ستنتهي خلال مدة تتراوح بين اربعة او خمسة ايام . لم يفاجأ كيسنجر . فقد اتفق هذا الكلام مع تقدير البنتاغون، الذي قدمه منذ صباح يوم السبت الادميرال توماس موربر، رئيس اركان القوات المسلحة، الى فريق العمل الخاص . كما ان البرقيات الاولى التي وصلت الى آبا ايبن ، وزير الخارجية ، والموقعة من الوزير يسرائيل غليلي ، تحدثت عن صد الهجوم ، وعن دخول

القوات الاسرائيلية بسرعة الى اقصى درجات التأهب التي كان من المفروض ان تؤدي خلال وقت قصير الى صد القوات الغازية . وكانت البرقيات من البلد متفائلة . وخلال يومين لم تتبلور لدى ممثلي اسرائيل في الولايات المتحدة الصورة الواضحة عن الوضع . وفقط خلال المحادثات التي اجراها آبا ايبن مع ابراهام كدرون ، مدير عـام وزارة الخارجية ، سمعت للمرة الاولى اشارات الى ان الوضع في الجبهات اصعب مما عكسته التقارير الرسمية .

تصفح الرئيس نيكسون في منزله في فلوريدا ملف الحرب في الشرق الاوسط . وقد قرأ بتمعن وثيقة مفصلة اشتملت على تقويم للوضع قدمته الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية يوم الخميس ، ٤ تشرين الاول (اكتوبر) . وكانت الوثيقة تحتوي على تفصيل للانباء التي تراكمت حول تحرك القوات العربية ، والاستنفار لدى الجيوش العربية على امتداد الخطوط ، وتفاصيل استخبارات اخرى . وجزم تقويم الاستخبارات هـذا بان امكان نشوب الحرب ضئيل . وقد توقف نيكسون عند السطر الاسفل ، الذي اشتمل على هذا الاستنتاج ، وابدى ملاحظة الى الجنرال هيغ مساعده : « من المدهش حقاً التوصل الى مثل هذا الاستنتاج بعد تلقي مثل تلك الانباء » .

كان نيكسون قلقاً اساساً من امكان التدخل السوفياتي . لذلك امر كيسنجر بالبقاء على اتصال وثيق مع اناتولي دوبرينين ، سفير الاتحـاد السوفياتي في واشنطن ، لكي يتلمس نوايا السوفيات . وفي اليوم الاول للحرب ، كان رد دوبرينين يبعث على الارتياح. ولم تلاحظ اية دلائل على ان الروس ينوون التدخل في الحرب مباشرة . وقد قرر نيكسون عدم استخدام « الخط الاحمر » الذي يصل البيت الابيض بالكرملين مباشرة . واجرى الاتصال بالروس بواسطة السفير دوبرينين ، بالوسائط الاعتيادية .

في يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، بعد الظهر ، عقدت جلسة خاصة لفريق العمل برئاسة الدكتور كيسنجر ، في غرفة العمليات في البيت الابيض ، وبحث اولاً امكان وقف المعارك . بيد انه اتضح للمشتركين في الجلسة ان الفرقاء المتحاربين غير مهتمين بوقف القتال . قال كيسنجر :

« اذا كان الامر كذلك ، دع الاطفال يلعبون قليلاً » .

في يوم الاحد ذاته ، وفي ساعات المساء ، زار مردخاي شليف ، الوزير المفوض الاسرائيلي ، وزارة الخارجية الاميركية واجتمع هناك بجوزيف سيسكو ، نائب وزير الخارجية ، وطلب الاطلاع على الاستنتاجات التي توصل اليها فريق العمل ، واوضح بصورة لا تقبل التأويل ، ان اسرائيل ستكون بحاجة الى امدادات متواصلة من المعدات العسكرية في اقرب وقت . كما ان سمحا دنيتس ، السفير الذي عاد يوم الاحد ليلاً

الى واشنطن ، اثار مشكلة تزويد المعدات والاسلحة الى اسرائيل خلال محادثاته الاولى مع كيسنجر .

وقبل مساء يوم الاثنين ، اجتمع فريق العمل في جلسة اخرى . وبدت التقارير من ساحة القتال هذه المرة مكدرة ، من الناحية الاسرائيلية . وقد اتضح ، اول مرة ، ان المصريين استطاعوا السيطرة على جميع التحصينات على امتداد القناة ، وان السوريين احتلوا هضبة الجولان بأسرها تقريباً . وسمعت للمرة الأولى شكوك حول مصداقية البيانات الاسرائيلية بشأن نجاح الجيش الاسرائيلي في صد الهجوم . وفي ضوء ازمة الثقة في التقارير ، طلب فريق العمل من عناصر المخابرات الاميركية زيادة يقظتها ، وتزويده بأقصى قدر من المعلومات عن الوضع في ساحة القتال من المصادر الذاتية .

وفي يوم الثلاثاء ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، توجه السفير دنيتس مرة اخرى بطلب الى كيسنجر بتزويد اسرائيل بالاسلحة والامدادات العسكرية . حاول كيسنجر تطمين دنيتس بقوله له انه تحدث عن المشكلة مع الرئيس نيكسون ، الذي اصدر تعليمات الى البنتاغون لتنظيم شحنات فورية من المعدات الى اسرائيل .

ولكنهم زعموا في البنتاغون ، الذي كان يؤمه الملحق موتي غور يومياً ، ان هناك صعوبات كبيرة في إخراج المعدات من مخازن الجيش ، وانهم يواجهون نقصاً في وسائل النقل الملائمة .

وفي الاجتماعات التي عقدها السفير دنيتس مع كيسنجر بحث ، بالاضافة الى قضية الامدادات ، موضوع وقف القتال ايضاً . وعلى حد قول دنيتس ، توافق اسرائيل على وقف القتال ، شرط ان تعود القوات الى خطوط السادس من تشرين الاول (اكتوبر) ، كما كانت قبل نشوب المعارك . وقد ابلغ كيسنجر دنيتس ان الاتحاد السوفياتي يوافق على وقف القتال ، شرط ان تلتزم اسرائيل بالانسحاب من جميع المناطق التي احتلت منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وكان الرد الاسرائيلي على هذا الطلب سلبياً تماماً ، وقد ايده كيسنجر . بيد ان هذا الوضع تغير فجأة ، برمته ، يوم الثلاثاء ، عند الظهر . وهذا احد اكثر اسرار الحرب خفية . كانت هذه برقية مذعورة من القدس ، وصلت الى سفارة اسرائيل في واشنطن ، طلب فيها من آبا ايبن ودنيتس العمل على وقف القتال فوراً ، دون اية شروط من جانب اسرائيل . وقد ساد الذهول في السفارة ، وخصوصاً ان برقية مذعورة اخرى ، وصلت بعد ذلك بوقت قصير ، تطلب من السفارة العمل بصورة مستعجلة للحصول على امدادات فورية من قذائف الدبابات . ولكن خـلال ساعات ما بعد الظهر ، قبل ان يتمكن آبا ايبن ودنيتس من العمل لإحراز وقف القتال ، وصلت من القدس برقية تعديل .

طلب من آبا ايبن ان يعمل على احراز وقف القتال حقاً ، ولكن بموجب الشرط السابق ، اي ان ينسحب المصريون الى مــا وراء قناة السويس . وجاء في البرقية انه لا يجوز قبول وقف القتال بأي شرط آخر .

أُرسلت هذه البرقية في اعقاب مناقشة في الحكومة الاسرائيلية ، قدم فيها موشيه دايان ، وزير الدفاع ، تقريراً عن انطباعه من جولاته في الجبهة الجنوبية . وقد جزم تقدير القادة في ساحة القتال ، انه لا يجوز من الناحية العسكرية ، وفي اي حال من الاحوال ، الموافقة على وقف القتال ، ما دامت القوات المصرية موجودة في الجانب الشرقي من القناة .

عاد فريق العمل وعقد اجتماعاً آخر برئاسة كيسنجر . وقد وضعت امام اعضاء الفريق قائمة بخسائر اسرائيل البشرية وخسائرها في المعدات . كانت الصورة مكدرة . وقد ابدى احد المشتركين في الفريق ملاحظة قال فيها « تحطمت اسطورة اسرائيل التي لا تقهر » ، وقال آخر « من المؤسف ان يحدث ذلك » . اتصل كيسنجر بدنيتس هاتفياً وسأله : « هل حصلتم على جميع المعدات التي تحتاجونها ؟ » وأضاف : « اصدر الرئيس تعليماته بتزويد كل ما يلزم » . وبعث دنيتس وهو يشعر بالرضى ، برقية متفائلة الى البلد ، ابلغ فيها ان كيسنجر اكد انه لا مجال للقلق . بيد ان الجنرال موتي غور ، الذي كان موجوداً في ذلك الوقت في البنتاغون ، ادرك انه لا يوجد اي دليل على التحرك . وقد بقي المسؤولون في البنتاغون يصرون على مسألة النقل ، وقالوا « هذه مشكلة وزارة الخارجية . وليست لنا الصلاحية لان نقرر بأنفسنا ارسال طائرات اميركية الى اسرائيل » . في هذه اللحظات بدا الوضع لموتي غور على حافة اليأس .

في صباح اليوم نفسه ، ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، بدأ قطار جوي سوفياتي ينقل الى مصر وسورية ، معدات حديثة اشتملت على طائرات ، ودبابات ، وصواريخ مضادة للدبابات . وكان ينقل الى مصر وحدها جواً ، نحو ٦٠٠ طن من المعدات يومياً . وقد حاولوا في السفارة في واشنطن ، وفي الاوساط الحاكمة في القدس ، ان يفهموا ما بدا لهم لعبة مزدوجة يقوم بها كيسنجر . وتساءلوا كيف يجوز ، ان يبلغ دنيتس ، بصورة قاطعة ، ان الرئيس امر البنتاغون بتزويد اسرائيل بالمعدات ، بينما البنتاغون نفسه لم يتلق مثل هذا الامر؟ وقد اثار البعض الاعتقاد ، ان كيسنجر يريد اضعاف اسرائيل الى حد معين ، لكي تسهل عليه مطالبتها بتسديد الدين عندما يحين الوقت . بيد ان القطار الجوي السوفياتي شوش حساب كيسنجر ، اذا كان عنده مثل هذا الحساب . واتضح ان الزبون الاسرائيلي قد يتورط في وضع خطير لا مخرج منه ، في اعقاب الاحجام الهائلة للقطار الجوي السوفياتي . وفي يوم الخميس ١١ تشرين الاول (اكتوبر) ، عندما اصبح الوضع في اسرائيل من ناحية المعدات القتالية حرجاً ، اتصلت رئيسة الحكومة

هاتفياً بالرئيس نيكسون وطلبت تدخله شخصياً في هذا الامر . واصرت على ان يقوم الرئيس بنفسه بالسعي لحل المشكلة ، التي لا يوجد اخطر منها بالنسبة الى اسرائيل في هذا الوقت .

وفي يوم الخميس فقط اصدر الرئيس نيكسون امراً الى البنتاغون بتزويد اسرائيل بالامدادات بطائرات النقل العسكرية الاميركية فوراً . وقد هبطت اول طائرة امدادات ، احضرت الذخيرة وقطع الغيار ، في اسرائيل يوم الجمعة ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) . وفي الوقت نفسه تقريباً ظهر هنري كيسنجر في مؤتمر صحافي في واشنطن ، حيث بدا للعيان انه يسعى جاهداً للحيلولة دون مواجهة علنية مع الاتحاد السوفياتي ، ويريد ان يبقي له طريقاً للتراجع امام تدخله في سباق التسلح . وقد وصف القطار الجوي الروسي بانه « ضيق النطاق » ، على الرغم من ان الاتحاد السوفياتي كان قد نقل ، حتى ذلك الحين ، اكثر من ٢٠٠٠ طن من المعدات القتالية الحديثة الى مصر وسورية . وبالاضافة الى ذلك ، نقل كيسنجر تحذيراً واضحاً الى الروس . قال كيسنجر : « ان للولايات المتحدة صداقة تقليدية مع اسرائيل ، وستحافظ عليها خلال هذه الازمة ايضاً » ، واضاف يقول : « انكم تعلمون جميعاً ان لنا شبكة عسكرية جارية مع اسرائيل ، ونحن مستمرون فيها » . كانت الاشارة واضحة ، ويبدو انها فهمت ايضاً في موسكو .

بعد سلسلة من الاحداث المشوبة بالتوتر ، تقرر في واشنطن تزويد اسرائيل بالطائرات ايضاً . وفي محادثة اجراها كيسنجر مع السفير دوبرينين ، حاول التوصل الى تفاهم مع الروس إزاء زيادة سباق التسلح ووقف القتال . ولكن محدثه الروسي كرر الزعم بانه لا يجوز وقف القتال ، إلا بشرط تعهد اسرائيل بالانسحاب الى حدود حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وقد وجه السفير السوفياتي في معرض رده ، تهديداً مقنعاً بشأن التدخل السوفياتي المباشر . وقد حذر كيسنجر دوبرينين على الفور ، ان مثل هذه الخطوة لا بد ان تؤدي الى مواجهة مع الولايات المتحدة .

اجتمع كيسنجر بعد ذلك مباشرة مع آبا ايبن . وقد طرح كيسنجر قضية وقف اطلاق النار ، بينما كان آبا ايبن يطلب تزويد اسرائيل بالطائرات . وقال كيسنجر ان الولايات المتحدة ستحترم التزاماتها نحو اسرائيل ، ولكن نظراً الى ان المعارك تستمر خلافاً لما كان متوقعاً ، على اسرائيل ان توافق مبدئياً على وقف القتال ، مقابل تجديد مواردها العسكرية التي نضبت .

في اليوم ذاته كانت القوات الاسرائيلية في الجولان قد تقدمت الى ما وراء خط وقف القتال ، في طريقها باتجاه دمشق ، ولكن في سيناء كان الجيشان المصريان الثاني والثالث لا يزالان موجودين في القطاع الشرقي من القناة بأسره . ونتيجة ذلك ، وفي اعقاب

المحادثة التي اجراها آبا ايبن مع كيسنجر ، اصدر الرئيس نيكسون قراراً بارسال طائرات « فانتوم » الى اسرائيل ، وكذلك معدات حديثة في قطار جوي . وفي اليوم التالي ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، هبطت في اسرائيل اول طائرة « غلاكسي » احضرت معها معدات عسكرية ثقيلة .

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ القطار الجوي المكثف الذي لم تعرف اسرائيل مثيلاً له في تاريخها .

وفي ليلة الاثنين ، ١٥ تشرين الاول (اكتوبر)، عبرت قوة مظليين اسرائيلية قناة السويس . وهكذا قضي على المخطط السوفياتي ، الذي جرى الحديث عنه علانية قبل ذلك بيوم فقط ، بشأن اعادة فتح القناة التي كانت ، منذ اندلاع الحرب ، باسرها في ايدي القوات المصرية .

وفي يوم الاربعاء ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) فقط ، اتضح للمصريين ان انجازهم العسكري اصبح موضع شك . فقد احتلت القوة الاسرائيلية العاملة التي عبرت القناة ، رأس جسر اخطر مما اعتقد في البداية . وكان اليكسي كوسيغين ، رئيس حكومة الاتحاد السوفياتي ، موجوداً في القاهرة منذ ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، بهدف الاطلاع على حقيقة الوضع العسكري . فقد توصل كوسيغين الى استنتاج ان وضع الجيش المصري العسكري يزداد خطورة . ونتيجة ذلك اجتمع السفير الروسي دوبرينين بكيسنجر يوم ١٨ من الشهر . بيد ان الروسي ارتكب غلطة تكتيكية خطرة عندما طالب بوقف القتال مرة اخرى ، وخصوصاً الانسحاب الاسرائيلي التدريجي من جميع المناطق . وقد اجاب كيسنجر بالنفي فقال لدوبرينين : « يجب عدم ربط قضية وقف القتال بالانسحاب » . وقد نقل رده الى كوسيغين فوراً ، الذي كان لا يزال في القاهرة . وفي جلسة طارئة عقدت في الكرملين يوم الجمعة ، ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، تقرر ان هناك ضرورة لعمل فوري لانقاذ مصر . وفي اليوم ذاته استخدم « الخط الاحمر » اول مرة . وفي ساعات الظهر تلقى البيت الابيض رسالة موجهة الى الرئيس نيكسون ، وموقعة من ليونيد بريجنيف ، يهدد فيها بان الاتحاد السوفياتي يواجه اتخاذ قرار « لا تراجع عنه » . وطلب ان يحضر كيسنجر الى موسكو فوراً .

وفي نهاية مشاورات قصيرة ، مع فريق مقلص في البيت الابيض ، قرر نيكسون الاستجابة لاقتراح بريجنيف بإرسال وزير الخارجية الى موسكو.

قبل سفر كيسنجر الى موسكو بساعتين ، اتصل هاتفياً مع آبا ايبن ، الذي كان موجوداً في نيويورك ، وعلى وشك السفر عائداً الى اسرائيل . ولم يكن آبا ايبن يعرف

شيئاً عن سفر كيسنجر الى موسكو . فقد اكتفى كيسنجر بإشارة الى آبا ايبن بأن « امراً مهماً يجري » ، بيد انه رفض تفصيل المقصود بذلك هاتفياً .

هذا ما حدث ، فقد سافر وزير الخارجية الاسرائيلي ، في رحلة ال ـ عال الجوية من نيويورك الى اسرائيل ، دون ان يعرف شيئاً عن سفر زميله الاميركي الى موسكو في اليوم نفسه . وعند هبوط طائرته في مطار اورلي ، بالقرب من باريس ، استقبل آبا ايبن موظف في السفارة الاسرائيلية طلب من الوزير ايضاح ما يعرفه عن سفر كيسنجر الى موسكو. قال آبا ايبن المفاجأ : « لم يسافر الى موسكو ، فقد كنت اتحدث معه قبل بضع ساعات فقط » . ولكن عندما ادرك انه ضلل ، اتصل آبا ايبن فوراً هاتفياً مع دنيتس في واشنطن ، وهذا اكد له ان كيسنجر ابلغه حقاً بسفره . ولكن دنيتس ايضاً لم يكن يعرف بتفاصيل مضمون السفر وهدفه .

منذ هذه اللحظة ، ابقيت اسرائيل ، في الواقع ، خارج الصورة ، حيث كان ممثلوها يتسلمون التقارير فقط ، حول القرارات الحاسمة التي اتخذت دونهم . ان مزاعم سمحا دنيتس سفير اسرائيل في واشنطن ، بعد نحو شهر من الحرب ، وكأن اسرائيل كانت تعرف سلفاً بالاجراءات التي سبقت وقف القتال ، وحتى انها اشتركت في مفاوضات الاتفاق ، لا تتمشى مع الحقائق .

وصل كيسنجر الى موسكو في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر). واستمرت محادثاته مع قادة الاتحاد السوفياتي يومين . وفي نهاية عشر ساعات من المناقشات توصل كيسنجر وبريجنيف الى اتفاق لوقف القتال مكون من ثلاثة بنود . وفي اليوم التالي ، اصبح هذا الاتفاق قرار مجلس الامن ٣٣٨ . واضطرت اسرائيل الى « ابتلاع الضفدع » .

وفي واشنطن استدعى الجنرال الكسندر هيغ ، مستشار نيكسون ، السفير دنيتس . قال له هيغ : « ها هو الاتفاق » . ادرك دنيتس ان صيغة الاتفاق غير قابلة للنقاش ، وان هذه هي الصيغة التي سيوافق عليها مجلس الامن كوثيقة ملزمة . قدمت الولايات المتحدة الى اسرائيل « اقتراحاً من المستحيل رفضه » . وقام دنيتس بإبلاغ مضمون الاتفاق الى القدس برقياً . واتصل ايضاً هاتفياً بالسيدة مئير . وعندما تلقت القدس محادثة دنيتس ، كان الوقت فيها متأخراً . لقد طلبت السيدة مئير عقد جلسة فورية للحكومة . وقد تركز النقاش الصاخب بين وزراء حكومتها حول نقطتين : الشكل والمضمون . لماذا هذا التسرع الذي يحمل طابع الاملاء ؟ هل بالامكان الموافقة على وقف القتال بينما المصريون لا يزالون موجودين في الجانب الشرقي من القناة ؟ .

في الساعة ١,٠٠ بعد منتصف الليل ، وبينما كانت الحكومة لا تزال تواصل النقاش ، تلقى مكتب رئيسة الحكومة رسالة من الرئيس نيكسون ، طلب فيها من رئيسة

حكومة اسرائيل قبول اتفاق وقف القتال ، كما سيقدم في اليوم التالي الى مجلس الامن . وقد ذكر نيكسون في رسالته « الحرب الرائعة التي خاضها جنود اسرائيل » ، واشار الى ان اتفاق وقف القتال يلائم حروب اسرائيل . وقد ذكر قرار مجلس الامن ٢٤٢ بصورة غامضة دون تفسيرات . كما ذكرت ، اول مرة ، موافقة الروس على مفاوضات السلام بين اسرائيل والعرب . وقد اكد الرئيس ان ارسال المعدات العسكرية سيبقى مستمراً بعد وقف القتال ايضاً ، بموجب ما تم الاتفاق عليه بين القدس وواشنطن .

قررت حكومة اسرائيل ، في الليلة ذاتها ، الموافقة على وقف القتال ، من خلال التأكيد ان الامر تم كـ « استجابة لمطلب حكومة الولايات المتحدة » . ولكي لا تبدو موافقتها وكأنها قبول املاء ، ولكي تخلق انطباع التعادل مع زيارة كوسيغين الثانية للقاهرة، طلبت رئيسة الحكومة ان يصدر الرئيس نيكسون تعليماتـه الى كيسنجر للحضور الى اسرائيل من اجل النقاش النهائي حول موضوع وقف القتال . وقد استجاب الرئيس لطلبها .

ان وقف القتال ، الذي قرره مجلس الامن في صباح اليوم نفسه ، والذي اصبح القرار رقم ٣٣٨ الصادر عنه ، كان من المفروض ان يصبح نافذ المفعول في اليوم نفسه ، ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، في الساعة ١٨,٤٥ بحسب توقيت اسرائيل .

خلال ساعات الظهر ، من ذلك اليوم ، هبطت طائرة كيسنجر في اسرائيل . واجتمع برئيسة الحكومة على انفراد ، دون آبا ايبن ، وزير الخارجية ، ثم اجتمع بعد ذلك بعدة وزراء بينهم السادة آبا ايبن ، ودايان ، وآلون ، واطلعهم على محادثاته في موسكو. طلبت غولدا مئير معرفة ما اذا تم الاتفاق هناك على اتفاقات سرية ، فاجابها كيسنجر : « قطعاً لا ، فالذي تشاهدينه امام عينيك ، هو كل شيء » . ولكن اتضح في وقت لاحق ان كيسنجر لم يقل الحقيقة كلها . فخلال محادثاته في موسكو تم الاتفاق على اجتماع قريب لمؤتمر السلام ، يتقرر فيه انسحاب اسرائيل من سيناء بأسرها على مراحل . ولم يقل كيسنجر اي شيء عن هذا خلال اجتماعاته بوزراء حكومة اسرائيل .

قبل نحو ساعتين من موعد بدء مفعول وقف القتال ، طار هنري كيسنجر عائداً الى واشنطن . ولكن المعارك استمرت في اليوم الثاني ، ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) . فعندما يئس المصريون ، حاولوا تثبيت خطوطهم في القطاع الجنوبي من قناة السويس ، واطلقوا النار على قوات الجيش الاسرائيلي ، فاستغلت الاخيرة قيام المصريين بخرق وقف القتال ، وواصلت ضغطها وتقدمها في الضفة الغربية ، الى اعماق مصر . فقد وصلت حتى شاطىء خليج السويس ، الى ميناء النفط ، الادبية ، وكذلك الى مشارف مدينة السويس . وبهذه العملية حاصرت المدينة حصاراً تاماً ، وقطعت الجيش المصري الثالث عن مصادر الامدادات الخلفية . وفي ذروة المعارك في مساء الثلاثاء ، تلقت رئيسة

الحكومة محادثة هاتفية غاضبة من هنري كيسنجر . قال لها كيسنجر : « سيدتي رئيسة الحكومة ، يجب عليكم وقف المعارك فوراً . لقد التزمت امام الروس ان يبدأ وقف القتال في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) » .

بعد مضي بضع ساعات ، توقفت المعارك وساد وقف قتال كامل تقريباً على امتداد الخطوط في الجبهتين . في اليوم الثاني ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، نشبت أزمة لا تزال تفاصيلها الدقيقة وابعادها محاطة بالغموض حتى هذا اليوم .

في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) ، وفي ساعات الظهر ، طلب الرئيس السادات في رسالة شخصية الى بريجنيف ، ارسال قوة سوفياتية تساعده على فك الحصار عن الجيش الثالث المطوق .

جرت في الكرملين مشاورات واسعة لتقويم الموقف الجديد . فقد قدر الروس ان نظام السادات قد ينهار ، في حال القضاء على الجيش الثالث . ولكن كانت في يد الروس ورقة مساومة قوية : التزام هنري كيسنجر بضمان وقف القتال في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) . ولهذا السبب قرر الروس اللعب بورقة الضغط هذه ، التي كانت محسوبة ومخططاً لها جيداً . بعث بريجنيف برسالة الى الرئيس نيكسون . وخلافاً لما هو متبع في حالات الازمة الواضحة ، لم يرسلها عن طريق « الخط الاحمر » ، بل نقلها بواسطة السفير دوبرينين الذي سلمها الى كيسنجر في ساعات المساء . وكانت الرسالة تحتوي على اقتراح « بناء » ، وقال بريجنيف : « نظراً الى انه تم خرق وقف القتال ، يجب ارسال قوات روسية واميركية الى الشرق الاوسط لكي تضمن احترام وقف القتال » . واضاف بريجنيف : « اذا كانت الولايات المتحدة لا ترغب في التعاون ، فسيدرس الاتحاد السوفياتي امكان التصرف لوحده وبحسب ما يرى » . وقال بريجنيف في الرسالة : « اقول بصراحة ، انه اذا كنتم لا ترون امكاناً للتعاون معنا في هذا الشأن ، فسنضطر الى النظر بسرعة في مسألة اتخاذ التدابير الملائمة من جانب واحد » . كان التهديد الذي تنطوي عليه هذه الرسالة واضحاً .

احضر كيسنجر الرسالة الى نيكسون ، وبعد التشاور بينهما تقرر رفض المطلب الروسي فوراً . في الساعة ٢٣,٠٠ سلم السفير دوبرينين رسالة جوابية اميركية . وقد كتب الرئيس نيكسون في رسالته ، انه ينبغي على الدول العظمى تجنب اوضاع قد تؤدي الى مواجهة شاملة بينها . ولذا ترفض الولايات المتحدة ارسال قوات روسية واميركية الى الشرق الاوسط ، وستعارض ارسال مثل هذه القوات من طرف واحد . صيغت هذه الرسالة بلهجة متشددة ولكنها مهذبة . بعد تسليمها مباشرة ، اجتمع مجلس الامن القومي في

البيت الابيض ، برئاسة كيسنجر ، وبحضور جيمس شليزنجز ، وزير الدفاع ، ووليم كولبي ، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية ، والادميرال توماس مورر ، رئيس اركان القوات المسلحة . استمرت الجلسة اكثر من ٣ ساعات . وقد اكد تقدير الاستخبارات ، الذي جرى خلال سير الجلسة ، ان وحدات سوفياتية مجوقلة وضعت في حالة تأهب ، وان تجهيزات الطائرات الروسية في الشرق الاوسط عززت ، ووضعت في حالة استخدام فوري . ولهذا اعتقد اعضاء المجلس ان الاتحاد السوفياتي في وضع يمكنه من التدخل العسكري من طرف واحد . قال الرئيس نيكسون : « كانت هذه اخطر ازمة واجهناها منذ المواجهة الكوبية في سنة ١٩٦٢ » .

وافق المجلس على قرار الرئيس الخاص بوضع الوحدات الاميركية ، في القواعد الموجودة حول العالم ، في حالة استنفار . وقد خوّل الرئيس نيكسون ، هنري كيسنجر ، اعلان حالة الاستنفار في جميع قواعد الجيش الاميركي . وعندما شاع هذا في انحاء العالم ، تولد خوف من احتمال المواجهة بين الدولتين العظميين . وقد بدا الاعلان عن حالة الاستنفار ، دون التشاور مع شريكات الولايات المتحدة في الحلف الاطلسي ، حالة طوارىء على حافة الانفجار الفوري .

بعد اعلان الاستنفار فوراً اتصل كيسنجر بالسفير سمحا دنيتس لكي يطلعه على التطورات الاخيرة . ويبدو ان كيسنجر تعمّد المبالغة في وصف التهديد السوفياتي في التقديرات التي ابلغها الى اسرائيل . وهكذا اعتقدت ، على اي حال ، الاجهزة الاعلامية الاميركية بعد وقت قصير من ذلك .

في يوم الجمعة ، ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، اجرى كيسنجر اتصالات مع القائم بالاعمال المصري في واشنطن، ومع السفير دوبرينين . ويبدو انه تم الاتفاق ، في تلك المحادثة ، بين دوبرينين وكيسنجر ، على « تخفيض التوتر » والتخفيف من حدة الازمة . فالروس ، الذين فوجئوا بشدة الرد الاميركي ، رغبوا هم ايضاً في خفض لهجتهم ، لكي يتجنبوا مواجهة لم يكونوا معنيين بها .

منذ تلك اللحظة ادرك المصريون ان مستقبل الجيش الثالث ، في الحقيقة ، في أيدي الاميركيين . وقد وعد كيسنجر في محادثاته مع الممثل المصري ، بانه سيعمل كل ما في وسعه لكي يضمن استمرار بقاء الجيش الثالث .

وفي يوم الجمعة (نحو منتصف الليل بحسب توقيت اسرائيل) تحدث كيسنجر هاتفياً مع السيدة مئير ، وطلب منها ، بصورة لا تقبل التأويل ، السماح بنقل الامدادات الى الجيش الثالث المحاصر ، والبدء فوراً باتصالات مع ممثلي الجيش المصري ، بهدف تسوية جميع المشكلات التي ثارت حول المحافظة على وقف القتال .

كانت هذه المكالمة الهاتفية منفعلة وصاخبة . اشترطت غولدا مئير مقابل امداد الجيش الثالث ، موافقة مصر على تبادل الاسرى . ان قضية تبادل الاسرى هذه ، التي هي حساسة جداً في اسرائيل ، لم يتم ذكرها في وثيقة مجلس الامن التي نادت بوقف القتال . بيد ان كيسنجر وعد خلال زيارته لاسرائيل ، في طريق عودته من موسكو ، ان يتم تبادل الاسرى خلال ٧٢ ساعة من لحظة الاتفاق على وقف القتال . وطلبت السيدة مئير الآن الوفاء بهذا الوعد . بيد ان كيسنجر ضغط من اجل حل مشكلة حصار الجيش الثالث اولاً وقبل كل شيء . وعندما ظهر ان السيدة مئير تصر على مطلبها ، انفجر كيسنجر غاضباً : « سيدتي ، انت تلعبين بمستقبل شعبك » .

واضاف كيسنجر يقول في تلك المحادثة : « هل تفضلين ان ترسل الامدادات الى الجيش الثالث بالطوافات الروسية » ؟

وافقت حكومة اسرائيل دون خيار على السماح بنقل الامدادات للجيش الثالث المحاصر ، بيد ان دايان طلب ان يتم الاتفاق على ذلك في اجتماع بين ضباط اسرائيليين ومصريين ، تجاه الخارج على الاقل . وافق كيسنجر على هذه الفكرة ، وفي اليوم التالي ، يوم السبت ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، في الساعة ١,٣٠ بعد منتصف الليل ، (بتوقيت اسرائيل) عقد اول اجتماع بين ضباط اسرائيليين ومصريين في الكيلومتر ١٠٥ ، على طريق السويس القاهرة . هذا الاجتماع ، الذي نظمه ، على عجل الجنرال سيلاسفو ، قائد قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة ، بناءً على طلب كيسنجر — عقد في خيمة أقيمت على بعد نحو ٤ كيلومترات من خط وقف القتال ، داخل الاراضي التي تحتفظ بها اسرائيل .

وصل الجنرال المصري محمد الجمصي — الرجل الثالث في سلم الرتب العسكرية المصرية — والذي عين قائداً لجبهة السويس (التي ضمت الجيشين الثاني والثالث) ، الى الخيمة بسيارة جيب مصرية ، يرافقه ضابط من الامم المتحدة ، وضابط اسرائيلي . ومثل اسرائيل في هذا الاجتماع الجنرال اهرون ياريف ، رئيس الاستخبارات العسكرية سابقاً والمستشار الخاص لرئيسة الحكومة لشؤون الامن لاحقاً . ان مجرد عقد مثل هذا الاجتماع في ساعة متأخرة ١,٣٠ بعد منتصف الليل (بحسب توقيت اسرائيل) اكد شدة الضغط الذي مارسه هنري كيسنجر لتحريك الامور . وبالقرب من نقطة التفتيش في الكيلومتر ١٠١ ، على طريق السويس القاهرة — التي كانت نقطة الحدود بين القوات الاسرائيلية والمصرية — كانت تقف عشرات الشاحنات محملة بالاغذية والمياه (وخصوصاً المياه) تنتظر « الضوء الاخضر » لكي تتجه الى مدينة السويس ، والى الجيش الثالث المحاصر .

ان الجلسة بين الجنرال ياريف والجنرال الجمصي ، بدأت باردة ، ثم ازدادت حرارتها عندما أخذ الفريقان يبحثان التفاصيل العملية التي كانت على جدول الاعمال . تلقى

الضابطان المصريان ، اللذان جاءا بلباس صيفي وشعرا بالبرد ، من مضيفيهما معطفين عسكريين اسرائيليين ، وقال احد الذين كانوا حاضرين في ذلك الاجتماع بعد ذلك انه « كان من الصعب التمييز بين الاسرائيليين والمصريين ... » .

كان اول موضوع تم الاتفاق عليه ، في تلك الليلة ، هو انتقال قافلة الامدادات الى الجيش الثالث . وبعد ذلك ببضع ساعات اخذت اول ثلاثين شاحنة مصرية تتجه نحو مدينة السويس . ظل كيسنجر يتابع التطورات باهتمام بالغ . فقد تلقى تقارير متواصلة حول تقدم محادثات الكيلومتر ١٠٥ من مصادر الامم المتحدة ، ومن السفير الاسرائيلي ، ومن القائم بالاعمال المصري .

وفي يوم الاحد ، ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ، عقدت حكومة اسرائيل جلستها الاسبوعية العادية . وتم الاتفاق في هذه الجلسة ، وفي ضوء المناقشات التي جرت في الليلة السابقة عند الكيلومتر ١٠٥ ، على ان تسمح اسرائيل بانتقال الشاحنات الى الجيش الثالث بصورة دائمة ، ودون ان تنفذ اية تسوية اخرى ، الى ان يسلم المصريون قائمة بجميع الاسرى الاسرائيليين . خلال المحادثة التي اجراهـا ، في ذلك اليوم ، السفير سمحا دنيتس مع كيسنجر ، عرض دنيتس موقف حكومة اسرائيل من عدم تقديم المزيد من التنازلات ، قبل ان يثبت استعداد المصريين لتنفيذ بند تبادل الاسرى . كان كيسنجر متشدداً جداً برأيه ان على اسرائيل ان تكون مستعدة للتنازلات من اجل المحافظة على وقف القتال . وخلال اليومين الاخيرين مارس ضغطاً شديداً على حكومة اسرائيل في هذا الاتجاه . ظهر جوزيف سيسكو ، مساعد كيسنجر ، قبل ذلك بيوم ، امام اللجنـة الخارجية التابعة لمجلس النواب الاميركي ، في جلسة مغلقة حول تفاصيل مهمته . قال سيسكو في هذه الجلسة ، ان الحرب الحالية اثبتت اعتماد اسرائيل المطلق على الولايات المتحدة . كان استنتاج سيسكو هو ان الولايات المتحدة تستطيع الآن ممارسة ضغوط اكبر على اسرائيل ، وحملها على القبول بالتسوية .

ان هذه الاوضاع ، التي بدا فيها لحكومة اسرائيل ان ضغط كيسنجر آخذ في الازدياد ، وانه من المتوقع حدوث مواجهة مع الادارة الاميركية ، أدت الى قرار السيدة مئير بالسفر فوراً الى واشنطن ، للاجتماع بالرئيس نيكسون . وكان يسود اسرائيل ايمان شبه خرافي بكفاءة السيدة مئير على تدبر الامور في محادثة مباشرة مع الرئيس نيكسون . وقد تولدت ، خلال السنوات الاخيرة ، صيغة دائمة في علاقات اسرائيـل بالولايات المتحدة . وبحسب هذه الصيغة ، كانت اسرائيل تقبل ، في مرحلة اولى ، المبادرة السياسية الاميركية (وقف القتال، مهمة يارينغ ، التسوية الجزئية ، محادثات الجوار ، الخ) ، ثم تضع عراقيل خلال سير المفاوضات . اسرائيل تصر على موقفها ، الولايات المتحدة تتوقف ، تعرقل او تؤجل شحنات الاسلحة والمعدات ، وفي اية مرحلة من هذه العملية

تسافر غولدا مئير للاجتماع بنيكسون ، ثم تستأنف شحنات الاسلحة وهكذا دواليك . دائرة مفرغة .

على الرغم من انه ، في معظم الحالات ، لم تكن هناك ضرورة لسفر السيدة مئير من اجل الوصول الى المرحلة التالية ، فان اجتماعاتها بالرئيس نيكسون ساهمت في خلق الخرافة التي بموجبها كانت الشخصية الوحيدة في اسرائيل التي بمقدورها التأثير في ادارة نيكسون .

ان ما سمي في اسرائيل باسلوب « مكبس » كيسنجر اثار لدى غولدا مئير قلقاً شديداً . وقال بعض اصحاب الروح المرحة ، ممن بقوا في وزارة الخارجية ، انه تولد وضع صعب ، في ضوء حقيقة ان الولايات المتحدة تريد التحرر من تعلقها باسرائيل .

في اليوم الثاني ، ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، وصل الرد الايجابي من واشنطن . ان الرئيس نيكسون سيكون سعيداً بالاجتماع بالسيدة مئير ، وبالبحث معها في المشكلات المختلفة المطروحة . ولم ير كيسنجر اي سبب لمعارضة زيارة السيدة مئير . وفي ضوء تقدم الاتصالات التي اجراها ، خلال الايام الاخيرة ، مع المصريين ، وفي ضوء موافقة المصريين على ارسال اسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصري الجديد ، الى واشنطن ، لاجراء محادثات ، بدت لكيسنجر الزيارة الموازية للسيدة مئير وكأنها تستهدف المحافظة على التوازن ، والحيلولة دون اشتداد الاحساس الاسرائيلي كأنما الولايات المتحدة تريد « ان تبيع » اسرائيل .

في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر)، سافرت رئيسة الحكومة الى نيويورك . وانضم اليها افراد حاشيتها الدائمين : لوكيدار سكرتيرتها ، العقيد ليئور ، سكرتيرها العسكري ، موردخاي غازيت ، مدير عام مكتبها ، والجنرال ياريف . وقد تغيب عن هذه الحاشية ، بصورة تظاهرية جداً ، آبا ايبن وزير الخارجية . برز تغيبه بصورة خاصة ، في ضوء الحقيقة انه حدث ، خلال الاسابيع الاخيرة ، المزيـد من الفتور في علاقات رئيسة الحكومة بوزير خارجيتها . فقد فقدت وزارة الخارجية ما تبقى لها من سيطرة قليلة على ادارة الشؤون الخارجيـة . ففي المحادثات التي جرت في الكيلومتر ١٠١ ، بين ممثلين اسرائيليين ومصريين ، ضم المصريون الى وفدهم ممثلين عن وزارة الخارجية المصرية ، بينما عارضت رئيسة حكومة اسرائيل ، ووزير دفاعها دايان ، ضم ممثلي وزارة الخارجية الاسرائيلية الى الوفد بشدة . على هذا الاساس برزت بصورة خاصة حقيقة ان السيدة مئير ضمت اليها ، في سفرها الى الولايات المتحدة ، الجنرال اهرون ياريف وليس وزير الخارجية آبا ايبن .

في الوقت الذي كانت السيدة مئير في طريقها الى نيويورك ، قام هنري كيسنجر بعقد اجتماعه الثاني باسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصري . واوضح كيسنجر في

هذا اللقاء موقف الولايات المتحدة إزاء ثلاث نقاط : تؤيد الولايات المتحـدة اجراء محادثات سلمية بصورة مستعجلة ، وتعارض كل وضع يعرض الجيش الثالث للخطر . وبالنسبة الى النقطة الاساسية ، اي موقف الولايات المتحدة من التسوية في الشرق الاوسط ، اوضح كيسنجر لفهمي ان موقفه يتماثل مبدئياً مع « مشروع روجرز » منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٩ . (وبموجب هذا المشروع طلب من اسرائيل الانسحاب من جميع المناطق التي احتلتها في حزيران - يونيو - ١٩٦٧ تقريباً) . ويبدو ان المصريين كانوا مهتمين بصورة خاصة بالتزام اميركي لعقد مؤتمر سلام في القريب يقرر فيه انسحاب اسرائيلي من سيناء . وكان يرافق اسماعيل فهمي ، عمر سري ، مدير دائرة المؤتمرات الدولية في وزارة الخارجية المصرية ، الذي كلف باعداد التفاصيل الفنية المتعلقة باشتراك مصر في المؤتمر . وكان المصريون متحمسين جداً لعقد المؤتمر بأسرع ما يمكن ، لكي يحولوا دون مماطلة متجددة وخلق جو يبقي على الوضع الراهن .

ان الانباء الكاملة بشأن القوة الاسرائيلية غربي قناة السويس ، التي وصلت الى القاهرة ، بتأخير بضعة ايام ، سببت قلقاً شديداً هناك . كما ان محاصرة الجيش الثالث ومدينة السويس خلقت جواً من الكآبة خيم على القـاهرة . وللمرة الاولى ، منذ تولي السادات الحكم ، تولد في القاهرة مناخ سلطة بديلة . فقـادة الجيش ، وعلى رأسهم الشاذلي والجمصي ، اصبحوا اليوم ابطالاً ، وحظوا بشعبية كبيرة بصورة مفاجئة ، جعلت منهم بديلاً فعلياً لحكم السادات — في حال اتضاح انه لن ينجح في مناورته .

تولد مناخ ثوري فعلاً . فمدينة السويس ، الثالثة باهميتها في مصر بعد القاهرة والاسكندرية ، ترمز في نظر المصريين الى سيادتهم واستقلالهم . والخبر المزعوم بشأن سقوطها اثار الجماهير . فقد اوشك طلبة ، وبعض اهالي المدن المتحمسين ، على البدء بمسيرة الى المدينة ، حتى دون سلاح ، لكي يظهروا استعدادهم لتحريرها ولو دفعوا حياتهم ثمناً لذلك . وقد تولد لدى القيادة المصرية خوف من ان توجه حماسة الجماهير المتطرفة هذه نحو الرئيس . وكان رفع الحصار عن المدينة ، المهمة الأولى بالنسبة الى الساسة المصريين .

التزم كيسنجر ، خلال محادثاته مع فهمي ، وزير الخارجية المصري ، بالضغط من اجل عقد المؤتمر في جنيف ، او في نيويورك ، بأسرع وقت ممكن . وقد طرحت للمرة الاولى خلال تلك المحادثات مشكلة الموعد — منتصف كانون الاول (ديسمبر) . بيد انه اتضح في المحادثات التي بدأها كيسنجر في اليوم التالي ، يوم الخميس ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ، مع السيدة مئير ، قبل اجتماعها الاول بالرئيس نيكسون ، ان عليه ان يحل اولاً ، وقبل كل شيء ، مشكلات عملية مرتبطة بالمحافظة على وقف القتال . فقد اصبحت قضية الممر للوصول الى الجيش الثالث ، وتبادل الاسرى ، ورفع الحصار

عن باب المندب ، ومشكلة فصل القوات المصرية والاسرائيلية ، شرطاً اولياً لخلق جو يتيح انعقاد مؤتمر السلام .

ان كيسنجر الذي حاول ، بحسب اسلوبه ، الركض بسرعة من اجل تسوية مشكلات بصيغ عامة تقبل تفسيرات مختلفة ، وجد نفسه في مواجهة صريحة مع السيدة مئير .

لقد وصل الجو المتوتر الى ذروته في حفل العشاء الذي أُقيم يوم الخميس ، ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ، في منزل سمحا دنيتس ، السفير الاسرائيلي في واشنطن . ففي هذا اللقاء الذي أُعد لكي يكون حديثاً حراً في جو « منزلي » ، حاولت السيـدة مئير ان تشرح لكيسنجر ، مشكلة كيان دولة اسرائيل ، بأُسلوب « ام يهودية » صالحة . وقالت السيدة مئير بلهجة أم : « انت ، يا سيد كيسنجر ، الذي ولدت في مدينة فير ، ليس بعيداً عن افران الغاز في داكاو ، حيث تم هناك إفناء الملايين من أبناء شعبنا ، عليك ان تدرك جيداً مشكلة وجود شعب اسرائيل وقلقه من مشكلات الامن » . (بدا ان السيدة مئير لم تنس بعد ما قاله كيسنجر خلال احدى المكالمات الهاتفية التي اجراها معها ، عندما قال لها انك تلعبين بمستقبل الشعب الاسرائيلي) . قاطع كيسنجر السيدة مئير . وقال لها بلهجة جافة ، وبلكنة المانية : « سيدتي رئيسة الحكومة ، اننا لا نبحث هنا في المعتقدات الدينية . اننا نبحث عن بدائل عملية لحل مشكلات » .

وقعت هذه الكلمات كالاحجار الثقيلة ، وساد الغرفة جو غير مريح . وحاول السفير دنيتس ان يحول المحادثة الى آفاق اخرى . وفي نهاية تلك الامسية ، حاول الجميع ان يتظاهروا بابتسامات قسرية ، ويخفوا الانطباع المتجهم . ولكن هذا الاحساس الصعب لم يتلاش .

قبل ذلك ببضع ساعات اجتمعت السيدة مئير بالرئيس نيكسون في الغرفة البيضوية في البيت الابيض .

بدأ هذا الاجتماع ، الذي حضره السفير دنيتس وكيسنجر ، بجو من الابتسامات والنكات الجوفاء .

طلبت السيدة مئير ، خلال محادثاتها مع نيكسون ، توضيح قلق اسرائيل بالنسبة الى موضوعات مختلفة . بيد ان الرئيس لم يكن في مزاج يتيح له الدخول في تفاصيل . فمشكلات ووترغيت جعلته يضيق ذرعاً ، واكد ثقته بمعالجة كيسنجر الحكيمة . اثارت السيدة مئير قضية تزويد اسرائيل بالاسلحة ، واقترح الرئيس عليها ان تجتمع بوزير الدفاع ، جيمس شليزنجر .

خلال المحادثات التي اجرتها السيدة مئير ، يوم الجمعة ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ، مع وزير الدفاع الاميركي ، قدمت له قائمة طويلة بمعدات عسكرية تريد اسرائيل

الحصول عليها من الولايات المتحدة. وبدا ان قيمة هذه المعدات العسكرية تساوي ٣ مليار دولار. (حتى ذلك الاجتماع كانت اسرائيل قد تلقت بواسطة القطار الجوي، معدات تساوي مليار دولار). اثارت السيدة مئير مشكلة وجود صواريخ ارض – ارض «سكاد» التي يمكن تزويدها برؤوس ذرية في مصر. وأُثير تخمين بأن الروس قد نقلوا خلال الحرب رؤوساً ذرية في سفنهم الى المنطقة، مع انه لم يكن واضحاً اذا بقيت في مصر حقاً.

ذكر شليزنجر ان هذه الامور ستبحث في اجتماعات خبراء، وستحدد بموجب المخصصات التي يعينها مجلس الشيوخ. وقال ان جزءاً كبيراً من المعدات، التي أُرسلت الى اسرائيل بالقطار الجوي، أُخرجت من مخازن الطوارىء لوحدات اميركية عاملة، وان الحاجة ستقضي في المرحلة الاولى، تعويض احتياطي هذه الوحدات.

اجتمعت السيدة مئير للمرة الثالثة بالدكتور كيسنجر، يوم الاحد، ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد ان وصلت توضيحات من الرئيس السادات، بواسطة اسماعيل فهمي، وزير الخارجية المصري في واشنطن. وكان موضوع المحادثات الاساسي هو الممر للجيش الثالث، الذي بقي اصعب موضوع في قرار اتفاق وقف القتال. وكان الهدف الاساسي والفوري لكيسنجر هو حمل الفرقاء على توقيع اتفاق للمحافظة على وقف القتال.

وعد كيسنجر السيدة مئير، خلال المحادثات التي اجراها معها، انه لن يطلب اعادة اسرائيل الى خطوط ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر)، بيد انه يصر على ان تسمح اسرائيل بعبور حر الى الجيش الثالث بواسطة ممر يقطع الاراضي التي تحتفظ بها اسرائيل.

وقد شرحت السيدة مئير، بمساعدة الجنرال اهرون ياريف، لكيسنجر انه من المستحيل السماح بان يقطع الممر الاراضي التي تحتفظ بها اسرائيل، لان القوات الاسرائيلية في الضفة الغربية ستبتر الى قسمين. ومن جهة اخرى، فان كل ممر لا تسيطر عليه اسرائيل سيمكن المصريين من نقل الذخيرة والصواريخ للجيش الثالث، وجعله عنصراً عسكرياً قادراً على التهديد بعزل القوة الاسرائيلية الموجودة غربي القناة. وقالت السيدة مئير: لا يجوز لنا ان نسمح للمصريين باحراز ميزة عسكرية تشجعهم على تجديد القتال، إلا بعد توقيع اتفاق فصل القوات.

لكن كيسنجر التزم، خلال محادثاته السابقة مع وزير الخارجية المصري، بالسماح للجيش المصري بإقامة ممر دائم الى مدينة السويس والجيش الثالث. إلا ان حجج السيدة مئير الزمت كيسنجر بالقيام بمناورة كلامية، فقد وعد المصريين بممر حر الى الجيش الثالث على طريق السويس القاهرة، وفي الوقت ذاته وعد السيدة مئير انه بامكان الجيش الاسرائيلي مواصلة السيطرة على طريق السويس القاهرة. كيف كان بالامكان حل هذه المشكلة غير القابلة للحل؟ ان كيسنجر وحده هو الذي كان يعرف الجواب.

بعد جولة ثالثة من المحادثات، في واشنطن، مع وزير الخارجية المصري، ومع السيدة مئير، سافر كيسنجر الى مراكش يوم الاثنين ٥ تشرين الثاني (نوفمبر)، ثم واصل سفره الى القاهرة يوم الثلاثاء ٦ تشرين الثاني (نوفمبر). وقد استقبل في القاهرة استقبال الملوك. واجرى له السادات استقبالاً حاراً في قصره، وبدأت المحادثات في جو جيد. وقال كيسنجر المتشكك لصحافي اميركي كان يرافقه: «ان الجو جيد أكثر من اللازم في رأيي» وخلال بضع ساعات سقطت «القنبلة» الاولى. اقترح السادات على كيسنجر المفاجأ استئناف العلاقات الدبلوماسية فوراً، فوافق كيسنجر وخرجا الى الصحافيين وابلغاهم باستئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة – تلك العلاقات التي قطعت في حزيران (يونيو) ١٩٦٧، اثر حرب الايام الستة. وقد ناور السادات بخطواته بحكمة فائقة. لم يشأ تكرار اخطاء عبد الناصر. فالمناورة المصرية تسهل عندما تفتح الابواب الى موسكو وواشنطن على السواء. وقال السادات لمستشاريه بعد البيان الرسمي حول استئناف العلاقات: «اعدنا لانفسنا مكانتنا غير المنحازة».

بيد ان السادات كان بحاجة الى اكثر من ذلك. فقد كان وضع مصر الاقتصادي صعباً جداً، اذ اخذت اسعار الخبز والارز والشاي والسكر ترتفع الى الذروة، واخذ الوضع الاقتصادي لجماهير الشعب يزداد تفاقماً. وكانت مئات اللاجئين من منطقة القناة لا تزال تتظاهر في شوارع المدن وتهتف: «الموت في السويس، الموت في السويس». وفي حقل بالقرب من نادي الغولف الفاخر، في منطقة الجزيرة، كان يتدرب الفتيان من لاجئي منطقة السويس (الذين تم اخلاؤهم خلال فترة حرب الاستنزاف قبل ١٩٧٠) على الاسلحة الخفيفة. قال احد كبار الضباط المصريين وهو يشرح ذلك الى احد افراد حاشية كيسنجر: «اننا لا ننوي تحويلهم الى جنود، ولكن علينا ان نشغلهم، لكي لا يسببوا مشاكل». وعد كيسنجر السادات، خلال المحادثات التي اجراها هو وسيسكو معه ومع مساعديه، في مكتبه في قصر الرئاسة في القاهرة صباح يوم الاربعاء ٧ تشرين الثاني (نوفمبر)، في امرين: الاول، القيام بنشاط متواصل من اجل التسوية، والثاني، العمل من اجل افتتاح مؤتمر السلام في اسرع وقت. اقترح كيسنجر ان يعقد المؤتمر في جنيف في بداية كانون الاول (ديسمبر).

والامر الثاني الذي وعد به كيسنجر السادات هو العمل من اجل انسحاب اسرائيل من سيناء، بموجب مشروع روجرز، خلال سنة منذ يوم افتتاح مؤتمر السلام.

بعد الاتفاق المبدئي على طرق التسوية السلمية في الشرق الاوسط، لم يجد كيسنجر صعوبة في التوصل الى اتفاق مع السادات من ستة بنود للمحافظة على وقف القتال. ان وثيقة البنود الستة التي وافق عليها السادات، هي وثيقة نموذجية ينبغي تدريسها في جميع مدارس الدبلوماسيين ضمن اطار الدرس: «كيف يمكن التوصل الى اتفاق يقبل تفسيرات متناقضة دون جهد».

من اجل تلبية مطلب السادات الخاص بانسحاب اسرائيلي يقول البند ٢ : « ان القوات الاسرائيلية ستنسحب الى خطوط ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ضمن اتفاق بين الفريقين للفصل بين القوات » . اي أُتيح لاسرائيل ان تزعم (لكي تحول دون انسحاب من طرف واحد الى خطوط ٢٢ تشرين الاول – اكتوبر –). ان المقصود هو اتفاق متبادل للفصل بين القوات ، وبهذا يجب تعيين خطوط الفصل بالاتفاق . بيد انه من ناحية السادات كانت هذه ورقة قابلة للاستغلال من اجل ممارسة الضغط على اسرائيل لحملها على الانسحاب اولاً .

يقول البند ٥ ، ان نقاط الرقابة على طريق السويس – القاهرة ستنقل الى الامم المتحدة ، بيد انه لا يوجد في النص اي ذكر بشأن السيطرة على الطريق . كما ان الاتفاق لا يشمل اي ذكر لقضية حرية الملاحة في باب المندب ، التي اعتبرتها اسرائيل احد الموضوعات المهمة في اتفاق وقف القتال . كان هذا باختصار نص « على طريقة كيسنجر » .

تم التوصل الى الاتفاق في وقت الذروة . ان احداً من افراد حاشية كيسنجر لم يتوقع ان يتم احراز هذا المكسب بسرعة . طلب كيسنجر من سيسكو السفر الى اسرائيل في اليوم ذاته ، لكي يحصل على موافقة حكومتها على اتفاق البنود الستة . وكانوا في اسرائيل يتوقعون سيسكو في اليوم الذي يليه – الأحد . وقد بشرت برقية أُرسلت من القاهرة ، عن طريق واشنطن ، الى السفارة الاميركية في تل أبيب ، بمجيء سيسكو مساء ذلك اليوم . وقد قوبل الخبر بشأن زيارة سيسكو في اسرائيل بمفاجأة كبيرة . وسأل احد الوزراء : « أبهذه السرعة ؟ »

وصل سيسكو الى اسرائيل في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) مساءاً . وقد هبطت طائرته في مطار تل أبيب الداخلي الصغير ، وليس في مطار اللد الدولي . وخرج من هناك مباشرة . كما انه طار من المكان ذاته . وفي مساء اليوم نفسه عقد سيسكو اجتماعاً مطولاً مع رئيسة الحكومة السيدة مئير ، شارحاً لها أُسس التفاصيل التي تم الاتفاق عليها خلال محادثات كيسنجر – السادات . وسلم اتفاق البنود الستة الى السيدة مئير للمصادقة عليه . وذكر سيسكو انه ينتظر مصادقة حكومة اسرائيل لكي يطير بعد ذلك الى عمان ، ويجتمع هناك بكيسنجر ويبلغه بالمصادقة .

كان الشعور السائد في اسرائيل هو ان كيسنجر وضعها ، مرة اخرى ، امام الأمر الواقع في وضع حرج . وقد اجتمعت الحكومة في هذا الجو يوم الخميس ، ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ، في جلسة بحث فيها اعضاء الحكومة وثيقة البنود الستة ، وناقشوا كل واحد من البنود لمدة ٤ ساعات . وفي اجتماع آخر ، عقد بعد جلسة الحكومة بين غولدا مئير وسيسكو ، اوضح مساعد كيسنجر ان وثيقة البنود الستة هي وثيقة نهائية ولا مجال لتغييرها . وقال سيسكو « يجب قبولها كما هي كاملة » . وقالت غولدا بغضب انه من غير الممكن

الموافقة على هذه الوثيقة كما هي ، دون توضيحات صريحة للنقاط الغامضة فيها ، او الناقصة منها . وكان سيسكو مستعداً لنقل مطالب حكومة اسرائيل الى كيسنجر ، الذي كان قد وصل في تلك الاثناء الى الرياض في العربية السعودية ، بيد انه طلب ان تعلن اسرائيل في هذه الاثناء قبولها المبدئي لهذا الاتفاق .

ارادت الحكومة توضيح نقطتين : الاولى – مسألة رفع الحصار البحري عن باب المندب ، الثانية – مسألة السيطرة الاسرائيلية على طريق القاهرة – السويس .

بالنسبة الى باب المندب تطرقت السيدة مئير الى ما نشر في الصحف المصرية في اليوم السابق ، من ان حكومة مصر لم تلتزم برفع الحصار عن مضائق باب المندب . وبالنسبة الى السيطرة الاسرائيلية على قطاع طريق القاهرة – السويس طرحت مشكلات خلال الاجتماع الذي عقد صباح يوم الجمعة بين الجنرال ياريف والجنرال المصري الجمصي . قال الجمصي ان الطريق بأسره يجب ان يكون تحت سيطرة الامم المتحدة وليس نقطة رقابة كما جاء في الاتفاق .

ولكن السيدة مئير تلقت يوم السبت رسالة من هنري كيسنجر ، اوضح فيها ان الحصار على مضائق باب المندب لا يتمشى مع وقف القتال ، لذا فهو لاغ بصورة تلقائية ، لانه تم الاتفاق على وقف القتال جواً وبراً وبحراً . وبشأن الطريق اقر كيسنجر التفسير الاسرائيلي وطلب ان تقر حكومة اسرائيل الاتفاق فوراً لكي يكون بالامكان التوقيع عليه يوم الاحد . ألغت غولدا مئير جلسة الحكومة التي كانت مقررة عشية يوم السبت وقررت ، في ضوء اتفاق سابق في الحكومة ، الاستجابة لطلب كيسنجر .

وظهر يوم الاحد سافر الجنرال اهرون ياريف الى الكيلومتر ١٠١ للتوقيع على اتفاق البنود الستة ، الذي ينظم وقف القتال بين اسرائيل ومصر .

انتهت اول مرحلة من « مناورة كيسنجر » بعد حرب يوم الغفران .

قالوا في واشنطن : « فعل هنري ذلك مرة اخرى » .

وهذا ما حدث . وفي اعقاب الحرب ضعفت مكانة اسرائيل على الصعيد الدولي ، بصورة تكاد تنطوي على كارثة . فاسرائيل تكاد تكون معزولة اليوم تماماً ، وقد تقوضت مكانتها في جميع انحاء اوروبا ، وطردت من افريقيا السوداء بأسرها . حتى ان دولاً صديقة لاسرائيل ، بصورة واضحة ، كالحبشة وليبيريا وزائير وكينيا ، اضطرت الى قطع العلاقات معها . كما ان معارضة حكومات صديقة لاسرائيل ، كالمانيا وتركيا واليونان ، لمرور قطار الاسلحة الجوي الاميركي الى اسرائيل ، عبر اراضيها خلال ايام الحرب ، تعكس انهيار التأييد الاوروبي لها .

ان الرأي العام العالمي ، الذي كان يبدو الى جانب اسرائيل اكيداً منذ حرب الايام الستة – حيث ساد الاعتقاد ان اسرائيل تريد السلام واما العرب فيعارضونه – تغير بصورة جذرية . ويبدو اليوم للكثيرين ان العرب هم الذين يريدون السلام ، واما اسرائيل فمهتمة في الحقيقة بالمناطق . ان الموقف السلبي التام الذي اتخذته حكومة اسرائيل من تطلعات الشعب الفلسطيني اثّر في هذا التحول الى حد كبير .

ان التغيير في الرأي العام ليس امراً غيبياً ، ولكنه ينطوي على مشكلات عملية كثيرة ، منها تزويد الاسلحة ، والعلاقات الاقتصادية ، والتصويت في الامم المتحدة ، او تأييد مطالب اسرائيل الاقليمية . وقد اتضح فجأة ، في اعقاب انهيار شبكة العلاقات السياسية ، لكثيرين من الاسرائيليين ، انه ليس المهم ما يفعله اليهود ، بل المهم هو ما يقوله الغوييم ايضاً .

الفصل الثالث عشر

الحرب غير المكتملة

في منتصف الليل ، بعد ان عبرت قوات المشاة والمدرعات قناة السويس ، في طريقها الى الغرب ، توجه الجنرال اريئيل شارون الى احد القادة ، وابلغه تقريراً عن الوضع في نقطة العبور ، وطلب ان يعرف ما هي الصورة العامة في القطاع . فأجابه القائد « كل شيء على ما يرام ، الجميع ينجحون مثلك » . وقد اكتفى بهذه الكلمات قصداً .

إلا أن موشيه دايان ، وزير الدفاع ، كان يقف في ذلك الوقت الى جانب القائد الذي اتصل به شارون .

حتى ذلك الوقت ، لم يكن المصريون قد قدروا بعد حجم العبور الاسرائيلي ، واعتقدوا انه مجرد محاولة عديمة الاهمية ، تقوم بها قوة صغيرة ، في نطاق الهجوم الاسرائيلي الشامل الذي يجري على امتداد القطاع الاوسط . ولكن منذ اللحظة التي بدأ فيها اشتباك القوات غربي القناة ، أصيبت القيادة المصرية بالارتباك . وكانت حتى تلك المرحلة تسيطر على الوحدات المختلفة الى حد ما ، وعلى ما يدور فيها ، وكانت التقارير التي تلقتها من تلك الوحدات قريبة الى الحقيقة ، على الرغم من مبالغة بعض الضباط المصريين في حجم انجازاتهم .

لم يعد لتدخل دايان المفاجيء ما قد يسبب خللاً . فمنذ ان اخذت مدرعات الجيش الاسرائيلي تتحرك الى الامام ، وخصوصاً بعد ان اعلنت غولدا مئير ، رئيسة الحكومة ، في الكنيست ان « قوة عاملة » تابعة للجيش الاسرائيلي تنشط غربي القناة ، اخذ المصريون يرسلون قوات مدرعة ، كانت لا تزال محتشدة في الضفة الغربية ، لمواجهة المدرعات الاسرائيلية . الا ان معظم وحدات المدرعات الممتازة للجيش المصري كانت موجودة شرقي القناة . صحيح انه بقيت لديهم قوات احتياط هائلة ، ولكنها لم تكن متمرسة في القتال ، وكانت وظيفتها حماية « البطن اللدن » في الجبهة المصرية – بطاريات الصواريخ الكثيرة التي كانت منتشرة غربي القناة ، ووحدات المدفعية ، والقيادات ، ومحاور الحركة الاساسية التي كانت تدفق عن طريقها الامدادات للجيوش الموجودة شرقي القناة .

لم يراهن المصريون منذ البداية على النجاح الكامل لقواتهم . فقد اخذوا بالحسبان امكان قيام الجيش الاسرائيلي بمحاولة عبور الى الجانب الغربي . ولذا ، اقاموا خلال سنوات ، تجمعاً دفاعياً مكثفاً ومتراصاً على عمق بضع كيلومترات غربي القناة . وبالاضافة الى الخطوط الدفاعية التي بنوها على امتداد القناة ، اقاموا في عمق اكبر ، حول مفارق الطرق الرئيسية ، مواقع مضادة للدبابات ، كانت تخندق فيها دبابات من انواع قديمة ، استخدمت كمدافع ، ومئات كثيرة من المدافع المضادة للدبابات من جميع الانواع .

وعندما قطعت قوات الجيش الاسرائيلي مناطق واسعة نسبياً فقط ، تكشفت امامها ضخامة معدات الجيش المصري بكامل حجمها . كانت هناك عشرات من المعسكرات التي بنى اكثرها الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية ، وقواعد عسكرية كثيرة ، واستحكامات ، ودشم تحت الارض على امتداد عشرات الكيلومترات . وكانت هناك مخازن تموين امامية ، مزودة بوفرة من الاطعمة الممتازة ، ومخزون من الذخيرة ، كان يتيح للمصريين اياماً كثيرة من القتال .

وتكشف للقوة المدرعة الاسرائيلية ، التي عبرت القناة واخترقت المواقع المصرية باتجاه مدينة السويس في الجنوب ، تجمع متراص من الصواريخ المضادة للطائرات ، في هذه المنطقة ، كان ملازماً للقيادات المتخندقة في باطن الارض ، حيث توجد معدات الكترونية متطورة ، من احدث المعدات في العالم . وقد ذهل الجنود الذين ذهبوا لتطهير الدشم ، التي نشرت على مداخلها شباك التمويه ، عندما اكتشفوا وراءها معدات قتالية تزود بها القليل من جيوش العالم ، سواء من ناحية تطورها او من ناحية وفرتها . ولكن كان على المدرعات الاسرائيلية خوض معارك اختراق مريرة ، من اجل الوصول الى بطاريات الصواريخ وتدميرها ، وتمكين سلاح الجو الاسرائيلي من حرية العمل في اجواء المنطقة .

اخذت فرقة الجنرال بيرن ، التي عبرت جسور القناة ، تتحرك جنوباً . وفي مرحلة متأخرة لحقت بها فرقة الجنرال كالمان ماغين . وتقدمت هاتان الفرقتان المدرعتان بين التجمعات الكثيفة المضادة للدبابات ، ومرتا مسرعتين بمعسكرات الجيش المصري وقواعده ، التي بدا واضحاً انها هجرت بذعر . وبدأ في هذه المرحلة جنود مصريون مذعورون ، لم يتوقعوا ظهور قوات الجيش الاسرائيلي في مؤخرتهم ، يسلمون انفسهم بالعشرات والمئات الى جنود الجيش الاسرائيلي .

وتقدمت المدرعات جنوباً في محورين موازيين : الاول على طول الرقعة الزراعية بين قناة السويس وقناة المياه الحلوة المتفرعة من النيل ، والتي حفرت على بعد بضعة كيلومترات غربي القناة . وكان المحور الثاني في المناطق الصحراوية ــ الرملية المترامية الاطراف على حافة الصحراء المصرية .

روى زيف ، رقيب الاتصال من مستوطنة كيدرون ، وأحد افراد وحدة مشاة مدرعة حاربت في فرقة الجنرال بيرن على امتداد الرقعة الزراعية : « عبرنا الجسور فوق القناة ليلاً ، فكنا كمن يخرج من صحراء الى حديقة مزهرة . سرنا اكثر من كيلومتر دون ان نسمع حتى طلقة واحدة . ثم بدأت المعارك . كان علينا الاستيلاء على مفرق يبعد نحو ٧ كيلومترات عن الجسر . واتجهت كتيبة الدبابات الى المفرق فاصطدمت بالمشاة المصريين ، الذين اصابت صواريخهم الدبابات ، واستدعينا لتصفيتهم . واصدر قائد الكتيبة امراً الى ماندي ، قائد الفصيلة ، بالتحرك الى الامام . اما نحن فكنا في مجنزرة ، وشاهدنا امامنا دبابة أُصيبت بالصواريخ واشتعلت . واقتربنا لانقاذ الجرحى ، الذين قفزوا منها ، وحاولنا إخلاء افراد الطاقم الاربعة . وفي اللحظة التي توقفنا فيها بالقرب من طاقم الدبابة أُصبنا بصاروخ ، ثم اطلقوا علينا النار من جميع الاتجاهات . واصدر ماندي ، قائدنا ، امراً بالاختباء ، فعاد السائق الى الوراء ، ليختبىء وراء مبنى من الاسمنت كان في المنطقة . وعندما وصلنا على مقربة من المبنى تلقينا إصابة اخرى من الوراء . وسقط علي أحد الرشاشات . وقفز بقية المقاتلين الى الخارج ، بينما انزل ضابط ، كان معنا ، الجرحى من المجنزرة . اما انا فبقيت داخلها وحاولت ان ابلغ احداً اننا وحدنا في الميدان . وتعطل اللاسلكي ، فانزلت جهازاً مساعداً كان في احد الجوانب ، واذ بالمجنزرة تصاب مرة اخرى وتشتعل . فقلت لنفسي : « زيف ، اذا اردت ان تعيش ، عليك مغادرة الآلية » . وتمدد قتيلاً في المجنزرة نقيب انضم الينا من الهندسة الميدانية ، وصاحب الرشاش . وقفز الباقون ودخلوا المبنى . وكان ماندي مجروحاً في وجهه ، فقلت له : « تعال نضمدك » . فقال : « هذا لا شيء » ، ومسح الدم بيده . مكثنا في الغرفة خمس دقائق ، ثم قال ماندي : « يجب إحضار السلاح الشخصي من المجنزرة » . وصاح مقاتل جريح احضرناه معنا من المجنزرة ، بصوت يمزق القلب : « ماء ، ماء » . ولم نكن نعرف ان نائب قائد السرية محجوز في غرفة اخرى ، سدت المجنزرة المشتعلة مدخلها ، وتمدد هناك وهو جريح . خرج ماندي ليحضر ماءً للجريح ، وخرج معه جندي آخر . وما ان اقترب من الغالون الذي كان مربوطاً الى مؤخرة المجنزرة ، حتى اطلقت عليه صلية رشاش اصابتــه هو والغالون . فسقط ماندي ، وغسل الماء المتدفق من الغالون وجهه . ارتبكت وخرجت . واشار المقاتل الذي كان الى جانب قائد الفصيلة القتيل ، الى مصري يقف على بعد نحو ٢٠ متراً تقريباً منا ، وقال : «ها هو المصري الذي قتل ماندي» . واطلق المصري النار علينا ايضاً ، فأطلقت النار عليه وقتلته . ثم زحفت بالقرب من المجنزرة ، وشاهدت جثة قائد الفصيلة ممددة على الارض . توقفت ، وقلت لنفسي ، وكأنني أُناديه : «ها هو ماندي ، ماندي تعال معي ، هذا مكان غير أمين» . وكان قميصه محروقاً قليلاً . زحفت اليه واخرجت رسائل من جيبه ، كانت بينها رسالة من البيت ، ورسائل من جنود جرحى في المستشفى ، شكروه على تفانيه ، لأنه انقذهم من داخل الاتون » .

أدت المعركة الضارية ، التي وقعت في الجنوب ، الى انهيار الخطوط المصرية في هذا القطاع . وبدأت فرقة كالمان ماغين تتجه جنوباً ، وتطبق على المحاور الموصلة الى مدينة السويس والقاهرة ، عاصمة مصر . كانت لهذه الخطوة أهمية لسببين : الاول نفساني ، والثاني عملي – آني . فقد اغلقت القوات الاسرائيلية ، بحركتها هذه ، على الجيش الثالث الذي كانت الاغلبية الساحقة من قوته المقاتلة تحتل مواقعها في الجانب الشرقي من قناة السويس . فالفرقتان المدرعتان الاسرائيليتان ، اللتان اندفعتا الى القطاع الجنوبي ، وهددتا مدينة السويس ، اصابتا المراتب الخلفية للجيش الثالث ، وقضتا تماماً على تجمعات الصواريخ التي كانت منتشرة في هذا القطاع .

اصبح سلاح الجو ، منذ تلك اللحظة ، قادراً على البدء في العمل بحرية ، وضرب المدرعات المصرية . وأخذ المصريون ، الذين حاولوا حرمان سلاح الجو الاسرائيلي من حرية العمل ، ومنع تحرك الدبابات الاسرائيلية التي هددت خطوطهم الخلفية بالانهيار ، يرسلون طائراتهم لخوض معارك جوية . وتلقى سلاح الجو المصري ، خلال تلك الايام ، ضربة قاسية جداً . فكانت المعارك الجوية تدور يومياً ، في ساعات معينة تقريباً ، فوق القوات المدرعة المشتبكة على الارض . وعندما كانت المعارك الجوية تدور ، كان يبدو القتال وكأنه توقف ، حيث يرقب المعسكران المتنازعان من الارض مشهداً يدور في السماء فوقهم . كانت طائرات « الميراج » الاسرائيلية المخصصة لهذا النوع من المعارك ، وطائرات « الفانتوم » ايضاً ، تسقط الطائرات المصرية الواحدة تلو الاخرى . وكانت المعارك الجوية تدور على ارتفاع منخفض ، بحيث يمكن مشاهدة الصواريخ وهي تصيب طائرات « الميغ » المصرية ، ثم الانطلاق فوراً لجمع الطيارين المصريين الذين نجوا من طائراتهم المصابة وهبطوا بين الدبابات ، حيث كان يتم التقاطهم .

بدأت فرقة الجنرال اريك شارون ، التي كانت تحتفظ برأس الجسر حتى ذلك الحين ، تتحرك بموازاة فرقتي الجنرالين بيرن وماغين ، شمالاً ، باتجاه مشارف الاسماعيلية . ولكن جزءاً من هذه الفرقة واصل القتال شرقي القناة ، شمالي محور الاختراق ، حيث كان المصريون يحتلون مواقع كبيرة متخندقة ومحصنة جيداً ، شكلت تهديداً لمؤخرة رأس الجسر ، شرقي القناة .

بيد انه عندما اخذت قوات فرقة شارون تتحرك شمالاً ، غربي القناة ، تلقى الجنرال شارون امراً بإيقاف قواته . وجاء في الامر : « عليك اولاً احتلال الموقع » . كان ذلك هو الموقع المصري شمالي « المزرعة الصينية » التي سبق تطهيرها واحتلالها . ولكن قوات الجنرال شارون لم تهاجم الموقع المصري في ذلك اليوم .

منذ ذلك اليوم ، وحتى سريان مفعول وقف القتال ، لم يتوقف كبار قادة الجيش الاسرائيلي عن التحدث امام الصحافيين ، ومحرري الصحف ، ان الجنرال شارون خالف

الامر وكاد يسبب كارثة بعدم تنفيذه اوامر صريحة نقلت اليه من المرتبة المسؤولة عنه . وقد عمل وزير الدفاع ، الذي اطلع على جميع التفاصيل ، من اجل إلغاء هذا الامر .

وفي وقت لاحق وصل دايان الى قيادة المنطقة الجنوبية من قيادة الجنرال شارون مباشرة . فقال : « اعلموا انني اعتقد ان هذا الامر فضيحة » . ومنذ ذلك الحين لم يزر وزير الدفاع قيادة المنطقة الجنوبية حتى انتهت الحرب .

تحدث الجنرال شارون عن وجهة نظره في هذه القضية ، في مقابلة مع صحيفة « لوس انجلوس تايمز » فقال : « حاربت ٢٦ سنة ، ولكن علي القول انها كانت جميعاً مجرد معارك ، ولكن هذه حرب فعلية » . وقد كتب وليم طوهي ، مراسل الصحيفة الذي قابل الجنرال شارون في قيادته غربي القناة يقول : « خلال المقابلة ، وفي اثناء الجولة في ميدان القتال ، كان شارون يوجه نقداً شديداً لقيادة الجيش العليا ، لانها لم تضغط من اجل عبور القناة في وقت مبكر ، ولانه لم يسمح لدباباته ، بعد عبور القناة ، بالتقدم في عمق اكبر ودون توقف » .

واضاف الجنرال شارون يقول في تلك المقابلة : « كان باستطاعتي تطويق الجيش المصري الثاني في الشمال ، كما فعلنا بالجيش الثالث في الجنوب . وقلت للقيادة العليا اننا نهدر الوقت . لكنهم اعتقدوا ان مشكلة الوقت غير واردة ، وبعد اقل من ٢٤ ساعة من تحذيري لهم جاء الاعلان عن وقف القتال . لم يدركوا ان الزمن كان العنصر الاهم . ولو لم تكبح دباباتي ، لاستطاع الاسرائيليون احراز جميع الاهداف الاستراتيجية التي وضعوها نصب اعينهم غربي القناة ، ولما استطاع المصريون الوصول الى وضع يطالبون فيه اسرائيل بالعودة الى خطوط ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) . خشيت ان يدهمنا وقف القتال بينما المصريون لا يزالون موجودين شرقي القناة » .

« اعتقد ان الولايات المتحدة أُصيبت بخيبة امل من ذلك ، اولاً لاننا لم نردع المصريين ، وبعد ذلك لاننا لم نهزمهم كلية ، واستغرق ما فعلناه وقتاً طويلاً جداً ... ولم تكن هناك اية مقاومة منظمة غربي القناة . وقد دمرنا في يوم العبور ٢٠ دبابة مصرية ، واصبحنا على بعد ٢٥ كيلومتراً غربي القناة ، باتجاه القاهرة . احرزنا مفاجأة كاملة ، ولم يدرك المصريون ابداً ما حدث . وعندها تلقيت امراً بالتوقف ، وحتى بالعودة ... وكانت المصيبة انه ، باستثناء وزير الدفاع ، لم يكلف احد من القيادة العليا او القيادة الجنوبية نفسه بالحضور الى هنا ومشاهدة المنطقة والوضع عن كثب . انني اعتقد انه على الجنرال الكبير ان يصل الى الخطوط الامامية ، ويتحدث مع قادة فرقه ، لا ان يرسل قادته الى الخلف ... وبدا في هذه الحرب ان تواجد ضباط كبار في ميدان المعركة ، كان اندر مما في المرات السابقة ، ولذلك لم يحصلوا على الصورة الفضلى للوضع » .

سيكون النقاش حول هذه النقطة من نصيب المؤرخين ايضاً . اما في الجبهة ، فتوقف بعد وقت قصير . ففي يوم ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ادرك المقاتلون في الجبهة الجنوبية ان وقف القتال بات وشيكاً . وفي ساعات الصباح ، اعلنت « اذاعة اسرائيل » ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي « اقترحا » ، على الفريقين المتحاربين ، وقف القتال في الساعة ١٩,٠٠ مساء ذلك [...]

استكمل الجيش الاسرائيلي مهمته في الجبهة الشمالية فعلاً . فقد تم صد السوريين من جميع خطوط وقف اطلاق النار ، منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، واحتلت قوات الجيش الاسرائيلي جزءاً آخر من الاراضي السورية . بيد انه لم يتم تدمير الجيش السوري ، والفرق المدرعة العراقية التي حاربت الى جانبه ، ولكن قوات الجيش الاسرائيلي توقفت ، منذ بضعة ايام ، عن المزيد من التقدم . فقد احتلت كل الهضبة المشرفة على السهل السوري المؤدي الى دمشق التي اصبحت ضواحيها في مرمى المدفعية الاسرائيلية . ولم تكن لدى القيادة العليا للجيش الاسرائيلي اية نية لمواصلة التقدم نحو دمشق . وبقي حساب واحد مفتوح مع السوريين — موقع جبل الشيخ .

احتل السوريون الموقع المطل على هضبة الجولان بأسرها ، خلال الساعات الاولى من الحرب . وبعد احتلاله اخرج السوريون منه وحدات الكوماندو التي احتلته ، واستبدلوها بثلاث كتائب مظليين ، امتنعت من التمركز في الحصن الموجود على الموقع ، وتحصنت في التلال المحيطة به . وهكذا اصبحوا في مؤخرة القوات المدرعة الاسرائيلية ، واستطاعوا مراقبة تحركاتها من اعلى . ومن ناحية معنوية ايضاً ، كان من شأن بقاء موقع جبل الشيخ في ايدي السوريين ان يمنحهم الاحساس بانهم احرزوا انجازاً في هذه الحرب . لقد صدت جميع المحاولات التي بذلت لاحتلال الموقع خلال سير الحرب . اما الآن ، عشية وقف القتال ، فقد اخذت القيادة الشمالية على عاتقها مهمة احتلال الموقع « بكل ثمن » .

كان هذا هدفاً صعب المنال . وهناك طريق واحد ممهد ، ترابي وضيق ، يمتد من الاراضي التي تستولي عليها اسرائيل الى قمة موقع جبل الشيخ ، وعلى أحد جوانبه ترتفع قمم شامخة من البازلت ، وعلى جانبه الآخر هوة سحيقة . وتحصن ٥٠٠ مقاتل ممتاز ، من خيرة الجيش السوري ، حول الموقع ، وفي حيازتهم اسلحة كثيرة مضادة للدبابات . فقد سيطروا على جميع الطرق ، التي قد تؤدي الى الموقع ، وزرعوا الالغام في طريق السيارات الوحيد المؤدي اليه ، ونصبوا في تعرجاته كمائن مضادة للدبابات .

كان واضحاً في هذا الوضع ان سلاح المشاة هو وحده القادر على استعادة الموقع ، بهجوم على الاقدام ، في ظروف الارض الصعبة جداً ، وبقتال جبلي ، في تضاريس طبيعية شبيهة بجبال الالب المغطاة بالثلوج ، لم يسبق للجيش الاسرائيلي ان عرف مثله

ابداً . وكان الجنود السوريون منتشرين في المنطقة مجموعات مجموعات ، متخندقين عميقاً خلف الصخور . ومن اجل اخراجهم ، كان لا بد من القتال وجهاً لوجه من مسافات قصيرة . وألقيت هذه المهمة على عاتق لواء المشاة النظامي في الجيش الاسرائيلي ، لواء « غولاني » ، تسانده وحدة مظليين . ومنذ ظهيرة يوم الاحد ، ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ، بدأ حشد كبير من المدفعية يقصف موقع جبل الشيخ ، والتلال المحيطة به ، التي تحصنت فيها القوات السورية . واقام القصف المركز المتواصل ما يشبه الجدار الناري جنوبي جبل الشيخ . وعند ساعات المساء اخذت طائرات سلاح الجو المقاتلة تقيم ما يشبه المظلة الجوية فوق جبل الشيخ نفسه . وحلقت تحت هذه المظلة طوافات الجيش الاسرائيلي الضخمة ، وهي تحمل وحدات مظليين انزلتها في مؤخرة موقع جبل الشيخ ، من ناحية دمشق ، بهدف قطع الطرق المؤدية اليه من ناحية سورية ، والحؤول دون امكان وصول التعزيزات . وكان عبور الطوافات تحت مظلة جوية من الطائرات المقاتلة ، بينما جدار من المدفعية يحميها من الجانب ، عملية رائعة . فلم تصب أية طوافة ، وعادت جميعها بسلام ، بعد ان انزلت قوات المظليين في اهدافها . واستولى المظليون على الاهداف بسرعة ، دون خسائر تقريباً .

وفي الوقت ذاته اخذ جنود لواء « غولاني » يتسلقون القمم المؤدية الى موقع جبل الشيخ . وكان يسير بموازاتهم ، على الطريق المتعرج والضيق ، رتل مدرع تتصدره عدة دبابات . ونحو الساعة الثانية ليلاً فقط ، وصل اوائل المتسلقين امام مواقع السوريين الامامية ، بالقرب من محطة التلفريك التي كانت تستخدم لنقل الهواة الى امكنة التزلج المثلجة . لقد وقعت عدة اصابات في اول اشتباك . وبدأ المظليون السوريون ، الذين كانوا يحملون بنادق قنص مزودة بأجهزة تصويب تلسكوبية ، واجهزة س. ل. س ، التي تجمع ضوء الكواكب وتتيح الرؤية الليلية دون كشف مواقعها ، يقتنصون المتسلقين ويعرقلون تقدمهم .

روى احد جنود « غولاني » : « هاجمناهم ، فأطلقوا النار علينا من جميع الجهات . وكانوا يستترون في مواقع متفرقة ، استحال اكتشافها . وكنا نلقي عليهم القنابل اليدوية ، عندما يطلقون النار فقط . فكان علينا الوصول الى مسافة خمسة امتار من الموقع لتصفيته » .

بيد ان مرحلة القتال الاساسية كانت لا تزال امامهم . فبعد احتلال المواقع الخارجية ، تجمع المظليون السوريون على بضع تلال حول موقع جبل الشيخ الاسرائيلي ، وصبت عشرات الرشاشات ، ومئات الاسلحة الاوتوماتيكية الاخرى ، النار باتجاه جنود «غولاني» المهاجمين . وكان القادة ، الذين هاجموا وهم منتصبو القامة ، يسيرون في مقدمة جنودهم ، من اوائل المصابين . فجرح قائد ، وقتل نائبه . وتولى صغار الضباط القيادة .

لقد احبطت جميع محاولات جنود « غولاني » لاحتلال الحصن . وعندما بزغ الفجر ،

كانوا يبعدون عنه بضع مئات من الامتار ، وبدا انهم لن يستطيعوا احتلاله . كان في الميدان عشرات المصابين ، الذين لم يترك احد منهم في العراء ، حيث انطلق نحو كل مصاب عدد من الجنود ، وسارعوا الى انتشاله ، تحت النار ، واحضاره الى محطة الاخلاء في المؤخرة . الا انه كانت هناك حاجة لاربعة جنود لحمل كل مصاب في الطريق الجبلي الشاق . وخلال فترة قصيرة ، لم يبق عدد كاف من الجنود لمعاودة الهجوم على الموقع . وبدأ السوريون ، في هذه المرحلة ، يصبون نيران مدفعيتهم على الموقع ، دون ان يأبهوا لاصابة جنودهم فوق الجبل بقذائف مدافعهم . ثم انطلقت اربع طائرات « ميغ » في محاولة يائسة لصد الهجوم الاسرائيلي والحؤول دون احتلال الموقع . اما جنود « غولاني » ، المنهكون والمضروبون والمحبطون ، فلم يعودوا يبدون قدرة على الانقضاض على الموقع .

جاء الخلاص من اتجاه غير متوقع . فعندما اتضح ان جنود « غولاني » صدوا في محاولات الانقضاض الاولى التي بذلوها ، تقرر ارسال قوة مظليين اخرى محمولة على سيارات مصفحة لمساعدتهم . كما ان المظليين الذين استولوا ، في الليلة السابقة ، على موقع جبل الشيخ السوري ، على بعد كيلومترين من موقع جبل الشيخ الاسرائيلي ، طلبوا مساعدة جنود « غولاني » ، فرفض طلب المساعدة منعاً للعراقيل . ولكن عندما علم جنود « غولاني » انه ارسلت اليهم تعزيزات عاجلة من المظليين ، وقع عليهم الخبر كالاكسير المنبه . كان بين المظليين وجنود المشاة دائماً ما يشبه المنافسة الخفية . ومن اجل رفع معنويات جنود المشاة ، نمّي بينهم شعور الاعتزاز بالانتماء الى الوحدة ، واصبح في نظرهم قيمة سامية . كان يكفي خبر مفاده ان المظليين يقتربون ، لنفح قوة جديدة فيهم . اجتمعت فلول القوة ، واستعدت وانطلقت للانقضاض الاخير . فقد تدفقت بانطلاقة سريعة نحو خطوط السوريين الدفاعية الاخيرة حول الحصن ، وسارعت الى سارية المبنى لرفع العلم الاسرائيلي وعلم لواء « غولاني » عليها .

تم احتلال الموقع بثمن باهظ من الدماء : أُصيبت عشرات كثيرة من الجنود ، وكان بين المصابين عدد من الضباط . ولكن السوريين فقدوا آخر موقع استولوا عليه في المنطقة التي كانت في أيدي اسرائيلى حتى ٦ تشرين الاول (اكتوبر) .

روى مظلي سوري ، يبلغ من العمر ٢٢ سنة ، ومن سكان مدينة حلب في سورية ، أُسر في معركة موقع جبل الشيخ : « عندما بدأ الهجوم علينا ، علمت ان المعركة ستكون يائسة . ادركت ورفاقي انه متى قرر اليهود احتلال الموقع — فان هذا واقع لا محالة . ولكن احداً لم يجرؤ على ترك موقعه . وكل من حاول الفرار تلقى رصاصة في رأسه . امرونا بالقتال حتى الرصاصة الاخيرة . وعندما نفدت الذخيرة مني ، رفعت يدي واستسلمت . وطلب الجنود الاسرائيليون مني ان آخذ مكبر صوت وادعو رفاقي الى الاستسلام ، لانه لم يعد ثمة مبرر لقتالهم في معركة خاسرة . تناولت مكبر الصوت ودعوت رفاقي الى وقف

القتال . وفجأة رأيت رفيقاً لي يرفع بندقيته ويصوّب عليّ . ولم اكد اصرخ به : « لا تطلق النار ، دخيلك » ، حتى اطلق النار واصابني في بطني ... حاولت ان انقذ حياته ، اما هو فاطلق النار علي . ولكنهم اطلقوا النار عليه فأردوه قتيلاً . ثم اتضح لي ان ضباطنا هربوا عن طريق الحدود اللبنانية بعد ان شاهدوا احتلال موقعنا الخلفي . اما نحن فارسلونا الى الجحيم وهربوا » .

اما النقيب ابو العافية ، احد افراد لواء « غولاني » ، الذي اشترك في هجوم استمر ١٥ ساعة متتالية ، فقال : « كان جبل الشيخ بالنسبة الينا كحائط المبكى . اردنا الوصول الى جبل الشيخ وعدم التخلي عنه ... كنت افضل الموت عن النزول منه . ليس انا فقط . فالجميع قرروا ذلك . لقد ادخلوا في رؤوسنا ، باننا لن ننزل من هناك إلا بعد ان نرى علم « غولاني » ... ولكنني لم انظر اليه بعد ذلك . لا اريد ان اراه اكثر من ذلك . فقد سال دم رفاقي كالماء ، كالماء ... نظرت الى هناك مرة واحدة فقط ، لكي ارى ان علم « غولاني » لا يزال هناك ، فلم أُشاهد سوى علم اسرائيل . اما علم « غولاني » فلم يكن موجوداً ، ربما انزله المظليون » .

كان واضحاً في صباح ذلك اليوم ، ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، ان خطوط القوات المصرية على وشك الانهيار . والحقيقة ان الطرفين كانا منهكين تماماً ، ولكن كان للقوات الاسرائيلية قليل من « طول النفس » ، الذي ساعدها على محاصرة القوات المصرية . فقد هددت فرقتا بيرن وكالمان ماغين مدينة السويس ، ومنذ ثلاثة ايام وفرقة شارون تقف على مشارف مدينة الاسماعيلية .

بذل الجنرال شارون جهداً للتحرك بأقصى سرعة ممكنة على امتداد قناة المياه الحلوة ، واحراز اكبر قدر ممكن من الانجازات قبل سريان مفعول وقف القتال . وواصلت الفرق المدرعة الاخرى خوض معارك دبابات ، مع القوات المصرية التي استعدت للدفاع الاخير ضد تهديد الحصار الذي خيم عليها .

في الساعة ١٩,٠٠ سرى مفعول وقف القتال . إلا ان المصريين تمكنوا قبل ذلك من انزال قصف مدفعي ثقيل جداً على رأس الجسر الاسرائيلي الذي احدث التحول وقلب حظهم ، كأنما ارادوا « وداعه » .

روى عاموس ، قائد قوة حماية الجسر : « كان القصف المدفعي المصري الاخير مخيفاً . وما كدت ادخل الى مجنزرتي ، حتى سمعنا الصفير وسقطت قذيفة بالقرب منها ، واحتكت بالفولاذ ، وانفجرت على مسافة متر واحد منا . كان الانفجار هائلاً ، ودخلت الشظايا الى المحرك ، واشتعلت سيارة الوقود وانفجرت سيارة الذخيرة . استمر سقوط البرَد ربع ساعة . كنت واثقاً انها نهايتنا . وسمعت تأوهات الجرحى حولنا ،

واصواتاً تستغيث من كل صوب : (مضمد ، مضمد !) وفجأة ساد الهدوء ، وشعرت اننا نجونا . ومن نجا كتبت له الحياة . وقد كلفنا قصف الوداع غالياً .

ترتب على هذه الضربة النارية المخيفة ١١ قتيلاً و ٢٧ جريحاً . شعرت ان هذه هي « نهاية الحرب » . لقد تبدد الشعور الشخصي لقائد الجسر . ففي اليوم الثاني تجددت المعارك . فقد توقف الهجوم في المحور الشمالي عند مشارف الاسماعيلية ، داخل بساتين المانغو المجاورة للكثبان المحيطة بمنازل المدينة ، وانزوت قوة المظليين هناك تلعق جراحها بسبب نتائج القصف الذي تلقته قبل سريان مفعول وقف القتال .

وفي القطاع الجنوبي واصلت فرقتا بيرن وكالمان ماغين المدرعتان مقاتلة القوات المصرية على مشارف مدينة السويس ، حيث كانت المعركة احد اكثر المعارك الدامية ضراوة في القتال الذي دار غربي القناة .

قال قائد فصيلة مظليين لجنوده ، الذين احتشدوا معه داخل مصفحة : « واخيراً نستطيع ان نرى تحصيننا على رصيف الميناء من الجانب المصري . كنت مرة قائد ذلك التحصين ، وكنت اطل كل صباح على مدينة السويس . والآن أُشاهد الرصيف من داخل المدينة » .

قفز المظليون الذين أُرسلوا الى داخل المدينة ، على المركبات : الباصات والسيارات المصفحة المصرية التي غنمت ، وسيارات الجيب والدبابات . وقد ساروا على الطريق الجنوبي المؤدي الى مدينة السويس . كان ذلك في صباح يوم الاربعاء ، ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) . وبدت مدينة السويس ، من خلال الضباب ، مدينة هادئة ترفل بالخضرة . وكان يقطن المدينة ٢٧٤,٠٠٠ نسمة حتى نشوب معارك حرب الاستنزاف ، وكانت رابع اكبر المدن في مصر . وظهرت في اطراف المدينة ، على ضفة خليج السويس الازرق ، معامل التكرير ومصانع الاسمدة الكبيرة . وخلال حرب الاستنزاف هجر معظم السكان منازلهم . ولم يبق فيها سوى بضعة آلاف من العاملين في معامل التكرير ومصانع الاسمدة .

كان المظليون يعتقدون ان سكان المدينة هربوا منها قبل فوات الاوان ، وهرب معهم ايضاً آلاف الجنود المصريين متجهين الى قمم جبال جنيفة وعتاقة المطلة على المدينة .

تقدمت القوة متجهة الى المدينة ، وقال احد المظليين : « ساد هدوء ممتع فعلاً . وفجأة مر صاروخ « ساغر » فوق رؤوسنا وانزلق فوق رتل المجنزرات على ارتفاع منخفض ، وقد قطعت زعانف الصاروخ اصبعين من اصابع احد الضباط . وراحت المجنزرات تبحث عن مخبأ من الصواريخ ، وعندها اطلق صاروخ آخر رأيناه يمر فوق مجنزرة قائد الكتيبة ويقترب منا ، كان هذا مشهداً مخيفاً . فقد انفجر على بعد بضعة امتار امامنا ،

تراجعنا الى الوراء واستغلينا فترة الانتظار القصيرة لاعداد الفطور » . وفي الوقت ذاته ، توجهت الدبابات في خط مستقيم ، نحو قواعد الصواريخ المنتشرة غربي المدينة .

صدر امر للمظليين بالتحرك مرة اخرى ، وبحسب ما بدا للعيان كانت الطريق الى المدينة خالية ، والمدينة نفسها مهجورة . وكانت المصفحات والباصات ملأى بالمظليين المتمرسين في القتال ، ومن بينهم من حرر القدس القديمة ، خلال حرب الايام الستة ، ومن نال النياشين وحظي بشهرة فائقة بسبب دورهم في معارك حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وكان من بين هذه القوة جنود خدموا فترة طويلة في الدوريات داخل قطاع غزة ، وأُلقي بالكثير منهم هناك واشتركوا في آخر معركة من الحرب ، كـ « مسافرين متطفلين » ولم يتوقع احد ان تنشب معركة هناك ، داخل المدينة .

التحق نيفي بلايخ بالقوة الفرعية ، التي انضمت الى وحدة المظليين . وعندما اندلعت الحرب ، كان معاوناً في مدرسة الضباط في دورة ضباط آليات . ونظراً الى انه كان سائقاً في وحدة نقل قبل التحاقه بالدورة ، ارسل الى احد مراكز النقل في سيناء . وخلال الاختراق الى غربي القناة ، كان سائقاً في وحدة نقلت التموين والذخيرة عبر الجسور على القناة .

وتحدث نيف عن اليوم الذي سبق معركة السويس فقال : « بلغنا في ذلك الصباح ان قوة مظليين وصلت بطوافات ، ونظراً الى عدم وجود ما يكفي من السيارات لديهم ، كانوا بحاجة الى بعض الشاحنات المدنية التي كانت تحت تصرفنا . فالتحقنا بها وقد حمّلت احدى الشاحنات بالمعدات ، وصعد الجنود على الباقي . ثم اتجهنا جنوباً . تحركت القوة في طوابير ثلاثة ، وسرنا نحن بالشاحنات في الوسط . كان هناك جيب لقوات العدو ، فانسحبت دباباتنا الى الوراء ، وتركت علامات لقائد قوتنا للجلاء عن المنطقة . ولكنه امرني بمواصلة السير ، فحاولت مناقشته ، ولكن لا حياة لمن تنادي . واخيراً سدت دبابة واحدة الطريق ، فتراجعت نحو ٥٠٠ متر ، وانتشرت الشاحنات وراء التل كتشكيل الدبابات . كان هناك موقع محصن ، فتلقينا تعليمات بالاستيلاء عليه . وبهذه المناسبة ، كان قائد الكتيبة خبيراً استراتيجياً فذاً . وتنبأ حقاً بما سيحدث في المعركة .

« طهرنا الهدف وجلسنا نراقب عمليات طائرات سلاح الجو . وفي تلك الاثناء وصلت الينا المصفحات وانتقل القائد الى واحدة منها ، وبقيت انا مع الجنود على الشاحنات . وفي الوقت ذاته بلغني ان مدفعيتنا صوّبت علي مرتين خطأ . لقد جعلت العناوين الحمراء لشركة المشروبات « كرستال » على ظهر شاحنتي تبدو وكأنها سيارة عربية . فقد اصبحت شاحنة المشروبات الخفيفة ، التي كنت اقودها ، المحملة بالجنود المقاتلين ، علامة بارزة في الميدان . فسارعت الى تمويهها بالوحل . ولم يكن ينقصني سوى قذيفة اسرائيلية لتدمرني .

« تلقينا امراً خلال الليل ، بالالتحاق بقوة الدبابات التي اقتربت من مدينة السويس . وكان علينا مع قوة مشاة محمولة بالمصفحات ، الدفاع عن الدبابات في حال قيام سلاح المشاة المصري بمحاولة الانقضاض عليها . وشرحوا لنا انه علينا الاستيلاء على مشارف المدينة لمحاصرة الجيش الثالث . سرنا طوال الليل . وكانت الشاحنات تغطس في الحفر كل لحظة فتدفعنا الدبابات الى الامام . ثم وصلنا الى بعد اربعة كيلومترات من مدينة السويس . وفي الصباح الباكر تحركنا نحو المدينة ، فمررنا بقاعدة صواريخ وطهرناها ، ثم صعدنا الى الشاحنات وتابعنا التحرك نحو المدينة . وكانت تقف على مشارف المدينة قوة من الدبابات ومصفحات سلاح المشاة . والتفت قوة اخرى حول المدينة ووصلت حتى الادبية . ولكن المدينة نفسها لم تكن مطهرة » .

دخلت قوة المظليين الى المدينة . وتقدمت الدبابات ، بعد تمهيد بالقصف المدفعي . وروى احد المقاتلين : « بدت المدينة كمدينة اشباح . فمن الجهة اليمنى مبان شاهقة متعددة الطبقات ، ومن الجهة اليسرى ارض مكشوفة ، ولم يفصل بين الشارع والمنطقة الصحراوية سوى خط السكة الحديد على الحاجز الترابي . كان الشارع الرئيسي الذي دخلنا فيه واسعاً ، وتوازيه جادة على امتداده » . وروى شلومو عراد ، المصور الصحافي الذي رافق قوة المظليين : « ترجلت من سيارة الجيب لاجمع بعض الرسائل وتذاكر القطار المبعثرة هناك . ولم يظهر اي كائن حي » .

روى المعاون نيف : « اتضح في الساعة العاشرة صباحاً ان الدبابات دخلت المدينة ، واستدعيت قوتنا للدخول وراءها . وسارت في المقدمة مصفحة ، ثم شاحنات مكشوفة وعليها جنود ، وفي المؤخرة مصفحة اخرى . وسار وراءنا باصان محملان بالجنود . مررنا في الاحياء السكنية في مدخل المدينة ، ودخلنا الجزء القديم منها ، وكله مهدم ومصاب . سرنا في الجادة الرئيسية ، على الجانب الايمن ، بحسب جميع قوانين السير . وبعد ان توغلنا كيلومتراً ونصف بدأ الاحتفال : « اطلقوا علينا النار من جميع المنازل ، ومن جميع الشبابيك والمنافذ ، بالاسلحة الخفيفة ، وقنابل البازوكا ، والقنابل اليدوية .

« وعندما دخلنا المدينة خرجت منها بسرعة مجنزرتان ودبابة كلها مصابة . ولدى بدء اطلاق النار قفزنا من الشاحنات والتصقنا بالمنازل على الجانب الايمن . فرحت لخروجي من حجرة القيادة في الشاحنة؛ فالسائق هو هدف القناصين الاول دائماً . لم تكن معي حتى خوذة . كان معي رشاش « عوزي » . اخذنا نطهر بيتاً تلو الآخر ، وجرح منا البعض على الفور . وامكن انتشال اول جريحين بسيارة جيب ، وانتشل آخرون بالمجنزرات والدبابات التي كانت تقذف أتوناً من النيران نحو المنازل التي تطلق منها النار . وقد توقف هذا ايضاً ، واضطرت الآليات المدرعة الى الانصراف . بقينا محجوزين داخل المدينة ،

جنود كثيرون . وصلنا حتى المفرق الاوسط في الشارع الرئيسي وقطعناه ، ولكن تصدت لنا منازل من الجهة اليسرى حيث صلونا من هناك بصورة جيدة .

« قسّم القائد القوة الى جزئين ، واحد الى يمين الطريق ، والآخر الى يساره . اما هو فقد جرح عندما خرج جنود مصريون من المنازل رافعي الايدي متظاهرين بالاستسلام ، ولكنهم ألقوا قنابل يدوية عندما اقتربنا منهم . ورفض القائد اخلاءه . ولم نعرف في هذه المرحلة ان خلاصنا من هناك مستحيل . ولم نعرف من اين يطلقون النار . ففي الحقيقة كانوا يطلقون النار من كل مكان . ولم نستطع التحرك الى اي اتجاه ، ولا حتى الى الوراء . دخلنا احد المنازل فاتضح انها اسوأ مصيدة — أُلقيت علينا القنابل اليدوية من الطابق الثاني والثالث ، ومن المنازل المجاورة على الجانب الآخر من الشارع اطلق القناصون نيرانهم صوب الابواب — فكان خروجنا منها مستحيلاً . وبقينا محجوزين في بعض المنازل حول المفرق ، ولم يكن بيننا اي اتصال سوى باجهزة اللاسلكي . كان مجمل ما تقدمناه من المكان الذي توقفت فيه الشاحنات نحو ٤٠٠ متر . وسمعت القوة التي بقيت خارج المدينة بوضعنا ، فاخذت تقدم لنا مساندة مدفعية » .

اتضح ان الانطباعات بان مدينة السويس خالية من الناس كانت خاطئة . فبالاضافة الى السكان الذين بقوا فيها ، فرت الى المدينة فلول الجيش الثالث غربي القناة ، والتحقت بها ثلاث كتائب كوماندو مصرية ، كانت ترابط في المدينة واختبأت بين المنازل ، ولم تتوقف عن قنص الجنود الاسرائيليين المحاصرين ، حتى ساعات الليل . وتمدد الجرحى على الارصفة ، ولم يكن بالامكان إلتقاطها . وقد جرح بعضهم مرات عديدة ، حيث كان يصيبهم في كل مرة المزيد من العيارات النارية . وبعد مضي بضع ساعات دخلت المدينة بعض المجنزرات والدبابات ، التي حضرت لالتقاط الجرحى ، ولديها اوامر باخلاء المصابين بالجروح الطفيفة والقتلى ، وترك المصابين بجروح بالغة ، في الاماكن المخفية مع الجنود الاصحاء ، خوفاً من الا يحتملوا الاهتزازات في الطريق .

روى نيف : « لم يكن معنا مضمد في المنزل الذي اختبأنا فيه . وكان القائد في منزل مجاور ، فأمر اربعة من الجنود بالخروج لاختبار امكان النجاة . وفي تلك الاثناء وصلت مجنزراتنا الى المفرق ، فساعدنا على التقاط الجرحى وتحميلهم عليها . ولكننا لم نستطع العودة الى المنزل الذي خرجنا منه ، فحاولنا العودة الى حيث بقيت شاحناتنا لنتخلص من المصيدة في المدينة . وكان من الواضح لنا في هذه المرحلة انه لا بد من الانسحاب » .

« كنا سبعة رفاق . اقتربنا من الشاحنات ، التي حرقت منها اثنتان فقط ، فاطلقوا علينا النار ، فاختبأنا في صالون الحلاقة ، في الطابق الاسفل من منزل مجاور ، وبقينا

محجوزين هناك ساعتين تقريباً. وخرج من المنطقة، التي اعتقدنا انه تم تطهيرها، جنود مصريون برشاشات «كلاشينكوف»، ولكنهم استطاعوا الفرار عندما اطلقت عليهم النار خطأ. وفجأة اقترب مني ثلاثة جنود مصريين، وكانوا على مرمى الرصاص مني، فوجدت نفسي فجأة غير قادر على اطلاق النار عليهم. واخيراً، وبعد جهد جهيد، اطلقت النار فقتلت واحداً منهم، وأُصيب آخر، وهرب الثالث. حاولت الخروج فأطلقوا علي النار مرة اخرى. وانفجرت شاحنة محملة بالذخيرة، كانت واقفة بالقرب منا، فقذفتنا شدة الانفجار الى صالون الحلاقة. سمعنا شخصاً على سقف المنزل، اكتشفناه بعد ان اطلق احد الجنود زخة رصاص، عن عصبية كما يبدو. خرجت زحفاً، ثم شاهدت جندياً مصرياً يحاول إلقاء قنبلة يدوية علينا، فاطلقت عليه النار وانتسف والقنبلة التي في يده. وفجأة نسف صالون الحلاقة بأسره، ولم اعرف سبب الانفجار — ربما كان ذلك بسبب شاحنة الذخيرة، او بسبب صاروخ او قذيفة مدفع. اطلقنا النار صوب الباب، لاعتقادنا انه أُلقيت قنبلة، فغمرنا الغبار جميعاً، ولكننا لم نصب، وصرخت على الجميع للخروج».

اصبح نيف، بصورة طبيعية، قائد مجموعة الجنود الصغيرة التي حاولت الخلاص من الاتون، دون ان يعينه احد. كان جميع جنود هذه المجموعة اكثر اقدمية وخبرة منه، واصبحوا في وقت لاحق مدينين بالجميل للمعاون الشاب الذي «اخرجنا من هناك». وتذكر نيف: «بدأنا الانسحاب في الساعة السابعة او الثامنة مساء، وركضت في المقدمة وفقدت كل اتصال مع جنود سائر القوات، الذين بقوا كما يبدو، في المدينة حتى منتصف الليل. واطلقنا النار داخل الازقة الصغيرة، وألقينا قنابل يدوية على كل ما وقعت عليه عيوننا. وصلنا حتى آخر مصفحة لنا، وكانوا يطلقون علينا النار، طوال الوقت، بصورة مخيفة. ولكننا قفزنا الى داخل المصفحة الواحد تلو الآخر، ووقفنا فيها، واطلقنا النار في جميع الاتجاهات. واستطعنا تشغيل محرك المصفحة، وخرجنا من المدينة بسرعة. كانت دباباتنا على مدخل المدينة وتطلق النار الى داخلها. فاخذنا نشعل الاضواء ونطفئها لكي لا يطلقوا النار علينا. وصلنا الى محطة تجميع الجرحى، فاتضح هناك اننا الوحيدون الذين استطاعوا الخروج، وظل الباقون محجوزين. بقينا نحن السبعة سوية، ولم نرد مفارقة بعضنا بعضاً».

بعد انتهاء الحرب حصل نيف على اجازة وسافر الى منزله. وقبل سفره، حمّله قائده رسالة اشاد فيها بعمله، «لكي يكون لديه ما يريه لوالديه»، على حد قول نيف. واضاف: «كان الجميع هناك مسرورين مني. وقالوا ان هذا جميل من شاب تل أبيبي. لم يساعد الحظ مقاتلين آخرين، ظلوا محجوزين في مدينة السويس، بالمقدار نفسه. ونجح احد سائقي الباصات في القفز الى الرصيف، وتشغيل الباص والعودة به في اتجاه

خلفي، دون وقوع اية إصابة، بينما بقي سائر الجنود محجوزين. وسارع بعضهم الى الاختباء وراء حاجز السكة الحديد القريب.

تذكر شلومو عراد، المصور الصحافي: «اطلقوا علينا النار من كل نافذة، ولم يكن هناك منزل لم يطلقوا منه النار. وكان الجرحى ممددين على الطريق يستغيثون، فانطلق المظليون نحوهم في محاولة لانقاذهم من النيران، فأُصيب بعضهم ايضاً. وسمعت ايضاً صرخات استغاثة من داخل الباصات المصابة. وألقى الجنود المصريون، الذين تحصنوا داخل المنازل، قنابل يدوية علينا دون اي جهد. وببساطة ألقوها من النوافذ. وتمدد الجرحى في وسط الطريق، واخذوا يتلقون الرصاصة تلو الاخرى. وكانت اجهزة اللاسلكي تولول دون انقطاع: «نطلب مساعدة، لم نعد نحتمل اكثر من ذلك...». وتلقت مصفحة يوسي، قائد القوة، اصابة بازوكا مباشرة. وجرح القائد، وجرح الرجال الذين كانوا معه ايضاً او قتلوا.

روى احد جنود القوة: «في تلك اللحظة، بينما كان اطلاق النار في ذروته، توقفنا بالقرب من مبنى بدا وكأنه محصن. وقررنا القفز الى داخل ساحة هذا المبنى، لكي نحاول تحديد مصدر النار. وازداد اطلاق النار، وشاهدنا عدداً من الجنود المصريين خارجين من المبنى، فاطلقنا النار عليهم واصبناهم، وتمكن بعضهم من الفرار». ودخل ثلاثة جنود، وهم روني حاخام وآبا ليبل، الذي قدم من كندا ليشترك في الحرب، ودافيد زوهر، الى المنزل لتطهيره من الجنود المصريين الذين تحصنوا فيه.

قال دافيد زوهر: «بدأنا الانقضاض، واذ بالذخيرة تنفذ. وبقي المصريون في الطابق الثاني من المنزل، واستولينا نحن على الطابق الاول. ثم دخلت مفرزة اخرى لمواصلة المهمة».

اكتشف المظليون دشمة في الساحة، وألقوا الى داخلها قنبلة فوسفورية، فخنقهم دخانها. وتم تطهير الدشمة. وعلى الفور واصل المظليون الاندفاع الى داخل غرف المنزل. واضاف: «خرج من احد الغرف ثمانية من رجال الشرطة المصريين رافعين ايديهم، واخرجناهم من المبنى». انهت المفرزة مهمتها في تطهير الطابق الثاني خلال عشر دقائق، بعد ان اصطدمت بجنديين مصريين واصابتهما.

والآن بعد ان اصبح المظليون داخل المبنى، لاحظ المصريون ما يجري. وبدأوا يطلقون النار من البازوكا على الغالب، صوب المبنى الذي اتضح للمظليين بانه مركز شرطة. وروى دافيد: «تطايرت علينا اجزاء من الجدران». ولكن المصريين لم ييأسوا، فحاولوا تنظيم هجوم مضاد لاحتلال مبنى الشرطة من جديد. وخلال الهجوم استطاع جندي مصري التسلل الى داخل المبنى وإلقاء قنبلة، فرآه داني عوزي واطلق النار عليه من مدى قريب واصابه.

وتمركز المظليون في المبنى ، وكان الهاتف يدق دون ان يرد احد . فدخل شرطي مصري ، لم يكن يعرف بأن المبنى قد احتل ، لكي يحذر رفاقه من اقتراب الاسرائيليين ، فلاحظه رفيق له ، شرطي مصري جريح ممدد على المدخل ، وهو يدخل فلم يحذره من الخطر ، بل شجعه ، فدخل ووقع في الاسر.

كان الجرحى ممددين في الشارع ويستغيثون . وحاول الجنود الاسرائيليون ضرب المصريين المختبئين وراء اكياس الرمل المثبتة في النوافذ . واخذ اطلاق النار يعربد بكل شدة . انتشل شلومو عراد جريحاً ، واراد ادخاله الى احد المنازل لمعالجته ، فوقف بالقرب من الباب ، وانقض مظلي آخر لتطهير المنزل . وما ان اقترب من الباب حتى أُصيبت خوذته وسقطت عن رأسه ، ثم رأى تحتها قبعة محاكة . وألقوا قنبلة يدوية الى داخل المبنى ثم دخلوا ، وبعد مرور دقيقة او دقيقتين ، حيث كان الجرحى عند المصعد ، دحرج جندي مصري قنبلة يدوية على السلالم الداخلية . وتم داخل المبنى نفسه تصفية سبعة جنود مصريين خلال وقت قصير . طلب الجنود المحجوزون المساعدة ، وطالبوا بإخلائهم ، وتصاعدت من الطريق صرخات الجرحى : « اماه اريد ان اعيش » . وقد ضاعت تلك الصرخات وسط ازيز الرصاص وصوت الانفجارات . وبحث المظليون عن منفذ في مبنى الشرطة للتخلص من الحصار. وحاولت دبابتان الحضور لمساعدتهم ، ولكن نظراً الى عدم وجود اجهزة لاسلكي معهم ، مر رجال المدرعات بهم بسرعة ، ووصلوا الى احد المفارق ثم عادوا كما جاءوا تحت النيران الشديدة . وحاول المصريون احتلال المُبنى مرة اخرى ولكنهم صدوا ، ثم بدأت معركة قنص ، حيث اخذ المظليون يصلون ، بين اشياء اخرى ، مقهى اختبأ فيه ثمانية جنود مصريين .

كان الوضع حرجاً . فقد تكبدت القوة الاسرائيلية عشرات الجرحى ، ولم يستطع احد انقاذهم . ولم يكن بالامكان تأمين مساعدة لهم من قيادة المنطقة الجنوبية . خيم الليل . وفي الظلام شوهد اللهب يتصاعد من المصفحات الاسرائيلية . وفجأة سمع انفجار شديد لخزانات الوقود وانطلقت صرخة قوية من جندي داخل المصفحة التي تلتهمها النيران . واستطاع هذا الجندي القفز ، في اللحظة الاخيرة ، من المصفحة المشتعلة . وانطلق نحوه مضمدان وادخلاه الى المبنى ، واخذت الذخيرة تنفد . وكان المصريون يطلقون النار من فوق سطوح المنازل المجاورة ، ولم يكن للمظليين ما يردون به عليهم . فجمعوا ذخيرة من الرفاق الجرحى ، وردوا باطلاق النار صوب اهداف محددة . ولما كان المصريون قريبين منهم ألقوا عليهم قنابل يدوية . وفي مرحلة معينة خفت النيران المصرية ، وشاهد المظليون في منزل مقابل مركز الشرطة ، جنوداً مصريين يتجولون بحرية . ونادوا عليهم بالعربية للاقتراب ، اقترب احدهم حقاً حتى مدخل مبنى الشرطة . وكان رافي غنيش ينتظره هناك فأمره برفع يديه . فهرب المصري بينما يطلق رافي النار وراءه دون ان يصيبه .

اما المظليون الذين تمركزوا داخل المنازل ، فانصرفوا طوال الوقت تقريباً الى انقاذ الجرحى ومعالجتهم واطلاق النار صوب الجنود المصريين . واطلقوا النار ايضاً صوب قوات كبيرة كانت تسير بعيداً داخل المدينة .

وفي اسفل اشتعلت المصفحات وانفجرت الذخيرة التي كانت داخلها . وبذلت محاولات لحصر مصادر إطلاق النار ، وركض ايلي شفارتس قائد الفصيلة على الطريق وهو جريح ، محاولاً اكتشاف مكان وجود المصريين بدقة . وكان يتمركز داخل احد المنازل عشرة جنود اسرائيليين ، من بينهم اربعة جرحى . ولم يعرفوا مكان القوات الاخرى. وصدرت اليهم تعليمات مفصلة باللاسلكي تحدد المكان الذي عليهم الوصول اليه ، فحملوا الجرحى على ظهورهم والتحقوا بقوة اخرى ، كانت على مقربة منهم . وفي النهاية التحقت القوة بأسرها بالجنود المحاصرين ، في مبنى الشرطة .

بدا الخلاص يلوح في الافق ، واستعدت القوة للنوم والحراسة . وفي الليل ، وتحت جنح الظلام ، تسلل بعض الجنود الاسرائيليين الى المجنزرات لكي يحضروا منها ما تبقى من ذخيرة ومؤن . ووجدوا داخل احد المجنزرات يغئال ، وهو مضمد ميداني حظي بوسام خلال حرب الايام الستة ، مصاباً في رأسه . فانتشلوه من داخل المجنزرة ونقلوه الى مبنى الشرطة . التقطوا في غرفة عمليات القيادة الجنوبية في سيناء الرسائل اللاسلكية التي بعثت بها القوة الاسرائيلية المحاصرة . وكان من الواضح انه اذا لم يتم انقاذ القوة من داخل المدينة خلال ساعات الليل ، فسيتقرر مصيرها في الصباح . وحاول دوديك ، قائد السرية ، وهو احد الذين احتلوا تلة الذخيرة خلال حرب الايام الستة ، ان يحدد للقيادة مكان وجوده . وامره الجنرال غونين بالصعود الى السطح ، وان يصف له باللاسلكي ما تشاهده عيناه . وفي غرفة العمليات ، تناول الجنرال صورة جوية لمدينة السويس وتابع اوصاف دوديك . وفي نهاية جهد استمر وقتاً طويلاً ، استطاع الجنرال تحديد موقع المنزل ، حيث كانت الوحدة الاسرائيلية محجوزة فيه داخـل المدينة . ومنذ تلك اللحظة هو الذي اخذ يوجه دوديك وجنوده العشرة بكيفية الخروج من المصيدة وهو يرشدهم باللاسلكي بموجب الصورة الجوية .

في الساعة الثانية ليلاً ، انطلقوا في الطريق . وروى دوديك : « صدر الامر بالسير على الطريق الرئيسي ، حتى الخروج من المدينة ، مسافة اربعة كيلومترات . ولكن كان من المستحيل السير على الطريق الرئيسي ، فقد كان مليئاً بالقوات المصرية . بدأنا السير ومررنا بالقرب منها . سرنا بهدوء وبينما كنا نسير على الطريق ، وطأنا على صفائح وقطع من الحديد وحدثت ضجة هائلة ، واخذنا نرتجف من الخوف » .

عبرت القوة الازقة ، وسمعت اصوات الجنود المصريين امامها ووراءها ، وفي حالة واحدة على الاقل مرت على بعد مترين فقط من الجنود المصريين . وروى رفائيل غنيش : « اعتقد المصريون اننا منهم ولم يسألوا اسئلة » .

اصطدمت ايضاً بعض المفارز بجنود مصريين . واشتبكوا معهم ، واصابوا بعضهم ، ثم واصلوا السير . وسار بعض الجرحى مشياً على الاقدام . وفجأة أضيء مصباح ، فتوقفت القوة الاسرائيلية لحظة . واعتقدوا ان هؤلاء هم مصريون . فاقتربوا بحذر واكتشفوا حاملة جنود اسرائيلية . وكان رجال المدرعات الذين كانوا في الموقف الذي وصل اليه المظليون ، متوترين . فقد كانوا يتابعون طوال الليل جهود الانقاذ اليقظة . واما قائد السرية المدرعة فلم يسيطر على انفعاله : « يا رفاق خذوا سجاير ، خذوا سجاير». وقال آخر : « قلقنا عليكم » .

توهج من بعيد مصباح آخر . وقال احد رجال المدرعات : « عندما تصلون الى هذا المصباح تستطيعون ان تغنوا وترقصوا » . وواصلت القوة السير حتى وصلت الى مكان أمين .

كانت عقارب الساعة تشير آنذاك الى الساعة ٤,٣٠ فجراً .

كبدت المعركة التي دارت في مدينة السويس قوة المظليين الاسرائيلية خسائر جسيمة . ولكن رغم الخسائر وقفت القوة على مشارف المدينة . وبينما كانت المعركة في مدينة السويس مستمرة مرت القوة المدرعة التابعة لفرقة ماغين على المحور ، الذي يلتف حول مدينة السويس ، وانطلقت فيه حتى ميناء الادبية . فاستكملت محاصرة الجيش الثالث . ولكن لم يتم احراز هدف الهجوم الاسرائيلي غربي القناة بأكمله — لم يستطع الجيش الاسرائيلي محاصرة الجيش الثاني في القطاع الشمالي شرقي القناة .

في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) اعلن عن وقف القتال مرة اخرى . وكانت القوة الاسرائيلية في تلك المرحلة موجودة في مشارف الاسماعيلية . ووصلت قوات اسرائيلية على مسافة نحو ٤٠ كيلومتراً غربي القناة ، حتى الكيلومتر ١٠٥ على طريق القاهرة — السويس ، وهي تسيطر على المنطقة الواقعة بين السويس والاسماعيلية بأسرها ، بما في ذلك الرقعة الزراعية ، التي تم تطهيرها تماماً . اما القوات المصرية ، التي وجدت نفسها في وضع مربك ، بعد النجاحات الاولى ، فكانت منتشرة على امتداد خط بار — ليف ، شرقي القناة ، على مسافة تتراوح بين ٥ — ٧ كيلومترات ، فيما عدا الممر الصغير بين شمالي البحيرة المرة الصغيرة ، وبين وسط الموقع المصري الذي لم يتم احتلاله . ولم يحرز اي من الفريقين اهدافه القتالية في هذه الجبهة . وانتهت الحرب غير المكتملة .

الفصل الرابع عشر

دبابة في مواجهة صاروخ

وقعت الحرب على الجنرال شموئيل (« غوروديش ») غونين كالرعد في يوم صاف . لقد مر شهران فقط على تعيينه قائداً للمنطقة الجنوبية ، بعد ان ترك القائد السابق ، اريئيل شارون ، الجيش الى الحياة السياسية . وقد عمل غونين ، خلال شهرين ونصف ، من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل . قام بجولات وزيارات ، لخص المهام الملقاة على عاتق الوحدات ، أبدى ملاحظات ، وحاول إدخال مناهج وعادات جديدة الى القيادة الخاضعة لسلطته . وتفحص خطط القيادة المعدة لحالة الحرب وتفقد تحصينات خط بار — ليف .

جرت آخر حرب أدارها الجنرال غونين بعد فترة قصيرة من تعيينه قائداً للمنطقة الجنوبية . وصل الى قيادته ، في احد الايام ، خبر مفاده ان مجهولين خطفوا جنوداً قرب دير سانت كاترين الواقع في قلب سيناء ، واصعدوهم الى سيارات عسكرية مسروقة ، وساقوهم الى اعماق الصحراء . وبدا الامر اول وهلة وكأنه عملية خطف اخرى نفذتها احدى منظمات الارهاب الفلسطينية . ولكن التقارير التي اعقبت ذلك ، اوضحت ان الخاطفين هم ثلاثة هاربين من الخدمة العسكرية وفتاة ، قبض عليهم بمحاولة سلب سواح في جوار الدير ، وفروا ، بعد القبض عليهم ، من سجنهم العسكري ، واخذوا معهم رهائن لتفادي القبض عليهم مرة اخرى .

وقد طار الجنرال غونين في طائرة هيلوكبتر الى محور السير الذي افترض ان الخاطفين سلكوه . وعندما اوقفت سياراتهم ، قرب حاجز الجيش في الطريق الى ايلات ، اخذ غوروديش على عاتقه مهمة اقناعهم بالاستسلام . وتوجه نحوهم بمفرده ، وكأنه دون سلاح ، بينما كان معه ، عملياً ، مسدسه الذي كان يحمله دائماً . ووقف غونين مقابل الفتية الاربعة المذعورين ، الذين صدموا من فعلتهم ، وطالبهم بتسليم انفسهم ، وعدم المساس بالرهائن الذين يحتجزونهم . وبعد اكثر من ساعة ، امضاها في اقناعهم ، سلم الخاطفون انفسهم بسلاحهم . وانتهت العملية بانتصار غونين .

انما لسوء الحظ ، لم يكن بالامكان اخضاع الجيش المصري ، الذي عبر قناة السويس ، وحصل على موطىء قدم في الضفة الشرقية للقناة ، بالاسلوب نفسه . ولم يكن غونين ، عندما نشبت المعارك في ظهر يوم الغفران ، اكثر من قائد جديد في منصبه . [...] وكان جميع قادة الفرق ، الذين تحت امرته في سيناء ، اعلى منه رتبة ، سواء في الجيش الاسرائيلي او في سلاح المدرعات ، الذي ارتقى غونين من بين صفوفه . فقد كان كل من الجنرال ابراهام أدان وابراهام مندلر قائداً لغونين في الماضي . وكان قائد فرقة اخرى ، الجنرال شارون ، قائداً قديماً قام بأعمال كثيرة ، وقاد المنطقة الجنوبية اكثر من ثلاث سنوات .

وفاجأت الحرب ايضاً العميد آرييه ليفي . كان قد عين في منصبه الكبير في الاركان العامة ، كمساعد لرئيس شعبة الاركان العامة قبل نحو شهر من الحرب ، محل الجنرال يونا افرات الذي بدأ مهامه كقائد للمنطقة الوسطى بدلاً من الجنرال رحبعام (« غاندي ») زئيفي ، الذي سرح من الجيش .

ولم يكن الجنرالان غونين وأفرات والعميد ليفي ، الوحيدين الذين تسلموا مراكزهم الجديدة قبل فترة وجيزة من اندلاع الحرب . فقد اجرى الجنرال دافيد (« دادو ») ألعازار ، خلال سنتين بعد تعيينه رئيساً للاركان العامة ، تغييرات في اشخاص القيادة العليا للجيش ، بسرعة لا مثيل لها في تاريخ الجيش الاسرائيلي منذ انشائه . وخلال هاتين السنتين كان من بين هؤلاء الضباط الكبار من تنقل في عدد من الوظائف . واستبدل الجنرال ألعازار ، منذ تعيينه رئيساً للاركان وحتى عشية حرب يوم الغفران ، ثلاثة وثلاثين شاغل منصب من اصحاب اعلى الرتب في الجيش : جنرال ، وعميد وعقيد . وكان هذا مجرد الجزء الظاهر من جبل الثلج . اذ جرَّ كل تعيين ، في اعقابه ، تعيينات كثيرة اخرى ، لم يعلن عنها على الملأ لاسباب امنية . وخلاصة القول ، جرت خلال سنتين تغييرات في مناصب عدد كبير جداً من الضباط .

لقد دهمت الحرب الجيش الاسرائيلي وهو في فترة تنقلات ، مع كل ما ترتب على ذلك بالنسبة الى موضوعات اتخاذ المواقع والتنظيم . من المعروف ان كل ضابط كبير في الجيش الاسرائيلي يحتاج الى فترة ما للتكيف مع المنصب الجديد ، ليعطي بعدها مردوداً من هذا التعيين . والعادة المتبعة في الجيش الاسرائيلي ان يشغل الجنرال منصبين رفيعين ، من ثلاث الى اربع سنوات . ويشغل الجنرال المرشح لرئاسة الاركان منصباً ثالثاً ايضاً — منصب رئيس شعبة [...] الاركان العامة ، التي هي الدرجة الاعلى في سلم ترقي الضباط في الجيش ، باستثناء منصب رئيس الاركان .

وقد تقرر اتباع هذا العرف في التعاقب كي يعتزل الضباط الكبار الخدمة العسكرية لدى وصولهم الى سن ٤٥ ، للمحافظة على قيادة الجيش الاسرائيلي دائماً شابة ، نضرة

ومتجددة . ولكن هذا المبدأ لم يطبق في السنوات الاخيرة بدقة ، وارتفع متوسط عمر القيادة العليا من سنة الى اخرى .

ان الذين يخدمون في الجيش بشر وليسوا اشخاصاً آليين . ويمكن ان تكون العلاقة الشخصية بين هذا الضابط او ذاك ورئيس الاركان ذات تأثير غير قليل على ترقيته ، وهذا ما عبر عنه بلغة الجيش بالقول : « من الافضل للعجلة ان تكون مشدودة الى الحصان » . فكل قائد يرغب في ان يكون بجانبه اشخاص تجمعه بهم لغة مشتركة ، ويعتمد على احساسهم بالمسؤولية ورجاحة رأيهم . ولذلك امتنع الجنرال بار — ليف ، في السنة الاخيرة من شغله لمنصب رئيس الاركان العامة ، من تعيين ضباط كبار جدد ، كي لا يضع رئيس الاركان الذي سيخلفه امام حقائق منتهية . وجمدت التعيينات .

لم يكن واضحاً حتى بداية سنة ١٩٧٢ ، من سيكون رئيس اركان الجيش الاسرائيلي القادم . اعترض وزير الدفاع بشدة على عدد من المرشحين . ولكن دايان ، كما حدث بالنسبة الى قضايا اخرى ، لم يقاتل دفاعاً عن موقفه . واختير في النهاية الجنرال ألعازار رئيساً للاركان ، بدعم من الوزيرين يغئال آلون وبنحاس سابير ورئيس الاركان الذي انتهت مدته حاييم بار — ليف . وعندما تسلم الجنرال ألعازار مهام منصبه لم يكن هناك شك في ان ساعة التنقلات قد حانت ، ولكن لم يتصور احد المدى الواسع الذي ستشمله هذه التنقلات ، ولم يكن في هيئة الاركان العامة ، في بداية حرب يوم الغفران ، إلا جنرال واحد فقط من الذين خدموا فيها في اثناء حرب الايام الستة . واما الآخرون فقد استبدلوا جميعاً . وعندها فقط اتضح ان المدة التي امضاها القادة في مناصبهم اقصر من ان تمكنهم من قيادة الجيش في الحرب .

ونتيجة ذلك ، نشأت فوراً ضرورة استدعاء عديد من الضباط القدامى المجربين ، الى خدمة العلم ، لمساعدة قادة تنقصهم التجربة ، وان كانوا ممتازين . استدعي حاييم بار — ليف مثلاً ، في البداية ، لمساعدة قائد المنطقة الشمالية في مرحلة صد الاختراق السوري . وارسل بعد ذلك لتسلم قيادة الجبهة الجنوبية الى جانب الجنرال غونين . واستدعي قائد سلاح الجو السابق ، الجنرال مردخاي (« موطي ») هود ، قائد سلاح الجو في اثناء حرب الايام الستة ، لمساعدة بني بيلد ، قائد سلاح الجو الجديد ، وعين لادارة المعارك الجوية في القطاع الشمالي . واستدعي العقيد اوري بن آري ، من افضل ضباط قوات الجيش المدرعة ، ليخدم كضابط ركن في القيادة الجنوبية . وجند ضباط قدامى آخرون ليخدموا في اماكن اخرى في الجيش ، دون شغل مناصب حقيقية ، واقتصر عملهم على إسداء المشورة .

وكانت هذه الخطوة حكيمة دون شك . اذ كان من الضروري تجنيد عدد من كبار الضباط ، ممن سرحوا من الخدمة العسكرية قبل فترة قصيرة من نشوب الحرب ،

وكانوا متمرسين جيداً بظروف الجبهات التي خدموا فيها ، وتحريك القوات التي كانت بأمرتهم . وكان هناك مبرر لتجنيد ضباط كبار ، لمناصب في الاركان ، للتخفيف من العبء الهائل الملقى على هيئات الاركان المختلفة .

ولكن الى جانب اولئك الذين كانت هناك ضرورة لتجنيدهم ، تطوع للحرب ضباط مسرحون كثيرون ، دون ان يستدعيهم احد ، ودون حاجة اليهم . ارتدوا بكل بساطة ثيابهم العسكرية ، وعقدوا رتبهم ، وانطلقوا الى ميادين القتال ، كل بحسب ميوله الشخصية . ولم يجد احد لديه الشجاعة ليقول لهم انه لا لزوم لهم ، ويصدمهم ويعيدهم الى بيوتهم . ونشأ وضع بدا الامر فيه وكأن هناك تمييزاً بين ضباط الاحتياط الكبار ، حيث استدعي بعضهم وترك البعض الآخر . وبما ان كثيرين من الضباط الكبار المسرحين هم شخصيات سياسية معروفة ، كان يمكن ان ينشأ الانطباع بان التجنيد تم وفقاً لاعتبارات حزبية . وكانت هذه هي حقاً الصورة في الايام الاولى للحرب ، حيث كانت اكثرية اسماء الجنرالات الاحتياط المجندين تقترن بالحزب الحاكم . بينما لم يجند جنرالات ينتسبون الى احزاب اخرى .

ومرت ايام عدة قبل ان يجند ايضاً جنرالات من حزب المعارضة ، ليكود ، من اجل تجنب الاتهام بان التجنيد تم على اساس البطاقة الحزبية . انما في هذه الاثناء تولدت ضرورة الموازنة بين القوى السياسية ، فجند جنرالات وضباط كبار آخرون ، لم تكن حاجة اليهم قط .

لا مجال للطعن في مساهمة قسم من ضباط الاحتياط الكبار ، وفي الاساس قادة القوات ، في مجريات الحرب وادارتها . فقد ساهم عدد من ضباط الاركان الكبار ، « أحصنة الحرب القدامى » على حد وصف رئيس الاركان ، مساهمة حاسمة في تقويم الاوضاع المتغيرة في الميدان من يوم الى آخر ، وفي اقتسام عبء العمل في الاركان . ولكن عدداً كبيراً من الضباط الكبار الآخرين كانوا بكل بساطة مصدر ازعاج ، واثقلوا عمل هيئات الاركان وعرقلوا سير العمل ، دونما فائدة . وكان لهذا الوضع انعكاس هامشي محزن . فقد تراوح عمر غالبية ضباط الاحتياط المجندين بين الـ ٤٠ و الـ ٥٠ عاماً . كانوا في حرب الاستقلال شباناً في سن العشرين او اكثر قليلاً . والحرب الحالية هي الاولى التي لاكثرهم فيها ابناء في سن التجنيد ، يقاتلون في الوحدات النظامية ووحدات الاحتياط في الجيش الاسرائيلي . نشأ وضع كان فيه لاكثرية ضباط الاحتياط الكبار علاقة عاطفية بالحرب ، تنبع من قلقهم على ابنائهم الذين يقاتلون في الحرب نفسها . ومنهم من ثكل ابناءه فيها ، وجاءته الاخبار عن ذلك في اثناء المعارك .

ولكن الانعكاس الاخطر كان في حقيقة ان اكثرية القادة كانوا خريجي حروب اسرائيل الماضية . وتجربة الماضي ليست دائماً ايجابية ، حيث يميل القـادة الى انتهاج

الاساليب نفسها التي استخدموها في حروبهم السابقة ، وهم اقل مرونة تجاه التقويمات الجديدة والاساليب العسكرية الحديثة .

وقع أحد الامثلة على ذلك في اليوم الثاني من الحرب . فبينما كانت قوات الجيش النظامية في الجبهة الجنوبية ، مشغولة بصد الهجوم المصري ، وفرق الاحتياط في طريقها الى الجنوب ، تأخرت وحدة احتياط في التحرك . كانت مشكلة من مزيج من القوات النظامية وجنود الاحتياط . ولم يكن قسم من جنودها في منازلهم عندما صدرت الاوامر باستدعائهم . صحيح ان التجنيد العام اعلن صباح يوم الغفران ، اليوم الوحيد في السنة الذي يمكن فيه معرفة مكان تواجد كل شخص من سكان اسرائيل ، الا ان افراد الاحتياط في هذه الوحدة لم يكونوا في منازلهم .

ان عبء الخدمة الاحتياطية في اسرائيل هي إحدى المشاكل الاجتماعية الاكثر ازعاجاً . ويخصص جزء من فترات تجنيد الاحتياط لاجراء تدريبات ومناورات مشتركة . ولكن المجندين يقومون ، في الجزء الآخر من خدمتهم الاحتياطية ، بالمهام الروتينية للجيش النظامي التي تشمل الحراسة وحماية الحدود .

واتفق ان الحرب دهمت قسماً من جنود وحدة المدرعات تلك ، وهم في الخدمة الاحتياطية ، وموزعون في مراكز ومواقع ومنشآت على طول الحدود الاردنية او الحدود السورية حيث اصبحت هناك ضرورة لتجميعهم من الاماكن التي وزعوا فيها ، وتنظيمهم في إطار وحدتهم . وعندما تم تجميعهم ، حملوا مع دباباتهم على الناقلات ، وأرسلوا باتجاه الجنوب . وبما ان الوضع في الجبهة الجنوبية كان حرجاً ، جرى إرسال كل دبابة فور تجهيزها الى الجبهة . وهكذا لم تتحرك الوحدة كوحدة مقاتلة ، وانما ارسلوها « تقطيراً » الى الجبهة . وفي هذه الاثناء تغيرت الصورة في الجبهة . ووجد عدد من دبابات الوحدة نفسه في خضم الحرب وهو لا يزال على بعد عشرات الكيلومترات وراء خطوط الجبهة .

لقد ادخل المصريون في الحساب ، عند تخطيطهم لعملية الغزو ، حقيقة ان الجيش الاسرائيلي هو في الاساس جيش احتيـاط . عرفوا ان القوات التي تحافظ على خط بار – ليف في القناة هي قليلة نسبياً ، ويمكن التغلب عليها بهذا الثمن او ذاك ، وكان تخوفهم الرئيسي من وحدات الاحتياط التي ستعزز الجيش النظامي ، والمحتمل وصولها الى الجبهة خلال ٢٤ ساعة من نشوب المعارك . ولذلك أُلقيت على عاتق نخبة الجيش المصري ، ألوية الكوماندو المدربة ، مهمة قطع الطريق على قوات الاحتياط للحيلولة دون وصولها الى الجبهة لتعزيز القوات الاسرائيلية . كان من المقرر ان تحمل عشرات الطوافات السوفياتية الضخمة ، في ليلة ٦ – ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، بعد احتلال رؤوس الجسور في الضفة الشرقية مباشرة ، ألوية كوماندو باسلحتها الكاملة لإنزالها خلف خطوط قوات الجيش الاسرائيلي . وكانت وحدات الكوماندو هذه ، ككل وحدات سلاح المشاة المصري على القناة ، مجهزة بسلاح مضاد للدروع ، وخصوصاً ببازوكات روسية

من طراز آر.بي. جي. وكانت مهمة قوات الكوماندو المصريه المجوقلة احتلال مفارق طرق ونقاط حساسة على محاور الحركة المركزية في سيناء، وضرب الدبابات والمدفعية. وقد انزلت عشرات من الطوافات المصرية في تلك الليلة جنود الكوماندو في جميع انحاء سيناء، على بعد عشرات الكيلومترات خلف خطوط الجبهة. وانزل ايضاً لواء كامل من جنود الكوماندو في منطقة شرم الشيخ، وكلفت وحدة اخرى بمحاولة احتلال مواقع الجيش الاسرائيلي على طول ساحل خليج السويس، من رأس سودار الى حقول النفط في أبو رديس. وقد اسقطت نيران المدفعية الارضية وطائرات سلاح الجو الاسرائيلي في الليلة الاولى ١٨ طوافة بمن فيها من الجنود. غير ان طوافات اخرى مجهولة العدد نجحت في الوصول الى اهدافها، وانزلت هناك جنود كوماندو ثم عادت الى قواعدها في غربي القناة سالمة. كما انزلت في الوقت نفسه وحدات كوماندو عن طريق البحر على طول ساحل البحر المتوسط بموازاة طريق العريش – رمانه. وتدل الظواهر على ان عملية المصريين هذه قد ارتبكت، وربما كان اسقاط هذا العدد الكبير من الطوافات بمقاتليها، قد ردع المصريين وجعلهم يتخوفون من المجازفة باحتياطهم من جنود الكوماندو، الذين كان من المقرر انزالهم خلف خطوط قوات الجيش الاسرائيلي.

غير انهم عاودوا، في الليالي التالية من الاسبوع نفسه، محاولة انزال جنود كوماندو من طائرات هيلوكبتر مراراً، لكن ذلك لم يكن بالكثافة التي حصلت في الليلة الاولى من الحرب.

لقد تجسدت النظرية السوفياتية الحديثة لاستخدام قوات الكوماندو في هذه الانزالات. ذلك ان السوفيات يذهبون الى استخدام وحدات الكوماندو بحجم متوسط، يشتمل على فصيلة او سرية في حين ان العرف السائـد في الجيوش الأخرى ان جنود الكوماندو يعملون بوحدات صغيرة، بأسلوب «اضرب واهرب». ولعل هذه النظرية بالذات هي التي اربكت مجرى العملية التي كلفت بها وحدات الكوماندو المصرية. فبعد إسقاط هذا العدد من الطوافات، واستحالة الاستمرار في زج المزيد من القوات للوصول الى الحجم المطلوب وفق خطة العملية، لم ينفذ، بكل بساطة، جنود الكوماندو مهامهم، واكتفوا بالاختفاء والمراقبة، بانتظار وصول قواتهم المدرعة والارضية وانضمامها اليهم.

وقد نجح المصريون في انزال جنود كوماندو باعداد كبيرة استطاعت العمل في إطار فصيلة قطاعين فقط: في شرم الشيخ جنوباً، وفي القطاع الشمالي من قناة السويس. وكان هذان القطاعان هما اللذان برز فيهما جنود الكوماندو المصريين في الحرب.

عندما اندفعت دبابات الوحدات المدرعة الاسرائيلية الاولى الى الجبهة الجنوبية، في الساعات الاولى من صباح يوم الاحد، اصطدمت بكمين كبير من جنود الكوماندو المصريين.

سمح هؤلاء لقوات القيادة، التي كانت تسير في المقدمة، بالمرور بسلام. وعندما وصلت الدبابات اليهم فقط، فتحوا باتجاهها نيران المدافع المضادة للدروع، فأُصيب، في الرشقات الاولى، عدد من الدبابات بصواريخ البازوكا التي أُطلقت عليها من مدى قصير، وسقط الجنود الاوائل من الوحدة قبل وصولهم الى الجبهة.

روى احد القادة عن الاصطدام بكمين الكوماندو: «لقد قاتلوا بصورة انتحارية. خرجوا نحونا من مسافة امتار قليلة، وسددوا بازوكاتهم الى الدبابات، ولم يخشوا شيئاً، كانوا يتدحرجون، بعد كل قذيفة، بين العجلات فعلاً، ويستترون تحت شجيرة في جانب الطريق، ويلقمون البازوكا بطلقة اخرى».

ورغم إصابة الجزء الاكبر من جنود الكوماندو فوراً، لم يهرب زملاؤهم بل استمروا في خوض معركة عرقلة، معركة انتحارية، مع الدبابات – كما لو انهم صمموا على دفع حياتهم ثمناً لمنع الدبابات من المرور. واضطر جنود المدرعات الى خوض معركة معهم، وهم يطلقون النار من رشاشاتهم من فوق الدبابات.

وعندما وصلت التقارير عن الاشتباكات مع جنود الكوماندو المصريين الى القيادات الاكثر قرباً من خط الجبهة، شكلت بسرعة قوة مصفحات انطلقت شمالاً لمساعدة وحدات الدبابات. وفي اليوم التالي احصيت في المكان جثث نحو ٧٥ رجلاً من جنود الكوماندو المصريين. وكان هذا درساً مذهلاً. لم يحدث لقائد تلك الوحدة، وهو من قدامى المحاربين، ان اصطدم من قبل، في اي من الحروب التي شارك فيها، بعمل من هذا النوع من قبل المصريين.

وكان هذا احد التقصيرات البالغة الخطورة. فالجيش الاسرائيلي لم يفاجأ باندلاع الحرب فحسب وانما باسلوب القتال المصري ايضاً. صحيح ان حقيقة تسليح الروس للجيوش العربية بصواريخ مضادة للدروع من طراز «ساغر»، لم تكن جديدة على الجيش الاسرائيلي، إلا انه لم يكن لدى الجنود في الجبهات معلومات وافية عن كيفية تطبيق اسلوب القتال السوفياتي بهذه الصواريخ في الواقـع. فالجنود الاسرائيليون الذين تحركوا بدباباتهم نحو تجمهرات جنود المشاة المصريين، فوجئوا عندما انصب عليهم بغتة وابل من القذائف، من مسافة كيلومترين او ثلاثة. ووصفهم احد القادة: «كانوا يتحركون على شاكلة «الفيالق» الرومانية. كتلة من الجنود تتوسطها الصواريخ والدبابات. وهكذا كانوا يتوقفون ويتحركون الى الامام والخلف. فيلق روماني كثيف جداً».

وفوجىء الجيش الاسرائيلي، بالمقدار نفسه، من صورة استخدام الصواريخ السوفياتية الحديثة المضادة للطائرات، التي كانت في حوزة المصريين – صواريخ «سام ٦» و«سام ٧». كانت صواريخ «سام ٦» متحركة ومحمولة على ظهر آليـات، او

مصفحات ، بحيث تستطيع التنقل مع القوات المتقدمة . اما صواريخ « سام ٧ » ، او « سترلا » ، كما يسمونها ، فهي صواريخ كتف شبيهة بالبازوكا . ويصلح كل قاذف كهذا ، بجهاز الاطلاق والتصويب الخاص به ، للاستخدام مرة واحدة فقط .

لم تكن الاخبار عن وجود هذه الصواريخ في حوزة المصريين والسوريين ، جديدة على الجيش الاسرائيلي ايضاً . ولكن طرق استخدامها المكثف ، وحقيقة ان الجيش المصري درب على استخدام هذه الصواريخ باعداد كبيرة ، كانت بمثابة مفاجأة . وبالامكان معرفة مدى فعالية اسلوب استخدام هذه الصواريخ ، وصواريخ « سام — ٢ » و « سام — ٣ » التي نصبت في بطاريات غربي القناة ، وداخل الاراضي السورية ، مما نشر في الصحافة الاجنبية . ان اسرائيل لا تذيع عادة معلومات عن خسائرها من الطائرات . ولكن المجلة الاسبوعية الاميركية لشؤون الطيران ، « افييشن ويك » ، كتبت في مطلع شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ ان سلاح الجو الاسرائيلي خسر في الحرب ١١٥ طائرة — ٣٥ من طراز « فانتوم » ، ٥٥ قاذفة من طراز « سكاي هوك » ، ١٢ طائرة « ميراج » ، ٦ طائرات « سوبر ميستير » ، و ٦ طوافات . وتشكل هذه الطائرات بحسب تقدير المجلة الاسبوعية الاميركية ١٨ ٪ من قوة سلاح الجو الاسرائيلي قبل الحرب .

وادعت المجلة ان اربع طائرات اسرائيلية فقط أسقطت في معارك جوية ، بينما تم إسقاط الباقي بنيران المدفعية المضادة للطائرات والصواريخ .

ولكن اذا سبق لسلاح الجو الاسرائيلي ان تدرب قبل الحرب على اساليب التهرب من الصواريخ ، فان سلاح المدرعات لم يكن مستعداً في الحقيقة ابداً لاحتمال مواجهة هجوم مكثف بالصواريخ المضادة للدروع . وهكذا حدث ان وصلت الفرق المدرعة الاحتياطية الى الجبهة ، وتحركت للالتحام بالعدو المصري ، دون ان تكون لديها معرفة باسلوبه الجديد في القتال . ومرت ساعات كثيرة قبل اكتساب التجربة وتعلم الدرس . إلا أنه في هذه الاثناء فقدت دبابات كثيرة نتيجة إصابتها بصواريخ « ساغر »

[.......]

ومنذ عام ١٩٧٠ ثار جدل في اسرائيل بين الخبراء الفنيين حول ضرورة إجراء تغيير في بنية القوات المدرعة في الجيش الاسرائيلي . ولم يتعرض النقد الموجه للنظريات السائدة الى نوعية المدرعات الاسرائيلية او مستوى جنود المدرعات في الجيش ، او مستوى تدريبهم ، او مقدرتهم القتالية ، او قدرتهم على استخدام الاسلحة التي في ايديهم على الوجه الافضل ، وانما كان موجهاً ضد النظرية التكتيكية والاستراتيجية لحرب المدرعات ، وضد الطريقة التي استخدم بها سلاح المدرعات .

وتوصل الناقدون الى نتيجة لم تقبلها القيادة العليا للجيش الاسرائيلي : انه لم يعد هناك مكان لسلاح مدرعات منفصل في جيش حديث . واذا اراد الجيش الاسرائيلي

ان يكون جيشاً عصرياً ، فعليه ان يصفي سلاح المدرعات كذراع منفصلة ، وان يحول كل قواته البرية الى قوات مدرعة .

ومن الملائم الوقوف عند جوهر النقاش الذي دار بين الخبراء قبل ثلاث سنوات وشرحه . لانه لم يعد هناك شك اليوم ، بعد دروس حرب يوم الغفران ، في انه لو قبل رأي المطالبين بالتغيير ، لكانت نتائج الحرب ، في الجبهة الجنوبية على الاقل ، مختلفة تماماً .

تنقسم القوات البرية في الجيش الاسرائيلي ، كما في معظم جيوش العالم ، الى اذرعة منفصلة : مشاة ، مظليون ، مدرعات ، مدفعية واسلحة مساعدة ، كسلاح الهندسة او سلاح التموين ، اللذين يشكلان جزءاً عضوياً من الجهاز المقاتل .

ولا يمتلك كل سلاح كهذا قيادة خاصة به واساليب قتال منفصلة فحسب ، وانما ايضاً نظرية قتالية مختلفة . وتترك تقاليد كل سلاح ، بصورة حتمية ، طابعاً ثابتاً ومفتقراً الى المرونة بالنسبة الى اشكال تحريكه وكيفية تفكير قادته .

لقد ادعى عدد من المنظرين العسكريين المهمين في اسرائيل في حينه ، ان دروس الحرب الحديثة ، وخصوصاً حرب الايام الستة ، برهنت بما لا يقبل الشك ان الاستغلال الكبير للحركة والنار هو الذي يقرر نتيجة الحرب . بكلمات اخرى : ثبت انه لم يعد هناك مجال بعد لقيام اسلحة منفردة مثل المظليين ، المشاة ، وسلاح المشاة المدرع او المدفعية . وانها يجب ان تكون جميعها اجزاء عضوية من قوات مدرعة ، قائمة على سرعة حركة الآليات وتركيز مكثف للنيران . وقرر الخبراء انفسهم انه لم تحدث عملياً ، في حرب الايام الستة ، معارك مدرعات حقيقية على مستوى كبير .

قال احد الخبراء آنذاك : « ان نظرية حرب المدرعات ، كما اتضحت من قصص معارك المدرعات في حرب الايام الستة ، كانت قائمة في جوهرها على اختراق وحدات صغيرة نسبياً خطوط دفاع العدو ، ضمن الفرضية التي تحققت بان اختراقاً من هذا النوع سيقود ، في حد ذاته ، الى انهيار انظمة دفاعات العدو . وفي حالات معدودة فقط جرت معركة مدرعات ضد مدرعات ، ضمن حركة ونار ، فوق مساحات شاسعة وبكتل كبيرة . إلا انه من المشكوك فيه ان يكون هذا الشكل من حروب المدرعات فعالاً في الحرب القادمة ، المحتمل نشوبها في أية لحظة . لان هذه الحرب لن تقوم ، بحسب كل الدلائل ، على اساس اختراق خطوط دفاع العدو ، وانما على اساس حرب كلاسيكية مدرعات ضد مدرعات » .

ونشر هذا الكلام في اسرائيل في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠ ، اي قبل ثلاث سنوات من قيام البرهان على صحته نظرياً وعملياً .

وجزم ايضاً المعلق العسكري بنيامين عميدرور ، في مقالة نشرها في جريدة «هآرتس» في السنة نفسها : «لقد كان جيش الدفاع الاسرائيلي ، في حرب الايام الستة ، بعيداً جداً عن مستوى وقدرة قوات «البانتسر» (المدرعة) الالمانية في الحرب العالمية الثانية . وفي الحقيقة ، يجب ان نرى في هذه القوات ، في ايام مجدها ، سادة الفن العسكري في مجالها . ولهذا السبب بالذات فهي المقياس المهني الذي علينا ان نستخدمه » .

كان من الطبيعي ان يعارض قادة سلاح المدرعات في الجيش الاسرائيلي هذه النظرة . فالمفاخرة بالانتماء الى السلاح ، وانماط تفكيرهم العسكري ، التي تبلورت خلال سنوات طويلة ، والمراكز القيادية التي شغلوها ، ولدت معارضة طبيعية لإلغاء النهج القائم في الجيش من اسلحة برية مختلفة ، والتوجه بشجاعة اكبر الى خلق نماذج احدث واكثر ملاءمة لمتطلبات الحرب العصرية . وتداخلت في الجدل الكبير اعتبارات فرعية كانت هي الحاسمة في نهاية الامر ، مثل — من يتولى قيادة النهج الجديد للاسلحة البرية ، رجال المدرعات ام قادة قوات المشاة والمظليين ؟

لو عمل الجيش الاسرائيلي ، منذ بداية حرب يوم الغفران ، وفقاً للصيغة الثورية التي اقترحت له قبل ثلاث سنوات ، فلعله امكن تفادي مفاجآت الايام الاولى للحرب ، التي كلفت ثمناً باهظاً من الضحايا والدماء . ولو كانت لقوات المدرعات الاسرائيلية وحدات مشاة مرتبطة بها ارتباطاً عضوياً ، او مدافع هاون ثقيلة ملازمة ، لامكن استخدامها بفعالية ضد الكتل الضخمة من جنود المشاة المصريين المسلحين بالصواريخ . وليس هذا تظاهراً بالحكمة بعد وقوع الامر ، بل كان هناك اشخاص رأوا المستقبل ، وطالبوا باحداث التغيير ، ولم تقبل مطالبهم .

ولم ينجح الجيش الاسرائيلي عملياً في تحقيق الانعطاف الكبير في مجرى الحرب ، الا بعد ان حقق الاندماج الكامل ، المحكم والوثيق ، للقوات البرية في اطر على مستوى الفرق . وتقدم معركة الاختراق لعبور قناة السويس غرباً نموذجاً واضحاً على ذلك . إلا انه في هذه الحالة تم كل شيء ارتجالاً ، وليس بناء على مفهوم معد مسبقاً .

ادعى موشيه دايان ، وزير الدفاع ، في خطاب له امام مركز حزبه عشية انتخابات الكنيست الثامن : «لم يبدد الجيش يوماً واحداً او قرشاً واحداً في استعداده للحرب . هذه حقيقة اساسية ، ومن يقول غير ذلك ، فاما انه جاهل او مفتر . تحدث اخطاء حتى في اثناء الحرب ، ولكن جهاز الامن لم يضع الوقت ولم يغفل . ولم نصل الى هذه الحرب دون استعداد بالسلاح ، بالتدريبات والتحصينات . لم نكن مستعدين للتوقيت . ولكن ألم يكن الجيش مستعداً ؟ »

لقد خلق موشيه دايان لنفسه ، في العالم وفي اسرائيل ، صورة عبقري عسكري .

ولكن الخبراء والمنظرين العسكريين المقربين منه ، يعرفون حقاً ان دايان عادي جداً ويفتقر الى الخيال في تفكيره العسكري . وعندما يلصق شخص كهذا بغيره ، ممن يخالفه في الرأي وهو اخبر منه في فن الحرب ، صفة الجاهل او المفتري ، فان هذا غرور لا رصيد له . ان الوقائع تناقض تصريح دايان كلياً . فالجيش ، او جزء منه على الاقل ، في رأي خبراء عسكريين كثيرين ، لم يكن مستعداً لنوع الحرب التي املاها العدو عليه ، وخصوصاً العدو المصري .

لقد قدم سلاح البحرية الاسرائيلي في حرب يوم الغفران نموذجاً رائعاً لما يستطيع ان يحققه سلاح ، بامكانات متواضعة ، من انجازات اذا كيّف نفسه مع الواقع المتجدد ولم يخش التغييرات الجذرية . مرت على قيادة سلاح البحرية في اسرائيل اكثر الساعات توتراً في تاريخها حتى حدوث المعارك الاولى بين زوارق الصواريخ الاسرائيلية وبين زوارق الصواريخ السورية السوفياتية الصنع ، في ليل ٦ تشرين الاول (اكتوبر) . لقد كانت هذه الحرب هي الخامسة بالنسبة الى جميع اسلحة الجيش الاسرائيلي ، اما بالنسبة الى سلاح البحرية فكانت عملياً الحرب الاولى ، اذ لم يبرز هذا السلاح تقريباً في اي من الحروب الاربع الماضية التي خاضها شعب اسرائيل .

وقد عرف ذلك القواد والجنود الموجودون في تلك الليلة على ظهر زوارق الصواريخ . شقت الزوارق امواج البحر متجهة نحو الساحل السوري ، على بعد مئات الكيلومترات من ساحل اسرائيل . كان الليل حالكاً وبارداً . وكان على الزوارق ان تتفادى الساحل اللبناني ، الفاصل بين شواطىء اسرائيل وشواطىء سورية . وعند منتصف الليل اصبحت مقابل الساحل السوري .

وخلال دقائق معدودة ، اكتشفت زوارق الصواريخ السورية والاسرائيلية بعضها البعض ، ونشبت معركة بحرية هي الاولى من نوعها في العالم ، معركة صواريخ بحر — بحر . واطلقت في اثناء هذه المعركة ، للمرة الاولى ، في ظروف قتال فعلي ، صواريخ بحر — بحر اسرائيلية من طراز «غبريئيل» . واستمر تبادل اطلاق النار في عرض البحر اكثر من ساعة ونصف ، اتضح في نهايتها انتصار سفن الصواريخ الاسرائيلية تماماً . لقد اصابت مباشرة بصواريخ «غبريئيل» ، من انتاج الصناعة الجوية الاسرائيلية ، ثلاثة زوارق صواريخ سورية ، وكاسحة ألغام ، وزورق طوربيد واغرقتها . ولم يصب اي من عشرات الصواريخ السوفياتية ، التي أُطلقت من زوارق الصواريخ السورية ، الهدف . ولم يعد هناك شك ، عندما وصلت التقارير الى مواقع قيادة سلاح البحرية عن مجرى المعركة ونتائجها ، ان يوم السلاح الاغر قد اطل .

حتى تلك اللحظات ، في منتصف ليل ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، لم يكن بوسع قادة السلاح وقادة الجيش ان يتطلعوا الى اكثر من ان تكون المبادىء والنظرية والادوات ،

التي اعدها سلاح البحرية لحرب محتملة ، ملائمة في الحقيقة للمتطلبات والضرورات . ولكن اعتباراً من تلك اللحظات ، لم يعد ثمة شك في ذلك . لقد اجتاز سلاح البحرية الامتحان بشرف .

ان هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي لم تدلل في يوم من الايام سلاح البحرية . والعكس هو الصحيح ، اذ كان هذا السلاح دوماً في ادنى سلم الاولويات ، في كل ما يتعلق بامتلاك المعدات وتحديثها . وكانت الفرضية الاساسية ، الصحيحة في حد ذاتها ، هي ان نتيجة الحرب بين الجيش الاسرائيلي والجيوش العربية ستحسم في البر والجو . ولذا فاز سلاحا الجو والمدرعات بأولوية قصوى .

لقد تبنى سلاح البحرية الاسرائيلي ، قبل فترة ما من اندلاع حرب الايام الستة ، نظرية قتال جديدة . اتضح ان الحرب في البحر دخلت عصر الصواريخ . ولذلك قرر قادة السلاح الاستغناء عن سفن السطح الكبيرة والجسيمة ، كالمدمرات والبوارج الحربية الباهظة الكلفة والصيانة ، وقليلة الفائدة ، واختاروا بناء سلاح بحرية هجومي مجهز بسفن صغيرة ، وسريعة ، مسلحة بقوة نارية كبيرة . وتم التخطيط لذلك ، وشرع في صنع سفن الصواريخ الاولى ، من تصميم اسرائيلي ، في احواض السفن في شربورغ في فرنسا . وفي هذه الاثناء اندلعت حرب الايام الستة .

لقد دخل سلاح البحرية تلك الحرب وهو في اسوأ وضع عرفه . كانت سيطرة سلاحي البحرية المصري والسوري غير قابلة للنقاش . وعاد الصحافيون ، الذين وجهت اليهم الدعوة لزيارة وحدات سلاح البحرية الاسرائيلي ، قبل يومين من نشوب الحرب ، من الجولة وهم ابعد ما يكونون عن التفاؤل . ونتيجة ذلك اقتصرت العمليات المفردة التي قام بها سلاح البحرية في حرب الايام الستة على عمليات قام بها الكوماندو البحري داخل موانىء العدو .

وعندما أُغرقت لسلاح البحرية المدمرة « ايلات » مقابل شواطىء بور سعيد ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ ، وقع ذلك على رجال سلاح البحرية الاسرائيلي كالهزة الارضية . لقد غرقت المدمرة ، التي هي سفينة القيادة في سلاح البحرية الاسرائيلي ، بصاروخي « ستايكس » سوفياتيين ، أُطلقا عليها من الشاطىء المصري . وولد اغراق السفينة ارتباكاً معيناً . اذ نشأ تخوف ، في الفترة اللاحقة لذلك ، من ان يكون الصاروخ قادراً على كل شيء ، ولا رد عليه . وبدأ سلاح البحرية يبحث بسرعة جادة عن حلول ضد الصواريخ البحرية التي كانت في حوزة المصريين والسوريين .

هروب زوارق الصواريخ التي صنعت لحساب سلاح البحرية في ميناء شربورغ ، وتهريبها تحت انف الحظر الفرنسي ، وكذلك بناء قوارب انزال وزوارق صواريخ في الترسانات الاسرائيلية ، كلها زودت سلاح البحرية الاسرائيلي « بالاسنان » . وفي حرب

الاستنزاف ، اكتسب سلاح البحرية خبرة في التعاون مع اسلحة الجيش الاسرائيلي الاخرى (كالغارة المدرعة غربي خليج السويس ، والغارة على جزيرة غرين) وبدأ يكتشف ، شيئاً فشيئاً ، الامكانات المتجسدة في الوسائل الحديثة التي في حوزته . كانت المهمة الرئيسية لسلاح البحرية ، حتى حرب الايام الستة ، هي تأمين شواطىء اسرائيل من الاذى . واستخدم سلاح البحرية لهذا الغرض ، بالاضافة الى سفن الصواريخ ، زوارق من طراز « برترام » ، اقتنيت مباشرة بعد حرب الايام الستة . وشرع سلاح البحرية ، للمرة الاولى في تاريخه ، يبلور نفسه استعداداً للحرب كقوة هجومية . وساهم كل من قادته في السنوات الاخيرة ، شلومو هرئيل ، وابراهام (« تشيتا ») بوتسر ، والقائد الحالي بنيامين تيلم ، في بلورة نظرية قتال بحري اضافة الى اقتناء الاسلحة وتدريب الطواقم .

ولم يجهد المصريون ، في السنوات الاخيرة ، في تنمية سلاح بحريتهم وتقويته ، بعكس انفاقهم على الاسلحة الاخرى . ويبدو ان قادة الجيش المصري وثقوا من تفوق قوتهم البحرية على قوة اسرائيل ، وادركوا ان اسرائيل لن تتمكن ابداً من تقليص الفجوة في السلاح والمعدات . ولا يزال الاسطول الحربي المصري حتى الآن احد الاساطيل الحربية الكبيرة في البحر المتوسط ، ويتفوق في قوته حتى على الاسطول الحربي لقوة بحرية مثل تركيا . ان سفن سلاح البحرية المصري متنوعة وقادرة على الاستجابة لكل مهمة محتملة ، ابتداءً من قطع خطوط المواصلات البحرية ، وانتهاءً بمساندة الاسلحة البرية في هجمات الشواطىء . وقد قوّم الخبراء العسكريون في العالم سلاح البحرية المصري بانه « مبني بصورة متوازنة وسليمة » .

ان عدداً من سفن الاسطول المصري مسمر في البحر الاحمر منذ حرب الايام الستة . اذ حال اغلاق قناة السويس بينها وبين الابحار الى البحر المتوسط . وتشكل هذه السفن اسطولاً ذا شأن : ثلاث مدمرات (أُغرقت واحدة منها في غارة لطائرات سلاح الجو الاسرائيلي قرب الشواطىء السودانية) ، وغواصتان ، وزوارق صواريخ ، وزوارق طوربيد . ويتواجد جزء من هذه السفن ، بصورة دائمة تقريباً ، في بور سودان وفي عدن فيما بعد .

ولدى نشوب حرب يوم الغفران ، لعب الاسطول المصري في البحر الاحمر دوراً فعالاً فيها . بدأ قسم من سفنه بالتحرك نحو مضيق باب المندب ، مقابل جنوب اليمن ، لقطع الطريق على الناقلات التي كانت تحمل الوقود الى ميناء إيلات .

وفرضت هذه السفن عملياً ، حصاراً على المنفذ الجنوبي لاسرائيل ، واضطرت ناقلات النفط المتوجهة الى ميناء ايلات الى العودة من حيث أتت .

في الساعات الاولى من الحرب ، بعد ظهر يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، قررت هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي زج كل القوى الموجودة لديها في المعركة . وصدرت

الاوامر الى زوارق الصواريخ الاسرائيلية بالاقلاع نحو ميناء اللاذقية السوري لخوض المعركة البحرية الاولى مع زوارق الصواريخ التابعة للجيوش العربية .

ولو انتهت تلك المواجهة بانتصار الاسطول السوري ، لكان من المشكوك فيه ان يعاود سلاح البحرية الخروج لمهاجمة اهداف في عمق مؤخرة العدو . ولكن في ضوء فشل المعارك البرية في سيناء والجولان في اليوم الاول ، مثل نجاح سلاح البحرية شعاعاً من الامل . ومنح حرية العمل بصورة كاملة تقريباً اعتباراً من تلك اللحظة .

في الليلة نفسها حاولت سفن صواريخ مصرية الاغارة على شاطىء رمانه في سيناء . واغرقت طائرة اسرائيلية واحدة منها . وفي الوقت نفسه تقريباً اجتازت سفينتان حربيتان اسرائيليتان خليج السويس ، وتسللتا الى قاعدة سلاح البحرية المصري في رأس زعفرانه . وقد تلقى جنود الكوماندو المصريون السفينتين بنيران قوية ، واصابوا بحاراً اسرائيلياً قتل على ظهر السفينة . ولكن القوة الاسرائيلية ، في السفن الصغيرة ، نجحت في تدمير قوارب مطاط وزورق « برترام » تابع للكوماندو المصري .

وفي المقابل تحركت سفن صواريخ مصرية الى البحر الاحمر لمهاجمة شرم الشيخ ، التي كانت تتعرض منذ الظهر لهجمات الطائرات المصرية ، ومئات من جنود الكوماندو المصريين الذين انزلوا حولها من الطوافات . اقتربت سفن الصواريخ المصرية في حلكة الليل ، واطلقت من بعيد صواريخ « ستايكس » على اهداف اسرائيلية . وانفجرت الصواريخ محدثة دوياً قوياً وصدى كبيراً . اعترف قائد سلاح البحرية ، الجنرال بنيامين (« بيني ») تيلم : « بعد الليلة الاولى استعدنا ثقتنا وقررنا تدبر امر العدو في قواعده » . وفي ليل ٨ تشرين الاول (اكتوبر) توغلت قوة من سفن الصواريخ الاسرائيلية الى ميناء دمياط في مصر . ونشبت قرب الميناء معركة بحرية كلاسيكية ، دمرت خلالها ثلاث زوارق صواريخ مصرية من طراز « اوسا » ، ونجح زورق رابع ، اشترك في المعركة ، في الهرب . ولم تصب اي من سفن الصواريخ الاسرائيلية . ولم ير المصريون بعد هذه المعركة أية فائدة في تحريك مدمراتهم الى عرض البحر دون حماية من سفن الصواريخ . وقبع سلاح البحرية المصري في موانئه .

شجعت الانجازات سلاح البحرية على الاستمرار في الهجوم دون توقف . فقصفت سفنه منشآت على الساحل السوري ، وخزانات وقود في بانياس وطرطوس واللاذقية ، واغرقت سفينتي طوربيد أخريين . واندلعت النيران في مخزن النفط الكبير في بانياس ، واضاء اللهب المتصاعد من خزانات النفط حلكة الليل الى مسافات بعيدة .

وهوجمت على الساحل المصري اهداف عسكرية بالقرب من دمياط ، ومنشآت بحرية عسكرية شرقي الاسكندرية وغربيها ، وفي منطقة بور سعيد ، وعلى طول مصب

دلتا النيل في البحر المتوسط . وكان اعمق تسلل الى مقابل ساحل الكنايس ، الواقع على بعد ٢٠٠ كلم غربي الاسكندرية ، وعدة عشرات من الكيلومترات من ميناء مرسي مطروح القريب من ليبيا . وتحركت وحدات من كوماندو البحرية الى ميناء الغردقة ، على ساحل البحر الاحمر ، لشل زوارق الصواريخ المصرية فيه . وعلى الرغم من النيران الكثيفة التي انصبت عليها ، ووسائل الدفاع الاخرى التي استهدفت منع التسلل الى الميناء — كألغام العمق الملقاة في الماء — نجح جنود كوماندو البحرية في إغراق سفينتي صواريخ من طراز « كومار » هناك .

ولن يكون من المبالغة القول ان المصريين اعتراهم الخوف من سلاح البحرية الاسرائيلي . فقد ساد ميناءي بور سعيد والغردقة وضع تأهب طوال ايام الحرب . وأصيب في ميناء بور سعيد ، بحسب ادعاء المصريين ، اثنان من جنود كوماندو البحرية الاسرائيليين بألغام العمق . واعتبرتهما اسرائيل مفقودين .

لقد حذر سلاح البحرية الاسرائيلي ، في اثناء فترة الحرب كلها ، من أية مواجهة مع الاسطول الروسي الذي كان يتجول في البحر المتوسط الذي كان فيه ، خلال فترة الحرب ، نحو ٨٠ سفينة سوفياتية ، قام قسم منها بحراسة سفن التموين ، التي سارع الروس الى ارسالها الى كل من مصر وسورية ، واستخدم القسم الآخر لاغراض التنصت والتجسس .

سرت في اسرائيل في نهاية الحرب النكتة التالية : « كانت هناك في حرب الغفران ثلاث مفاجآت — الجيش المصري ، الجيش السوري ، وسلاح البحرية الاسرائيلي » . وقد عكست النكتة واقعاً مراً ومشجعاً في الوقت ذاته . فسلاح البحرية الاسرائيلي ، الذي بعثت نجاحاته الثقة في نفوس القادة والجنود على حد سواء ، والذي هيأ نفسه لحرب ١٩٧٣ بحسب نظرية عسكرية حديثة ، وجهز نفسه بأسلحة حديثة تلائم اهدافه ، قدم نموذجاً حسياً يوضح كيف يستطيع انقلاب في التفكير العسكري تحويل النوع الى كم .

الفصل الخامس عشر

ماذا جرى لدايان ؟

صدرت ، في الاسبوع الاول من حرب يوم الغفران ، مجلة المانية اسبوعية واسعة الانتشار بعنوان ضخم تحت صورة وزير الدفـــاع . تساءلت المجلة ، التي كان محرروها ، كمعظم محرري الصحف في العالم ، لا يعرفون كيف ستنتهي الحرب : «كم انتصار يستطيع شخص مفرد ان يحتمل في حياته ؟» . وكان في مجرد طرح السؤال ، على اية حال ، نوع من الجواب ، اي : ليس من المحتم ان تنتهي هذه الحرب بانتصار دايان .

واذا كان دايان قد فاز في حرب الايام الستة بهالة المنتصر في الحرب ، رغم ان كل ترتيبات الجيش الحربية كانت جاهزة ومعدة سلفاً قبل تعيينه وزيراً للدفاع ، وقبل عدة اسابيع من نشوب المعارك ، فان دوره في الانتصار العسكري في حرب يوم الغفران كان حتى اقل من ذلك . لقد ساهم تعيين دايان ، في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كوزير للدفاع ، مساهمة مهمة في رفع معنويات القوات المحاربة والشعب في الجبهة الداخلية . بينما نجح الجيش الاسرائيلي ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، في الانتقال من وضع معطيات بداية سلبية ، وتراجع جزئي ، الى وضع انتصار عسكري جزئي ، رغم وزير الدفاع موشيه دايان .

ويجد حتى اخلص اصدقاء موشيه دايان في اسرائيل والعالم انفسهم ، بعد الحرب ، مضطرين الى الاعتراف ان خطورة اخطاء وزير الدفاع قبل الحرب وفي اثنائها ، على الاقل في ايامها الاولى ، تفوق بما لا يقاس الاخطاء المحتملة والتي ينبغي ان تعزى الى الحكومة الاسرائيلية . وتنبع الخطورة في الامر من سببين ، الاول ظاهري ، والثاني جوهري. فوزير الدفاع هو المسؤول رسمياً امام البرلمان عن اعمال وتقصيرات جهاز الامن ، الذي يقع تحت مسؤوليته ، والذي يشتمل في الاساس وقبل كل شيء على الجيش . ومن ناحية موضوعية ، تحمل النظرة الامنية الاسرائيلية ، التي تقوم عليها السياسة بمعناها الارحب ، منذ سنة ١٩٦٧ فصاعداً ، طابع موشيه دايان .

ولكن وزير الدفاع – الذي كان في السنوات الست بعد حرب الايام الستة احد اكثر الشخصيات حظوة بالتقدير في اسرائيل ، وفي حالات كثيرة الرمز الاسرائيلي في نظر العالم – اكتفى بعد الحرب بالاعتراف علناً بمسؤوليته الرسمية فقط . ولم يشر دايان في اي مكان ، لا في حديثه مع رئيسة الحكومة في الاسبوع الاول من الحرب ، عندما ابدى لها استعداده للاستقالة من منصبه ، ولا بعد الحرب عندما خطب امام مركز حزبه ، ولو تلميحاً الى نصيبه في الكارثة التاريخية التي حلت باسرائيل في يوم الغفران .

لقد كانت هذه كارثة من جميع وجهات النظر ، حتى ولو كانت وجهة نظر « حمائمية » بارزة . وتشهد الانجازات التي حققها الجيشان المصري والسوري ، في الايام الاولى للحرب ، من زاوية الدول العربية ، على ضياع قوة الردع التي كانت للجيش الاسرائيلي . ويشكل البرهان الذي قدمه العرب لانفسهم ، بان لديهم فرصة للتغلب على القوة العسكرية الاسرائيلية ، في حد ذاته ضربة قاصمة لفرص السلام . ومن المحتمل ان تكون هذه الفرصة في الانتصار ، رغم تبخرها بعد ايام معدودة فقط ، قد نفخت روح الامل في الزعماء العرب بأنهم اذا ملأوا مخازنهم بكميات اكبر من السلاح الحديث ، وزادوا من استعدادهم لجولة عسكرية قادمة ، سيتمكنون من حل مشكلة الشرق الاوسط بوسائل عسكرية كما يريدون ، وليس بوسائل سياسية .

استمع احد الصحافيين الاسرائيليين الكبار الى موشيه دايان ، في حديث جرى في مكتبه في تل أبيب عشية عيد الفصح في سنة ١٩٧٣ ، وهو يطرح تقديراته الاستراتيجية الامنية . اشار دايان الى خريطة المنطقة المعلقة على الجدار خلف طاولته ، وحدد بلغة واقعية ما اسماه وقتها « ميزان الرعب » المتشكل في العالم العربي : الكميات الضخمة من السلاح المتطور من كافة الانواع ، المتدفقة من الشرق والغرب الى داخل المستودع العربي الكبير الممتد من مراكش الى الخليج الفارسي . وكان الامر الاكثر مدعاة للقلق في رأي دايان ، في اثناء تلك المحادثة ، هو حقيقة ان مصادر التزود بهذا السلاح متوفرة ، وان لم يكن بصورة متساوية ، في الدول الشرقية والغربية على حد سواء . وعلى اية حال ، سيوجه هذا السلاح ، في المستقبل ، ضد اسرائيل حتماً ، دون فارق في المصدر ، عندما ستشمل الحرب التي ستشن ضد اسرائيل ، كما يبدو ، ائتلافاً عربياً رغم الفوارق في انظمة الحكم . وقد شدد دايان على ان هذه الحرب ستندلع في السنوات العشر القادمة ، إلا اذا تم التوصل في هذه الاثناء الى حل سياسي يرضي الطرفين .

ورسم دايان ، في ظل غياب حل كهذا في الافق القريب ، على الخريطة نفسها حدود اسرائيل الآمنة الحيوية ، بحسب رأيه ، لتكون قادرة على الصمود بنجاح في وجه هذا الهجوم ، الذي سيتم في كل الجبهات في آن واحد . وشرح دايان ان هذه الحدود لا بد لها وان تمر « بجبل » – اي : جبال سيناء ، جبال اليهودية والسامرة ، جبل

الجولان – لان آذان محطات الرادار الاسرائيلية المصغية ، المحتم إقامتها على خط الجبال ، هي القادرة فقط على تقديم انذار فعال عن هجوم جوي مفاجىء .

ان المحادثة الموصوفة اعلاه هي نموذج واحد فقط عن نظرة وزير الدفاع الاستراتيجية ، التي شرحها واوضحها في السنوات الاخيرة في احاديث مختلفة ، سواء في الاطارات العسكرية او الاطارات السياسية . وكان رأي دايان ، في معظم المناقشات التي جرت حتى رأس السنة العبرية الذي حل في سنة ١٩٧٣ ، انه لا يوجد ثمة خطر نشوب حرب شاملة في المستقبل القريب . وكان يردد ، مراراً وتكراراً ، انه يمكن ان تقع حوادث منفردة على الحدود السورية ، او في منطقة القناة ، وانه ينبغي ان ندخل في الحساب امكان وقوع محاولة لعبور القناة من قبل المصريين ، في احد القطاعات وبحجم صغير ، بهدف حصول مصر على رأس جسر او موطىء قدم في الضفة الشرقية لقناة السويس . ولكن قناعة دايان ، التي شاركه فيها معظم ضباط هيئة الاركان العامة ، كانت ان الجيش الاسرائيلي سيصد الغزاة في مثل هذه الحالة بسهولة نسبية . بل على العكس ، كان رأي دايان ، وعدد من كبار الضباط الآخرين ، انه في ظروف معينة سيستغل الجيش الاسرائيلي هجوماً مصرياً محدوداً من اجل العبور الى الضفة الغربية لقناة السويس ، في اطار صده لقوات العدو العابرة .

لقد كان الخطأ التراجيدي الذي ارتكبه موشيه دايان ، الذي كان له تأثير بالغ على سياسة الحكومة ونظرات الجيش الاسرائيلي ، مزدوجاً – للسبب الرسمي المتمثل بكونه يشغل منصب وزير الدفاع ، وللسبب الجوهري النابع من مركزه الخاص كقائد كاريزماتي : من جهة ، لم يعتقد بامكان اندلاع حرب شاملة في المستقبل القريب ، ومن جهة اخرى ، اعتقد انه في حال نشوب حرب محدودة ، في إحدى الجبهتين او في كلتيهما على السواء ، سيهزم الجيش الاسرائيلي العدو بسهولة . وقد اتضح ان دايان كان مطلعاً جيداً على خطط العمليات التي أُعدت في هيئة الاركان العامة ، وشارك حتى في اعداد بعضها . ولكنه لم يكن في السنوات الاخيرة مطلعاً ، كما يبدو ، على مقدرة الجيش الحقيقية على التنفيذ . ومع انه كان ، مثله في ذلك مثل كثيرين آخرين ، بين مروجي اسطورة جيش الدفاع الاسرائيلي القادر على تنفيذ كل خطة ، مهما كانت جريئة ، فانه لم يدقق كما ينبغي ما اذا كان لهذه الاسطورة غطاء كامل في الواقع .

وتنطبق هذه القاعدة ، بصورة لا تقل خطورة ، على تضلع وزير الدفاع في مجال كان مسؤولاً عنه طيلة السنوات في نطاق وزارته : الانتاج الذاتي لانواع مختلفة من الاسلحة ، من الذخيرة ، ومن ادوات الكترونية لسلاح الجو وسلاح الاتصال واسلحة اخرى . فقد تجنب دايان ، كوزير للدفاع ، التدخل في نشاطات اجهزة الجيش على المستوى التنفيذي ، وبدا كما لو انه حظر على نفسه قيادة هيئة الاركان او إصدار الاوامر

اليها . وكان اقصى ما فعله دايان هو انه ، في سياق المناقشات او بين مناقشة واخرى ، ابدى مشورات دعاها « وزارية » ، اي — غير ملزمة من الناحية الرسمية .

وامتنع دايان ، رغم كونه المسؤول المباشر الذي تقع ضمن نطاق مسؤوليته كل اذرعة الصناعة الحربية المحلية ، من التدخل ايضاً في هذا المجال ، وخول صلاحياته ، تبعاً للموضوع ، الى مساعدين ومستشارين ومدراء عامين .

وانشغل دايان عملياً ، في السنوات الاخيرة ، بموضوعين رئيسيين ، لم يتركهما ابداً : بلورة النظرة الاستراتيجية الامنية العامة ، من خلال الافتراض ان اقصى ما يمكن الوصول اليه هو اتفاق مع الدول العربية وليس سلاماً كاملاً ورسمياً . وادارة السياسة في المناطق المحتلة ، بما في ذلك الاستيطان اليهودي فيها .

ولذلك كانت الضربة التي تلقاها موشيه دايان في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، عندما عبر جيشا مصر وسورية خطوط وقف اطلاق النار بمساندة دول عربية اخرى ، ضربة صاعقة . وكانت تشتمل على نقض تراجيدي وشامل لكل نظرة دايان ورؤيته للعالم في ذلك الوقت . فقد اندلعت الحرب بصورة غير متوقعة ، في موعد غير متوقع ، بابعاد غير متوقعة ، في وقت لم يكن الجيش الاسرائيلي فيه ، بصورة اقل من المتوقع ، مستعداً كما ينبغي ، ولم يتمكن من تجسيد مواصفات اسطورة القوة التي روجت له بعد سنة ١٩٦٧ .

من اجل الحقيقة يجب ان نذكر ، على اساس ادلة لا يرقى اليها الشك ، ان دايان كان اقل اعضاء القيادة العسكرية والسياسية تفاجؤاً نسبياً باندلاع الحرب المداهمة في يوم الغفران . فقد لوحظت عليه في الايام التي سبقت رأس السنة العبرية ، في نهاية شهر ايلول (سبتمبر) ، علائم قلق من الوضع على الحدود الشمالية . ونظر دايان حينها ، بصورة متميزة عن الآخرين ، بقلق متزايد الى ما اسماه « فجوات » في خط الدفاع الاسرائيلي في الجولان . وأمر شخصياً ، خلافاً لعادته في الايام العادية ، بتعزيز الخط ومضاعفة المدرعات والمدفعية المحشودة هناك عشية الاعياد . وضغط ايضاً على هيئة الاركان العامة وجهاز الاستخبارات من اجل تزويده ، بتواتر غير مألوف ، بتقديرات حديثة للوضع حول ما يجري في الجيش السوري وتحشداته وراء خط وقف اطلاق النار .

ولكن دايان ، رغم قلقه ، لم يطعن في التقديرات التي قدمت اليه ، وسلم بالنتيجة — التي طلب تقديمها اليه كتابة ، كعادته بشأن كل اقتراح او مطلب آخر — بان احتمال الحرب ضئيل . ولم يشك دايان على الاطلاق ، فيما يتعلق بالحد الجنوبي وما يجري في الضفة الاخرى لقناة السويس ، بالتقدير ان الجيش المصري يجري بين رأس السنة ويوم الغفران مناورة تشكيلات ضخمة . مجرد مناورة لا اكثر . ولكنه أيد على الرغم من ذلك ، في هذه المرحلة ، الاقتراحات التي رفعت اليه ايضاً بتعزيز خط

الدفاع على طول القناة . وقد اعتمد دايان فيما يتعلق بهذا الموضوع على رأي رئيس الاركان بأن القوات النظامية واحتياطيها موزعة كما ينبغي ، ومستعدة من جميع النواحي لامتصاص الضربة الاولى ، اذا اتت وعندما تأتي . لكن دايان لم يعتقد اطلاقاً ، حتى ٥ تشرين الاول (اكتوبر) ، بناءاً على تقارير الاستخبارات ، ان الضربة ستأتي . ونظر دايان الى تحذيرات من نوع مختلف ، وردت الى مكتبه عن مصادر مدنية وسياسية ، بقدر كبير من الاهمال . فهو لم يكن من المتحمسين لاذرعة الاستخبارات المدنية والسياسية في يوم من الايام ، وكان اقل ايماناً من آخرين بكفاءة الوكالة المركزية للاستخبارات ، واكثر من آخرين اعتقاداً ان المصادر السياسية الاجنبية تعرف اقل من الاستخبارات الاسرائيلية .

بناءاً على كل ما ذكر يبرز خطأ دايان بكامل خطورته . فهو لم يؤمن ، حتى اللحظة الاخيرة فعلاً — اي في ساعات ظهر يوم الغفران — ان حرباً على وشك الاندلاع . وبسبب ذلك ، وبسبب اعتماده على تقدير رئيس الاركان بشأن قدرة الخط الاول على امتصاص الهجوم ، لم ير ضرورة للتبكير قدر الامكان بتجنيد الاحتياطي وتوسيعه الى اكبر حد مستطاع . وعندما نشبت الحرب ، لم يتصور حتى حجمها في الجبهتين . وهكذا ، عندما اتضح له ان الخط الاول فشل في امتصاص الهجوم وإيقاف تقدم العدو ، انهارت معنوياته .

وقد اعرب وزير الدفاع في محادثته الاولى مع رئيسة الحكومة ، بعد جولة في الجبهة الجنوبية وقيادتها ، عن شكه [...] . وضغط في تلك الساعات مرة اخرى ، في إطار مجرد « مشورة وزارية » ، من اجل تنفيذ انسحاب كبير . ولكن قادة القوات الذين نجحوا في صد العدو ، وتكبدوا خسائر فادحة ، لم يقبلوا رأي وزير الدفاع .

ولم يسترد دايان ذاته حتى عندما لاحت علائم الصحو الاولى على قوات الجيش في الجبهتين .

وعندما قابل محرري الصحف اليومية ، في اليوم الرابع للحرب ، اخبرهم بلهجة مأساوية وروحية محطمة ان [...] .

لقد تشدد وزير الدفاع ، خلال ايام الحرب كلها ، في تجنب إعطاء تعليمات واوامر على المستوى العسكري . واكتفى بصورة عامة ، في كل زياراته للقيادات الامامية ، بتقديم « مشورة وزارية » ، كما كان يسميها ، للقادة الكبار فيما يتعلق بهذه الخطوة التكتيكية او تلك . ولكنه مقابل ذلك اصر ، رغم وجود غليلي وآلون برفقة رئيسة الحكومة دائماً — وهو امر ازعج وزير الدفاع وعكر مزاجه — على ان تبقى اقتراحاته الاستراتيجية والتقرير بشأن الخطوات العسكرية الرئيسية ضمن صلاحياته ، رغم انه كان يخطر رئيسة

الحكومة ، في هذه الحالات ، بكل اقتراح ويتلقى مصادقتها عليه . إلا ان السيدة مئير لجأت اكثر من مرة الى مشاورة الوزيرين غليلي وآلون ، واحياناً رئيس الاركان ايضاً وممثله في الجبهة الجنوبية الجنرال حاييم بار – ليف ، قبل اتخاذ القرار النهائي .

مثال واضح على ذلك : القرار بتركيز الجهد العسكري اولاً على الجولان ، ثم الانتقال فيما بعد الى سيناء .

ويجب ان يسجل لوزير الدفاع انه طلب ، منذ اللحظة الاولى ، من هيئة الاركان العامة ، تركيز الجهد اولاً في الشمال لإيقاف السوريين وصدهم ، وتطوير الهجوم في سيناء بعد ان يخف الضغط في الشمال فقط .

لقد قدم دايان في يوم الاحد ، ٧ تشرين الاول (اكتوبر) ، الى رئيسة الحكومة ومجلس وزرائها لشؤون الحرب تقديراً للوضع متشائماً وقاسياً : في الجنوب – ثمة ضرورة لتثبيت خط ثان وصد الهجوم المصري عنده . في الشمال – الوضع ايضاً اصعب من ان يحتمل ، وتفصل بين الدبابات السورية وبين جسر بنات يعقوب ومستوطنات الجليل وسهل الاردن مسافة قليلة فقط . ولذلك اقترح دايان تركيز الجهد الاساسي في الشمال . فعشرة كيلومترات اكثر او اقل في سيناء لا تلعب دوراً حيوياً فيما يتعلق بأمن الدولة . وليس الامر كذلك بالنسبة الى الشمال . فهناك يشكل السوريون تهديداً للدولة ذاتها . وقد ووفق عملياً على رأي دايان فقط يوم الثلاثاء ، ٩ تشرين الاول (اكتوبر)، وعندما قرر رئيس الاركان انه يجب تثبيت خطٍ ثانٍ في سيناء – ولكن ليس الخط الذي اقترحه دايان .

وقد كلفت رئيسة الحكومة ، في ضوء الوضع الذي نشأ ، حاييم بار – ليف بدراسة الوضع اولاً في الجبهة الشمالية . وقدم لدى عودته تقريراً الى مجلس الحرب ان الوضع صعب ، ولكنه غير ميؤوس منه ، ويمكن التغلب على السوريين . ولم تكن هناك ضرورة، بحسب رأيه ، لتثبيت خطٍ ثانٍ على مرتفعات الجبال الغربية التي تقسم الهضبة .

وارسل الجنرال بار – ليف بعد ذلك الى الجبهة الجنوبية لتسلم مسؤولية منصب قائد الجبهة هناك . وبغض النظر عن الارتباط بين بار – ليف وبين الخط الحامل اسمه ، فان مجرد وجوده في القيادة الجنوبية في الايام الحاسمة ، وتفكيره المتزن وهدوئه النفسي ، ساهمت حقاً مساهمة كبيرة في صمود الجبهة الجنوبية .

مقابل ذلك ، استمر دايان في التخبط . وهكذا ، لم يستطع مثلاً ان يصل الى قرار حاسم عندما ثار السؤال ما العمل بالنسبة الى تحصين « رصيف الميناء » جنوبي القناة ، الذي ظل صامداً في وجه الهجوم المصري حتى اليوم الخامس من الحرب . لقد كان في التحصين عدد كبير من الجرحى واصبحت حياتهم معرضة للخطر . وعندها

فقط ، ترك القرار ، بناءاً على مشورة دايان ، لتقدير قائد التحصين ، الملازم شلومو اردنيست ، البالغ من العمر ٢٣ عاماً ، من الشباب المتدين من بني براك . وقد اختار القائد الشجاع في النهاية الاستسلام بواسطة الصليب الاحمر ، فقط ليمنح جنوده الجرحى فرصة الحياة .

وقد علق احد المقاتلين على ذلك : « اي وزير دفاع هذا الذي يترك قراراً مصيرياً الى هذا الحد بين يدي قائد صغير عمره ٢٣ سنة ، حتى لا يتحمل مسؤولية ما سيحدث ؟ » .

لقد شكلت الايام الاولى لحرب يوم الغفران صدمة عميقة لوزير الدفاع . ويبدو انه لم ينجح حتى نهاية الحرب في التغلب على الصدمة التي اصابته في بدايتها . وقد لوحظ هذا الامر في كل المناسبات التي ظهر فيها خلال ايام الحرب ، في مقابلاته مع وزراء ، اعضاء كنيست ، صحافيين ، وبصورة اوضح مع قادة الجيش [...] وعندما كان دايان ينتقل جنوباً او شمالاً ، كل يوم تقريباً ، واحياناً مرتين في اليوم الواحد ، الى الخطوط الاولى في سيناء والجولان ، كان يجد هناك ، وسط الجنود والقادة ، وبصورة متناقضة ظاهرياً ، تحت القذائف والانفجارات ، شيئاً من الراحة لنفسه المجروحة. كان هذا دايان جديداً ، لم يعرفوه ابداً من قبل ، كما لو انه اتى الى الجبهة ليستمد الالهام والتشجيع . ولم يكن هذا هو قائد الايام الخالية الشهير ، الذي كان قدومه الى الجبهة يشع حوله جواً من الشجاعة ، والكبرياء والثقة بالنفس .

لقد عاد دايان في حرب يوم الغفران الى صورة الانسان الفاني العادي . واصطدم الرجل الذي كانت له شعبية في الشرق الاوسط بأكمله ، بما في ذلك الدول العربية بصورة لا تقل عن شعبية عبد الناصر في حينه ، بعد الحرب بالظاهرة المذهلة المتمثلة بفقدانه المطلق لمكانته في الجبهة الداخلية . لقد تبخرت الاسطورة . في حزيران (يونيو) ١٩٧٠ دلت استطلاعات الرأي العام ، التي أجريت في اسرائيل ، على ان دايان هو القائد الاكثر شعبية في نظر ٩١ ٪ من سكان اسرائيل . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ اشار ٩٥ ٪ من الذين وجه اليهم السؤال، في احد الاستطلاعات ، الى دايان كافضل وزير للدفاع .

وفي ايار (مايو) ١٩٧٣ حصل دايان في استطلاعات عديدة على المكان الثاني بعد غولدا مئير كأفضل مرشح لرئاسة الحكومة ، ونال ضعفي الاصوات التي أعطيت ليغئال آلون . وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٣ أيد ٥٨٪ سياسة دايان في المناطق . اما غداة الحرب، فقد اظهر استفتاء أُجري في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ ، ان ٣٦٪ يريدون اريئيل شارون ، و ٢٪ فقط ايدوا ترشيح دايان لرئاسة الحكومة .

وامتلأت معظم الصحف الاسرائيلية في الوقت نفسه باعلانات ، مقالات ورسائل لهيئات التحرير ، تطالب كلها باستقالة موشيه دايان ، الذي رأى فيه كثيرون المسؤول الرئيسي عن تقصيرات اسرائيل في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ، والايام التي سبقت الحرب .

ربما يستطيع شخص واحد ، اذا استخدمنا تعبير المجلة الاسبوعية الالمانية التي اقتبسنا منها اعلاه ، ان يحتمل انتصارات كثيرة . لكن شخصاً كدايان لا يستطيع ان يحتمل ، لفترة طويلة ، فشلاً كالفشل المنسوب اليه الآن في اسرائيل .

ان مستقبل دايان السياسي ، الذي كان دوماً محاطاً بعلامة استفهام كبيرة في نظر الرأي العام الاسرائيلي ، اصبح بعد الحرب ، نتيجة للتقصير السياسي الذي ميز بدايتها ، محاطاً بعلامة استفهام اكبر .

الفصل السادس عشر

نبوءة العظام المكسرة

يقول الجنود في الجبهة : « تعلم المصريون من الجيش الاسرائيلي القتال ، وتعلم الاسرائيليون من المصريين الكذب » .

وردت هذه العبارة في الرسالة الاذاعية التي بعث بها ميخا شغرير المراسل العسكري ، خلال الايام الاولى للحرب ، من الجبهة الجنوبية الى الاستوديو المشترك بين « الاذاعة الاسرائيلية » و « موجة الجيش الاسرائيلي » . ولم تدع هذه العبارة ابداً ، ولكنها اصبحت مثلاً شائعاً بين مواطني اسرائيل بعد انتهاء المعارك .

هناك اشخاص يزعمون ان اخطر تقصيرات الحرب واهمها هو الحقيقة القائلة ان قيادة اسرائيل السياسية والعسكرية فقدت لدى اندلاع الحرب ، الثقة التي كان الشعب يكنها لها .

انتصر الجيش الاسرائيلي في الجبهة العسكرية في نهاية الامر . ومع انه لم يتم احراز الهدف السياسي للانجازات العسكرية ، فانه تم احراز انتصار مادي . ولكن قيادة دولة اسرائيل مُنيت بهزيمة فادحة في هذه الحرب من اجل الحياة . كان بالامكان تفادي جميع التقصيرات التي ظهرت عشية الحرب وفي اثنائها ، وتم تفادي جزء منها حقاً ، ولكن ستمر سنوات كثيرة ، وستتدفق مياه غزيرة في قناة السويس قبل ان يتم تفادي الفشل الاعلامي — النفساني لأزمة الثقة بين الشعب وقيادته .

كان افدح الإخطاء هو خوف قيادة اسرائيل ، خلال الايام الاولى للحرب ، من الا يظهر مواطنو اسرائيل نضوجاً نفسياً كافياً لتحمل انباء مؤلمة عن الفشل والهزيمة . وأصيبت القيادة بصدمة نفسية ، بسبب التهديد الذي احاق بمصير دولة اسرائيل في تلك الايام . ونتيجة ذلك ، تولدت سياسة إخفاء المعلومات وحجبها عن الجماهير ، تلك السياسة التي نُتجت ايضاً عن محاولة التغطية على المسؤولية الشخصية لبعض كبار القادة عن الهزيمة ، خلال الايام الاولى للحرب . وبعد ان انقلبت الاوضاع في الجبهات ، كان من المستحيل التراجع بعد ذلك . واستمرت سياسة التشويش والتشويه ، التي كان

جزء منها فقط يقوم على اعتبارات امنية ، وعلى الحاجة الى المحافظة على « ضباب المعركة » بالنسبة الى العدو ، إلا أن الاعتبارات السياسية والشخصية رجحت الى درجة كبيرة وضع هذه السياسة الباطلة .

كان الاسرائيليون يسخرون دائماً وابداً من التقارير الكاذبة لأجهزة الاعلام العربية خلال ايام الحرب . فالحرب النفسية ، والخيال الشرقي ، واثارة الحماسة الذاتية ، حولت كل هزيمة للجيوش العربية ، نصراً رائعاً على لسان المتحدثين باسمهم . ولا يزال الاسرائيليون يذكرون جيداً ما كان يذيعه « صوت القاهرة » بالعبرية خلال الايام الاولى لحرب الايام الستة ، عندما بشر المذيعون العرب باقتراب جيوشهم من تل أبيب ، في الوقت الذي كان فيه الجيش المصري المضروب يفر مذعوراً باتجاه مصر . وقام تاجر اسرائيلي نشيط ، بتسجيل ما أُذيع خلال فترة الحرب ، وباعه في السوق كاسطوانات لقيت رواجاً كبيراً ، واصبحت شهادة ترفيهية ومسلية على تفوق الاسرائيليين على العرب .

لازم هذا الاسلوب المقيت الجيوش العربية دائماً وابداً . فقد ادت التقارير الكاذبة ليس في ابواق الدعاية فقط ، بل وايضاً على المستويات القيادية المختلفة للجيشين المصري والسوري ، الى ان القيادات العليا لجيوشهم ، لم تتلق ابداً صورة حقيقية عن الوضع في الجبهات . فكان الجنود العرب ، من اواخر الجنود الانفار وحتى كبار القادة ، يبلغون قادتهم بما يتفق مع تمنياتهم ، وليس بما يتفق مع الواقع .

ان الافتراض القائل ، ان العرب لا يستطيعون التخلص ابداً من التخيل والكذب ، بسبب عقليتهم الخاصة وبسبب الاهمية القصوى التي يعلقونها على كرامتهم الذاتية والقومية ، هو الذي منح الاسرائيليين جزءاً من الثقة بتفوقهم على العرب . قال مرة الجنرال عيزر وايزمن ، قائد سلاح الجو ، ورئيس شعبة العمليات في الاركان العامة سابقاً : « يستطيع الجيش الاسرائيلي الاعتماد دائماً على عنصر مضمون — العرب » .

واذ اتضح في حرب يوم الغفران ، ان التقارير الكاذبة وإخفاء الحقيقة المؤلمة ، ليست وقفاً على الدول العربية وجيوشها ، وعندما صفع الواقع المرير الاسرائيليين — الذين يعتبرون انفسهم اكثر عقلانية وتحضراً من العرب — اخذوا باسلوب إخفاء الحقيقة المفجع. لا تزال اجهزة الاعلام الاسرائيلية ، حتى اليوم ، مخولة ابلاغ الجمهور بالنجاحات والانجازات فقط . وهناك منع مشدد من اذاعة الفشل والاخطاء والهزائم . وبينما استمر مواطنو اسرائيل يهزأون من قادة مصر ، الذين لم يكشفوا لشعبهم مدى العمق الذي توغل اليه الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية لقناة السويس ، نسوا هم انفسهم انهم لم يعرفوا بسقوط موقع جبل الشيخ مثلاً — الذي احتله السوريون منذ الساعات الاولى للحرب — إلا في اليوم الاخير من الحرب ، بعد ان اعادت قوات الجيش الاسرائيلي احتلال الموقع. والادهى من ذلك ، ان وسائل الاعلام الاسرائيلية اضطرت طوال ايام الحرب ، بناءً

على تعليمات من اعلى ، الى ان ترسم للمواطنين صورة معقمة للحرب . فالخسائر الجسيمة ، والقتلى والجرحى هم من نصيب العدو فقط . ودبابات العدو وطائراته هي وحدها التي تصاب وتدمر . والعدو وحده يتراجع . والجيش الاسرائيلي فقط « يحسّن المواقع الى الوراء » . وكان محظوراً نشر كل وصف قائم على الحقائق ، وينتقص من الصورة الوردية للنجاحات والانجازات ، التي حاول قادة اسرائيل رسمها امام الجماهير . وقد منعت الرقابة نشر فظائع الحرب .

كان هذا خطأ نفسياً خطيراً منذ البداية . ففي دولة اسرائيل التي عندما تندلع الحرب ، يكون لكل عائلة منها ممثل في الجبهة ، وفيها احياء كاملة تعيش كعائلة واحدة ، وتنتقل فيها القصص همساً بسرعة البرق ، يستحيل إخفاء الحقيقة . وأحد اسباب جو الاحباط والكآبة واليأس ، الذي خيم على اسرائيل خلال الايام التي تلت الحرب ، نتج عن ازمة الثقة في القيادة . ولم تجتح المجتمع الاسرائيلي ازمة اجتماعية — نفسية بهذا العمق . ولكن هذه الازمة لم تنبع من احداث الحرب ذاتها ، كما اعرب عن ذلك احد الجنود ، بعد عودته من معركة موقع جبل الشيخ : « الموت مسموح عندنا ، اما المعرفة فمحظورة » .

يجدر تحري جذور أزمة الثقة هذه ، وكشف عناصرها واسبابها . لقد كانت معلومات الاستخبارات في اسرائيل دائماً وابداً من المحرمات على مواطني الدولة . فاعتبارات الامن التي انتقلت بالوراثة ، منذ الفترة التي كانت فيها الدولة في طور التكوين حيث اصبح مقاتلو الحركات السرية ، الذين حرصوا على السرية ، قادة الجيش الاسرائيلي فيما بعد ، فقد أدت هذه الاعتبارات الى وضع اصبح فيه كل خبر امني ، حتى ولو كان عديم القيمة ، سر الدولة المحفوظ . ولكن مواطني اسرائيل لم يتذمروا من ذلك . فقد اعتمدوا على استقامة المسؤولين عن جهاز الامن ورزانتهم ، وادركوا « انهم يعرفون ما يفعلون » .

حظي الجيش الاسرائيلي منذ إقامته بتدليل خاص من قبل اجهزة الاعلام في اسرائيل . فقد نما مع مرور السنين بين سلطات الجيش وبين قادة الدولة الكبرى السابعة ، نسيج علاقات فريد من نوعه ، و « الجندي اليهودي الاول بعد الفي سنة » ، و « القنبلة الاسرائيلية الاولى » ، و « المدفع الاسرائيلي الاول » ، حظيت باستعراض واسع ومثير للانفعال في الصحافة الاسرائيلية خلال السنوات الاولى لقيام الدولة . وتجرأ القليلون جداً ، اذا وجدوا ، على توجيه النقد الى الجيش وانظمته . واعتبر الجيش الاسرائيلي منذ تأسيسه ، « بقرة مقدسة » ، لا يجوز للمواطنين الجهلة في امور الجيش ، التدخل بما يجري فيه او توجيه النقد لقادته . فهؤلاء الذين حاولوا انتهاك هذه المحرمات عوقبوا فوراً باشد الاحكام صرامة . وهكذا مثلاً ، تجرأت مجلة « هعولام هازيه » ، في اوائل الخمسينات ، على انتقاد الفائدة من تجنيد الفتيات للجيش الاسرائيلي ، وموقف سلطات الجيش من مشكلة ابناء مشوهي حرب الاستقلال ، الذين تم إيواؤهم في مستشفى تل هشومير في ظروف

قاسية . فكان رد فعل الجيش الاسرائيلي على ذلك مقاطعة المجلة . وحتى هذا اليوم لا يشتريها الجيش الاسرائيلي لتوزيعها على الجنود ، كما هو متبع بالنسبة الى صحف ومجلات اخرى . كما منعت نوادي وحدات مختلفة من شراء المجلة .

لو تجاوز مراسل عسكري المسموح به ، وانتهج اسلوباً لاذعاً في تحقيق عما يجري في الجيش ، لوجد نفسه فجأة خارج الاطار التنظيمي للمراسلين العسكريين . وفي وقت لاحق قرر الجيش الاسرائيلي ، انه هو وحده المخول بتقرير من يعتمد مراسلاً عسكرياً لهذه الصحيفة او تلك ، ومن لا يعتمده . وتم تبرير ذلك بالتذرع بدواعي الامن . وحذر الجيش الاسرائيلي من إباحة اسراره لاشخاص غير موثوق بهم . فالحق في تقرير من هو (ومن ليس) جدير بلقب « مراسل عسكري » يستعرض قضايا الجيش الاسرائيلي وجهاز الامن ، وضع في ايدي الجيش سلاحاً ضد الصحافة . وحدث ، مثلاً ، ان ضغط قادة الجيش ، على محرري صحيفة مسائية ، لابعاد مراسل عسكري عن وظيفته ، لأنه كان ينتقد باستمرار جهاز الامن ورؤسائه .

ان حقيقة كون قسم الاعلام التابع للجيش الاسرائيلي والناطق باسمه خاضعين للاستخبارات ، منافية للعقل . فوظيفة الاستخبارات العسكرية هي اكتشاف معلومات عن العدو ، وحرمانه منها . اما وضع جهاز الاعلام تحت سيطرة الاستخبارات ، التي تخضع لها الرقابة العسكرية ايضاً ، فكان كفيلاً بأن ترى هذه المؤسسة ان وظيفتها هي حجب المعلومات اكثر من التزويد بها .

وبالتالي اصبح المسؤولون عن جهاز الامن حساسين اكثر فاكثر لكل كلمة نقد . والجنرالات الذين استاءوا من كلمة او كلمتين نشرتا عنهم ، قطعوا كل اتصال مع المراسلين . وحرم أحد المراسلين العسكريين ، بعد مجادلته مع قائد قيادة معينة ، من الدخول الى المجال الذي تسيطر عليه تلك القيادة . وانباء حول الكشف عن اعمال جنائية او ظواهر فساد ، في هذا السلاح او ذاك ، جرّت في اعقابها عقد اجتماع لهيئات تحرير الصحف « لمحادثات توضيحية » عند السلطات المعتمدة .

وصلت الامور الى حد ان الناطق العسكري الاسرائيلي ، او احد مساعديه ، سمح لنفسه ان يتدخل في موقع الانباء المتعلقة بالجيش في الصحف . فعندما تواترت انباء حول الاختلاسات والاعمال الجنائية بين صفوف الجيش ، خلال السنة التي سبقت حرب يوم الغفران ، طلب الناطق شخصياً من رؤساء تحرير الصحف عدم إبراز مثل هذه الانباء . واحتج الناطق على « ان امين صندوق في بنك ، قبض عليه مختلساً ، لا يحظى بعنوان بارز كملازم مختلس في الجيش الاسرائيلي » ، كأنما يتساوى الحدثان .

بالاضافة الى الضغوط المباشرة على المراسلين العسكريين ، احتفظت سلطات الجيش

بوسيلة ضغط اخرى : لجنة محرري الصحف اليومية في اسرائيل . فجميع رؤساء جهاز الامن ، ابتداءً من وزير الدفاع وانتهاءً بجنرالات الجيش الاسرائيلي ، ظهروا في مناسبات مختلفة امام رؤساء تحرير الصحف اليومية ، وابلغوهم معلومات كانت سرية بصورة عامة . وبهذه الطريقة استحوذوا على قلوب رؤساء التحرير ، واستطاعوا ان يطلبوا منهم عدم نشر اخبار لا تروق لهم .

الا ان سلطات الجيش لم تكتف بذلك . ففي مراحل لاحقة ، وخصوصاً في فترة ولايات رؤساء الاركان الثلاثة الاخيرين (رابين ، وبار – ليف ، وألعازار) ، عمموا ما يطلق عليه بلغة الصحافة اسم : « دبرور » . ومعنى ذلك انه نظراً الى ان كل صحافي ، بمن فيهم المراسلون العسكريون ، يحتـاج الى موافقة خاصة من الناطق العسكري الاسرائيلي لإجراء مقابلة مع رجل عسكري ، او للحصول على معلومات عسكرية ، فان ذلك كله مشروط بأن يكون للناطق الحق الكامل في ان يحذف من التحقيق الصحافي ما لا يستسيغه قبل نشره . ولم يكن القصد من ذلك ما هو مخل بالامن ، حيث ان الرقابة العسكرية هي المسؤولة عنه ، بل امر الصحافيون بالتوقيع على اعلان يلتزمون فيه بتسليم التحقيق لقراءته قبل ارساله الى المطبعة . واصابت هذه الطريقة نجاحاً كاملاً . وكان بين المراسلين العسكريين من استشاطه الغضب وألغى تحقيقات ، ولكن الصحافة إجمالاً خضعت لهذا المطلب .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ايضاً . فالمراسل العسكري الذي يريد ان يعد تحقيقاً ، يقوم على مقابلة او معلومات ، عليه ان يقدم طلباً خطياً يحتاج الى تصديق مكتب الناطق العسكري . وتبحث مجموعة الطلبات مرة في الاسبوع . ويسمى هذا البحث باللغة المهنية : « مجموعة النشر » . وكان الناطق يختار من الطلبات التي تتقدم اليه ما يريده من الموضوعات باستشارة رئيس هيئة الاركان نفسه او احد كبار الضباط ، احياناً . والموضوع الذي لا يستسيغه الجيش الاسرائيلي ، لا يوافق عليه . والنتيجة : ظهر الجيش الاسرائيلي في جميع اجهزة الاعلام تماماً بالصورة التي اراد ان يظهر بها .

بالاضافة الى ذلك ، كانت المقالات حول بعض الموضوعات الامنية تمر بمعالجة تجميلية للرقابة العسكرية . فقد درج المراقب ، على التحذير من مقال لم يكن على مزاج قادة الجيش الاسرائيلي . وكانت تستخدم في بعض الاحيان ضغوط على محرري الصحف للامتناع من نشر هذا الخبر او ذاك ، او « لتليين » لهجته على الاقل . ولم تتوقف الرقابة عن انتهاج هذه السياسة إلا قبل ما يزيد عن سنة قليلاً .

ولكن بالاضافة الى التقييد والمراقبة المتعلقين بما ينشر عن الجيش الاسرائيلي ، فقد حظيت مؤسسة الناطق العسكري بمستوى نادر من المصداقية . فالحرص على التحقيقات الصادقة اعطى ثماره . وليس سكان اسرائيل وحدهم هم الذين وضعوا ثقتهم العمياء

ببيانات الناطق العسكري ، بل ان اجهزة الاعلام الدولية عرفت دائماً باي بيان تثق ، عندما كانت تقابل بين تقارير متضاربة كانت تصل من مصادر الجيش الاسرائيلي ، ومن مصادر الدول العربية . ومنح الجيش الاسرائيلي رصيداً من الثقة غير المحدودة ، وخصوصاً بعد حرب الايام الستة ، عندما اتضح للجميع ان بياناته كانت دقيقة ، واما بيانات الجيوش العربية فلم تكن إلا من نسج خيال خصب . هذا الرصيد من الثقة إزاء الجيش الاسرائيلي ، وإزاء الناطقين الرسميين باسم دولة اسرائيل ، مُسّ بصورة خطرة في اعقاب حرب يوم الغفران .

عشية يوم الغفران ، قبل اندلاع المعارك بيوم واحد فقط ، ظهرت دلائل كانت كافية لاقلاق قادة الجيش الاسرائيلي . وقد تناقضت هذه الدلائل ، بصورة مطلقة ، مع البيانات المهدئة للناطق العسكري الاسرائيلي خلال الاسبوعين اللذين سبقا الحرب . فقد قرروا ، بعد التشاور مع رئيس هيئة الاركان ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية ، مواصلة الخط الاعلامي نفسه الذي انتهج قبل ذلك باسبوعين . وقـد حدث في يوم الجمعة ، عشية عيد الغفران ، ان نشرت الصحف المسائية الاسرائيلية اخباراً تفيد انه « لا يوجد اي استعداد خاص على الحدود » .

ولكن قبيل ظهر يوم الغفران ، عندما اصبح واضحاً انـه لا مفر من الحرب ، استخدم الناطق العسكري الاسرائيلي الجهاز الصحافي الذي تحت تصرفه لوقت الطوارىء ، والذي خصص لابلاغ مواطني اسرائيل بالتقارير عن الحرب وسَيرها . كان هذا الجهاز مؤسسة منظمة ومدربة ، ومعظمه قائم على صحافيين مجندين تحولوا الى مراسلين عسكريين وقت الطوارىء وانضموا الى الوحدات المختلفة . كان جيش كامل من الصحافيين والمصورين ومراسلي الاذاعة والتلفزيون مستعداً للتحرك فور استدعائه. وبسبب تقديم الحرب الى ساعات الظهر ذهب المراسلون الى خطوط القتال . منذ الساعات الاولى للحرب ، دون ان يوجههم احد ، وهم مشحونون بالرغبة الطيبة لنقل المعلومات من الجبهة الى المؤخرة .

عندما سافر المراسلون ، كان الاستوديو المشترك بينْ « اذاعة اسرائيل » و « موجة الجيش الاسرائيلي » يعمل بكل طاقته . وبموجب انذار وجه الى يتسحاق لفنه قائـد محطة الاذاعة العسكرية ، وعاموس غوردون مدير قسم الاخبار في « اذاعة اسرائيل » ، اعدت محطات الاذاعة الاسرائيلية لامكان استئناف البث في ذروة عيد الغفران ، وهو اليوم الوحيد في السنة الذي لا تعمل فيه محطات الاذاعة في اسرائيل . وعندمـا شقت صفارات الانذار عنان الفضاء ، في الساعة الثانية ظهراً ، تم تشغيل الاذاعة ايضاً .

جعل التوتر الهائل الذي ساد الشارع الاسرائيلي منذ ساعات الصباح ، مواطني الدولة يلزمون اجهزة الاذاعة . وهم الذين كانوا مفاجئين اكثر من قادتهم ، حاولوا استقاء كل ذرة من المعلومات لكي يفهموا ما يجري . ولكن البيانات التي صدرت خلال الساعات

الاولى ، كانت غامضة ومشوشة . ففي البداية كان مواطنو اسرائيل متفائلين ، لادراكهم ان الجيش الاسرائيلي يسدل عادة ، خلال الساعات الاولى للحرب ، ستاراً من السرية على خطواته وعملياته . كانوا لا يزالون يؤمنون ان الجيش الاسرائيلي يخفي وراء الاخبار القصيرة والمجملة ، التي لا تقول شيئاً ، حقيقة ما يجري ، لكي يبلبل العدو .

عند المساء ، عندما ظهرت رئيسة الحكومة ووزير الدفاع في إذاعة للأمة ، اعطى كلامهما دعماً للآمال المتفائلة . وفي يوم الاحد ايضاً ، عندما كانت خطوة تفصل في الحقيقة بين دولة اسرائيل وبين الهزيمة الساحقة ، كانت اجهزة الاعلام لا تزال تمد المواطنين بالاخبار المتفائلة عن هجمات الجيش الاسرائيلي المضادة ، التي « تهزم » العدو و « تسحقه » . ومما ميز الاتجاه الذي ساد الشارع ، كاريكاتير نشر في « معاريف » ، بريشة رسام الكاريكاتير كاريئيل غردوش (« دوش ») . لقد رسم دوش شعب اسرائيل بصورة « اسرائيل الصغير » يضع على رأسه قبعة (تنبل) ، وفي يده بندقية ، منتصباً امام انور السادات رئيس مصر ، الواقف في الجانب الشرقي من القناة رافعاً يديه ويصرخ : « انقذوني » .

ولكن ظهرت خلال فترة قصيرة ، شقوق في جدار المصداقية ، اخذت تزداد اتساعاً حتى اصبحت ثغرة كبيرة . فقد شاهد او سمع كل مراسل وصل الى خط الجبهة ، او قريباً منه ، تقارير من بعض القادة عن وحدات حوصرت وطوقت ، ووحدات اخرى ضربت ، وعن الانجازات التي احرزتها جيوش مصر وسورية خلال الساعات الاولى للحرب ، ولم تكن الصورة الشاملة واضحة للمراسلين العسكريين ، كما لكثيرين غيرهم . فكل مراسل نقل الى الاذاعة تحقيقاً من دقيقتين او ثلاث ، تحدث عن « معارك بطولية » ، و « صد » ، و « إبادة » ، والى غير ذلك من صيغ افعل التفضيل الجوفاء التي لم يكن لها معنى .

ففي استوديو الطوارىء في تل أبيب — الذي وضع تحت اشراف الرقابـة والناطق العسكري الاسرائيلي ، وجيش كامل من العملاء السياسيين — لمراقبة التحقيقات التي وصلت من خطوط الجبهة ، منعت إذاعة كل كلمة لا تنم عن رفع المعنويات . وكانت التحقيقات تذاع بالتتابع ، تحقيقاً وراء تحقيق ، من الجولان ، من سيناء ، ومن قناة السويس . فكانت النتيجة مأساوية : صورة مشوهة ومزيفة عن الوضع . واما بيانات الناطق العسكري الاسرائيلي فكانت جميعها صحيحة ، ولكنها كانت جزءاً من الحقيقة ، لم يكن حتى الجزء الاكبر منها . لم يعلم سوى اشخاص معدودين في دولة اسرائيل ، عدا المقاتلين انفسهم في خطوط الجبهات ، في تلك الايام ، ان الجيش « يتقدم الى الوراء » حقاً ، ويقاتل بالقرب من جسر بنات يعقوب على نهر الاردن وليس بالقرب من دمشق .

تلقى المراسلون العسكريون في تل أبيب توجيهات متتابعة من العقيد آرييه تيخون، ممثل الناطق العسكري الاسرائيلي. فاستخدم هذا الموجّه الضليع في اللغة العبرية واحاجيها، كلمات غيبية، ولم يكشف سوى النزير من الحقيقة المرة. فقد تحدث عن «انجازات معينة» احرزها السوريون، او عن «انجازات غير مهمة».

لم يكن الجمهور في الجبهة الداخلية مدركاً بعد للثغرة بين البيانات والاخبار الحقيقية. بيد ان هذه السياسة ارتدت الى نحورهم، وخصوصاً بالنسبة الى جنود في الجبهة كانوا هم ايضاً يلازمون اجهزة الاذاعة، ويستمعون الى التقارير والتحقيقات، وادركوا ان كل تشابه بينها وبين الواقع كان صدفة محضة فقط.

لم يكن هذا التضليل متعمداً. فقد كان الاشخاص المقررون في هذا المجال، في جهاز الامن، ما زالوا يشعرون أن حرب يوم الغفران ما هي إلا اليوم السابع من حرب الايام الستة. فقد آمنوا بكل قلوبهم، ان الجيش الاسرائيلي سيكون قادراً، خلال ساعات قليلة، على صد الجيوش الغازية وإعادتها الى اراضيها، ومع ان البيانات لم تكن كاملة ودقيقة، إلا انهم أملوا بان تتحقق اخيراً خلال وقت قصير. كانوا لا يزالون يعيشون جميعاً في الحروب السابقة. ان جهاز الاعلام التابع للجيش الاسرائيلي بأسره، يفتقر الى صحافي محترف واحد خبير بالاعلام او بنفسية الجماهير. ولم تتم التعيينات في هذا المجال بصورة عامة، بناءً على اعتبارات المهنة والخبرة، بل بموجب ولاء الموظفين لرؤسائهم و «للخط الصحيح».

وهكذا حدث انه في اليوم الثالث للحرب، عندما كانت لا تزال تدور معارك ضارية، وكان الجيش الاسرائيلي لا يزال بعيداً عن خطوط وقف القتال في السويس والجولان. اقترح الناطق العسكري الاسرائيلي على رئيس هيئة الاركان، ان يظهر امام مندوبي الصحافة. لقد عين العميد بنحاس («بينيه») لاهف، الناطق باسم الجيش الاسرائيلي — من مواليد بولونيا، ضابط محبوب، منفتح، صاحب حس فكاهي مرهف، وميال للمصادقة — في هذا المنصب، بعد تولي الجنرال ألعازار منصبه كرئيس للاركان بوقت قصير. فقد شغل العميد لاهف، في الماضي، سلسلة من المناصب في الوحدات المدرعة والقيادة الشمالية — الى جانب ألعازار دائماً. وكإنسان مجاور لمكتب رئيس هيئة الاركان، وكأحد اصدقائه الشخصيين، كانت جميع الابواب تقريباً مفتوحة امامه. ونجح بكفاءة تنظيمية لا بأس بها في تدبر أمر كل شيء طلب منه. فقد تحسنت العلاقات بين الجيش والصحافة، وكان جمهور الصحافيين راضياً عنه اكثر من جميع الناطقين الذين عملوا في هذا المنصب قبله.

«كن متفائلاً»، هذه كانت نصيحة العميد لاهف لرئيس هيئة الاركان عشية ظهوره امام ممثلي الصحافة. وعندما اسديت هذه النصيحة، كان هناك اساس ما للتفاؤل.

لقد تلقت قوات الجيش الاسرائيلي الاحتياطية، في القطاع الشمالي من قناة السويس، امراً في ذلك الصباح باختراق الخطوط المصرية، والوصول الى قناة السويس بالقرب من جسر الفردان، بهدف شق ممر تمهيداً لعبور القناة في المستقبل. وخلال المراحل الاولى وصلت من هذه القوات تقارير متفائلة افادت انها نجحت في مهمتها، وان وحدات صغيرة استطاعت الوصول حتى خط المياه لقناة السويس. وقد اراد العميد لاهف ان يذيع بياناً متفائلاً استناداً الى هذه التقارير. ولكنه فضل الاحتفاظ بهذا «السبق الصحافي» لرئيس هيئة الاركان. وعندما ظهر رئيس هيئة الاركان امام الصحافيين، لم يكن قد عرف بعد ان قوات الجيش الاسرائيلي، التي فتحت ثغرة في الخطوط المصرية، خاضت معركة ضارية واضطرت الى العودة الى خطوطها. فوقف امام الميكروفونات في إذاعة حية ووعد على الملأ: «سنكسِّر عظامهم». واتضح في وقت لاحق ان هذا الوعد سابق جداً لاوانه، وان لهجته صمّت آذان الصحافيين.

في نفس الوقت تقريباً الذي عقد فيه رئيس هيئة الاركان مؤتمره الصحافي، وصل الى دار الصحافيين في تل أبيب — «بيت سوكولوف»، الذي استخدم مركزاً للاتصال لجميع الصحافيين المحليين والاجانب في اسرائيل — الدكتور يرمياهو يوفال، استاذ في الجامعة في القدس ومراسل عسكري لاذاعة اسرائيل وقت الطوارىء، عائداً من خط الجبهة في سيناء مهتزاً تماماً. وروى للمتجمعين حوله، في مقصف «بيت سوكولوف» المظلم، الذين كانوا متعطشين لكل كلمة تصل من الجبهة. ان ما تبثه الاذاعة بعيد جداً عن ان يعكس الحقيقة، وعلى حد قوله، لم يعد الجنود يصدقون كلمة واحدة مما تبثه الاذاعة. فبينما هم مجبرون على صد العدو المصري، يتحدثون في الاذاعة عن «نسحق ونبيد» او «نكسر عظام» الجيش المصري. وقال يوفال: «ان لكل جندي جهاز راديو ترانزيستر ومن المستحيل ان نبيعهم «حكي». ويكاد يكون من الصعب إبادة العدو ونحن نسير الى الوراء». وطلب الدكتور يوفال في المساء نفسه، مقابلة رئيسة الحكومة او وزير الدفاع، لكي يحذرهما من انعكاسات خطرة لسياسة النشر التي تنتهجها اجهزة الاعلام.

لقد منع مئات المراسلين الاجانب، الذين تدفقوا على اسرائيل لدى اندلاع الحرب ومعظمهم يؤمن انه سيتسنى له مشاهدة عرض مكرر لحرب خاطفة على غرار ١٩٦٧، من السفر الى خطوط الجبهة خلال الايام الاولى للحرب. ومن حديقة العشب الأخضر في «بيت سوكولوف» بعث المراسلون المخذولون بتقاريرهم الى صحفهم قائلين ان اسرائيل تخفي حقيقة ما يجري في ميادين القتال. ومقابل البيانات الاسرائيلية غير الموثوق بها، أذاع الناطق العسكري المصري من القاهرة بيانات تطابقت مع الواقع اكثر كثيراً.

كان من السهل على المصريين والسوريين في هذه المرحلة، ان يكونوا ملتزمين بالحقيقة

نوعاً ما . فالانجازات التي احرزتها الجيوش العربية في الجبهات ، اثرت في الدعاية العربية بصورة مباشرة . فالمراقب الذي سمع بيانات الناطق العسكري المصري ، لم يستطع تجنب الشعور بان هذه البيانات وضعت سلفاً قبل بداية الحرب . ولكن الانجازات في هذه المرحلة تجاوزت التوقعات . فمثلاً ، كان من المقرر ، بناءً على خطة الهجوم السوري في هضبة الجولان ، ان تصل الوحدات المدرعة السورية الى مفرق نفاخ في الهضبة بعد نحو ٣٠ ساعة من ابتداء الحرب . ولكنها وصلت الى هناك بعد ١٨ ساعة ، وهذا ما ابلغت به قيادة الجيش السوري العليا . فالقادة السوريون ، الذين خشوا ان تكون التقارير من ميدان القتال مزيفة كما حصل في ١٩٦٧ ، لم يصدقوا تقارير الوحدات .

لم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل ان السوريين والمصريين ، استطاعوا في هذه المرحلة ، ان يعلنوا من اجهزة اعلامهم ، بالاضافة الى انجازاتهم ، عن خسائرهم ايضاً . ومهما كانت الخسائر ، فقد بدت ان لها ما يبررها ، ومتواضعة بالنسبة الى الانجازات الرائعة التي منحتهم إياها « حرب رمضان » — حرب يوم الغفران كما يسميها العرب — . وبالاضافة الى الاعلان عن خسائر الجيوش العربية ، برز في بيانات الناطقين العرب انعدام التباهي الذي كان سمة مميزة لهم في الماضي . فالانضباط الواضح الذي اظهرته اجهزة الاعلام العربية في بداية المعارك ، والذي قارب التقليل من انجازات جيوشها ، نال اعجاب المستمعين في جميع انحاء العالم العربي ، الذين كانوا يشكون في مصداقية ما تذيعه . واشار معظم المراسلين الاجانب الى التحول الذي ميز اجهزة الاعلام السورية والمصرية .

في اليوم الثالث للحرب لخص الدكتور محمد عبد القادر [حاتم] ، نائب رئيس حكومة مصر لشؤون الثقافة والاعلام ، في حديث أذيع من « صوت العرب » من القاهرة ، سياسة الاعلام في بلده : « تعتمد هذه السياسة على المبادىء التالية : اولاً ، تقديم الحقائق للشعب وللعالم بأسره برزانة وموضوعية . ثانياً ، الامتناع من المبالغات ، والمغالاة في تقدير قواتنا وانتصاراتنا ، وكذلك الامتناع من الاستخفاف بقوة العدو . ثالثاً ، انتهاج اسلوب هدفه تقديم الحقائق بعيداً عن الانفعال . رابعاً ، الالتزام بالمحافظة على مبدأ الايمان بالاعمال وليس بالكلام » .

ولكن النداءات المثيرة للحماس ، الموجهة الى الجنود العرب عبر محطات الاذاعة العربية ، لم تكن غائبة هذه المرة ايضاً . بيد ان نداءات التشجيع هذه انحصرت في الناحية الايجابية لاهداف القتال العربية ، مثل « انقاذ الكرامة العربية » ، « صد المعتدين » ، او « تحرير الاراضي المحتلة » — وليس « قتل الصهيونيين » ، و « إلقاء العدو في البحر » ، او « محو اسرائيل من الخريطة » ، التي ميزت تلك الاذاعات خلال حرب الايام الستة .

اعلن مذيع « صوت العرب » : « يا ابطال الجبهة العربية المقاتلة ، انكم تعيشون

الآن اروع لحظات حياتكم وحياة أمتكم منذ عدوان ١٩٦٧ . ان آمالنا معلقة عليكم ، ومصير أمتكم يتوقف على هذا القتال الجبار الذي تخوضونه . لذا تذكروا دائماً ، ان من سعى الى الموت وهب الحياة » .

الا ان المبادىء التي عرضها نائب رئيس الحكومة المصرية ، بقيت سارية لمدة قصيرة فقط ، وذلك قبل ان تتلقى الجيوش العربية الضربات . فطالما كانت الحقائق في الميدان ايجابية بالنسبة الى العرب ، فقد أذيعت بموضوعية ورزانة وانضباط ذاتي . ولكن عندما اخذت جيوش مصر وسورية تتلقى الضربات المضادة ، عادت دلائل الاضطراب الى الظهور ، وسد « الخيال الشرقي » الفراغ .

في اليوم الثالث لاندلاع الحرب ، عندما بدأت اسرائيل الهجوم المضاد في هضبة الجولان ، وعندما صدت محاولات مصر التقدم في عمق سيناء ، اخذ المصريون « يسمحون لانفسهم » ، بالتفاخر . وصف الناطق العسكري المصري في بلاغه رقم ١٦ « تحرير » مدينة القنطرة شرقي القناة . وبحسب بلاغه دار القتال هناك بالسلاح الابيض « لعدم المساس » بأهالي القنطرة المصريين . وجاء في ذلك البلاغ ايضاً : « كانت فرحة السكان المصريين داخل المدينة كبيرة ، بعد تحريرها الكامل . وهرع السكان يهنئون اخوتهم المصريين المقاتلين من اجل كرامة الوطن ومجده . وتعرب القيادة العامة عن تقديرها للمواطنين الذين مدوا يد المساعدة للقوات المسلحة ، فكانت جهودهم ومساعدتهم رمزاً لتكتل قوى الشعب مع قوى جيش الشعب . ويتوقع اعادة الادارة المدنية ، التي ستبدأ عملها في المدينة المحررة ، في أقرب وقت » .

ليس الاسرائيليون وحدهم الذين يعرفون ان القنطرة مدينة اشباح مهجورة ومقفرة ، بل ايضاً آلاف الطلبة العرب من سكان قطاع غزة ، الذين كانوا يمرون فيها كل سنة في طريقهم الى مصر للدراسة . فاللقاء بين « سكان » المدينة ، الذين لم يكن لهم وجود ، وبين الجنود المصريين ، لم يجر إلا في مخيلة كاتب بلاغ الناطق العسكري المصري . كان هذا اول انحراف عن سياسة النشر التي انتهجها الاعلام المصري في بداية المعارك ، ثم تحول هذا الانحراف الى سياسة خلال سير الحرب وبعدها .

ولكن ، عودة الى الاعلام الاسرائيلي . في اعقاب التقارير في اسرائيل ، خلال الايام الاولى للحرب ، والتي قوبلت بتقارير المراسلين الاجانب من الدول العربية ، تلقى الكثيرون من المراسلين الاجانب في اسرائيل بيانات من هيئات التحرير التي ينتمون اليها في الخارج ، على غرار : « لا نثق في بلاغات الناطق العسكري الاسرائيلي » . كما تقوضت المصداقية التي حظي بها الناطق العسكري الاسرائيلي في الصحافة العالمية .

منذ اللحظة الاولى للحرب تقريباً ، اخذت مكاتب وحدة الارتباط لشؤون الصحافة التابعة للجيش الاسرائيلي ، تغص بعشرات الضباط ، منهم الكبار جداً ، الذين لم ينخرطوا

في اية من وحدات الاحتياط التابعة للجيش الاسرائيلي . ومن بينهم ضباط قدماء ومشهورون ، تسكعوا عاطلين عن العمل ، خلال الايام الاولى للحرب ، وبحثوا عن اعمال برغبة صادقة في المساعدة . وقد فاق عددهم في بعض الاحيان عدد الصحافيين الذين طلب منهم المساعدة .

منذ اليوم الاول للحرب ، أُقيم في مكاتب وحدة الارتباط « فريق مفكر » برئاسة العميد (احتياط) مردخاي (« موركه ») بار – اون ، رئيس شعبة التوجيه في الجيش الاسرائيلي ، واليوم مدير قسم الشباب والرواد في الوكالة اليهودية . وكان من المفروض ان يبلور « الفريق المفكر » افكاراً وخطوطاً للاعلام . إلا انه تجمع حول العميد بار – اون عدد من الاشخاص ، الذين برزوا بانتمائهم الحزبي ، وكان معظمهم من رؤساء جهاز الاعلام ودائرة الانتخابات لحزب العمل : يوسي ساريد ، عضو دائرة الانتخابات ، يورام بري ، الناطق باسم الحزب ، واشخاص مثل الياهو حاسين ، ومردخاي نسياهو وغيرهما . وبدا ان جهاز الاعلام في الحزب الحاكم جند كهيئة واحدة لكي يعمل كجهاز اعلام للجيش الاسرائيلي . وبعد ان قامت ضجة فقط ضد هذه السيطرة على جهاز الاعلام العسكري ، استبدل عدد من الاشخاص في ذلك الفريق .

في اليوم الثاني للحرب ، عندما اتضح ان الوضع على الصعيد الاعلامي يكاد يكون سيئاً كالوضع في الجبهات ، استدعي الجنرال (احتياط) اهرون ياريف ، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية السابق ، لكي يتولى مسؤولية الاعلام . وعندما اتضح ان ابعاد أزمة المصداقية اكبر مما كان متصوراً ، تقرر عقد مؤتمر صحافي لكشف النزر اليسير من الواقع المرير . وقد اعلن وزير الدفاع نفسه انه بعد ان يتكلم الجنرال ياريف مباشرة ، سيظهر هو في إذاعة حية على التلفزيون في خطاب موجه الى الشعب . لكي يتحدث عن الوضع الصعب .

قبيل المساء احتشد جيش من الصحافيين المحليين والاجانب في إحدى قاعات « بيت سوكولوف » . كان هناك ترقب متوتر . وعندما صعد الجنرال ياريف الى المنصة ، لم يكن هناك شك في انه استعد لهذه المهمة كما يجب . فقد كان منفعلاً ، وبنى كلامه سطراً سطراً الى ان وصل الى السطر الاخير : الجيش الاسرائيلي في وضع صعب ومضطر الى الانسحاب من خطوط وقف القتال في الجولان وسيناء .

أُصيب مئات الآلاف من مشاهدي التلفزيون ، الذين شاهدوا ياريف من اذاعة حية ، بالصدمة . فقد تضاربت اقواله بصورة مطلقة مع « نبوءة العظام المكسرة » التي ادلى بها رئيس هيئة الاركان قبل ذلك بيوم واحد فقط . واستبدلت اللهجة المتفائلة التي لازمت اقوال رئيس هيئة الاركان فجأة ، بجو متشائم من الكآبة والقلق .

خلال المؤتمر الصحافي الذي عقده الجنرال ياريف . والذي نقل فوراً بواسطة قمر صناعي الى محطات التلفزيون المهمة في العالم ، عرض صحافي اسرائيلي وثيقة . وزعت في اليوم ذاته ، مطبوعة على نماذج الناطق العسكري الاسرائيلي . وقد نشر في هذه الوثيقة تحقيق لمراسل عسكري اسرائيلي ، تسفي كسلر ، وهو مراسل اقتصادي في ايام السلم ، جند كمراسل عسكري في الحرب . وقال كسلر في تحقيقه . انه وصل مع قوة من الجيش الاسرائيلي الى خط المياه في قناة السويس . كان ذلك بعد بضع دقائق من اعلان الجنرال ياريف ان الجيش الاسرائيلي انسحب على امتداد القناة بأسرها . لم يكن تحقيق كسلر كذباً . فعندما كتبه ، وصل حقاً مع قوة من الجيش الاسرائيلي حتى خط المياه في القناة . ولكن عندما وزع هذا الخبر للنشر ، كان كسلر والقوة التي رافقها قد اضطر الى العودة والانسحاب الى الوراء .

نظر الجنرال ياريف في الوثيقة التي قُدمت له ، ودون ان يقرأها حتى آخرها . قال امام عدسات التلفزيون بصورة لاذعة وقاطعة : « في الحقيقة ان وثيقة الناطق العسكري الاسرائيلي غير صحيحة » . كانت هـــذه الصفعة النهائية التي وجهت الى جهاز الاعلام الاسرائيلي ، فقد دفن الجنرال ياريف نهائياً حطام المصداقية الاخير . ولكن ذلك المؤتمر الصحافي الجماهيري معه اضفى قليلاً من التشجيع ، بسبب كشفه عن جزء من الحقيقة المرة . وفي اعقاب ظهور ياريف ، ألغى دايان حديثه التلفزيوني في اللحظة الاخيرة .

بعد ذلك بثلاثة ايام اعتزل الجنرال ياريف مهمته كمسؤول عن الاعلام . فقد جند للمساعدة كمستشار خاص للجنرال ألعازار ، رئيس هيئة الاركان . وقد اقترح موشيه دايان وزير الدفاع ، على السيدة مئير ، رئيسة الحكومة ، أن تضع شؤون الاعلام في نطاق مسؤوليتها. وقد وافقت غولدا على ذلك . ولكن بعد نصف يوم اتصلوا هاتفياً من مكتبها بدايان : « ليس عندنا شخص ملائم لتولي هذا الامر » . وأُعيدت الكرة الى وزارة الدفاع ، فعيّن دايان الجنرال شلومو غازيت ، منسق الاعمال في المناطق المحتفظ بها ، مسؤولاً عن شؤون الاعلام . وبعد اسبوع « تحطم » غازيت ايضاً وعاد الى مهامه السابقة . فكان افدح خطأ ارتكبه في مهمته هذه ، انه عرض الخطوط التي وصل اليها الجيش الاسرائيلي في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) . وفي اليوم التالي ، عندما تم توسيع مجال السيطرة الاسرائيلية غربي القناة ، على اثر خرق وقف اطلاق النار من قبل المصريين . عرضت الخريطة التي رسمها غازيت كبرهان على مكان وقوف قوات الجيش الاسرائيلي في اليوم الذي اعلن فيه وقف اطلاق النار .

ربما كان احد اسباب الفشل التام الذي مني به الاعلام الاسرائيلي ، يعود الى حقيقة ان عدداً من المسؤولين عن جهاز الاعلام والنشر ، التابع للجيش الاسرائيلي، خاضوا خلال فترة الحرب ما حظي بكنية « حروب اليهود » . وكان الهدف الاساسي

من هذه الحروب هو الجنرال اريئيل شارون ، احد قادة الليكود اليميني ، الذي كان قائد فرقة في الجبهة الجنوبية . فقد خاف رجال الحزب الحاكم ، في جهاز الاعلام ، من ان يكتسب شارون خلال سير الحرب هالة بطولية اخرى ، يظهر بعدها كبطل الحرب ، ويجذب المزيد من الاصوات لحزبه . وكانوا لا يزالون يعيشون في جو معركة الانتخابات في اسرائيل ، التي سبقت الحرب .

خلال الايام الاولى للحرب ، تسرب الى مسامع ضباط اركان المنطقة الجنوبية خبر مفاده انه تلازم قيادة شارون زمرة محترمة من الصحافيين . وخيل اليهم ان ذلك تم بمبادرة شارون ، لمقتضيات الشهرة . ولم يكن في ذلك ذرة من الحقيقة . فقد التحق بفرقة شارون صحافيون من اوساط مختلفة ، بعد ان قدروا انه ستلقى على هذه الفرقة مهمة حاسمة في الحرب في الجبهة الجنوبية . ولكن رجال حزب العمل كانوا منغمسين في الخوف من ان « اريك شارون سيسرق الانتصار » . وفي الفترة التي كان لا يزال الوضع في الجبهة حرجاً بدأوا معركة ضد الجنرال .

تصدّر هذه المعركة الرائد يهودا ايلان ، ضابط احتياط ، عمل في حياته المدنية مديراً لمركز الاعلام الاسرائيلي . وفي الاحتياط ، يخدم ايلان كضابط توجيه في المنطقة الجنوبية ، وهو من اكثر المقربين ليغئال آلون ، نائب رئيسة الحكومة ، وصديق شخصي لبعض زعماء الدولة ، اخذ يشن حملة تحريض لا تصدق ، بهدف تمجيد قادة معينين وتعظيمهم ، والتقليل من قيمة آخرين وإلغاءها . كانت هذه اخطر ظواهر الحرب ، ولم يكن لها مثيل في أية حرب سابقة . وكان لدى ايلان جيش من العملاء الحزبيين والصحافيين ، استغلهم لاهداف لم تكن لها اية علاقة بادارة الحرب او إعلامها . ومقابل « نجاحه » في هذا المجال ، كان ايلان احد الضباط القلائل في الجيش الاسرائيلي ، الذين رقوا خلال ايام الحرب بالذات ، حيث حظي برتبة مقدم .

لمقتضى شن الحرب على الجنرال شارون ، منع بعض الصحافيين والمذيعين من الذهاب الى قيادة فرقته . ومن جهة اخرى ، جند صحافيون كبار ، في قيادة قائد المنطقة ، كان من بينهم يورام بري ، الناطق باسم حزب العمل ، سمح لهم بالدخول الى غرفة عمليات القيادة ، لكي يكونوا انطباعاً مما تشاهده عيونهم وتسمعه آذانهم . وخلال المناقشات انتي جرت مع الجنرال شارون باللاسلكي ، دوّن يورام بري محضراً مفصلاً لكل كلمة قيلت في تلك المناقشات .

وضعت تحت تصرف المحررين والصحافيين الاسرائيليين الذين لم يجندوا ، طائرة من طراز « عرافا » لمدة عدة ايام . وقد نقلوا جواً الى قيادة المنطقة الجنوبية في سيناء ، وسمح لهم ايضاً بزيارة غرفة العمليات ، لكي يكونوا انطباعاً من المحادثات ومن إدارة المعارك . وأعطي لهم ، في جميع الحالات ، تلخيص دقيق لتفاصيل المهمات العسكرية .

في تل أبيب استكمل عملاء حزبيون آخرون المهمة . وخلال الاحاديث الخاصة هنا وهناك نعتوا الجنرال شارون باوصاف سلبية . ومنعت الاذاعة والتلفزيون من ذكر عمليات فرقته ومن تصويره الى ان انتهت الحرب . وتعكس القصة التالية احد نماذج الحرب التي شنت على شارون :

جمعت في مكتب وحدة الاتصال الصحافية الصور التي اخذها المصورون العسكريون التابعون للناطق العسكري الاسرائيلي ، والذين التحقوا بالقوات المقاتلة . وكانت تعطى في كل يوم مختارات من الصور الى الصحافة لنشرها . وكانت هذه صور معارك ، وصور قادة ، وكانت الصورة الوحيدة الغائبة دائماً : صورة الجنرال شارون . وبعد ان لفت نظر الناطق العسكري الى هذه الحقيقة فقط ، صحح الامر بسرعة . وذات يوم بعد الحرب وزع الناطق العسكري للنشر صورة واحدة للجنرال شارون ، بصحبة جنوده في جبهة سيناء .

ان النتائج الخطرة لفجوة المصداقية ، وازمة الثقة خلال الحرب ، لم يتم استيعابها بعد . والحقيقة انه كلما عاد الجيش الاسرائيلي الى نفسه ، كلما سهلت مهمة الناطق العسكري . فقد اصبحت البلاغات اكثر تفصيلاً ، وكان بالامكان وصف الوضع على حقيقته . ورويداً رويداً أعيدت ثقة الجماهير ببيانات الناطق العسكري .

ولكن موشيه دايان ، وزير الدفاع ، لم يغفر للعقيد لاهف ما حدث خلال الايام الاولى للحرب . ولسببٍ ما اراد ان يحمله تبعة فشل الاعلام ، التي تقع على عاتقه هو ، اكثر من لاهف . وسعيا لترميم الحطام ، عينوا ضابطاً بالرتبة نفسها مسؤولاً عنه . ومنحوه لقب « المسؤول عن الاعلام » . كان هذا العقيد اهرون افنون ، الذي كان على وشك اعتزال الجيش الاسرائيلي عشية الحرب . وبإلحاح من وزير الدفاع ، اخذ افنون على عاتقه مهمة ردم فجوة المصداقية بين الجماهير والقيادة السياسية والعسكرية . واقام مكتباً خاصاً به ، وعين مساعداً له ، واعترف في اول لقاء له بالمراسلين العسكريين انه ليس متخصصاً في مجال الاعلام ، وانه يأمل ان يتعلم المزيد في المستقبل .

لقد دل تعيين شخص غير محترف في مهمة تتطلب خبرة وفيرة ، كما دل استمرار حملة إخفاء حقيقة ما حدث خلال الحرب وتشويهها ، على ان الجيش الاسرائيلي لم يتعلم شيئاً من فشل سياسة النشر والاعلام خلال حرب يوم الغفران .

قبل أن أغمضت أمي جفنيها

قالت والبسمة على شفتيها ،

اعلم يا بنيّ ان عليك

ألا تجتاز الخط الأخضر ابداً .

وقبل ان يرحل والدي عنا ،

قال لي همساً

يا بنيّ ، إن كنت ما تزال تحبنا ،

فلا تعبر الخط البنفسجي .

ولكني خرجت مع الجميع الى المعارك ،

ومع الجميع عبرت كل خط :

خط أخضر وخط بنفسجي . عبرتها كلها

فأي خط أعبر الآن ؟

وبعد المعارك ، احصيت ، صامتاً ،

رفاقي الذاهبين الى غير رجعة ،

وفي صف طويل ، قبرتهم جميعاً

لانهم ، يا أمي ، عبروا الخط الأسود .

يهونتان غيفن

الفصل السابع عشر

مصيدة ٧٣

أنا ذاهب لأتأمل البحر . وآمل انه ما زال ، هو على الأقل ، كبيراً وازرق . وحيداً ومغلوباً على امري جئت من الصحراء ، وانا اشعر بالجفاء لكل ما كان قريباً الي ذات مرة ، ولذلك فانا ذاهب لأتأمل البحر . ربما تلوح لي سفينة في الافق البعيد ، ولكن اذا طفت امامي ، مرة اخرى ، زجاجة ما ، بها اعلان حكومي ، فلن افتحها حتى . فسخيف من يصدقهم بعد . انا ذاهب لأتأمل البحر ، فالزبد الابيض الذي يشير الى اطراف الموج ينبئني باكثر من كل تصريحات القادة ، العلم ، الوطن ، الجريدة ، الراديو ، التلفزيون . انا ذاهب لأتأمل البحر ، وليس من يقول لي شيئاً غير الحقيقة . مطر يسقط على الماء ، ولا حاجة لي بالبكاء . البحر دموعي .

انا ذاهب لأتأمل البحر . سأجلس على الرمال مرتدياً معطفاً كبيراً ، ولا تترحموا علي ، فيكفي ترحمي على نفسي ، اما انتم فتستطيعون المجيء والجلوس الى جانبي ، هناك متسع للجميع على شاطىء البحر . وفقط لا تذكروا لي من مات ومن عاش ومن جرح ومن غلب ومن خسر ومن صدق ومن المذنب . هذا لا يهمني بعد . وما يهمني ان تصدقوني هذه المرة ، لانني لم اكن اقول الصدق دائماً . وهذه المرة انا اقول الحقيقة : انا ذاهب لأتأمل البحر ، ولست بحاجة الى ما ليس بحراً .

انا حي ، ولكن ما مات بي لن تعيدوه الي ابداً .

انا ذاهب لأتأمل البحر .

طائرة النقل الضخمة تهبط رويداً رويداً في سماء تل أبيب ، ومظليون طالت لحاهم ينظرون بعيون حمر الى فيض الاضواء من تحت . وبحركات مرهقة ، يمرون بأيديهم ، التي جرّحها حفر الخنادق في الليالي ، على خصال شعرهم التي يعلوها الغبار .

« إننا جميلون ، اليس كذلك ؟ » قال احدهم .

« من انتصر ؟ » سأله صديقه ، بجد كامل .

رائحة الجثث المحترقة لا تزال تزكم أنفي . كلب جائع ينهش جثة عدو . ومع امتناني لبقائي على قيد الحياة ، يتسلل الى قلبي الشعور بأني شاركت في فيلم اباحي . وفي هذا المساء ، علي ايضاً ان اذهب الى والدي يورام ، والى زوجة تسفيكا ، والى اولاد يوآب . واما داني وآريبه . فليست لهما عائلات في البلاد .

« قص علينا بدقة كيف جرى ذلك » . سيطلب الوالدان ، النساء ، الصديقات ، الاولاد ، القمر ، الشمس ، نجومي وآلهتي التي في العلبة الصغيرة على الباب : قص علينا كيف جرى ذلك بالضبط .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، سأصرخ في نومي « يا مضمد ! يا مضمد ! » ومرة اخرى ، وللمرة الثانية في حياتي ، انضم الى حزب من مسهم الجنون موقتاً ، من صعقهم القتال ، الموتى وهم احياء . وعندها تبرز انواع مختلفة من الناس لا اعرفهم ، اقارب ، اصدقاء من الذين بقوا في المؤخرة ، ويستغربون ان ابتسامتي مشحونة بالدموع ، وانني لا اقشعر لذكر اسم كل قتيل .

أنا ذاهب لأتأمل البحر .

الى أين ذاهب أنت ؟

لأتأمل البحر . لماذا ؟

لماذا ؟ لماذا عدت من هناك . عليك ان تذهب الى الحكومة ، الى القادة ، الى الكنيست ، وتشير اليهم باصبعك قائلاً : كذبتم علي .

ولكن ما حل بي ، هو شيء فظيع : تحيط بي اشياء لا تعنيني . رفاقي في السلاح ، كلهم تقريباً ، قتلوا او جرحوا ، او هم مثلي ، احياء ولكنهم اموات ، او العكس ، وأمي ماتت كذلك . واذن من بقي على قيد الحياة فعلاً ؟ عدد من فرق موسيقى الجيش تغني : « العالم كله ضدنا » . وكذلك انا .

وصباح غد ، اجد نفسي في كابوس آخر مأخوذ من « هرتسوغ » سول بلو ، احد الكتب التي احببتها بصفة خاصة ، عندما كنت لا ازال حيـاً . وانا اكتب بطاقات برتقالية من التي يوزعونها على الجنود . بطاقة واحدة أكرسها لعضو الكنيست بن الف ، الذي انتخب نفسه ليكون عضو لجنة الامن في دولتنا الامنية . وانا اكتب اليه بقلب منفتح .

« سيدي .

قد تستغرب لماذا اكتب اليك فجأة هذه البطاقة . واكيداً انني لا ازيد على كوني جندياً يؤدي الخدمة على الجانب الثاني من القناة ، وانت عضو كنيست لا يخدم احداً

ابداً . لا لا ، يا حلو ، لا اتهمك ابداً ، والكدر الذي ألمّ بك مؤخراً ليس في مكانه مطلقاً . وصدقني ، ان هذا ليس تقصيرك قطعاً . فلقد عرفنا دائماً انك صفر ، لا خير فيه . ولذا فلا تكن كسير القلب الى هذا الحد ، وعزاؤك في حقيقة انك لم تكن قادراً ابداً على مجاراة المشاكل الوضيعة جداً . واذن فكيف يكون بمقدورك إيقاف هذه الحرب؟ عندنا الكل بخير : ما عدا البق . ونحن نسقط فقط بين كراسيكم ... نسقط بين كراسيكم ... نسقط بين كراسيكم » .

انا ابن ثماني عشرة ، ست وعشرين ، إحدى وثلاثين ، اثنتين وخمسين . ست وعشرون هو عمر ملائم للموت والحياة معاً . ففي حياتي لم أقم برحلة كهذه ، ما عدا ، ربما ، في سن التاسعة عشرة في حرب « الايام الستة » في هضبة الجولان ، بعد احتلال تل ابو خرا ، عندما جاءنا احد وزراء الحكومة ، وبشرنا بابتسامة باهتة اننا قد انتصرنا .

« انت انتصرت » قال له كل من بقي ، « نحن ذاهبون لنتأمل البحر » . وبعد شهرين من الكوابيس والصراخ « يا مضمد ! » في ظلمة الليل الدامس ، بدأت تصدر كتب النصر المصورة . وفي الصحف كتبوا اننا ابدعنا صنعاً ، كأنما كنا نمثل في تمثيلية رديئة . لم أفهم ابداً عن اي نصر يتكلمون . فاذا كانوا يقصدون السلام ، فالسلام لم يكن قط بعيداً الى هذا الحد . ولكن الذي يخدم كعضو في الكنيست ، قال لا بأس انني استطيع ان انام بهدوء الليلة ، فوضعنا الامني لم يكن بهذه الجودة قط . ولقيت لنفسي حتى مجنوناً ، رتب لي حديثاً مع الاموات من فصيلنا ، في قاعدة خلفية ما في جنة عدن . وملاك الرب يرفرف ويغطي وجوههم كل ليلة .

قبل ست سنوات ونصف ذهبنا لنتأمل البحر . وكان ازرق وكبيراً كما لا يقدر غير البحر ان يكون . وبعد ذلك بدأوا يشطفون دماغنا بابتسامات النصر الممجوجة . ومشينا بفخر في شوارع الوفرة ، نصفر [موسيقى] « الجسر على نهر كواي » ، ونبحث عن امرأة ، عن بيت ، عن مهنة ، عز ، مال ... ونحـاول ان نتحرر من الكابوس . ونصدق زعماءنا الممتازين الذين ينشدون علناً : « وضعنا الامني لم يكن قط بهذه الجودة » . حالنا ، حالهم ، حالها ، اطال الله بقاءها ...

والى متى تستطيع ان تتأمل البحر ؟

العجل المذهب بصورة الفانتوم

وبعد ألبوم الصور الاخير من حرب الايام الستة ، والنشيد الاخير لشاعر القصر الاخير ، الذي اهتز الى اعماق قلبه الوسيط من قرية عربية ملأى بالبق تدعى شرم الشيخ ، او اية قرية عربية نائية اخرى ، بدأت كبرى الحفلات .

الامن كان العجل المذهب .

كلهم قالوا لا داعي للقلق لان عندنا جيشاً قوياً ومليون فانتوم .

تكلموا عن اشياء كثيرة محررة لا يمكن ارجاعها .

وعندها ، آه عندها ، أُعطيت الاشارة من رئيس جوقة العازفين الذين يعضون على ابواق البلاستيك ، وبدأت كبرى حفلات العالم .

انتهت حرب الايام الستة وبدأت حفلات السنوات الست

لم يكن شعب اسرائيل قط ملتفاً هكذا حول « أناه » . الجنرالات الذين كانوا مرة يجوبون الحقول وهم يرتدون البنطلونات القصيرة بأرجلهم المغطاة بالشعر ، بدأوا يدخنون السيجار ويقيمون حفلات السلام حتى ساعات الفجر ، والجنود — الخدم يرتّبون لهم الموائد ، بينما المتبرعون من الخارج يقضمون العظام . ورأيت بأُم عيني جنرالاً كهذا يلعب دور المخرج لفرقة غنائية عسكرية . وفي إحدى المناورات العسكرية لفرقة من الجيش ، شاركت فيها كضابط مظليين ، رأيت جنرالين يجلسان مع « شقفة » [حسناء] في سيارة ، بينما يغطي وجهيهما دخان السيجار الذي يحجب كلية عن نظريهما جميع قواتنا . مهووسان . والرفاق العابثون في حفلات العربدة يعتمدون عليهما ، ويقولون بين رشفة واخرى ، اذا اندلعت الحرب مرة ثانية ، فهما :

أ : سيكسران عظامهم .

ب : سيقضيان عليهم

ج : كلا شيء .

د : بلا مشاكل .

وفي ظل طيف العظام المكسّرة ، عربد مجتمع الوفرة الغربي دون انزعاج . لم تكن دولة اسرائيل قط في ارتفاع حاد كهذا . والجري وراء مستوى معيشة الاغنياء اخذ يتحسن رويداً رويداً مع « تحسن » فقر الفقراء . لانه بينما الجنرالات يراقبون مناورات بالذخيرة الحية بسيارات فاخرة ، يبدل الجمهور ، مرة بعد مرة ، اجهزة الستيريو الثمينة التي يمتلكها . وبينما يدخن الجنرالات سيجار هافانا ، يدخن الشباب حشيش بيروت ، وماراوانا اميركا .

نعم ، كلهم يعلمون ان هناك مخربين في المنطقة ، ولكنهم جميعاً يتكلون على « مكسري العظام » ، الذين يعرفون ايضاً باسم « أذرعة الامن » . وهكذا ، وبينما يقف رجل الدفاع المدني المجعد التقاسيم ، على مدخل السينما ، ينبش في محافظ ايدي السيدات العجائز ، يدور في الداخل فيلم « ستيركون » بكل زخمه .

الاعمال مزدهرة ، الصناعة والبناء ينموان بصورة عجيبة . مقاولون اغنياء يشترون ارضاً للبناء في أمكنة سقط فيها شباب امس . يشترون الدشمة ، التي سقط فيها اعز اصدقائي ، بعشرين ألفاً . القطعة غير المشرفة كلفتهم أقل . ووحدهم الجنود الذين عادوا الى بيوتهم لم يكن لهم بيت ، لان اسعار الشقق ارتفعت الى حد ان سماسرة الحرب فقط يستطيعون اقتناءها . وهكذا خلق وضع فيه ، التلال التي سُميت على خريطة الرموز العسكرية لحرب الايام الستة باسماء « رينا » و « دينا » ، واحتلت مقابل دماء اولئك الذين اعتقدوا ان الحديث هو عن تراث تاريخي ، امتلكها الاغنياء ، الذين قبضوا بعد ذلك اموالاً طائلة لكي يبنوا خط بار — ليف ، وخطوطاً اخرى ، لكي يكسبوا اموالاً اخرى ، وليبنوا بيوتاً إضافية للاغنياء الذين يعيشون في قلب البلاد . « ما كنت اعلم اننا حاربنا من اجل المقاولين » . قال مقاتل اضناه التعب ، والذي اصبح زوجاً بلا بيت في فترة الازدهار الكبرى لدولة اسرائيل .

وازدهرت الفنون ، وحُبِّر المزيد من الكتب الفظيعة وبيع ، وازداد عدد معارض الفنون باكثر من الثلث ، وتضاعف عدد المسارح الفاشلة ، وبرز الكثير من نوادي الليل بمن فيها من المبارزين الروس ، والمومسات الباريسيات ، والخادمات الايرانيات . افتتح الكثير من المطاعم الفاخرة ، يلتهم فيها موظفو الحكومة وجنرالات الجيش أطايب البحر المتوسط . والدولة ، اي انا وانت ، دفعنا الحساب كله . لانهم هم الذين يصنعون القرار ، هم الذين يكسرون العظام ، هم البقرة المقدسة التي تأكل عجلاً مشوياً بالتنور . ونحن ، نحن نأكل النفايات فقط ، ونتصفح كتب النصر المصورة الثمينة ، ونتمعن مرة واخرى في الوجه الاسطوري لذلك الجنرال المبتسم ، بغرور المنتصرين . كاسيوس كلاي الشرق الاوسط . نحن ندفع الحساب فقط .

نحن دائماً ندفع الحساب فقط

وذات يوم جاء بعض الشباب ، جلسوا وبدأوا يفكرون . فكروا : اذا كنا انتصرنا ، فذلك يستوجب منا عملاً معيناً ، مسؤولية أدبية لمصير المغلوبين . وفي كتيب وضيع ، راجت سوقه ، قدمت الى الشعب المقولة المضادة لألبوم الغطرسة : « حديث المقاتلين » . وهنا ، يخيل الي ، اكتشف الجمهور اول مرة خواطر وافكار المقاتلين الشباب الحقيقية ، اولئك الذين اسماهم الشاعر ناتان الترمان ، رحمه الله ، بصدق : « طاس الفضة الذي عليه قدمت لك دولة اليهود » .

اولئك الشباب الذين عادوا من القتال ، وخطوط وقف اطلاق النار ، قالوا ، بابسط الكلمات ، ان الحرب وواقع النصر ليسا حلاً للمدى البعيد . ونظروا الى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين مثلاً ، وكأنها صهيونية عربية . والى الحرب وكأنها الموت والدمار . بلا هالات

خطابات الانتخابات الديماغوجية . هذه الوثيقة الفريدة من نوعها دونت من اقوال شبان الكيبوتس ، الذين يعتبرون ، على الرغم من قلة عددهم ، زبدة جيل الشباب الاسرائيلي ، والموجهين فكريـــاً للجيش الاسرائيلي ، وهيكله القيادي على المستوى الهجومي . ومقابلهم ، بلا مبالاة غبية ، يمكن تقديم الطالب الاسرائيلي النموذجي ، الذي يتظاهر لتأجيل موعد الامتحانات ، ولكنه لا يحرك اصبعاً في المسائل القومية المتعلقة بالحرب والسلام ، بالحياة والموت . وجامعاتنا ، التي كان يمكن لها ان تصبح جسماً سياسياً (انظر ماركوزة) يشارك في تقويم المستقبل وتحديده ، انقلبت الى روضات اطفال لمليون من اصحاب النظارات الذين يريدون ان يصبحوا دكاترة في شيء ما ، وكذلك لمليون من الفتيات اللواتي يردن ان يصبحن نساء لدكاترة في شيء ما .

وحتى حرب الاستنزاف لم تعكر صفو عربدة الست سنوات السمان . وصور القتلى في الصحف الصباحية لم تعق مكسري العظام عن مرح طبقات سميكة من الزبدة على خبزهم المحمر . فالجمهور المنتصر كان يعلم انه في مكان ما على قناة السويس ، او في غور الاردن ، النصر « يستمر » . الحزن زاد من وحدة مجتمع الوفرة الذي لا يهزم قط ، والهدوء المشبع بالتوتر زاد حجمه كطابة الثلج المتدحرجة على سفح الجبل ، هذا باضافة إحدى مفارقاتنا القومية الغريبة :

من اجل السلام تجب الحرب
نحن نقاتل من اجل السلام
حرب من اجل السلام .

وهكذا صيغ احد اكثر الشعارات مفارقة في أية لغة : هذه الى جانب تلك ، تتناوش كلمة ونقيضها بلا حياء ، في الجملة نفسها ، كتفسير مضغوط لوضع فيه النصر الساحق الى جانب استمرار الخطر ، والحدود البعيدة الى جانب الارتباك الغريب المكسو بتمويه من الوفرة والخوف .

« مفارقة ؟ انظر من يتكلم عن المفارقات ... »

« مفارقة هي كلمتي التي تنوب عن « الغش » . انا افعل ذلك لئلا أصيبكم . اتريدون المزيد ؟ »

« نعم من فضلك ... »

« وايضاً « طهارة السلاح » هي مفارقة ؟ »

« ماذا قال هناك ؟ ألا يخجل ؟ طهارة السلاح ! أقال طهارة السلاح !!! »

« نعم ، في نظري هذه مفارقة ، لان السلاح الذي يقتل الناس لا يستطيع ان يكون طاهراً ... »

« اسمعتموه ؟ زكي النفس ! هيبي قذر ، اذهب احلق شعرك ! » .

وهكذا ، سيداتي سادتي ، غدا السلام كلمة ، خرافة ، اوتوبيا ، عنوان فصل آخر في الصفحات المجعدة للسياسيين المسنين ، وللمكارين الذين يضعون شروطاً صعبة جداً للسلام ، بأمل وطيد ألاّ يقبل احد تلك الشروط . وقد اعتقدوا ان الزمن يعمل لصالحهم . ولكن الزمن لا يتعرف عليهم ابداً . وكانوا على ثقة بانه اذا اندلعت الحرب مرة ثانية ، فسننتصر مرة ثانية .

نحن سننتصر ، ليس هم .

لان السلام عندهم هو عنوان فصل في الاجتماعات الانتخابية ، بينما عندنا هو مسألة حياة او موت .

لاننا نحن نريد السلام وهم يريدون ان يكسروا العظام .

لان « نحن » و « هم » ليس ، ولم يكونوا قط ، الشيء نفسه .

وتريدون مفارقة اخرى ؟ تفضلوا : الشباب الاسرائيلي (ولم يبق منه الكثير بعد الحرب الرابعة من اجل السلام) يصبو حقيقة وباخلاص لان يكون مقبولاً لدى العرب وقريباً منهم . ولكن سياسيينا يستعملون سوء التفاهم المأساوي الذي حصل بين الشعبين كسلاح للمساومة السياسية ولتحسين اوضاعهم المهنية الشخصية .

ويقولون لنا قبل كل حرب وبعدها اننا ذاهبون الى القتال من اجل السلام والامن ، ولكني اعرف عدداً من الذين قتلوا دون ان يفكروا ابداً بالسلام او بالامن . فكروا بالزوجة والطفل الذي يصحو كل اربع ساعات ، بالوالدين ، بالابناء ، بتلك الحسناء التي وعدت ولم تف ، بذلك الفيلم الذي مشاهدته « واجبة » في « اللنبي » [سينما] ، بالبستان الاخضر والروائح التي تذهب بالعقل . فمن احب البحر فكر في البحر ، ومن احب الشمس فكر في الشمس . انا فكرت في الموت ، ولكنني لست نموذجاً ، انا جبان الجماعة .

لان « الحرب من اجل السلام » شيء لا يكفيني . لا يا سيدي الوزير — عضو الكنيست — الجنرال الباسم . لانني نضجت قليلاً ، وقرأت قليلاً من الكتب ، وتحدثت مع عدد من الرجال ، وانا اريد ايضاً ان اعرف عن اي نوع من السلام تتكلمون بالضبط . اي سلام ؟ كم من السلام ؟ سلام مع من ؟

سلام مع زوجتي ؟ سلام مع ريتشارد نيكسون ؟ واي أمن بالضبط ؟ أمن ذاتي ؟ أمن ألا يسرقوا لي بيوضي ؟ اريد ان اعرف ، لانني تأكدت ان سلامي ليس سلامكم ، وأمنكم دائماً اكبر من أمني .

في « رجال بانبيلوب » ، كتاب اجباري في دورة ضباط جيش المشاة ، يدور حديث عن كرم وعن بيت ، ويستطيع كل احمق ان يفهم ذلك . هذا سهل . انت تستطيع ان تلمس البيت والكرم ، ولكن هل لمس احدكم السلام او الأمن ؟ بسهولة يقولون لك كلمات لا يستطيعون تفسيرها لك ، وعليك ان تقاتل من اجلها ، وربما تموت من اجل شيء لا تفهمه ابداً .

اصدقائي يرقدون الآن في المستشفى . دون أيد او أرجل . أي أمن لهم ، وهناك من فقد عقله ، وهم يهرولون في دهاليز مصحات المجانين ويصرخون : « يا مضمد » !

هل هذا هو السلام الذي وعدتموهم به ؟

واذن فاني سأكتب لهم بطاقة صغيرة :

سيدي الوزير — القائد — الموهوب — رئيس الاركان — الجنرال — المحدال — الرئيس — المحترم — والوطني !

انا ابن ست وعشرين، ولي ولدان وليس عندي بيت . الأمن والسلام شيئان رائعان كيداً . ولكن حياتي اهم الي من كلامكم . لست غبياً . وعندما أقاتل أريد ان اعرف بالضبط من اجل ماذا أقاتل . فان كان السلام ، فعندها اي سلام بالضبط ؟ سلام ابيض — اسود ؟ سلام ملون ؟ سلام مرصع ؟ سلام الثلاثة اشهر؟ سلام حتى يجند ابني للجيش ويحارب من اجل نفس السلام بالذات ؟ لان سلامي وأمني هما ان اعيش اكثر قدر الامكان . وألا أموت . وألا افقد ايضاً أذنا في معركة ما . وقد تستغربون انني مستعد للتنازل عن الكثير جداً من اجل سلام وأمن حقيقيين . وعنكم كذلك . ولكني غير مستعد للموت من اجل كلمات لا افهمها . هكذا عندنا كل شيء على ما يرام . الليل بارد قليلاً ، ورائحة الجثث . توبول حاول ان يضحكنا امس مساء . ولماذا لا تقفزون مرة ؟ الكراسي لن تهرب منكم ...

نعم ، اعتقد انه كانت لنا ست سنوات جيدة للكلام عن السلام والامن الحقيقيين . ولكننا شغلنا بالكلمات ، بالمعاني ، بالقيم ، بالفلسفة — بالقرش . فلقد قاتلوا دائماً من اجل شيء ما : « حرية » ، « أخوة » ، « استقلال » ، « سلام » ، « أمن » ، « ديمقراطية » ، والكلمة الاهم — « حياة » ، الحياة العادية ، دفعت الى الزاوية ، خلف تلال من الشعارات الفارغة المهترئة . رأيت شباباً يموتون . ولا أحد منهم صرخ ، قبل ان يسقط ، « ما أجمل الموت في سبيل الوطن » ، او ، « يعيش السلام والامن » هم بكوا « يا أمي » كالاطفال ، وأحدهم — يورام — قال : « لا تخبروا زوجتي ، ستغضب عليّ مدى الحياة » ، اراد ان يقول « كل الموت » ، اراد ان يقول « اموت دون ان اعرف اذا كنت احرزت ، في آخر المطاف ، السلام والأمن » .

في جنة الحمقى شغلنا بترهاتنا الرائعة . والنخبة ، السياسية والعسكرية ، اعطتنا الانطباع باننا محاطون دوماً بأمن وسلام ، وليس هناك ما يدعونا الى القلق ، والعربدة تستطيع ان تستمر دون عرقلة . لا ، لا حاجة الى ارتداء الملابس ، ومعاذ الله من التفكير الزائد ، وحافظوا على المعنويات .

— لماذا لا تتكلمون معهم او تعملون شيئاً ما ؟

— دعك ، انك لا تفهم انهم عرب وان لهم عقلية اخرى ؟

— ولنا ، أليست لنا عقلية ؟

— اغلق فاك ونم مع البندقية ، البندقية زوجتك .

— نعم ، نعم ... هي زوجتي . ولكن ربما نهتم بتسوية للاجئين ايضاً ... وللمناطق ... ربما ، اذا حاولنا ان نتكلم معهم ...

— لا يريدون ان يتكلموا معك ، يا ابله .

— ولكن أريد ان اتكلم معهم .

— نحن ننتظر التلفون ...

— ولكن لماذا لا نتصل نحن ، فلدينا الرقم ، أليس كذلك ؟

— اخرس واركض حول الجناح حتى أوقفك انا .

غولدا مئير لا تتكلم لغتي ، فكاهاتها لا تضحكني ، افكاري لا تهمها ، وهي امرأة قديرة وتستطيع ان تدبر الامور من دوني ودونك ، تستطيع ان تدبر الامور من دوننا جميعاً ، وبوصفها رئيسة للحكومة ، هي تعلم انه دائماً ، وفي كل مكان ، ينوه ملايين المواطنين بقناعة كبيرة ان الحكومة سيئة ، غير ملائمة ، لا خلقية ، يتحدثون عنهم ، عن كل تلك الامارات الاقطاعية التي تسمى ايضاً احزاب العمال ، بنوع من الازدراء الاستعراضي لتجاهل مطلق .

ولكن ذلك لا يحركهم .

لانهم « مكسرو العظام » ، هم « المنتصرون » ، وقطعاً ، لا يحتاجوننا من اجل انتخاب انفسهم بانفسهم من جديد كل مرة .

وربما قلت اننا نزعجهم حتى قليلاً .

كان الاكثر راحة لهم ان يجلسوا وحدهم على المائة وعشرين كرسياً ، وان يتبادلوا من وقت لآخر ، بين بعضهم ، كما في لعبة الاطفال تلك ، تعرفونها ، التي عندما تتوقف الموسيقى يجب على كل واحد ان يحتل كرسياً بأسرع ما يمكن ، وليس ارشق منهم في لعبة احتلال الكراسي ، وهذه هي موهبتهم الاساسية فعلاً ، اعطوهم كرسياً .

وانظروا كيف يلعبون فيه حتى النهاية . بين حين وآخر ارى وجوههم في صحيفة او على التلفزيون ، وأفكر في نفسي ، كما في مناظر المطاردة من افلام وسترن ، الدرجة الثالثة : من هؤلاء الرجال ؟ هل هذا فريق الشريف ام فريق اللصوص ؟ وأية علاقة لهم بي ؟ فاصغرهم سناً يمكن له ان يكون جدتي . وهم لا يتكلمون لغتي ، ولا يهمهم ما يهمني . آه ، دونك ! عند كتابة هذه السطور ارى احدهم على شاشة التلفزيون . رجل عجوز عجوز عجوز ، مرحت على وجهه ابتسامة الحكم الضجرة ، انا متأكد انه لم يقبّل فتاة في حياته ، اقصد على فمها . وقد لا يكون يتنفس كما اتنفس . هو فقط يقبع هناك ... دائماً .

اذن اي علاقة له بي ، الى الجحيم ؟ ولماذا يطاردني كلما تطور وضع أمني او نشبت حرب ؟

– لانك انت شعبه – يا تنبل ، انت الشعب !

– أنا ؟؟؟

– نعم ، نعم ، انت تنتخبنا ، ...

– انا لم انتخب احداً في حياتي

– شكراً ، شكراً ، يا صديقي العزيز ، انتخبتنا !

حقاً ، بين حين وآخر ، يحاول بعض الشباب دخول المتاهة السياسية ، ولكن الامل معدوم عادة . فالسلوك الى مجالس الشيوخ في المؤسسة الحاكمة عندنا يستوجب على المرء ان يكون نصّاباً دولياً ، والشباب الذين يصلون الى هناك ، ليسوا شباباً الى تلك الدرجة ، وهم يفقدون في الطريق شعرهم ، واستقامتهم ، واخلاقهم ، وضميرهم ، وعدداً آخر من الامور التي كانت حيوية للمنتخبين في الماضي ، في الديمقراطيات القديمة .

والشباب ، الشباب الذي فقد الثقة بمنتخبيه منذ زمن طويل ، الذي يسخر من كل كلمة يتفوه بها . كل واحد منهم ، هو الذي يجب عليه ، مرة كل عدة سنين ، ان يضحي بنفسه من اجل تصور تلك المؤسسة الحاكمة ، الغريبة والمتعجرفة ، التي تغرس فينا شعورها الخيالي بالامن والسلام . الى ان جاءت حرب لم تكن ناجحة جداً ، وعندها عليّ ان آخذ بطاقة عليها صور طائرات وبنادق ، لاكتب التعازي للمنتخبين :

« ايها المنتخب الكريم !

كف عن البكاء . كل شيء سيكون على ما يرام . ولا تجرؤ على اتهام نفسك . فكلنا ، بمن فيهم انت ، كنا نعرف طوال السنين بانك رجل محدود ، وعند الامتحان لا يجوز أبداً الاعتماد عليك . فاذن لا تقلق بالك الآن ، فلن يزيحوك من كرسيك الدافىء بهذه السرعة . ليلتك سعيدة وحافظ على المعنوية في المؤخرة . انا ، الجندي المجهول ، السويس ... »

ما اجمل الموت في سبيل وطننا . وكنت اعلم منذ نعومة اظفاري ان هذا الكلام ، اما انه الحقيقة الرفيعة واما الكذب الجليل ، او كلاهما معاً . لانه اذا كان طرومبلدور احب البلاد فعلاً ، فلماذا رأى انه يحسن الموت من اجلها ؟ واذا لم يكن احبها فلماذا لم يقل ذلك ؟ لقد ازعجني جداً عندما كنت يافعاً . واما شعاري ، الذي لم يحظ الى الآن بالتعليق على جدران اية مدرسة ، هو :

« ما أجمل الحياة في سبيل وطننا ! ! ! »

بحروف مذهبة ومشعة . وكل كلمة على حدة . ما . اجمل . الحياة . في . سبيل . وطننا . ما اجمل الحياة من اجل كل رقعة ارض ، من اجل كل سويق عشب ، من اجل كل شجرة يانعة ، ومن اجل كل مصعد . وانا احب وطني لاني احب ان احيا من اجله . استطيع ان اشرب البراميل من ندى سهول بلادي دون ان اسكر ، وانا استطيع ان اجد جمالاً في بشاعة منتزه تل أبيب الهائلة ، وان اقع في غرام رقعة من رصيف غير تاريخي في القدس الجديدة . لست بحاجة الى اعلام لاصبح وطنياً ، ولا الى تقبيل الارض لاعرب عن شكري لها ، ولا الى رفع عيوني الى السماء لاعرف انها ما زالت حيث هي . انا ببساطة ، احب الحياة من اجل بلادي واكره الموت من اجلها او من اجل اي شيء آخر في العالم .

– انزلوا الى الحفائر

– اخرجوا

– احذروا ، ايها الرفاق ! هذه كتيوشا !

– ضعوا خوذ الفولاذ ولا تخرجوا رؤوسكم !

لحظة طويلة من مهابة الموت . ثلاثة ايام ، الى الآن ، يصاب رجالنا من قذائف مدفعية العدو ، والكتيوشا هي اشدها هولاً . ترى بريق انطلاق القذائف . ولكنك ، ابداً ، لا تعرف اين تسقط . وفي هذه اللحظة المروعة ، ترتسم حياتك كلها على شريط سريع صامت . فها انت طفل ، وها هي عدينا معلمة الروضة ، ولد جيد يقضي حاجاته في الارضية ، لا تتسلق الشجرة ، السلام عليكم في الصف الاول ، أمي ما هو الله ، الله الصغير الذي يجلس في العلبة الصغيرة التي على الباب(*) .

ولكن يا أمي ، انتهى ذلك ، أليس صحيحاً ؟ يقطفون الحمضيات في صناديق خشبية . تصعب سواقة التراكتور في اخدود الوحل بين الاشجار . ولد كبير ، تعرفون انه يكتب الاناشيد ، سيكون مظلياً . اصحيح انك ستستطيع ، يا حبيبي ؟ وعندها

(*) إشارة الى المزوزة التي يضعها اليهود على ابواب بيوتهم – المترجم .

ستبدأ بالركض حول الجناح الى ان أوقفك ! واحفر حفرة . وكن بطلاً ! وادفن سيجارتك في الحفرة . كن رجلاً . رجلاً ! رجلاً ! ... ولكنني لا أُريد ان اكون رجلاً ... انا ... اليك كتبت قصيدة اخرى ... ارم ما في يدك وسد فمك عندما تخاطبني . نحن نحارب من اجل السلام . هل نسيت ؟ حرب الايام الستة . موسى قتل . وتشبي . وألكس . ما هذا ؟ كلهم ماتوا ؟ يا مضمد . يا مضمد ! انا ميت وحي معاً . انا أُحبك . يا نوريت . أُحبك جداً . واذا خرجت من هنا حياً فسأضمك الي مدى الحياة ولن اتركك ولو دقيقة واحدة . يا الهي ما اشد خوفي . كل بدني يرتعد . انا منبطح في حفرة مسطحة وارتعد كورقة في الريح . يريدون قتلي . قتلي ! هم يريدون ...

... آمل ألا تكون العيون . لانني اذا لم أُبصر فلن أُساوي شيئاً . لانني هكذا . حتى عندما درست التاريخ القديم . قلت لذلك الاستاذ : « رومان او غير رومان . انا لا أُصدق حتى ارى » ... ومعاذ الله . ليس اليدان . ليس باليدين من فضلك . فبهاتين اليدين المسك . واكتب القصائد . وأُلاطف الاولاد . واغسل الظهر . وأُطفىء النور . ولا الرجلان . انني احب المشي . يكفي ان ليس لروتبليت ارجل . وانا العب كرة قدم . جناح شمالي . ايام السبت . احياناً . ولا البطن . ولا الظهر . ولا الأذنان . ولا .... واذا مت . فما مصير كل الاشياء التي ستموت معي ؟ القصائد التي لم اكتبها ؟ والخواطر التي لم تخطر ببالي ؟ والافكار التي أُؤمن بها ؟ إلهي الذي في العلبة الصغيرة على الباب . الاله الواحد . دون وجهي ؟ لانني اذا مت . فعندها ستموت معي كل الاشياء التي احبها . أليس صحيحاً ؟ انا اقصد . عائلتي . عالمي . اصدقائي . ليس عندي الكثير . ولكن اولئك الذين في قلبي سوف لن يكونوا . أليس صحيحاً ؟ وموزارت ؟ هل موزارت الذي بي . ذلك الذي احب الاصغاء اليه . سيكون له معنى حتى بعد ان لا اكون انا ؟ والخنافس . وديلون توماس . والشعر . وابنتي الصغيرة . وأُغنيتي الصغيرة . شيرا . ابي يخاف جداً في حفرته . وهو اولاً يتكاسل عن الحفر . والآن هو يندم على انه لم يحفر اكثر . والعار : ان اضطجع على ارض لا اعرفها هكذا ... أُقبِّل زبل حصان مصري وانتظر ان يقتلوني . ان يقرروا بالنسبة الي انه ....

ززززب ب ب م !

القنابل تتساقط . اوائلها على بعد ما . على الجسر . ولكن حذار . ستسقط الرشقة الثانية علينا تماماً ! لا اكثر من خمسين متراً ! وانا أُحاول القرفصة قدر الامكان . ان اكون قزماً . ان اكون قطاً . الشظايا الكبيرة تتطاير من فوق . والرجة تسمرني الى الارض . عيناي اغمضتا وامتلأ فمي بالغبار . وصرخات « يا طبيب ! » . و « يا مضمد ! » تسمع من خنادق الفصيلة جيم . انتهى القصف . وانا اتلمس كل عضو في بدني . سعيد اني بقيت على قيد الحياة . واقسم انني سأهرب من هنا . سأهرب بعيداً . سأهرب

حتى البحر . واقول :

لا أُريد ان اسقط بين كراسيكم
انا خائف
انا خائف
أُريد ان احيا
ما اجمل الحياة من اجل بلادنا ! ! !

انا حي وميت في آن واحد . وفي فمي طعم زبل الخيل المالح . وكل اصدقائي تقريباً قتلوا او جرحوا . ولا شيء يهمني اقل مما اذا كنا انتصرنا او خسرنا . لا أُريد ان اسمع النتائج . حياتي ليست كرة قدم . والآن انا ذاهب لأتأمل البحر . انا حي . ولكن ما مات بي لن تستطيعوا إعادته الى الابد . انا ذاهب لأتأمل البحر هل هنا من يعرف ايتسيك ...

وصل الينا والشمس قد غربت . وراء الابنية في الطرف الثاني من البساتين واشجار المانجو والنخيل العالية : رجل عجوز . طويل القامة نحيف . واقترب منا بخطوات مترددة . بينما عيونه الى الارض تتفحص نعليه الباليتين . ارتدى سروالاً مدنياً وقميصاً نصف عسكري . قبعة كاسكيت . التي كانت دارجة بين العمال الذين جاؤوا لبناء البلد قبل خمسين سنة . منظر غريب لا مثيل له . من الارض نبت ابونا وانضم الى جلسة شراب الشاي التقليدية لوقف اطلاق النار . في الامسية الاولى الهادئة بعد الحرب المريعة .

ولكننا اعتدنا هذا المنظر . ففي كل يوم تقريباً كان يصل آدمي كهذا . ودائماً بالمشية المترددة نفسها . فمعاذ الله ان يزعج راحة المقاتل . وكنا نعرف انه لن يتكلم لدقائق طويلة بعد . سيكوي شفتيه بشاينا . يجلس معنا على الارض الرطبة . يصغي الى كلامنا . الذي هو ايضاً متكلف ودارج . كي لا نحرجه . ذلك الرجل الطيب . الذي . من يعلم . فلربما مرت عليه ايام عدة وهو يتنقل بين الوحدات المختلفة المعسكرة على خطوط وقف النار . وايمانه بعصاه وجرابه . كنا نحذر من النظر الى عيونه ونعلم انه سيتكلم عندها . كنا نعلم . ان اباً كهذا لا يصل الى هنا الا للتفتيش عن ابنه الذي فقد في الحرب . وهو لا يعلم انه لم يكن بعيداً . كما يقال . ولكننا لم نقل شيئاً . كنا ننتظره هو ليتكلم ... ووضع الشاي من يده وقال :

« شاي جيد ... »

« هذا الموجود ... » قلت

« مع صودا ... » قال احد الهازئين .

وعندها خلع الرجل قبعته امامنا وقال . بصوت خافت :

« ربما تعرفون ايتسيك ؟ »

وخيم السكون على الحلقة الصغيرة المتحلقة حول الاب ، الذي اصبح فجأة اباً لنا جميعاً . ومن البعيد ، كان يسمع نباح الكلاب فقط ، والرجل العجوز يقول : « هل هنا من يعرف ايتسيك ؟ » . ونحن ، كمن تعود وكسب خبرة ، لعبنا معه تلك اللعبة الفظيعة . من عندنا لم يكن اسرى او مفقودون ، ولذلك فأكيداً ان ايتسيك هذا ليس من عدادنا . ولكننا ، فجأة ، احببنا هذا الرجل حب النفس ، وزدنا في دفء آماله على نار صغيرة . ففي كل فصيل عشرون ايتسيك على الاقل .

وعرف رجلنا اننا نداعبه ، ولكنه لم يكن يستطيع التخلي بهذه السرعة ، واخذ يلعب معنا لعبتنا الكئيبة هذه :

« لربما احد هنا يعرف ايتسيك ؟ »

« اي ايتسيك »

« يتسحاق » .

« يتسحاق ... يتسحاق » كنا نتظاهر باننا نحاول ان نتذكر احداً لم يكن ابداً . قال الاب « لدي صورة له » ، واستل صورة مجعدة لجندي يقف على العشب ويعانق رجلاً متقدماً في السن — وها ، هذا انا . هذا يتسحاق ، وهذا انا ... هذا ايتسيك وهذا ... ايتسيك وانا ... انا وايتسيك .

قلت « لا ، ليس معنا احد كهذا في الفصيل ... » .

قال الاب « اسمحوا لي ، انا لا اتكلم العبرية جيداً . « لا بأس » ، قلنا له .

« انا اجيء من بولونيا بسن غير صغير ، وايتسيك هو كل ما هناك ، والآن لا يوجد ايتسيك . انا اذهب بالجنود واسأل ربما احد هنا يعرف ايتسيك . هو كان قائداً على دبابة ولا يعرفون اين هو ذهب ... وانا بلا ايتسيك ، مـــاذا انا اعمل ؟ لا يمكن ان يكون شاب يختفي هكذا في وسط الحرب ... في الجيش البولوني كان نظام ... »

وسأله احدنا ، « ما اسمك ؟ »

« انا يسمونني الياهو » ، قال الرجل العجوز .

وكنا نلاحظ كيف يصارع دمعة واحدة . ليس بالبكاء ، وانما بدمعة واحدة فقط ، هي كل العجز في هذا العالم . كيف يصنع الناس الحروب ، ووقف اطلاق النار ، والطيارات ، والصواريخ ، ويطيرون الى القمر ، وشيء بسيط الى هذا الحد ، كالعثور على ايتسيك غير ممكن . كيف يمكن ؟

وكنا نحاول مواساته ، نحدثه عن عائلاتنا وعن برامجنا ، ونحضر شاياً آخر .

وهلا اراد ان يأكل .

« انا لا آكل حتى انا اجد ايتسيك » .

الساعة متأخرة ، والبدر الكامل يتناول بخيوطه النخيل العالي . وفرشنا البطانيات المليئة بالبق على الارض الرطبة بين الاشجار ، ودعونا الاب للبقاء معنا ، على ان يواصل بحثه في الغد .

« انا لا انام حتى انا اجد ايتسيك »

برد ، ولف احدهم الرجل بمعطف تركه احد الجرحى هنا . وبصوت خافت شكرنا الرجل على الشاي ، وواصل سيره ، بنفس الخطوات التائهة ، باتجاه الابنية .

« هي » صرخنا له ، « هذه حدود ! اكسر على اليمين ! »

« انا لا اكسر حتى انا اجد ايتسيك »

وعلى الرغم من الاعياء صعب علي الاغفاء في تلك الحفرة التي تعج بالبق وما اليه من الحيوانات المفترسة التي تعقص وتقضم ، خاصة في البطن والوركين . وكنت أُفكر في الياهو فقط ، الذي جاء الينا يبحث عن ابنه الذي فُقد في الحرب . وفكرت في نفسي ، ان ذهب الياهو من موقع الى آخر ، عندنا وعند المصريين ، وعند كل المواقع في العالم ، وسألهم ، جميعاً : « ربما احد هنا يعرف ايتسيك » ؟

لربما يفهمون في النهاية جنون الحرب . واذا وقف كل الآباء الذين ثكلوا ابناءهم سداً حاجزاً بين الحياة والموت وقالوا ، بصوت واحد : لن نتحرك حتى نجد ايتسيك !

الباب

مر نصف ساعة وانا واقف امام الباب .

سقف صغير يقيني المطر الغزير المتساقط على ما حولي .

وبين الفينة والاخرى ، تتسلل نقطة تحت قبتي او على خدي البارد .

« عليك ان تذهب اليها » ، قالوا لي في الفصيل .

قلت « نعم ، اكيداً سأذهب اليها » .

قتل في اليوم الثالث او الرابع من الحرب . ولكن يجدر ان تذهب اليها وتتحدث معها . وعندما كنت هناك ، مع الجميع ، بدا لي الامر سهلاً . تصورت نفسي اجلس على كرسي وثير ، مقابل الموقد ، ارتشف القهوة ، اقص قصصاً ... ولكن عندما وصلت الى البيت ... تل ابيب ... لم اغمض عيناً طوال الليل . التقيتها مليون مرة في احلامي . وكان لها دائماً ذلك الشعر الطويل الاسود . رأيت نفسي اقترب منها واقول لها بمنتهى اللطافة ...

« مرحباً . انا يهونتان . كنت معه »

« تفضل . اجلس . اتشرب شيئاً ؟ »

« نس كافيه ، اذا لم يكن صعباً عليك ... » .

« كم من السكر ؟ »

ثلاث ملاعق . والآن انا اقف امام الباب . وحدي . والشيء الوحيد الذي يشجعني هو المطر . ستار كثيف من نقط الماء بدل كل دمعات العالم . من ناحية ، من ناحية يبدو ذلك بهذه السهولة . تطرق الباب ، مرة او مرتين ... وليلة امس قررت ألا اقرع الجرس بأي شكل . قرع الجرس احتفالي اكثر من اللازم . الاجراس . واما اذا طرقت الباب ... فعندها ... هناك دائماً شيء في الداخل ... واذا فتح لك ... فعندها ...

كان طويل القامة . ليس طويلاً جداً . وعندما خرج من القناة بدا وكأنه بذلك الطول ... وكانت له عينان ... زرقاوين ؟ رماديتين ؟ زرقاوين – رماديتين . وعندما كان يبتسم ... كانتا خضراوين . خضراوين – رماديتين .

ومن الناحية الاخرى ، لم ار في حياتي باباً مقفلاً هكذا . كان ثقيلاً جداً . كأنما سمر الى الحائط من حوله ، وليس من قوة في العالم تستطيع تحريكه على مفاصله . وصليت : يا إلهي ، ألا ينقطع هذا الشتاء ابداً . ان يكون دائماً . كما يدوم البحر ويكون لي مخبأ . ولا اهرب بعد . برد . في الصباح الباكر ، وقفت ساعة طويلة امام دولاب ثيابي المفتوح ، وفكرت فيما ألبس . في البداية فكرت ان احضر ببزة رجال المظلات الى ما هنالك . ولكن بعدها ، فكرت انها قد تحسب انني اجعل من نفسي شيئاً ، ولماذا البزة في وسط تل ابيب . وعندها وجدت قميصاً ابيض من يوم العرس ، وجينز ، لكنه محترم ، ليس مهترئاً ، وكنزة رهيبة ، خضراء تماماً . وكم مشطت شعري ، وحلقت مرتين . والآن اقف هنا ، كالابله ، وحدي بتلك الثياب المضحكة ، ويداي مغروزتان عميقاً في جيبي .

لو طرق احد من داخل البيت ، وكان علي فقط ان افتح له من الخارج ... آه . عندها يكون الامر سهلاً جداً . ولكن كان علي المبادرة ، التجاوز والوقاحة . وماذا استطيع ان اقول لها اساساً ...

« كيف سقط تماماً ؟ »

« انظري ... لم اكن الى جانبه بالضبط ... »

« لا . لا . قص علي بدقة » .

« اصابته ... يعني ... اصابة مباشرة من ار . بي . جي . »

« ما هذا ال ار . بي . جي . ؟ »

« هذا بازوكا ما » .

« ماذا يعني بازوكا ؟ »

« بازوكا ... بازوكا هذا ... تعرفين ، حمل مجوّف » .

« ماذا يعني حمل مجوّف ؟ »

« حمل مجوّف هو ... »

« وهل آلمه ذلك ؟ »

« الآن لا يؤلمه شيء ابداً »

« وماذا قال قبل ان ... ؟ »

« بكى وصرخ ، يا أمي ... كالطفل »

وربما يكون ولداً . ابنه وابنها . له ولها . الاولاد افظع شيء . يسألون اسئلة حقيقية كهذه .

ما هو الله ؟ وانا ابداً اتلعثم ، عندما تشير الي باصبع الاتهام : « هذا العم الذي كان مع ابي في الحرب » .

« ما اسمك ، يا ولد ؟ وكم عمرك ، يا ولد ؟ »

« اين ابي ، يا عم ؟ اين ابي ؟ »

واذا كانت له صورة على الحائط . وهناك من يعلق صوراً كبيرة . بعيون تنظر دون زوغان . وللحظة ، تأزرت بالشجاعة . ألم أجد نفسي في اوضاع اصعب خلال الشهر الماضي ، في الحفر وتحت القصف . وانا اشعر ان بامكاني القيام بذلك . ربما ... ربما علي ان اقضي الامر بسرعة ... كتطهير بيت في منطقة بناء ... أدحرج قنبلة يدوية ثم اهجم ... اطرق قليلاً على الباب وافتح بثقة واقول :

« مرحبا انا يهونتان . كنت معه » .

وعندها ، عندها هبطت عزيمتي . على عتبة البيت شاهدت لوحة خشبية نقش عليها اسمه واسمها ، واسم العائلة . والعيلة الصغيرة ، وفيها إلهي الصغير . قالوا لي ان علي القيام بالزيارة . ولكن ربما لم يكن في البيت احد . ربما ذهبوا الى مكان ما . وانا اقف هنا وحدي مقابل بيت خاو ومظلم ... وحاولت ، بجهد اخير ، الاقتراب من الباب الثقيل . ولكن رجلاي لم تطاوعاني ، والباب يبتعد عني بين لحظة واخرى .

ونظرت الى ساعتي فوجدت انني قد وقفت في مكاني ساعتين . وبدا لي الامر وكأنه ربع ساعة . جبان . قلت لنفسي . خفت في الحفرة وتحت القصف هناك . وانت تخاف الآن ايضاً . عندما كان عليك الدخول . لتقول مرحبا . انا يهونتان كنت

معه . وفجأة لاحظت حركة داخل البيت . لا استطيع تحديدها بالضبط . رفع ستار ، تحريك شباك . ضجة مشوشة وقريبة جداً . ضجة وكأنها وجه ينظر اليك من الشباك .

لا ، لم يكن طويلاً الى هذا الحد ، وليس قصيراً . كان ربعة ، اشقر الشعر . وكانت له عينان زرقاوان او رماديتان ، او رماديتان ـ زرقاوان ، وعندما يضحك كانتا خضراوان ، خضراوان ـ رماديتان .

وبحركة سريعة انحنيت دون الشبابيك وركضت الى داخل المطر الذي بلّني دفعة واحدة .

غسيل الدماغ الاكبر

ست سنوات ابتسموا في ظلال آلات التصوير . ولا يلائمهم اكثر من اسم « حزب العمل » ، لان عملهم فينا كان في الحقيقة واسعاً وجذرياً . غسلوا ادمغتنا ، الى ان بدأنا نصفر « الجسر على نهر كواي » ، حتى في اوج ساعات الاحتفال الكبير . غسلوا أدمغتنا بالماء والصابون ، والصحف ، والراديو ، والتلفزيون . والتلفزيون عندنا لعبة جديدة من صنعهم ، وقد لعبوا فيها حتى النهاية المرة . واكثر قادتنا كارزمية ، الذي كان الى الامس رمز الفظاظة ، وعضو الكنيست المحدود الذي لم يلتفت الى سؤال يوجهه اليه جمهور ناخبيه ، أخذا يزهران عندما وجه اليهما مراسل التلفزيون البائس سؤاله الغبي . وبين عشية وضحاها امتلأت الشاشات بابتسامات مكسري العظام ، الذين يلحسون ملء افواههم الميكروفونات ، والكثيرون منهم في كل عشرين ثانية من إذاعة الهراء للأمة . ست سنوات قاسموا ، على راحتهم ، الشعب الذي يفقد الرفاق ، كي ينظر الى شاشة التلفزيون ساعة اخرى . برامج مملة وطويلة انتجتها الحكومة ، بالاشتراك المهذب لكل ربيب لها . والنقطة البارزة في كل حفلة كهذه ، هي انك ابداً لا تسمع مجموعة الكلمات النادرة : « لا اعلم » . فقد عرفوا كل شيء .

كلمة « سلام » برزت في كل جملة قالها عجوزان كانا يتناقشان في امر مجرد جداً . وذات مرة ، عرّف احد الحكماء الكنيسة الكاثوليكية بانها مكان « يتحدث فيه رجال لم يكونوا قط في الجنة ، الى آخرين لا يمكنهم الوصول الى هناك » . وكذلك ، فعلى شاشة التلفزيون الفاشل عندنا ، بالضغط على زر ، او بلمسة ساحرة ، يظهر اشخاص لم يريدوا السلام الحقيقي قط ليتكلموا الى آخرين لن يكون بمقدورهم التوصل الى سلام كهذا قط . ومرة اخرى ، كان النقاش على الكراسي ، وعلى وظائفهم المريبة فقط . ونحن المراقبين الشباب الابرياء ، لم نعلم انه عندما يحين الوقت سيكون علينا ان نسقط بين تلك الكراسي .

غدا التلفزيون المنوم المغناطيسي في يد المؤسسة الحاكمة ، ومكيدة الخداع العزيزة على « مكسري العظام » الملائمين جداً للتصوير . لان التلفزيون ، مثلي ومثلك ، ملك خاص للحكومة . في العالم الحر هناك ثورة لفتح ابواب الحرية للكلام ، في عصر ماكلوهن لوسائل الاعلام . ولكن وسائل الاعلام عندنا ما زالت دمية في يد الحزب الحاكم ، واجهزتها لا تزود بالمعلومات فحسب ، وانما بالخط الحزبي اساساً ، الذي عن طريقه تتسلل المعلومات المختلفة . وهكذا ، في بلد يعيش على فوهة بركان ، يروجون الاشاعات علناً ، بدلاً من الحديث عن استمرار البقاء بالذات . وتحظى أصغر فضائح ألمافيا في نيوجرسي ، في التلفزيون الاميركي ، بتغطية اوسع مما تحظى به مسألة استمرار بقائنا ، في وسائل اعلامنا . وكما الامر على شاشة التلفزيون ، كذلك هو في الراديو والصحافة . ويتحكم فيها جميعاً خط « الاعلام التربوي » . وفي السنتين الاخيرتين فقط ، شاركت ، على الاقل ، في خمسة مسلسلات هزلية ، كلها حُذفت بعد البرنامج الاول ، بناءً على تعليمات واضحة من الزمرة الحاكمة . وكصاحب زاوية سياسية في صحيفة مسائية ، جوبهت آلاف المرات بالمراقبة المتشددة ، سواء من جانب رؤساء التحرير او من جمهور القارئين المتقدمين بالسن ، والنغمة التي كانت الرقابة تكررها : « ليس هذا هو الوقت الملائم للكلام عن أمور كهذه . ما زالت الجروح مفتوحة . انتظر قليلاً ... » .

من ناحية طبية صرفة ، يجب الاعتناء بكل جرح ، قديم او حديث . ولكن سياسيينا اطباء صغار جداً ، وهم يحبون جراحنا المندملة .

وعلى الشعب الذي يتعهد جراحه ، والذي يغلق ملفاته غير الكاملة بالاختتام ، ان يعلم بانه سيجيء يوم لا يرى فيه احد تلك القطعة من الحرش السليم ، التي خلفها آباء آبائنا في هذه الارض المثخنة بالجراح ، لكثرتها . وكما برزت الولايات المتحدة ، في فضيحة ووترغيت ، وكأنها ديمقراطية مقاتلة ، هكذا برزت دولة اسرائيل — في كل المسائل تقريباً — وكأنها اوليغاركية غافلة يديرها ثلاثي متآمر سرنمي .

ومكسرو العظام، عن طريق وسائل اعلامهم ومؤسساتهم التربوية، « اغتالوا تاريخي » ، اذا جاز استعمال عنوان احد قصائد ديلون توماس . وبدل تضميد الجراح القديمة ، ليتعلموا درساً من عبر الماضي ، فقد انهمكوا كلهم — كما يبدو واضحاً من كل ملحق سبت في الصحف قبل تشرين الاول (اكتوبر) ٧٣ — في المسرحيات ، في المطاعم الفاخرة ، في مستوى المعيشة ، في اسباب تعاطي الشباب للمخدرات ، في العالم السفلي ، وفي من هو اليهودي . وفي البناديق ، ولا تنسوا البناديق . كل شيء ، مع لزوم الصمت عن ذكر الجراح القديمة والمقدسة . وفي الذكرى الخامسة والعشرين لقيام دولة اسرائيل ، أذيعت زاوية يومية من الراديو ، روي فيها كل صباح ، بعد اخبار الساعة التاسعة ، عن حدث رائع جرى « مثل هذا اليوم قبل خمس وعشرين سنة » . وكنت استمع الى تلك الزاوية بفخر ، ثم اشده كل مرة من جديد .

كيف جرى ان اموراً جيدة فقط حدثت في مثل هذا اليوم قبل خمس وعشرين سنة .

لماذا لا يشركوننا بالمصائب ؟

ما الذي اغتال تاريخي ؟

وهكذا ، في اواخر ١٩٧٣ . بدا الجمهور الاسرائيلي على صورة تلفزيونه ومثاله . فهو يمعن النظر في برامجه . ويشتاق اليه ليل نهار . ذلك الصندوق المربع المقعر . الممل حتى الموت . المتوهج في ظلمة الليل بضوئه الازرق الفاتح الذي ينم عن اكتفاء ذاتي .

« قبل ان تطفأ كل الانوار ... »

« نحن لا نسأل . اننا نعرض عنهم ... « لماذا لا نشاهد ، هذا ليس ذنبي ... »

هذا كان . طبعاً ، ذنبك . ولكن لا بأس . الزمن يضغط . الموت ينتظر حتى نحن . لدينا احلام بالاستمرار . الامل الاكثر بياضاً . وعلينا ان نتابع البحث قبل ان تطفأ جميع الانوار . فليكن النجاح حليفكم . ايها الخاسرون . والله يباركم جميعاً . حافظوا على انفسكم . والى اللقاء ... »

(دلتون طرومبو . يناير ١٩٧٠)

مظلي ملتحٍ يشاهـــد تل ابيب من اعلى . من خلال نافذة طائرة النقل . ويرى الاضواء الكاذبة لآلاف اللافتات تعلن عن اطيب المآكل ، وعن الفنادق المريحة ، وعن الافلام السينمائية في عشرين زاوية من المدينة الكبيرة . وفجأة ، بينما الطائرة ترخي عجلاتها استعداداً للهبوط على المدرج ، يبدو الضوء كاذباً اضعافاً مضاعفة . ضوء عنيف يبهر العيون . ويعرف الجندي بانه لا مجال له للبكاء في هذه الحفلة . وللحظة يتمنى ان تطفأ الاضواء . ويصلي لأن تعيد الطائرة عجلاتها الى بطنها وتعود على اعقابها الى ساحة الحرب . فهناك يستطيع ان يجلس على كثبان الرمل ، بين اصدقائه ، الاموات منهم والاحياء ، وكذلك بين اولئك الذين لم يقرروا بعد . ويبكي بين اكوام الحديد المحروق . ولكن الطائرة هبطت بضجيج محركاتها ، وقذفت من جوفها فصائل المظليين الى الرصيف العسكري البارد قبالة المدينة الكبيرة . ويثير الدهشة انهم لا يسارعون الى بيوتهم كما يمكن التصور ، ولا يهرولون الى عائلاتهم ، والى اللافتات البراقة ، والى كل ما كانوا يقاتلون من اجله .

لا ، لا يا سيدي ، هم لا يسارعون . ففي حركة بطيئة ، مثقلين بحقائبهم فوق ظهورهم ، وبخطوات موزونة ، يقتربون من المدينة الكبيرة المضاءة . يمدون ايديهم الطويلة ويودعون بعضهم بحرارة . وفجأة تتعاقد نظرات يصعب عليها الفراق ، والقصص التي بقيت في تلك العيون لا نستطيع ان نرويها لاحد ، وحتى لزوجاتنا . وحتى لانفسنا ، والذي مات فينا . لا نستطيع اقتسامه مع اي مخلوق حي .

انا جالس اتأمل البحر . ولكني أريد ان اعمل شيئاً . اتخذ موقفاً . رأيت بالامس صحافياً مفعماً بالسرور يسير ببزته العسكرية في منحدر من الطريق . لم يترك تل أبيب طوال الحرب . وهو يحسب اننا انتصرنا . والذين يقاتلون . حتى في اكثر الحروب مجداً . دائماً خاسرون . ولكن ، هناك على الدوام ، من يلحس الصحون . ويمشي كالمنتصر بين الجالسين حداداً . وتعود المياه الى مجاريها . ويحكم المسؤولون عن النكبة على انفسهم في تلفزيونهم . ورئيسة الحكومة ، التي قادت الجوقة ، تعين لجنة تحقيق لها وتعاقب المسؤولين .

وها هو الجنرال الاول ، قد استعاد طمأنينته واستل سيجاره الاول . وبعده ، في جوقة دخان ، استل بقية الجنرالات سيجاراتهم السمينة ، وبدأوا يتناقشون حول من انتصر اكثر . وبعد فترة قصيرة تجيء انتخابات . والحسناوات و « قبضايات » العالم السفلي قد تعلقوا بأهداب كبار الضباط . والوضع الامني بدأ يتحسن . كأن شيئاً لم يتغير . ودونك الاحصنة العجائز تريد انتخاب انفسها مرة اخرى . كما اعتادت . وان تملأ كراسيها باردافها القديمة الجيدة . والحرب ؟ لربما يفعلون بها كما فعلوا بجميع الحروب القديمة . يغلقون عليها في ملفات في ارشيف جروحنا القومية الملتهبة .

الحرب لم تنته . ولكن شعراء الارامل بدأوا يكتبون الاوصاف الزاهية الالوان لذلك الحزن المعربد . وكتب ذلك الشاعر قصيدة جديدة :

« انني اعدك ، يا ابنتي الصغيرة ان هذه ستكون آخر الحروب .

ربما حربك الاخيرة .

ليس حربي

لانني الآن فقط بدأت أُحارب . وقد وعدت تسيفتسف . ويوآب . وليكي . وميخا ، وتسيحي . والمئات من الاصدقاء . انا سأُقاتل من اجل حقي في الحياة . من اجل ارض . الحياة فيها اهم من كل اشعار شعراء القصر . ارض . ما اجمل الحياة من اجلها . يوماً بيوم . وساعة بساعة . انا ذاهب لاجمع كل الذين يريدون التأمل في البحر . واطلب منهم ان يأتوا معي الى حيث الاضواء المتوهجة . وان يصرخوا معي بين القبور والدموع . وقبل ان تطفأ كل الاضواء : لن نسقط بعد بين كراسيكم .

قبل ان يطفئوا جميع الاضواء . قبل ان يبدأوا التحقيق مع انفسهم . ليبرئوها ويغسلوها من كل عيب . قبل ان تفقد كلمة « سلام » كل معانيها الرائعة التي كانت لها قبل سنوات كثيرة . تعالوا جميعاً نذهب الى شاطىء البحر .

تعالوا نريهم اننا ما زلنا احياء ولو قليلاً .

يهونتان غيفن

فهرست المحتويات